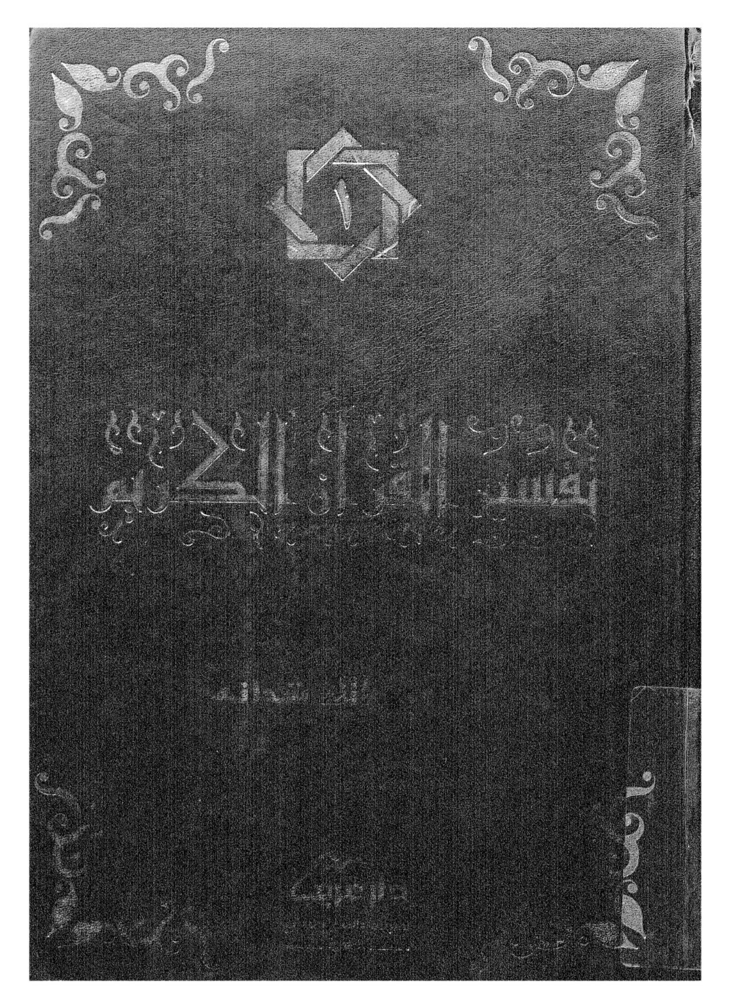

تفسير القرآن الكريم



إهـــــــداء2005

أ.د عبد الله شحاتة

القاهرة

تفسير القرآن الكريم

الجزء الأول من القرآن الكريم

الدكتور

عبد الله شحاته





تفسير القرآن الكريم

تأليف
دكتور عبد الله محمود شحاتة
أستاذ بكلية دار العلوم
جامعة القاهرة



الـكـتــاب : تفسير القرآن الكريم «الجزء الأول»

المؤلــــف : د / عبد الله محمود شحاته

رقـم الإيـداع : ٤٦٧٠

تـاريـخ الـنشـر : ٢٠٠٠

الترقيم الدولى : I. S. B. N. 977 - 215 - 326 - 0

الـنــاشــر : دار غـريـب لـلـطـبـاعـة والـنشـر والـتـوزيـع

شركة ذات مسئولية محدودة

الإدارة والمطابع : ١٢ شارع نوبار لاظوغلى (القاهرة)

ت : ٣٥٤٢٠٧٩ فاكس ٣٥٥٤٣٢٤

الـتــوزيــع : دار غريب ٣،١ شارع كامل صدقى الفجالة – القاهرة

ت ٥٩٠٢١٠٧ – ٥٩١٧٩٥٩

إدارة التسويق والمعرض الدائم } ١٢٨ شارع مصطفى النحاس مدينة نصر – الدور الأول

ت ٢٧٣٨١٤٢ – ٢٧٣٨١٤٣



مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسل الله، وعلى خاتمهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحبه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد :

هذا تفسير القرآن الكريم، أقدمه إلى أمتنا العربية والإسلامية، آملا أن نجد فيه الهدى والرشاد وصلاح الدنيا والآخرة.

وقد طبعتْ دار المعارف بالقاهرة الأجزاء الأولى منه من ١-٦، ثم نفدت هذه الأجزاء.

ورغب القرَّاء فى إعادة الطبع، فسارعتُ إلى قراءة التفسير مرة أخرى، وأضفت إليه ما رأيته لازما؛ ونقلت التعليق والتوضيح ، وتخريج الأحاديث النبوية الشريفة، والإشارة إلى المراجع والمصادر، من هامش الصفحات؛ إلى آخر كل جزء من أجزاء القرآن الكريم؛ وآمل أن يجد فيه لقارئ ما يفيد وينفع إن شاء الله.

وقد عرضتُ على دار غريب للطباعة والنشر، أن تقوم بنشر هذا التفسير، فقامت بإعادة الطبع والنشر على أكمل وجه.

وسنتابع - إن شاء الله - تقديم الأجزاء التالية من القرآن الكريم؛ حتى يتمّ تفسير المصحف الشريف كاملاً، بمشيئة الله وعونه، والله ولى التوفيق.

وهو حسبنا ونعم الوكيل، وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

د. عبد الله شحاتة

القاهرة فى ٢٤ رجب ١٤٢٠ هـ الموافق ١٩٩٩/١١/٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

الأزهــــر مجمــع البحــوث الاســـــلامية الادارة العـــــامة للبحـــوث والتـــأليف والترجمــــة	AL-AZHAR ISLAMIC RESEARCH ACADEMY GENERAL DEPARTMENT For Research, Writting & Translation

السيد الاستاذ / دار غريب للطبع والنشر والتوزيع بالقاهـــــــــــرة

السلام عليكم ورحمة الله وبركاتـــــه ... وبعـــــــد

فبناء على الطلب الخاص بفحص ومراجعة (تفسير القرآن الكريم الجــــــزء الأول من الفاتحــــة إلى الآيـــة ١٤١ من سورة البقـــــرة)

تأليـــــف الدكتور / عبد اللـــــه محمـــود شحاتـــــــــة

نفيد أنــه بمراجعــة النص القرآنــى تبيـــن أنــه سليـــم فى جوهر القرآن الكريم ولا مانـــــع من نشــــره وتداولـــــــــه

مع التأكيــد على ضرورة العنايــة التامــة بكتابــة الآيات القرآنيــــة والأحاديـــــث النبويـــــة الشريفـــــــــــــة .

واللــــــه الموفـــــــق

والسلام عليكم ورحمــة اللـــــه وبركاتـــــــه

تحـريرا فــى :ــ ٦ / ٧ / ١٤١٩ هـ ٢٦ / ١٠ / ١٩٩٨ م عـــــلى	مـديـر عــام البحوث والتأليف والترجمـة " شكرى محمد أحمد فــرج ٩٨/١٠/٢٨



مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم المرسلين، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

روى الترمذى عن الحارث الأعور عن على بن أبى طالب- رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول :

« ألا إنها ستكون فتنة ، فقلت : ما المخرج منها يا رسول الله ؟

قال : كتاب الله - تعالى - فيه نبأ ما كان قبلكم، وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبَّار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الردِّ ولا تنقضى عجائبه، وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ . (الجن١) من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم » (١).

أما بعد :

فقد أنزل الله القرآن على النبى - صلى الله عليه وسلم - فى ثلاث وعشرين سنة هى مدة رسالته المباركة، ثلاثة عشر عامًا قبل الهجرة، وعشر سنوات بعد الهجرة.

وكان الصحابة عربًا خلصا يفهمون القرآن الكريم ، ويدركون أهدافه ومراميه ويعيشون حياتهم فى كنف القرآن، وامتثال ما يدعو إليه.

ولذلك كانت حاجتهم إلى التفسير غير كبيرة، لأن حياتهم كانت تطبيقًا عمليًا لأمر القرآن ونهيه. سُئلت عائشة- رضى الله عنها - عن أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم - فقالت : كان خلقه القرآن (٢).

وكان الصحابة إذا أشكل عليهم معنى من المعانى سألوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم- عنه فيوضحه ويبينه لهم قال - تعالى - : وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ . (النحل ٤٤)

وفى عهد الصحابة اتسع التفسير نسبيًا ، وكان المسلمون إذا رغبوا فى توضيح آية، أو تفسير أمر غامض لجأوا إلى علماء الصحابة بالتفسير مثل أبى بكر وعمر وعثمان وعلى، وزيد بن ثابت، وعبدالله بن عباس، وعبد الله بن مسعود، ومعاذ بن جبل- رضى الله عنهم- أجمعين.

وكان عصر الصحابة امتدادًا لعصر الرسول الأمين؛ فالقرآن وحى السماء وتشريع الله للناس، وأحكام القرآن مطبَّقة، وآدابه وهديه نموذج يُقتدى به.

ولما جاء عصر التابعين، انتشر الإسلام واتسعت الأمصار وتفرقت الصحابة فى الأقطار، وحدثت الفتن واختلفت الآراء وكثرت الفتاوى والرجوع إلى الكبراء، فأخذوا فى تدوين الحديث والفقه وعلوم القرآن.

ومن أول ما دوَّنوه من العلوم «التفسير»، ومن أقدم التفاسير «تفسير أبى العالية رفيع بن مهران الرياحى» المتوفى سنة ٩٠هـ ، «ومجاهد بن جبر» المتوفى سنة ١٠١هـ ، ثم تفسير «عطاء بن أبى رباح» المتوفى سنة ١١٤هـ.

وقد انقسمت جماعة المفسرين إلى ثلاث مدارس.

الأولى : مفسرو مكة المكرمة، وهم تلاميذ عبد الله بن عباس.

الثانية : مفسرو الكوفة ، وهم تلاميذ عبد الله بن مسعود.

الثالثة : مفسرو المدينة، وهم أصحاب زيد بن أسلم.

وفى عصر تابعى التابعين اتجهت الهمم إلى جمع ما أثر من التفسير عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعن صحابته وعن التابعين بدون تفرقة بين المدارس الثلاث التى امتازت فى عصر التابعين بروايات مخصوصة.

فدوَّنوا علم التفسير فى الكتب الصغار والكبار، وصارت كتبهم أجمع للعلم من الكتب السابقة.

واشتهر من بينهم مقاتل بن سليمان البلخى المتوفى سنة ١٥٠هـ.

وسفيان الثورى المتوفى سنة ١٦١هـ.

ووكيع بن الجراح المتوفى سنة١٩٧هـ.

وعبد الرزاق بن همام الصنعانى المتوفى سنة ٢٠٧هـ. وغيرهم. وقد ضاع أكثر هذه التفاسير.

ولكن مضمون هذه التفاسير قد نقله محمد بن جرير الطبرى (المتوفى سنة ٣١٠هـ) صاحب التفسير الكبير المتداول بين الناس الآن.

قال السيوطى : (وكتابه أجل التفاسير وأعظمها فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال، وترجيح بعضها على بعض، والإعراب والاستنباط ، فهو يفوق بذلك على تفاسير الأقدمين).

وقال النووى : أجمعت الأمة على أنه لم يصنف فى التفسير مثل تفسير الطبرى.

التفسير النقلى والعقلى :

كان جمهور الصحابة والتابعين وتابعيهم يتحرون التفسير بالمأثور. بل كان منهم من يفضل المشى فى النار على القول فى القرآن بالرأى.

وكان ابن جرير الطبرى يورد المأثور من الأقوال فى الآية، ويرجح بعضها على بعض وغالبًا ما يعتمد فى الترجيح على قوة السند، وقد أنكر بشدة على من فسر القرآن برأيه بدون اعتماد على شىء إلا على مجرد اللغة.

وقد انقسمت كتب التفسير إلى نوعين رئيسيين:

كتب التفسير بالمأثور، وكتب التفسير بالمعقول.

وقد وقف الناس فى ذلك موقفين وانقسموا فريقين. فقوم تشددوا فى التفسير فلم يروا أن يجرءوا على تفسير شىء من القرآن ما لم يرد فيه قول للنبى – صلى الله عليه وسلم – أو للصحابة كالذى روى عن عبد الله ابن عمر أنه قال : لقد أدركت فقهاء المدينة وإنهم ليعظمون القول فى التفسير، منهم سالم بن عبد الله والقاسم ابن محمد، وسعيد بن المسيب، ونافع ، وفريق آخر لم يجدوا بأسا ولا حرجًا من تفسير القرآن باجتهادهم معتمدين على درايتهم باللغة وأساليبها، وما يتصل بذلك من العلم بأسباب النزول والناسخ والمنسوخ، وقال هذا الفريق : إن الله قد تعبدنا بالنظر فى القرآن واستنباط الأحكام منه. قال تعالى: لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ. (النساء ٨٣).

وما ورد من ذم التفسير بالرأى مقصود به: من تكلم فى القرآن بمجرد رأيه فقد أخطأ.

قال القرطبى : (النهى عن التفسير بالرأى يحمل على وجهين: أحدهما أن يكون له فى الشىء رأى، وإليه ميل من طبعه فيحمل تفسير الآية على هذا الرأى، ولو لم يكن له ذلك الرأى والهوى لكان لا يلوح له من القرآن ذلك المعنى.

أما الوجه الثانى فإنه يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير استظهاره بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن. ومن بادر إلى استنباط المعانى بمجرد فهم العربية كثر غلطه؛ ودخل فى زمرة من فسر القرآن بالرأى، والنقل والسماع لابد منهما لمن أراد التفسير، أولاً ليقى بهما موضع الغلط، ثم بعد ذلك ليتسع الفهم والاستنباط).

ونرى أن البون غير شاسع بين التفسير النقلى والعقلى، فالمفسر لا غنى له عنهما: إذ إنه مطالب بمعرفة تاريخ التشريع، وأسباب النزول، ومعرفة المكى والمدنى، والناسخ والمنسوخ، وما أثر عن السلف فى تفسير الآية، ثم هو مطالب باستخدام العقل والرأى إذا لم يجد أثرا فى الآية أو وجد أثرًا معلولا أو مضطربًا.

ويعتبر ابن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠هـ شيخ المفسرين وإمامهم، من الرواد الأوائل فى التفسير، وقد جمع فى تفسيره بين النقل والعقل.

بل إن الطبرى أهم مرجع فى التفسير النقلى، ومع ذلك يعتبر مرجعًا عظيم الأهمية من مراجع التفسير العقلى نظرًا لما فيه من الاستنباط وتوجيه الأقوال، واختيار أوّلاها بالصواب اختيارًا يعتمد على صحة السند، كما يعتمد على النظر العقلى والبحث الحر الدقيق، فهو قد احتكم إلى الشعر القديم بشكل واسع، متبعًا فى هذا ما أثاره ابن عباس سابقًا، كما اهتم بالمذاهب النحوية، والأحكام الفقهية وبعض مسائل علم الكلام.

التفسير فى دور التخلف:

كما أن الصحيح يأكل الطعام فيزداد قوة، فإن المريض يأكل الطعام فيزداد مرضًا.

وفى عهد التقليد والجمود تحول التفسير إلى مماحكات لفظية أو بحوث قواعد النحو والإعراب أو البلاغة والبيان، أو آراء الفرق والرد عليها، وغير ذلك من الاصطلاحات والفنون التى تصرف الناس عن هدى القرآن إلى ما كتبه المفسرون من علوم وفنون.

أنواع التفسير :

يمكن أن نقسم التفسير إلى نوعين على وجه الإجمال:

أحدهما : تفسير جاف لا يتجاوز حل الألفاظ، وإعراب الجمل، وبيان ما يحتويه نظم القرآن من نكات بلاغية وإشارات فنية، وهذا النوع أقرب إلى التطبيقات العربية منه إلى التفسير، وبيان مراد الله من هداياته.

والنوع الثانى : تفسير يجاوز هذه الحدود، ويجعل هدفه الأعلى تجلية هدايات القرآن وتعاليم القرآن أو حكمة الله فيما شرع للناس هذا القرآن على وجه يجتذب الأرواح ويفتح القلوب، ويدفع النفوس إلى الاهتداء بهدى الله .

وهذا هو الخليق باسم التفسير، وفائدة هذا التفسير هى التذكير والاعتبار ومعرفة هداية الله فى العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق، ليفوز الأفراد والجماعات بخير الدنيا و الآخرة.

مع القرآن الكريم :

إننا بحاجة إلى أن نستهدى القرآن الكريم غضا طريا كما أنزله الله من السماء هدى ونورًا، وشفاء ورحمة ويهدى للتى هى أقوم، ويبشر العاملين، ويحذر الغافلين، ويأخذ بيد الحيارى ليكشف لهم جوانب الخير ونوازع الشر.

وفى حاجة إلى معرفة ما أثر عن سلفنا الصالح من تفسير لكتاب الله وفهم لآياته، فعليهم أنزل، وقد قال الأئمة : ينبغى أن يُفهم القرآن من خلال اللغة التى كان الناس يتخاطبون بها وقت نزوله.

لقد تفاعلوا بهذا الكتاب وتسابقوا إلى حفظه وفهمه والعمل بآياته وأحكامه فأحلوا حلاله وحرموا حرامه والتزموا بآدابه وصاروا بالقرآن أمة وسطا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله. دفعهم هذا الإيمان إلى أن يجودوا بالنفس والنفيس، وأن يتحرروا من سلطان الهوى، وأعطاهم القرآن مفاتيح الأرض، ففتحوها وحققوا فيها العدل والهدى والخير والأمان والإيمان.

ونحن بحاجة إلى الاستفادة من تراث البشرية وتقدم علومها وفنونها.

إن المنهج الإلهى ليس عدوًّا للإبداع الإنساني، إنما هو منشئ لهذا الإبداع وموجه له الوجهة الصحيحة، وذلك كى ينهض الإنسان بمقام فى الأرض، هذا المقام الذى منحه الله له، وسخر له من القوانين الكونية ما يعينه على تحقيقه، ونسق بين تكوين هذا الكون ليملك الحياة والعمل والإبداع، على أن يكون الإبداع نفسه عبادة لله ، ووسيلة من وسائل شكره على آلائه العظام.

هذا التفسير:

فى ضوء كتاب الله ، ووحى السماء إلى الأرض ..

فى ضوء التفسير المأثور وما صح نقله عن سلفنا الصالح.

فى ضوء المنجزات العلمية وتجارب البشرية وخبراتها وعلومها وفنونها النافعة.

نحاول أن نقدم هذا التفسير للقرآن الكريم، راجين أن يهدينا الله إلى الطريق القويم والصراط المستقيم.

رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا

ترتيب سور القرآن الكريم

نزل القرآن الكريم فى ثلاث وعشرين سنة، هى مدة الرسالة المحمدية، منها ثلاثة عشر عامًا فى مكة، وعشر سنوات فى المدينة.

وما نزل من القرآن فى مكة يسمى بالقرآن المكى، وما نزل بالمدينة يسمى بالقرآن المدنى، وعدد سور القرآن ١١٤ سورة باتفاق، منها ٨٥ سورة نزلت بمكة، ٢٩ سورة نزلت بالمدينة.

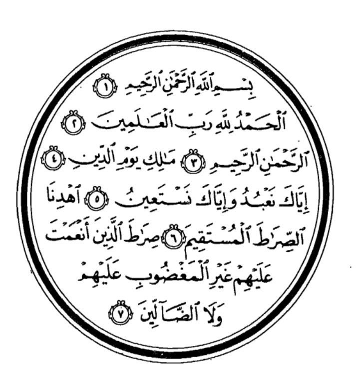
ترتيب السور المكية

١ - اقرأ باسم ربك	٢٣ - عبس	٤٥ - الواقعة	٦٧ - الغاشية
٢ - ن	٢٤ - القدر	٤٦ - الشعراء	٦٨ - الكهف
٣ - المزمل	٢٥ - الشمس	٤٧ - النمل	٦٩ - النحل
٤ - المدثر	٢٦ - البروج	٤٨ - القصص	٧٠ - نوح
٥ - المسد	٢٧ - التين	٤٩ - الإسراء	٧١ - إبراهيم
٦ - التكوير	٢٨ - قريش	٥٠ - يونس	٧٢ - الأنبياء
٧ - الأعلى	٢٩ - القارعة	٥١ - هود	٧٣ - المؤمنون
٨ - الليل	٣٠ - القيامة	٥٢ - يوسف	٧٤ - السجدة
٩ - الفجر	٣١ - الهمزة	٥٣ - الحجر	٧٥ - الطور
١٠ - الضحى	٣٢ - المرسلات	٥٤ - الأنعام	٧٦ - الملك
١١ - الشرح	٣٣ - ق	٥٥ - الصافات	٧٧ - الحاقة
١٢ - العصر	٣٤ - البلد	٥٦ - لقمان	٧٨ - المعارج
١٣ - العاديات	٣٥ - الطارق	٥٧ - سبأ	٧٩ - النبأ
١٤ - الكوثر	٣٦ - القمر	٥٨ - الزمر	٨٠ - النازعات
١٥ - التكاثر	٣٧ - ص	٥٩ - غافر	٨١ - الانفطار
١٦ - الماعون	٣٨ - الأعراف	٦٠ - فصلت	٨٢ - الانشقاق
١٧ - الكافرون	٣٩ - الجن	٦١ - حم عسق	٨٣ - الروم
١٨ - الفيل	٤٠ - يس	٦٢ - الزخرف	٨٤ - العنكبوت
١٩ - الفلق	٤١ - الفرقان	٦٣ - الدخان	٨٥ - المطففون
٢٠ - الناس	٤٢ - فاطر	٦٤ - الجاثية	
٢١ - الإخلاص	٤٣ - مريم	٦٥ - الأحقاف	
٢٢ - النجم	٤٤ - طه	٦٦ - الذاريات	

ترتيب السور المدنية

١ - البقرة	١٢ - الإنسان	٢٣ - الجمعة
٢ - الأنفال	١٣ - الطلاق	٢٤ - التغابن
٣ - آل عمران	١٤ - البينة	٢٥ - الصف
٤ - الأحزاب	١٥ - الحشر	٢٦ - الفتح
٥ - الممتحنة	١٦ - النصر	٢٧ - التوبة
٦ - النساء	١٧ - النور	٢٨ - المائدة
٧ - الزلزلة	١٨ - الحج	٢٩ - فاتحة الكتاب
٨ - الحديد	١٩ - المنافقون	
٩ - محمد ﷺ	٢٠ - المجادلة	
١٠ - الرعد	٢١ - الحجرات	
١١ - الرحمن	٢٢ - التحريم	

تفسير سورة الفاتحة


بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

سورة الفاتحة

وتسمى سورة الفاتحة لأن الله عز وجل افتتح بها كتابه ، ولأن المسلم يفتتح بها الصلاة . وقيل لأنها أولُ سورة نزلت من السماء ، فأول آيات نزلت من السماء هي الآيات الأولى من سورة اقرأ ، وأول سورة نزلت من السماء هي سورة الفاتحة.

وتسمى سورة الحمد ، وأم الكتاب ، وأم القرآن ، لأنها أصل القرآن، أو لأنها أفضل سورة فى القرآن، فقد اشتملت على أصول العقيدة وعلى الأهداف الأساسية للقرآن ، ففيها الثناءُ على الله وتعظيمُه ودعاؤه ..

وتسمى **الشافية** لأن فيها شفاءً ودواء.

وتسمى **الصلاة** ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تعالى: قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين » [٣] .

يبدأ المؤمن قراءة الفاتحة بقوله أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم . وتعرف الجملة الأولى بالاستعاذة وتعرف الثانية بالتسمية أو البسملة .

وقد أمر الله بالاستعاذة عند أول كل قراءة فقال فى سورة النحل المكية : فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ . (النحل ٩٨) ، وإنما خصت القراءة بطلب الاستعاذة ، لأن القرآن مصدر هداية والشيطان

مصدر ضلال فهو يقف للإنسان بالمرصاد فى هذا الشأن على وجه خاص ، فعلمنا اللّه أن نتقى كيده وشره بالاستعاذة .

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

هى بداية مباركة لسور القرآن ولكل عمل يعمله الإنسان ، فيتجرد من حوله وقوته ، ويبارك العمل باسم اللّه وبركة اللّه وقدرته .

وقد تكلم المفسرون كثيرا فى معنى البسملة وفى علاقة بعض ألفاظها ببعض، قال بعضهم : معنى بسم اللّه : بدأت بعون اللّه وتوفيقه وبركته ، وهذا تعليم من اللّه لعباده ليذكروا اسمه عند افتتاح القراءة وغيرها حتى يكون الافتتاح ببركة اسمه عز وجل (٤) .

وقال الإمام محمد عبده : إنها تعبير يقصد به الفاعلُ إعلانَ تجرده من نسبة الفعل إليه ، وأنه لولا من يُعنَون الفعل باسمه لما فعل ، فهو له وبأمره وإقداره وتمكينه ، فمعنى أفعلُ كذا باسم فلان ، أفعله معنونًا باسمه ولولاه ما فعلته .

قال الأستاذ الإمام : وهذا الاستعمال معروف مألوف فى كل اللغات ، وأقربه ما يرى فى المحاكم النظامية حيث يبتدئون الأحكام قولاً وعملاً وكتابة باسم السلطان أو الخديوى فلان .

الْحَمْدُ لِلَّهِ : الحمد هو الثناء بالجميل على واهب الجميل ، و : لِلَّهِ . علم على الذات الأقدس ، واجب الوجود، ذى الجلال والإكرام ، وهى جملة خبرية معناها الشكر للّه ، وفيها عرفان للّه بالفضل والمنة كما ورد فى الأثر : « يا ربى لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك » .

وفى الفتوحات الإلهية (٥) : الْحَمْدُ لِلَّهِ : الشكرُ للّه المعبود للخواص والعوام ، المفزوع إليه فى الأمور العظام، المرتفع عن الأوهام ، المحتجب عن الأفهام ، الظاهر بصفاته وآلائه للأنام.

رَبِّ الْعَالَمِينَ : الربُّ هو المالك المتصرف ، ويطلق فى اللغة على السيد وعلى المتصرف للإصلاح والتربية.

والمتصرف للإصلاح والتربية يشمل بربوبيته العالمين – أى جميعَ الخلائق، قال فى تفسير الجلالين : «أى مالكُ جميع الخلق من الإنس والجن والملائكةِ والدواب وغيرهم ، وكلٌّ منها يطلق عليه عالَم ؛ يقال عالم الإنس وعالم الجن إلى غير ذلك » .

واللّه سبحانه لم يخلق الكون ثم يتركْه هملا، إنما هو يتصرف فيه بالإصلاح ويرعاه ويربيه ، وكل العوالم تحفظ وتتعهد برعاية رب العالمين .

والصلةُ بين الخالق والخلائق دائمةٌ ممتدة فى كل وقت وفى كل حالة.

لقد حكى القرآن عقائد المشركين وصور التخبط الذى كان يحيط بالبشرية فى الجاهلية فمنهم من اتخذ أصنامًا يعبدها من دون اللّه ، ومنهم من جعل الآلهة المتعددة رموزًا للذات الإلهية وقالوا : مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى . (الزمر ٣). وقال القرآن عن جماعة من أهل الكتاب : اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ . (التوبة ٣١).

وكانت عقائدُ الجاهليات السائدةِ فى الأرض كلِّها يوم جاء الإسلام ، تعج بالأرباب المختلفة ، بوصفها أربابا صغارا تقوم إلى جانب كبير الآلهة كما يزعمون .

جاء الإسلام وفى العالم ركامٌ من العقائد والتصورات والأساطير والفلسفات والأوهام والأفكار .. يختلط فيها الحقُّ بالباطل ، والصحيحُ بالزائف ، والدينُ بالخرافة ، والفلسفةُ بالأسطورة .. والضمير الإنسانى تحت هذا الركام الهائل يتخبط فى ظلمات وظنون ولا يستقر منها على يقين .

ومِن ثمَّ كانت عنايةُ الإسلام الأولى موجهةً إلى تحريرِ أمر العقيدة ، وتحديدِ التصور الذى يستقر عليه الضمير فى أمر اللَّه وصفاته ، وعلاقته بالخلائق وعلاقة الخلائق به على وجه القطع واليقين .

وكان من رحمة اللَّه بالعباد إنقاذهُم من الحيرة وإخراجُهم من الضلال إلى الهدى بهذا الدين الحنيف بما فيه من جمال وبساطة ، ووضوح وتناسق وسهولة ويسر ، وتجاوب مع الفطرة .

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : الرحمن صفة ذاتية هى مبدأ الرحمة ، الرحيم صفة فعل تدل على وصول الرحمة والإحسان وتعدِّيهما إلى المنعَم عليه .

ونلاحظ أن الرحمن لم تذكر فى القرآن إلا مُجْرَى عليها الصفات ، كما هو شأن أسماءِ الذات .

قال تعالى : الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ . ، . الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى . أما الرحيم فقد كثر استعمالها وصفًا فعليًّا ، وجاءت بأسلوب التعدية والتعلق بالمنعَم عليه. قال تعالى : إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ. و .وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً. و . وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . كما جاءت الرحمة كثيرًا على هذا الأسلوب. وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ .

فالرحمن اسم اللَّه يدل على قيام الرحمة بذاته سبحانه ، والرحيم صفة تدل على وصول هذه الرحمة للعباد .

تقول فلان غنى بمعنى أنه يملك المال ، وفلان كريم بمعنى أنه ينقل المال إلى الآخرين .

ورحمةُ اللَّه لا حد لها ، فهو الذى خلقهم وأوجدهم وسخر لهم الكون كلَّه وأمدهم بنعمه التى لا تعد ولا تحصى ، ثم هو يفتح بابه للتائبين ويعطى السائلين ، ويجيب دعاء الداعين . قال تعالى: وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُم يَرْشُدُونَ . (البقرة ١٨٦) .

وإن واجبنا أن نغرس فى أبنائنا محبة اللَّه ، وأن نعودهم على عبادته حبًّا له ، واعترافًا بفضله وإحسانه ، وذلك هو منهج الإسلام ، فإن الرب فى الإسلام لا يطارد عباده مطاردة الخصوم والأعداء ، كآلهة الأولمب فى نزواتها وثوراتها ، كما تصورها أساطير الإغريق ، ولا يدبر لهم المكائد الانتقامية كما تزعم الأساطيرُ المزورة فى العهد القديم، كالذى جاء فى أسطورة برج بابل فى الإصحاح الحادى عشر من سفر التكوين .

فاللَّه فى الإسلام رحمن رحيم ، ليس مولعا بالانتقام والتعذيب . وإن بعض الناس يحلو لهم أن يصوروا الإله منتقما جبارًا لا همَّ له إلا تعذيبَ الناس وإلقاءهم فى نار جهنم ، وهى نَغمةٌ نابية عن روح الإسلام ، غريبة عن نصوصه وتشريعاته السمحة قال تعالى : يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ . (البقرة ١٨٥) .

مالك يوم الدين ، فى قراءة مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ .

أى إن الله هو المالك المتصرفُ يوم القيامة ، فالناس فى الدنيا يملكون ويحكمون ويتصرفون ، فإذا كان يومُ القيامة وقف الناس جميعًا للحساب الصغيرُ والكبير، السوقة والأمير ، الوزير والخفير ، الملك والأجير ، كل الناس قد وقفت حفاةً عراة ، متجردين من كل جاه أو سلطان أو رتبة أو منزلة ، وينادى الله سبحانه : لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ؟ فيكون الجواب : لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ .

و يومِ الدِّين . هو يوم الحساب والجزاء ، قال ابن عباس . يَوْمِ الدِّينِ . هو يوم حساب الخلائق ، وهو يوم القيامة يدينهم بأعمالهم إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر ، إلا من عفا عنـــه فالأمر أمـره. قال تعالى : أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ . (الأعراف ٥٤) .

والاعتقاد بيوم الدين كلية من كليات العقيدة الإسلامية وأساس من أسس السعادة والنجاح للفرد والمجتمع.

فالمؤمن عندما يتيقن أن هناك يومًا للجزاء والحساب يدفعه إيمانه إلى مراقبة الله والتزام أوامره واجتناب نواهيه؛ ولهذا فإن التشريعات الإسلامية تأخذ طابعًا مميزًا فى التطبيق ، فإن المؤمن ينفذها راغبًا فى ثواب الله راهبًا من عقابه.

أما التشريعاتُ الوضعيةُ فإن تنفيذَها مرتبط بالخوف من السلطة ، وعندما يتأكد الشخص من بعده عن أعين السلطة فإن هذا يهوِّن عليه ارتكاب المخالفة .

أما القانون الإلهى فإنه مرتبط بسلطة عليا ، لا تغيب ولا تختفى أبدًا، إنها سلطة الله الذى يعلـم السر وأخفى ، ويطلع على الإنسان أينما كان وحيثما وجد . مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . (المجادلة ٧).

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ. لا نعبد إلا أنت ولا نستعين إلا بك . فأنت المستحق للعبادة ، وأنت نعم المولى ونعم النصير .

ومعنى العبادة خضوعٌ لا يحدُّ لعظمة لا تحد ، وهى تدل على أقصى غاياتِ التذلل القلبى والحبِّ النفسى، والفناءِ فى جلال المعبود وجماله فناء لا يدانيه فناء.

هى سعادة المؤمن بأنه يقف بين يدى الله خاشعًا خاضعًا عابدًا متبتلا ، ذاكرًا لآيات الله ، معتزًّا بصلته بالله مناجيًا إلها سميعًا بصيرًا مجيبًا .

والعبادة لله تحرر المؤمن من كل عبودية لغير الله ، لأنه يثق بأن الله هو الخالق الرزاق المعطى المانع ، وأن بيده الخلق والأمر وأن أمره بين الكاف والنون : إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ . (يس ٨٢) .

وإذا صدقت عبودية المؤمن لله تحرر من عبوديته لكل العبيد ، فازداد عزًّا بالله وثقة به واعتمادًا عليه ،

وصار سعيدًا بحياته راضيًا عن سعيه ، واثقًا بأن هناك جزاءً عادلاً فى الآخرة. فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . (الزلزلة ٧، ٨) .

والمؤمن حين يقف بين يدى الله فيقول: إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ . يحس بسعادة أىّ سعادة ، حين يقف وهو المخلوق الضعيف ليخاطب الله القادر بقوله : إِيَّاكَ نَعْبُدُ . فأنا عابد فى محرابك مستعين بك فى أمورى كلّها.

قول عبد الله بن عباس ، وابن جرير الطبرى :

١ - **عن ابن عباس قال :** إِيَّاكَ نَعْبُدُ . إياك نوحِّد ونرجو يا ربنا ونخاف ، و. وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ. إياك نستعين على طاعتك وعلى أمورنا كلها.

٢ - **وقال الطبرى :**

معنى : إِيَّاكَ نَعْبُدُ : لك اللهم نخشع ونذل ونستكين إقرارًا لك بالربوبية لا لغيرك . ومعنى : وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ. وإياك ربنا نستعين على عبادتنا إياك ، وطاعتنا لك فى أمورنا كلّها - لا أحد سواك، إذ كان من يكفر بك يستعين فى أموره بمعبوده الذى يعبده من الأوثان دونك ، ونحن بك نستعين فى جميع أمورنا مخلصين لك العبادة .

اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ .

الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ. هو الطريق الواضح الذى لا اعوجاج فيه ولا انحراف ، وقد كثر كلام المفسرين فى المراد بالصراط المستقيم. قال ابن عباس: الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ. هو الإسلام. وقال الإمام على: الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ: هو كتاب الله تعالى ذكره. وقال أبو العالية: اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ. الصراط هو الطريق ، والمعنى وفقنا إلى طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه من بعده أبى بكر وعمر.

وكل هذه الآراء تلتقى على أن معنى. الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ، هو : جملةُ ما يوصل الناس إلى سعادة الآخرة والدنيا من عقائدَ وآداب وأحكام من جهتى العلم والعمل ، وهو سبيل الإسلام الذى ختم الله به الرسالات السماوية ، وجعل القرآن دستوره الشامل ، ووكل إلى محمد صلى الله عليه وسلم تبليغه وبيانه.

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ.

أى طريق من أنعمت عليهم بطاعتك وعبادتك من الملائكة والنبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين ، الذين أطاعوك وعبدوك .

أو هو طريق السعداء المهتدين الواصلين . قال تعالى: وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ۝٦٦ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ۝٦٧ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٦٨ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ۝٧٠ . (النساء ٦٦ - ٧٠).

غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ. وهم الكافرون، أو كل من غضب الله عليه ، بالسلب بعد العطاء ، أو النكوص بعد الاهتداء.

وَلا الضَّالِّينَ. وهم المنافقون الحائرون المترددون بين إيمانهم الظاهر وكفرهم الباطن ؛ أو هم كل من ضل عن الحق .

طوائف الناس أمام الحق :

تعددت أقوال المفسرين فى بيان معنى المنعَم عليهم ، والمغضوب عليهم، والضالين . والذى نراه:

أن المنعَمَ عليهم : هم المؤمنون الصادقون .

والمغضوب عليهم : هم الكافرون الجاحدون .

والضالين : هم المنافقون الخائنون .

ودليل ذلك ما ورد فى أول سورة البقرة حيث ذكرت السورة أن الناسَ أمام الحق ثلاثة أقسام :

المؤمنون : وقد تحدثت عنهم فى أربع آيات (الآيات ٢ -٥) أولها :

الٓمٓ (١) ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ. (البقرة ١ - ٣) .

والكافرون : وقد تحدثت عنهم السورة فى آيتين (آية ٦ - ٧) من قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ.

والمنافقون : وقد تحدثت عنهم السورة فى ثلاث عشرة آية (الآيات ٨ - ٢٠) تبدأ من قوله تعالى : وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ .

فى أعقاب السورة

جمع اللّه معانى القرآن فى سورة الفاتحة، فقد اشتملت على تعظيم اللّه وحمده والثناء عليه، وهذا هو أصل العقيدة - الإيمان باللّه والاعتقاد أن اللّه يتصف إجمالاً بكل كمال وينزه إجمالاً عن كل نقص .

ففى النصف الأول من الفاتحة ثناء على اللّه بما هو أهله .

وفى النصف الثانى دعاء بالتوفيق والاستقامة على الصراط المستقيم .

فكأن الفاتحة قسمان ؛ قسم يتوجه العبد فيه بالثناء على اللّه ، وقسم يدعو فيه ربه ويطلب لنفسه الصلاحَ والهدى ، وقد ورد فى صحيح مسلم ، عن أبى هريرة عن رسول اللّه - صلى اللّه عليه وسلم-: « يقول اللّه تعالى : قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ، فنصفها لى ونصفها لعبدى ، ولعبدى ما سأل .. إذا قال العبد : الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . قال اللّه: حمدنى عبدى ، وإذا قال : الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ. قال اللّه أثنى علىَّ عبدى ، فإذا قال: مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ. قال اللّه : مجَّدنى عبدى، وإذا قال : إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ.قال: هذا بينى وبين

عبدى ولعبدى ما سأل. فإذا قال : أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ . قال: هذا لعبدى ولعبدى ماسأل ».

ولعل هذا الحديث الصحيح يوضح سر اختيار هذه السورة المباركة ليقرأها المؤمن سبع عشرة مرة فى كل يوم وليلة ، أو ما شاء الله أن يرددها كلما قام يدعوه فى الصلاة .

فكأنها فى الإسلام « **مجمع أشعة** » تنير بضوئها كل شىء وتبسط نورها فى قلب المؤمن فيزداد يقينًا وإيمانًا. وهى نشيد إلهى يردده المؤمن معترفًا لله بالفضل، شاكرًا له جميل نعمه ، مستهديًا إياه إلى الصراط المستقيم .

والنصف الأول من السورة يتعلق **بالعقيدة والفكرة** ، والنصف الثانى يتعلق **بالسلوك والعمل** .

والمتتبع لأهداف القرآن الكريم، الواقف على مقاصده ومعارفه يرى أنه جاء تفصيلاً لما أجملته هذه السورة وحددته من صلاح العقيدة ، واستقامة السلوك.

قال تعالى : إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا . (الإسراء ٩).

وقال صلى الله عليه وسلم : « ليس الإيمان بالتمنى ، ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل »[٦].

وفى صحيح البخارى أن سورة الفاتحة رقية من الداء وشفاء من الأمراض ، فكأنها شفاء حسى ومعنوى ، قال تعالى : وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ. (الإسراء ٨٢) .

من الأدلة على وجود الله

فى أعقاب سورة الفاتحة

سُئل الإمام الشافعى : بمَ عرفت الله ؟ . قال : بالنحلة نصفها يلسع ونصفها يعسل .

وُسئلت رابعة : بم عرفت الله ؟ . قالت : عرفت ربى بربى ولولا ربى ما عرفت ربى .

وسُئل الحلاج : بم عرفت الله ؟ . قال : بجمعه بين الضدين ، فهو أول وآخر ، وظاهر وباطن ..

وقال قس بن ساعدة الإيادى :

يا معشر إياد : البعرة تدل على البعير ، وخط السير يدل على المسير . سماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، ألا يدل ذلك كله على اللطيف الخبير ؟.

وقال صلى الله عليه وسلم : « أحبوا الله لما يغذوكم به من النعم ، وأحبونى بحب الله ». وقال تعالى : فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن

تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ. (الروم ١٧ - ٢١).

وقال سبحانه : إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ. (آل عمران ١٩٠) .

وقال عز شانه : أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ. (النمل ٦١) .

وقد أمرنا الإسلام أن نتفكر فى خلق الله ولا نتفكر فى ذات الله ، فالعقل البشرى لن يدرك حقيقة الذات الإلهية ولكنه يسلّم بوجودها وإن لم يرها . كما أننا لم نلمس عقولنا وإن شاهدنا آثارها ، وهذا معنى أن الله عرف بالعقل .

وحين يسأل الولد الصغير عن الله .. أين هو ؟ فإن الأمثل فى الإجابة أن تكون تعريفًا للصغير بآثار الله فى خلق السماوات والأرض و البحار والأشجار والشمس والقمر والليل والنهار والإنسان والحيوان والنبات ، وتكوين الجنين ومنحه السمع والبصر والفؤاد والنعَم كلّها : وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ . (النحل ٥٣) .

سأل فرعون نبى الله موسى عن الله ما هو ؟ وما هى ماهيته وذاته ؟ فأجابه موسى عن صفاته وأفعاله : قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ. (الشعراء ٢٣ - ٢٤) .

ولعل الأنسبَ للصغير أن نعرفه نِعَم الله بدلاً من أنْ نقول له كلام العلماء والأصوليين : « إن الله ليس كمًّا ولا كيفًا ولا يحده مكان ولا يحويه زمان وليس جسما ولا حالاً فى جسم وليس له أول ولا آخر ، بل هو منزَّه عن الكم والكيف والطول والعرض ، وكل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك » .

ومن روائع الآيات قوله سبحانه :

لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ. (الشورى ١١) .

لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ . (الأنعام ١٠٣) .

ومن أقوالهم :

هو أول هو آخر هو ظاهر	∴	هو باطن ليس العيون تراه
وفى كل شىء له آية	∴	تدل على انه الواحد
الا كلُّ شَىْءٍ ما خلا الله باطل	∴	وكل نعيم لا محالة زائل

من النظم الدينى

والكون مشحون بأسرار إذا حاولت تفسيرًا لها أعياكا

قل للطبيب تخطفته يد الردى يا شافى الأمراض من أرداكا

قل للسليم يموت لا من علة من بالمنايا يا سليم دهاكا

قل للمريض نجا وعوفى بعد ما عجزت فنون الطبِّ من عافاكا

قل للبصير وكان يحذر حفرة فهوى بها من ذا الذى أرداكا

بل سائل الأعمى يمرُّ فى وسط الزحا م بلا اصطدام من ذا يقود خطاكا

قل للجنين يعيش معزولاً بلا راع ولا مرعى من ذا الذى يرعاكا

واسأل بطون النحل كيف تقاطرت شهدًا وقل للشهد من حلاّكا

الله فى كل الحقائق ماثل إن لم تكن لتراه فهو يراكا

يا منبت الأزهار عاطرة الشذا هذا الشذا الفواح نفح شذاكا

يا مرسل الأطيار تصدح فى الربا صدحاتها إلهام موسيقاكا

يا مجرى الأنهار ما جريانها إلا انفصال قطرة لنداكا

رباه هأنذا خلصتُ من الهوى واستقبل القلب الخلىّ هواكا

وبحثت عن سر السعادة جاهدًا فوجدت هذا السرَّ فى تقواكا

وتركت أنسى بالحياة ولهوها ولقيت كل الأنس فى نجواكا




تفسير سورة البقرة

مقدمة سورة البقرة

سورة البقرة :

سورة البقرة مدنية ، وآياتها ٢٨٦ آية وهى أول سورة نزلت بعد هجرة النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة.

قصة التسمية :

سميت سورة البقرة بهذا الاسم لأنها انفردت بذكر حادثة قتل وقعت فى بنى إسرائيل على عهد موسى - عليه السلام.

واختلف الناس بشأن قاتله ، ثم رفعوا الأمر إلى موسى - عليه السلام - ليحكم فى هذه الجناية التى خفى مرتكبها.

وسأل موسى ربه ؛ فأمرهم أن يذبحوا البقرة ، وأن يضربوا القتيل بلسانها ، فيحيا فيخبر عن قاتله.

وقد أكثر بنو إسرائيل من السؤال عن صفة البقرة ، وشددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم ، ولو ذبحوا أى بقرة فى أول الأمر لكفتهم.

قال - تعالى - : ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ . (البقرة ٧٣) .

الأهداف العامة لسورة البقرة

اشتملت سورة البقرة على الأهداف الآتية :

١ - بيان أصناف الخلائق أمام هداية القرآن ، وقد ذكرت السورة أنهم أصناف ثلاثة: **المؤمنون ، والكافرون ، والمنافقون .**

٢ - دعوة الناس جميعًا إلى عبادة الله ، وذكر أدلة التوحيد ، ومبدأ خلق الإنسان .

٣ - تعرضت السورة لتاريخ اليهود الطويل ، وناقشتهم فى عقيدتهم ، وذكّرتهم بنعم الله على أسلافهم ، وبما أصاب هؤلاء الأسلاف حينما التوت عقولهم عن تلقى دعوة الحق من أنبيائهم السابقين ، وارتكبوا صنوف العناد والتكذيب والمخالفة.

٤ - رسمت صورة واضحة لاستقبال بنى إسرائيل للإسلام ورسوله وكتابه .

لقد كانوا أول كافر به ، وكانوا يلبسون الحق بالباطل ، وكانوا يأمرون الناس بالبر - وهو الإيمان - وينسون أنفسهم ، وكانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه ، وكانوا يخادعون الذين آمنوا بإظهار

الإيمان وإذا خلا بعضهم إلى بعض حذروا أنفسهم من اطلاع المسلمين على ما يعلمونه من أمر النبى وصحة رسالته .

وكانوا يريدون أن يردوا المسلمين كفارًا .. وكانوا يدعون من أجل هذا أن المهتدين هم اليهود وحدهم - كما كان النصارى يدعون هذا أيضًا - وكانوا يعلنون عداءهم لجبريل - عليه السلام - بما أنه هو الذى حمل هذا الوحى إلى محمد دونهم ، وكانوا يكرهون كل خير للمسلمين ، ويتربصون بهم السوء . وكانوا ينتهزون كل فرصة للتشكيك فى صحة الأوامر النبوية ، كما فعلوا عند تحويل القبلة - وكانوا مصدر إيحاء وتوجيه للمنافقين ، كما كانوا مصدر تشجيع للمشركين.

وتنتهى هذه الحملة بتيئيس المسلمين من الطمع فى إيمانهم لهم ، وهم على هذه الحالة الملتوية القصد، كما تنتهى بفصل الخطاب فى دعواهم أنهم وحدهم المهتدون ، بما أنهم ورثة إبراهيم ، وتبين أن ورثة إبراهيم الحقيقيين هم الذين يمضون على سنته ويتقيدون بعهده مع ربه، وأن وراثة إبراهيم قد انتهت إذن إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين به [٧] .

٥ - والنصف الأخير من السورة [٨] يتجه إلى التشريع الإسلامى ، الذى اقتضى أن يكون المسلمون جماعة متميزة عن غيرها فى عباداتها ومعاملاتها وعاداتها .

وقد ذكرت السورة من ذلك القصاص فى القتل العمد ، وذكرت الصيام والوصية والاعتكاف ، والتحذير من أكل أموال الناس بالباطل، وذكرت الأهلة وأنها جعلت ليعتمد الناس عليها فى أوقات العبادة والزراعة وغيرها، وذكرت الحج والعمرة وذكرت القتال وسببه الذى يدعو إليه وغايته التى ينتهى إليها .. وذكرت الخمر والميسر واليتامى ، وحكم الحيض والتطهر منه ، والطلاق والعدة والخلع والرضاع ، وذكرت الأيمان وكفارة الحنث فيها ، وذكرت الإنفاق فى سبيل الله ، وذكرت البيع والربا، وذكرت طرق الاستيثاق فى الديون بالكتابة والرهن .

وكان يتخلل كل ذلك - على طريقة القرآن - ما يدعو المؤمنين إلى التزام هذه الأحكام ، وعدم الاعتداء فيها ، من قصص ووعد ووعيد ، وإرشاد إلى سنن الله فى الكون والجماعات ، ثم تختم سورة البقرة ببيان عقيدة المؤمنين على نحو ما بدأت فى بيان أوصاف المتقين [٩] .

ومن ثم يتناسق البدء والختام فى السورة ، وتتضح الروابط بين موضوعات السورة .



افتتاح السورة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾

١ -الٓمٓ : هذه فاتحة سورة البقرة ، وقد تنوعت فواتح السور فى القرآن الكريم تبعًا لتنوع موضوعاتها، فمنها ما بدئ بالثناء وإثبات الحمد لله، كما فى سورة الفاتحة الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (الفاتحة ٢) ، وكما فى سورة الأنعام: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ. (الأنعام ١) .

ومنها ما بدئ بالنداء مثل : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ . (التحريم ١، الطلاق ١) ، يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ. (المزمل ١) ، يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. (المدثر ١) .

ومنها ما بدئ بالقسم مثل: وَالصَّافَّاتِ. (الصافات ١) ، وَالذَّارِيَاتِ. (الذاريات ١) ، وَالطُّورِ. (الطور١)، وَالنَّجْمِ. (النجم ١) ، وَالْفَجْرِ. (الفجر ١) ، وَالشَّمْسِ. (الشمس ١) ، وَاللَّيْلِ. (الليل ١) ، وَالضُّحَى. (الضحى ١) ، وَالْعَادِيَاتِ. (العاديات ١) ، وَالْعَصْرِ. (العصر ١) .

حروف المعجم

من سور القرآن ما بدئ ببعض الحروف الهجائية التى لا تكون كلمات : مثل ألف ، لام ، ميم .

وفى القرآن صيغ مختلفة من هذه الفواتح ، منها ما هو ذو حرف واحد ، مثل : صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ. (ص ١)، قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ. (ق ١) ، نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ. (الليل ١).

ومنها ما هو ذو حرفين مثل : طه. ۝١ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ. (طه ١، ٢) ، يسٓ ۝١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ. (يس ١، ٢)، حمٓ ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. (غافر ١، ٢) .

ومن السور ما بدئ بثلاثة أحرف مثل : طسٓمٓ ، الٓرٓ ، الٓمٓ .

وقد تكررت الٓمٓ . فى بداية سورة البقرة وآل عمران ، والعنكبوت والروم ولقمان والسجدة . ومن السور ما بدئ بأربعة أحرف مثل: الٓمٓصٓ ، الٓمٓرٓ ، ومنها ما بدئ بخمسة أحرف مثل :كٓهيعٓصٓ ، حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ .

معانى هذه الفواتح

ليس لهذه الفواتح فى اللغة العربية معان مستقلة ، ولم يرد من طريق صحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم بيان للمراد منها ، بيد أنه قد أثرت عن السلف آراء متعددة فى معانى هذه الحروف ، وهذه الآراء على كثرتها ترجع إلى رأيين اثنين :

أحدهما : أنها جميعًا مما استأثر الله به ، ولا يعلم معناها أحد سواه ، وهذا رأى كثير من الصحابة والتابعين .

ثانيهما : أن لها معنى ، وقد ذهبوا فى معناها مذاهب شتى .

١ - فمنهم من قال هى : أسماء للسور التى بدئت بها ، أو أن كلا منها علامة على انتهاء سورة والشروع فى أخرى .

٢ - ومنهم من قال : إنها رموز لبعض أسماء الله - تعالى - وصفاته، فنسب إلى ابن عباس فى : كٓهيعٓصٓ أن الكاف من الملك ، والهاء من الله ، والياء من العزيز والصاد من المصور. ونسب إليه أنها إشارة إلى كاف ، هاد ، أمين ، عالم ، صادق ، وروى عن الضحاك فى معنى : الٓرٓ . أن الله أرفع .

٣ - ومنهم من قال : إنها قسم ، أقسم الله به لبيان شرف هذه الحروف وفضلها إذ هى مبانى كتابه المنزل على رسوله.

٤ - ومنهم من قال : إن المقصود منها هو تنبيه السامعين وإيقاظهم.

٥ - ومنهم من قال : إن المقصود منها سياسة النفوس المعرضة واستدراجها إلى استماع القرآن والإنصات إليه، فقد كان العرب يتواصون بعدم الاستماع إلى القرآن ، فلما سمعوا هذه الحروف أنصتوا إليها ثم استمعوا إلى ما بعدها .

٦ - ومنهم من ذهب إلى أن هذه الحروف ذكرت للتحدى وبيان إعجاز القرآن وأن الخلق عاجزون عن الإتيان بمثل القرآن ، مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التى يتخاطبون بها ، وفى هذا دليل على أنه ليس من صنع البشر بل تنزيل من حكيم حميد ، وقد لاحظ أصحاب هذا الرأى أن فواتح السور مكونة فى جملتها من أربعة عشر حرفًا ، هى نصف حروف الهجاء ، كَمَا أنها حوت فوق ذلك من كل جنس من الحروف نصفه، فقد حوت نصف الحروف المهموسة ونصف الحروف المجهورة ، ونصف الشديدة ونصف الرخوة ونصف المطبقة ونصف المنفتحة، وكأنه قيل « من زعم أن القرآن ليس بآية فليأخذ الشطر الباقى ويركب عليه لفظًا معارضة للقرآن » ويؤيد هذا الرأى أن السورة الكريمة التى بدئت بحروف الهجاء تتحدث فى الأعم الأغلب عن نزول القرآن وإعجازه .

سـر الإعجـاز

ولا يبعد أن يكون سر الإعجاز فى هذه الحروف هو اشتمالها على جميع الوجوه التى ذكرها العلماء فى معانيها :

فهى بداية للسورة ، وهى إشارة إلى أسماء الله تعالى ، أو صفاته ، وهى لون من التنبيه الذى يقرع الأذهان ويلفت الغافلين ، وهى مما أقسم الله به لبيان شرف القرآن وفضله ، وهى مما استأثر الله بحقيقة المراد منه ، فكل ما ذكره العلماء اجتهاد محمود لإدراك أسرارها أو حكمة الابتداء بها .

٢ - ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ. هذا هو القرآن لاشك فى نزوله من عند الله كما قال - تعالى- فى سورة السجدة : الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ. (السجدة ١، ٢) (١٠).

هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ . أى بيان لهم وإرشاد إلى ما ينفعهم فى دنياهم وأخراهم لما تضمنته آيات القرآن من العقائد والأحكام والأخلاق التى لا غاية وراءها » (١١) .

والمتقون فى هذه الآية هم الذين سلمت فطرتهم فأصابت عقولهم من الرشاد ، ووجدوا فى أنفسهم شىء من الاستعداد لتلقى نور الحق يحملهم على اتقاء سخط الله تعالى ، والسعى فى مرضاته بحسب ما وصل إليه علمهم وأداهم نظرهم واجتهادهم » (١٢).

إن القرآن هداية لمن آمن بالله وأخلص نيته وفتح قلبه على القرآن، عندئذ يتفتح القرآن عن أسراره وأنواره ويسكبها فى هذا القلب الذى جاء إليه مستقيما خائفًا حساسًا ، مهيأً للتلقى .

وقد عرف البعض التقوى بقولهم :

« هى الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والاستعداد ليوم الرحيل » ، وقيل التقوى هى : ذوبان الحشا لما سبق من الخطى . وورد أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه - سأل أُبىَ بن كعب عن التقوى فقال له :

أما سلكت طريقًا ذا شوك ..؟ قال : بلى ، قال : فما عملت .. ؟ قال شمرت واجتهدت . قال . فذلك التقوى.

فالتقوى حساسية فى الضمير ، وشفافية فى الشعور ، ومراقبة لله ، واستقامة على الطريق القويم.



المتقون وجزاؤهم

﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾

ثم يأخذ السياق فى وصف المتقين فيقول :

٣ - الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ . الصفة الأولى من صفات المتقين هى الإيمان بالغيب ، أى التصديق القلبى به ، والمراد بالغيب ما غاب عن الحس من شئون الدين وقام الدليل على ثبوته ، فالله تعالى لا تدركه الأبصار ، والإيمان به من الإيمان بالغيب، وما يتعلق بالملأ الأعلى أو بأحوال يوم القيامة من بعث وحشر وحساب غيب .

« قال ابو العالية: يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ . يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وجنته وناره ولقائه ويؤمنون بالحياة بعد الموت وبالبعث فهذا كله غيب »(١٣) .

ومن الإيمان بالغيب الإيمان بصدق رسالة النبى صلى الله عليه وسلم ، مع عدم رؤيته ، بل ذلك الإيمان أيضًا يضاعف لصاحبه الأجر مرتين ، لأنه تصديق بالنبى - صلى الله عليه وسلم - مع عدم مشاهدته .

روى الإمام أحمد عن أبى جمعة قال : « تغدينا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومعنا أبوعبيدة ابن الجراح ، فقال : يا رسول الله ، هل أحد خير منا .. ؟ أسلمنا معك وجاهدنا معك .. ؟ قال: «نعم ، قوم من بعدكم يؤمنون بى ولم يرونى » ورواه ابن مردويه بأطول من هذا وفى آخره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال : « ما يمنعكم من ذلك ورسول الله بين أظهركم يأتيكم بالوحى، بل قوم بعدكم يأتيهم كتاب بين لوحين يؤمنون به ويعملون بما فيه أولئك أعظم منكم أجرًا مرتين »(١٤) .

وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ . يؤدونها تامة الأركان مستوفية الخشوع والخضوع مخلصين فيها لله .

قال ابن عباس : إقامة الصلاة : إتمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع، وقال قتادة : إقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها.

وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ . أى يخرجون زكاة أموالهم ويتصدقون وينفقون المال فى وجوه البر ، وقد شرع الإنفاق قبل أن تشرع الزكاة ، لأنه الأصل الشامل الذى تخصصه نصوص الزكاة ولا تستوعبه ، « واختار

ابن جرير أن الآية عامة فى الزكاة والنفقات، فإنه قال : وأولى التأويلات وأحقها بصفة القوم أن يكونوا لجميع اللازم فى أموالهم مؤدين ، زكاة كان ذلك أو نفقة من لزمته من أهل وعيال وغيرهم ممن يجب عليهم نفقته بالقرابة والملك وغير ذلك؛ لأن الله وصفهم ومدحهم بذلك وكل من الإنفاق والزكاة ممدوح محمود عليه » [١٥] .

وكثيرًا ما يقرن الله تعالى بين الصلاة والإنفاق من الأموال، فإن الصلاة حق الله وعبادته ، وهى طريق إلى الطهارة النفسية ، وإلى صدق الإيمان والتوكل على الله ؛ والإنفاق هو الإحسان إلى عباد الله ، وبذلك يتم للمؤمن قلب نقى موصول بالخالق ، وعمل نافع يفيد المخلوقين .

٤ - وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ . من صفات المتقين (الإيمان بمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ) أى بالقرآن المنزل عليك ، وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ . على المرسلين ، فهم يؤمنون بالنبى وبالقرآن، ويؤمنون بالرسل أجمعين ، وبالكتب التى نزلت عليهم ، وهى التوراة والإنجيل والزبور وسائر الصحف السالفة ، فيؤمنون بها إيمانًا إجماليًا لا تفصيليا .

وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ : أى يتيقنون بوقوع البعث والقيامة والجنة والنار والحساب والميزان (وإنما سميت « الآخرة » لأنها بعد الدنيا) [١٦] .

الإيقان : إتقان العلم ، والتصديق الجازم الذى لا شبهة فيه ولا تردد .

٥ - أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . يقول تعالى : أُولَئِكَ . أى المتصفون بما تقدم من الإيمان بالغيب ، وإقام الصلاة والإنفاق من أموالهم ، والإيمان بالقرآن وبالكتب السابقة، والإيقان بالدار الآخرة والاستعداد لها بعمل الصالحات وترك المحرمات (على هدى) أى على نور وبيان وبصيرة من الله تعالى.

وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، (فى الدنيا والآخرة) [١٧] .

وهذه الآيات من أوائل ما نزل من القرآن فى المدينة ، وقد وصف القرآن المؤمنين السابقين بتقوى الله ، والإيمان بالغيب ، ثم بالسخاء والإيثار ، ثم بامتداد إيمانهم بالكتب والرسل واليقين بالآخرة بلا تردد ، ولا تأرجح فى هذا اليقين ، وقد منحتهم الآيات وسام الهدى والاستقامة والسداد، ووسام الفلاح والنجاح والفوز ، وإنه لتكريم أى تكريم .



الكـــــــافرون

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾

اشتملت بداية سورة البقرة على أربع آيات فى وصف المتقين وهاتان الآيتان فى وصف الكافرين، وسيأتى بعد ذلك وصف المنافقين ، تصف الآيتان موقف الكافرين فى عهد البعثة المحمدية، فقد رفضوا الإيمان وقاوموا الدعوة ؛ ووقفوا فى وجهها وعذبوا أتباعها وصموا آذانهم وأغلقوا قلوبهم واستغشوا ثيابهم حتى لا يسمعوا القرآن ولا ينظروا فى أدلته ولا يتفكروا فى هدايته، فلما رأى الله منهم شدة إعراضهم وقسوة قلوبهم وظلام نفوسهم طبع الله على قلوبهم فلم تتفتح وختم على سمعهم فلم تسمع الحق وجعل على أبصارهم غشاوة فلم تبصر أدلة الإيمان ، وقد تكرر مضمون الآيتين فى مواضع عديدة من القرآن الكريم ، والقرآن يفسر بعضه بعضًا.

وحاشا لله أن يظلم الكافر ، ولكن الآيات الأخرى أفادت أن الكافرين هم الذين خبثت سرائرهم وقست قلوبهم فسلب الله هدايته عنهم جزاء كفرهم وعنادهم، قال تعالى : كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ. (المطففين ٤) .

٦ - إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَم لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ. (عن ابن عباس فى قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ. قال : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم- يحرص على أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى، فأخبره الله - تعالى - أنه لا يؤمن إلا من سبق له السعادة فى الذكر الأول ولا يضل إلا من سبق له من الله الشقاء فى الذكر الأول) [١٨] .

٧ - خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ.

قال الراغب : المراد بالقلب فى كثير من الآيات العقل والمعرفة ا. هـ [١٩] لقد أنكروا وجود الله ورفضوا قبول الرسالة وعموا وصموا فطبع على قلوبهم جزاء وفاقا لطبعهم المطموس العنيد، قال تعالى : بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ. (النساء ١٥٥) وقال تعالى : فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ . (الصف ٥) .

وقد ذهب المعتزلة فى تفسير هذه الآية مسلك التأويل وذكروا فى ذلك عدة من الأقاويل .

منها أن القوم لما أعرضوا عن الحق وتمكن ذلك فى قلوبهم ، حتى صار كالطبيعة لهم شبه بالوصف الخلقى المجبول عليه .

ومنها أن ذلك حكاية لما كانت الكفـــرة يقولونه مثل قولهم : وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ. (فصلت٥) [٢٠].

وقال ابن جرير الطبرى : والحق عندى فى ذلك ما صح بنظيره الخبر عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنه قال :

« إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء فى قلبه فإن تاب نزع واستعتب [٢١] . صقل قلبه [٢٢] وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه فذلك الران الذى قال– تعالى :– كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ . (المطففين ١٤) » رواه الترمذى وابن ماجه وقال الترمذى حسن صحيح [٢٣].

فأخبر – صلى الله عليه وسلم – أن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها، وإذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم من قبل الله – تعالى – والطبـــع ، فلا يكون للإيمـــان إليها مسلك ولا للكفـــر عنها مخلص [٢٤].

وجاء فى التفسير الحديث (ونتبه هنا بهذه المناسبة من أن هذا إنما هو تسجيل لواقع أمر الكفار حينما نزلت الآيات لا على سبيل التأبيد لأن معظم الذين وصفوا به قد آمنوا فيما بعد فى حياة النبى – صلى الله عليه وسلم – ، وأنه يظل قائمًا بالنسبة للذين كفروا وماتوا وهم كفار) [٢٥].



المنافقون

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ۝١٠ ﴾

تناولت هذه الآيات وصف المنافقين ، وهو وصف ينطبق على كل منافق فى كل زمان ومكان . (قال ابن جريج : المنافق يخالف قوله فعله وسره علانيته ومدخله مخرجه ومشهده مغيبه) [٢٦] .

النفاق بالمدينة :

لم يظهر النفاق بمكة لضعف المسلمين هناك ، فلما هاجر المسلمون إلى المدينة آخى النبى –صلى الله عليه وسلم – بين المهاجرين والأنصار ، وتوحدت دولة الإسلام حتى تم النصر فى بدر (فاضطر نفر من الكبراء أن يتظاهروا باعتناق الدين الجديد ، ومن هؤلاء عبد الله بن أبيٍّ بن سلول الذى كان قومه ينظمون له الخرز ليتوجوه ملكًا عليهم قبيل مقدم الإسلام إلى المدينة، وقد وصفتهم سورة البقرة بالنفاق و التلون وألقت عليهم الأضواء ، وذكر المنافقون فى سورة التوبة بصفات متعددة منها التخلف عن الجهاد والتظاهر بالإيمان والتخلى

عن تبعاته وفرائضه ، كما ذكر المنافقون فى سورة خاصة بهم تسمى سورة (المنافقون) ولا نكاد نجد سورة مدنية تخلو من ذكرهم ولفت الأنظار إلى أوصافهم وتحذير المؤمنين من كيدهم وخداعهم) (٢٧) .

٨ - وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ .

إنهم يدّعون الإيمان بالله واليوم الآخر ، وهم فى الحقيقة ليسوا بمؤمنين ، إنما هم منافقون لا يجرؤون على الإنكار والتصريح بحقيقة شعورهم فى مواجهة المؤمنين .

وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ : أى وما هم بداخلين فى عداد المؤمنين الصادقين الذين يشعرون بعظيم سلطان الله ويعلمون أنه مطلع على سرِّهم ونجواهم إذ هم كانوا يكتفون ببعض ظواهر العبادات ظناً منهم أن ذلك يرضى ربهم ثم هم بعد ذلك منغمسون فى الشرور والمآثم من كذب وغش وخيانة وطمع، إلى نحو ذلك مما حكاه الكتاب الكريم عنهم ونقله الرواة أجمعون (٢٨).

ويرى صاحب المنار : أن الآيات وإن انطبقت على المنافقين فى عصر الرسالة إلا أنها أبرزت عنصر النفاق فى كل زمان ومكان، وهى تتناول كل منافق فى التاريخ إلى قيام الساعة (٢٩) .

٩ - يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ .

الخداع (أن توهم غيرك خلاف ما تخفيه له من الشر ليحسن الظن بك) (٣٠) .

(ولما كان المولى سبحانه لا يخفى عليه سرهم ونجواهم فلذا يكون الخداع هنا بحسب زعمهم جهلاً منهم) (٣١) .

وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ. أى ما يعود ضرر خداعهم إلا عليهم (٣٢).

وَمَا يَشْعُرُونَ : الشعور إدراك ما فيه دقة وخفاء ، أى وما يفطنون لهذه العاقبة، إنهم يظهرون الإيمان ويُبْطِنُونَ الكفر بقصد خداع الله والمؤمنين فى حين أنهم لا يخدعون إلا أنفسهم لأن الله يعرف حقائقهم ولأن هذه الحقائق غير خافية على المؤمنين .

فقد كان المؤمنون يعرفون المنافقين بسيماهم الغالبة وصفاتهم العامة قال تعالى : وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ. (محمد ٣٠) (٣٣).

١٠ - فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ.

(المرض : فى الأصل هو السقم ، وهو نقيض الصحة ، بسبب ما يعرض للبدن فيخرجه عن الاعتدال اللائق به ، ويتوجب الخلل فى أفاعيله) (٣٤) .

ويطلق المرض مجازاً على شكّ القلوب وارتيابها، فمرض القلوب هنا يقصد به شكهم فى الدين وضعف يقينهم وفساد طبيعتهم ، وهذا هو ما يحيد بهم عن الطريق الواضح المستقيم ويجعلهم يستحقون من الله أن يزيدهم مما هم فيه .

فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً، فالمرض أو الانحراف يبدأ يسيرا ثم تنفرج الزاوية وتزداد.

وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ . ولهم عذاب أليم بسبب كذبهم ونفاقهم وقولهم بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم، والكذب أقبح الصفات (ولذلك حذر القرآن منه أشد التحذير وتوعد عليه أسوأ الوعيد، وما فشا الكذب فى قوم إلا فشت فيهم كل جريمة وكبيرة لأنه ينشأ من دناءة النفس وضعف الحياء والمروءة ومن كان كذلك لا يترك قبيحًا إلا بالعجز عنه نعوذ بالله تعالى من عمله ومنه) [٣٥] .



الفساد والسفه

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

الفساد : خروج الشىء عن حد الاعتدال ، والصلاح ضده ، والفساد فى الأرض ، إثارة الفتن والحروب التى تؤدى إلى اختلال أمر المعاش والمعاد.

والسفة : خفة فى العقل وفساد فى الرأى، ومنه قيل ثوب سفيه : أى ردئ النسيج.

١١ - ١٣- وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ. تصف الآيات أخلاق المنافقين وقبح أفعالهم ، وسوء طويتهم ، فهم إذا نُصحوا ونُهوا عن الفساد وعن نفاقهم وخداعهم ودسهم وكيدهم أنكروا وادعوا الصلاح مع أن ما هم فيه هو الفساد بعينه ولكنهم لا ينتبهون إلى ما هم فيه من تناقض[٣٦] .

ومن صفتهم كذلك التطاول والتعالى على عامة الناس ليكسبوا لأنفسهم مقامًا فى أعين الناس .

فإذا نصحهم المؤمنون بأن يصدقوا فى إيمانهم وأن يؤمنوا بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وأن يخلصوا لله فى عملهم كما أخلص المهاجرون والأنصار: قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ؟. يعنون أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المهاجرين والأنصار .

أما المهاجرون فلأنهم عادوا قومهم وأقاربهم وهجروا أوطانهم وتركوا ديارهم ليتبعوا النبى صلى الله عليه وسلم ؛ وأما الأنصار فلأنهم شاركوا المهاجرين فى ديارهم وأموالهم ، ولا يستبعد ممن انهمك فى السفاهة وتمادى فى الغواية، وممن زين له سوء عمله فرآه حسنًا أن يسمى الهدى سفهًا: أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ . لانحرافهم عن هدى الله: وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ. يعنى ومن تمام جهلهم أنهم لا يعلمون بحالهم فى الضلالة والجهل وذلك أردى لهم وأبلغ فى العمى والبعد عن الهدى [٣٧] .

* * *

اختيار الضلالة

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

المفردات :

شياطينهم : رؤساؤهم فى النفاق أو كبار اليهود الذين يحرضونهم وَيُؤَيِّدُونَهُمْ .

الاستهزاء : السخـــرية

الطغيـان : مجاوزة الحد فى كل شىء .

العمـــه : ظلمة البصيرة كالعمى فى البصر وأثره الحيرة والاضطراب ، وفى هذه الآيات بيان لأحوال المنافقين فى معاملة المؤمنين والكفار .

١٤ – وإذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا ..

فهم إذا لقوا المؤمنين سايروهم وخادعوهم وقالوا إننا مؤمنون ، ثم إذا خلوا إلى شياطينهم الذين يحرضونهم ويوسوسون لهم أكدوا لهم بقاءهم فى جانبهم وأن ما يتظاهرون به ليس إلا من قبيل الهزء والسخرية.

فالله هو الذى يهزأ بهم ، ويمهلهم ليبقوا مستمرين فى رجسهم ، (يترددون حيارى ضلالا لا يجدون إلى المخرج سبيلا) [٣٨] .

وما أبأس من يستهزئ به جبار السماوات والأرض وما أشقاه ... !

(وإن الخيال يمتد إلى مشهد مفزع غريب ، وإلى مصير من هوله تقشعر القلوب . وهو أن يقرأ).

١٥ – اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ .

فيدعهم يتخبطون على غير هدى فى طريق لا يعرفون غايته، واليد الجبارة تتلقفهم فى نهايته كالفئران الهزيلة تتواثب فى الفخ غافلة عن المقبض المكين. وهذا هو الاستهزاء الرعيب ، لاستهزائهم الهزيل الصغير [٣٩].

١٦ – أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ.

أى هؤلاء قد رغبوا عن الهدى وسلوك الطريق المستقيم ومالوا إلى الضلال واشتروه ولكن لم تكن تجارتهم رابحة إذ هم أضاعوا رأس المال وهو الهدى واستبدلوا به الضلال فخسروا بذلك رأس المال وهو الهدى ولم تربح

صفقتهم فى هذه البيعة. ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾. أى راشدين فى صنيعهم ذلك ، وروى ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة قال : قد والله رأيتموهم خرجوا من الهدى إلى الضلالة ومن الجماعة إلى الفرقة ومن الأمن إلى الخوف ومن السنة إلى البدعة (٤٠) . وقد طال وصف المنافقين فى هذه السورة وفى غيرها من السور لإلقاء الضوء عليهم وكشف حالهم وفضح أعمالهم (على أن هذه الإطالة توحى كذلك بضخامة الدور الذى كان يقوم به المنافقون فى المدينة لإيذاء الجماعة وتبين مدى التعب والقلق والاضطراب الذى كانوا يحدثونه، كما توحى بضخامة الدور الذى يمكن أن يقوم به المنافقون فى كل وقت) (٤١) داخل صفوف المسلمين، وزيادة فى الإيضاح يمضى السياق بضرب الأمثلة لهذه الطائفة ويكشف عن طبيعتها وتقلباتها وتارجحها ليزيد هذه الطبيعة جلاء وإيضاحًا .



هيئات المنافقين

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾

المفردات :

مثلهم : أى صفتهم وقصتهم العجيبة فى الإيمان ثم الإحجام.

استوقد : بمعنى أوقد ، أو سعى حتى أوقد .

أضاءت : ضاءت النار وأضاءت ما حوله ، أى أظهرته بضوئها .

الصم : آفة تمنع السمع.

والبكم : الخرس.

العُمْى : من لا يبصرون.

أمثال القرآن :

سلك القرآن إلى النفوس كل مسلك لتأكيد دعوته ، ومن مسالك القرآن إلى الهداية ضرب الأمثال للناس وإبراز المعقول فى صور المحسوس ، وعرض الغائب فى معرض الحاضر ، وهى ألوان من ضروب القرآن وإعجازه، ودعوته الهادفة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة .

وقد تنوعت أمثلة القرآن ومنها الأمثلة المصرحة (٤٢) وهى ما صرح فيها بلفظ المثل أو ما يدل على التشبيه وهى كثيرة فى القرآن منها ما يأتى :

١٧ - قوله تعالى فى حق المنافقين: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ﴾.

أوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ... إلى قوله تعالى: إنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. (البقرة ١٧-٢٠).

ففى هذه الآيات ضرب الله للمنافقين مثلين : مثلا ناريا فى قوله : كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً . لما فى النار من مادة النور ، ومثلا مائيًا فى قوله: أوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ . (٤٣) ، لما فى الماء من مادة الحياة.

وقد نزل الوحى من السماء متضمنًا لاستنارة القلوب وحياتها ، وذكر الله حظ المنافقين فى الحالين ، فهم بمنزل من استوقد نارًا للإضاءة والنفع ، حيث انتفعوا ماديًا بالدخول فى الإسلام ولكن لم يكن له أثر نورى فى قلوبهم ، فذهب الله بما فى النار من إضاءة : ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ . وأبقى ما فيها من الإحراق ، وهذا مثلهم النارى.

وقد ذكر مثلهم المائى ، فشبههم بحال من أصابه مطر ، فيه ظلمة ورعد وبرق ، فخاوت قواه ووضع إصبعيه فى أذنيه وغمض عينيه خوفًا من صاعقة تصيبه ، لأن القرآن بزواجره وأوامره ونواهيه وخطابه نزل عليهم نزول الصواعق (٤٤) .

التفسير :

هذه الآيات استمرار فى وصف المنافقين عن طريق ضرب مثل يجسم المعنى ، ويبرز أمر المنافق الذى ظهر له نور الإسلام فاهتدى إليه ثم تركه ، وظل حائرًا مترددًا .

لقد اشتروا الضلالة بالهدى ، فلم تربح تجارتهم ولم يهتدوا ، وإن مثلهم كمثل الذى أوقد نارًا فى الظلمة، فلم تكد تضئ ما حوله حتى استحب العمى على الهدى بعد ما استوضح الأمر وتبينه عندئذ : ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ. الذى عرفوه ثم تركوه .

١٨ - صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ . لقد عطلوا ملكاتهم الفطرية وصاروا صورة شكلية للإنسان، ليس فيهم قلب متفتح ولا عقل مفكر ولا أذن تسمع لصوت الحق ، ولا لسان ينطق بالصدق ، ولا عين تبصر نور الهدى، وقد استحكمت أهواؤهم وغلبتهم شهواتهم ، فلا يرجعون عما هم فيه من الضلال.



حيرة المنافقين

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) ﴾

المفردات :

الصيب : المطر الشديد الانهمار .

السماء : السحاب وهى فى الأصل كل ما علاك .

فيه ظلمات ورعد وبـرق : التنوين فى الكل للتفخيم والتهويل كأنه قيل فيه ظلمات داجية ، ورعد قاصف وبرق خاطف . والبرق والرعد متلازمان غالبًا ، ولكنا نرى البرق ثم نسمع بعده الرعد لأن سرعة الضوء تفوق سرعة الصوت أضعافًا مضاعفة، وظواهر الرعد والبرق والصواعق تحدث عند تكاثف السحب واختلاف درجات الحرارة بين طبقات الهواء [٤٥].

وإذا أظلم عليهم قاموا : بمعنى أقاموا أى توقفوا عن السير .

التفسير :

١٩ - أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ ...

هذا مثال آخر ضربه الله لتردد المنافقين بين الهدى والضلال ، وحيرتهم بين الإيمان والكفر.

فمثالهم كمثل الذى يسير فى ليلة شديدة المطر والرعد والبرق ، وقد اكتنفته الظلمات وملأه الخوف من الصواعق ، واصطكت أذناه من الرعد حتى إنه ليسدها بيديه من شدته ، (ويتخطف البرق عيونه ، فإذا لمع البرق وأضاء ما حوله سار ، غير أن البرق لا يلبث أن ينقطع فيقف حائرًا ذاهلاً ، وإن الله لو شاء لأخذ سمعهم وأبصارهم ، فهو القادر على كل شىء والمحيط بالمنافقين فلن يفلتوا منه) [٤٦].

٢٠ - يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ .

قال ابن عباس : **يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ** . أى بشدة الحق. **كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا** . أى كلما ظهر لهم من الإيمان شىء استأنسوا به واتبعوه ، وتارة تعرض لهم الشكوك فتظلم قلوبهم فيقفون حائرين) [٤٧]

والآيات قوية رائعة فى تمثيلها ووصفها وتنديدها ، لقد رسمت مشهدًا حافلاً بالحركة مشوبًا، بالاضطراب، فيه تيه وضلال وفيه هول ورعب ، وفيه فزع وحيرة ، وفيه أضواء وأصداء ...

(وإن الحركة تغمر المشهد كله من الصيب الهاطل إلى الظلمات والرعد والبرق إلى الحائرين المفزعين منه ، وإلى الخطوات المروعة الوجلة التى تقف عندما يخيم الظلام .. إن هذه الحركة فى المشهد لترسم - عن طريق التأثير الإيجابى - حركة التيه والاضطراب والقلق والأرجحة التى يعيش فيها أولئك المنافقون .. بين لقائهم للمؤمنين ، وعودتهم للشياطين ، بين ما يقولونه لحظة ثم ينكصون عنه فجأة، بين ما يطلبونه من هدى ونور ، وما يفيئون إليه من ضلال وظلام .. فهو مشهد حسى يرمز لحالة نفسية ويجسم بصورة شعورية ، وهو طرف من طريقة القرآن .. فى تجسيم أحوال النفوس كأنها مشهد محسوس) (٤٨).



عبـــادة الله

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢ ﴾

المفردات :

جعل الأرض فراشًا : مبسوطة ممهدة كالفراش.

السمـــاء بنـــــاء : أى قبة مرفوعة محكمة البناء . والبناء فى الأصل مصدر سمى به المبنى بيتا كان أو قبة أو خباء ، ومنه قولهم : بنى الرجل على زوجته إذا ضرب فوقها قبة ، والمراد أنه جعل السماء فوقهم سقفا مرفوعًا كالقبة، قال تعالى : وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا (الأنبياء ٣٢).

أنـــــدادا : شركاء، والند الشبيه والنظير

التفسير :

٢١ - يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ ...

بعد أن تم استعراض الصور الثلاث للمؤمنين والكافرين والمنافقين ، اتجه السياق إلى نداء الناس كافة هزًا لمشاعرهم وتنشيطًا لهممهم ثم دعوتهم جميعًا إلى عبادة ربهم المستحق للعبادة وحده ، اتقاء لغضبه واستحقاقًا لرضائه ، فهو الذى خلقهم جميعًا ودلهم على معرفته ، وأرشدهم لعبادته ، فالعبادة طريق إلى تقوى الله ، وإدراك حق الربوبية، وهى وقاية من المعاصى وطريق لبلوغ درجة الكمال .

وإنما كثر النداء فى كتابه تعالى على طريق : يَا أَيُّهَا النَّاسُ. لاستغلاله بأوجه من التأكيد وأسباب المبالغة كالإيضاح بعد الإبهام ، واختيار لفظ البعيد ، ولتأكيد معناه بحرف التنبيه ، ومعلوم أن ما نادى الله به عباده : من أوامره ونواهيه وعظاته وزواجره ووعده ووعيده وغير ذلك .. مما أنطق به كتابه أمور عظام وخطوب جسام ومعان عليهم أن يتيقظوا لها ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها ، وهم غافلون، فاقتضت الحال أن ينادوا بالآكد الأبلغ (٤٩) .

٢٢ - الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا ... مبسوطة ممهدة لتيسير الإقامة والحياة منها ، وأمدها بكل مقومات الحياة وسخر فيها وسائل الراحة والمتاع ، ويسر فيها التوافق العجيب فى الهواء والماء والنبات والمناخ والسطح والتربة .

وَالسَّمَاءَ بِنَاءً . لقد رفع الله السماء وزينها بالكواكب ، وهى بحرارتها وضوئها وجاذبية أجرامها وتناسقها وسائر النسب بين الأرض وبينها تمهد لقيام الحياة على الأرض وتعين عليها .

وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً. فأخرج به شتى أنواع الثمرات ، وأحيا به الأرض بعد موتها، وأكمل به الحياة فى جميع صورها ، وأشكالها ... وجعلنا من الماء كل شىء حى .

وفى ذلك النداء تبرز كليتان من كليات التصور الإسلامى هما : وحدة الخالق لكل الخلائق، ووحدة الكون وتناسق وحداته وصداقته للحياة والإنسان .

فالأرض مفروشة والسماء مبنية بنظام ، والماء ينزل فيخرج به الثمرات ، رزقًا للناس ، والفضل يعود فى هذا إلى الخالق الواحد.

فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ . إنكم تعلمون قدرة الخالق وبديع صنعه ودقة إحكام خلقه ، فينبغى أن تفردوه بالعبادة وألا تعبدوا معه أصنامًا ولا تقصدوا سواه ، ولا تتخذوا أندادا أو شركاء مع الله .

إن الوحدانية عقيدة وسلوك ، ويقين جازم بقدرة الله وصدق الاعتماد عليه ، والإيمان بأنه الخالق الرازق، وأن تصرف الإنسان سبب مباشر، والمسبب الحقيقى هو الله وفى الحديث الشريف :

« إن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ، ولا تشركوا به شيئًا » (٥٠) .

(وهذه الآية دالة على توحيده تعالى بالعبادة وحده لا شريك له، وقد استدل بها كثير من المفسرين - كالرازى مثلاً وغيره - على وجود الصانع تعالى، وهى دالة على ذلك بطريق الأولى فإن من تأمل هذه الموجودات السفلية والعلوية ، واختلاف أشكالها وألوانها وطباعها ومنافعها ووضعها فى مواضع النفع بها محكمة، علم قدرة خالقها وحكمته وعلمه وإتقانه وعظيم سلطانه) (٥١) .

* * *

التحدى والإعجاز

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

لله عز وجل كتابان : كتاب مفتوح مشاهد ، وهو كتاب الكون يدل على الله بنظامه واتساقه وإحكامه ، وكتاب مقروء وهو القرآن أنزله الله بلسان عربى مبين : الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ. (هود ١) فقد أحكمت آياته وفصلت معانيه، قال تعالى : وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً . (الأنعام ١١٥) صدقًا فى الأخبار وعدلا فى الأحكام ليس فيه مجازفة ولا كذب ولا افتراء كما يوجد فى أشعار العرب وغيرهم من الأكاذيب وغيرها من المجازفات التى لا يحسن شعرهم إلا بها كما قيل فى الشعر : إن أعذبه أكذبه.

وقد اشتمل القرآن على أسمى درجات البلاغة والفصاحة ، ولوَّن فى أساليب هدايته ونوَّع فى طريق بيانه، فإذا تأملت أخباره وجدتها فى غاية الصدق والحلاوة ، وكلما تكرر حلا وعلا، لا يخلق على كثرة الرد ولا يمل منه العلماء، وإن أخذ فى الوعد والتهديد جاء منه ما تقشعر منه الجبال الصم الراسيات فما ظنك بالقلوب الفاهمات، وإن وعد أتى بما يفتح القلوب والآذان ويشوق إلى دار السلام ومجاورة عرش الرحمن، وإن جاءت الآيات فى الأحكام والأوامر والنواهى اشتملت على الأمر بالمعروف الحسن النافع الطيب المحبوب والنهى عن كل قبيح دنئ .

وإن جاءت الآيات فى وصف المعاد وما فيه من الأهوال وفى وصف الجنة والنار وما أعد الله فيهما لأوليائه وأعدائه من النعيم والجحيم والملاذ والعذاب الأليم بشرت به وحذرت وأنذرت ودعت إلى فعل الخير واجتناب المنكرات، وهدت إلى صراط الله المستقيم وشرعه القويم، ونفت عن القلوب رجس الشيطان الرجيم [٥٢].

ولهذا ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من نبى من الأنبياء إلا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذى أوتيت وحيا أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا » [٥٣] .

لقد جمع القرآن بين السهولة والجزالة ، وخاطب الخاصة بما لا يصعب فهمه على العامة وظل مع ذلك فى الذروة العليا من أساليب البيان .

وأتى من أخبار الأمم السابقة بما أيدته الكتب المنزلة، وفى القرآن مع ذلك أخبار لم ترد فى هذه الكتب، كما انفرد القرآن بإضافات خاصة لبعض قصص الأنبياء، وقد أنزل على نبى أمى لم يقرأ كتب السابقين، وتكوَّن القرآن من حروف عربية يؤلف العرب منها قصائدهم ونثرهم ، وقد عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن وتحداهم الله أن يأتوا بعشر سور من مثله ، وكان ذلك فى سورة مكية .

وفى هذه الآيات تحداهم فيما إذا كانوا فى ريب من صحة ما أنزله على نبيه وصدق صلته به - الإتيان بسورة من مثله ، والاستعانه على ذلك بمن يريدون من الشركاء والأنصار .

فإذا عجزوا عن استجابة هذا التحدى فإن الحجة تكون قد لزمتهم ، ومن إعجاز القرآن تقديره بأنهم سيظلون عاجزين عن ذلك أبدًا .

وقد حذرتهم الآية من عذاب جهنم التى تتميز غيظًا وتتقد بالناس والحجارة وقد أعدت للكافرين وهيئت لعذابهم . ووقود النار هنا صنفان : الناس والحجارة، أما الإنسان فلأنه عبد غير الله أو كفر بالله وأشرك به وكذب الشرائع والرسل ولم يتدبر ما أنزله الله عليه .

أما الحجارة فلأنها أظهر ما عبده المشركون، وقد حشرت فى النار لبيان عدم جدوى عبادتهم لها، قال - تعالى : إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ. (الأنبياء ٩٨) .

إعجاز القرآن :

أورد علماء البيان أنواع الأدلة على إعجاز القرآن ، وفى تفسير المنار بحث مسهب عن أنواع الإعجاز التى اشتمل عليها القرآن ، منها إعجازه بأسلوبه ونظمه ، وبلاغته وفصاحته، وبما فيه من علم الغيب من ماض وحاضر ومستقبل، ولسلامته من الاختلاف والتعارض والتناقض .

وباشتماله على العلوم الإلهية ، وأصول العقائد الدينية وأحكام العبادات وقوانين الفضائل والآداب، وقواعد التشريع السياسى والمدنى والاجتماعى ، والموافقة لكل زمان ومكان. ومن إعجاز القرآن عجز القرون التى ارتقت فيها جميع العلوم والفنون ، أن تنقض بناء آية من آياته ، أو تبطل حكمًا من أحكامه ، أو تكذّب خبرًا من أخباره .

ومن إعجاز القرآن اشتماله على تحقيق كثير من المسائل العلمية والتاريخية ، التى لم تكن معروفة فى عصر نزوله ، ثم عرفت بعد ذلك بما انكشف للباحثين والمحققين ، من طبيعة الكون وتاريخ البشر وسنن الله فى الخلق ؟.

ومن قدرة القرآن إبداعه فى رسم الحالات النفسية ومشاهد الكون وتجسيم المعنويات وتخير الأسلوب المناسب للفكرة التى يعرضها .

وهكذا تتكشف للناظر فى القرآن آفاق وآفاق ، من التناسق والاتساق، فمن نظم فصيح إلى سرد عذب ، إلى معنى مترابط، إلى نسق متسلسل إلى لفظ معبر ، إلى تعبير مصور إلى تصوير مشخص ، إلى تخييل مجسم إلى موسيقى داخلية ، إلى اتساق فى الأجزاء إلى تناسق فى الإطار ، وبهذا كله يتم الإبداع ويتحقق الإعجاز .



بُشـــرى

﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

المفردات :

البشـــــــارة : الخبر السار.

أتوا به متشابها : يشبه بعضه بعضًا فى الشكل مع اختلاف الطعم.

أزواج مطـهـرة : نظيفة من الحيض والأذى والألم .

التفسير :

من شأن القرآن أن يقابل بَيْنَ الأتقياء والأشقياء ، والعذاب والنعيم فبضدها تتميز الأشياء .

وهذا معنى تسمية القرآن المثانى ، على أصح أقوال العلماء، وهو أن يذكر الإيمان ويتبعه بذكر الكفر أو عكسه ، أو حال السعداء ثم الأشقياء وعكسه ، وحاصله ذكر الشىء ومقابله.

لقد ذكر القرآن صفة النار التى أعدت للكافرين فى الآية السابقة ثم بشر المؤمنين الذين استقاموا على أمر الله وقدموا الأعمال الصالحة بأن لهم جنات تجرى من تحت أشجارها الأنهار ولهم فى الجنة نعيم دائم وظل وارف وخيرات لا تجد، وثمار الجنة متشابهة فى اللون ولكنها مختلفة فى الطعم والمذاق، وتقدم إليهم أطباق الثمار فى الصباح والعشى ، فإن أتوا بالفاكهة فى صحاف الدر والياقوت فى مقدار بكرة الدنيا وأتوا بالفاكهة غيرها على مقدار عشاء الدنيا، وإذا نظروا إلى رزقهم وجدوه متشابه الألوان قالوا هذا الذى رزقنا به من قبل ، يعنى أطعمنا بكرة فإذا أكلوا وجدوا طعمه غير الذى أتوه بكرة فذلك قوله – سبحانه –: وأُتُوا به مُتشَابِهاً. يعنى يشبه بعضه بعضا فى الألوان مختلفًا فى الطعم [٥٤] ، (وذلك أجلب للسرور وأزيد فى التعجب وأظهر للمزية ، وأبين للفضل. وترديدهم هذا القول ونطقهم به – عند كل ثمرة يرزقونها – دليل على تناهى الأمر فى استحكام الشبه ، وأنه الذى يستملى تعجبهم ، ويستدعى استغرابهم ويفرط ابتهاجهم) [٥٥] .

وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ . من الحيض والاستحاضة ، ومن دنس الطباع وسوء الأخلاق ومن سائر مثالبهن وكيدهن .

وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ : خلودًا أبديًا على الدوام ، وهذا هو تمام السعادة فإنهم مع هذا النعيم فى مقام أمين من الموت والانقطاع فلا آخر لهذه النعمة ولا انقضاء .

★ ★ ★

الأمثال فى القرآن

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

المفردات :

مثــــلا ما : أى مثل كان، وضرب المثل استعماله فيما ضرب له أى فيما ذكر له .

بعوضـــــة : البعوضة واحدة البعوض وهو نوع صغير من الذباب .

الفاسقين : الخارجين عن طاعة الله.

ضرب الأمثال :

ضرب الله الأمثال فى القرآن لتقريب المعنى إلى الأذهان ، وإظهار المعقول فى صورة المحسوس، وقد أخبر سبحانه أنه لا يستصغر شيئًا يضرب به مثلا ، ولو كان فى الحقارة والصغر كالبعوضة ، كما ضرب المثل بالذباب والعنكبوت فى قوله - تعالى - : **يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ** . (الحج ٧٣) . وقال - سبحانه-: **مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون** . (العنكبوت ٤١).

كما ضرب سبحانه مثلا للكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة، وللكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة [٥٦]. وضرب الأمثال فى القرآن يستفاد منه فى أمور كثيرة منها ، التذكير ، والوعظ والحث والزجر والتقرير ، وتقريب المراد للعقل ، وتصويره بصورة المحسوس؛ فإن الأمثال تصور المعانى بصورة الأشخاص ، لأنها أثبت فى الأذهان لاستعانة الذهن منها بالحواس ، ومن ثم كان الغرض تشبيه الخفى بالجلى والغائب بالشاهد [٥٧] .

والأمثال فى القرآن مقصود بها إبراز المعنى فى صورة رائعة موجزة. والعبرة فى المثل ليست فى الحجم والشكل ، وإنما الأمثال أدوات للتنوير والتبصير ، وليس فى ضرب الأمثال ما يعاب .

وما من شأنه الحياء من ذكره ، لأن العبرة ليست فى لفظ المثل ، لكن فى مدلوله وفى المعنى الذى يعبر عنه .

فإذا رأيت إنسانًا مترددًا وقلت له (أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى) ، كان المقصود هنا الإقدام على أمر ثم الإحجام عنه .

وضرب المثل بالذباب والعنكبوت ، مقصود به مدلول المثل لا لفظه ، (فما استنكره السفهاء وأهل العناد والمراء واستغربوه من أن تكون المحقرات من الأشياء مضروبًا بها المثل - ليس بموضع للاستنكار والاستغراب من قِبَل أن التمثيل إنما يصار إليه لما فيه من كشف المعنى ورفع الحجاب عن الغرض المطلوب وإدناء المتوهم من المشاهد، فإن كان المتمثل له عظيمًا كان المتمثل به مثله ، وإن كان حقيرًا كان المتمثل به كذلك) (٥٨).

التفسير :

يقرر - سبحانه - أنه لا يرد فى حقه الحياء من ضرب الأمثال للناس فى القرآن ، مهما بدا أنها بديهية أو تافهة كبعوضة أو ما هو أعظم منها فى الحجم كالذباب والعنكبوت وغيرهما، فأما الذين آمنوا فيقبلون على تدبر هذه الأمثال ، لأنها وحى من الله لتعينهم على فهم المعانى الصحيحة .

وأما الكافرون منهم الذين يتمحلون ويتساءلون عن مدى مراد الله منها ، وليس غرضهم بهذا السؤال الاستفهام عن الحكمة من ضرب الأمثال ، بنحو العنكبوت والذباب، بل غرضهم الإيذان بما فيها من الدناءة والحقارة بحيث لا يليق أن يريد الله شيئًا من التمثيل بها لهذا يستحيل صدور التمثيل بها عن الله (وإنما يقول هذه الأمثال محمد من تلقاء نفسه) (٥٩) .

وأن الله ليضل بالأمثال القرآنية كثيرين ممن ساء اختيارهم وأظلمت قلوبهم، ويهدى بها كثيرًا ممن حسن اختيارهم واستنارت قلوبهم .

وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ . الذين فسقت قلوبهم من قبل وخرجت عن الهدى والحق إلى النفاق والضلال فجزاؤهم زيادتهم مما هم فيه ، قال ابن مسعود وغيره . يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً . يعنى به المنافقين. وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً. يعنى به المؤمنين (٦٠) .

سبب النزول :

روى المفسرون (٦١) عزوا إلى ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والتابعين روايتين كسبب لنزول هذه الآية : إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا . . . :

الرواية الأولى : تذكر أن الله لما ضرب المثل بالذباب والعنكبوت والنمل قال المشركون، أو قال اليهود والمشركون معًا : ماذا أراد الله بذكر هذه الأشياء الخسيسة ، إنه أجل من أن يضرب بها الأمثال.

الرواية الثانية : جاء فيها أن الله لما ضرب المثلين السابقين للمنافقين قال المنافقون : الله أعلى وأجل من ضرب هذه الأمثال (٦٢) .

وقد ذكر صاحب التفسير الحديث أن الرواية الثانية هى الأكثر مناسبة للمقام . وأرى أن الرواية الأولى أكثر اتساقًا مع مدلول الآية ، لأن ضرب الأمثال بالذباب والعنكبوت والنمل واستبعاد المنافقين أو المشركين أن يصدر ذلك عن الله أنسب للآية التى نفسرها .

وقد ذكر الرواية الأولى وحدها مقاتل بن سليمان فى تفسيره ، وأوردها ابن كثير مع الرواية الأخرى من غير ترجيح إحداهما ؛ والله حين يضرب المثل للمنافقين فيما سبق ضرب لهم مثلين أحدهما نارى والآخر مائى، وليس أحدهما بالحقير ولا بالصغير، وهذا يرجح عندى الرواية الأولى .

٢٧ - الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ... تصف هذه الآية الفاسقين بنقض العهد ، والرجوع عن الإيمان بعد معرفته ، أو برفض آلة التوحيد والإيمان وهى مبثوثة فى فطرة الإنسان.

وقال مقاتل بن سليمان: المراد بهم اليهود (فقد نقضوا العهد الأول ، ونقضوا ما أخذ عليهم في التوراة أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئًا وأن يؤمنوا بالنبى - عليه السلام - وكفروا بعيسى وبمحمد -عليهما السلام - وآمنوا ببعض الأنبياء وكفروا ببعض) [٦٣] .

آراء فى تفسير عهد الله :

قال ابن كثير : (وقد اختلف أهل التفسير فى معنى العهد الذى وصف هؤلاء الفاسقين بنقضه ، فقال بعضهم : هو وصية الله إلى خلقه ، وأمره بما أمرهم به من طاعته ، ونهيه عما نهاهم عنه من معصيته، وعلى لسان رسله ، ونقضهم ذلك وتركهم العمل به).

وقال آخرون : بل هو فى كفر أهل الكتاب والمنافقين منهم ، وعهد الله الذى نقضوه : هو ما أخذ عليهم فى التوراة من العمل بما فيها ، واتباع محمد - صلى الله عليه وسلم - إذا بعث والتصديق بما جاء به من عند ربهم ، ونقضهم ذلك هو جحودهم به بعد معرفتهم بحقيقته ، وإنكارهم وكتمانهم علم ذلك عن الناس ، بعد إعطائهم الله الميثاق من أنفسهم ليبيننه للناس ولا يكتمونه .

فأخبر الله - تعالى - أنهم نبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنًا قليلا ، وهذا اختيار ابن جرير -رحمه الله - وهو قول مقاتل بن حيان [٦٤] .

وقال آخرون : بل عنى بهذه الآية جميع أهل الكفر والشرك والنفاق ، وعهده إلى جميعهم فى توحيده بما وضح لهم من الأدلة على ربوبيته ، وعهده إليهم فى أمره ونهيه ، ما احتج به لرسله من المعجزات ، التى لا يقدر أحد من الناس غيرهم أن يأتى بمثله ، الشاهدة لهم على صدقهم، قالوا ونقضهم ذلك : تركهم الإقرار بما ثبت لهم صحته بالأدلة، وتكذيبهم الرسل والكتب ، مع علمهم أن ما أتوا به حق ؛ وهو رأى حسن.

وقال آخرون : العهد الذى ذكره - تعالى - هو العهد الذى أخذه عليهم حين أخرجهم من صلب آدم، الذى وصف فى قوله تعالى : وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا . (الأعراف ١٧١ - ١٧٢)، ونقضهم ذلك تركهم الوفاء به ، حكى هذه الأقوال ابن جرير فى تفسيره [٦٥] .

وهذه الآراء كما ترى قريبة من بعضها ، وقد تكون مرادة جميعها؛ ولذلك يقول الأستاذ سيد قطب: (وعهد الله المقصود مع البشر يتمثل فى عهود كثيرة : إنه عهد الفطرة المركوزة فى طبيعة كل حى .. أن يعرف خالقه وأن يتجه إليه بالعبادة .. وهو عهد استخلاف فى الأرض . الذى أخذه على آدم ، وفى عهود كثيرة فى الرسالات لكل قوم أن يعبدوا الله وحده ...) [٦٦] .

وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ : لقد أمر الله بصلة الرحم والقربى، وأمر بصلة العقيدة والأخوة الإنسانية والإيمان بجميع الرسل والكتب ، قال النسفى : هو قطعهم للأرحام وموالاة المؤمنين أو قطعهم ما بين الأنبياء من الوصلة والاجتماع على الحق فى إيمانهم ببعض وكفرهم ببعض (٦٧).

وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ : بالمنع عن الإيمان والاستهزاء بالحق والعمل على تهييج الحرب بين المؤمنين وغيرهم.

أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ: لقد خسروا فى الدنيا بافتضاحهم وتخبطهم وفسادهم ، وخسروا فى الآخرة بغضب الله وحرمانهم من رحمته ، واستحقاقهم العذاب الأليم، قال تعالى : أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ . (الرعد ٢٥).

★ ★ ★



نعم الله

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩) ﴾

التفسير :

على أى أساس قام كفركم بالله تعالى ، وليس لكم حجة عليه إلا قولكم: إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ . (الزخرف ٢٣).

٢٨ - كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ . أى تجحدون وجوده وتعبدون غيره ؟

وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ . أى قد كنتم عدما فأخرجكم إلى الوجود ، قال ابن عباس : كُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ . أمواتا فى أصلاب آبائكم ولم تكونوا شيئًا حتى خلقكم ثم يميتكم موته الحق ثم يحييكم حين يبعثكم (٦٨) قال وهى مثل قوله: أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ . (غافر١١).

وفى الآية تعقيب تنديدى بالكفار فى صيغة التساؤل الإنكارى عن جرأتهم على الكفر بالله وانحرافهم عن سبيله ، وهو الذى أحياهم بعد أن كانوا أمواتًا ثم يميتهم ثم يحييهم ، وإليه مرجعهم فى النهاية (٦٩) .

لقد كان الإنسان في عالم العدم فأحياه الله بالوجود فى هذه الدنيا ، ثم يموت عند خروج روحه وانتهاء أجله ثم يبعثه الله حين ينفخ إسرافيل فى الصور فيقوم الناس لرب العالمين، فالإنسان مدين لله بالوجود ، وبيد الله الموت والحياة والحساب والجزاء .

٢٩ - هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا .. خلق الله للإنسان جميع ما في الأرض من ماء ومعادن وبترول وغير ذلك ، وحثه على تعمير الأرض واستخراج كنوزها واستغلال خيراتها، وفى هذه الآية دعوة صريحة إلى الاستفادة مما خلقه الله لنا فى هذه الأرض .

(وهناك مظهر آخر من مظاهر القدرة والعظمة اختص الله بمعرفة سره ودقائقه ، وهو هذه السماوات السبع التى رفعها بقدرته وعلم هو كنهها وحقيقتها ومن ذا الذى يعلم المخلوق إلا خالقه) (٧٠).

فالله خالق الكون كله ، وهو خالق الأرض وباعث الحياة فيها ، وهو رافع السماء بغير عمد وهو العليم بكل شىء خلقه.

★ ★ ★

خليفة الله فى الأرض

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

تمهيد :

خلق الله الإنسان ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له الملائكة ومنحه الإرادة والاختيار وكرمه بالعقل، وسخر له الكون كله، وأخضع له الحيوانات وأسرار الوجود وأمده بالذكاء والمعرفة والقدرة على النظر والملاحظة والتجربة ، والترقى والاستزادة من المعارف؛ وبهذا كان صالحًا للخلافة فى الأرض والتصرف فيها خليفة عن الله محققًا هدف الخالق من عمارة الأرض وإثارة التنافس والتسابق بين أفرادها وتزويدهم بالقدرة على اختيار طريق الهدى أو الضلال ، لتظهر حكمته من الخلق وليتبين المطيع من العاصى (٧١) .

٣٠ - وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ...

الملائكة : جمع ملك وهم ذوات نورانية خلقوا لطاعة الله فيما أمرهم به، ولهم قدرة على التشكل بالأشكال الحسنة المختلفة، ولهذا كان الرسل يرونهم .

خليفة : أى خليفة منى لأن آدم كان خليفة الله فى أرضه ، وكذلك كل نبى، قال تعالى : يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ. (ص ٢٦).

لقد أراد الله أن يسلم هذا الكائن الجديد فى الوجود زمام هذه الأرض، وأن يطلق يده فيها (وأن يكل إليه إبراز مشيئة الخلق فى الإبداع والتكوين والتحليل والتركيب والتحوير والتبديل وكشف ما فى هذه الأرض من

قوى وطاقات وكنوز وخامات، وتسخير هذا كله بإذن الله فى المهمة الضخمة التى وكلها الله إليه ، (وإذن فقد وهب هذا الكائن الجديد من قوى وطاقات وكنوز وخامات ، ووهب من القوى الخفية المشيئة الإلهية) (٧٢) أو تعظيما لشأن آدم وتنويها بفضله بأن بشَّر بذكره فى الملأ الأعلى قبل إيجاده ولقَّبه بالخليفة (٧٣) .

الحكمة من إخبار الملائكة :

والغرض من إخبار الملائكة بخلافة آدم فى الأرض ، هو أن يسألوا ذلك السؤال ويجابوا بما أجيبوا به حتى يعرفوا حكمته ، صيانة لهم من اعتراض الشبهة، أو الحكمة على تعليم العباد المشاورة فى أمورهم ، قبل أن يقدموا عليها ، وعرضها على ثقاتهم ونصحائهم – وإن كان المستشير بعمله وحكمته غنيًا عن المشاورة) (٧٤).

قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ .

لقد تشوقت الملائكة لمعرفة الحكمة فى استخلاف ذلك المخلوق الذى سيمنح الإرادة والاختيار والقدرة على القتل وسفك الدماء ، مع أنهم أولى منه بالخلافة فى الأرض، حيث إنهم يسبحون بحمد الله وينصرفون لعبادته وتقديس أسمائه وتحقيق القصد من خلقهم بعبادته فهم أولى بالخلافة فى الأرض لأنهم معصومون من الخطأ .

وما علموا أن الأرض لو ملئت بالملائكة لانصرفوا للعبادة وبقيت الأرض خرابًا يبابًا ، لعدم حاجة الملائكة إلى زراعتها وعمارتها ، (ويوحى قول الملائكة أتجعل فيها من يفسد فيها بأنه كان لديهم من شواهد الحال ، أو من تجارب سابقة فى الأرض ، أو إلهام البصيرة ما يكشف لهم عن فطرة هذا المخلوق ، أو من مقتضيات حياته على الأرض ، ما يجعلهم يعرفون أو يتوقعون أنه سيفسد فى الأرض وأنه سيسفك الدماء ، ثم هم بفطرة الملائكة البريئة ، التى لا تتصور إلا أن الخير المطلق هو وحده الغاية المطلقة للوجود ، وهو وحده العلة الأولى للخلق وهو متحقق بوجودهم هم ، يسبحون بحمد الله ويقدِّسونه ويعبدونه ولا يفترون عن عبادته...).

(لقد خفيت عليهم حكمة المشيئة العليا ، فى بناء هذه الأرض وعمارتها ، وفى تنمية الحياة وتنويعها، وفى تحقيق إرادة الخالق وناموس الوجود فى تطويرها وترقيتها على يد خليفة الله فى أرضه ، هذا الذى قد يفسد أحيانًا وقد يسفك الدماء أحيانا ليتم من وراء هذا الشر الجزئى الظاهر ، خير أكبر وأشمل، خير النمو والرقى الدائم، خير الحركة الهادمة البانية، خير المحاولة التى لا تكف، والتطلع الذى لا يقف والتغيير والتطوير فى هذا الملك الكبير) (٧٥).

عندئذ جاءهم القرار من العليم بكل شىء والخبير بمصائر الأمور: قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ، إنى أعلم أن الأرض لا يعمرها إلا إنسان يملك الإرادة والاختيار والطاعة والمعصية، ويكون جزاؤه الثواب، والعقاب على المعصية. وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً . (الأنبياء ٣٥).



آدم

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(عرض الله على آدم من أفراد كل نوع ما يصلح أن يكون نموذجًا : يتعرف منه على أحوال البقية وأحكامها).

٣١ - وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا . . . اختلف فى هذه الأسماء التى علمها الله - سبحانه آدم - أعنى الإنسان - والرأى فى هذا أن الله - سبحانه - أودع فى الإنسان القدرة على البحث والنظر والكشف عن خصائص الأشياء وعللها وأسبابها والوقوف على أسرارها المودعة فيها ، وحلها وتركيبها..

وبهذه القدرة عرف حقائق كثير من الأشياء، وهو جاد أبدا فى الكشف عن المزيد منها يومًا بعد يوم وجيلاً بعد جيل وعصرًا إثر عصر، وكلما عرف حقيقة وضع لها اسمًا تعرف به .

فالمراد بالأسماء هنا هو مسميات تلك الأسماء ، والمراد بالمسميات خصائص هذه المسميات وحقائقها.

(والأسماء كلها لا يراد بها أسماء جميع الموجودات فى هذا الوجود إذ إن آدم لا يمكن أن يحيط علمه بكل موجود ظاهر أو خفى ، قريب أو بعيد، وإنما المراد - والله أعلم - المسميات التى تكشفت حقائقها لآدم وذريته واهتدوا إلى التعرف عليها وتحديد موقفهم منها إيجابًا أو سلبًا .

ففى دائرة هذه المعرفة كان امتحان الملائكة وكان عجزهم ، وكان إعلام آدم بما عجزوا عن معرفته .. فكان ذلك أبلغ رد على اعتراض الملائكة وجلاء الموقف الذى وقفوه من آدم .

(فالمراد من آدم هنا هو الإنسانية كلها ، وكان امتحان الملائكة فيما عرف أبناء آدم من أسرار هذا الوجود) [٧٦] .

وفى تفسير ابن كثير عن ابن عباس أن الله علم آدم الأسماء التى يتعارف بها الناس: إنسان ودابة وأرض وسهل وبحر وجمل وحمار ، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها .

(وفى الصحيح أن الله علَّم آدم أسماء كل شىء) [٧٧] .

ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائكَة فَقَالَ أَنبئُوني بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ . أى عرض المسميات المدلول عليها بالأسماء التى علمها آدم. فَقَالَ أَنبئُوني بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ .

فالمعروض لنظر الملائكة ذوات مشخصة يراد من الملائكة أن يضعوا لها أسماء تدل عليها ، وتكشف عن حقيقة كل واحدة منها .

إن كُنتُمْ صَادِقِينَ. أى فى زعمكم أنكم أحقاء بالخلافة ممن استخلفته، وإنما استنبأهم وقد علم عجزهم عن الإنباء إظهارًا لعجزهم عن إقامة ما علقوا به رجاءهم من أمر الخلافة (٧٨).

٣٢ – قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ. اعترفت الملائكة بالعجز عن معرفة الأشياء المعروضة عليها، واتجهت الملائكة إلى تقديس الله وتنزيهه تعالى أن يحيط أحد بشىء من علمه إلا بما شاء، واعترفت بالعجز والقصور عما كلفوه، وأنه سبحانه العالم بكل المعلومات التى من جملتها استعداد آدم – عليه السلام – ، للخلافة بالأرض وعجز الملائكة عن هذه الخلافة .

٣٣ – قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ .

أمر الله آدم أن يخبر الملائكة بأسماء دواب الأرض والطير كلها ففعل .

فلما ظهر فضل آدم على الملائكة فى سرده ما علَّمه الله تعالى من أسماء الأشياء قال الله للملائكة :

أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ.

وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ. من قولكم. وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ. فى نفوسكم ، فلا يخفى علىَّ شىء، سواء عندى سرائركم وعلانيتكم.



سجـود الملائكة لآدم

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

فى هذه الآية تذكير بنعمة الله على نبينا آدم – عليه السلام – والآية ناطقة بالتعظيم لقدره ، والتنويه لشأنه حيث أمر الله الملائكة بالسجود له، والآية معطوفة على ما قبلها عطف القصة على القصة، فقد عطفت فيها قصة السجود على قصة الخلق لنستكمل بها نعمه – تعالى – التى تفضل بها على خلقه.

إنه التكريم فى أعلى صوره لهذا المخلوق الذى يفسد فى الأرض ويسفك الدماء ، ولكنه وُهب من الأسرار ما يرفعه على الملائكة ، لقد وهب المعرفة ، كما وهب سر الإرادة المستقلة التى تختار الطريق.. إن ازدواج طبيعته وقدرته على تحكيم إرادته فى شق طريقه ، واضطلاعه بأمانة الهداية إلى الله بمحاولته الخاصة، إن هذا كله بعض أسرار تكريمه .

ولقد سجد الملائكة امتثالاً للأمر العلوى الجليل . إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ . . وهنا نتبدى خليقة الشر مجسمة ، عصيان الجليل سبحانه والاستكبار عن معرفة الفضل لأهله ، والعزة بالإثم ، والاستغلاق عن الفهم .

إبليس :

تعرض القرآن لذكر إبليس فى أكثر من موضع كما ذكر القرآن الجن والشيطان والملائكة، ولكن حديث القرآن عن الإنسان كان كثيرًا ومستفيضًا . وقد أفاد القرآن عن الملائكة بأنها قوة من قوى الخير في هذا العالم وأنهم لا يعصون اللّه ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. وتحدث القرآن عن الجن، وتوجد سورة الجن، وفى أكثر من موضع يذكر إبليس والشيطان والجن على أنها قوى خفية تتحرك فى المجال الإنسانى وتراه دون أن يراها، وإبليس والشيطان يذكران دائمًا فى معرض التحذير منهما والتخويف من إغرائهما إذ كان من شأنهما العداوة للإنسان والنقمة عليه .

ويذكر إبليس وحده فى مقام دعوة الملائكة للسجود لآدم وامتناعه هو عن السجود استكبارًا لذاته وعلوًا على آدم الذى خلق من طين، على حين أنه خلق من نار ، ويذهب بعض المفسرين إلى أن إبليس كان من الملائكة [٧٩]. ثم إنه كان فى درجة دنيا فى هذا العالم الروحى هى درجة الجن ، وهم وإن أشبهوا عالم الملائكة فى أنهم خلقوا من شعلة مقدسة إلا أن الملائكة كانوا من نور هذه الشعلة على حين كان الجن من نارها ، كما يقول تعالى -: وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ. (الحجر٢٧). ولهذا كان الملائكة صفاء خالصًا ، بينما كان الجن صفاء مشوبًا بكدر ، وكان من الجن الأخيار والأشرار، ولم يظل إبليس فى جماعة الجن بل أخرجه اللّه من بينهم ولعنه حين أبى أن يسجد لآدم ، فإبليس كان من عالم الجن ، ثم نزل إلى إبليس، ثم تحول من إبليس إلى شيطان رجيم.

وإذا نظرنا إلى سياق الآية أدركنا أن إبليس لم يكن من جنس الملائكة ؛ (إنما كان معهم فلو كان منهم ما عصى، وصفتهم الأولى أنهم لا يعصون اللّه ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وإبليس من الجن لقوله تعالى – فى آية أخرى .. كَانَ مِنَ الْجِنِّ. (الكهف ٥٠)؛

« وإنما جاز استثناؤه من الملائكة لأنه لما كان بينهم عابدًا بعبادتهم ؛ جعل منهم فإن من طالت إقامته مع قوم واندمج فيهم ، اعتبر منهم وإن لم يكن من قبيلتهم ».

وقد خلق اللّه الجان من مارج من نار ، وهذا يقطع بأنه ليس من الملائكة، والآن لقد انكشف ميدان المعركة الخالدة ، المعركة بين خليفة الشر فى إبليس وخليفة اللّه فى الأرض ، المعركة الخالدة فى ضمير الإنسان (المعركة التى ينتصر فيها الخير بمقدار ما يستعصم الإنسان بإرادته وعهده مع ربه ، وينتصر فيها الشر بمقدار ما يستسلم الإنسان لشهواته ويبعد عن ربه) [٨٠].

★ ★ ★

الأكل من الشجرة

﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾

خلق الله آدم بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له الملائكة وأسكنه فسيح جناته وزوجه حواء وأباح له خيرات الجنة ما عدا شجرة واحدة هى رمز للمخالفة .

جاء فى تفسير المنار للسيد رشيد رضا [٨١] .

(قال الأستاذ الإمام - محمد عبده - وتقرير التمثيل فى قصة آدم هكذا : إن إخبار الله - تعالى - الملائكة بجعل الإنسان خليفة فى الأرض هو عبارة عن تهيئة الأرض وقوى هذا العالم وأرواحه التى بها قوامه ونظامه ، لوجود نوع من المخلوقات يتصرف فيها ويكون به كمال الوجود فى هذه الأرض. وسؤال الملائكة عن جعل خليفة فى الأرض لأنه يعمل باختياره ويعطى استعدادًا فى العلم لا حد لهما وتصويرا لما فى استعداده لذلك، وتمهيدًا لبيان أنه لا ينافى خلافته فى الأرض ، وتعليم آدم الأسماء كلها، بيان لاستعداد الإنسان لتعلم كل شىء فى الأرض ، وانتفاعه به في استعمارها ، وعرض الأسماء على الملائكة وسؤالهم عنها ، وتنصلهم فى الجواب ، تصوير لكون الشعور الذى يصاحب كل روح من الأرواح المدبرة للعوالم محدودًا لا يتعدى وظيفته ، وسجود الملائكة لآدم عبارة عن تسخير هذه الأرواح والقوى له ينتفع بها فى ترقية الكون بمعرفة سنن الله - تعالى - فى ذلك .

وإباء إبليس واستكباره عن السجود ، تمثيل لعجز الإنسان عن إخضاع روح الشر وإبطال داعية خواطر السوء ، التى هى مثار التنازع والتخاصم ، والتعدى والإفساد فى الأرض، ولولا ذلك لجاء على الإنسان زمن يكون أفراده فيه كالملائكة ، بل أعظم ، أو يخرجون عن كونهم من هذا النوع البشرى ، ويراد بالجنة الراحة والنعيم ، فإن من شأن الإنسان أن يجد في الجنة التى هي الحديقة ؛ ما يلذ له من مأكول ومشروب ومشموم ومسموع فى ظل ظليل ، وهواء عليل ، وماء سلسبيل ، ويراد بآدم نوع الإنسان كما يطلق أبو القبيلة الأكبر على القبيلة فيقال : كلب فعلت كذا ويراد قبيلة كلب ، ويراد بالشجرة معنى الشر والمخالفة ، كما عبر الله - تعالى - فى مقام التمثيل عن الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة ، وفسرت بكلمة التوحيد ، وعن الكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة وفسرت بكلمة الكفر.

والمعنى على هذا أن الله - تعالى - كوّن النوع البشرى فى أطوار ثلاثة :

١ - **طور الطفولة** وهو طور لا هم فيه ولا كدر ، بل هو لهو ولعب وكأنه فى جنة ملتفة بالأشجار ويانعة الثمار

٢ - **طور التمييز الناقص** : ويكون فيه الإنسان عرضة لاتباع الهوى بوسوسة الشيطان .

٣ - **طور الرشد** وهو الذى يعتبر فيه المرء بنتائج الحوادث ويلتجئ فيه حين الشدة إلى القوة الغيبية العليا ، التى منها كل شىء وإليها يرجع الأمر كله.

والإنسان فى أفراده مثال الإنسان فى مجموعه، فقد كان الإنسان فى ابتداء حياته الاجتماعية ساذجا سليم الفطرة ، مقتصرًا فى طلب حاجاته على القصد والعدل ، متعاونًا على دفع ما عساه يصيبه من مزعجات الكون ، وهذا هو العصر الذى يذكره جميع طوائف البشر ويسمونه بالعصر الذهبى ؛ ولكن لم يكفه هذا النعيم العظيم ، فمد بعض أفراده أيديهم إلى تناول ما ليس لهم طاعة للشهوة ؛ وميلاً مع خيال اللذة ، وتنبه من ذلك ما كان نائمًا فى نفوس سائرهم ، فثار النزاع وعظم الخلاف، وهذا هو الطور الثانى وهو معروف فى تاريخ الأمم .

ثم جاء الطور الثالث وهو طور العقل والتدبر ووزن الخير والشر بميزان النظر والفكر ، وتحديد حدود للأعمال تنتهى إليها نزعات الشهوات ؛ ويقف عندها سير الرغبات، وهو طور التوبة والهداية إن شاء الله .

وبقى طور آخر من هذه الأطوار ، هو منتهى الكمال، وهو طور الدين الإلهى والوحى السماوى ، الذى به كمال الهداية الإنسانية (٨٢).

مجمل تفسير الآيات :

علمت مما سلف أن الحكمة الإلهية اقتضت إيجاد النوع الإنسانى فى الأرض واستخلافه فيها ، وأن الملائكة فهموا أنه يفسد نظامها ويسفك الدماء فأعلمهم المولى بالحكمة من خلق آدم ، فقد أوجده الله مزودًا بالقدرة على التعلم ، وقد علمه الله الأسماء كلها ، وأخضع له الملائكة إلا إبليس ، فقد أبى واستكبر عن السجود لما فى طبيعته من الاستعداد للعِصيان .

وهنا ذكر أنه تعالى أمر آدم وزوجه بسكنى الجنة والتمتع بما فيها ، ونهاهم أن يأكلا من شجرة معينة ، وأعلمهما أن القرب منها ظلم لأنفسهما ، وأن الشيطان أزلهما عنها فأخرجهما من ذلك النعيم ، وأن آدم أناب إلى الله من معصيته فقبل توبته ، وقد سيقت هذه القصة تسلية للنبى - صلى الله عليه وسلم عما يلاقى من الإنكار ، ليعلم أن المعصية من شأن البشر، فالضعف غريزة فيهم ينتهى إلى أول سلف منهم .

وهو أبوهم آدم عليه السلام فقد تغلبت عليه الوساوس. فلا تأس أيها الرسول الكريم على القوم الكافرين، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات (٨٣) .

التفسير :

٣٥ - وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ . أى وقلنا له اتخذ الجنة مسكنًا لك ولزوجك، واختلفت آراء العلماء فى الجنة المرادة هنا ، فمن قائل إنها دار الثواب التى أعدها الله للمؤمنين يوم القيامة ، لسبق ذكرها فى هذه السورة ، وفى ظواهر السنة ما يدل عليه فهى إذًا فى السماء ؛ حيث شاء الله منها .

ومن قائل إنها جنة أخرى خلقها الله امتحانًا لآدم - عليه السلام ، وكانت بستانًا فى الأرض، وعلى هذا جرى أبو حنيفة وتبعه أبو منصور الماتريدى فى تفسيره المسمى بالتأويلات ، فقال : نحن نعتقد أن هذه الجنة بستان من البساتين أو غيضة من الغياض ، كان آدم وزوجه منعمين فيها ؛ وليس علينا تعيينها ولا البحث عن مكانها ، وهذا هو مذهب السلف ؛ ولا دليل لمن خاض فى تعيين مكانها من أهل السنة وغيرهم.

قال ابن كثير : « وقد اختلف فى الجنة التى أسكنها آدم أهى فى السماء أو فى الأرض فالأكثرون على الأول » (٨٤).

وقد رجح **الآلوسى** فى تفسيره (روح المعانى) أن الجنة فى الأرض، واستدل على ذلك بأن الله خلق آدم ليكون خليفة فيها هو وذريته ، فالخلافة منهم مقصودة بالذات ، فلا يصح أن يكون وجودهم فيها عقوبة عارضة. ثم ساق عددًا من الأدلة فى وصف جنة الآخرة بأنها لا تكليف فيها ، ولا يدخلها إلا المتقون المؤمنون . فكيف دخلها الشيطان الكافر للوسوسة.

وارى أن نؤمن بأن الله أسكن آدم الجنة، ونفوض المراد منها إلى الله - سبحانه وتعالى :

وَكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا . أى كلا منها من أى مكان شئتما ؛ وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِين. لم يبين لنا ربنا هذه الشجرة ؛ فلا نستطيع أن نعينها من تلقاء أنفسنا بلا دليل قاطع ؛ ولأن المقصود يحصل بدون التعيين .

« قال الإمام أبو جعفر بن جرير - رحمه الله : والصواب فى ذلك أن يقال : إن الله - عز وجل ثناؤه - نهى آدم وذريته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها ، وأكلا منها ولا علم عندنا بأى شجرة كانت على التعيين لأن الله لم يضع لعباده دليلاً على ذلك فى القرآن ولا فى السنة الصحيحة ، وقد قيل : كانت شجرة البر ، وقيل كانت شجرة العنب ، وقيل كانت شجرة التين ، وجائز أن تكون واحدة منها وذلك علم إذا علم لم ينفع العالم به علمه ، وإن جهله جاهل لم يضره جهله به والله أعلم » (٨٥).

والقرآن الكريم إذ وقف بالشجرة دون أن يحدد نوعها فإنما ذلك لأنها معروفة معهودة لآدم ولزوجه ثم إن عدم تحديد نوعها فى الحديث إلينا لا يمنع أن يكون للشجرة مفهوم خاص عندنا وإن لم يدخل فيه نوعها أيا كان .

فلنحاول فهم الشجرة على أنها مجرد شجرة ليس لها صفة خاصة تمتاز بها عن الأشجار التى معها إلا فى تحديد ذاتها بالإشارة إليها.

فلتكن هذه الشجرة ما تكون .. شجرة كرم أو تين أو كافور بين العديد من مثيلاتها إلا أن النهى والتحريم وقع عليها دون غيرها.

وهذا التحريم لشجرة بعينها إنما هو امتحان لآدم وابتلاء لعزيمته أمام الإغراء وحب الاستطلاع الذى هو غريزة قوية عاملة فيه (٨٦).

قال تعالى : وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً (طه ١١٥).

وقوله تعالى : فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ . المراد من ظلمهما ظلم أنفسهما بأن مخالفة النهى كانت سببًا فى حرمانهما مما كانا فيه من نعيم وراحة .

٣٦ - فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ . الزلل السقوط، يقال زل فى طين أو منطق يزل بالكسر زليلاً، وقال الفراء زل يزل بالفتح زللا .

التفسير :

وسوس الشيطان لآدم وأغراه بالأكل من الشجرة فطرد الله آدم وحواء من الجنة إلى الدنيا ؛ وأوجب عليه أن يعمل ليكسب رزقه بعرق جبينه وكد يمينه ، وأن يمارس دوره فى الحياة وفى خلافة الأرض ، وقد حذره الله من الشيطان وبين أن عداوة إبليس لآدم وذريته مستمرة إلى يوم القيامة .

فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ .

وبالتعبير المصور أزلهما (إنه لفظ يرسم صورة الحركة التى يعبر عنها وإنك لتكاد تلمح الشيطان وهو يزحزحهما عن الجنة ويدفع بأقدامهما فتزل وتهوى) .

عندئذ تمت التجربة : « نسى آدم عهده وضعف أمام الغواية »[٨٧] ، وعندئذ حقت كلمة الله وصرح قضاؤه.

وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ .

المأمور بالهبوط هو آدم وزوجه وإبليس ، وهو المأثور عن ابن عباس ومجاهد وكثير من السلف .

اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ . اهبطوا حال كون بعض أولادكم عدوا للآخر (بما ركزه الله فيهم من غرائز صالحة للخير والشر ، يستغلها الشيطان فيوسوس لهم ويزين القبح حسنا فتندفع الغرائز نحو البغى والعدوان على الناس إلا من اعتصم بالشرع وحكم العقل فكان من المخلصين[٨٨] كما قال - تعالى - : لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ . (الحجر ٣٩ -٤٠) .

وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ .

مستقر : أى قرار وأرزاق وآجال.

إلى حين : أى إلى وقت مؤقت ومقدار معين ثم تقوم القيامة[٨٩] .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : « **خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها**) رواه مسلم والنسائى[٩٠].

٣٧ - فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ أى ألهم الله آدم أن يتوب إليه، وأن يعترف بذنبه وأن يطلب المغفرة من الله فيغفر الله له، وقد فتح الله بابه لكل تائب .

فمن شأن الإنسان أن يخطئ ومن شأن الإله أن يغفر الذنب وأن يقبل التوبة وأن يفتح بابه للتائبين.

وقيل إن الكلمات التى تلقاها آدم من ربه مفسرة بقوله تعالى :

قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ [٩١].

وعن ابن عباس : فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ . (قال : أى رب ألم تخلقنى بيدك ؟ قال : بلى . قال : أى رب

ألم تنفخ فيَّ من روحــك ؟ قال : بلى . قال : أرأيت إن تبت وأصلحت أراجعي أنت إلى الجنَّة ؟ قال : بلى) رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه [٩٢] .

وقد أثبتت الآية التوبة لآدم وحده فقال تعالى : فَتَابَ عَلَيْهِ . مع أن حواء شريكة له فى الذنب بإجماع العلماء ، لأن حواء تابعة له فى الحكم إذ النساء شقائق الرجال فى الأحكام؛ ولذا طوى ذكرهن فى معظم الكتاب والسنة اكتفاء بذكر الرجال بإزاء الأحكام .

فكرة الخطيئة والتوبة فى الإسلام :

نحس من خلال قصة آدم أن خطيئته فردية وأن توبته فردية فهو قد أكل من الشجرة هو وحواء بإغراء الشيطان وتزيينه السوء لهما ثم ندم آدم وندمت حواء وتابا وقبل الله منهما التوبة فهو التواب الرحيم. وهو العليم بطبيعة الإنسان حيث يقول سبحانه الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (٣٢) . (النجم: ٣٢).

فالله خالق الإنسان وهو العليم بضعفه ونزواته، ولذلك أرسل له الرسل وفتح له باب التوبة . (وليست هناك خطيئة مفروضة على الإنسان قبل مولده كما تقول نظرية الكنيسة، وليس هناك تكفير لاهوتى كالذى تقول الكنيسة إن عيسى عليه السلام (ابن الله بزعمهم) قام به بصلبه تخليصًا لبنى آدم من خطيئة آدم. كلا، خطيئة آدم كانت خطيئته الشخصية والخلاص منها كان بالتوبة المباشرة فى يسر وبساطة، وخطيئة كل ولد من أولاده خطيئة كذلك شخصية والطريق مفتوح للتوبة فى يسر وبساطة .. تصوير مريح صريح يحمل كل إنسان وزره ، ويوحى إلى كل إنسان بالجهد والمحاولة وعدم اليأس والقنوط) [٩٣] . إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ.



الهدى والكفر

﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٣٩) ﴾

المفردات :

الهدى : الرشد بإرسال رسول ومعه كتاب وشرائع لهداية البشر.

الخوف : ألم الإنسان مما قد يصيبه من مكروه أو حرمانه من محبوب يتمتع به أو يطلبه.

الحزن : ألم يلم به إذا فقد ما يحب .

والآيات : مفردها آية وهى العلامة الظاهرة، والمراد بها كل ما يدل على وجود الخالق ووحدانيته مما فى الكون ومما نشاهده فى الأنفس .

أصحاب النار : ملازموها فكأنهم ملكوها فصاروا أصحابها.

الخلود : الدوام .

التفسير :

كرر الله تعالى أمره بالهبوط من الجنة إلى دار الدنيا لبيان أن ذلك أمر محتوم لا محالة ، وأن قبول التوبة لا يدفعه (أو لاختلاف المقصود، فإن الأول دل على أن هبوطهم إلى دار بلية يتعادون فيها ولا يخلدون والثانى أشعر بأنهم أهبطوا للتكليف فمن اتبع الهدى نجا ومن ضل عنه هلك) [٩٤]. (يقول تعالى مخبرًا عما أنذر به آدم وزوجه وإبليس حين أهبطهم من الجنة ، والمراد الذرية : أنه سينزل الكتب ويبعث الأنبياء والرسل فَمَن تَبِعَ هُدَايَ . أى من أقبل على ما أنزلت به الكتب وأرسلت به الرسل فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ . أى فيما يستقبلون من أمر الآخرة، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من أمور الدنيا [٩٥]).

(كما قال فى سورة طه: قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ. (طه ١٢٣). قال ابن عباس فلا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة) [٩٦].

إن رحلة الإنسان فى هذه الحياة هى اختبار وابتلاء، فقد أرسل الله إليه الرسل وأعطاه العقل والفكر وبين له سبيل الرشاد والهدى، فمن اتبع وصدق فى الإيمان والإحسان فلا خوف عليه فى دنياه ولا حزن عليه فى أخراه، بل هو دائم الابتهاج والسرور.

٣٩ - وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . وهذه الآية معطوفة على ما قبلها. فمن اتبع الهدى فله الفوز والنجاة.

ومن كفر بآيات الله وكذب بالقرآن وجحد أدلة الربوبية والألوهية وعتا واستكبر فهو ملازم النار خالدًا فيها جزاء كفره وعناده.

فى ختام القصة :

توحى قصة آدم بما يأتى :

١ - التحذير من المعصية ، فهى طريق الشر والغواية .

٢ - الدعوة إلى التوبة والهداية .

٣ - فضل الله الإنسان بالعلم فكلما زاد علمه كان جديرًا بخلافة الأرض.

٤ - المسئولية فردية فمن أخطأ استحق العقاب ومن أطاع استحق الثواب ومن تاب تاب الله عليه.

وفى القصة دعوة إلى الإيمان بالغيب والتسليم ، وانحناء أمام قدرة الله ؛ والإيمان بالنصوص كما وردت، وتفويض المراد منها إلى الله تعالى ؛ يقول الأستاذ سيد قطب :

فأين هـذا الذى كان ؟ وما الجنة التى عاش فيها آدم وزوجه حينًا من الزمـان ؟ ومن هم الملائكة؟ ومن هو إبليس ؟ كيف قال الله تعالى لهم ؟ وكيف أجابوه ؟.

هذا وأمثاله فى القرآن الكريم غيب من الغيب الذى استأثر الله تعالى بعلمه ، وعلم بحكمته أن لا جدوى للبشر فى معرفة كنهه وطبيعته ، فلم يهب لهم القدرة على إدراكه والإحاطة به بالأداة التى وهبهم إياها لخلافة الأرض، وليس من مستلزمات الخلافة أن نطلع على الغيب (٩٧) .

إن أبرز إيحاءات قصة آدم هو أن الإنسان سيد هذه الأرض ، ومن أجله خلق كل شىء فيها ، فهو إذن أعز وأكرم وأغلى من كل شىء مادى ، ومن كل قيمة مادية ، ولا يجوز إذن أن يستعبد أو يستذل لقاء توفير قيمة مادية، فهذه الماديات كلها مخلوقة من أجله، من أجل تحقيق إنسانيته . فالإنسان مخلوق ليكون خليفة الله فى الأرض .

وقد رفع الإسلام من شأن الإرادة فى الإنسان ، فهى مناط العهد مع الله ، وهى مناط التكليف والجزاء، إنه يملك الارتفاع على مقام الملائكة ، بحفظ عهده مع ربه ، عن طريق تحكيم إرادته وعدم الخضوع لشهواته ؛ والاستعلاء على الغواية التى توجه إليه (٩٨) ، بينما يستطيع الإنسان أن يشقى نفسه بتغليب الشهوة على الإرادة ونسيان عهده مع الله .

ذلك وحى قصة آدم خليفة الله فى أرضه (ومفرق الطريق فى عهد آدم مع ربه، إنه إما أن يسمع ويطيع لما يتلقاه من الله وإما أن يسمع لما يمليه عليه الشيطان وليس هناك طريق ثالث .

إما الهدى وإما الضلال ، إما الحق وإما الباطل ، إما الفلاح وإما الخسران ، وهذه الحقيقة هى التى يعبر عنها القرآن كله بوصفها الحقيقة الأولى التى تقوم عليها سائر التصورات . وسائر الأوضاع فى عالم الإنسان) (٩٩).

★ ★ ★

دعوة اليهود إلى الإيمان

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

المفردات :

إسرائيل : لقب يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، ومعناه صفى الله وقيل : الأمير المجاهد ، وبنوه أولاده وهم اليهود.

عهد الله : هو أن يعبدوا الله وحده لا شريك له ، وأن يعملوا بشرائعه وأحكامه وأن يؤمنوا برسله.

عهدكم : ما عاهدتكم عليه من الثواب على الإيمان .
ولا تشتروا بآياتى ثمنًا قليلا : البيع والشراء قد يطلق كل منهما مكان الآخر والمعنى لا تبيعوا آياتى بثمن قليل.
تلبسوا : تخلطوا.

المناسبة :

هذه الآيات بداية سلسلة طويلة فى بنى إسرائيل وموقفهم من الدعوة الإسلامية .

(لقد احتوت الآيات السابقة بيان حالة ثلاث من الناس وهم: المؤمنون والكفار والمشركون ، والمنافقون ، فجاءت هذه الآيات لبيان حالة فئة أخرى وهم الكتابيون، ولما كان اليهود هم الفئة الأكبر عددًا والأرسخ قدمًا والأوسع حيزًا ونفوذًا فى المدينة فقد اقتضت حكمة التنزيل أن يدار الكلام عليهم) [١٠٠].

مضمون الآيات :

لقد بدأت هذه الآيات هذه الجولة مع يهود المدينة .

فذكرت نعم الله على بنى إسرائيل وحثتهم على الوفاء بعهده واتقاء غضبه ، ودعت اليهود إلى الدخول فى الدعوة الجديدة والإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، فهم يعرفون صدقه من كتبهم فلا يصح أن يكونوا أول كافر بدعوته . ولا يصح أن يرفضوا الإيمان بمحمد طمعًا فى عرض قليل من أعراض الدنيا . ولا يصح أن يكتموا صفة النبى صلى الله عليه وسلم ، ويمنعوا الاعتراف به مع ادعائهم الإيمان بالله ، فيخلطون الحق بالباطل ويكتمون الحق عن علم ومعرفة لا عن سهو أو جهل .

ثم دعتهم الآيات إلى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والركوع مع الراكعين ، دون انفراد .

جنسية يهود المدينة :

ذكر الأستاذ محمد عزة دروزة : (أن يهود المدينة إسرائيليون أصلا وطارئون على الحجاز وأنهم كانوا يتكلمون بالعبرية ويحافظون على لغة آبائهم الأصلية ويقرأون كتبهم بها؛ ولذلك ربط القرآن أخلاق اليهود فى الحجاز بأخلاق آبائهم ومواقفهم وخاطبهم كسلسلة متصلة بعضها ببعض) .

ولقد ذكر ابن سعد فى طبقاته [١٠١] أن النبى- صلى الله عليه وسلم- أرسل سرية لقتل أبى رافع بن أبى الحقيق فى خيبر ، وقد اختير رئيسًا لها عبد الله بن عتيك لأنه كان يرطن باليهودية ، أى يعرف العبرانية لغة اليهود ، حيث يدل ذلك على أن اليهود كانوا ما يزالون يتكلمون فيما بينهم بلغتهم الأصلية ، وبالتالى يدل على أنهم إسرائيليون .

والمتبادر من وقائع التاريخ القديم أنهم جاءوا من فلسطين فى القرنين الأول والثانى بعد الميلاد، إثر الغربة الشديدة التى أنزلها بهم الرومان سنة ٧٠ بعد الميلاد، والتى شُتت من بقى حيا منهم فى آفاق الأرض .. وقد نزلوا فى المدينة وأماكن أخرى فى طريق يثرب – الشام مثل وادى القرى وخيبر وفدك ومتنا وتيماء ، وقد امتلكوا الأرضين فيها واستثمروها ، وأنشأوا كثيرًا من بساتين النخل والعنب، بالإضافة إلى الزراعات الموسمية، واشتغلوا بالتجارة والصناعة والربا ، وقد شادوا الحصون والقلاع ليكون لهم بها منعة فى الوسط الجديد الذى حلوا فيه ، والذى كان مباءة تجوال القبائل العربية ، وتكلموا اللغة العربية والعادات العربية ، واستطاعوا بما كان لهم من أموال ونشاط زراعى وتجارى وصناعى ومعارف دينية وغير دينية ، أن يحتلوا فى نفوس العرب وبيئتهم مكانة ،

وأن يصبحوا عندهم ذوى نفوذ وتأثير ، والراجح أنهم قدموا أنفسهم للعرب كأبناء عم قدماء لهم ، وقالوا لهم أنتم أبناء إسماعيل ونحن أبناء إسحاق ، وكلانا أبناء إبراهيم ، وشهدوا لهم أن إبراهيم قد أسكن ابنه إسحاق قديمًا بين ظهرانى آبائهم ، وأن الكعبة والحجر هى مما أنشأه إبراهيم ، فنالوا بذلك كله ترحيبهم وثقتهم (١٠٢) .

القرآن واليهود :

والقرآن لا يعرض هنا قصة بنى إسرائيل؛ إنما يشير إلى مواقف منها ومشاهد باختصار أو بتطويل مناسب ، وقد وردت القصة فى السور المكية التى نزلت قبل هذا ، ولكنها هناك كانت تذكر مع غيرها لتثبيت القلة المؤمنة فى مكة ، بعرض تجارب الدعوة وموكب الإيمان الواصل منذ أول الخليقة ، وتوجيه الجماعة المسلمة بما يناسب ظروفها فى مكة ، فأما هنا فالقصد هو كشف حقيقة اليهود ونواياها، وتحذير الجماعة المسلمة منها، وتحذيرها كذلك من الوقوع فى مثل ما وقعت فيه قبلها يهود... وبسبب اختلاف الهدف بين القرآن المكى والقرآن المدنى اختلفت طريقة العرض، وإن كانت الحقائق التى عرضت هنا وهناك عن انحراف بنى إسرائيل ومعصيتهم واحدة (١٠٣).

« وقصة بنى إسرائيل هى أكثر القصص ورودًا فى القرآن الكريم ، والعناية بعرض مواقفها عناية ظاهرة ، توحى بحكمة الله فى علاج أمر هذه الأمة المسلمة ، وتربيتها وإعدادها للخلافة الكبرى » (١٠٤).

التفسير :

٤٠ - يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ .

(يقول تعالى آمرًا بنى إسرائيل بالدخول فى الإسلام ومتابعة محمد عليه الصلاة والسلام ، ومهيجًا لهم بذكر أبيهم إسرائيل وهو نبى الله يعقوب عليه السلام، وتقديره : يا بنى العبد الصالح المطيع لله كونوا مثل أبيكم فى متابعة الحق، كما تقول يابن الكريم افعل كذا ، يابن الشجاع بارز الأبطال، يابن العالم اطلب العلم) (١٠٥).

اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ لقد أنعم الله على بنى إسرائيل نعما متعددة ولكنهم قابلوا هذه النعم بالجحود والكنود . قال ابن جرير : نعمه التى أنعم بها على بنى إسرائيل هى :

اصطفاؤه منهم الرسل ، وإنزاله عليهم الكتب واستنقاذه إياهم مما كانوا فيه من البلاء والفقر من فرعون وقومه إلى التمكين لهم فى الأرض وتفجير عيون الماء من الحجر، وإطعام المن والسلوى (١٠٦).

وقد أمر الله الذرية أن تتذكر هذه النعم ، وألا يقابلوها بالجحود حتى لا تنزل بهم نقمة الله وعقابه .

ومن ذلك قول موسى - عليه السلام - لهم : يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ. (المائدة ٢٠).

أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ يعنى فى زمانهم (١٠٧) .

وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ . والعهد هنا عهد الفطرة المعقود بين الإنسان وبارئه أن يعبده وحده لا شريك له، وهو العهد الذى لا يحتاج إلى البيان ولا يحتاج إلى برهان لأن فطرة الإنسان بذاتها تتجه إليه بأشواقها ولا يصدها عنه إلا الغواية والانحراف.

وقال ابن عباس : بعهدى الذى أخذت فى أعناقكم للنبى محمد - صلى الله عليه وسلم - [١٠٨] ، أن تؤمنوا به وأن تنصروه [١٠٩] لأنهم يجدونه مكتوبًا عندهم فى التوراة، وعهده تعالى إياهم هو أنهم إذا فعلوا ذلك أدخلهم الجنة.

وقيل العهد هنا هو عهد الله لآدم : فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (البقرة ٣٨ - ٣٩).

وهذه العهود جميعها إن هى إلا عهد واحد فى صميمها، إنه العهد بين البارئ وعباده ، أن يصغوا قلوبهم إليه وأن يسلموا أنفسهم كلها له، وهذا هو الدين الواحد، وهذا هو الإسلام الذى جاءت به الرسل جميعًا وسار موكب الإيمان يحمله شعارًا له على مدار القرون [١١٠] .

ووفاء بهذا العهد يدعو الله بنى إسرائيل أن يخافوه وحده وأن يفردوه بالخشية .

وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (قال ابن عباس : أنزل بكم ما أنزلت بمن كان قبلكم من آبائكم من النقمات التى قد عرفتم من المسخ وغيره) [١١١].

وهذا انتقال من الترغيب إلى الترهيب فدعاهم إليه بالرغبة والرهبة لعلهم يرجعون إلى الحق واتباع الرسول والاتعاظ بالقرآن وزواجره وامتثال أوامره وتصديق أخباره، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم [١١٢].

٤١ - وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ (يعنى به القرآن الذى أنزله على النبى محمد الأمى العربى بشيرا ونذيرًا وسراجًا منيرًا، مشتملاً على الحق من الله - تعالى - مصدقًا لما بين يديه من التوراة والإنجيل) [١١٣] .

وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ولا تكونوا يا أهل الكتاب أول الناس فى الكفر به فأنتم أحق بالإيمان لأن عندكم فى التوراة دليل صدقه.

وقال ابن كثير : وأما قوله أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ فيعنى به أول من كفر به من بنى إسرائيل؛ لأنه قد تقدمهم من كفار قريش وغيرهم من العرب بشر كثير، وإنما المراد أول كافر من بنى إسرائيل مباشرة؛ فإن يهود المدينة أول من خوطبوا بالقرآن ، فكفرهم به يستلزم أنهم أول من كفر من جنسهم.

وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ : ولا تبيعوا آيات الله الواضحة الدالة على صدق محمد فيما ادعى ، لا تبيعوها بثمن دنيوى قليل من رياسة أو مال أو عادات قديمة ، فإن الدنيا كلها ثمن قليل حين تقاس إلى الإيمان بآيات الله ، وإلى عاقبة الإيمان فى الآخرة ، وقال تعالى : قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً . (النساء ٧٧).

وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ أى لا تتقوا غضب رؤسائكم ومرءوسيكم بدوامكم على الكفر ولكن إياى وحدى فاتقون: بالإيمان واتباع الحق والإعراض عن متاع الدنيا.

روى ابن أبى حاتم عن طلق بن حبيب قال : التقوى أن تعمل بطاعة الله رجاء الله على نور من الله.

والتقوى : أن تترك معصية الله مخافة عذاب الله على نور من الله [١١٤] .

٤٢ - ﴿ولا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ . ولا تخلطوا الحق الموجود فى التوراة بالباطل الذى تخترعونه ، ولا تكتموا وصف النبى وبشارته التى هى حق وأنتم تعلمون .

« ولقد زاول اليهود هذا التلبيس والتخليط وكتمان الحق فى كل مناسبة عرضت عليهم ، كما فصَّل القرآن فى مواضع كثيرة وكانوا دائمًا عامل فتنة وبلبلة فى المجتمع الإسلامى ، وعامل اضطراب ، وخلخلة فى الصف المسلم » [١١٥] .

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ . أى والحال أنكم عالمون بالحق وليس لكم عذر بالجهل، وما أقبح صدور الذنب ممن يرتكبه وهو عالم، وقال ابن كثير: ولا تكتموا ما عندكم من المعرفة برسولى وبما جاء به وأنتم تجدونه مكتوبا عندكم فيما تعلمون من الكتب التى بأيديكم [١١٦].

٤٣ - ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ بعد أن دعا بنى إسرائيل إلى الإيمان أمرهم بصالح العمل على الوجه المقبول عند الله ، فطلب منهم إقامة الصلاة لتطهير نفوسهم، كما طلب إيتاء الزكاة لما فيها من التكافل والتعاون بين الأغنياء والفقراء، ثم دعاهم إلى الركوع مع الراكعين، أى أن يدخلوا فى جماعة الإسلام مع المسلمين ويصلوا صلاتهم .

(وعبر عن الصلاة بالركوع ليبعدهم عن الصلاة التى كانوا يصلونها قبلا إذ لا ركوع فيها) [١١٧].

قال ابن جرير : هذا أمر من الله - جل ثناؤه - لمن ذكر من أحبار بنى إسرائيل ومنافقيها بالإنابة والتوبة إليه ، وبإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والدخول مع المسلمين فى الإسلام ، والخضوع له بالطاعة ، ونهى منه لهم عن كتمان ما قد علموه من نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - بعد تظاهر حججه عليهم وبعد الإعذار لهم والإنذار ، وبعد تذكيره نعمه إليهم وإلى أسلافهم تعطفًا منه بذلك عليهم ، وإبلاغه إليهم فى المعذرة [١١٨].

وقد قيل فى قوله ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ حث على إقامة الصلاة فى جماعة لما فيها من تآلف القلوب وتظاهر النفوس فى المناجاة.



موافقة الأفعال للأقوال

﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

المفردات :

البـــر : سعة الخير ومنه البر والبرية للفضاء الواسع.

الصبر : حبس النفس على ما تكره ، أو هو احتمال المكروه بنوع من الرضا والاختيار والتسليم.

كبيرة : ثقيلة شديدة الوقع .

يظنون : يعتقدون .

لقاء الله : هو الحشر إليه .

إليه راجعون : يلقون الثواب والعقاب .

قصة الآيات :

روى عن ابن عباس وبعض التابعين وتابعيهم ، (أن اليهود قالوا لبعض أصحاب النبى - صلى الله عليه وسلم - إن محمدًا حق فاتبعوه ترشدوا [١١٩].

وقد كان اليهود يبشرون ببعثة محمد - صلى الله عليه وسلم - ونزول القرآن عليه ويستفتحون بذلك على العرب قبل الإسلام أنهم سيكونون حزبه ، فكيف يقابلونه بالكفر والجحود فى أول عهد النبى فى المدينة [١٢٠].

بشارة التوراة :

جاء فى التوراة فى صفة النبى - صلى الله عليه وسلم - « أنه يقيم من إخوتهم نبيًا يقيم الحق » وجاء فى سفر تثنية الاشتراع (١٧) قال لى الرب : أحسنوا فيما تكلموا (١٨) سوف أقيم لهم نبيًا من وسط إخوتهم مثلك ، وأجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه (١٩) ويكون أن الإنسان الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى أنا أكون المنتقم منه ».

وقد حرف اليهود هذه البشارة وأولوها بما يوافق أهواءهم .

التفسير :

٤٤ - أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ . هذا أسلوب للتوبيخ والتأنيب .

يقول تعالى كيف يليق بكم يا معشر أهل الكتاب وأنتم تأمرون الناس بالبر - وهو جماع الخير - أن تنسوا أنفسكم فلا تأمروها بما تأمرون به الناس [١٢١] .

وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ تقرءون التوراة وتدرسونها أَفَلا تَعْقِلُونَ أى أفلا عقل لكم بحبسكم عن هذا السفه والعقل فى الأصل : المنع والإمساك، سمى به النور الروحى الذى تدرك به العلوم الضرورية والنظرية، لأنه يمسك النفس ويمنعها عن تعاطى ما يقبح ، ويعقلها على ما يحسن.

« والغرض أن الله تعالى ذمهم على هذا الصنيع ونبههم على خطئهم فى حق أنفسهم، حيث كانوا يأمرون بالخير ولا يفعلونه ، وليس المراد ذمهم على أمرهم بالبر مع تركهم له ، بل على تركهم؛ له فإن الأمر بالمعروف معروف، وهو واجب على العالم، ولكن الواجب والأولى بالعالم أن يفعله مع من أمرهم به، ولا يتخلف عنهم »(١٢٢) كما قال شعيب عليه السلام : وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (هود ٨٨) .

والصحيح أن العالم يأمر بالمعروف وإن لم يفعله ، وينهى عن المنكر وإن ارتكبه ، ولكنه والحالة هذه مذموم على ترك الطاعة وفعله المعصية لعلمه بها ومخالفته على بصيرة، فإنه ليس من يعلم كمن لا يعلم (١٢٣).

قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ (الصف ٢-٣).

٤٥ - وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ قال ابن جرير « استعينوا - أيها الأحبار من أهل الكتاب - بحبس أنفسكم على طاعة الله ، وبإقامة الصلاة المانعة من الفحشاء والمنكر المقربة من مراضى الله ، العظيمة إقامتها إلا على المتواضعين لله المستكينين لطاعته المتذللين من مخافته (١٢٤).

« والآية وإن كانت خطابا فى سياق إنذار بنى إسرائيل فإنهم لم يقصدوا بها على سبيل التخصيص وإنما هى عامة لهم ولغيرهم » (١٢٥) .

والصبر نصف الإيمان وهو اليقين الجازم بالقضاء والقدر والتسليم المطلق لإرادة الله مع الأخذ فى الأسباب ، أما الصلاة فهى الواحة الوارفة الظلال التى يلجأ إليها المؤمن من هجير الحياة فيناجى الله ويستمد منه العون والمدد، وقد كان - صلى الله عليه وسلم - إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة (١٢٦).

وروى ابن جرير أن ابن عباس نعى إليه أخوه قثم وهو فى سفر ، فاسترجع ثم تنحى عن الطريق فأناخ فصلى ركعتين أطال فيهما الجلوس ثم قام يمشى إلى راحلته وهو يقول: وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ (١٢٧) .

٤٦ - الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ الذين يتيقنون بلقاء الله بالبعث والرجوع إلى الله فيجازيهم على أعمالهم .

هؤلاء تسهل الصلاة عليهم فيتمون ركوعها وخشوعها ويستقبلون بها ربهم العليم بهم الذى يحسن جزاءهم ويكرم مثوبتهم.

★ ★ ★

تذكيــــر بالنعــم

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

المفردات :

وأنى فضلتكم على العالمين : أى على عالمى زمانهم .

الشفاعة : الشفع ضد الوتر ، لأن الشفيع ينضم إلى الطالب فى تحصيل ما يطلب فيصير معه شفعًا بعد أن كان وترًا .

العدل : الفدية ، أصل العدل (بالفتح) ما يساوى الشىء قيمة وقدرا وإن لم يكن من جنسه (وبالكسر) المساوى فى الجنس والحجم .

التفسير :

٤٧ - يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ نادى الله بنى إسرائيل مذكرًا لهم بسالف نعمته على آبائهم وأسلافهم من إرسال الرسل منهم وإنزال الكتب عليهم، وتفضيل آبائهم على سائـــر الأمم من أهل زمـــانهم كما قال تعالى : وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (الدخان ٣٢). وقال تعالى: وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (المائدة ٢٠) .

قال أبو العالية : فى قوله تعالى: وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ. قال : بما أعطوا من الملك والرسل والكتب على عالم من كان فى ذلك الزمان فإن لكل زمان عالمًا ، وروى عن مجاهد وقتادة نحو ذلك ، ويجب الحمل على هذا؛ لأن هذه الأمة أفضل منهم (١٢٨) » لقوله تعالى خطابًا لهذه الأمة :

كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم. (آل عمران ١١٠) .

وتفضيل بنى إسرائيل على العالمين موقوت بزمان استخلافهم واختيارهم وقيامهم بأمر ربهم ، فأما بعد ما عتوا عن أمر ربهم ، وجحدوا نعمته، وتخلوا عن التزاماتهم وعهدهم ، فقد غضب الله عليهم وكتب عليهم اللعنة والذلة والمسكنة ، وقضى عليهم بالتشريد جزاء فسادهم وبغيهم وعدوانهم.

٤٨ - وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ .

لما ذكرهم بنعم الله عليهم أولا ، عطف على ذلك التحذير من حلول نقمته بهم يوم القيامة .

فى ذلك اليوم لا يغنى أحد عن أحد شيئًا ، فالمسئولية فردية ولكل إنسان جزاء عمله إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

ولا يقبل من إنسان قضاء حق من الحقوق عن إنسان آخر قال تعالى : وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ. (فاطر ١٨) أى لا تحمل نفس ذنب نفس أخرى.

ولو استأذن الكافر فى شفاعة شفيع فإنه لا يجاب إلى رغبته قال تعالى : فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ. (المدثر ٤٨) وقال سبحانه فى وصف يوم القيامة :لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ (١٢٩).

وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ : أى ولا يؤخذ منها فداء إن هى استطاعت أن تأتى بذلك .

وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ : أى يمنعون من العذاب.

والخلاصة – أن ذلك يوم تتقطع فيه الأسباب وتبطل منفعة الأنساب، وتتحول فيه سنة الحياة الدنيا من دفع المكروه عن النفس بالفداء أو بشفاعة الشافعين ، عند الأمراء والسلاطين، أو بأنصار ينصرونها بالحق والباطل على سواها ، وتضمحل فيه جميع الوسائل إلا ما كان من إخلاص فى العمل قبل حلول الأجل ، ولا يتكلم فيه أحد إلا بإذن الله .

(وقد كان اليهود كغيرهم من الأمم الوثنية يقيسون أمور الآخرة على أمور الدنيا . فيتوهمون أنه يمكن تخليص المجرمين من العذاب بفداء يدفع ، أو بشفاعة بعض المقربين ، فيغير رأيه وينقض ما عزم عليه .

فجاء الإسلام ومحا هذه العقيدة ليعلم المؤمنون أنه لا ينفع فى ذلك اليوم إلا مرضاة الله بالعمل الصالح والإيمان الذى يبلغ قرارة النفس ، ويتجلى فى أعمال الجوارح) (١٣٠).

قال ابن جرير : وتأويل قوله : وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ يعنى أنهم يومئذ لا ينصرهم ناصر ، كما لا يشفع لهم شافع ، ولا يقبل منهم عدل ولا فدية ، بطلت هنالك المحاباة ، واضمحلت الرشا والشفاعات ، وارتفع من القوم التعاون والتناصر ، وصار الحكم إلى عدل الجبار الذى لا ينفع لديه الشفعاء والنصراء.

فيجزى بالسيئة مثلها ، وبالحسنة أضعافها (البقرة ٢٥٤)، وذلك نظير قوله تعالى: وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (الصافات ٢٤ – ٢٦).

الشفاعة :

جاءت فى القرآن الكريم آيات تثبت الشفاعة ، وآيات تنفيها (ولا شك أن فى القيامة مواطن ويومها معدود بخمسين ألف سنة، فبعض أوقاتها ليس زمانا للشفاعة ، وبعضها هو الوقت الموعود وفيه المقام المحمود لسيد البشر عليه أفضل الصلاة والسلام ، وقد وردت آى كثيرة ترشد إلى تعدد أيامها واختلاف أوقاتها منها قوله تعالى : فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (المؤمنون ١٠١).

وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ . (الصافات ٢٧، والطور ٢٥) فيتعين حمل الآيتين على يومين مختلفين ووقتين متغايرين أحدهما محل للتساؤل والآخر ليس محلا له (١٣١) .

قال الإمام محمد عبده فى تفسير المنار « فما ورد فى إثبات الشفاعة يكون على هذا من المتشابهات فيه يقضى مذهب السلف بالتفويض والتسليم وأنها مزية يختص الله بها من يشاء يوم القيامة عبر عنها بهذه العبارة (الشفاعة) ولا نحيط بحقيقتها مع تنزيه الله جل جلاله عن المعروف من معنى الشفاعة فى لسان التخاطب العرفى » .

(وأما مذهب الخلف فى التأويل فلنا أن نحمل الشفاعة فيه على أنها دعاء يستجيبه الله تعالى [١٣٢] والأحاديث الواردة فى الشفاعة تدل على هذا، ففى رواية الصحيحين وغيرهما : أن النبى صلى الله عليه وسلم - يسجد يوم القيامة ويثنى على الله - عز وجل - بثناء يلهمه يومئذ فيقال له «ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفع » وليس فى الشفاعة بهذا المعنى أن الله - سبحانه - يرجع عن إرادة كان أرادها لأجل الشافع، وإنما هى إظهار كرامة للشافع بتنفيذ الإرادة الأزلية عقيب دعائه ، وليس فيها إظهار ما يقوى غرور المغرورين الذين يتهاونون بأوامر الدين ونواهيه اعتمادًا على شفاعة الشافعين، بل فيه أن الأمر كله لله ، وأنه لا ينفع أحد فى الآخرة إلا طاعته ورضاه) [١٣٣] ، « فما تنفعهم شفاعة الشافعين ، فما لهم عن التذكرة معرضين ؟ » (المدثر ٤٨-٤٩) . وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ . (الأنبياء ٢٨) .



قتل أطفال بنى إسرائيل

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾

المفردات :

إذ : بمعنى الوقت وهى مفعول فيه لفعل ملاحظ فى الكلام ، وهو اذكروا، أى اذكروا وقت أن نجيناكم ، والمراد من التذكير بالوقت تذكيرهم بما وقع فيه من أحداث.

نجيناكم : النجو المكان العالى من الأرض لأن من صار إليه يخلص وينجو ثم سمى كل فائز ناجيًا لخروجه من الضيق إلى السعة .

الآل : من آل يئول بمعنى رجع ، وآل الرجل أهله وخاصته وأتباعه لأنه يرجع إليهم فى قرابة أو رأى أو مذهب . ولا يضاف إلا لذوى القدر والشأن من الناس .

فرعون : اسم لمن ملك مصر قبل البطالسة ، كما يقال لملك الروم قيصر ، ولملك الفرس كسرى ، ولملك اليمن تبع ، ولملك الحبشة النجاشى .

سامه : كلفه.

السوء : السيىء القبيح.

سوء العذاب : أشده وأفظعه .

البلاء : الاختبار والامتحان ، وهو تارة يكون بما يسر ليشكر العبد ربه ، وتارة بما يضر ليصبر، وتارة غمًا ليرغب ويرهب ، قال تعالى: وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (الأنبياء ٣٥) .

التفسير :

٤٩ - وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩) (١٣٤) .

روى المؤرخون أن أول من دخل مصر من بنى إسرائيل يوسف عليه السلام ، وانضم إليه إخوته فيما بعد. وتكاثر نسلهم حتى بلغوا فى مدى أربعمائة سنة نحو ستة آلاف ، حين خرجوا من مصر باضطهاد من فرعون وقومه لهم ، إذ قد رأى تبسيط اليهود فى البلاد ومزاحمتهم للمصريين فراح يستذلهم ويكلفهم شاق الأعمال فى مختلف المهن والصناعات ، وهم فى ذلك يزدادون نسلا ويحافظون على عاداتهم وتقاليدهم لا يشركون المصريين فى شىء ولا يندمجون فى غمارهم، إلى ما لهم من أنانية وإباء وترفع على سواهم ، اعتقادًا منهم بأنهم شعب الله وأفضل خلقه ، فهال المصريين ما رأوا وخافوا إذا هم كثروا أن يغلبوهم على بلادهم ، ويستأثروا بخيراتها وينتزعوها من بين أيدى أبنائها ، فعملوا على انقراضهم بقتل ذكرانهم واستحياء بناتهم فأمر فرعون القوابل أن يقتلن كل ذكر إسرائيلى حين ولادته (١٣٥).

والمعنى : اذكروا يا بنى إسرائيل وقت أن نجيناكم من آل فرعون الذين كانوا يعذبونكم أشق العذاب وأصعبه ، ويبغونكم ما فيه إذلال لكم واستئصال لأعقابكم وامتهان لكرامتكم حيث كانوا يزهقون أرواح ذكوركم ، ويستبقون نفوس نسائكم ، وفى ذلكم العذاب، وفى النجاة منه امتحان لكم بالسراء ، ولتقلعوا عن السيئات التى تؤدى بكم إلى الإذلال فى الدنيا والعذاب فى الآخرة .

قال الإمام الرازى ما ملخصه:

« واعلم أن الفائدة فى ذكر هذه النعمة - أى نعمة إنجائهم من عدوهم - تتأتى من وجوه أهمها :

١ - أن هذه الأشياء التى ذكرها الله تعالى لما كانت من أعظم ما يمتحن به الناس من جهة الملوك والظلمة، صار تخليص الله عز وجل لهم من هذه المحن من أعظم النعم ، وذلك لأنهم عاينوا هلاك من حاول إهلاكهم ، وشاهدوا ذل من بالغ فى إذلالهم ، ولاشك فى أن ذلك من أعظم النعم ، وعظم النعمة يوجب المبالغة فى الطاعة والبعد عن المعصية، لذا ذكر الله هذه النعمة العظيمة ليلزمهم الحجة وليقطع عذرهم .

٢ - أنهم لما عرفوا أنهم كانوا فى نهاية الذل وكان عدوهم فى نهاية العز إلا أنهم كانوا محقين ، وكان خصمهم مبطلا لا جرم زال ذل المحقين وبطل عز المبطلين ، فكأن الله تعالى يقول لهم لا تغتروا بكثرة أموالكم ولا بقوة مراكزكم ، ولا تستهينوا بالمسلمين لقلة ذات يدهم فإن الحق إلى جانبهم ومن كان الحق إلى جانبه فإن العاقبة لابد أن تكون له (١٣٦).

وقد خوطب بهذه النعمة اليهود الذين كانوا فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم - مع أن هذا الإنجاء كان لأسلافهم لأن فى نجاة أسلافهم نجاة لهم فإنه لو استمر عذاب فرعون للآباء لأفناهم ولما بقى هؤلاء الأبناء .

فلذلك كانت منة النجاة تحمل فى طياتها منّتين ، منة على السلف لتخلصهم مما كانوا فيه من عذاب ، ومنة على الخلف لتمتعهم بالحياة بسببها ؛ وجعلت النجاة هنا من آل فرعون ولم تجعل من فرعون مع أنه الآمر بتعذيب بنى إسرائيل ، للتنبيه على أن حاشيته وبطانته كانت عونًا له ، فى إذاقتهم سوء العذاب وإنزال الإذلال والإعنات بهم .

وجعلت هذه الآية الكريمة استحياء النساء عقوبة لليهود - وهى فى ظاهرها خير - لأن هذا الإبقاء عليهن كان المقصود منه الاعتداء على حيائهن ، واستعمالهن فى الخدمة بالاسترقاق ، فبقاؤهن كذلك بقاء ذليل وعذاب أليم .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : (فى ذبح الذكور دون الإناث مضرة من وجوه : أحدها : أن ذبح الأبناء يقتضى فناء الرجال ، وذلك يقتضى انقطاع النسل لأن النساء إذا انفردن فلا تأثير لهن ألبتة فى ذلك، وهذا يفضى فى نهاية الأمر إلى هلاك الرجال والنساء جميعًا .

ثانيها : أن هلاك الرجال يقتضى فساد مصالح النساء فى أمر المعيشة ؛ فإن المرأة لتتمنى الموت إذا انقطع عنها تعهد الرجال لما قد تقع فيه من نكد العيش بالانفراد، فصارت هذه الخطة عظيمة فى المحن والنجاة فى العظم منها تكون بحسبها .

ثالثها : أن قتل الولد عقب الحمل الطويل ، وتحمل الكبد والرجاء القوى فى الانتفاع به من أعظم العذاب، فنعمة الله فى تخليصهم من هذه المحنة كبيرة .

رابعها : أن بقاء النساء بدون الذكران من أقاربهم ، يؤدى إلى صيرورتهن مستفرشات الأعداء وذلك نهاية الذل والهوان (١٣٧).

وقد تكرر تذكير بنى إسرائيل بنعمة نجاتهم من عدوهم فى مواضع متعددة من القرآن الكريم وذلك لجلال شأنها ولحملهم على الطاعة والشكر .

قال تعالى: وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ . (الأعراف ١٤١).

وقال سبحانه: وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ (١٣٨) أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ . (إبراهيم ٦).



نعم الله على بنى إسرائيل

﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

المفردات:

الفرق : الفصل بين الشيئين.

البحر : هو بحر القلزم (البحر الأحمر) فرقه الله اثنتى عشرة فرقة بعدد أسباط بنى إسرائيل.

السبط : ولد الولد وهو من بنى إسرائيل مثل القبائل لدى العرب.

العفو : محو الجريمة بالتوبة.

الكتاب : التوراة.

الفرقان : الآيات التى أيد الله بها موسى ودلت على صدق نبوته وبها يفرق بين الحق والباطل، والشكر يكون لمن فوقك بطاعته، ولنظيرك بالمكافأة، ولمن دونك بالإحسان إليه.

تمهيد تاريخى:

روى المؤرخون أن الله لما أرسل موسى إلى فرعون وقومه يدعوهم إلى الإيمان به ويطلب إليهم إطلاق الشعب الإسرائيلى وترك تعذيبه، زاد فرعون فى تعذيبهم وسامهم الخسف وشدد عليهم النكال والتعذيب.

ويؤيد ذلك ما جاء فى سفر الخروج من التوراة: أن الله تعالى أنبأ موسى بأنه سيجعل قلب فرعون قاسيًا على بنى إسرائيل ويزيد فى النكال بهم ولا يرسلهم مع موسى حتى يريه آياته، فبعد أن دعا موسى إلى الإيمان زاد فرعون ظلما وعتوا فأمر الذين كانوا يسخرون بنى إسرائيل فى الأعمال الشاقة أن يزيدوا فى القسوة عليهم وأن يمنعوهم التبن الذين كانوا يعطونهم إياه لعمل اللبن (الطوب) ويكلفونهم أن يجمعوه ويعملوا كل ما يعملونه من اللبن لا يخفف عنهم منه شىء.

فأعطى موسى وأخاه هارون الآيات فحاول فرعون معارضتها بسحر السحرة فلما آمن السحرة برب العالمين رب موسى وهارون ورأى من الآيات ما رأى سمح بخروج بنى إسرائيل بل طردهم طردًا.

وفى سفر الخروج أنهم خرجوا فى شهر أبيب بعد أن أقاموا بمصر ثلاثين وأربعمائة سنة من عهد يوسف عليه السلام، ثم أتبعهم فرعون وجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم وأنجى الله بنى إسرائيل وأغرق فرعون ومن معه.

وقد كان فرق البحر من معجزات موسى عليه السلام كمعجزات سائر الأنبياء التى يظهرها الله تعالى

على أيديهم لترشد الناس إلى أن السنن والنواميس الكونية لا تحكم على واضعها، ومدبرها هو الحاكم المتصرف فيها، وهى أيضًا سنة أخرى فى الكون، يخلقها الله متى شاء على يد من يصطفيه من عباده.

التفسير:

٥٠ - وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ . واذكروا من نعمتنا عليكم نعمة فرق البحر بكم وانفصاله بعد اتصاله حين ضرب موسى بعصاه فجعلنا لكم فيه طرقًا متعددة فولجتموها وسرتم فيها هربًا من فرعون وجنده، وبذلك تمت لكم النجاة وحصل الغرق لأعدائكم وقت أن عبروا وراءكم وقد شاهدتموهم والبحر يلفهم بأمواجه مشاهدة لا لبس فيها ولا غموض. ولقد كان فيما رأيتم ما يدعو إلى الاتعاظ ويحمل على الشكر وعرفان الفضل لله العلى الكبير.

وأسند سبحانه فرق البحر إلى ذاته الكريمة ليدل على أن القوم عبروه وقطعوه بعنايته - سبحانه. وقوله تعالى: فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ. بيان للمنة العظمى التى امتن بها عليهم والتى ترتبت على فرق البحر، لأن فرق البحر لهم ترتب عليه أمران:

أولهما . . نجاتهم.

وثانيهما . . إهلاك عدوهم، وكلاهما نعمة عظيمة.

وزعم بعض الناس أن عبور بنى إسرائيل البحر كان وقت الجزر، وفى بحر القلزم (البحر الأحمر) رقارق يتيسر للإنسان أن يعبر بها البحر إذا كان الجزر شديدا، ولما أتبعهم فرعون وجنوده ورآهم عبروا البحر مشى فى إثرهم وكان المد قد بدأ ولم يتم خروج بنى إسرائيل إلا وقد علا المد وطغى حتى أغرق فرعون وجميع من معه، وتحققت نعمة الله على بنى إسرائيل، وتم لهم التوفيق ولعدوهم الخذلان.

والأمر كما ترى معجزة إلهية، ومنة من الله على بنى إسرائيل بالعديد من النعم ، ويبعد أن يكون حادثة طبيعية منشؤها المد والجزر، وخاصة أن الآيات تفيد غرق فرعون وجميع من معه، ولو كان حادثة طبيعية لفر من الغرق كثير من أتباع فرعون قبل تمام المد لأن مد البحر وجزره يتم تدريجيًا.

وقال تعالى: فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا. (الإسراء ١٠٣)

وقال سبحانه: فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (الذاريات ٢٠٨)

وقد صرحت آيات أخرى بأن فرق البحر كان بسبب ضرب موسى له بالعصا.

قال تعالى: فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ. (الشعراء ٦١ - ٦٦)

وقد ألحق المفسرون كثيرًا من الإسرائيليات بتفسير هذه الآية، والقرآن الكريم غنى عن هذه الإسرائيليات التى لا تنهض على دليل من العقل أو سند من النقل.

والإسرائيليات عمومًا تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول : ما كان موافقًا لما في القرآن والسنة الصحيحة فنقبله.

الثانى: ما كان مخالفًا لما جاء فى القرآن والسنة الصحيحة فنرفضه.

الثالث: ما جاء بأمر جديد ليس معنا دليل على صدقه أو كذبه فنتوقف فى قبوله.

وقد فسر القرطبى هذه الآية ثم كتب عدة ملحقات بها منها ما يأتى:

القول فى اختلاف العلماء فى كيفية إنجاء بنى إسرائيل:

(فذكر الطبرى أن موسى - عليه السلام - أوحى إليه أن يسرى من مصر ببنى إسرائيل فأمرهم موسى أن يستعيروا الحلى والمتاع من القبط، وأحل الله ذلك لبنى إسرائيل فسرى بهم موسى من أول الليل فعلم فرعون فقال لا يتبعهم أحد حتى يصيح الديكة فلم يصح تلك الليلة بمصر ديك، وأمات الله تلك الليلة كثيرًا من أبناء القبط فاشتغلوا فى الدفن وخرجوا فى الاتباع مشرقين كما قال الله **فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ**. (الشعراء ٦٠).

وذهب موسى إلى ناحية البحر حتى بلغه، وكانت عدة بنى إسرائيل نيفا على ستمائة ألف وكانت عدة فرعون ألف ألف ومائتى ألف، وقيل إن فرعون اتبعه ألف ألف حصان سوى الإناث، وقيل دخل إسرائيل، وهو يعقوب عليه السلام - مصر فى ستة وسبعين نفسًا من ولده إلى ولد ولده، فأنمى الله عددهم وبارك فى ذريته حتى خرجوا إلى البحر يوم فرعون وهم ستمائة ألف من المقاتلة سوى الشيخ والذرية والنساء. وذكر أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبى شيبة قال: حدثنا شبابة بن سوار عن يونس بن أبى إسحاق عن عمرو بن ميمون عن عبد الله بن مسعود أن موسى - عليه السلام - حينما أسرى ببنى إسرائيل بلغ فرعون فأمر بشاة فذبحت، ثم قال: لا والله لا يفرغ من سلخها حتى تجتمع على ستمائة ألف من القبط. قال: فانطلق موسى حتى انتهى إلى البحر فقال له: افرق. فقال له البحر: لقد استكبرت يا موسى . وهل فرقت لأحد من ولد آدم فأفرق لك . فأوحى الله إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر. فضربه موسى بعصاه **فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ**. (الشعراء ٦٣). فكان فيه اثنا عشر فرقًا لاثنى عشر سبطا لكل سبط طريق.

فلما خرج أصحاب موسى وقام أصحاب فرعون التطم البحر عليهم فأغرقهم، ويذكر أن البحر هو بحر القلزم.

وأن الله تعالى أوحى إلى البحر أن انفرق لموسى إذا ضربك فبات البحر تلك الليلة يضطرب فحين أصبح ضرب موسى البحر وكناه أبا خالد [١٣٩] ذكره ابن أبى شيبة، أيضًا، وقد أكثر المفسرون من القصص فى هذا المعنى وما ذكرناه كاف [١٤٠].

(فصل) ذكر الله تعالى الإنجاء والإغراق، ولم يذكر اليوم الذى كان فيه فروى مسلم عن ابن عباس أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قدم المدينة فوجد اليهود صياما يوم عاشوراء، فقال لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : (ما هذا اليوم الذى تصومونه) فقالوا: هذا يوم عظيم أنجى الله فيه موسى، وأغرق فرعون وقومه، فصامه موسى شكرًا، فنحن نصومه، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: (فنحن أحق وأولى بموسى منكم). فصامه رسول الله -صلى الله عليه وسلم -، وأمر بصيامه. وأخرجه البخارى أيضًا عن ابن عباس، وأن النبى -صلى الله عليه وسلم - قال لأصحابه: (أنتم أحق بموسى منهم فصوموا) [١٤١].

(فضيلة) روى أبو قتادة أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال: (صيام يوم عاشوراء أحتسب على الله أن يكفر السنة التى قبله). أخرجه مسلم والترمذى، وقال: لا نعلم فى شىء من الروايات أنه قال (صيام يوم عاشوراء كفارة سنة) إلا فى حديث أبى قتادة [١٤٢].

وقوله تعالى: وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ جملة فى موضع الحال ومعناه بإبصاركم فيقال إن آل فرعون طفوا على الماء فنظروا إليهم يغرقون وإلى أنفسهم ينجون ففى هذا أعظم المنة.

قال الفخر الرازى:

اعلم أن واقعة فلق البحر تضمنت نعمًا كثيرة على بنى إسرائيل فى الدين والدنيا، أما نعم الدنيا فمن وجوه:

أولها: أنهم لما اقتربوا من البحر أصبحوا فى موقف حرج لأن فرعون وجنوده من ورائهم والبحر من أمامهم، فإن هم توقفوا أدركهم عدوهم وأهلكهم وإن هم تقدموا أغرقوا فحصل لهم خوف عظيم جاءهم بعده الفرج بانفلاق البحر وهلاك عدوهم.

ثانيها: أن الله تعالى خصهم بهذه النعمة العظيمة والمعجزة الباهرة تكريمًا ورعاية لهم.

ثالثها: أنهم بإغراق فرعون وآله تخلصوا من العذاب وتم لهم الأمن والاطمئنان وذلك نعمة عظمى لأنهم لو نجوا دون هلاك فرعون لبقى خوفهم على حاله، فقد يعود لتعذيبهم مستقبلا لأنهم لا يأمنون شره، فلما تم الغرق تم الأمان والاطمئنان لبنى إسرائيل.

وأما نعم الدين فمن وجوه:

أولها: أن قوم موسى لما شاهدوا تلك المعجزة الباهرة زالت عن قلوبهم الشكوك والشبهات لأن دلالة مثل هذا المعجز على وجود الصانع الحكيم وعلى صدق موسى تقترب من العلم الضرورى.

ثانيها: أنهم لما شاهدوا ذلك صار داعيًا لهم على الثبات والانقياد لأوامر نبيهم.

ثالثها: أنهم عرفوا أن الأمور كلها بيد الله، فإنه لا عز فى الدنيا أكمل مما كان لفرعون، ولا ذل أشد مما كان لبنى إسرائيل، ثم إن الله تعالى فى لحظة واحدة جعل العزيز ذليلا، والذليل عزيزًا والقوى ضعيفًا والضعيف قويًا، وذلك يوجب انقطاع القلب عن علائق الدنيا، والإقبال كلية على اتباع أوامر الخالق عز وجل.

٥١ - وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ . أى اذكروا نعمة أخرى كفرتم بها وظلمتم أنفسكم . وذلك أنهم بعد أن اجتازوا البحر سألوا موسى أن يأتيهم بكتاب من عند الله ليعملوا بأحكامه فوعده سبحانه أن يعطيه التوراة، بعد أربعين ليلة ينقطع فيها لمناجاته، وبعد انقضاء تلك الفترة وذهاب موسى لتلقى التوراة من ربه اتخذ بنو إسرائيل عجلا جسدا له خوار فعبدوه من دون الله. وأعلم الله موسى بما كان من قومه بعد فراقه لهم، فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفًا، وقال لهم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل إلهًا، وكان الأولى أن تعبدوا الله الواحد الذى أنقذكم من فرعون وأنجاكم من البحر.

وقد حذف المفعول الثانى لاتخذتم وهو إلها أو معبودًا لشناعة ذكره ولعلمهم بأنهم اتخذوه إلهًا.

وقوله تعالى: مِنْ بَعْدِهِ معناه من بعد مضيه لميقات ربه إلى الطور وغيابه عنهم، وجملة وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ حالية مقيدة لاتخذتم ليكون اتخاذهم العجل معبودًا، مقرونا بالتعدى والظلم من بدئه إلى نهايته، وللإشعار بانقطاع عذرهم فيما فعلوا.

٥٢ - ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ: أى ثم تركنا معاجلتكم بالعقوبة وامهلناكم حتى جاءكم موسى وأخبركم بكفارة ذنوبكم ليعدكم بهذا العفو للاستمرار على الشكر فإن الإنعام يوجب الشكر على النعم.

٥٣ - وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ: ومعنى الآية الكريمة: اذكروا يا بنى إسرائيل نعمة إعطاء نبيكم موسى عليه السلام التوراة وفيها الشرائع والأحكام لكى تهتدوا بها إلى طريق الفلاح والرشاد فى الدنيا، والفوز والسعادة فى الآخرة.

فالمراد بالكتاب التوراة التى أوتيها موسى عليه السلام، فأل للعهد، والفرقان هو ما يفرق بين الحق والباطل والهدى والضلال، وقد يطلق لفظ الفرقان على الكتاب السماوى المنزل من عند الله كما فى قوله تعالى: تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ (الفرقان ١).

كما يطلق على المعجزة فى قوله: لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ. (الأنبياء ٤٨) أى المعجزات؛ لأن هارون لم يؤت وحيا، والمراد بالفرقان فى الآية التى نفسرها التوراة نفسها ويكون المراد بالعطف التفسير.

قال ابن جرير الطبرى: (وأولى الأقوال بتأويل الآية ما روى عن ابن عباس وأبى العالية ومجاهد، من أن الفرقان الذى ذكر الله تعالى أنه آتاه موسى فى هذا الموضع هو الكتاب الذى فرق به بين الحق والباطل، وهو نعت للتوراة وصفة لها، فيكون تأويل الآية حينئذ: وإذ آتينا موسى التوراة التى كتبناها له فى الألواح، وفرقنا بها بين الحق والباطل، فيكون الكتاب نعتًا أقيم مقامها استغناء به عن ذكر التوراة، ثم عطف عليه الفرقان إذ كان من نعتها. وقوله تعالى: لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ بيان لثمرة المنة بإيتاء التوراة لأن إتيان موسى الكتاب والفرقان المقصود منه هدايتهم وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

ولكن بنى إسرائيل قابلوا هذه النعمة بالجحود فامتدت أيديهم إلى التوراة فحرفوها، كما شاءت لهم أهواؤهم وشهواتهم.

★ ★ ★

عبادة العجل

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

المفردات:

اتخاذكم العجل : أى عبادتكم العجل. فالمفعول الثانى محذوف تقديره: اتخاذكم العجل إلهًا أو معبودًا.

براه : ذراه وأوجده.

الصاعقة : نار محرقة تنزل من السماء، ومن أسباب الصواعق اتحاد كهربية السحاب المختلفة النوع بموجبها أو اتحادها مع كهربية الأرض السالبة.

بعثناكم : أكثرنا نسلكم.

المن : مادة حلوة لزجة تشبه العسل تقع فى الحجر وورق الشجر وتنزل سائلة كالندى ثم تجمد وتجف فيجمعها الناس.

السلوى : السمانى (السمان) الطائر المعروف.

تمهيد:

ذكر الله من الآيات السابقة أنواعًا من النعم التى آتاها لبنى إسرائيل، وفى هذه الآيات بيَّن بلادة حسهم ومقابلتهم نعم الله عليهم بالجحود والكنود.

فقد اتخذوا العجل إلهًا، ثم طلبوا من موسى أن يريهم الله عيانا حتى يؤمنوا به فأخذتهم الصاعقة وهم يرون ذلك رأى العين ، ثم أتبع ذلك ذكر نعمتين أخريين كفروا بهما، أولاهما تظليل الغمام لهم فى التيه إلى أن دخلوا الأرض المقدسة، وإنزال المن والسلوى عليهم مدة أربعين سنة.

التفسير:

٥٤ - وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ واذكروا يا بنى إسرائيل - لتنتفعوا وتعتبروا - وقت أن قال موسى لقومه الذين عبدوا العجل حين كان يناجى ربه بعيدًا عنهم، يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم وهبطتم

بها إلى الحضيض بعبادتكم العجل، فإذا أردتم التكفير عن خطاياكم فتوبوا إلى بارئكم توبة صادقة نصوحًا، واقتلوا أنفسكم لتنالوا عفو ربكم فذلكم خير لكم عند خالقكم من الإقامة على المعصية.

ففعلتم ما أمركم به موسى فقبل الله توبتكم وتجاوز عن سيئاتكم ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ بأنه هو قابل التوبة واسع الرحمة.

«وقصة القتل مذكورة فى التوراة التى يتدارسها اليهود إلى اليوم ففيها دعا موسى: من للرب فإلىَّ: فأجابه بنو لاوى، فأمرهم أن يأخذوا السيوف ويقتل بعضهم بعضًا ففعلوا. فقتل فى ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل. والعبرة من القصة لا تتوقف على عدد معين فلنمسك عنه ما دام القرآن لم يتعرض له» (١٤٣).

قال صاحب الكشاف:

«حمل قوله ﴿فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ على الظاهر وهو البخع (١٤٤) . وقيل معناه قتل بعضهم بعضًا، وقيل أمر من لم يعبد العجل أن يقتلوا العبدة، وروى أن الرجل كان يبصر ولده ووالديه وجاره وقريبه فلم يمكنهم المضى لأمر الله، فأرسل الله ضبابة وسحابة سوداء لا يتباصرون تحتها، وأمروا أن يحتبوا بأفنية بيوتهم ويأخذ الذين لم يعبدوا العجل سيوفهم، وقيل لهم اصبروا فلعن الله من مد طرفه أو حل حبوته أو اتقى بيد أو رجل فيقولون آمين، فقتلوهم إلى المساء حتى دعا موسى وهارون وقالا: يارب هلكت بنو إسرائيل البقية الباقية، فكشفت السحابة ونزلت التوبة، فسقطت الشفار (١٤٥) من أيديهم وكان القتلى سبعين ألفا» (١٤٦).

وفى الدر المنثور: قال قوم موسى له: ماتوبتنا؟ قال: يقتل بعضكم بعضا. فأخذوا السكاكين فجعل الرجل يقتل أخاه وأباه وابنه، والله لا يبالى من قتل حتى قُتل سبعون ألفًا ، فأوحى الله إلى موسى مرهم فليرفعوا أيديهم وقد غفر لمن قتل وتيب على من بقى.

وهذه الآية الكريمة قد تضمنت نعمة كبرى على بنى إسرائيل فإن الله تعالى لطف بهم ورحمهم وقبل توبتهم، وعفا عن قتلهم أنفسهم، بعد أن صدر منهم ما يدل على صدقهم فى توبتهم، كما تضمنت – أيضًا – تذكير بنى إسرائيل المعاصرين للعهد النبوى بنعم الله عليهم، لأنه لولا عفوه – سبحانه – عن آبائهم لما وجدوا هم، وفيها كذلك إشارة إلى سماحة الشريعة التى أتى بها محمد صلى الله عليه وسلم وإغراء لليهود المعاصرين له بالدخول فى الإسلام؛ لأنه إذا كان آباؤهم لم يقبل توبتهم إلا بقتلهم أنفسهم، فإن شريعة الإسلام تقول لهم: لقد جاءكم النبى الذى رفع عنكم إصركم والأغلال التى كانت على أسلافكم، فآمنوا به واتبعوه لعلكم ترحمون.

٥٥ – ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ . يرى جمهور المفسرين أن القائلين لموسى أرنا الله جهرة هم السبعون الذين اختارهم موسى للذهاب معه إلى ميقات ربه وقد وردت آثار فى تفسير ابن جرير الطبرى وابن كثير. وقيل إن الذين طلبوا من موسى رؤية الله جهرة هم عامة بنى إسرائيل بدون تحديد لهؤلاء السبعين (١٤٧).

ومعنى الآية: واذكروا يابنى إسرائيل وقت أن تجاوزتم حدودكم وتعنتم فى الطلب فقلتم لنبيكم موسى بجفاء وغلظة: لن نؤمن لك ولن نصدقك فى قولك إن هذا كتاب الله حتى نرى الله عيانا لا ساتر بيننا وبينه، فيكون كالجهر فى الوضوح. فأخذتكم العقوبة التى صعقتكم بسبب جهلكم وتطاولكم وأنتم تشاهدونها بعيونكم.

قال ابن جرير:

الصاعقة كل أمر هائل رآه الرائى أو عاينه أو أصابه، حتى يصير من هوله وعظيم شأنه إلى هلاك وعطب وذهاب عقل صوتا كان ذلك أو نارًا أو زلزلة أو رجفة، ومما يدل على أن الشخص قد يكون مصعوقًا وهو حى غير ميت، قوله تعالى: وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا . (الأعراف ١٤٣) لأن الله أخبر عنه أنه لما أفاق قال: سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ . (الأعراف ١٤٣)، وفى التوراة: (إن طائفة من بنى إسرائيل قالوا: لماذا اختص موسى وهارون بكلام الله من دوننا، وشاع ذلك فى بنى إسرائيل وقالوا لموسى بعد موت هارون: إن نعمة الله على شعب إسرائيل لأجل إبراهيم وإسحاق فتعم الشعب جميعه، وأنت لست أفضل منه فلا يحق لك أن تسودنا بلا مزية، وإنا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذهم إلى خيمة العهد فانشقت الأرض وابتلعت طائفة منهم وجاءت نار من الجانب الآخر فأخذت الباقين) (١٤٨)، وهكذا كان بنو إسرائيل يتمردون ويعاندون وسوط العذاب يصب عليهم صبا جزاء كفرهم وعنادهم.

قال الإمام ابن جرير:

ذكرهم الله تعالى بذلك اختلاف آبائهم وسوء استقامة أسلافهم مع أنبيائهم مع كثرة معاينتهم من آيات الله وعبرة ما تثلج بأقلها الصدور، وتطمئن بالتصديق معها النفوس. وذلك مع تتابع الحجج عليهم وسبوغ النعم من الله لديهم، وهم مع ذلك مرة يسألون نبيهم أن يجعل لهم إلها غير الله، ومرة يعبدون العجل من دون الله، ومرة يقولون: لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً . (البقرة ٥٥) وأخرى يقولون له إذا دعوا إلى القتال: فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ . (المائدة ٢٤) ومرة يقال لهم: وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ . (الأعراف ١٦١) فيقولون حنطة فى شعيرة، ويدخلون الباب من قبل أستاهم، مع غير ذلك من أفعالهم التى آذوا بها نبيهم التى يكثر إحصاؤها) (١٤٩).

٥٦ - ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . يرى بعض المفسرين أن الله أحياهم بعد أن وقع فيهم الموت بالصاعقة وغيرها ليستوفوا بقية آجالهم وأرزاقهم، وكانت تلك الموتة لهم كالسكتة القلبية لغيرهم، ويرى آخرون أن المراد بالبعث كثرة النسل، أى أنه بعد أن وقع فيهم الموت بشتى الأسباب وظُنَّ أنهم سينقرضون، بارك الله فى نسلهم ليعد الشعب بالبلاء السابق للقيام بحق الشكر على النعم التى تمتع بها الآباء الذين حل بهم العذاب بكفرهم لها.

٥٧ - وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . تذكِّر هذه الآية بنى إسرائيل بنعمة من أجل النعم عليهم وهى تظليلهم بالغمام فى التيه بين مصر والشام وإنزال المن والسلوى عليهم، ولكن بنى إسرائيل لم يشكروا الله على نعمه؛ ولذا أرسل عليهم رجزًا من السماء بسبب ظلمهم وفسقهم. وفى تفسير القمى (أن إسرائيل لما عبر موسى بهم البحر نزلوا فى مفازة فقالوا: يا موسى أهلكتنا وقتلتنا وأخرجتنا من العمران إلى مفازة لا ظل، ولا شجر، ولا ماء، وكانت تجئ بالنهار غمامة تظلهم من الشمس وينزل عليهم بالليل المن فيقع على النبات والشجر والحجر فيأكلونه وبالعشى يأتيهم طائر مشوى يقع على موائدهم فإذا أكلوا وشربوا طار ومر، وكان مع موسى حجر يضعه وسط العسكر ثم

يضربه بعصاه فتنفجر منه اثنتا عشرة عينا كما حكى الله فيذهب إلى كل سبط فى رحله وكانوا اثنى عشر سبطا (١٥٠).

وفى تفسير ابن كثير رواية عن السدى تفيد ما ورد فى تفسير القمى (١٥١).

ومعنى الآية الكريمة: واذكروا يا بنى إسرائيل من بين نعمى عليكم إظلالكم بالغمام وأنتم فى التيه ليقيكم حر الشمس وحرارة الجو، ولولا منحى إياكم الطعام اللذيذ المشتهى بدون تعب منكم فى تحصيله لهلكتم، وقلنا لكم كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا الذى رزقكم هذه النعم، ولكنكم كفرتم بها، فظلمتم أنفسكم دون أن ينالنا من ذلك شىء لأن الخلق جميعًا لن يبلغوا ضرى فيضرونى ولن يبلغوا نفعى فينفعونى.

وقوله تعالى: وَمَا ظَلَمُونَا معطوف على محذوف، أى رفضوا ولم يقابلوا النعم بالشكر. ويرى البعض أنه لا حاجة إلى التقدير وأن جملة: وَمَا ظَلَمُونَا معطوفة على ماقبلها لأنها مثلها فى أنها من أحوال بنى إسرائيل (١٥٢).

قال الإمام ابن جرير فى تفسير قوله تعالى: وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ هذا من الذى استغنى بدلالة ظاهره على ما ترك منه، وذلك أن معنى الكلام: كلوا من طيبات مارزقناكم فخالفوا ما أمرناهم به، وعصوا ربهم، ثم رسولنا إليهم، وما ظلمونا بفعلهم ذلك ومعصيتهم، وما وضعوا فعلهم ذلك وعصيانهم إيانا موضع مضرة علينا ومنقصة لنا، ولكنهم وضعوه من أنفسهم موضع مضرة عليها ومنقصة لها، فإن الله تعالى لاتضره معصية عاص ولا يتحيف خزائنه ظلم ظالم ، ولا تنفعه طاعة مطيع، ولا يزيد فى ملكه عدل عادل، بل نفسه يظلم الظالم وحظها يبخس العاصى، وإياها ينفع المطيع، وحظها يصيب العادل (١٥٣).



تبديل القول

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

المفردات:

القرية	: لغة مجتمع الناس ومسكن النمل، ثم غلب استعمالها فى البلاد الصغيرة، وليس ذلك المراد هنا بل المراد المدينة الكبيرة؛ لأن الرغد لا يتسنى إلا فيها.
والرغد	: الهنئ ذو السعة.
والباب	: هو أحد أبواب بيت المقدس ويدعى الآن (باب حطة)
وسجداً	: أى ناكسى الرءوس.

والمحسن : من فعل ما يجمل فى نظر العقل ويحمد فى لسان الشرع.

فبدل .. قولا غير الذى قيل : أى جاء بذلك القول مكان القول الأول.

والرجز : العذاب.

تمهيد:

ذكر سبحانه فى هاتين الآيتين بعض ما اجترحوه من السيئات، فقد أمرهم الله أن يدخلوا قرية من القرى خاشعين لله فعصى بعضهم وخالف أمر ربه، فأنزل عليهم عذابا من السماء جزاء ما ارتكبوه من المعاصى واقترفوه من الآثام.

التفسير:

اذكروا يا بنى إسرائيل - لتتعظوا وتعتبروا - وقت أن أمرنا أسلافكم بدخول بيت المقدس بعد خروجهم من التيه. وأبحنا لهم أن يأكلوا من خيرات هذه البلدة أكلا هنيئًا ذا سعة، وقلنا لهم: ادخلوا من بابها راكعين شكرًا لله على ما أنعم به عليكم من نعمة فتح الأرض المقدسة متوسلين إليه سبحانه - بأن يحط عنكم ذنوبكم ، فإن فعلتم ذلك العمل اليسير وقلتم هذا القول القليل غفرنا لكم ذنوبكم وكفرنا عنكم سيئاتكم، وزدنا المحسن منكم خيرًا جزاء إحسانه، ولكنهم جحدوا نعم الله وخالفوا أوامره، فبدلوا بالقول الذى أمرهم الله به قولا آخر أتوا به من عند أنفسهم على وجه العناد والاستهزاء **فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ** .

وقوله تعالى : **فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا** فيه إشعار بكمال النعمة عليهم واتساعها وكثرتها حيث أذن لهم فى التمتع بثمرات القرية وأطعمتها من أى مكان شاءوا.

وقوله تعالى: **وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ** . إرشاد لهم إلى ما يجب عليهم نحو خالقهم من الشكر والخضوع، وتوجيههم إلى ما يعينهم على بلوغ غايتهم، بأيسر الطرق وأسهل السبل، فكل ما كلفوا به أن يدخلوا من باب المدينة التى فتحها الله لهم خاضعين مخبتين، وأن يضرعوا إليه بأن يحط عنهم آثامهم ويمحو سيئاتهم.

وقوله تعالى: **نَغْفِرْ لَكُمْ** . بيان للثمرة التى تترتب على طاعتهم لله.

قال الإمام ابن جرير: **نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ**. أى نتغمد لكم بالرحمة خطاياكم ونسترها عليكم، فلا نفضحكم بالعقوبة عليها، وأصل الغفر التغطية والستر، فكل ساتر شيئًا فهو غافر ، والخطايا جمع خطية بغير هَمْزٍ كالمطايا جمع مطية (١٥٤).

وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ. أى وسنزيد المحسنين ثوابًا من فضلنا، وقد أمرهم بشيئين: عمل يسير وقول صغير، ووعدهم بغفران السيئات وزيادة الحسنات.

وقد أمرهم سبحانه أن يدخلوا باب المدينة التى فتحوها خاضعين وأن يلتمسوا منه مغفرة خطاياهم، ولأن تغلبهم على أعدائهم، ودخولهم الأرض المقدسة التى كتبها الله لهم نعمة من أجلِّ النعم وهى تستدعى منهم أن يشكروا الله بالقول والفعل، لكى يزيدهم من فضله، فشأن الأخيار أن يقابلوا نعم الله بالشكر.

ولهذا كان النبى - صلى الله عليه وسلم - يظهر أقصى درجات الخضوع لله تعالى عند النصر والظفر وبلوغ المطلوب.

فعندما تم له فتح مكة دخلها على راحلته حتى أوشك أن يسجد عليها وهو يقول: «تائبون آيبون حامدون لربنا شاكرون» (١٥٥).

ولكن ماذا كان من بنى إسرائيل عند دخول بيت المقدس؟ إنهم لم يفعلوا ما أمروا به، ولم يقولوا ما كلفوا بقوله، بل خالفوا ما أمروا به من قول وفعل ولذا قال تعالى:

٥٩ - فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ.

أخرج البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: (قيل لبنى إسرائيل: ادخلوا الباب سجدًا وقولوا حطة، فبدلوا ودخلوا يزحفون على أستاهم وقالوا حبة فى شعيرة) (١٥٦).

وقال الإمام ابن كثير (وحاصل ما ذكره المفسرون وما دل عليه السياق أنهم بدلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل ، فأمروا أن يقولوا حطة ، أى احطط عنا ذنوبنا وخطايانا فاستهزءوا وقالوا حنطة فى شعيرة، وهذا فى غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة؛ ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه بفسقهم وخروجهم عن طاعته) (١٥٧).

والفعل (بدَّل) يقتضى بدلا ومبدلا منه، إلا أن مقام الإيجاز فى الآية استدعى الاكتفاء بذكر البدل دون ذكر المبدل منه. والتقدير فاختار الذين ظلموا بالقول الذى أمرهم الله به قولا آخر اخترعوه من عند أنفسهم على وجه المخالفة والعصيان.

وقوله تعالى: فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ. والرجز فى لغة العرب هو العذاب سواء أكان بالأمراض المختلفة أم بغيرها.

ولم يعين الكتاب هذا الرجز فنتركه مبهما، وإن كان كثير من المفسرين قالوا إنه الطاعون، وقد ابتلى الله بنى إسرائيل بضروب من النقم عقب كل نوع من أنواع الفسوق والظلم، فأصيبوا بالطاعون كثيرًا وسُلط عليهم أعداؤهم، وقوله بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ أى بسبب تكرار فسقهم وعصيانهم ومخالفتهم أوامر دينهم.



الاستسقاء

﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾

المفردات:

استسقى : طلب السقيا عند عدم الماء أو قلته، قال أبو طالب يمدح النبى صلى الله عليه وسلم.

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

والانفجار ، والانبجاس. والسكب بمعنى.

والمشرب : مكان الشرب.

ولا تعثوا فى الأرض : لا تعتدوا حال كونكم مفسدين.

تمهيد:

ذكر سبحانه فى هذه الآية نعمة أخرى آتاها بنى إسرائيل فكفروا بها ، ذلك أنهم حين خرجوا من مصر إلى التيه أصابهم ظمأ من لفح الشمس فاستغاثوا بموسى فدعا ربه أن يسقيهم فأجاب دعوته. وقد كان من دأب بنى إسرائيل أن يعودوا باللوم على موسى إذا أصابهم الضيق ويمنون عليه بالخروج معه من مصر، ويصارحونه بالندم على ما فعلوا، فقد روى أنهم قالوا: من لنا بحر الشمس؟ فظلل عليهم الغمام. وقالوا : من لنا بالطعام؟ فأنزل الله عليهم المن والسلوى. وقالوا: من لنا بالماء؟ فأمر موسى بضرب الحجر.

التفسير:

٦٠ - وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ. واذكروا يا بنى إسرائيل وقت أن أصاب آباءكم العطش وهم فى صحراء مجدبة فطلب موسى لهم السقيا من الله تعالى فأجابه الله إلى ما طلب وأوحينا إليه أن أضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا بمقدار عدد الأسباط. وصار لكل سبط منهم مشرب يعرفه ولا يتعداه إلى غيره، وقلنا لهم: تمتعوا بما من الله به عليكم من المن والسلوى، واشربوا بما فجرنا لكم من الحجر الصلب من غير تعب منكم ولا مشقة.

ولا تنشروا فسادكم فى الأرض فتتحول النعم التى بين أيديكم إلى نقم وتصبحوا على ما فعلتم نادمين.

وقد جاء هذا النهى عقب الإنعام عليهم بطيب المآكل والمشرب خيفة أن ينشأ الفساد فيهم بزيادة النعم عليهم، ولئلا يقابلوا النعم بالكفران.

قال تعالى: كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ. (العلق ٦، ٧)

والحجر الذى ضربه موسى لم يكن حجرًا معينا بل أى حجر من أحجار الصحراء. وأل فى الحجر

لتعريف الجنس أى اضرب أى حجر شئت بدون تعيين، وقيل للعهد، ويكون المراد حجرًا معينًا معروفًا لموسى عليه السلام بوحى من الله تعالى.

وقد أورد المفسرون فى وصف هذا الحجر آثارًا حكم المحققون بضعفها.

(قال الحسن: لم يكن حجرًا معينًا بل أى حجر ضربه انفجر منه الماء، وهذا أظهر فى حجة موسى عليه السلام وأدل على قدرة الله، وقد سماه فى سفر الخروج الصخرة) (١٥٨).

والفاء فى قوله تعالى : فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا . للعطف على محذوف تقديره: ضرب فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، وقد حذفت هذه الجملة المقدرة لوضوح المعنى.

وكانت العيون اثنتى عشرة عينا، لأن بنى إسرائيل كانوا اثنى عشر سبطا، والأسباط فى بنى إسرائيل كالقبائل فى العرب، وهم ذرية أبناء يعقوب عليه السلام الاثنى عشر ، ففى انفجار الماء من اثنتى عشرة عينا إكمال للنعمة عليهم حتى لا يقع بينهم تنازع وتشاجر.

وقوله تعالى: كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ . مقول لقول محذوف تقديره وقلنا لهم: كلوا واشربوا من رزق الله.

وبذلك تكون الآية الكريمة، قد ذكرت بنى إسرائيل بنعمة جليلة ونصحتهم بأن يشكروا الله وحذرتهم من الفساد والجحود.



غضب الله عليهم

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

المفردات:

الصبر	: حبس النفس وكفها عن الشيء.
الطعام	: مارزقوه فى التيه من المن والسلوى.
البقل	: ما تنبته الأرض من الخضر ممايأكله الناس والأنعام من نحو النعناع والكراث وغيرهما.
الفوم	: الحنطة وقال جماعة منهم الكسائى إنه الثوم.

القثاء : نوع من المأكولات أكبر حجمًا من الخيار، وتسميه العامة القتة.
والاستبدال : طلب شىء بدلا من آخر، وأصل الأدنى الأقرب ثم استعمل للأخس الدون.
والهبــــوط : الانحدار والنزول.
المصــــــر : البلد العظيم.
ضربت عليهم : أى أحاطت بهم كما تحيط القبة بمن ضربت عليه أو ألصقت به.
الذلة : الذل والهوان.
المسكنة : الفقر ، وسمى الفقير مسكينا لأن الفقر أسكنه وأقعده عن الحركة.

تمهيد:

ذكر فى هذه الآية جرمًا آخر من جرائم أسلافهم التى تدل على كفرانهم بأنعم الله وترشد إلى أنهم دأبوا على إعنات موسى، وأنهم أكثروا من الطلب فيما يستطاع وما لا يستطاع حتى ييأس منهم ويرتد بهم إلى مصر حيث ألفوا الذلة.

وقد بلغ من إعناتهم لموسى أن قالوا: **لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً**. (البقرة: ٥٥) وأن قالوا: **لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ** . وهم يريدون بذلك أنه لا أمل لك من بقائنا معك على هذه الحال من التزام طعام واحد، وربما لم يكن صدر منهم هذا القول عن سأم وكراهية لوحدة الطعام، بل صدر عن بطر وطلب للخلاص مما يخشون.

التفسير:

واذكروا يا بنى إسرائيل بعد أن أسبغنا عليكم نعمنا ما كان من سوء اختيار أسلافكم وفساد أذواقهم، وإعناتهم لنبيهم موسى – عليه السلام – حيث قالوا له ببطر وسوء أدب: لن نصبر على طعام المن والسلوى فى كل وقت، فسل ربك أن يخرج لنا مما تنبته الأرض من خضرها وفاكهتها وحنطتها وعدسها وبصلها، لأن نفوسنا قد عافت المن والسلوى، فوبخهم نبيهم موسى -عليه السلام – وقال: أتختارون الذى هو أقل فائدة وأدنى لذة وتتركون المن والسلوى وهو خير مما تطلبون.

انزلوا إلى أى مصر من الأمصار فإنكم تجدون فيه ما طلبتموه من البقول وأشباهها. وأحاطت بنى إسرائيل المهانة والاستكانة كما تحيط القبة بمن ضربت عليه، وحق عليهم غضب الله، بسبب كفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء بغير حق، وتكرار العصيان والعدوان منهم.

ملحقات التفسير:

١ – فى الآية ما يشعر بسوء أدبهم فى مخاطبتهم لنبيهم موسى عليه السلام، إذ عبروا عن عدم رغبتهم فى تناول المن والسلوى بحرف. لَن . المفيد لتأكد النفى فقالوا لن نصبر.

قال الحسن البصرى: (بطروا طعم المن والسلوى فلم يصبروا عليه، وذكروا عيشهم الذى كانوا فيه، وكانوا قومًا أهل أعداس وبصل وبقل وثوم) [١٥٩].

٢ – وصفوا الطعام بالوحدة مع أن المن والسلوى نوعان، لأنهم أرادوا من الوحدة أنه طعام متكرر فى كل يوم لا يختلف بحسب الأوقات. والعرب تقول لمن يجعل على مائدته فى كل يوم أنواعًا من الطعام لا تتغير إنه يأكل من طعام واحد «أو ضرب واحد لأنهما طعام أهل التلذذ، وهم كانوا أهل فلاحة فنزعوا إلى عادتهم واشتهوا ما ألفوه» [١٦٠].

٣ - جملة: أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ . من مقول موسى عليه السلام لهم، وفيها توبيخ شديد لهم على سوء اختيارهم وضعف عقولهم لإيثارهم الأدنى وهو البقل وما عطف عليه خير منه وهو المن والسلوى. قال الطبري : (أى قال لهم موسى: أتأخذون الذى هو أخس خطرًا وقيمة وقدرا من العيش، بدلا بالذى هو خير منه خطرا وقيمة وقدرًا، وذلك كان استبدالهم) (١٦١).

٤ - قوله تعالى : اهْبِطُوا مِصْرًا.

قال البيضاوى: أى انحدروا إليه من التيه. يقال هبط الوادى إذا نزل به وهبط منه إذا خرج منه.

وقال ابن كثير : مِصْرًا . هكذا هو منون مصروف مكتوب بالألف فى المصاحف الأئمة العثمانية وهو قراءة الجمهور بالصرف (١٦٢).

وقال الطبرى: (فأما القراءة بالألف والتنوين «اهبطوا مصرا») وهى القراءة التى لا يجوز عندى غيرها، لاجتماع مصاحف المسلمين واتفاق قراءة القراء على ذلك (١٦٣).

وقال أبو حيان فى البحر المحيط: (قرأ الحسن وطلحة والأعمش وأبان بن تغلب (مصر) بغير تنوين، وقد وردت كذلك فى مصحف أُبَى بن كعب، وعبد الله بن مسعود، وبعض مصاحف عثمان رضى الله عنه (١٦٤).

والمعنى على القراءة الأولى: اهبطوا مصرا من الأمصار لأنكم فى البدو، والذى طلبتم لا يكون فى البوادى والفيافى، وإنما يكون فى القرى والأمصار، فإن لكم إذا هبطتموه ما سألتم من العيش.

والمعنى على القراءة الثانية: اتركوا المكان الذى أنتم فيه واهبطوا مصر التى كنتم تسامون فيها سوء العذاب فإنكم تجدون فيها ما تبغونه، لأنكم قوم لا تقدرون نعمة الحرية ولا ترتاحون للفضائل النفسية، بل شأنكم - دائما - أن تستبدلوا الذى هو أدنى بالذى هو خير.

٥ - قوله تعالى : وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ . الفرق بين الذلة والمسكنة: أن الذلة هوان تجئ أسبابه من الخارج كأن يُغلب المرء على أمره نتيجة انتصار عدوه عليه فيذل لهذا العدو، أما المسكنة فهى هوان ينشأ من داخل النفس نتيجة بعدها عن الحق واستيلاء المطامع والشهوات عليها، وتوارث الذلة قرونا طويلة يورث هذه المسكنة، ويجعلها كالطبيعة الثابتة فى الشخص المستذل.

٦ - قوله تعالى : وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ . أى رجعوا منصرفين متحملين غضب الله، وقد صار عليهم من الله غضب، ووجب عليهم منه سخط (١٦٥).

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ.

ذَٰلِكَ . إشارة إلى ما سبق من ضرب الذلة والمسكنة والبوء بالغضب.

والجملة الكريمة استئناف بيانى جواب عن سؤال تقديره: لمَ فعل بهم كل ذلك؟ فكان الجواب فعلنا بهم ذلك بسبب كفرهم بآيات الله وبالمعجزات التى من جملتها ما عد عليهم من فلق البحر وإظلال الغمام وإنزال المن والسلوى وانفجار العيون من الحجر ،أو بالكتب المنزلة كالإنجيل والفرقان(١٦٦).

وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ . فإنهم قتلوا أشعياء وزكريا ويحيى وغيرهم. بِغَيْرِ الْحَقِّ . إذ لم يروا منهم ما يعتقدون به جواز قتلهم وإنما حملهم على ذلك اتباع الهوى وحب الدنيا.

ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ . أى جرهم العصيان والاعتداء والتمادى فيه إلى الكفر بالآيات وقتل النبيين، فإن صغار الذنوب سبب يؤدى إلى ارتكاب كبارها؛ كما أن صغار الطاعات أسباب مؤدية إلى تحرى كبارها.

وقيل: كرر الإشارة للدلالة على أن ما لحقهم كما هو بسبب الكفر والقتل فهو بسبب ارتكابهم المعاصى واعتدائهم على حدود الله تعالى. وقيل: الإشارة إلى الكفر والقتل والباء بمعنى مع (١٦٧).



الإيمان

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) ﴾

المفردات:

آمنوا : صدقوا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم.

هادوا : صاروا يهودًا يقال هاد يهود إذا دخل فى اليهودية، ويهود إما عربى من هاد إذا تاب، سموا بذلك لما تابوا من عبادة العجل، وإما معرب يهوذا وكأنهم سموا باسم أكبر أولاد يعقوب عليه السلام (١٦٨).

النصارى : جمع نصران بمعنى نصرانى كندامى وندمان والياء فى نصرانى للمبالغة، وهم قوم عيسى عليه السلام، سموا بذلك لأنهم نصروا المسيح عليه السلام، أو لأنهم كانوا معه فى قرية يقال لها نصران أو ناصرة فسموا باسمها أو من اسمها (١٦٩).

الصابئين: قوم بين النصارى والمجوس، وقيل: أصل دينهم دين نوح عليه السلام، وقيل: هم عبدة الملائكة، وقيل: عبدة الكواكب.

وقد شاهدت هذه الطائفة حين كنت فى العراق ويسمون الصبة، ولهم طقوس خاصة بهم فى الزواج والموت وغير ذلك. وهم قوم موحدون يعتقدون تأثير النجوم ويقرون ببعض الأنبياء. ويشتهرون فى بغداد بسوق معينة تسمى سوق الصابئة حيث يشتغلون بضرب الفضة وتزيينها ونقشها، وبيع قطع الفضة والنيكل بعد زخرفتها.

والإيمان المشار إليه فى قوله تعالى:

مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ . أى من كان منهم فى دينه قبل أن ينسخ مصدقًا بقلبه بالمبدأ والمعاد عاملا بمتقضى شرعه.

وقيل : من آمن من هؤلاء الكفرة إيمانا خالصًا ودخل فى الإسلام دخولا صادقا (١٧٠) ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ . إن هؤلاء الذين آمنوا عن تصديق وإذعان، وقدموا العمل الصالح لهم أجرهم العظيم عند ربهم ولا يفزعون من هول يوم القيامة كما يفزع الكافرون، ولا يفوتهم نعيم فيحزنون عليه كما يحزن المقصرون.

قال الإمام الغزالى:

إن الناس فى شأن بعثته صلى الله عليه وسلم أصناف ثلاثة:

١ – من لم يعلم بها بالمرة وهذا ناج حتما.

٢ – من بلغته الدعوة على وجهها ولم ينظر فى أدلتها إهمالا أو عنادا واستكبارًا وهذا مؤاخذ حتما.

٣ – صنف ثالث بين الدرجتين بلغهم اسم محمد صلى الله عليه وسلم ولم يبلغهم نعته ووصفه، بل سمعوا منذ الصبا أن كذابا مدلسا اسمه محمد ادعى النبوة كما سمع صبياننا أن كذابا يقال له المقنع تحدى بالنبوة كاذبًا، فهؤلاء عندى فى معنى الصنف الأول، فإن أولئك مع أنهم لم يسمعوا اسمه لم يسمعوا ضد أوصافه. وهؤلاء سمعوا ضد أوصافه، وهذا لا يحرك داعية النظر فى الطلب . ا . هـ.



نقض العهد

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

المفردات:

الطور : هو الجبل المعروف الذى ناجى عليه موسى ربه – تعالى – ورفع الجبل فوق رءوسهم كان لإرهابهم بعظمة القدرة من دون أن يكون لإجبارهم وإكراههم على العمل بما أوتوه. قال تعالى فى سورة الأعراف . ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ . (الأعراف : ١٧١) والنتق هو الهز والزعزعة والجذب والاقتلاع.

والخسران : ذهاب رأس المال أو نقصه.

التفسير:

٦٣ – ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ ... هذا بيان لنعمة أخرى أنعمها الله على اليهود مع بيان

حالهم فيما عرض عليهم من التكاليف، أى واذكروا وقت أن أخذنا عليكم العهد بأن تتبعوا موسى وتعملوا بالتوراة التى يجيئكم بها من عند الله . وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ . تخويفًا لكم.

فعن ابن أبى حاتم عن ابن عباس أن موسى – عليه السلام – لما جاءهم بالتوراة وما فيها من التكاليف الشاقة كبرت عليهم وأبوا قبولها، فأمر الله جبريل بقلع الطور فظلله فوقهم حتى أقبلوا، لأنهم ظنوا أنه واقع بهم(١٧١).

خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ . المراد من القوة: الجد والاجتهاد كما قال ابن عباس: أى قلنا لهم، خذوا ما آتيناكم بجد واجتهاد مع حسن النية والإخلاص، فإن ذلك يدفعهم إلى النظر فى الآيات حتى يقتنعوا ويحسنوا العمل.

وهنا سؤال وهو أنه يؤخذ من الآية أن إيمانهم كان بالإلجاء والإكراه، وهذا ينافى التكليف الذى يقوم على الاختيار، فهو الذى يكوّن العقيدة الصحيحة المبنية على الإقناع ؛ ولهذا قال تعالى : لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ (البقرة:٢٥٦) وقال لنبيه وكان حريصًا على إيمان الناس: . . أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (يونس :٩٩)

والجواب أن الاختيار كان موكولا إليهم فى كل عروض الإيمان عليهم، ولما لم يمتثلوا، كانت آيات التخويف لهم بمنزلة مشروعية القتال للكفار، لإصلاح حالهم مع الله تعالى، فإن الحكمة تدعو إلى الأخذ بالقوة إذا فشل النصح والإرشاد، ولهذا ينبغى أن يؤدب الوالد بالقوة ابنه المعوج السلوك إذا لم ينفع معه تكرار النصح حتى لا يستمر فساده (١٧٢).

وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ : أى بعد أخذ الكتاب بقوة ادرسوا ما فيه وداوموا على تذكره حتى يرسخ فى قلوبكم، فإذا فعلتم ذلك صفت قلوبكم وارتقت فى السلوك إلى ربكم، وبهذا تصير نقية من أدران الرذائل، راضية مرضية عند ربها. والعاقبة للتقوى.

٦٤ – ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ . هذا بيان لنقضهم وإعراضهم عن العمل بالميثاق الذى أخذ عليهم، ونبذوه خلف ظهورهم، والمعنى ثم أعرضتم من بعد أخذ الميثاق عليكم وقبولكم إياه وذلك نقض للعهد تستحقون من أجله العقاب ولكن حال دون حلوله بكم فضل الله عليكم وإمهاله إياكم وتوفيقكم للتوبة، ولولا ذلك لكنتم من الخاسرين فى دنياكم وآخرتكم بسبب ما اجترحتم من نقض ميثاقكم.

وبذلك تكون الآيات قد ذكرت بنى إسرائيل المعاصرين للعهد النبوى بما كان من أسلافهم من جحود النعمة، ونقض للعهد، وفى هذا التذكير تحذير لهم من السير على طريقة أسلافهم ودعوة لهم إلى الدخول فى الإسلام واتباع محمد صلى الله عليه وسلم.

★ ★ ★

عقوبة اليهود

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

المفردات:

الاعتداء : تجاوز الحد فى كل شىء.

السبت : هو اليوم المعروف فى الأسبوع واعتداؤهم فيه تجاوزهم فى حكمه.

خاسئين : صاغرين مطرودين.

فجعلناها نكالا : النكال ما يفعل بشخص من إيذاء وإهانة ليعتبر به غيره. والمراد جعلنا عقوبتهم عبرة لغيرهم، تنكلهم وتمنعهم عن مثل ما فعلوا.

لما بين يديها وما خلفها : للمعاصرين لها ولمن بعدها من الأمم.

الموعظة : ما يبقى من الكلام لاستشعار الخوف من الله بذكر ثوابه وعقابه.

عدوان السبت:

ملخص قصة اعتداء بنى إسرائيل فى السبت: أن الله تعالى أخذ عليهم عهدا بأن يتفرغوا لعبادته فى ذلك اليوم. وحرم عليهم الاصطياد فيه دون سائر الأيام، وقد أراد سبحانه أن يختبر استعدادهم للوفاء بعهودهم فابتلاهم بتكاثر الحيتان فى يوم السبت دون غيره، فكانت تتراءى لهم على الساحل فى ذلك اليوم قريبة المأخذ سهلة الاصطياد فقالوا : لو حفرنا إلى جانب ذلك البحر الذى يزخر بالأسماك يوم السبت حياضا تنساب إليها المياه فى ذلك اليوم ثم نصطادها من تلك الحياض فى يوم الأحد وما بعده، وبذلك نجمع بين احترام ما عهد إلينا فى يوم السبت، وبين ما تشتهيه أنفسنا من الحصول على تلك الأسماك، فنصحهم فريق منهم بأن عملهم هذا إنما هو امتثال ظاهرى لأمر الله ولكنه فى حقيقته خروج عن أمره من ترك الصيد فى يوم السبت فلم يعبأ أكثرهم بذلك، بل نفذ تلك الحيلة، فغضب الله عليهم ومسخهم قردة وجعلهم عبرة لمن عاصرهم ولمن أتى بعدهم. والحديث عن أصحاب السبت قد جاء ذكره مفصلا فى سورة الأعراف [١٧٣] كما جاءت الإشارة إليه فى سورتى النحل والنساء.

التفسير :

٦٥ - ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ .. : أى ولقد عرفتم نبأ الذين تجاوزوا منكم الحد الذى رسمه لهم الكتاب، وركبوا ما نهاهم عنه من ترك العمل الدنيوى، والتفرغ للعمل الأخروى يوم السبت.

﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ . أى حولهم الله إلى قردة صاغرين مطرودين مبعدين عن الخير أذلاء.

والخسوء: الطرد والإبعاد يقال: خسأت الكلب خسأ وخسوءا من باب منع - طردته وزجرته، وذلك إذا قلت له: اخسأ.

وجمهور المفسرين على أنهم مسخوا على الحقيقة ثم ماتوا بعد ذلك بوقت قصير.

«وروى أن الممسوخ لا ينسل ولا يأكل ولا يشرب ولا يعيش أكثر من ثلاثة أيام»(١٧٤).

ويرى مجاهد أنهم لم تمسخ صورهم ولكن مسخت قلوبهم، أى أنهم مسخوا مسخًا نفسيًا فصاروا كالقردة فى شرورها وإفسادها لما تصل إليها أيديها.

قال الأستاذ الإمام محمد عبده: والآية ليست نصًا فى رأى الجمهور ولم يبق إلا النقل، ولو صح لما كان فى الآية عبرة ولا موعظة للعصاة، لأنهم يعلمون بالمشاهدة أن الله لا يمسخ كل عاص فيخرجه من نوع الإنسان، إذ ليس من سننه فى خلقه، وإنما العبرة الكبرى فى العلم بأن من سنن الله فى الذين خلوا من قبل أن من يفسق عن أمره ويتنكب الصراط الذى شرعه له ينزله عن مرتبة الإنسان ويلحقه بعجماوات الحيوان وسنة الله واحدة، فهو يعامل القرون الحاضرة بمثل ما عامل به القرون الخالية ا هـ.

وفى هذا تأييد لرأى مجاهد، روى ابن جرير عن مجاهد أنه قال: «مامسخت صورهم، ولكن مسخت قلوبهم فلا تقبل وعظًا ولا تعى زجرًا».

وذاك على حد تمثيلهم بالحمار فى قوله تعالى: مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا . (الجمعة :٥)

وقد نقل الحافظ ابن كثير آثارًا عن بعض الصحابة والتابعين، فى مسخ هؤلاء المعتدين على صورة القردة، وفى تفصيل قصتهم ثم قال: (قلت): والغرض من هذا السياق عن هؤلاء الأئمة بيان خلاف ما ذهب إليه مجاهد رحمه الله من أن مسخهم إنما كان (معنويًا) لا (صوريًا) بل الصحيح أنه معنوى صورى والله تعالى أعلم(١٧٥).

٦٦ - فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ . أى فجعلنا هذه العقوبة عبرة ينكل من يعلم بها، أى يمتنع من الاعتداء على حدود الله سواء منهم من وقعت فى زمانه أو من جاء بعدهم إلى يوم القيامة.

وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ . أى لهم، وهم من يقون أنفسهم من عقاب الله من كل أمة، أو من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، أو من بنى إسرائيل، خص المتقين لأنهم هم الذين ينتفعون بالمواعظ.

قال الحافظ ابن كثير: المراد بالموعظة ها هنا الزجر، أى جعلنا ما أحللنا بهؤلاء من البأس والنكال فى مقابلة ما ارتكبوه من محارم الله وما تحيلوا به من الحيل، فليحذر المتقون صنيعهم لئلا يصيبهم ما أصابهم، كما روى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل » وهذا إسناد جيد (١٧٦).



البقـــرة

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

المفردات:

البقـرة : اسم الأنثى. والثور اسم الذكر.

أتتخذنا هزوا : أتجعلنا موضع استهزاء أى سخرية.

الجهل : هنا فعل ما لا ينبغى أن يفعل، وقد يطلق على اعتقاد الشىء بخلاف ما هو عليه.

لا فارض : الفارض المسنة التى انقطعت ولادتها ، فمعنى لا فارض غير مسنة.

ولابكر : البكر الصغيرة التى لم تحمل بعد.

عوان بين ذلك : نصَف بين المسنة والفتية.

فاقع لونها : الفاقع هو شديد الصفرة.

تسر الناظرين : لحسنها.

إن البقر : أى أن البقر الفاقع هو وسط بين الفارض والبكر.

تشابه علـينا : لاشتراك كل بقرة مع مثيلتها فى الأوصاف المطلوبة، فلا نستطيع أن نفرق بين البقر فيها، حتى نحصل على البقرة المطلوبة.

وإنا إن شاء الله لمهتدون : إلى عينها لنذبحها، يظهرون بقولهم هذا، أنهم يريدون معرفة ما وقعت مشيئة الله عليه من هذا النوع من البقر، بذكر وصف مميز للمطلوب.

الذلول : الريض الذى زالت صعوبته، يقال دابة ذلول بينة، (الذل) بالكسر، ورجل ذلول بين الذل (بالضم)، فمعنى لا ذلول أى ليست مذللة وميسرة.

تثير الأرض : أى تقلبها بالمحراث.

ولا تسقى الحرث : أى ولا تروى الزرع.

مسلمة : سليمة من العيوب وآثار العمل.

لاشية فيها : لا لون فيها يخالف معظم جلدها، من وشى الثوب يشيه إذا زينه بخطوط مختلفة الألوان.

جئت بالحق : جئت بحقيقة وصف البقرة ولم يبق فيها إشكال.

وما كادوا يفعلون : وما قربوا من أن يذبحوها لغلاء ثمنها أو خوف الفضيحة.

قصة البقرة:

قال ابن كثير فى تفسيره (عن عبيدة السلمانى: قال: كان رجل من بنى إسرائيل عقيما لا يولد له، وكان له مال كثير، وكان ابن أخيه وارثه، فقتله ثم احتمله ليلا فوضعه على باب رجل منهم، ثم أصبح يدعيه عليهم حتى تسلحوا وركب بعضهم على بعض فقال ذوو الرأى منهم والنهى: علام يقتل بعضكم بعضًا وهذا رسول الله فيكم؟ فأتوا موسى عليه السلام فذكروا ذلك له، فقال: **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ** . قال: فلو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة ولكنهم شددوا فشدد عليهم حتى انتهوا إلى البقرة التى أمروا بذبحها فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها، فقال: والله لا أنقصها من ملء جلدها ذهبا ، فأخذوها بملء جلدها ذهبا فذبحوها فضربوه ببعضها فقام، فقالوا: من قتلك؟ فقال هذا - لابن أخيه - ثم مال ميتا فلم يعط من ماله شيئا ولم يورث قاتل بعد) (١٧٧).

التفسير:

٦٧ - **وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً** . أى واذكروا يا بنى إسرائيل لتعتبروا وتتعظوا وقت أن حدث فى أسلافكم قتيل ولم يعرف الجانى. فطلب بعض أهله وغيرهم من موسى - عليه السلام - أن يدعو الله تعالى ليكشف لهم القاتل الحقيقى فقال لهم: **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً** .

ويجوز أن يكون المعنى، واذكر يا محمد الوقت الذى قال فيه موسى لقومه . . والأمر هنا لكل من يصلح للخطاب، ليعرف ما كان عليه بنو إسرائيل من اللجاجة والعناد والفرار من الرشاد: **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً**. ليكون وسيلة إلى معرفة القاتل.

• وتنكير لفظ (بقرة) يشير إلى أنهم لو ذبحوا أية بقرة بعد الأمر لكفتهم ولكنهم كعادتهم - شددوا بتكرار الأسئلة فشدد الله عليهم (١٧٨).

وقد أمرهم الله بذبح بقرة دون غيرها من الحيوانات، لأنها من جنس ما عبدوه وهو العجل، وفى أمرهم

بذلك تهوين لشأن هذا الحيوان الذى عظموه وعبدوه وأحبوه، فكأنه سبحانه يقول لهم: إن هذا البقر الذى يضرب به المثل فى البلادة، لا يصلح أن يكون معبودًا من دون الله، وإنما يصلح للحرث والسقى والعمل والذبح.

وهذا استئناف بيانى، كأن سائلا قال: ماذا قال بنو إسرائيل لموسى بعد أن أمرهم بذبح البقرة، فكان الجواب، قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً . وهزوا أى سخرية وهو بتقدير مضاف أى: موضع هزو.

استبعدوا أن يكون ذبح البقرة له صلة بتبرئة المتهم بالقتل فظنوا لجهلهم أنه يسخر بهم، فسألوه مستنكرين.

أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً . وكان حقهم أن يمتثلوا، ولا يقولوا ما قالوا، فقد عرفوا فى رسولهم الجد فى أمره كله، ولاسيما ما ينقله لهم عن الله تعالى.

قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ . أى ألتجئ إلى الله وأبرأ إليه من أن أكون من السفهاء الذين يروون عنه الكذب والباطل.

وفى هذا الجواب تبرؤ وتنزه عن الهزء، وهو المزاح الذى يخالطه احتقار واستخفاف بالممازح معه، لأنه لا يليق بعقلاء الناس فضلا عن رسل الله عليهم السلام.

قال الأستاذ الشيخ محمد الخضر حسين عليه رحمة الله:

«وقد نبهت الآية الكريمة على أن الاستهزاء بأمر من أمور الدين جهل كبير، ومن الجهل ما يلقى صاحبه فى أسوأ العواقب، ويقذف به فى عذاب الحريق، ومن هنا منع المحققون من أهل العلم استعمال الآيات كأمثال يضربونها فى مقام المزح والهزل [١٧٩]. وقالوا: إنما أنزل القرآن الكريم ليتلى بتدبر وخضوع، وليعمل به بتقبل وخضوع. اهـ [١٨٠].

٦٨ - قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ .

أى قال بنو إسرائيل لموسى، بعد أن عرفوا من جوابه الجد: اطلب لنا من ربك أن يبين لنا حالها وصفاتها [١٨١].

فقال لهم موسى إنه تعالى يقول: إن البقرة التى أمركم بذبحها لا مسنة ولا صغيرة، بل نصَف بينهما، فاتركوا الإلحاح فى الأسئلة وسارعوا إلى امتثال ما أمرتم به.

٦٩ - قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ . قال بنو إسرائيل لنبيهم، مشددين على أنفسهم بعد أن عرفوا صفة البقرة من جهة سنها، سل لنا ربك يبين لنا ما لونها، لكى يسهل علينا الحصول عليها فأجابهم بقوله: إنه تعالى يقول: إن البقرة التى أمرتكم بذبحها . صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا .

الفقوع: أشد ما يكون من الصفرة وأبلغه. ولذا يكون وصف الصفرة للتأكيد كأمس الدابر، وكما يختص الأصفر بالفاقع يختص الأسود بالحالك، والأخضر بالناضر، والأحمر بالقانى، والأبيض بالناصع.

قال ابن جرير الطبرى (والفقوع فى الصفرة نظير النصوع فى البياض وهو شدته وصفاؤه) (١٨٢) . تَسُرُّ النَّاظِرِينَ . أى تعجبهم وتشرح صدورهم، لشعورهم باللذة القلبية لحسن منظرها، وجمهور المفسرين يقولون. إن الصفرة من الألوان السارة (١٨٣).

٧٠ - قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ . كرروا سؤالهم الأول لطلب الاستكشاف الزائد بعد أن عرفوا سن البقرة ولونها، فقالوا لموسى: سل من أجلنا ربك أن يزيد إيضاحًا لحال البقرة التى أمرنا بذبحها حيث إن البقر الموصوف بالوصفين السابقين كثير، فاشتبه علينا أيها نذبح، وإنا إن شاء الله بعد هذا البيان منك لمهتدون إليها ومنفذون لما تكلفنا به.

وقولهم: وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ : فيه تخفيف لصورة عنادهم وإتيانهم بالمشيئة لتحسين الظن بهم.

وفى الحديث، (لو لم يستثنوا - أى يقولوا إن شاء الله - لما بينت لهم صفتها إلى آخر الأبد) (١٨٤).

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور (وإنما لم يعتذروا فى المرتين الأوليين واعتذروا فى الثالثة لأن للثلاثة فى التكرير وقعًا من النفس فى التأكيد والسآمة وغير ذلك، ولذا كثر فى أحوال البشر وشرائعهم التوقيت بالثلاثة) (١٨٥).

وقولهم: لَمُهْتَدُونَ . أى إلى المطلوب ذبحه منها أو إلى معرفة القاتل بسببها قال الطبرى: (وأما قوله تعالى: وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ . فإنهم عنوا وإنا إن شاء الله لمبين لنا ما التبس علينا وتشابه من أمر البقرة التى أمرنا بذبحها، ومعنى اهتدائهم فى هذا الموضع تبينهم أن ذلك الذى لزمهم ذبحه مما سواه من أجناس البقر) (١٨٦).

٧١ - قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا . أى أنها بقرة لم تذلل بالعمل فى الحراثة والسقى، فلفظ .لا . نافية بمعنى غير . ولا . فى قوله تعالى: وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ. مزيدة لتوكيد الأولى لأن المعنى (لاذلول تثير وتسقى) (١٨٧)، وأعيد فى قوله: وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ . مراعاة للاستعمال الفصيح. قال ابن كثير: إنها ليست مذللة بالحراثة ولا معدة للسقى فى السافية بل هى مكرمة حسنة صبيحة لا عيب فيها ا هـ. ومعنى. مُسَلَّمَةٌ. أى سلمها الله من العيوب. ومعنى . لاَّ شِيَةَ : لا لون فيها يخالف جلدها الأصفر، والشية فى الأصل. مصدر وشاه يشيه وشيا وشية، إذا خلط لونه بلون آخر.

قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ . أى جئت بحقيقة وصف البقرة. وما بقى إشكال فى أمرها، ولا وجه لنا فى طلب الإيضاح بعد ذلك. فَذَبَحُوهَا . أى فحصلوا البقرة الجامعة لهذه الأوصاف كلها فذبحوها.

وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ. معناه وما قاربوا أن يفعلوا الذبح؛ والمقصود منه المبالغة فى تباطئهم وتعمدهم. إطالة الزمن بكثرة المراجعات فى وصف البقرة. وجملة. وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ. حالية. قال الزمخشرى : وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ.

استثقال لاستقصائهم واستبطاء لهم، وإنهم لتطويلهم المفرط وكثرة استكشافهم ما كادوا يذبحونها، وما كادت تنتهى سؤالاتهم وما كاد ينقطع خيط إسهابهم فيها وتعمقهم، وقيل وما كادوا يذبحونها لغلاء ثمنها، وقيل لخوف الفضيحة فى ظهور القاتل، وروى أنه كان فى بنى إسرائيل شيخ صالح له عجلة فأتى بها الغيضة وقال: اللهم إنى استودعتكها لابنى حتى يكبر ، وكان برًّا بوالديه، فشبت وكانت من أحسن البقر وأسمنه، فساوموها اليتيم وأمه حتى اشتروها بملء مسكها ذهبًا وكانت البقرة إذ ذاك بثلاثة دنانير (١٨٨).

يؤخذ من الآية النهى عن كثرة السؤال، قال تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ . (المائدة : ١٠١)

وروى الشيخان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم، فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم، واختلافهم على أنبيائهم » (١٨٩).

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عامله: إذا أمرتك أن تعطى فلانا شاة سألتنى أضائن أم ماعز؟، فإن بينت لك قلت أذكر أم أنثى؟، فإن أخبرتك قلت أسوداء أم بيضاء؟، فإذا أمرتك بشىء فلا تراجعنى.

وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن الأغلوطات (١٩٠). أخرجه الإمام أحمد وفسره الأوزاعى وقال : هى شداد المسائل وما لا يحتاج إليه من كيف وكيف.

وقال الأوزاعى: إن الله إذا أراد أن يحرم عبده بركة العلم ألقى على لسانه المغاليط، فلقد رأيتهم أقل الناس علمًا.



الحيــــاة

﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣) ﴾

المفردات:

فادارأتم فيها : أى تدافعتم وتخاصمتم فى شأنها وكل واحد يدرأ عن نفسه ويدعى البراءة ويتهم سواه.

والله مخرج ما كنتم تكتمون : أى مظهره مهما كتمتم.

التفسير:

٧٢ – وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ..

واذكروا يا بنى إسرائيل إذ قتلتم نفسا، فاختلفتم وتنازعتم فى قاتلها، ودفع كل واحد منكم التهمة عن

نفسه، والله عز وجل مخرج لا محالة ما كتمتم من أمر القاتل فقد بين سبحانه الحق فى ذلك فقال على لسان رسوله موسى عليه السلام.

اضربوا القتيل بأى جزء من أجزاء البقرة، فضربتموه ببعضها فعادت إليه الحياة بإذن الله، وأخبر عن قاتله، وبمثل هذا الإحياء لذلك القتيل بعد موته يحيى الله الموتى للحساب والجزاء يوم القيامة، ويبين لكم الدلائل الدالة على أنه قدير على كل شىء.

وجمهور المفسرين على أن واقعة قتل النفس وتنازعهم فيها حصلت قبل الأمر بذبح البقرة، إلا أن القرآن الكريم أخرها فى الذكر ليعدد على بنى إسرائيل جناياتهم وليشوق النفوس إلى معرفة الحكمة من وراء الأمر بذبحها فتتقبلها بشغف واهتمام.

وقد أسند القرآن الكريم القتل إلى جميعهم فى قوله: وَإِذْ قَتَلْتُمْ . مع أن القاتل بعضهم، للإشعار بأن الأمة فى مجموعها وتكافلها كالشخص الواحد، ولأن المسئولية فى القتل مشتركة بين الجميع حتى يتعين القاتل فيبرأ من عداه.

وقوله تعالى: وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ : معناه، والله تعالى مظهر ومعلن ما كنتم تسترونه من أمر القتيل الذى قتلتموه، ثم تنازعتم فى شأن قاتله، وذلك ليتبين القاتل الحقيقى بدون أن يظلم غيره.

وهذه الجملة الكريمة: وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ. معترضة بين قوله تعالى: فَادَّارَأْتُمْ . وبين قوله تعالى: فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا .وفائدته إشعار المخاطبين قبل أن يسمعوا ما أمروا بفعله، بأن القاتل الحقيقى سينكشف أمره لا محالة.

قال صاحب تفسير التحرير والتنوير: (وإنما تعلقت إرادة الله بكشف حال من قتل هذا القتيل - مع أنه ليس أول قتيل طل دمه فى الأمم - إكراما لموسى - عليه السلام - أن يضيع دم فى قومه وهو بين أظهرهم وبمرأى ومسمع منه، لاسيما وقد قصد القاتلون استغفاله ودبروا المكيدة فى إظهار المطالبة بدمه، فلو لم يظهر الله تعالى هذا الدم ويبين سافكه لضعف يقين القوم برسولهم موسى عليه السلام ، ولكان ذلك مما يزيد شكهم فى صدقه فينقلبوا كافرين. فكان إظهار القاتل الحقيقى إكرامًا من الله تعالى لموسى ورحمة بالقوم لئلا يضلوا)[١٩١].

٧٣ - وقوله تعالى: فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا . .

أى اضربوا القتيل ببعض البقرة المذبوحة ولاقطع بتعين هذا البعض، وإن قيل: إنه اللسان أو الفخذ أو عجب الذنب، فضربوه بجزء منها، فأحياه الله تعالى ونطق باسم القاتل ثم مات بعد أن أخبر به.

قال الزمخشرى: (فإن قلت: هلا أحياه ابتداء، ولمَ شرط فى إحيائه ذبح البقرة وضربه ببعضها؟ قلت: فى الأسباب والشروط حكم وفوائد، وإنما شرط ذلك لما فى ذبح البقرة من التقرب وأداء التكاليف، واكتساب الثواب، والإشعار بحسن تقديم القربة على الطلب، وما فى التشديد عليهم لتشديدهم، من اللطف لهم وللآخرين فى ترك التشديد والمسارعة إلى امتثال أوامر الله تعالى، وارتسامها على الفور من غير تفتيش وتكثير سؤال، ونفع اليتيم بالتجارة الرابحة، والدلالة على بركة البر بالوالدين، والشفقة على الأولاد، وتجهيل الهازئ بما لا يعلم

كنهه، ولا يطلع على حقيقته، من كلام الحكماء، بيان أن من حق المتقرب إلى ربه أن يتأنق فى اختيار ما يتقرب به، وأن يختاره فتى السن غير قحم ولا ضرع، حسن اللون بريئًا من العيوب، يونق من ينظر إليه، وأن يغالى بثمنه، كما يروى من عمر – رضى الله عنه – أنه ضحى بنجيبة بثلاثمائة دينار (١٩٢).

رأى تفسير المنار:

ذهب صاحب المنار إلى أن المراد بالإحياء فى قوله تعالى: كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ. حفظ الدماء واستبقاؤها وليس المراد به الإحياء الحقيقى بعد الموت وأن ذلك العمل كان وسيلة عندهم للفصل فى الدماء عند التنازع فى القاتل إذا وجد القتيل قرب بلد ولم يعرف قاتله ليعرف الجانى من غيره، فمن غسل يده وفعل ما رسم لذلك فى الشريعة برئ من الدم، ومن لم يفعل ثبتت عليه الجناية (١٩٣).

والذى نراه أن المراد بالإحياء فى قوله تعالى : كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ. الإحياء الحقيقى للميت بعد موته وأن تفسيره بحفظ الدماء واستبقائها ضعيف لما يأتى:

١ – مخالفته لما ورد عن السلف فى تفسير الآية (١٩٤).

٢ – قال تعالى : كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ.

وهى قرينة على أن المراد بالإحياء رد أرواحهم بعد موتهم وليس هناك نص صحيح يعتمد عليه فى مخالفة هذا الظاهر، ولا توجد قرينة مانعة من إرادة هذا المعنى المتبادر من الآية بأدنى تأمل، ومادام الأمر كذلك فلا يجوز تأويله بما يخالف ما يدل عليه اللفظ دلالة واضحة (١٩٥) ومن التعسف الظاهر أن يراد من الموتى الأحياء من الناس، وبإحياء الموتى تشريع العقوبات صونا لدماء الأحياء منهم. والله تعالى حينما أراد أن يدل على هذا المعنى قال : وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ .

فهذه الآية الكريمة تدل على أن القصاص من الجناة يحفظ على الناس حياتهم بدون التواء أو تعمية.

٣ – الإراءة فى الآية بصرية لا عقلية، وسياق الكلام يأبى أن يصرف عن الظاهر وخاصة قوله تعالى: فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ. (١٩٦).

★ ★ ★

قسوة القلوب

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾

المفردات:

القسوة : اليبس والصلابة.

يتفجر : يتفتح ويتشقق بكثرة وسعة.

يهبط : يتردى وينزل.

الخشية : الخوف.

المناسبة:

وصف الله حال بنى إسرائيل بعد أن رأوا من آياته التى آتاها موسى عليه السلام ما رأوا، كانفجار الماء، ورفع الجبل، ومسخهم قردة، وإحياء القتيل إلى نحو ذلك، وصفهم بقسوة القلوب وضعف الوازع الدينى فيها، حتى أصبحت كالصم الصلاد بل أشد منها قسوة.

التفسير:

٧٤ - ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً . .

ثم صلبت قلوبكم - يا بنى إسرائيل - وغلظت من بعد أن رأيتم ما رأيتم من معجزات، منها إحياء القتيل أمام أعينكم فهى كالحجارة فى صلابتها ويبوستها، بل هى أشد صلابة منها لأن من الحجارة ما فيه ثقوب متعددة وخروق متسعة، فتدفق منه مياه الأنهار التى تعود بالمنافع على المخلوقات، ولأن منها ما يتصدع تصدعًا قليلا فيخرج منه ماء العيون والآبار ولأن منها ما يتردى من رأس الجبل إلى الأرض من خوف الله وخشيته.

وقد شاهدوا كل ذلك حين ضرب موسى الحجر فتفجرت منه اثنتا عشرة عينا وشاهدوا الجبل يندك دكا حين تجلى الله له.

ولكن قلوبهم كلت وعميت وأغلقت مفاتيحها فلا تتأثر بموعظة، ولا تنقاد للخير، ولا تفعل ما تؤمر به، مهما تعاقبت عليها النعم والنقم والآيات.

والله تعالى حافظ لأعمالهم، يحصيها عليهم ثم يجازيهم بها، فهو سبحانه يمهل ولا يهمل، وهو بكل شىء عليم.

واسم الإشارة . ذَلِكَ . مشار به إلى إحياء القتيل بعد ضربه بجزء من البقرة، أو إلى جميع النعم والمعجزات الواردة فى الآيات السابقة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾.

بيان لفضل الحجارة على قلوبهم القاسية، قصد به إظهار زيادة قسوة قلوبهم عن الحجارة، لأن هذا الأمر لغرابته يحتاج إلى بيان سببه.

فكأنه سبحانه يقول لهم: إن هذه الحجارة على صلابتها ويبوستها منها ما تحدث فيه المياه خروقًا واسعة تتدفق منها الأنهار الجارية النافعة، ومنها ما تحدث فيه المياه شقوقًا مختلفة تنجم عنها العيون النابعة والآبار الجوفية المفيدة، ومنها ما ينقاد لأوامر الله عن طواعيه وامتثال، أما قلوبكم أنتم فلا يصدر عنها نفع ولا تتأثر بالعظات والعبر، ولا تنقاد للحكم التى من شأنها هداية النفوس. وقوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾. تهديد لهم وتخويف حيث إنه سبحانه سيحاسبهم على أعمالهم وسيذيقهم ما يستحقون من عقاب جزاء جحودهم لنعمه، وعصيانهم لأوامره.

★ ★ ★

تحريفهم كلام الله

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧)﴾

المفردات:

أفتطمعون أن يؤمنوا لكم : الهمزة لإنكار طمع المؤمنين فى إيمان اليهود بعد ما علموا حالهم، أى استنكاره واستبعاده منهم، والفاء عطفت ما بعدها على مقدر، والتقدير: (أتحسبون قلوبهم صالحة للإيمان بعد ما علمتموه من حالهم، أفتطمعون أن يؤمنوا لكم) والمراد نهيهم عن الطمع بعد علمهم بحالهم.

فريق منهم : جماعة منهم.

كلام الله : المراد به التوراة.

فتح الله عليكم : بيَّن لكم خاصة، أو حكم وقضى عليكم.

ليحاجوكم : ليخاصموكم ويقيمون عليكم الحجة.

عند ربكم : أى فى كتاب ربكم وشرعه كما تقول: هو: عند الله كذا، أى كتابه وشرعه.

تمهيد :

انقضى المقطع السابق من السورة فى تذكير بنى إسرائيل بأنعم الله عليهم وجحودهم لهذا الإنعام المتواصل، وباستعراض مشاهد الإنعام والجحود، بعضها باختصار وبعضها بتطويل، وانتهى هذا الاستعراض بتقرير ما انتهت إليه قلوبهم فى نهاية المطاف من قسوة وجفاف وجدب، أشد من قسوة الحجارة وجفافها وجدبها، (فالآن يأخذ السياق فى الاتجاه بالخطاب إلى الجماعة المسلمة يحدثها عن بنى إسرائيل، ويبصرها بأساليبهم ووسائلهم فى الكيد والفتنة، ويحذرها كيدهم ومكرهم على ضوء تاريخهم وجبلتهم، فلا تنخدع بأقوالهم ودعاويهم ووسائلهم الماكرة فى الفتنة والتضليل، ويدل طول هذا الحديث وتنوع أساليبه على ضخامة ما كانت تلقاه الجماعة المسلمة من الكيد المنصوب لها والمرصود لدينها من أولئك اليهود) (١٩٧).

لقد كان النبى - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه شديدى الحرص على دخول اليهود فى ساحة الدين الجديد، طامعين فى انضوائهم تحت لوائه؛ لأن دينهم أقرب الأديان إلى دينهم فى تعاليمه ومبادئه وأغراضه فهم يشتركون معهم فى الاعتقاد بالتوحيد والتصديق والبعث والنشور، وكتابهم مصدق لما معهم.

فقص الله فى هذه الآيات على المؤمنين من أنبائهم ما أزال أطماعهم وأيأسهم من إيمانهم.

التفسير :

٧٥ - **أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ .**

ما كان ينبغى لكم أيها المؤمنون أن تطمعوا فى أن يؤمن اليهود بدينكم وينقادوا لكم وقد اجتمعت فى مختلف فرقهم أشتات الرذائل التى تباعد بينهم وبين الإيمان بالحق، فقد كان فريق منهم (وهم الأحبار) يسمعون كلام الله فى التوراة ويفهمونه حق الفهم ثم يتعمدون تحريفه وهم يعلمون أنه الحق وأن كتب الله المنزلة لا يجوز تغييرها (١٩٨).

وجملة. **وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ** . حالية، مشتملة على بيان أحد الأسباب الداعية إلى القنوط من إيمانهم، وبذلك يكون التقنيط من إيمانهم قد علل بعلتين:

إحداهما: ما سبق هذه الآية من تصوير لأحوالهم السيئة.

ثانيتهما: ما تضمنته هذه الجملة الكريمة من تحريفهم لكلام الله عن علم وتعمد، وجملة. **وَهُمْ يَعْلَمُونَ** . حال مؤكد لاستهجان قبح ما اجترءوا عليه من التحريف.

والمعنى: إن كفر هؤلاء وحرفوا فلهم سابقة فى ذلك (١٩٩).

٧٦ - **وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ .**

وكان فريق من منافقيهم إذا لقوا الذين آمنوا قالوا مخادعين لهم آمنا بأنكم على الحق وأن محمدا هو النبى الذى جاء وصفه فى التوراة.

وإذا خلا بعضهم إلى بعض عاتبهم الفريق الآخر على غفلتهم إذ تنزلق ألسنتهم فى أثناء خداعهم للمؤمنين بعبارات تفيد خصومهم ولايستدعيها الخداع. أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ؟. أتخبرون المؤمنين بما فتح الله عليكم من أبواب العلم التى كتمناها عنهم كالبشارة بالنبى وعلاماته، وأخذ الميثاق على أنبيائهم بالإيمان به، وتبليغ أممهم أن يؤمنوا به وأن ينصروه إن أدركوه. لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ. أى ليقيموا عليكم به الحجة فى كتاب ربكم وشرعه.

وقيل المراد بقوله : عِندَ رَبِّكُمْ . يوم القيامة، أى لِيُحَاجُّوكُم به يوم القيامة، توبيخًا لكم، وزيادة فى فضيحتكم على رءوس الأشهاد؟.

وهذا الرأى غير مقبول، فإنهم عالمون بأنهم محجوجون بما فى كتابهم يوم القيامة، حدثوا به أو أخفوه، فلا وجه لتوبيخ إخوانهم على إظهاره للمؤمنين، إذا كان المراد بقوله : عِندَ رَبِّكُمْ . يوم القيامة.

روى عن ابن عباس أن ناسا منهم أسلموا ثم نافقوا، فكانوا يحدثون المؤمنين بما عذب به آباؤهم، فقالت لهم اليهود : أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ، أى بما حكم به عليكم من العذاب، ليقولوا نحن أكرم على الله منكم؟.

وقيل: إن عليا لما نازل قريظة يوم خيبر سمع سب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فانصرف إليه وقال: يا رسول، لا تبلغ إليهم، وعرض له. فقال: أظنك سمعت شتمى منهم لو رأونى لكفوا عن ذلك. ونهض إليهم، فلما رأوه أمسكوا. فقال لهم : « أنقضتم العهد يا إخوة القردة و الخنازير أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته » فقالوا: ما كنت جاهلا يا محمد فلا تجهل علينا، من حدثك بهذا؟ ما خرج هذا الخبر إلا من عندنا (٢٠٠).

والتعبير بالفتح فى قولهم: بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ . للإيذان بأنه سر مكتوم وباب مغلق فى وجه غيرهم فلا ينبغى أن يطلع عليه سواهم.

٧٧ - أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ . كان اليهود يتصورون أن الله لا يأخذ عليهم الحجة إلا أن يَقُولُوهَا بأفواههم للمسلمين، أما إذا كتموا وسكتوا فلن تكون لله عليهم حجة ولا يعلمون أن الله سبحانه وتعالى محيط بما يسرونه من أقوالهم عن المؤمنين، وما يعلنونه من النفاق، فلا تخفى عليه خافية من امرهم، وأنه مطلع رسوله صلى الله عليه وسلم بالوحى على كيدهم فتحصل المحاجة، كما حدث فى آية الرجم وتحريم بعض المحرمات عليهم، فأى فائدة فى اللوم والعتاب، فليرتدعوا عن ذلك ولينزجروا، وليدخلوا فى الإيمان بقلوبهم.

والاستفهام فى: أَوَلَا يَعْلَمُونَ : إنكارى مؤذن بشناعة نفاق المنافقين منهم وقبح اللوم من أصحابهم لهم على إطلاع المؤمنين على صفة الرسول وغيرها فى التوراة مع علمهم أن الله يعلم سرهم ونجواهم.

★ ★ ★

أمانيٌّ باطلة

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

المفردات:

أميون : جمع أمى وهو الذى لا يقرأ ولا يكتب، منسوب إلى الأم، وإيذانا بأنه - فى الخلو عن العلم والكتابة - كما ولدته أمه.

أمانى : جمع أمنية، وهى فى الأصل ما يقدره الإنسان فى نفسه مأخوذة من منى إذا قدر، والمراد بها هنا الأكاذيب التى أخذوها عن شياطينهم المحرفين للتوراة كما قاله ابن عباس ومجاهد.

فويل لهم : الويل فى الأصل مصدر لا فعل له من لفظه، مثل ويح، والمعنى هلاك لهم وشدة عذاب، وهى كلمة دعاء.

التفسير:

بعد أن بين سبحانه جنايات اليهود فى ماضيهم وحاضرهم وفى جملتها تحريفهم لكتاب الله التوراة، من بعد ما عقلوه، عقب ذلك بذكر فريق جاهل منهم تأثر بتحريف أحبارهم وضل بإضلالهم وهم الأميون.

٧٨ - وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إلا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ. أى ومن اليهود قوم أميون لايحسنون الكتابة، ولا يعلمون من كتابهم التوراة سوى أكاذيب اختلقها لهم علماؤهم، أو أمنيات باطلة يقدرونها فى أنفسهم بدون حق، أو قراءات عارية من التدبر والفهم، وقصارى أمرهم الظن من غير أن يصلوا إلى مرتبة اليقين المبنى على البرهان القاطع والدليل الساطع.

(ومن هذه الأمنيات والأكاذيب: أن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم، وأن الله سبحانه وتعالى يعفو عنهم ويرحمهم، وإن كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم، وأن الجنة لا يدخلها إلا من كان هودا، وأن النار لا تمسهم إلا أياما معدودة، وأنهم صفوة الإنسانية وشعب الله المختار لعمارة الأرض، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن لهم السيطرة على الناس، وغير ذلك من الأمانى التى عنوها فهؤلاء ضلوا، تبعا لأضاليل أحبارهم) [٢٠١].

ومن قوله تعالى وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ. زيادة تجهيل لهم، لأن أمنياتهم هذه من باب الأوهام التى لا تستند إلى دليل أو شبه دليل، أو من باب الظن الذى هو ركون النفس إلى وجه من وجهين يحتملهما الأمر دون أن تبلغ فى ذلك مرتبة القطع واليقين، وهذا النوع من العلم لا يكفى فى معرفة أصول الدين التى يقوم عليها الإيمان العميق، فهم ليسوا على يقين من أمور دينهم، وإنما هم يظنون ظنا بدون استيقان، والظن لا يغنى من الحق شيئًا.

ثم أنذر سبحانه الأحبار المحرفين للحق بالهلاك فقال:

٧٩ - فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ.

أى هلاك عظيم لهؤلاء الذين يحرفون كتاب الله وهو التوراة، إذ يكتبونها بأيديهم ويدسون فيها أكاذيبهم وما يحفظ عليهم رياستهم وجاههم، موهمين العوام أنها من عند الله ليحملوهم على اعتقادهم، والتعلق بالأمانى التى زينوها فى التوراة: يبتعون بهذا الفعل ثمنًا قليلاً هو الاحتفاظ بالرياسة، وأكل أموال الناس بالباطل، وهم بهذا يرتكبون أكبر جريمة، وهى افتراء الكذب على الله، ويختارون الباطل وينبذون الحق فيكونون بذلك كمن يبيع شيئًا نفيسًا غالى القيمة بثمن تافه.

قال السدى: كان ناس من اليهود كتبوا كتابًا من عندهم يبيعونه من العرب ويحدثونهم أنه من عند الله ليأخذوا به ثمنًا قليلاً (٢٠٢).

وقال الزهرى عن ابن عباس: يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شىء وكتاب الله الذى أنزله على نبيه أحدث أخبار الله تقرأونه غضا لم يشب، وقد حدثكم الله تعالى أن أهل الكتاب قد بدلوا كتاب الله وغيروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلاً ، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم؟ ولا والله ما رأينا منهم أحدًا سألكم عن الذى أنزل عليكم (٢٠٣).

ومن أسباب تحريف التوراة، ضعف علماء اليهود وانصراف الناس، عنهم فعمد العلماء إلى أمور ترغب الناس فيهم وألحقوها بالتوراة وقالوا: هذا من عند الله ليقبلوه عنهم فتتأكد رياستهم، وكان مما أحدثوا فيها أن قالوا: لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ (آل عمران : ٧٥). يعنون بالأميين العرب، ويعنون بأنهم ليس عليهم فى الأميين سبيل. أن ما أخذوا من أموالهم فهو حل لهم، ومنه قولهم: لا يضرنا ذنب فنحن أبناء الله وأحباؤه، وأن النار لن تمسنا إلا أيامًا معدودات، إلى غير ذلك مما كذبهم الله فيه فقال : فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ. من تحريف كلام الله وتبديله وسوء تأويله وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ. بالباطل من جاه ورياسة ومال.

★ ★ ★

غرور وادعـــاء

﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدًا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰۚ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

المفردات:

لن تمسنا النار : لن تصيبنا، والمس: اتصال أحد الشيئين بالآخر وإصابته له.

أياما معدودة : يضبطها العد فهى إذن قليلة، والعرب تقول: شىء معدود أى قليل، وغير معدود أى كثير.

بلى : حرف جواب كنعم، إلا أنها لا تقع إلا جوابًا لنفى متقدم سواء أدخله استفهام أم لا، وتفيد إثبات ما بعدها.

الكسب : جلب النفع واستعماله فى السيئة من باب التهكم.

وأحاطت به خطيئته : الخطيئة : السيئة التى استمكنت من النفس وحملتها على تجنب الصواب عمدًا،

وإحاطتها به : شمولها له واستيلاؤها على جميع تصرفاته، كما يحيط الثوب بلابسه.

تمهيد : -

ذكر الله فى هذه الآية ضربًا من ضروب غرورهم وصلفهم وادعائهم أنهم شعب الله المختار، وأنهم أبناء الله وأحباؤه ، فهو لا يعذبهم دومًا بل يعذبهم تعذيب الأب ابنه والحبيب حبيبه وقتًا قصيرًا ثم يرضى عنهم .

التفسير:

٨٠ - وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً . أكثر اليهود على أن النار تمسهم سبعة أيام لأن عمر الدنيا عندهم سبعة آلاف سنة فمن لم تدركه النجاة يمكث فى النار سبعة أيام عن كل ألف سنة يوم. وقيل إنها تمسهم أربعين يومًا، هى المدة التى عبدوا فيها العجل.

روى الإمام أحمد والبخارى والنسائى وابن مردويه واللفظ له عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله صلى الله عليه وسلم شاة فيها سم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « اجمعوا لى من كان من اليهود هنا ».

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: « من أبوكم؟ » قالوا: فلان. قال: « كذبتم بل أبوكم فلان » فقالوا: صدقت وبررت. ثم قال لهم: « هل أنتم صادقى عن شىء إن سألتكم عنه؟ قالوا: نعم يا أبا القاسم وإن

كذبناك عرفت كذبنا كما عرفت فى أبينا، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: أمن أهل النار؟ فقالوا: نكون فيها يسيرا ثم تخلفونا فيها. فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: اخسئوا والله لا نخلفكم فيها أبدا ثم قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل أنتم صادقى عن شئ إن سألتكم عنه؟ قالوا: نعم يا أبا القاسم. قال: هل جعلتم فى هذه الشاة سما؟ فقالوا: نعم. فقال: (فما حملكم على ذلك؟ فقالوا: أردنا إن كنت كاذبا أن نستريح منك وإن كنت نبيًا لم يضرك » (٢٠٤).

قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ . أى أعهد إليكم ربكم بذلك ووعدكم به وعدًا حقًا؟ إن كان كما تقولون فلن يخلف الله عهده.

أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ. أى أم أنتم تقولون على الله شيئا لا علم لكم به، فإن مثله لا يكون إلا بوحى يبلغه الرسل عنه وبدون هذا يكون افتياتا على الله وجراءة عليه، لأنه قول بلا علم فهو كفر صراح.

وخلاصة هذا: إن مثل ذلك القول يحتمل أمرين لا ثالث لهما:

إما اتخاذ عهد عند الله به، وإما القول عليه سبحانه بدون علم، وما دام قد ثبت أن اتخاذ العهد لم يحصل، إذًا فأنتم يا معشر اليهود كاذبون فيما تدعون من أن النار لن تمسكم إلا أيامًا معدودة.

قال الإمام الرازى: قوله تعالى: أَتَّخَذْتُمْ . ليس باستفهام بل هو إنكار لأنه لا يجوز أن يجعل الله تعالى حجة رسوله فى إبطال قولهم أن يستفهم بل المراد التنبيه على طريقة الاستدلال، وهى أنه لا سبيل إلى معرفة هذا التقدير إلا بالسمع، فلما لم يوجد الدليل السمعى وجب ألا يجوز الجزم بهذا التقدير (٢٠٥).

٨١ - بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . أى ليس الأمر كما ذكرتم، بل تمسكم النار وتمس غيركم دهراً طويلاً ، فكل من أحاطت به خطيئاته، وأخذت بجوانب إحساسه ووجدانه، واسترسل فى شهواته، وأصبح سجين آثامه فجزاؤه النار خالدًا فيها أبدا لما اقترف من أسبابها بانغماسه فى الشهوات التى استوجبت ذلك العقاب، والمراد بالسيئة هنا الشرك بالله، وصاحبه مخلد فى النار، وبعض العلماء حمل السيئة على معناه العام، وقال إن الخلود هنا المكث الطويل بمقدار ما يشاء الله، فالعاصى مرتكب الكبائر يمكث فيها ردحًا من الزمان ثم يخرج منها متى أراد الله تعالى (٢٠٦).

وفى الآية تحذير من ارتكاب السيئات، فإنها تؤدى إلى التمادى فيها فلا يبالى صاحبها بالكفر، فعلى من يرتكب سيئة أن يبادر بالتوبة منها، فإن لم يبادر بها، أحاطت الخطيئة بقلبه فأصبح مظلمًا لا ينفذ إليه النور، فيكفر والعياذ بالله تعالى.

روى الإمام أحمد والترمذى والحاكم والنسائى وغيرهم أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: « إن العبد إذا أذنب ذنبًا نكتت فى قلبه نكتة سوداء فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، وإن عاد زادت حتى تعلو قلبه، فذلك الران الذى ذكره الله تعالى فى القرآن: كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » (٢٠٧).

٨٢ - وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. أى والذين آمنوا بالله ورسوله

وأطاعوا الله فأقاموا حدوده وأدوا فرائضه واجتنبوا محارمه، فأولئك هم أصحاب الجنة الجديرون بدخولها والخلود فيها خلودًا أبديًا.

وفى هذا دليل على أن دخول الجنة منوط بالإيمان الصحيح والعمل الصالح معا، كما روى أن سفيان بن عبد الله الثقفى قال: يارسول الله قل لى فى الإسلام قولا وأقل فيه لعلى أعيه، فقال له النبى (ﷺ) « قل آمنت بالله ثم استقم »(٢٠٨) رواه مسلم.

★ ★ ★

الميثاق

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

المفردات:

الميثاق : العهد المؤكد، وهو قسمان: عهد خلقة وفطرة، وعهد نبوة ورسالة وهو المراد هنا، وهذا العهد أخذ عليهم على لسان موسى وغيره من أنبيائهم..

وبالوالدين إحسانا : أى تحسنون بالوالدين إحسانا مطلقا بلا حدود.

والمساكين : الذين أذلتهم الحاجة وأسكنتهم.

وقولوا للناس حسنًا : أى قولوا لهم حسنا وهو ما تطيب به النفوس ومنه الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر فى غير عنف ولا خشونة.

التفسير:

٨٣ - وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا. واذكروا يا بنى إسرائيل لتعتبروا وتستجيبوا للحق - وليذكر معكم كل من ينتفع بالذكرى - وقت أن أخذنا عليكم العهد وأمرناكم بالعمل على لسان رسلنا عليهم السلام، وأمرناكم فيه بألا تعبدوا سوى الله، وأمرناكم فيه كذلك بأن تحسنوا إلى آبائكم وتقوموا بأداء ما أوجبه الله لهما من حقوق، وأن تصلوا أقرباءكم وتعطفوا على اليتامى الذين فقدوا آباءهم، وعلى المساكين الذين لا يملكون ما يكفيهم فى حياتهم، وأمرناكم فيه أيضًا أن تقولوا للناس قولا حسنًا فيه صلاحهم ونفعهم، وأن تحافظوا على فريضة الصلاة، وتؤدوا بإخلاص ما أوجبه الله عليكم من زكاة، ولكنكم نقضتم أنتم وأسلافكم الميثاق وأعرضتم عنه إلا قليلا منكم استمروا على رعايته والعمل بموجبه.

وقد تضمنت الآية الكريمة لونا فريدا من التوجيه المحكم الذى لو اتبعوه لحسنت صلتهم مع الخالق والمخلوق، لأنها ابتدأت بأمرهم بأعلى الحقوق وأعظمها وهو حق الله تعالى عليهم، بأن يعبدوه ولا يشركوا به

شيئًا، ثم ثنت ببيان حقوق الناس فبدأت بأحقهم بالإحسان وهما الوالدان لما لهما من فضل الولادة والعطف والتربية. ثم الأقارب الذين تجمع الناس بهم صلة وقرابة من جهة الأب والأم، ورعايتهم تكون بالقيام بما يحتاجون إليه على قدر الاستطاعة، ثم باليتامى لأنهم فى حاجة إلى العون بعد أن فقدوا الأب الحانى، ثم بالمساكين لعجزهم عن كسب ما يكفيهم، ثم بالإحسان إلى سائر الناس عن طريق الكلمة الطيبة والمعاملة الحسنة، لأن الناس إن لم يكونوا فى حاجة إلى المال فهم فى حاجة إلى حسن المقال، ثم أرشدتهم إلى العبادات التى تعينهم على إحسان صلتهم بالخالق والمخلوق، فأمرتهم بالمداومة على الصلاة بخضوع وإخلاص، وبالمحافظة على أداء الزكاة بسخاء وطيب خاطر، ولعظم شأن هاتين العبادتين البدنية والمالية ذكرتا على وجه خاص بعد الأمر بعبادة الله، تفخيمًا لشأنهما وتوكيدًا لأمرهما، وكان من الواجب على بنى إسرائيل أن ينتفعوا بهذه الأوامر الحكيمة، ولكنهم عموا وصموا عنها فوبخهم القرآن الكريم بقوله: ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ.

فقد أفصحت الآية عما كان من أكثرهم، بعد أخذ الميثاق عليهم، بما فيه خيرهم وسعادتهم - وهو أنهم تولوا عن العمل به، وهم معرضون غير مكترثين بما يترتب على إعراضهم، أما القليلون منهم فإنهم التزموا العمل بالميثاق، وحافظوا على تنفيذه وهم المخلصون فى إيمانهم من أسلافهم - قبل أن تنسخ شريعتهم بالإسلام - ومن آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم وحافظ على هذا الميثاق الموجود فى سائر الأديان كعبد الله بن سلام وزيد بن سعنة.

وقوله: وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ. لتأكيد توليهم، أى ثم توليتم وأعرضتم عن تنفيذ هذا الميثاق وأنتم قوم عادتكم التولى والإعراض عن المواثيق، وهى عادة ورثتموها عن آبائكم، ويؤخذ كونها عادة لهم من الجملة الاسمية الدالة على الثبوت. وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ.

وفى الآية التفات من الغيبة إلى الخطاب للحاضرين من اليهود فى قوله: ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ لأنهم خلف لهؤلاء السابقين، فى السير على نهجهم فى نقض العهود وعدم احترام المواثيق فإنهم هم، فلذا خوطبوا بتوليهم وإعراضهم.

قال السيد رشيد رضا فى تفسير المنار (قد يتولى الإنسان منصرفا عن شىء وهو عازم على أن يعود إليه، ويوفيه حقه، فليس كل متول عن شىء معرضا عنه ومهملاً له على طول الدوام، لذلك كان ذكر هذا القيد وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ. لازما لابد منه وليس تكرارًا كما يتوهم) (٢٠٩).

★ ★ ★

تناقض

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾

المفردات:

لا تسفكون دماءكم : تريقونها، بأن يقتل بعضكم بعضا.

تظاهرون عليهم : أصله تتظاهرون، فحذفت إحدى التاءين تخفيفًا، أى تتعاونون عليهم.

الإثم : هو الفعل الذى يستحق صاحبه الذم، واللوم.

العدوان : تجاوز الحد فى الظلم.

أسارى : جمع أسير بمعنى مأسور، وهو من يؤخذ فى سبيل القهر والغلبة.

تفادوهم : تنقذوهم بدفع الفداء، وهو ما يدفع فى فك الأسير.

خزى : هوان.

يردون : يرجعون.

اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة : آثروا متاعها على نعيم الآخرة.

تمهيد:

ذكر الله بنى إسرائيل فى الآية السابقة، بأهم الأوامر التى أخذ عليهم العهد والميثاق أن يفعلوها.

وهنا ذكرهم بأهم المنهيات التى أخذ الميثاق عليهم فى التوراة بأن ينتهوا عنها فلم ينتهوا.

جاء فى عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير:

يقول الله منكرا على اليهود الذين كانوا فى زمان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالمدينة، وما كانوا يعانونه من القتال مع الأوس والخزرج، وذلك أن الأوس والخزرج - وهم الأنصار - كانوا فى الجاهلية عباد أصنام، وكانت بينهم حروب كثيرة، وكانت يهود المدينة ثلاث قبائل: بنو قينقاع وبنو النضير حلفاء الخزرج، وبنو قريظة حلفاء الأوس، فكانت الحرب إذا نشبت بينهم قاتل كل فريق مع حلفائه، فيقتل اليهود أعداءه، وقد يقتل اليهودى الآخر من الفريق، وذلك حرام عليهم فى دينهم ونص كتابهم، ويخرجونهم من بيوتهم، وينهبون ما فيها من الأثاث والأمتعة والأموال ثم إذا وضعت الحرب أوزارها استفكوا الأسارى من الفريق المغلوب عملا بحكم التوراة ولهذا قال تعالى: أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ . [٢١٠].

ويحكى التاريخ أن العرب كانوا يعيِّرون اليهود فيقولون لهم كيف تقاتلونهم ثم تفدونهم بأموالكم؟ فكان اليهود يقولون: قد حرم علينا قتالهم ولكننا نستحى أن نخذل حلفاءنا، وقد أمرنا أن نفتدى أسرانا .

المعنى الإجمالى للآيات:

واذكروا - أيضا - يا بنى إسرائيل وقت أن أخذنا عليكم العهد، وأوصينا فيه بألا يتعرض بعضكم لبعض بالقتل، وبألا يخرج بعضكم بعضا من مساكنهم، ثم أقررتم وأنتم تشهدون على الوفاء بهذا العهد والالتزام به.

ثم أنتم هؤلاء - يا معشر اليهود - بعد إقراركم بالميثاق وبعد شهادتكم المؤكدة على أنفسكم بأنكم قد قبلتموه، خرجتم على تعاليم التوراة، فنقضتم عهودكم وأراق بعضكم دماء بعض، وأخرجتم إخوانكم فى الملة والدم من ديارهم وتعاونتم على قتلهم وإخراجهم مع من ليسوا من ملتكم أو قرابتكم ، ومع ذلك فإذا وقع إخوانكم الذين قاتلتموهم وأخرجتموهم من ديارهم فى الأسر فاديتموهم، فلم تتبعوا حكم التوراة فى النهى عن قتالهم وإخراجهم، كما اتبعتم حكمها فى مفاداتهم، وكيف تستبيحون القتل والإخراج من الديار، ولا تستبيحون ترك الأسرى فى أيدى عدوهم؟ إن هذا التفريق بين أحكام الله، جزاء فاعله الهوان فى الدنيا والعذاب الدائم فى الآخرة، وما الله بغافل عما تفعلون، ولاشك أن أولئك اليهود الذى نقضوا عهودهم وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، قد باعوا دينهم بدنياهم فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون.

فى أعقاب التفسير:

١ - جعل الله الأمة المتواصلة بالدين وحدة متكاملة كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا فإذا اعتدى أحد على أخيه فكأنما يعتدى على نفسه ويضعف نفسه.

قال ابن كثير:

ولهذا قال تعالى: وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ . أى: لا يقتل بعضكم بعضًا ولا يخرجه من منزله ولا يظاهر عليه كما قال تعالى:

فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ . (البقرة : ٥٤) وذلك أن أهل الملة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة كما قال-عليه الصلاة والسلام: «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتواصلهم بمنزلة الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر» [٢١١].

٢ - وقال السيد رشيد رضا فى تفسير المنار:

وقد أورد سبحانه النهى عن سفك بعضهم دم بعض وإخراج بعضهم بعضا من ديارهم وأوطانهم، بعبارة تؤكد وحدة الأمة، وتحدث فى النفس أثرًا شريفا، يبعثها على الامتثال إن كان هناك قلب يشعر ووجدان يتأثر فقال تعالى:

لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ . فجعل دم كل فرد من أفراد الأمة كأنه دم الآخر عينه حتى إذا سفكه كان كأنه بخع نفسه وانتحر بيده، وقال تعالى: وَلا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ . على هذا النسق، وهذا التعبير المعجز ببلاغته، خاص بالقرآن الكريم (٢١٢).

٣ - قوله تعالى: وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ . بيان لتناقضهم وتزييفهم لأحكام الله تعالى.

أى أنتم يا معشر اليهود إن وجدتم الذين قاتلتموهم وأخرجتموهم من ديارهم أسرى تسعون فى فكاكهم، وتبذلون عوضًا لإطلاقهم، والشأن أن قتلهم وإخراجهم محرم عليكم كتركهم أسرى فى أيدى أعدائكم. فلماذا لم تتبعوا حكم التوراة فى النهى عن قتالهم وإخراجهم كما اتبعتم حكمها فى مفاداتهم؟.

وصدرت الجملة الكريمة: وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ . بضمير الشأن للاهتمام بها والعناية بشأنها، وإظهار أن هذا التحريم أمر مقرر مشهور لديهم وليس خافيًا عليهم، وقوله تعالى: أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ . توبيخ وتقريع لهم على تفريقهم بين أحكام الله.

والمعنى: أفتتبعون أحكام كتابكم فى فداء الأسرى، ولا تتبعونها فى نهيكم عن قتال إخوانكم وإخراجهم من ديارهم؟ فالاستفهام للإنكار والتوبيخ على التفريق بين أحكامه تعالى، بالإيمان ببعضها والكفر بالبعض الآخر.

قال الأستاذ أحمد شاكر معلقا على تفسير ابن كثير للآية الكريمة:

(ومما يملأ النفس ألما وحزنا، أن صار أكثر الأمم التى تنسب للإسلام إلى هذا الوصف المكروه، ووقعوا فى مثل هذا العمل الذى ذم الله اليهود من أجله، وجعل جزاء من يفعله خزيًا فى الحياة الدنيا وعذابًا شديدًا فى الآخرة، فنرى أكثر الأمم المنتسبة إلى الإسلام يعتقدون صحة القرآن ويشهدون بذلك ويعرفونه، ويزعمون القيام بأمره - ثم هم يخالفونه فى التشريع فى شئونهم المالية والجنائية والخلقية، ولا يستحون أن يعلنوا أن تشريعه وتشريع رسول الله فى سنته لا يوافق هذا العصر، ويجعلون من حقهم أن يشرعوا ما شاءوا، وافق الكتاب والسنة أم خالفه، أو يصطنعون قوانين أوروبا الوثنية الملحدة، ويشربونها فى قلوبهم، يزعمونها أهدى وأنفع للناس مما أنزل إليهم من ربهم، ولا يتعظون بما أنذرهم به ربهم من المثل بالأمم قبلهم) (٢١٣).

يقول الأستاذ الشيخ محمد الخضر حسين: «وإنما سمى سبحانه عصيانهم بالقتل والإخراج من الديار كفرًا، لأن من عصى أمر الله تعالى بحكم عملى معتقدًا أن الحكمة الصلاح فيما فعله، بحيث يتعاطاه دون أن يكون فى قلبه أثر من التحرج، ودون أن يأخذه ندم وحزن من أجل ما ارتكب، فقد خرج بهذه الحالة النفسية عن سبيل المؤمنين، وفى الآية الكريمة دليل واضح على أن الذى يؤمن ببعض ما تقرر فى الدين بالدليل القاطع ويكفر ببعضه، يدخل فى زمرة الكافرين لأن الإيمان كل لا يتجزأ» (٢١٤).

لقد توعد الله من آمن ببعض الكتاب وكفر ببعضه بالخزى والمذلة فى الدنيا، وبأشد ألوان العذاب يوم القيامة ثم أكد سبحانه هذا الوعيد الشديد وبين علته فقال تعالى: أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ.

والمعنى : أولئك اليهود الذين فرقوا أحكام الله، وباعوا دينهم بدنياهم وآثروا متاع الدنيا على نعيم الآخرة قد استحقوا غضب الله فلا يخفف عنهم العذاب يوم القيامة، ولا يجدون من دون الله وليا ولا نصيرًا.

★ ★ ★

تكذيب وقتـــل

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

المفردات:

الكتاب	: التوراة.
وقفينا من بعده بالرسل	: أى بعثناهم على إثره إليهم يقال: قفاه به أى اتبعه إياه وأرسله على إثره.
عيسى	: بالسريانية يسوع.
مريم بالعبرية	: الخادم لأن أمها نذرتها لخدمة بيت المقدس.
وأيدناه	: قويناه، من آد الرجل إذا اشتد وقوى.
بروح القدس	: القدس الطهارة. وروح القدس هو جبريل عليه السلام أى الروح المطهر.
غلف	: جمع أغلف أى: مغشاة بأغلفة مانعة من وصول الهدى إليها..

تمهيد:

جرت سنة الله فى البشر أنه إذا طال عليهم الأمد بعد أن يأتيهم الرسل تقسو منهم القلوب، ويذهب أثر الموعظة من الصدور، ويفسقون عن أمر ربهم ، قال تعالى: أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ. (الحديد:١٦)، من أجل هذا كان سبحانه يرسل الرسل بعضهم إثر بعض حتى لا يطول الإنذار فتقسو القلوب، وقد كان الشعب الإسرائيلى أكبر الشعوب حظًا فى عدد الرسل الذين أرسلوا إليهم، فليس لهم من العذر ما

يسوغ نسيان الشرائع أو تحريفها وتأويلها، ولكن كانوا يطيعون أهواءهم ويتبعون شهواتهم ويعصون رسلهم فمنهم من كذبوه ومنهم من قتلوه.

التفسير:

٨٧ – وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ . هذا تذكير من الله لبنى إسرائيل بضرب من النعم التى أنعم بها عليهم فقابلوها بالكفر والعصيان. وهى أن الله سبحانه أرسل موسى عليه السلام إليهم، وآتاهم التوراة فيها هدى ونور لهدايتهم فحرفوها وبدلوها وخالفوا أوامرها.

وأرسل الله الرسل والنبيين من بعد موسى ليحكموا بشريعته ويقتفوا أثره [٢١٥].

ومن هؤلاء الرسل: يوشع وداود وسليمان وعزير وإلياس واليسع ويونس وزكريا ويحيى عليهم السلام، فلم يكن لبنى إسرائيل عذر يعتذرون به عن مخالفة الشرائع أو تحريفها أو تغيير أوضاعها.

فقد توالت الرسل بعد موسى ليتوالى تفسير التوراة بما تلاها من أسفار رسل بنى إسرائيل، ولطول الفترة بين موسى وعيسى فقد كانت خمسًا وعشرين وتسعمائة وألف سنة على ما قيل. قال تعالى : ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا (المؤمنون : ٤٤).

حتى ختم الله أنبياء بنى إسرائيل بعيسى ابن مريم فجاء بمخالفة التوراة فى بعض الأحكام، ولهذا أعطاه الله من البينات – وهى المعجزات – ما يدلهم على صدقه فيما جاءهم به. قال تعالى:

وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ . أى أعطاه الله الآيات الواضحة الدالة على نبوته، كإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله، والإخبار ببعض المغيبات، وكذلك آيات الإنجيل.

وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ . أى قواه الله بجبريل الأمين الذى يؤيد الله به أنبياءه.

قال ابن كثير:

وروح القدس هو جبريل كما نص عليه ابن مسعود فى تفسير الآية وتابعه على ذلك ابن عباس وغيره مع قوله تعالى:

نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ (الشعراء :١٩٣– ١٩٤)

وعن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وضع لحسان بن ثابت منبرًا فى المسجد فكان ينافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله: « اللهم أيد حسان بروح القدس كما نافح عن نبيك » [٢١٦].

رواه البخارى، ورواه أبو داود والترمذى موصولا، وقال الترمذى حسن صحيح.

وعن أبى هريرة: (أن عمر بن الخطاب مر بحسان وهو ينشد الشعر فى المسجد فلحظ إليه، فقال: قد كنت أنشد فيه، وفيه من هو خير منك. ثم التفت إلى أبى هريرة فقال: أنشدك الله، أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: أجب عنى، اللهم أيده بروح القدس؟ فقال: اللهم نعم) [٢١٧].

وفى بعض الروايات أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لحسان « اهجهم أو هاجهم - وجبريل معك»(٢١٨).

«وإنما خص عيسى عليه السلام بالذكر من بين أنبياء بنى إسرائيل لكونه صاحب كتاب نسخ بعض أحكام شريعة موسى عليه السلام» (٢١٩).

أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ ؟

أى أبلغ بكم الأمر أنكم كلما جاءكم رسول من رسلى بغير الذى تهوى أنفسكم استكبرتم عليه تجبرًا وبغيًا فى الأرض؟

فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ . أى فبعضًا منهم تكذبون كعيسى ومحمد عليهما السلام وبعضًا تقتلون كزكريا ويحيى عليهما السلام. فلا عجب بعد هذا إن لم تؤمنوا بدعوة محمد صلى الله عليه وسلم، فإن العناد والجحود من طبعكم.

٨٨ - وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ. أى أمر اليهود على العناد الكفر وعدم الاستماع إلى ما يدعوهم إليه الرسول صلى الله عليه وسلم معللين عدم إيمانهم بأن قلوبهم مغشاة بأغطية لا ينفذ منها إلى قلوبهم ما جاء به - صلوات الله عليه - حتى تفقه عقولهم.

على حد قول مشركى مكة. وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ.(فصلت : ٥).

يعنون أن قلوبهم ليس فيها استعداد لقبول ما جاء به النبى - صلى الله عليه وسلم - وقد كذبوا، فإنه دين الفطرة، فلو تركوا فطرتهم كما خلقت عليه لقبلته وآمنت به، ولكنهم استكبروا وآثروا الضلالة على الهدى فلعنهم الله بكفرهم وأوهن يقينهم.

بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ . و. بَل . هنا للإضراب الإبطالى، ورد ما يقولون أى: ليس الأمر كما زعموا بل أبعدهم الله عن رحمته بأن خذلهم وتركهم وشأنهم، بسبب إصرارهم على الكفر وعنادهم فى قبول الحق، فاستحقوا أن يحرمهم الله من لطفه ورحمته. وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ. (آل عمران : ١١٧).

فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ . أى فهم يؤمنون إيمانا قليلا، وهو إيمانهم ببعض الكتاب وتحريف بعضه الآخر أو ترك العمل به، والذين آمنوا به كان قولا باللسان تكذبه الأعمال، إذ لم يكن للإيمان سلطان على قلوبهم، فيكون هو المحرك لإرادتهم، وإنما يحركها الهوى والشهوة، ويصرفها عامل اللذة.

وقد يكون المعنى كما قال ابن جرير الطبرى: إنه لا يؤمن بالنبى صلى الله عليه وسلم وما جاء به إلا القليل منهم ،فالمخالفة لم تغير كل الشعب، بل غيرت الأكثر منهم ونجا نفر قليل.

★ ★ ★

حسد وبغى

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

المفردات :

يستفتحون : يستنصرون من الاستفتاح وهو طلب الفتح والنصرة.

فلعنة الله : اللعنة: الإبعاد والطرد من مواقع رحمة الله.

اشتروا به : شرى واشترى يستعملان حينا بمعنى باع، وآخر بمعنى أخذ والمراد هنا الأول.

بغيا : البغى فى الأصل الفساد من قولهم بغى الجرح إذا فسد ثم أطلق على مجاوزة الحد فى كل شىء.

باءوا : رجعوا.

مهين : فيه مهانة وإذلال.

وراءه : سواه كما يقول الرجل لمن يتكلم بجيد الكلام ما وراء هذا الكلام شىء.

تمهيد:

كانت اليهود تبشر العرب بنبى سيظهر، ويقولون للعرب سنتبعه وننتصر به عليكم ، فلما ظهر النبى صلى الله عليه وسلم من نسل إسماعيل ولم يكن من نسل إسحاق تركوا دعوته حسدًا وكبرًا.

روى محمد بن إسحاق عن ابن عباس: أن اليهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ ابن جبل وبشر بن البراء بن معرور وداود بن سلمة: يا معشر اليهود، اتقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد صلى الله عليه وسلم ونحن أهل شرك، وتخبروننا بأنه مبعوث». وتصفونه بصفته ! فقال سلام بن مسلم أخو بنى النضير : ما جاءنا بشىء نعرفه، وما هو بالذى كنا نذكركم فأنزل الله فى ذلك من قولهم. وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ .

التفسير :

٨٩ - وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ .

ولما جاءهم رسولنا بالقرآن وهو كتاب من عند الله مصدق لما أنزل عليهم من التوراة وموافق له فى التوحيد وأصول الدين ومقاصده. وكانوا يستنصرون بهذا النبى على مشركى العرب وكفار مكة ويقولون إن كتابه سينصر التوحيد الذى جاء به موسى، ويخذل الوثنية التى تنتحلونها.

فلما جاءهم الكتاب الذى عرفوا أنه من عند الله كفروا به، وسبب هذا أنهم حسدوا العرب على أن بعث الله محمدًا - صلى الله عليه وسلم - من بينهم فحملهم ذلك على الكفر به جحودا وعنادًا فسجل الله عليهم الطرد والإبعاد من رحمته لجحودهم بالحق بعد أن تبين لهم.

وقيل إن المراد بلفظ. مَّا عَرَفُوا . هو النبى صلى الله عليه وسلم واستعمال. مَّا . فيمن يعلم كثير كقوله تعالى: وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا . (الشمس : ٥) يعنى ومن بناها وعلى هذا تكون جملة. كَفَرُوا بِهِ. جوابًا عن. فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا .

أما جواب: وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ . فمقدر تقديره كذبوه، وقد دل عليه جواب الثانية. والمعنى عليه: فلما جاءهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - الذى عرفوا صفاته ونبوته من التوراة معرفة لا يخالجها ريب حسدوه لأنه من العرب أولاد إسماعيل وملأ الحسد قلوبهم غيظًا، ألا لعنة الله على أمثالهم من المعاندين الجاحدين.

٩٠ - بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ .

كان اليهود ينتظرون بعثة النبى صلى الله عليه وسلم فلما جاءهم حسدوه واستبدلوا بالإيمان الذى هيأ الله لهم أسبابه ليسعدوا .. استبدلوا به الكفر الذى يؤدى بهم إلى الشقاء الدائم، وآثروه عليه فكان اختيارهم الكفر على الإيمان، بمنزلة بيع أنفسهم بالكفر إلى النار.

ولما كانت الخسارة فى ذلك الاستبدال عظيمة قال سبحانه: بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ. أى بئسما باعوها به . أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ . فالكفر هو الثمن الذى باعوا به أنفسهم والمشترى الشيطان أو جهنم، وكل ذلك من باب التصوير والتمثيل لتهويل سوء ما اختاروه وتقبيحه.

وقوله تعالى: بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ . تعليل لكفرهم وبيان للباعث عليه، أى كفروا بما أنزل الله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم بدافع من البغى والحقد ناقمين على غيرهم أن خصهم الله دونهم بإرسال رسول منهم منكرين على الله أن يكون له مطلق الخيرة فى أن ينزل من فضله على من يشاء من عباده.

فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ .أى استوجبوا واستحقوا ورجعوا بغضب شديد مؤكد لصدوره من الله تعالى.

وقال ابن عباس: فالغضب على الغضب: غضبه عليهم فيما كانوا ضيعوا من التوراة وهى معهم، وغضب بكفرهم بهذا النبى الذى أحدث الله إليهم [٢٢٠].

وقال الزمخشرى: ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ . فصاروا أحقاء بغضب مترادف لأنهم كفروا بنبى الحق وبغوا عليه.

وقيل كفروا بمحمد بعد عيسى، وقيل بعد قولهم - عزير ابن الله، وقولهم: يد الله مغلولة، وغير ذلك.

﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾. أى ولهم عذاب مهين مذل جزاء كفرهم واستكبارهم، وهذا العذاب مطلق يشمل عذاب الدنيا والآخرة.

٩١ - ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ . أى وإذا دعوا إلى الإيمان والتصديق بما أنزل الله على نبيه محمد أنكروا وعارضوا وقالوا مستكبرين: إنهم لا يؤمنون إلا بما أنزل على أنبيائهم، زاعمين أنه لا حق إلا عندهم يريدون بذلك أن يتحكموا فى وحى الله وفضله.

﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ . أى وهم يكفرون بما سوى التوراة وهو القرآن الذى جاء مصدقا لها، وهو الحق الذى لا شك فيه، وكيف يكفرون به وهو مؤيد عندهم بالعقل والنقل. ثم إن كفرهم بهذا الكتاب المصدق لما فى كتابهم هو كفر بكتابهم نفسه.

﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ . أى قل يا محمد لهؤلاء اليهود الذين إذا دعوتهم إلى الإيمان بك قالوا: ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ . قل لهم: إن كنتم حقًا مؤمنين بما أنزل عليكم وهو التوراة، فلأى شىء تقتلون أنبياء الله مع أن التوراة تحرم عليكم قتلهم، بل هى تأمركم باتباعهم وتصديقهم وطاعتهم.

إن قتلكم لهم أكبر دليل على أنكم لم تؤمنوا، لا بما أنزل عليكم ولا بغيره، وأنكم كاذبون فى مدعاكم لأن جميع ما أنزل الله من وحى يحرم قتل الأنبياء ويأمر الناس باتباعهم وطاعتهم.

ويرجع معنى الآية إلى نفى فعل الشرط وهو كونهم مؤمنين، إذ لا وجه لقتلهم الأنبياء إلا عدم إيمانهم بالتوراة، وهذا كما تريد أن تنفى عن رجل العقل لفعله ما ليس من شأنه أن يصدر عن عاقل فتقول له: إن كنت عاقلا فلم فعلت كذا؟ أى أنت لست بعاقل.

والفاء فى قوله تعالى: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ﴾ . واقعة فى جواب شرط محذوف دل عليه ما بعده، والتقدير إن كنتم مؤمنين بما أنزل عليكم فلم تقتلون أنبياء الله تعالى. وقد نسب القتل إليهم مع أنه فعل أسلافهم، لبيان وحدة الأمة وتكافلها، وأنها فى الطبائع والأخلاق المشتركة كالشخص والواحد، فما يصيبها من حسنة أو سيئة، فإنما مصدره الأخلاق الغالبة عليها فما حدث منهم كان عن أخلاق راسخة فى الشعب تبع فيها الآخرون الأولين. إما بالعمل بها، وإما بترك الإنكار لها، (وللإشعار بأن الخلف يمشون على عماية السلف فى التعدى والعصيان، فلقد حاول اليهود المعاصرون للعهد النبوى قتل الرسول (صلى الله عليه وسلم) ولكن الله تعالى عصمه منهم ونجاه من مكرهم).

وأضاف سبحانه - الأنبياء إليه فقال: أَنْبِيَاءَ اللَّهِ . للتنبيه على شرفهم العظيم، وللدلالة على فظاعة عصيان اليهود واجتراحهم المنكر، إذ قابلوا بالقتل من يجب عليهم أن يقابلوهم بالتصديق والتوقير والطاعة.

★ ★ ★

عصيان ومخالفة

﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ۖ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

المفردات:

البينات : جمع بينة وهى الآيات الدالة على صدقه، وحقيقة نبوته، كانقلاب العصا حية، وفلق البحر، وانفجار العيون من الحجر.

العجل : هو ما صنعه لهم السامرى من الحلى تمثالا على صورة العجل.

الطور : هو الجبل المعروف فى شبه جزيرة سيناء.

وأشربوا فى قلوبهم : أشرب قلبه كذا أى حل محل الشراب، كأن الشىء يساغ فهو يسرى فى قلب المحب ويمازجه كما يسرى الشراب العذب البارد فى اللهاة، وحقيقة أشربه كذا: جعله شاربًا له.

التفسير:

٩٢ - وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ. أى ولقد أرسلنا إليكم موسى بالآيات الواضحة، والأدلة القاطعة، والبراهين الناصعة على توحيد الله وعظيم قدرته، فخالفتم ذلك وعصيتم أمره، وعبدتم عجل السامرى من بعد ذلك، فهذا ظلم ووضع للشىء فى غير موضعه اللائق به، لأنكم تركتم عبادة من يستحق العبادة وهو الله تعالى. وعبدتم العجل الذى لا يملك ضرًّا ولا نفعًا (٢٢١).

والتعبير بالجملة الاسمية: وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ. فيه دلالة على ثبات الظلم واستقراره فيهم، وأنه شأن من شئونهم، ولقد سبق التبكيت باتخاذهم العجل فى قوله تعالى: وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ . (البقرة : ٥١) وأعيد هنا بعبارة أخرى فى سياق آخر، وهو أن الآيات البينات الدالة على النبوة والوحدانية. مثل الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا واليد وفلق البحر وتظليلهم بالغمام

والمن والسلوى والحجر. هذه الآيات لم تزدهم إلا إيغالا فى الشرك وانهماكًا فى الوثنية. ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ: أى ثم اتخذتم العجل من بعد مجئ موسى بالبينات على رسالته. وصحة ما دعاكم إليه من توحيد الله بالعبادة.

والتعبير بقوله: مِنْ بَعْدِهِ . يفيد أنه لم يكن لهم عذر فى ذلك الاتخاذ فإنه بعد بلوغ الدعوة قامت الحجة عليهم.

والآية الكريمة فيها إبطال دعواهم بما أنزل عليهم لأنهم لو كانوا مؤمنين حقًا بنبيهم الذى جاء بالبينات لما تركو ما أمرهم به وهو عبادة الله، وفعلوا ما نهاهم عنه وهو عبادة العجل.

وقال ابن كثير:

مِنْ بَعْدِهِ . أى من بعد ما ذهب عنكم إلى الطور لمناجاة الله كما قال تعالى: وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ. (الأعراف: ١٤٨)

٩٣ - وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا .واذكروا يا بنى إسرائيل، إذ أخذنا الميثاق المؤكد عليكم بأن تعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا، وأن تعملوا بشرعه، وكان أخذ الميثاق عليكم فى موقف كله رهبة وخشوع وبيان لقدرة الله على عقاب من لم يمتثل إذ رفع فوقكم جبل الطور كأنه ظلة تظللكم، وظننتم أنه سيقع عليكم، وطلب منكم حينئذ أن تأخذوا ما آتاكم من الشرع بقوة: بأن تسمعوا سماع تدبر، وفهم وقبول وتعملوا بما جاءكم فيه من التكاليف بحزم وعزم، ولكنكم لم تلبثوا أن نقضتم العهد بمجرد زال عنكم هذا الموقف.

ومعنى قوله تعالى: خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا . أى قلنا لكم خذوا ما أمرناكم به من التوراة بجد واجتهاد واسمعوا ما تؤمرون به سماع طاعة وتفهم، ثم حكى سبحانه جوابهم الذى يدل على عنادهم فقال: قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا .

أى كانت حالهم فى المخالفة مثل حال من قالوا سمعنا قولك وعصينا أمرك. وقال الزمخشرى فى الكشاف:

(فإن قلت: كيف طابق قوله جوابهم؟ قلت: طابقه من حيث إنه قال لهم اسمعوا، وليكن سماعكم سماع تقبل وطاعة، فقالوا سمعنا ولكن لا سماع طاعة) [٢٢٢].

وقد اختلف المفسرون: هل صدر منهم هذا اللفظ حقيقة باللسان نطقا أو أنهم فعلوا فعلا مقام القول فيكون مجازًا؟

قال الفخر الرازى: (الأكثرون من المفسرين على أنهم قالوا هذا القول حقيقة)

وقال أبو مسلم: وجائز أن يكون المعنى سمعوه فتلقوه بالعصيان فعبر عن ذلك بالقول ولم يقولوه، كقوله تعالى: فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ . (فصلت: ١١) قال: والأول أولى لأن صرف الكلام عن ظاهره بغير الدليل لا يجوز [٢٢٣].

وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ . واختلط حب عبادة العجل بقلوبهم، تقليدًا لسادتهم من الفراعنة: الذين كانوا يعبدونه ويقدسونه، ولم ينتفعوا بتحرير الله لهم من ذل العبودية والقتل، حيث شق البحر لهم ونجاهم.

ولهذا انتهزوا فرصة ذهاب موسى - عليه السلام - لتلقّى ألواح التوراة: فأرضوا حبهم لمعبودهم القديم، وعبدوا صنما على شكل العجل، صنعه لهم موسى السامرى من حليهم (٢٢٤).

وفى تفسير ابن كثير: وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ.

قال قتادة: أشربوا حبه حتى خلص إلى قلوبهم، وروى أحمد عن أبى الدرداء عن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال: « حبك الشيء يعمى ويصم » ورواه أبو داود (٢٢٥).

قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . قل لهم يا محمد: بئس الذى يأمركم به إيمانكم المزعوم بالتوراة من الأعمال التى تقترفونها، كعبادة العجل وقتل الأنبياء ونقض الميثاق، وقولكم : سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا . وإضافة الإيمان إليهم فى قولهم: إِيمَانُكُمْ . للإيذان بأنه ليس بإيمان حقيقة كما ينبئ عنه قوله تعالى: إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . فإنه قدح فى دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم من التوراة وإبطال لهذه الدعوى، وتقرير الإبطال: إن كنتم- فيما اقترفتموه من الشرك والمعاصى - مؤمنين بها، عاملين بما فيها كما ادعيتم، فبئسما يأمركم به إيمانكم المزعوم بها، إذ إن الإيمان الصادق بها لا يأمركم بما اقترفتموه من الشرك والمعاصى، فليس فيها إباحة شيء من ذلك، وهذا برهان على عدم إيمانكم بها.

قال الطبرى: قوله: إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ. أى إن كنتم مصدقين كما زعمتم بما أنزل الله عليكم، إنما كذبهم الله بذلك لأن التوراة تنهى عن ذلك كله وتأمر بخلافه، فأخبرهم أن تصديقهم بالتوراة إن كان يأمرهم بذلك، فبئس الأمر تأمر به، إنما ذلك نفى من الله تعالى عن التوراة أن تكون تأمر بشيء مما يكرهه الله من أفعالهم، وأن يكون التصديق بها يدل على شيء من مخالفة أمر الله، وإعلام منه - جل ثناؤه - أن الذى يأمر بذلك أهواؤهم، والذى يحملهم عليه البغى والعدوان (٢٢٦).

وقد ذكر الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز ألوانا من الإعجاز البيانى والنفسى تنطوى عليها الآيات السابقة فى حجاج اليهود.

ففى تفسير الآية (٩١) من سورة البقرة: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ . . . .

قال الأستاذ دراز: هذه الآية قطعة من فصل من قصة بنى إسرائيل والعناصر الأصلية التى تبرزها لنا هذه الكلمات القليلة تتلخص فيما يلى:

١ - مقالة ينصح بها الناصح لليهود: إذ يدعوهم إلى الإيمان بالقرآن.

٢ - إجابتهم لهذا الناصح بمقالة تنطوى على مقصدين.

٣ - الرد على هذا الجواب بركنيه من عدة وجوه. وفى ختام الآية ٩١: قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ .

يقول الأستاذ دراز:

لقد استوى القرآن إلى الرد على المقصد الأصلى الذى تبجحوا بإعلانه، فأوسعهم تكذيبًا وتفنيدًا، وبين أن داء الجحود فيهم داء قديم، قد أشربوه فى قلوبهم، ومضت عليه القرون حتى أصبح مرضًا مزمنا ، وأن الذى أتوه اليوم من الكفر بما أنزل على محمد ما هو إلا حلقة متصلة بسلسلة كفرهم بما أنزل عليهم، وساق على ذلك الشواهد التاريخية المقطعة التى لا سبيل إلى إنكارها، فى جهلهم بالله، وانتهاكهم لحرمة أنبيائه وتمردهم على أوامره.

قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . تأمل كيف أن هذا انتقال كانت النفس قد استعدت له فى آخر المرحلة السابقة إذ يفهم السامع من تكذيبهم لما يصدق كتابهم أنهم صاروا مكذبين كتابهم نفسه، وهل الذى يكذب من يصدقك يبقى مصدقًا لك؟

ثم انظر بعد أن سجل القرآن على بنى إسرائيل أفحش الفحش وهو وضعهم البقر الذى هو مثل فى البلادة موضع المعبود الأقدس، وبعد أن وصف قسوة قلوبهم فى تأبيهم على أوامر الله مع حملهم عليها بالآيات الرهيبة. بعد كل ذلك تراه لا يزيد على أن يقول فى الأمر: إن هذا (ظلم) وفى الثانية (بئسما) صنعتم، أذلك ما تقابل به هذه الشناعات؟ نعم إنهما كلمتان وافيتان بمقدار الجريمة لو فهمتا على وجههما، ولكن أين حدة الألم وحرارة الاندفاع فى الانتقام.

بل أين الإقذاع والتشنيع؟ وأين الإسراف والفجور الذى تراه فى كلام الناس، إذا أحفظوا بالنيل من مقامهم.

لله ما أعف هذه الخصومة وما أعز هذا الجناب وأغناه عن شكر الشاكرين وكفر الكافرين، وتالله إن هذا الكلام لا يصدر عن نفس بشر) [٢٢٧].

★ ★ ★

حرصهم على الحياة

﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٩٦) ﴾

المفردات:

خالصة : سالمة لكم مختصة بكم، لا يشارككم فيها أحد من الناس.

التمنى : هو الرغبة القوية فى الشىء.

يعمر : يطول عمره.

بمزحزحه : بمبعده من العذاب.

البصير : العالم بكنه الشىء الخبير به.

المعنى الإجمالى:

قل يا محمد لأولئك اليهود الذين ادعوا أن الجنة لن يدخلها إلا من كان هودا: إن كانت الجنة مختصة بكم، وسالمة لكم دون غيركم وليس لأحد سواكم حق فيها، فليكن الموت محببًا إليكم ولتتمنوه حتى لا يبطئ عنكم هذا النعيم الذى تدعونه.

ولكنهم فى الواقع لا يرغبون فى الموت أبدًا لما اقترفوه من ظلم لا يخفى أمره على الله، والله عليم بظلمهم ويكذبهم فيما يدعون.

بل إنك لتجدنهم أحرص الناس جميعًا على حياتهم على أى شكل عزيزة أو ذليلة، وحرصهم أكثر من حرص المشركين الذين لا يؤمنون ببعث ولا جنة، ولذلك يود أحدهم لو يعمر ألف سنة، ولن يبعد عنه تعميره مهما طال ما ينتظر من عذاب الله، والله عليم بأعمالهم محيط بما يخفون وما يعلنون، وسيجازيهم على كل ذلك بما يستحقون.

التفسير:

٩٤ - قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . لقد ادعى اليهود دعاوى كثيرة، ادعوا الإيمان بما أنزل عليهم، فبينت الآيات السابقة كذب ادعائهم، بعبادتهم العجل، واقترافهم كبائر الإثم.

وادعوا: أن الجنة لن يدخلها إلا من كان هودًا، فهى خالصة لهم دون غيرهم، فأبطل الله دعواهم بهذه الآية.

والمعنى: قل لهم يا محمد: إن كانت لكم جنة الآخرة عند الله، وفى حكمه وكتابه خالصة لكم، وخاصة بكم من دون الناس جميعًا كما زعمتم: إذ قلتم لن يدخلها إلا من كان هودًا، فتمنوا الموت الذى يوصلكم إلى ذلك النعيم الخالص لكم، والخاص بكم، إن كنتم صادقين فى دعواكم، فإن النفس تستعجل خيرها.

قال الإمام الرازى: وبيان هذه الملازمة أن نعم الدنيا قليلة حقيرة بالقياس إلى نعم الآخرة، ثم إن نعم الدنيا على قلتها كانت منغصة عليهم بسبب ظهور محمد - صلى الله عليه وسلم - ومنازعته معهم، بالجدال والقتال، ومن كان فى النعم القليلة المنغصة، ثم تيقن أنه بعد الموت لابد أن ينتقل إلى تلك النعم العظيمة، فإنه لابد أن يكون راغبًا فى الموت، لأن تلك النعم العظيمة مطلوبة، ولا سبيل إليها إلا الموت، وحيث كان الموت يتوقف عليه المطلوب، وجب أن يكون هذا الإنسان راضيًا بالموت متمنيًا له، فثبت أن الدار الآخرة، لو كانت خالصة لهم، لوجب أن يتمنوا الموت.

ثم إن الله تعالى أخبر أنهم ما تمنوا، بل لن يتمنوا أبدًا، وحينئذ يلزم قطعًا بطلان ادعائهم فى قولهم: إن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس [٢٢٨].

٩٥ - **وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ**. أى: لا يتمنى اليهود الموت أبدًا بسبب ما قدمت أيديهم من آثام، والله عز وجل لا تخفى عليه خافية من سيئاتهم واعتداءاتهم بل هو سيسجلها عليهم ويجازيهم عليها الجزاء الذى يستحقونه.

واختار ابن كثير فى تفسيره أن المراد من الآيتين الدعاء بالموت على أى الفريقين أكذب منهم أو من المسلمين على وجه المباهلة.

روى عن ابن عباس - رضى الله عنهما: أن ذلك يكون عن طريقة المباهلة بأن يحضروا مع المؤمنين فى صعيد واحد ثم يدعو الفريقان بالموت على الكاذب منها.

وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: «لو تمنوا الموت لشرق أحدهم بريقه» [٢٢٩]. وهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس. وروى ابن جرير عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: « لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ولرأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجعوا لا يجدون أهلا ولا مالا » رواه الإمام أحمد [٢٣٠].

وعلق ابن كثير على الكلام السابق بقوله:

وهذا الذى فسر به ابن عباس الآية هو المتعين، وهو الدعاء على أى الفريقين أكذب: منهم أو من المسلمين على وجه المباهلة، نقله ابن جرير عن قتادة وأبى العالية والربيع بن أنس، نظير هذه الآية قوله تعالى فى سورة الجمعة: **قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٦) وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٧) قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨)** . (الجمعة ٦-٨)

فهم عليهم لعائن الله - لما زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه، وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى، دعوا إلى المباهلة والدعاء على أكذب الطائفتين منهم أو من المسلمين فلما نكلوا عن ذلك علم كل أحد أنهم ظالمون، لأنهم لو كانوا جازمين بما هم فيه لكانوا أقدموا على ذلك، فلما تأخروا علم كذبهم، وهذا كما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد نجران من النصارى بعد قيام الحجة عليهم فى المناظرة وعتوهم وعنادهم إلى المباهلة، فقال تعالى: **فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ** . (آل عمران : ٦١)

فلما رأوا ذلك قال بعض القوم لبعض: والله لئن باهلتم هذا النبى لا يبقى منكم عين تطرف، فعند ذلك جنحوا إلى السلم وبذل الجزية عن يد وهم صاغرون، فضربها عليهم وبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح أمينا، ومثل هذا المعنى أو قريب منه قوله تعالى لنبيه أن يقول للمشركين: **قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا** . أى من كان فى الضلالة منا أو منكم فزاده الله مما هو فيه ومد له واستدرجه (٢٣١).

وقد انتصر ابن كثير لرأى ابن عباس وبين أنه هو المتعين فى تفسير الآية. وهاجم رأى جمهور المفسرين الذى قالوا معنى. **إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** . أى فى دعواكم فتمنوا الموت الآن، لم يتعرض هؤلاء للمباهلة.

وقد انتصر بعض المفسرين المحدثين لرأى الجمهور ورجحه لأنه أقرب إلى موافقة اللفظ الذى نطقت به الآية وأقرب أيضا إلى معناها (٢٣٢).

وأرى أن كلا التفسيرين محتملان فى فهم الآية ولا حاجة بنا إلى إبطال أحدهما ولا يمنع أن يفهم منها المعنى الآخر، ومن أسرار الإعجاز القرآنى، أن الآية تفيد معنى وتشير إلى معنى وتستتبع معنى.

وهى فى ذاتها قطعة من الأدب الرفيع على السبك المحكم أو الرد المفحم أو الحجة البالغة.

ولعل من المعانى التى تشير إليها الآية أن المؤمن لا يهاب الموت ولا يرهب الردى ثقة منه بأن أجله محدود، ورزقه مقسوم، والموت رحلة إلى الآخرة، يشاهد فيها المؤمن ما أعد للأبرار، ويقدم على العزيز الغفار، مطمئنًا راضيًا مرضيًا.

وقد روى عن كثير من الصحابة رضوان الله عليهم تمنى الموت عند القتال، معبرين بألسنتهم عما يجول فى صدورهم، من صدق الإيمان بما أعد للمؤمنين من الدار الآخرة، فقد جاء فى الأخبار أن عبد الله بن رواحة كان ينشد وهو يقاتل الروم:

يا حبذا الجنة واقترابها ... طيبة وبارد شرابها

وأن عمار بن ياسر قال فى حرب صفين:

غدا نلقى الأحبه ... محمدًا وصحبه

ويقول الشاعر:

أرى كلنا يهوى الحياة بسعيه ... حريصًا عليها مستهامًا بها صبا

فحب الجبان النفس أورده التقى ... وحب الشجاع النفس أورده الحربا

٩٦ - وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ . أى أنهم يحبون الإخلاد إلى الأرض، ويعملون كل ما يوصلهم إلى البقاء فيها. فلا ثقة لهم بأنفسهم فيما يزعمون، وتلك سيرتهم فى كل زمان، وإن كان الكلام مع من كان فى عصر التنزيل.

وهكذا نجد القرآن الكريم يرسل من الحجاج، فيشاغبون ويعاندون، اعتزازا بشعبهم، واعتزازا بكتابهم.

وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا . أى وهم أشد حرصًا على الحياة من الذين أشركوا، ولم يؤمنوا بالله، ولا باليوم الآخر، وفى هذا توبيخ وإيلام عظيم لهم، إذ المشركون لا يؤمنون ببعث، ولا يعرفون إلا هذه الحياة الدنيا، فحرصهم عليها ليس بالغريب، أما من يؤمن بكتاب ويقر بالجزاء فمن حقه ألا يكون شديد الحرص عليها.

وقوله : وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا. معطوف على ما قبله بحسب المعنى، كأنه قيل: أحرص من الناس ومن الذين أشركوا، فقوله : أَحْرَصَ النَّاسِ فيه كلمة (من) مقدرة بعد أحرص.

قال صاحب الكشاف: وفيه توبيخ عظيم، لأن الذين أشركوا لا يؤمنون بعاقبة، ولا يعرفون إلا الحياة الدنيا، فحرصهم عليها لا يستبعد لأنها جنتهم، فإذا زاد عليها فى الحرص من له كتاب وهو مقر بالجزاء، كان حقيقًا بأعظم التوبيخ، فإن قلت: لم زاد حرصهم على حرص المشركين؟

قلت: إنهم علموا أنهم صائرون إلى النار لا محالة، والمشركون لا يعلمون ذلك، وقيل: أراد بالذين أشركوا المجوس لأنهم كانوا يقولون لملوكهم: عش ألف نيروز، وألف مهرجان (٢٣٣).

يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ . أى بلغ من شدة غلوهم فى الحرص على الحياة، أن الواحد منهم يتمنى أن يعيش السنين الكثيرة، ولو تجاوزت الحد الذى يبلغه الإنسان فى العادة، فكلمة (ألف سنة) كناية عن المدة الطويلة التى يود أن يحياها، وليس المراد خصوص العدد، لأن العرب تذكر الألف وتريد الكثرة.

وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ . وما ذلك التعمير لو تم، بنافعه ولا مبعده من عذاب الله المحتوم، لأنه لابد من الموت والعرض على الله، ليجازى على ما قدم فى دنياه.

وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ. أى والله عالم بأعمالهم، محيط بما يخفون وما يعلنون، وسيجازيهم على كل ذلك بما يستحقون.

ومن هذا العرض للآيات الكريمة نرى أنها قد ردت على اليهود زعمهم الباطل بأن الجنة خالصة لهم، فأبطلت حجتهم وكشفت مزاعمهم، وأخرست ألسنتهم، وبينت أن الجنة لمن أسلم وجهه لله وهو محسن، وهم ليسوا من هذا النوع من الناس، ولذلك حرصوا على الحياة وفزعوا من الموت، بسبب ما ارتكبوا من سيئات وما اقترفوا من آثام (٢٣٤).

★ ★ ★

عداوة جبـــريل

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

المفردات:

العدو	: ضد الصديق، يطلق على الواحد والمثنى والجمع المذكر والمؤنث.
جبريل	: أمين الوحى بين الله تعالى ورسله، وهو روح القدس.
مصدقا لما بين يديه	: أى مؤيدًا ما تقدمه من الكتب السماوية التى نزلت على من سبق نبينا من الرسل.
آيات	: المراد بها آيات القرآن.
بينات	: واضحة الدلالة على معانيها.
الفاسقون	: الخارجون عن الحق إلى الباطل والفساد.
نبذه	: طرحه وألقاه، من النبذ، وهو إلقاء الشىء وطرحه لعدم الاعتداد به.

المعنى الإجمالى:

ذكر الله فى آيات سابقة معاذير لليهود اعتذروا بها عن عدم الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم كقولهم إنهم مؤمنون بكتاب من ربهم وقولهم إنهم ناجون حتما فى الآخرة.

وفى هذه الآيات ذكر تعلة أخرى هى أعجب من كل ما تقدم فندها كما فند ما قبلها، تلك هى قولهم إن جبريل الذى ينزل على محمد الوحى عدوهم فلا يؤمنون بما يجئ به منه.

قد بين القرآن أن جبريل لم ينزل بالقرآن من تلقاء نفسه إنما بأمر الله مصدقًا لما سبقه من الكتب السماوية، مصدقًا لكتابهم نفسه، وليكون هداية وبشارة للمؤمنين.

فمن كان عدوا لجبريل أو ميكائيل أو لأى ملك أو رسول من ملائكة الله ورسله الذين لا يفعلون ولا يبلغون إلا ما يأمرهم به الله، فإنه يكون عدوا لله وكافرًا به. والله عدو للكافرين. وما ينزل جبريل على النبى إلا بآيات بينات لا يسع طالب الحق إلا الإيمان بها، وما يكفر بمثلها إلا المعاندون الخارجون من سنة الفطرة . وكما

تذبذبوا فى العقيدة والإيمان تذبذبوا كذلك فيما يبرمونه من عهود. فكانوا كلما عاهدوا المسلمين وغيرهم عهدا نبذه فريق منهم لأن معظمهم لا يؤمن بحرمة عهد ولا بقداسة ميثاق.

التفسير:

٩٧ - قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ.

قال الإمام ابن جرير الطبرى: (أجمع أهل العلم بالتأويل جميعًا، على أن هذه الآية نزلت جوابًا لليهود من بنى إسرائيل، إذ زعموا أن جبريل عدو لهم وميكائيل ولى لهم) (٢٣٥).

ومن قبائح اليهود قولهم فى جبريل - عليه السلام - هو عدونا، وأرادوا من هذا القول: أنهم لا يؤمنون بوحى يجئ به عدوهم فهم لا يؤمنون بالنبى صلى الله عليه وسلم من أجل أن جبريل هوالذى ينزل عليه بالوحى.

فهم يثبتون أن جبريل ملك مرسل من عند الله ومع ذلك يبغضونه وهذا أحط درجات الانحطاط فى العقل والعقيدة.

قال ابن كثير فى معنى الآية: أى من عادى جبريل فليعلم أنه الروح الأمين الذى نزل بالذكر الحكيم على قلبك من الله بإذنه له فى ذلك، فهو رسول من رسل الله، ومن عادى رسولا فقد عادى جميع الرسل كما أن من كفر برسول فإنه يلزمه الكفر بجميع الرسل.

وكذلك من عادى جبريل فإنه عدو لله، لأن جبريل لا ينزل بالأمر من تلقاء نفسه وإنما ينزل بأمر ربه(٢٣٦)، كما قال : وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا . (مريم:٦٤)

وقال تعالى: وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ. (الشعراء:١٩٢-١٩٤).

وقد نزل القرآن على قلب النبى الأمين مصدقًا لما سبقه من الكتب السماوية وهدى لقلوب المؤمنين وبشارة لهم بالجنة.

وقد ورد فى البخارى وفى مسند الإمام أحمد وفى مسند الترمذى والنسائى روايات متعددة تفيد أن اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمن ينزل عليه بالوحى؟ فقال: جبريل، فقالوا ذاك عدونا، عادانا مرارا (٢٣٧).

وقيل: دخل عمر رضى الله تعالى عنه مدارس اليهود يومًا فسألهم عن جبريل فقالوا: ذاك عدونا يطلع محمدًا على أمورنا وإنه صاحب كل خسف وعذاب وميكائيل صاحب الخصب والسلام. فقال: وما منزلتهما من الله؟ قالوا: جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره وبينهما عداوة. فقال: لئن كانا كما تقولون فليسا بعدوين ولأنتم أكفر من الحمير، ومن كان عدوًا لأحدهما فهو عدوا لله. ثم رجع عمر وتوجه نحو النبى صلى الله عليه وسلم ليحدثه حديثهم فوجده قد أنزلت عليه هذه الآية: قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ . الآيات(٢٣٨).

٩٨ - مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ . أى من كان عدوا لله بمخالفته أمره عنادًا، والخروج عن طاعته مكابرة، وعدوا لملائكته برفضه الحق الذى جاءوا به من عنده تعالى لرسله، وعدوا لرسله بتكذيبهم وعدوا لجبريل وميكائيل خاصة، من كان عدوا لهؤلاء، وعداوتهم كفر، عاداه الله فإن الله عدو للكافرين، ومن عاداه باء بالعذاب المهين.

قال ابن كثير:

(يقول تعالى: من عادانى وملائكتى ورسلى - (ورسله) ليشمل رسله من الملائكة والبشر، كما قال تعالى اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ . وجبريل وميكال- وهذا من باب عطف الخاص على العام، فإنهما دخلا فى الملائكة فى عموم الرسل، ثم خصصا بالذكر لأن السياق فى الانتصار لجبريل وهو السفير بين الله وأنبيائه وقرن معه ميكال فى اللفظ، لأن اليهود زعموا أن جبريل عدوهم، وميكائيل وليهم فأعلمهم أنه من عادى واحدًا منهما فقد عادى الآخر وعادى الله أيضًا، لأنه أيضًا ينزل على الأنبياء بعض الأحيان كما قرن برسول الله صلى الله عليه وسلم فى ابتداء الأمر، ولكن جبريل أكثر وهو وظيفته، وميكائيل موكل بالنبات والقطر، هذا بالهدى وهذا بالرزق، كما أن إسرافيل موكل بالصور للنفخ بالبعث يوم القيامة) (٢٣٩) ولهذا جاء فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قام من الليل يقول اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون - اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم) (٢٤٠). وميكال هو ميكائيل، وجبريل هو جبرائيل.

قال البيضاوى (وفى جبريل ثمان لغات قرئ بهن أربع فى المشهور وأربع فى الشواذ) (٢٤١).

عن ابن عباس قال: إنما كان قوله جبرائيل كقوله عبد الله وعبد الرحمن. قيل جبر: عبد، إيل: الله.

٩٩ - وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ .

لقد أنزلنا إليك القرآن حججًا على نبوتك وعلامات واضحات عليها.

قال ابن كثير:

(وتلك الآيات هى ما حكاه كتاب الله من خفايا علوم اليهود ومكنونات سرائر أخبارهم وأخبار أوائلهم من بنى إسرائيل، والنبأ عما تضمنته كتبهم التى لم يكن يعلمها إلا أحبارهم وعلماؤهم وما حرفه أوائلهم وأواخرهم وبدلوه من أحكامهم التى كانت فى التوراة فأطلع الله عليها نبيه محمدًا - صلى الله عليه وسلم - فكان فى ذلك من أمره الآيات البينات لمن أنصف نفسه ولم يدعه إلى هلاكها الحسد والبغى، إذ كان فى فطرة كل ذى فطرة صحيحة تصديق من أتى بمثل ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من الآيات البينات) (٢٤٢).

قال تعالى : إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .

وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ . أى ولا يكفر بهذه الآيات إلا الفاسقون أى المتمردون فى الكفر الخارجون عن حدود الإيمان.

قال الحسن: إذا استعمل الفسق فى نوع من المعاصى، وقع على أعظم أفراده من كفر أو غيره، ومن أشد هؤلاء الفاسقين فسقًا: اليهود إذ إنهم كفروا بالآيات البينات مع تأكدهم من صدق من جاء بها عنادًا لمن ظهر الحق على يديه وحسدًا له، فإنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم.

١٠٠ - أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ . والاستفهام فى. أَوَ كُلَّمَا . للإنكار والتوبيخ والتعجب من شأنهم. والواو للعطف على مقدر يستدعيه المقام والتقدير: أكفروا بهذه الآيات وكلما عاهدوا عهدًا نبذه فريق منهم .كُلَّمَا . لإفادة تكرارهم لنبذ العهود.

قال الزمخشرى: واليهود موسومون بالغدر ونقض العهد وكم أخذ الله الميثاق منهم ومن آبائهم فنقضوا، وكم عاهدوا رسول الله فلم يفوا.

قال تعالى: الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ . (الأنفال : ٥٦)

★ ★ ★

السحـــر

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

المفردات:

تتلوا : تخبر وتحدث أو تقول.

على ملك سليمان : على عهد ملكه وفى زمانه.

السحر : إخراج الباطل فى صورة الحق، وهو فى الأصل مصدر سحر يسحر بفتح الحاء فيهما، والسحر لغة كل ما لطف مأخذه وخفى سببه، وسحره: خدعه، وجاء فى كلامهم: عين ساحرة وعيون سواحر وفى الحديث « إن من البيان لسحرا » (٢٤٣).

والمراد هنا : أمر غريب يشبه الخارق المعجز وليس بالخارق إذ يجرى فيه التعلم، كالذى حصل من سحرة فرعون. حيث أظهروا لموسى حبالهم وعصيانهم أنها تسعى.

ببابل : بلدة قديمة، كانت بالعراق ينسب إليها السحر.

هاروت وماروت : اسمان للملكين اللذين أنزل عليهما علم السحر.

فتنة : ابتلاء واختبار.

اشتراه : استبدل ما تتلوا الشياطين بكتاب الله.

خلاق : نصيب فى الخير.

لمثوبة : لأجر وثواب.

المعنى الإجمالى:

بيَّن الله فى هذه الآيات علة ما يصدر عن اليهود من جحود وعناد، ومعاداة للنبى صلى الله عليه وسلم.

فقد جاءهم محمد برسالة سماوية تصدق ما معهم من التوراة وتطابق أوصاف ما فى أسفارهم.

ولكن فريقًا منهم نبذ ما ذكر فى التوراة عن رسالة محمد كأنه لم يرد فيها ولم يعلموا شيئًا عنه.

ولقد صدقوا ما تتقوله شياطينهم وفجرتهم على ملك سليمان، إذ زعموا أن سليمان لم يكن نبيًا ولا رسولا ينزل عليه الوحى من الله بل كان مجرد ساحر يستمد العون من سحره، وأن سحره هذا هو الذى وطد له الملك وجعله يسيطر على الجن والطير والرياح فنسبوا ذلك الكفر لسليمان وما كفر سليمان ولكن هؤلاء الشياطين الفجرة هم الذين كفروا، إذ تقولوا عليه هذه الأقاويل، وأخذوا يعلمون الناس السحر من عندهم ومن آثار ما أنزل ببابل على الملكين هاروت وماروت مع أن هذين الملكين ما كانا يعلمان أحدًا حتى يقولا له إنما نعلمك ما يؤدى إلى الفتنة والكفر فاعرفه واحذره، وتوق العمل به، ولكن الناس لم ينتصحوا بهذه النصيحة، فاستخدموا مما تعلموه منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه. نعم كفر هؤلاء الشياطين الفجرة إذ تقولوا هذه الأقاويل من أقاويلهم وأساطيرهم ذريعة لتعليم اليهود السحر، وما هم بضارين بسحرهم هذا من أحد، ولكن الله هو الذى يأذن بالضرر إن شاء، وإن ما يؤخذ عنهم من سحر ليضر من تعلمه فى دينه ودنياه ولا يفيده شيئًا، وهم أنفسهم يعلمون حق العلم أن من اتجه هذا الاتجاه لن يكون له حظ فى نعيم الآخرة، ولبئس ما اختاروه لأنفسهم لو كانت لهم بقية من علم.

ولو أنهم آمنوا الإيمان الحق وخافوا مقام ربهم لأثابهم الله ثوابًا حسنا، ولكان ذلك الثواب خيرًا لهم من كل ما يتوقعون من المنافع لو كانوا يميزون النافع من الضار.

التفسير:

١٠١ - وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ.

الرسول هو محمد صلى الله عليه وسلم، ووصفه بأنه جاءهم من عند الله فيه تعظيم له، فإن عظمة المرسل تقتضى عظمة رسوله، وفيه مع ذلك مبالغة فى استنكار كفرهم.

أى ولما جاءهم رسول عظيم من عند الله مصدق لما معهم من التوراة من حيث إنه جاء على الوصف الذى وصفته التوراة لخاتم الرسل. كما أن كتابه الذى جاء به موافق لما فيها من قواعد التوحيد وأصول الدين والأخلاق وأخبار الأمم.

نبذ فريق من اليهود كتاب الله وهو التوراة التى بشرت بالنبى وأهملوها إهمالا تاما كأنهم لايعلمون أنها من عند الله أو أن محمدًا رسول الله.

والواقع أنهم يعلمون ذلك علما يقينا ولكنهم نبذوه مكابرة وعنادًا وجريا على سنتهم فى نبذ العهود، فإنه قد أخذ عليهم فى التوراة أنه إذا جاءهم هذا الرسول المنعوت، يؤمنون به وينصرونه، فنقضوا هذا العهد بكفرهم به.

وقوله تعالى: وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ . كناية عن إعراضهم الشديد عنه وتوليهم عن تعاليمه.

جاء فى تفسير المنار:

ليس المراد بنبذ الكتاب وراء ظهورهم، أنهم طرحوه برمته، وتركوا التصديق به فى جملته وتفصيله، وإنما المراد أنهم طرحوا أجزاء منه وهو ما يبشر بالنبى - صلى الله عليه وسلم - ويبين صفاته، ويأمرهم بالإيمان به واتباعه، فهو تشبيه لتركهم إياه وإنكاره، بمن يلقى الشىء وراء ظهره حتى لا يراه فيتذكره وترك الجزء منه كتركه كله، لأن ترك البعض يذهب بحرمة الوحى من النفس ويجرى على ترك الباقى (٢٤٤).

هل السحر حقيقة أم خداع؟

السحر نوع من الابتلاء والاختبار، أو نوع من البلاء الذى يتعرض له الناس فى هذه الدنيا.

«والسحر ثابت بالحس والمشاهدة ونص القرآن وتواترت به الآثار عن الصحابة والسلف وأهل التفسير والحديث والفقهاء، والسحر يؤثر مرضًا وثقلا وعقدا وحبًا وبغضا ونزيفا وغير ذلك من الآثار الموجودة والتى تعرفها عامة الناس وكثير منهم قد علمه ذوقًا بما أصيب به» (٢٤٥).

رأى الإمام محمد عبده فى السحر:

يذهب الأستاذ الإمام إلى أن السحر تخييل للأعين وخداع للناظرين، ونستطيع أن نوجز آراءه فى السحر فيما يلى:

١ - السحر ليس جزءا من العقيدة الدينية بل هو من الأمور العادية والعلوم الإنسانية، متروك إلى بحوث الناس وتقدم معلوماتهم عنه وتوضيحهم لحقائقه.

٢ - جاء ذكر السحر فى القرآن فى مواضع متعددة ومجموعها يدل على أن السحر أحد شيئين:

(أ) إما حيلة وشعوذة.

(ب) وإما صناعة علمية خفية يعرفها بعض الناس ويجهلها الأكثرون فيسمون العمل بها سحرًا لخفاء سببه ولطف مأخذه، ويمكن أن يعد منه تأثير نفس فى نفس أخرى.

٣ - السحر تخييل وخداع للأعين وليس حقيقة، ولذلك قال سبحانه : يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ فسحرة فرعون قد استعانوا بالزئبق على إظهار الحبال والعصى بصورة الحيات والثعابين وتخييل أنها تسعى.

٤ - اعتاد من يتخذ السحر وسيلة أن يستعين بأسماء الجان والشياطين فيعتقد الدهماء أنهم يستجيبون له ويلقى ذلك فى روعهم ، وهذا الوهم يصنع صنع السحر ولا يستطيع الساحر أن يؤثر إلا فى شخص عزيمته هباء ونفسه هواء وعنده قابلية لتأثير غيره فيه، فينتهز ذلك الساحر ليوهمه بما يشاء (٢٤٦).

مذهب الأشعرية:

مذهب الأشعرية أن للسحر تأثيرًا حقيقيًا وليس كله حيلا ومنه أنه أثر فى جسم النبى صلى الله عليه وسلم وخياله دون عقله وروحه فكان يخيل إليه أنه آتى نساءه ولم يكن آتاهن ولم يتجاوز هذا الحد (٢٤٧).

تأمل فى الموضوع:

والمتأمل فى موضوع السحر يرى أن بعضه خداع وخفة حركة وبراعة وحيلة وذكاء وتفرس.

وبعضه حقيقة نسلم بها كنوع من البلاء الذى يصيب الناس فى هذه الدنيا. قال تعالى : وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ.

وفى التراث الإسلامى والهدى النبوى ما يفيد أن هناك عدة أشياء تحمى الإنسان من السحر والحسد والشياطين منها ما يأتى:

١ - قراءة آية الكرسى.

٢ - قراءة. قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . والمعوذتين.

٣ - قراءة خواتيم سورة البقرة من قوله تعالى: آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ . . . .

٤ - إخراج صدقة.

٥ - قراءة: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير) عشر مرات بعد صلاة الصبح وبعد صلاة المغرب.

٦ - قراءة: (باسم الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله) وفى الأثر: من أعجبه شىء من أهل أو مال أو ولد فقال باسم الله لا قوة إلا بالله لم ير فيه مكروها.

٧ - الاعتقاد الجازم و اليقين الصادق بأن الله هو النافع وهو الضار وهو المانع وهو الكافى وأن أحدًا لا ينفع ولا يضر إلا بإذن الله. وهذا العنصر الأخير هو أهم شىء فى الموضوع وهو الصخرة العاتية التى تتكسر عليها آثار كل حسد أو سحر أو شر.

آية السحـــر

١٠٢ - وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ.

هذه الآية معطوفة على الآية السابقة. التى أفادت أن فريقًا من اليهود نبذوا كتاب الله وأعرضوا عنه ثم عطف هنا على هذه الجريمة - وهى نبذهم لكتاب الله - جريمة أخرى هى اتباعهم الشياطين بمزاولة السحر بدل كتاب الله.

والمعنى أن اليهود لما جاءهم الرسول بالقرآن نبذوه أو نبذوا التوراة التى بشرت به، واشتغلوا بالسحر. والمراد مما تتلوه الشياطين: أى المتمردون من الإنس والجن. وقد كانت الشياطين فى عهد سليمان تلقى كهان اليهود وتتلو عليهم قواعد السحر وتخبرهم كذبا: أن ملك سليمان وسلطانه على الإنس والجن، والطير والريح، لم يقم إلا على تلك القواعد، فكانوا يدونونها عن الجن فى كتب لديهم: توارثها الخلف عن السلف حتى وصلت إلى اليهود فى المدينة فكانوا يشتغلون بها قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم، ولما بعث رفضوا كتاب الله وفضلوا عليه الاستمرار فى السحر.

وقد زعموا أن سليمان جمع كتب السحر من الناس ودفنها تحت كرسيه، ثم استخرجها، وهذا من مفتريات أهل الأهواء نسبوها إليه كذبًا وبهتانًا.

قال الزمخشرى وقوله تعالى: عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ. أى على عهد ملكه وفى زمانه، وذلك أن الشياطين كانوا يسترقون السمع ثم يضمون إلى ما سمعوا أكاذيب يلفقونها إلى الكهنة، وقد دوّنوها فى كتاب يقرءونها ويعلمونها للناس، وفشا ذلك فى زمان سليمان عليه السلام حتى قالوا: إن الجن تعلم الغيب، وكانوا يقولون: ما تم لسليمان ملكه إلا بهذا العلم وبه يسحر الإنس والجن والريح التى تجرى بأمره (٢٤٨).

وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ . تنزيه لسيلمان عن الردة والشرك وتبرئة له من عمل السحر الذى كان يتعاطاه أولئك الشياطين وينسبونه إليه زورًا وبهتانًا (٢٤٩).

وقد كان اليهود يعتقدون كفر سليمان، وأنه ارتد فى آخر عمره وعبد الأصنام وبنى لها المعابد، وكانوا عندما يذكر النبى صلى الله عليه وسلم سليمان بين الأنبياء يقولون: انظروا إلى محمد يخلط الحق بالباطل، يذكر سليمان مع الأنبياء وإنما كان ساحرًا يركب الريح.

وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا . أى ولكن الشياطين من الإنس والجن الذين نسبوا إلى سليمان ما انتحلوه من السحر ودونوه وعلموه الناس هم الذين كفروا.

يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ . أى أن الشياطين يعلمون الناس السحر إغواء وإضلالا. والجملة حال من الضمير، والمراد من السحر ما يستعان فى تحصيله بالتقرب إلى الشيطان مما لا يستقل به الإنسان وذلك لا يستتب إلا لمن يناسبه فى الشرارة وخبث النفس فإن التناسب شرط فى التضامن والتعاون.

وبهذا تميز الساحر عن النبى والولى.

وأما ما يتعجب فيه كما يفعله أصحاب الحيل بمعونة الآلات أو الأدوية، أو يصنعه صاحب خفة اليد فغير مذموم وتسميته سحرًا من التجوز أو لما فيه من الدقة لأنه فى الأصل لما خفى سببه (٢٥٠).

وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ . أى اتبع اليهود ما كانت تقرؤه الشياطين على الكهنة من أبواب السحر من عهد سليمان.

واتبعوا أيضا ما أنزل على الملكين هاروت وماروت ببابل.

(وهاروت وماروت ملكان أنزلا لتعليم السحر ابتلاء من الله للناس وتمييزًا بينه وبين المعجزة. وما روى أنهما مثلا بشرين وركب فيهما الشهوة فتعرضا لامرأة يقال لها زهرة فحملتهما على المعاصى والشرك ثم صعدت إلى السماء بما تعلمت منهما فمحكى عن اليهود ولعله من رموز الأوائل وحله لا يخفى على ذوى البصائر. وقيل رجلان سميا ملكين باعتبار صلاحهما) (٢٥١).

والمقصود من إنزال السحر على هذين الرجلين المشبهين للملائكة، وإلقاؤه فى قلبيهما وتعليمهما إياه.

فكانا يعلمان الناس السحر لكى يتخلصوا بتعلمه من سيطرة السحرة من الصابئة ويتقوا شرورهم وكانا يمزجان التعليم بالتحذير: وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ . أى ما يعلمان أحدًا حتى ينصحاه ويقولا له إنما نحن ابتلاء من الله فمن تعلم منا وعمل به كفر ومن تعلم وتوقى عمله ثبت على الإيمان فلا تكفر، باعتقاد جوازه والعمل به.

أو يقولا: إنما نحن مفتونان فلا تكن مثلنا (٢٥٢).

وعن الحسن البصرى أنه قال فى تفسير هذه الآية:

أراد الله أن يبتلى به الناس فأخذ عليهما الميثاق أن لا يعلما أحدًا حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر.

وأما (الفتنة) فهى: المحنة والاختبار (٢٥٣).

فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ . أى فيتعلم الناس من هاروت وماروت من علم السحر ما يتصرفون فيه من الأفاعيل المذمومة، ما أنهم ليفرقون به بين الزوجين مع ما بينهما من الخلطة والائتلاف، واختص الإفساد بين الزوجين بالذكر لأنه من الصور التى تظهر فيها مفسدة للسحر بأشد ما تكون، فلهذا آثر إبرازها، ليعلم الناس منها مدى ما يصل إليه السحر من الإضرار بالمجتمع، فإن إفساد الأسرة إفساد للمجتمع، لما فيه من تشريد الأولاد الذين هم أساسه.

روى مسلم عن جابر بن عبد الله عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: « إن الشيطان ليضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فى الناس، فأقربهم عنده منزلة أعظمهم عنده فتنة، يجئ أحدهم فيقول: مازلت بفلان حتى تركته وهو يقول كذا وكذا، فيقول إبليس: لا والله ما صنعت شيئًا، ويجئ أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله، قال: فيقربه ويدنيه ويلتزمه ويقول: نعم أنت » (٢٥٤).

وسبب التفريق بين الزوجين بالسحر، ما يخيل إلى الرجل أو المرأة من الآخر من سوء منظر أو خلق أو بغض أو شك أو اتهام أو نحو ذلك.

والمرء عبارة عن الرجل وتأنيثه امرأة ويثنى كل منهما ولا يجمعان (٢٥٥).

وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ. اى ما يضر السحرة بهذا أحدا كائنا من كان إلا بعلم الله وإرادته، فهم إذن لا يستطيعون أن يحدثوا بسحرهم ضررا دون إرادة الله.

قال سفيان الثورى: إلا بقضاء الله، قال محمد بن إسحاق: إلا بتخلية الله بينه وبين ما أراد.

وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ. من قبل أنه سبب فى إضرار الناس، هذا مما يعاقب الله عليه من عرف بإيذاء الناس أبغضوه واجتنبوه ولا نفع لهم فيه، فإنا نرى منتحلى هذه المهن من أفقر الناس وأحقرهم، وذلك حالهم فى الدنيا، فما بالك بهم فى الآخرة يوم يجزى كل عامل بما عمل.

وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ . ولقد علم هؤلاء اليهود الذين نبذوا كتاب الله واتبعوا السحر أن من استبدل السحر بكتاب الله وآثره على شرعه سبحانه، ليس له أى حظ من الجنة ولا أى نصيب من الخير يوم القيامة؛ لأنه لم يكن له إيمان ولا عمل صالح يكافأ عليه. الضمير فى. عَلِمُوا. يعود إلى أولئك اليهود الذين تركوا كتاب الله واستبدلوا به السحر.

وهى تفيد أن اختيارهم للسحر لم ينشأ عن جهلهم بضرره، إنما هم الذين اختاروه ومالوا إليه متعمدين وعالمين بعاقبته السيئة.

وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ. شَرَوْا : أى باعوا، وهى من الأضداد فتأتى بمعنى البيع والشراء.

بيع الأنفس هنا معناه بيع نصيبها من الجنة ونعيمها.

المعنى: ولبئس هذا الذى باعوا به حظ أنفسهم من الخير، هو تعلم السحر والعمل به، لو كان عندهم علم وعقل لأدركوا أن هذا السحر ضار مفسد للنفس والعقل والناس، ولامتنعوا عن تعلمه والعمل به. قال ابن كثير: لبئس البديل ما استبدلوا به من السحر عوضًا عن الإيمان ومتابعة الرسل لو كان فيهم علم بما وعظوا.

١٠٣ - وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ. اى لو أن أولئك اليهود النابذين لكتاب الله المتبعين للأوهام والأباطيل، آمنوا بمحمد (صلى الله عليه وسلم) أو بالتوراة إيمانًا حقًا، واتقوا الله، فاجتنبوا ما يؤثمهم ومنه السحر، كانت لهم مثوبة من عند الله، هى خير لهم من السحر، ولو كانوا من أولى العلم الذين

ينتفعون بما يعلمون، لم يفعلوا ذلك، ولكنهم آثروا الحياة الدنيا على الآخرة فكفروا وعصوا، فكانوا من الخاسرين .. وقريب منه ما ورد فى قصة قارون من قوله تعالى:

وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ. (القصص : ٨٠)

الترهيب من السحر:

فى الآية السابقة دليل على أن من يستخدم السحر ويؤمن به يكون من الكافرين، لأن قوله تعالى : وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ. حجة على أن السحر: ضرب من ضروب الكفر.

وقد أطلق القول بكفر من يزاوله العلامة التفتازانى.

قال ابن كثير: (وقد يستبدل بقوله (وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا) من ذهب إلى تكفير الساحر كما هو رواية عن الإمام أحمد بن حنبل وقول طائفة من السلف) [٢٥٦].

لكن الشيخ أبا منصور ذهب إلى أن إطلاق القول بأن السحر كفر خطأ وأنه يجب التفصيل فيه، فإن كان فيه رد ما لزم من شروط الإيمان فهو كفر وإلا فلا.

وعلى هذا فالمراد من السحر الذى هو كفر ما كان بالتقرب إلى الشيطان بالسجود له أو لصنم أو غيره، أو بالرقى بعبارات فيها شرك بالله تعالى، أو نحو ذلك مما ينافى أصول العقيدة الإسلامية، كاعتقاد الساحر أن ما يستعين به فى سحر مثل الجن والنجوم - لها قدرة على النفع والضر) [٢٥٧].

وعقاب السحر الذى هو كفر: قتل الذكور وحبس الإناث وضربهن ما لم تقع منهم توبة.

وأما ما ليس بكفر، وفيه إهلاك نفس، ففيه حكم قطاع الطريق ويستوى فيه الذكور والإناث، وتقبل توبة صاحبه إذا تاب، هذا رأى بعض الفقهاء.

والمشهور عن أبى حنيفة - رضى الله عنه - أن الساحر يقتل مطلقًا إذا علم أنه ساحر، سواء أكان ذكرًا أم أنثى وتقبل توبته إذا تاب.

ومذهب مالك - رضى الله عنه - كما نقله القرطبى: أن المسلم إذا سحر بنفسه بكلام يكون كفرًا فإنه يقتل، ولا يستتاب، ولا تقبل توبته.

(وقد روى الشافعى وأحمد بن حنبل عن بجالة بن عبدة قال: كتب عمر بن الخطاب - رضى الله عنه: أن اقتلوا كل ساحر وساحرة قال: فقتلنا ثلاث سواحر. وقد أخرجه البخارى فى صحيحه أيضًا [٢٥٨] . وهكذا صح أن حفصة أم المؤمنين سحرتها جارية لها فأمرت بها فقتلت [٢٥٩]، قال الإمام أحمد بن حنبل: صح عن ثلاثة من أصحاب النبى - صلى الله عليه وسلم - قتل الساحر) [٢٦٠].

طريقة فك السحر:

حكى القرطبى عن وهب: أنه قال: يؤخذ سبع ورقات من سدر [٢٦١] فتدق بين حجرين، ثم تضرب بالماء ويقرأ عليها آية الكرسى ويشرب منها المسحور ثلاث حسوات ثم يغتسل بباقيه فإنه يذهب ما به، وهو جيد

للرجل الذى يؤخذ عن امرأته، قال ابن كثير: أنفع ما يستعمل لإذهاب السحر ما أنزل الله على رسوله فى إذهاب ذلك وهما المعوذتان.

وفى الحديث: « لم يتعوذ بمثلهما » وكذلك قراءة آية الكرسى فإنها مطردة للشيطان (٢٦٢).

حديث شريف:

قال صلى الله عليه وسلم : « اجتنبوا السبع الموبقات، قيل: وما هن يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله وعقوق الوالدين، واليمين الغموس، والتولى يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات، والسحر، وأكل مال اليتيم (٢٦٣).

★ ★ ★

أدب الخطاب

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا ۗ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾

المفردات:

راعنا : أى انتظرنا وتأن بنا حتى نفهم كلامك، وأصله من المراعاة، فى الرعى. وهو الحفظ والتدبير وتدارك المصالح.

انظرنا : انتظرنا وتأن بنا وأمهلنا.

المودة : محبة الشىء وتمنى حصوله.

تمهيد:

هذا خطاب وجه إلى المؤمنين فى شأن له اتصال باليهود وبه انتقل من الأحاديث الخاصة بهم إلى حديث مشترك بينهم وبين المؤمنين والنصارى.

١٠٤ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ. كان المسلمون إذا ألقى الرسول عليهم شيئا من العلم يقولون راعنا يا رسول الله يريدون منها: انتظرنا وتأن بنا حتى نفهم كلامك ونحفظه.

فتلقف اليهود هذه الكلمة لموافقتها كلمة سيئة عندهم هى كلمة (راعينو) العبرية التى معناها شرير.

وكان سعد بن عبادة يعرف لغتهم فلما سمعهم يقولون ذلك قال لهم: عليكم لعنة الله لئن سمعتها من رجل منكم يقولها للنبى صلى الله عليه وسلم لأضربن عنقه، فقالوا: أولستم تقولونها.

فأنزل الله الآية نهيًا للمؤمنين عن مخاطبة الرسول صلى الله عليه وسلم بهذه اللفظة: قطعًا لألسنة اليهود، حتى لا يتخذونها ذريعة لسب النبى صلى الله عليه وسلم، وإيذائه والاستهزاء به.

وأمرهم أن يقولوا بدلا منها .انظُرْنَا. أى انتظرنا وتأن بنا حتى نحفظ ونفهم ما تقول، فإنها تؤدى المعنى الذى يقصدونه بقولهم . رَاعِنَا. ولا يمكن لليهود أن يحرفوها إلى سبه – عليه السلام – والاستهزاء به.

وَاسْمَعُوا. وأحسنوا الاستماع فى قبول وامتثال مع وعى قلبى، حتى تحفظوا ما يلقيه عليكم ولا يفوتكم منه شىء.

وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، وأن الله ليدخر عذابًا أليمًا يوم القيامة لهؤلاء المستهزئين بالرسول.

وقال ابن كثير: نهى الله عباده المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين فى مقالهم وفعالهم، وذلك أن اليهود كانوا يعانون من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التنقيص فإذا أرادوا أن يقولوا: اسمع لنا، يقولون (راعنا) ويورون بالرعونة كما قال تعالى: مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً • (النساء: ٤٦)

قال ابن جرير الطبرى: والصواب من القول فى ذلك عندنا: أن الله نهى المؤمنين أن يقولوا لنبيه صلى الله عليه وسلم راعنا لأنها كلمة كرهها الله تعالى أن يقولها لنبيه صلى الله عليه وسلم [٢٦٤].

١٠٥ – مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ. لا يحب الكافرون من اليهود والنصارى ولا المشركون: أن ينزل الله عليكم– أيها المؤمنون – شيئًا من الخير وذلك لعداوتهم وحسدهم لكم، فهم لا يحبون لكم الخير.

والخير: النعمة والفضل، والمراد به فى الآية الكريمة النبوة وما تبعها من الوحى الصادق والقرآن العظيم المشتمل على الحكمة الرائعة والبلاغة الباهرة والتوجيه النافع.

وأهل الكتاب قد كرهوا ذلك للمؤمنين لعنادهم وحسدهم وكراهتهم أن تكون النبوة فى رجل عربى ليس منهم.

وكذلك المشركون: كانوا يرون فى تتابع نزول القرآن، قوة للإسلام وتثبيتا لدعائمه وأركانه، وهم يكرهون ذلك ويودون أن تدور الدائرة على المسلمين. ويستنكرون أن يكون نزول القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم من بينهم. وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ. (الزخرف: ٣١–٣٢)

والنبوة فضل الله تعالى يهبها من يشاء من عباده ولا ينبغى لإنسان أن يعترض على فضله سبحانه.

قال صاحب الجوهرة:

ولم تكن نبوة مكتسبه ولو رقى فى الخير أعلى عقبه
بل ذاك فضل الله يؤتيه لمن يشاء جل الله واهب المنن

فالله سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته، وهو سبحانه يصطفى للنبوة من يشاء من عباده. **اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ**. (الحج : ٧٥)

وبذلك تكون الآية قد نبهت إلى أن الفضل والنبوة بيد الله، وهو الحكيم فى تصرفه والعليم بما ينفع الناس، كما أنها حذرت المؤمنين مما يبيته لهم الكافرون من حقد وبغضاء وبشرتهم، بأن ما يبيتونه لهم لن يضرهم ما داموا معتصمين بكتاب ربهم وسنة نبيهم.

★ ★ ★

النسخ

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ ﴾

المفردات:

النسخ : فى اللغة الإزالة، يقال نسخت الشمس الظل: أى أزالته.

الإنساء : إذهاب الآية من ذاكرة النبى صلى الله عليه وسلم بعد تبليغها إياه. (أو ننسها) نبح لكم **تركها من نسى** : بمعنى ترك، دخلت عليه الهمزة للتعدية، قال أبو على وغيره من أئمة اللغة: هذا متجه، **لأنه بمعنى** : نجعلك تتركها. وقرئ ننسأها - بفتح النون مهموزا - من نسأه إذا أخره، أى نؤخر نزولها عليكم.

الولى : من يلى أمرك أو يملكك كالمولى.

النصير : المعين.

سبب النزول:

روى أن هذه الآيات نزلت حين قال المشركون أو اليهود: ألا ترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه ويقول اليوم قولا ويرجع عنه غدًا، فقد أمر فى حد الزنى بإيذاء الزانيين باللسان، حيث

قال: (فآذوهما) ثم غيره وأمر بإمساكهن فى البيوت حيث قال: فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ (النساء : ١٥) ثم غيره بقوله: فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ . (النور : ٢) فما هذا القرآن إلا كلام محمد يقوله من تلقاء نفسه يناقض بعضه بعضا، ومقصدهم من ذلك الطعن فى الدين ليثبطوا عزيمة من يريد الدخول فيه.

التفسير:

١٠٦ - مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . أى شىء من الآيات والأحكام ننهى عن التعبد به، أو نجعلكم تتركونه، نأتى بأفضل منه: مثوبة أو نفعًا أو خفة على المكلفين، أو نأتى بمثله فى ذلك، فإن تنزيل الآيات المشتملة على الأحكام الشرعية، يكون وفقًا للحكم والمصالح، وذلك يختلف باختلاف الأحوال فرب حكم تقتضيه الحكمة فى حال، وتقتضى نقيضه فى حال أخرى. فلو لم يجز النسخ، لاختل ما بين الحكمة والأحكام من النظام. وهذا الحكم غير مختص بالآية الواحدة كاملة، بل هو جار فيما فوقها وما دونها وتخصيصها بالذكر، باعتبار الغالب.

لقد كان هناك تدرج فى تشريع الأحكام بما يتناسب مع كل مرحلة، فحين كان المسلمون فى مكة قبل الهجرة ضعافًا فى العدة والعدد أمرهم الله بالصبر والاحتمال، ولما هاجروا إلى المدينة وقامت دولتهم وقويت شوكتهم سمح الله لهم بالجهاد والقتال، وقال سبحانه:

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ. (الحج : ٣٩ - ٤٠)

وقد قال بعض المفسرين إن هذا نسخ، أى نسخت آية القتال الأمر بالصبر والاحتمال - ولكن الزركشى فى كتابه (البرهان فى علوم القرآن) جعله من باب التدريج فى التشريع.

فقد ناسب حال الضعف والقلة الصبر والاحتمال كما ناسب حال القوة والكثرة، الدعوة للجهاد والقتال. فكلما كان المسلمون ضعافًا ناسبهم الصبر والمهادنة، وكلما كانوا أقوياء ناسبهم الجهاد والمقاتلة.

وقال بعض المفسرين إن المراد من الآية الشريعة، والمراد من نسخها على هذا تغييرها بشريعة أخرى تأتى بعدها.

أى ما نغير شريعة من الشرائع المعلومة للناس كالتوراة والإنجيل والزبور أو نجعلها منسية دارسة لا علم للناس بها، كالشرائع المجهولة لنا النازلة على بعض من قصهم الله علينا من الأنبياء، ومن لم يقصصهم علينا.

نأت بشريعة خير منها أو مثلها حسبما ينبغى لحال الأمة التى شرعت لها. ومن الباحثين من قال: المراد من الآية المعجزة، ونسخها تغييرها، ويكون معنى الآية: ولقد طلبوا منك يا محمد أن تأتيهم بالمعجزات التى جاءهم بها موسى وأنبياء بنى إسرائيل، وحسبنا أننا أيدناك بالقرآن، وأننا إذا تركنا تأييد نبى متأخر بمعجزة كانت لنبى سابق أو أنسينا الناس أثر هذه المعجزة فإننا نأتى على يديه بخير منها أو مثلها فى الدلالة على صدقه فالله على كل شىء قدير.

ما هو النسخ:

النسخ فى اللغة الإزالة والإبطال، يقال نسخت الشمس الظل إذا أذهبته وأبطلته.

والنسخ شرعا: إزالة حكم شرعى سابق بخطاب ورد متأخرًا عنه لولا هذا الخطاب لاستمر الحكم على مشروعيته بمقتضى النص الذى تقرر به أولاً.

وقد أنكرت النسخ طوائف من اليهود، زاعمين أن ذلك من البداء، وهو مستحيل على الله، وقد كذبوا، فإن النسخ هو النقل من حكم إلى حكم لضرب من المصلحة.

ولا خلاف بين العقلاء فى أن شرائع الرسل قصد بها مصالح الخلق الدنيوية والأخروية.

وأما البداء فهو ترك ما عزم عليه أولا والعدول عنه كقولك لشخص امض إلى فلان ثم يبدو لك نقض الرأى الأول فتقول لا تمض. على سبيل التناقض والتقلب فى الرأى، وهذا محال على الله تعالى. لكمال علمه وحكمته.

ونسخ الحكم إما أن يكون بأيسر منه فى العمل كما نسخت عدة المتوفى عنه زوجها من الحول إلى أربعة أشهر وعشرة أيام، وإما بمساو له كنسخ التوجه إلى بيت المقدس بالتوجه إلى الكعبة عند الصلاة، وإما بأشق منه يكون ثوابه أكثر كما نسخ ترك القتال بإيجابه على المسلمين.

قال الأستاذ سيد قطب:

مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا . سواء كانت المناسبة هى مناسبة تحويل القبلة، كما يدل سياق هذه الآيات وما بعدها، أم كانت مناسبة أخرى من تعديل بعض الأمور والتشريعات والتكاليف، التى كانت تتابع نمو الجماعة المسلمة وأحوالها المتطورة، أم كانت خاصة بتعديل بعض الأحكام التى وردت فى التوراة مع تصديق القرآن فى عمومه للتوراة.

سواء كانت هذه أم هذه، أم هذه، أم هى جميعًا المناسبة التى اتخذها اليهود ذريعة للتشكيك فى صلب العقيدة ... فإن القرآن يبين هنا بيانًا حاسما فى شأن النسخ والتعديل، وفى القضاء على تلك الشبهات التى أثارتها اليهود، على عادتها وخطتها فى محاربة هذه العقيدة بشتى الأساليب.

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . الخطاب فيه لكل من لديه علم وعقل، والاستفهام للتقرير، والمراد بهذا التقرير الاستشهاد بعلم المخاطب بأنه تعالى : عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . على قدرته على النسخ، والإتيان بما هو خير من المنسوخ أو مثله.

١٠٧ - أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٢٦٥). لما ذكر فى الآية السابقة أنه تعالى على كل شىء قدير ذكر هنا ما هو كالدليل على ذلك وهو أنه تعالى له ملك السماوات والأرض واستشهد على ذلك بعلم كل ذى علم.

والمعنى : أنه سبحانه مالك لجميع الكائنات العلوية والسفلية وهو سبحانه المتصرف كما يشاء فى ذواتها

وأحوالها. وأنه سبحانه يتصرف فى أمورهم ويجريها على حسب ما يصلحهم، وهو أعلم بما يتعبدهم به من ناسخ ومنسوخ.

والخطاب هنا للمؤمنين يحمل رائحة التحذير، ورائحة التذكير بأن الله هو وليهم وناصرهم وليس لهم من دونه ولى ولا نصير.

قال ابن كثير:

وقوله تعالى: أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ . يرشد تعالى بهذا إلى أنه المتصرف فى خلقه بما يشاء فله الخلق والأمر، وهو المتصرف. فكما خلقهم كما يشاء، ليسعد من يشاء، ويشقى من يشاء، ويصح من يشاء ويمرض من يشاء، ويوفق من يشاء ويخذل من يشاء، كذلك يحكم فى عباده بما يشاء، فيحل ما يشاء ويحرم ما يشاء ويبيح ما يشاء ويحظر ما يشاء، وهو الذى يحكم ما يريد، لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، ويختبر عباده وطاعتهم لرسله بالنسخ، فيأمر بالشىء لما فيه من المصلحة التى يعلمها تعالى، ثم ينهى عنه لما يعلمه تعالى، فالطاعة كل الطاعة فى امتثال أمره، واتباع رسله فى تصديق ما أخبروا: وامتثال ما أمروا به، وترك ما عنه زجروا، وفى هذا المقام رد عظيم، وبيان بليغ لكفر اليهود وتزييف شبهتهم - لعنهم الله - فى دعوى استحالة النسخ، إما عقلا كما زعمه بعضهم جهلا وكفرًا، وإما نقلا كما تخرصه آخرون منهم افتراء وإفكا. وقال الإمام أبو جعفر الطبرى: فتأويل الآية: ألم تعلم يا محمد أن لى ملك السموات والأرض وسلطانهما دون غيرى، أحكم فيهما وفيما فيهما بما أشاء وآمر فيهما وفيما فيهما بما أشاء وأنهى عما أشاء وأنسخ وأبدِّل وأغيِّر من أحكامى التى أحكم بها فى عبادى بما أشاء إذا أشاء، وأقر فيهما ما أشاء.

ثم قال: وهذا الخبر وإن كان من الله تعالى خطابًا لنبيه صلى الله عليه وسلم على وجه الخبر عن عظمته، فإنه منه تكذيب لليهود الذين أنكروا نسخ أحكام التوراة، وجحدوا نبوة عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام.

وعلَّق ابن كثير على كلام الطبرى بقوله:

قلت: الذى يحمل اليهود على البحث فى مسألة النسخ إنما هو الكفر والعناد فإنه ليس فى العقل ما يدل على امتناع النسخ فى أحكام الله تعالى، لأنه يحكم ما يشاء، كما يفعل ما يريد، مع أنه قد وقع ذلك فى كتبه المتقدمة وشرائعه الماضية، كما أحل لآدم تزويج بناته من بنيه، ثم حرم ذلك، وكما أباح لنوح بعد خروجه من السفينة أكل جميع الحيوانات، ثم نسخ حل بعضها، وكان نكاح الأختين مباحًا لإسرائيل وبنيه، وقد حرم ذلك فى شريعة التوراة وما بعدها، وأشياء كثيرة يطول ذكرها، هم يعترفون بذلك ويصدقون عنه، أو ما يجاب به عن هذه الأدلة بأجوبة لفظية، فلا يصرف الدلالة فى المعنى، إذ هو المقصود، كما فى كتبهم مشهورًا من البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم، والأمر باتباعه فإنه يفيد وجوب متابعته -عليه السلام- وأنه لا يقبل عمل إلا شريعته وسواء قيل: إن الشرائع المتقدمة مغياة إلى بعثته عليه السلام، فلا يسمى ذلك نسخا، كقوله. ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ . أو قيل إنها مطلقة. وإن شريعة محمد صلى الله عليه وسلم نسختها، فعلى كل تقدير فوجوب متابعته، لأنه جاء بكتاب هو آخر الكتب عهدًا بالله تبارك وتعالى(٢٦٦).

١٠٨ - أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ. نهى القرآن عن سؤال النبى صلى الله عليه وسلم على وجه التعنت والاقتراح كما سألت بنو إسرائيل موسى عليه السلام تعنتا وتكذيبا وعنادا. قال تعالى:

يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ .

وقد اختلف المفسرون فى سبب نزول الآية .. أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ . والراجح أنها نزلت فى شأن اليهود جين قالوا يا محمد ائتنا بكتاب من السماء جملة، كما أتى موسى بالتوراة جملة.

واختار هذا الإمام الرازى وقال: إنه الأصح لأن الحديث من أول قوله تعالى: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ، (البقرة : ٤٠) إلى حكايته عن اليهود ومحاجته معهم، ولأنه جرى ذكرهم قبل ذلك دون غيرهم.

وقيل إنها تنزلت فى المؤمنين توصية لهم بالثقة بالرسول صلى الله عليه وسلم وترك الاقتراح عليه. وقد ذهب إلى هذا الرأى ابن كثير فى تفسيره.

ويكون معنى الآية:

لا يصلح لكم أيها المؤمنون أن تقترحوا على رسولكم مقترحات تتنافى مع الإيمان الحق كأن تسألوه أسئلة لا خير من ورائها لأنكم لو فعلتم ذلك لصرتم كبنى إسرائيل الذين طلبوا من نبيهم موسى عليه السلام بعد أن جاءهم بالبينات مطالب تدل على تعنتهم وجهلهم، فقالوا: أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً . (النساء : ١٥٣) وقالوا: اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ. (الأعراف : ١٣٨) ولو صرتم مثلهم لكنتم ممن يختار الكفر على الإيمان ولخرجتم على الصراط المستقيم الذى يدعوكم إليه نبيكم صلى الله عليه وسلم.

فالاستفهام فى الآية الكريمة للإنكار وفى أسلوبها مبالغة فى التحذير من الوقوع فيما وقع فيه اليهود من تعنت مع رسولهم، إذ جعل محط الإنكار إرادتهم السؤال. وفى النهى عن إرادة الشىء، نهى عن فعله بأبلغ عبارة.

قال ابن كثير:

نهى الله تعالى فى هذه الآية الكريمة عن كثرة سؤال النبى صلى الله عليه وسلم عن الأشياء قبل حدوثها كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ.

أى وإن تسألوا عن تفصيلها بعد نزولها تبين لكم، ولا تسألوا عن الشىء قبل وقوعه، فلعله أن يحرم من أجل تلك المسألة، ولهذا جاء فى الصحيح: « إن أعظم المسلمين جرمًا من سأل عن شىء لم يحرم فحرم من أجل مسألته » (٢٦٧).

وثبت فى الصحيحين من حديث المغيرة بن شعبة « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان ينهى عن قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال » (٢٦٨).

وفى صحيح مسلم: « ذرونى ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه » (٢٦٩).

وروى البزار عن ابن عباس قال: ما رأيت قومًا خيرًا من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ما سألوه إلا عن اثنتى عشرة مسألة، كلها فى القرآن: يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ، و يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ ، وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ. يعنى هذا وأشباهه (٢٧٠).

★ ★ ★

تحـــذير

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ۖ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ ﴾

المفردات:

ود : تمنى وأحب.

فاعفوا واصفحوا : العفو: ترك العقوبة على الذنب، والصفح ترك اللوم عليه، وهو أبلغ من العفو، إذ قد يعفو ولا يصفح.

حتى يأتى الله بأمره : بإذنه ومعونته.

تجدوه عند الله : تجدوا ثوابه عنده.

وأقيموا الصلاة : أدوها بأركانها وشروطها وهيئاتها فى أوقاتها، وأصله أفعل من قام الحق: ظهر وثبت، أى أظهروها على النحو الذى يرتضيه الشارع.

معنى الآيتين:

ولقد تمنى كثير من اليهود أن يردوكم إلى الكفر بعد إيمانكم، مع أنه قد تبين لهم من كتابهم نفسه أنكم على الحق، وما ذلك إلا أنهم يحسدونكم ويخشون أن ينتقل إليكم السلطان ويفلت من أيديهم، فأعرضوا عنهم، واعفوا واصفحوا حتى يأذن الله لكم بمسلك آخر حيالهم فهو القادر على أن يمكنكم منهم، وهو على كل شىء قدير.

وحافظوا على شعائر دينكم، فأقيموا الصلاة، واعطوا الزكاة، وما تقدموا لأنفسكم من أعمال طيبة وصدقة تجدوا ثوابه عند الله إن الله بما تعملون عليم، علم من يبصر ويرى.

متعلقات المعنى:

١ - قوله تعالى: وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً . بيان للون من ألوان الشرور التى يضمرها أهل الكتاب، وعلى رأسهم اليهود، وهو تمنيهم ارتداد المسلمين عن دينهم الحق إلى الكفر الذى أنقذهم الله منه، وإنما أسند سبحانه هذا التمنى الذميم إلى الكثرة منهم، إنصافًا للقلة المؤمنة التى لم ترض أن ينتقل المسلمون إلى الكفر بعد أن هداهم الله إلى الإسلام.

٢ - يشير قوله تعالى: حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم . إلى أن تمنى كفر المؤمنين لم يكن له من سبب أو علة سوى الحسد الذى استولى على نفوس اليهود، واستحوذ على قلوبهم فجعلهم يحسدون المؤمنين على نعمة الإيمان، ويتمنون التحول عنه إلى الكفر، فالجملة الكريمة علة لما تضمنته الجملة السابقة من محبتهم نقل المؤمنين إلى الكفر.

(والحسد): قلق النفس لرؤية نعمة يصيبها إنسان، وينشأ عن هذا القلق تمنى زوال تلك النعمة عن الغير، وتمنى زوال النعم مذموم بكل لسان، إلا نعمة أصابها فاجر أو جائر يستعين بها على الشر والفساد، فإن تمنى زوالها كراهة للجور والفساد لا يدخل فى قبيل الحسد المذموم، فإن لم تتمن زوال النعمة عن شخص وإنما تمنيت لنفسك مثلها فهى الغبطة والمنافسة، وهى محمودة لأنها قد تنتهى بالشخص إلى اكتساب محامد لولا المنافسة لظل فى غفلة عنها، والحسد قد يهجم على الإنسان ولا يكون فى وسعه دفعه لشدة النفرة بينه وبين المحسود، وإنما يؤاخذ الإنسان على رضاه به، وإظهار ما يستدعيه من القدح فى المحسود، والقصد إلى إزالة النعمة عنه) [٢٧١].

وفى الحديث الشريف: « ثلاث لا ينجو منهن أحد : الحسد، والطيرة، والظن، قيل: فما المخرج منهن يا رسول الله؟ قال: إذا حسدت فلا تبغ، وإذا تطيرت فلا ترجع، وإذا ظننت فلا تتبع » [٢٧٢].

فهذه الأشياء تهجم على الإنسان، والمؤمن مطالب بألا يسترسل فيها فإذا حسد أو أحس ببوادر الحسد فلا ينبغى له العدوان أو القدح أو البغى على المحسود.

وإذا تطير وتشاءم من شىء فلا يرجع ولا يسترسل فى تشاؤمه بل يقل: « اللهم لا يأتى بالخير إلا أنت، ولا يذهب السوء إلا أنت اللهم اكفنى السوء بما شئت إنك على ما تشاء قدير».

وإذا ظن الإنسان بآخر فلايسترسل فى تتبعه، ولا يتابعه بالتجسس عليه، وبذلك يسلم المسلم من بوادر هذه الأمور الثلاثة حيث يوقفها عند حدها، ولا يسمح لها بالتعدى على الآخرين.

٣ - قوله تعالى: مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ . يدل على أن محبة اليهود لتحويل المؤمنين من الكفر إلى الإيمان وقعت بعد أن ظهر لهم صدق النبى صلى الله عليه وسلم، وبعد أن تبين لهم أن الصفات التى وردت فى التوراة بشأن النبى المبشر به، لا تنطبق إلا عليه، وإذًا فكفرهم به لم يكن عن جهل وإنما كان عن عناد وجمود على الباطل، ذلك هو شأن أحبارهم الذين كانو على علم بالتوراة. وتبشيرها بالنبى صلى الله عليه وسلم.

٤ - قوله تعالى: فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . أى لا تعاقبوهم ولا

تلوموهم حتى يأذن الله بالقتال فى الوقت الذى يختاره لكم ، وقد أنزل الله تعالى بعد ذلك الإذن بقتال اليهود فى قوله: قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ. (التوبة : ٢٩) كما أذن بإجلائهم عن المدينة.

٥ - قال السيد رشيد رضا فى تفسير المنار:

قال الأستاذ الإمام: وفى أمره تعالى لهم بالعفو والصفح إشارة إلى أن المؤمنين على قلتهم هم أصحاب القدرة والشوكة، لأن الصفح إنما يطلب من القادر على خلافه، كأنه يقول:

لا يغرنكم أيها المؤمنون كثرة أهل الكتاب مع باطلهم، فإنكم على قلتكم أقوى منهم بما أنتم عليه من الحق، فعاملوهم معاملة القوى العادل، للقوى الجاهل، وفى إنزال المؤمنين على ضعفهم منزلة الأقوياء ووضع أهل الكتاب على كثرتهم موضع الضعفاء، إيذان بأن أهل الحق هم المؤيدون بالعناية الإلهية، وأن العزة لهم ما ثبتوا على حقهم، ومهما يتصارع الحق والباطل فإن الحق هو الذى يصرع الباطل كما قلنا غير مرة، وإنما بقاء الباطل فى غفلة الحق عنه [٢٧٣].

١١٠ - وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.

أمر الله المسلمين بالمحافظة على عمودى الإسلام وهما العبادة البدنية التى تؤكد حسن صلة العبد بخالقه وهى الصلاة، والعبادة المالية التى تؤلف بين قلوب الموسرين والمعسرين وهى الزكاة.

وجاءت جملة: وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ.

لترغبهم فى فعل الخير على وجه عام ولتحثهم على التزود من الأعمال الصالحة سواء أكانت فرضًا أم نفلاً.

وجاءت جملة: إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ، لتأكيد ذلك المعنى.

روى أن الإمام على كرم الله وجهه كان إذا دخل المقبرة قال: السلام عليكم أهل هذه الديار الموحشة، والمحال المقفرة، من المؤمنين والمؤمنات، ثم قال: أما المنازل فقد سكنت، وأما الأموال فقد قسمت، وأما الأزواج فقد نكحت، فهذا خبر ما عندنا، فليت شعرى ما عندكم؟ والذى نفسى بيده لو أن لهم فى الكلام لقالوا: إن خير الزاد التقوى.

وفى الحديث الصحيح: « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له » [٢٧٤].



أمـــانىُّ كاذبـة

﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

المفردات:

هودا : جمع هائد، كعوذ جمع عائذ، ومعنى الهائد فى الأصل التائب والمقصود هنا بالهود: اليهود.

أو نصارى : يعنون المسيحيين، جمع نصران ونصرانة، سموا بذلك نسبة إلى بلدة الناصرة التى كان ينزل بها عيسى، أو لأنهم أجابوا عيسى إلى نصره لما قال لهم: من أنصارى إلى الله؟.

الأمانى : واحدها أمنية وهى ما يتمناه المرء ولا يدركه، والعرب تسمى كل ما لا حجة عليه ولا برهان له تمنيا وغرورًا، وضلالا وأحلاما.

برهانكم : حجتكم.

إسلام الوجه لله : هو الانقياد والإخلاص له فى العمل بحيث لا يجعل العبد بينه وبين ربه وسطاء.

التفسير:

قالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا، يعنون بذلك: أن المسلمين لن يدخلوها، تنفيرًا للمسلمين من دينهم، وإثارة للفتنة بينهم، لأنهم كما تقدم يودون ردتهم.

وجمع بين كلام الفريقين فى النظم الكريم للإيجاز، وثقة بأن السامع يرد إلى كل فريق قوله، لأن العداوة بين الفريقين معلومة [٢٧٥]، ثم أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يطالبهم بالدليل على صحة ما يدعون فقال تعالى: قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . أى قل يا محمد لهؤلاء الزاعمين أن الجنة لهم خاصة من دون الناس: هاتوا حجتكم على خلوص الجنة لكم إن كنتم صادقين فى دعواكم.

لأنه لما كانت دعواهم الاختصاص بدخول الجنة لا تثبت إلا بوحى من الله وليس لمجرد التمنى، أمر الله تعالى نبيه أن يطالبهم بالدليل من كتبهم على صحة دعواهم، وهذه المطالبة من قبيل التعجيز لأن كتبهم خالية مما يدل على صحتها.

١١٢ - بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ . أى: بلى يدخل الجنة من أخلص نفسه وذاته لله، فآمن به ونزهه تعالى عن الولد (وهو محسن) فى جميع أعماله التى منها الإسلام.

والإحسان أداء العمل على وجه حسن أى مطابق للصواب وهو ما جاء به الشرع الشويف.

ومقصود الآية ليس الحق فيما زعمه كل فريق منكم يا معشر اليهود والنصارى من أن الجنة لكم دون غيركم، وإنما الحق أن كل من أخلص نفسه لله وأتى بالعمل الصالح على وجه حسن، فإنه يدخل الجنة، وينال أجره اللائق به ولا يخاف فى الدارين من لحوق مكروه ولا يحزن على فوت مطلوب.

وقد أفادت الآية الكريمة ما يأتى:

١ - إثبات ما نفوه من دخول غيرهم الجنة.

٢ - بيان أنهم ليسوا من أهل الجنة إلا إذا أسلموا وجوههم لله.

٣ - بيان أن العمل المقبول عند الله تعالى يجب أن يتوافر فيه أمران أولهما: أن يكون خالصا لله وحده. ثانيهما: أن يكون مطابقا للشريعة التى ارتضاها الله تعالى وهى شريعة الإسلام.

قال ابن كثير فى تفسيره:

فإن للعمل المتقبل شرطين، أحدهما: أن يكون خالصا لله وحده والآخر أن يكون صوابا موافقا للشريعة، فمتى كان خالصا ولم يكن صوابا لم يتقبل ؛ ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » [٢٧٦] رواه مسلم من حديث عائشة.

فعمل الرهبان ومن شابههم - وإن فرض أنهم يخلصون فيه لله - فإنه لا يتقبل منهم حتى يكون ذلك متابعا للرسول محمد صلى الله عليه وسلم، المبعوث إليهم وإلى الناس كافة، وفيهم وأمثالهم قال تعالى:

وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً . (الفرقان : ٢٣)

وقال تعالى : وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا. (النور:٣٩)

وروى عن أمير المؤمنين عمر: أنه تأولها فى الرهبان، وأما إن كان العمل موافقًا للشريعة فى الصورة الظاهرة ولكن لم يخلص عامله القصد لله، فهو أيضًا مردود على فاعله وهذا حال المنافقين والمرائين.

كما قال تعالى: إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً . (النساء:٣٩) وقال تعالى: فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ. (الماعون: ٤-٧)

ولهذا قال تعالى: فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا. (الكهف: ١١٠)

★ ★ ★

تهم متبـــادلة

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾

المفردات:

قال الذين لا يعلمون : المراد بهم عبدة الأصنام والمعطلة ونحوهم من الجهلاء.

مثل قولهم : بأن قالوا عن أهل كل دين آخر: ليسوا على شىء.

التفسير:

أنكرت اليهود رسالة المسيح مع أن التوراة بشرت به، ومازالوا يزعمون أن المسيح المبشر به فى التوراة لم يأت وسيأتى بعد، فهم يعتقدون أن النصارى باتباعهم له ليسوا على أمر حقيقى من التدين.

والنصارى تكفر اليهود لعدم إيمانهم بالمسيح الذى جاء لإتمام شريعتهم، ونشا عن هذا النزاع عداوة اشتدت بها الأهواء والتعصب حتى صار كل فريق يطعن فى دين الآخر، وينفى عنه أن يكون له أصل من الحق، ثم بين الله مدى جهلهم وعنادهم جميعًا فقال سبحانه: وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ. وهى جملة حالية، والكتاب للجنس، أى قالوا ذلك وحالهم أنهم من أهل العلم والتلاوة للكتب، إذ اليهود يقرؤون التوراة والنصارى يقرؤون الإنجيل، وحق من حمل التوراة والإنجيل وغيرها من كتب الله وآمن بها ألا يكفر بالباقى لأن كل واحد من الكتابين مصدق للثانى، شاهد بصحته، وكذلك كتب الله جميعًا متواردة على تصديق بعضها بعضًا.

كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ. أى مثل هذا القول الذى لم يبن على برهان، قال الجهلة من عبدة الأوثان لأهل كل دين: لستم على شىء، والحق وراء هذه المزاعم، فهو إيمان خالص وعمل صالح لو عرفه الناس حق المعرفة لما تفرقوا ولا اختلفوا فى أصوله، لكنهم تعصبوا لأهوائهم فاختلفوا وتفرقوا طرائق قددا.

فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ. صدرت هذه الجملة بالفاء، لأن التوعد بالحكم بينهم يوم القيامة، وإظهار ما أكنته ضمائرهم من الهوى والضلال، متفرع من هذه المقالات ومسبب عنها، وهو خبر المقصود منه التوبيخ والوعيد.

والضمير فى بينهم (راجع إلى الفرق الثلاث، وقيل الضمير يعود على اليهود والنصارى).

قال ابن كثير:

قوله تعالى: فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ. أى أنه تعالى يجمع بينهم يوم المعاد

ويفصل بينهم بقضائه العدل الذى لا يجور فيه ولا يظلم مثقال ذرة، وهذه الآية كقوله تعالى فى سورة الحج فى الآية ١٧ . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . وكما قال تعالى: قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٧٧).

ولم تصرح الآية الكريمة بماذا يحكم الله بينهم، فإنه من المعلوم من مظاهر حكم الله يوم القيامة إثابة من كان على حق وعقاب من كان على باطل.

قال الزمخشرى: فَاللَّهُ يَحْكُمُ . بين اليهود والنصارى. يَوْمَ الْقِيَامَةِ . بما يقسم لكل فريق منهم من العقاب الذى استحقه، وعن الحسن: حكم الله أن يكذبهم ويدخلهم النار (٢٧٨).

★ ★ ★

تخريب المساجد

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ۚ أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١٤) ﴾

المفردات:

من أظلم : استفهام إنكارى بمعنى النفى، والمعنى: لا أحد أظلم.

مساجد الله : المراد بها جميع مساجد الله وأماكن عبادته، فالآية قاعدة عامة وإن كان سبب النزول خاصًا كما سيأتى.

لهم فى الدنيا خزى : هوان وذلة.

تمهيد:

تعددت أقوال المفسرين فيما تشير إليه الآية :

١ - فيرى بعض المفسرين أنها تشير إلى ما وقع من تيطس الرومانى إذ دخل بيت المقدس بعد موت المسيح بنحو سبعين سنة وخرب المسجد حتى لم يبق منه حجرًا على حجر، وهدم هيكل سليمان حتى لم يترك إلا بعض جدران مبعثرة. وأحرق بعض نسخ التوراة، وكان هذا بإيعاز وتحريض من المسيحيين انتقاما من اليهود.

٢ - ويرى بعض المفسرين أنها نزلت فى كفار قريش حين منعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدخل المسجد الحرام عام الحديبية، روى ابن أبى حاتم عن ابن عباس أن قريشًا منعوا النبى صلى الله عليه وسلم من الصلاة عند الكعبة فى المسجد الحرام فأنزل الله. وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ.

ويرجح ابن جرير الطبرى القول الأول، واحتج بأن قريشًا لم تسع فى خراب الكعبة، وأما الروم فسعوا فى تخريب بيت المقدس.

وقال ابن كثير: الذى يظهر والله أعلم القول الثانى: وأما اعتماد ابن جرير على أن قريشا لم تسع فى خراب الكعبة فأى خراب أعظم مما فعلوا؟ أخرجوا منها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه، واستحوذوا عليها بأصنامهم وأندادهم، قال تعالى: هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ.

فإذا كان الرسول مطرودًا منها مصدودًا عنها فأى خراب للكعبة أعظم من ذلك؟ وليس المراد بعمارتها زخرفتها وإقامة صورتها فقط، وإنما عمارتها بذكر الله فيها وإقامة شرعه فيها ورفعها عن الدنس والشرك(٢٧٩).

والمتأمل فى الآية يرى أنها عامة، تشمل بذمها ووعيدها كل من عطل المساجد عن أداء رسالتها، أو أرهب المؤمنين ومنعهم من دخولها.

قال القرطبى: وخراب المساجد قد يكون حقيقيًا، كتخريب بختنصر والرومان لبيت المقدس حيث قذفوا فيه القاذورات وهدموه، ويكون مجازًا كمنع المشركين حين صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المسجد الحرام، وعلى الجملة فتعطيل المساجد عن الصلاة وإظهار شعائر الإسلام فيها خراب لها (٢٨٠).

وظاهر الآية يفيد أنه لا يوجد أحد أظلم ممن حال بين المساجد وبين أن يعبد فيها الله.

قال الزمخشرى: إن قلت: فكيف قيل مساجد الله وإنما وقع المنع والتخريب على مسجد واحد هو بيت المقدس أو المسجد الحرام؟ قلت: لا بأس أن يجىء الحكم عامًا، وإن كان السبب خاصًا، كما تقول لمن آذى صالحًا واحدًا : من أظلم ممن آذى الصالحين، كما قال عز وجل.

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ . والمنزل فيه الأخنس بن شريق.

وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ،بانقطاع الذكر أو بتخريب البنيان، وينبغى أن يراد بمن منع العموم كما أريد بمساجد الله ، ولا يراد الذين منعوا بأعيانهم من أولئك النصارى أو المشركين (٢٨١).

أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ. معناه ما ينبغى لأولئك الذين يحولون بين المساجد وذكر الله ويسعون فى خرابها أن يدخلوها إلا خائفين من الله تعالى لمكانها من الشرف والكرامة بإضافتها إليه تعالى، أو إلا خائفين من المؤمنين أن يبطشوا بهم عقوبة لهم على إفسادهم لدين الله وبيوته.

أى أنهم يستحقون الدفع والمطاردة والحرمان من الأمن، إلا أن يلجأوا إلى بيوت الله مستجيرين محتمين بحرمتها مستأمنين (وذلك كالذى حدث فى عام الفتح بعد ذلك إذ نادى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح: من دخل المسجد الحرام فهو آمن .. فلجأ إليه المستأمنون من جبابرة قريش بعد أن كانوا هم الذين يصدون رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه ويمنعونهم من زيارة المسجد الحرام) (٢٨٢).

قال ابن كثير: (وفى هذا بشارة من الله للمسلمين بأنه سيظهرهم على المسجد الحرام، ويذل لهم المشركين حتى لا يدخل المسجد الحرام واحد منهم إلا خائفًا يخاف أن يؤخذ فيعاقب) [٢٨٣].

لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ. أى لهم فى الدنيا هوان وذلة بسبب ظلمهم وبغيهم، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم يخلدون معه فى النار، وليس هناك أشقى ممن يعيش دنياه فى هوان ومذلة ثم يلقى العذاب العظيم فى الآخرة.

وفسر قتادة الخزى في الدنيا: بأداء الجزية عن يد وهم صاغرون (والصحيح أن الخزى فى الدنيا أعم من ذلك كله، وقد ورد فى الحديث الاستعاذة من خزى الدنيا وعذاب الآخرة).

روى الإمام أحمد عن بُسر بن أرطاة، قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو: اللهم أحسن عاقبتنا فى الأمور كلها وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة) وهذا حديث حسن [٢٨٤].

★ ★ ★

فضل الله

﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥) ﴾

المفردات:

المشرق : موضع الشروق.

المغرب : موضع الغروب، والمراد بهما هنا: هما وما بينهما من الجهات والأماكن.

فثم وجه الله : أى فهناك جهته، أى قبلته التى أمر عباده أن يتجهوا إليها فالوجه والجهة شىء واحد.

إن الله واسع عليم : أى يوسع على عباده، أو لا يحصر ولا يتحدد، أو واسع العلم محيط بما تستطيعون علمه فلا يكلفكم ما يشق عليكم.

التفسير:

وردت عدة روايات فى معنى هذه الآية وأسباب نزولها، ومن هذه الروايات ما يأتى:

١ - كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى بمكة إلى بيت المقدس والكعبة بين يديه، فلما قدم المدينة توجه إلى بيت المقدس ستة عشر شهرًا ثم صرفه الله إلى الكعبة بعد ذلك.

١١٥ - ولهذا يقول تعالى : وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ . روى أبو عبيدة القاسم بن سلام فى كتاب الناسخ والمنسوخ عن ابن عباس قال: أول ما نسخ من القرآن، فيما ذكر لنا والله أعلم، شأن القبلة، قال الله تعالى: وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ . فاتجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صلاته نحو بيت المقدس وترك البيت العتيق ثم صرفه الله إلى بيته العتيق ونسخها فقال:

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ (٢٨٥).

٢ - **وقال ابن عمر وآخرون:** نزلت هذه الآية إذنا من الله أن يصلى المتطوع حيثما توجهت به راحلته من شرق أو غرب، وفى حال المسايفة وشدة الخوف.

أخرج مسلم عن ابن عمر رضى الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى وهو مقبل من مكة إلى المدينة حيث كان وجهه وفيه نزلت : فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ (٢٨٦). نقله القرطبى، ونقله أيضًا ابن كثير عن ابن جرير الطبرى.

٣ - **وقال آخرون:** بل أنزل الله هذه الآية قبل أن يفرض الله التوجه إلى الكعبة، وإنما أنزلها تعالى ليعلم نبيه صلى الله عليه وسلم وأصحابه أن لهم التوجه بوجوههم للصلاة حيث شاءوا من نواحى المشرق والمغرب، لأنهم لا يوجهون وجوههم وجهًا من ذلك وناحية إلا كان علم الله جل ثناؤه فى ذلك الوجه وتلك الناحية لأن له تعالى المشارق والمغارب كما قال تعالى: وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا. (المجادلة : ٧)

قالوا: ثم نسخ ذلك بالفرض الذى فرض عليهم التوجه إلى المسجد الحرام (٢٨٧).

٤ - **وقال آخرون:** بل نزلت هذه الآية فى قوم عميت عليهم القبلة فلم يعرفوا شطرها فصلوا على أنحاء مختلفة، فقال الله تعالى لىَ المشارق والمغارب، فأين وليتم وجوهكم فهناك وجهى وهو قبلتكم، فعليكم بذلك إن صلاتكم ماضية.

روى الترمذى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ما بين المشرق والمغرب قبلة » قال الترمذى: حسن صحيح (٢٨٨).

وقال: وقد روى من غير واحد من الصحابة (ما بين المشرق والمغرب قبلة) منهم عمر بن الخطاب وعلى وابن عباس.

٥ - **قال ابن جرير :** ويحتمل: فأينما تولوا وجوهكم فى دعائكم لى فهناك وجهى أستجيب لكم دعاءكم، ثم روى عن مجاهد قال: لما نزلت ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ، قالوا: إلى أين؟ فنزلت: فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ.

وإذا ربطنا الآية بما سبقها من أن الظالمين قد يمنعون المصلين من الصلاة فى مساجد الله. رأينا أن المقصود من الآية الإذن بإقامة الصلاة فى أى مكان من الأرض دون أن تختص بها المساجد ففى الحديث الشريف « جعلت لى الأرض مسجدًا وترابها طهورًا فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل » (٢٨٩).

وكان السابقون لا يصلون إلا فى بيعهم أو كنائسهم وكأن الآية تومئ إلى أن سعى أولئك الظالمين فى منع المساجد من أداء رسالتها وتخريبها لا يمنع من أداء العبادة، لأن لله المشرق والمغرب وما بينهما فأينما حل الإنسان واتجه بعبادة إلى الله فهى مقبولة، والله تعالى راض عنه مقبل عليه. إن الله واسع . يوسع على عباده فى دينهم ولا يكلفهم بما ليس فى وسعهم . عليم. بمصالحهم وبما يعملون فى مختلف أماكنهم.

★ ★ ★

تنزيه الله عن الولد

﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ ﴾

المفردات:

اتخذ : من الاتخاذ وهو الصنع والجعل والعمل.

الولد : تطلق على الذكر والأنثى والواحد والجمع.

سبحانه : تنزيهًا وتبرئة لله لائقة به مما قالوا.

قانتون : منقادون خاضعون.

بديع : البديع بمعنى المبدع، والإبداع هو إيجاد الشيء بصورة مخترعة على غير مثال سابق.

بديع السموات والأرض : مبدعهما ومخترعهما على غير مثال سابق، وكما يأتى فعيل بمعنى مفعول، كجريح بمعنى مجروح، يأتى فاعل كما هنا ونظيره السميع بمعنى المسمع فى قول الشاعر: (أمن ريحانة الداعى السميع). وكل من أنشأ ما لم يسبق يقال له مبدع ومنه أصحاب البدع.

التفسير:

جاء الإسلام بتوحيد الخالق وتنزيهه عن الولد بين أهل كتاب ومشركين يزعمون أن لله ولدا.

فاليهود يزعمون أن عزيرًا ابن الله، والنصارى يزعمون مثل ذلك لعيسى، والمشركون يزعمون مثله للملائكة فيقولون إنها بنات الله. ولا فارق بين أن يكون هذا القول قد صدر من جميع أفراد الأمة أو بعضها فإن أفرادها متكافلون فى كل ما يعملون وما يقولون، مما يعود أثره من خير أو شر إلى الجميع. فيصح أن يكون الضمير فى. وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا. عائدًا إلى الفرق الثلاث أو على بعضهم، فمن المعروف أن القرآن يجرى على الأسلوب المعروف فى المخاطبات حيث يسند إلى القوم ما صدر عن بعضهم فحين قال: وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ . (التوبة : ٣٠) أصبح من السائغ فى صحة المعنى أن يكون هذا القول قد صدر من طائفة منهم.

سُبْحَانَهُ : أى تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك تعالى علوا كبيرًا، لاقتضاء الوالدية الجنسية والتناسل والافتقار والتشبيه والحدوث.

بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ : إضراب عن مقالتهم التى نسبوا بها إلى الله اتخاذ الولد وشروع فى الاستدلال على بطلانها. قال ابن كثير:

«أى ليس الأمر كما افتروا وإنما له ملك السماوات والأرض وهو المتصرف فيهم وهو خالقهم ورازقهم

ومقدرهم ومسخرهم ومسيرهم ومصرفهم كما يشاء، والجميع عبيد له وملك له. فكيف يكون له ولد منهم؟ والولد إنما يكون متولدًا من شيئين متناسبين، وهو تبارك وتعالى ليس له نظير ولا مشارك فى عظمته وكبريائه، ولا صاحبة له، فكيف يكون له ولد؟».

كما قال تعالى: بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

وقال تعالى:

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا. (مريم : ٨٨ – ٩٥)

وقال تعالى: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ. (الإخلاص)

فقرر تعالى فى هذه الآية الكريمة: أنه السيد العظيم الذى لا نظير له ولا شبيه له، وأن جميع الأشياء غيره مخلوقة له مربوبة فكيف يكون له منها ولد؟

وفى الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم – أنه قال:

لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولدًا وهو يرزقهم ويعافيهم (٢٩٠).

كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ : كل له مطيعون طاعة تسخير وانقياد، خاضعون لا يستعصى منهم شىء على مشيئته وإرادته، شاهدون بلسان الحال والمقال على وحدانيته من القنوت وهو لزوم الطاعة من الخضوع، وإنما جاء قَانِتُونَ. بجمع المذكر المختص بالعقلاء، مع أن الخضوع لله يكون من العقلاء وغيرهم ، تغليبًا للعقلاء على غيرهم، لأنهم أهل القنوت عن إرادة وبصيرة، ولأن ظهوره فيهم أكمل من ظهوره فى غيرهم.

وفصلت جملة: كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ. عن سابقتها لقصد استقلالها بالاستدلال على نفى أن يكون لله ولد، حتى لا يظن السامع أنها مكملة للدليل المسوق له قوله تعالى: لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ.

١١٧ – بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ. أى مبدع السماوات والأرض ومنشئهما بلا احتذاء ولا اقتداء وبلا آلة ولا مادة، صفة مشبهة من أبدع، والذى ابتدعهما من غير أصل ولا مثال هو الله تعالى، وخص السماوات والأرض بالإبداع لأنهما أعظم ما يشاهد من المخلوقات.

قال ابن جرير: فمعنى الكلام: سبحان الله، أنى يكون له ولد وهو مالك السماوات والأرض، تشهد له جميعها – بدلالتها عليه – بالوحدانية وتقر له بالطاعة، وهو بارئها وخالقها وموجدها من غير أصل ولا مثال احتذاها عليه، وهذا إعلام من الله عباده أن ممن يشهد به بذلك المسيح الذى أضافوا إلى الله بنوته وإخبار منه

لهم أن الذى ابتدع السماوات والأرض من غير أصل وعلى غير مثال - هو الذى ابتدع المسيح من غير والد بقدرته [٢٩١].

وقوله تعالى: وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ. معناه وإذا أراد سبحانه إحداث أمر من الأمور حدث فورًا. و. كُن فَيَكُونُ. فعلا الكون بمعنى الحدوث، ويرى كثير من أهل السنة أن الجملة واردة على وجه التمثيل لحدوث ما تتعلق به إرادته سبحانه - بلا مهلة وبلا توقف. وليس المراد أنه إذا أراد إحداث أمر أتى بالكاف والنون، ففى الكلام استعارة تمثيلية.

وقال الزمخشرى: كُن فَيَكُونُ. من كان التامة أى أحدث فيحدث، وهذا مجاز من الكلام تمثيل ولا قول ثم، وإنما المعنى: أن ما قضاه من الأمور وأراد كونه فإنما يتكون ويدخل تحت الوجود من غير امتناع ولا توقف. كما أن المأمور المطيع الذى يؤمر فيمتثل لا يتوقف ولا يمتنع ولا يكون منه الإباء، أكد بهذا استبعاد الولادة لأن من كان بهذه الصفة من القدرة كانت حاله مباينة لأحوال الأجسام فى توالدها [٢٩٢].

ويرى آخرون أن الأمر بكن محمول على حقيقته، وأنه تعالى أجرى سنته فى تكوين الأشياء أن يكونها بكلمة كن أزلا.

وبذلك نرى أن الآيتين الكريمتين قد حكتا بعض الشبهات الباطلة التى أوردها الضالون حول وحدانية الله، وردتا عليها بما يدحضها ويثبت كذبها.

★ ★ ★

تعنت وعناد

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾

المفردات:

لولا : كلمة لحض الفاعل على الفعل وطلبه منه.

الآية : الحجة والبرهان.

التشابه : التماثل.

اليقين : هو العلم بالدليل والبرهان.

تمهيد :

اختلف المفسرون فى المراد من الذين لا يعلمون:

١ - فقال ابن عباس هم اليهود، ويؤيد هذا الرأى أن السياق من أول السورة فى الحديث عن اليهود. وأن القرآن قد حكى عنهم سؤالهم لموسى عددًا من الآيات على سبيل التعنت والمكابرة.

قال تعالى: يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً . (النساء : ١٥٣)

وقال تعالى: وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً. (البقرة : ٥٥)

٢ - وقال مجاهد هم النصارى، وهو اختيار ابن جرير الطبرى لأن السياق فيهم، قال ابن كثير: وفى هذا الكلام نظر، أى فهو لا يسلم أمام المناقشة، فليس النصارى وحدهم الذين. قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا .(البقرة : ١١٦) وإنما اليهود أيضا قالوا ذلك، قال تعالى: وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ. (التوبة:٣٠).

٣ - وأكثر أهل التفسير على أن المراد من . الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ . هم مشركو العرب، ويؤيد هذا القول أن القرآن المكى قد حكى عنهم الكثير من التعنت والعتو وسؤالهم ما لا حاجة لهم به وإنما هو الكفر والمعاندة. قال تعالى: وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ . (الأنعام : ١٢٤)

وقال تعالى: وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا . (الإسراء : ٩٠ - ٩٣)

وقال تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا. (الفرقان : ٢١)

وقد عبر القرآن عنهم بالذين لا يعلمون استهجانا لذكرهم لقبح ما صدر عنهم، ولأن ما يحكى عنهم لايصدر إلا عن الجهلاء.

ولا يبعد أن يكون المراد من الذين لا يعلمون جميع الطوائف المشركة من اليهود والنصارى والعرب. ويكون الأميون من المشركين هم المقصودون قصدًا أوليًا، فكثيرًا ما تحدوا النبى صلى الله عليه وسلم أن يكلمهم الله أو تأتيهم خارقة من الخوارق المادية.

كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ. أى مثل هذه الأسئلة التى يراد بها التعنت قد قالها من قبلهم من الأمم السابقة، أو من اليهود والنصارى.

إذ قالوا: أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً . (النساء : ١٥٣)

وقالوا: لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ . (البقرة : ٦١)

وقالوا: هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ . (المائدة : ١١٢)

وقالوا: اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ. (الأعراف : ١٣٨)

تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ. أى: تشابهت قلوب السابقين مع قلوب اللاحقين فى الكفر والإعراض عن الحق والعناد والمكابرة.

والمعنى: أن تشابه أقوالهم نابع من تشابه قلوبهم، كما قال تعالى: كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ.

قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ. أى أننا لم نتركك بلا آية بل بينا للناس الآيات على يديك بما لا يدع مجالا للريب.

قال ابن كثير:

أى قد وضحنا الدلالات على صدق الرسل بما لا يحتاج معها إلى سؤال آخر وزيادة أخرى لمن أيقن وصدق واتبع الرسل وفهم ما جاءوا به من الله تبارك وتعالى، وأما من ختم الله على قلبه وجعل على بصره غشاوة فأولئك الذين قال الله فيهم: إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ . (يونس : ٩٦)

★ ★ ★

البشير النذير

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾

المفردات:

الحق : هو الشىء الثابت المتحقق الذى لا شك فيه.

بشيرا : البشير: المبشر وهو المخبر بالأمر السار للمخبر به الذى لم يسبق له علم به.

نذيرًا : النذير : المنذر وهو المخبر بالأمر المخيف ليحذر منه.

الجحيم : المتأجج من النار، وأصحابها الملازمون لها، والسؤال كناية عن المؤاخذة واللوم.

التفسير:

لا تذهب نفسك عليهم حسرات يا محمد، فإن وظيفتك أن تبشر ولست بعد ذلك مؤاخذًا ببقاء الكافرين على كفرهم ولست مسئولا عن عدم اهتدائهم. وهذه الآية تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وبيان لمهمته كى يتوجه إليها بكليته ولا يلتفت إلى معارضة أهل الكتاب والمشركين، بعدما سجل تعنتهم.

وعن ابن عباس قال: بشيرًا بالجنة ونذيرًا من النار.

وروى أحمد عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت: أخبرنى عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التوراة؟ فقال: أجل، والله إنه لموصوف فى التوراة بصفته فى القرآن؛ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً . (الأحزاب : ٤٥) وحرزا للأميين، وأنت عبدى ورسولى، سميتك المتوكل، لا فظ ولا غليظ ولا صخّاب فى الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، فيفتح به أعينا عميا وآذانًا صما وقلوبًا غلفا [٢٩٣]. انفرد بإخراجه البخارى ورواه ابن مردويه.

١٢٠ - وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ . تحذر هذه الآية الأمة المحمدية من اتباع اليهود والنصارى والتفريط فى أمور دينهم.

ولقد حرص السلف الصالح على التمسك بدينهم فنالوا عز الدنيا وشرف الآخرة.

ثم ذل المسلمون لأعدائهم من اليهود والنصارى فزادوا فى التشبه بهم قليلا قليلا.

ثم كشفوا عن وجوههم فضربوا على المسلمين قوانين أوروبا الوثنية المجرمة الملعونة، ثم استباحوا أكثر المحرمات يصرحون بإباحتها من غير حياء ولا غيرة، ثم صاروا ينبذون الشرائع الإسلامية والأخلاق الكريمة التى هدانا الله إليها ورسوله - بالتقاليد والرجعية - لينفروا الناس منها.

بل إن بعض الماجنات ينشرن فى الصحف الدعوة السافرة إلى السفور، فلئن لم يدفع المسلمون هذه المنكرات عن دينهم وبلادهم، ليسلطن الله عليهم عدوهم وليستبدلن بهم قومًا غيرهم. قال تعالى: وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ . [٢٩٤]

وقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يبين لرسوله غاية أعدائه من اقتراح الآيات، ويحذره منهم فقال ما معناه: إن اليهود والنصارى يقترحون الآيات تعجيزًا لا طلبا للهداية، فلو أتيتهم يا محمد بكل ما يسألون فلن يرضوا عنك ولن تنال رضاهم حتى تتبع دينهم الزائف المحرف.

قال ابن جرير الطبرى: يعنى جل ثناؤه بقوله: وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ.

وليست اليهود - يا محمد - ولا النصارى براضية عنك أبدا، فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم، وأقبل على طلب رضا الله فى دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق، وقوله تعالى: قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ. يعنى هو الدين المستقيم الصحيح الكامل الشامل: وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ . فيه تهديد ووعيد شديد للأمة عن اتباع طرائق اليهود والنصارى بعدما علموا من القرآن والسنة، عياذا بالله من ذلك، فإن الخطاب مع الرسول، والأمر لأمته (٢٩٥).

وبعد أن ذكر القرآن فى الآيات السابقة أحوال الكافرين من أهل الكتاب أخذ فى بيان حال المؤمنين منهم فقال:

١٢١ - الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ. المراد بالذين أوتوا الكتاب، مؤمنو أهل الكتاب، والمراد بالكتاب : التوراة والإنجيل.

قال قتادة: هم اليهود والنصارى، وهو قول عبد الرحمن بن أسلم، واختاره ابن جرير الطبرى.

وحمل بعض المفسرين الآية على أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم والكتاب على القرآن. والرأى الأول أولى. فإن عرف القرآن جرى على أن أهل الكتاب هم اليهود والنصارى، ولم يذكر المسلمون فيه إلا بعنوان المسلمين والمؤمنين، كما أن السياق واللحاق فى بنى إسرائيل.

ومعنى الآية:

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ .أى من أقام كتابه من أهل الكتب المنزلة على الأنبياء المتقدمين حق إقامته، آمن بما أرسلتك به يا محمد. أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ . أى بمبعث محمد صلى الله عليه وسلم ونعته وصفته والأمر باتباعه ونصره ومؤازرته. وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ.

والكفر بالكتاب يتحقق بتحريفه وإنكار بعض ما جاء فيه، أى ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون فى الدنيا حيث لا يعيشون فيها عيش المؤمنين، وهم الخاسرون فى الآخرة، حيث خسروا نعيم الآخرة وحق عليهم العذاب الذى أعده الله للكافرين.

أو معنى: وَمَن يَكْفُرْ بِهِ : ومن يكفر بالنبى محمد صلى الله عليه وسلم ويكتم صفته ونعته فقد خسر الهدى فى الدنيا والسعادة فى الآخرة.

ملحقات:

قال عبد الله بن مسعود: والذى نفسى بيده إن حق تلاوته: أن يحل حلاله ويحرم حرامه ويقرأه كما أنزله الله ولا يحرف الكلم عن مواضعه ولا يتأول منه شيئًا على غير تأويله.

وعن ابن عباس: يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ. قال: يتبعونه حق اتباعه ثم قرأ: وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا. يقول اتبعها، وروى عن عكرمة وعطاء ومجاهد نحو ذلك (٢٩٦).

٢ - فى الآية إيماء إلى أن الذين يتلون الكتاب دون أن يتدبروا معانيه لا حظ لهم من الإيمان لأنهم لايفقهون هداية الله فيه ولا تصل العظة إلى أفئدتهم بتلاوته.

قال تعالى: لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ. (ص: ٢٩). ولكن واأسفا إن كل هذه الآيات والعبر لم تحل بين هذه الأمة وتقليدها من قبلها وحذوها حذوهم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع (والقرآن حجة لك أو عليك).

★ ★ ★

أنعـــم اللـــه

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ (١٢٢) وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ (١٢٣) ﴾

المفردات:

إسرائيل : هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، عليهم السلام.

اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم : تذكروا ما أنعمت به عليكم من الإنجاء من بطش الفراعنة، وإنزال التوراة وغير ذلك. والمقصود من أمرهم بتذكرها أن يشكروها بالإيمان بما يجب الإيمان به.

وأنى فضلتكم على العالمين : على عالمى زمانهم.

واتقوا يوما : المراد باليوم يوم القيامة، وباتقائه: التحفظ من عقابه.

لا تجزى نفس عن نفس شيئا : لا تحمل عنها شيئًا من جزاء عملها.

ولا يقبل منها عدل : لا يقبل منها فداء.

تمهيد:

يذكر الله بنى إسرائيل بنعمه التى أنعمها عليهم، وقد سبق التذكير بهذه النعم فى الآيتين ٤٧، ٤٨ من هذه السورة. ولكنه كرر تذكيرهم بها هنا تأكيدًا لوجوب شكرها بالإيمان، وليرتب على الكفر بها الوعيد الشديد يوم القيامة.

التفسير:

يا أبناء النبى إسرائيل تذكروا ما أنعمنا به من النعم على آبائكم. ومن أجل ما أنعم الله به عليهم التوراة، وفيها وصف النبى صلى الله عليه وسلم ونعته وأمره وأمته. قال ابن كثير: «يحذرهم من كتمان هذا وكتمان ما أنعم به عليهم، وأمرهم أن يذكروا نعمة الله عليهم من النعم الدنيوية والدينية، ولا يحسدوا بنى عمهم من العرب

على ما رزقهم الله من إرسال الرسول الخاتم منهم، ولا يحملهم ذلك الحسد على مخالفته وتكذيبه والحيدة عن موافقته.

وقد فضل الله اليهود على عالمى زمانهم بما آتاهم الله من التوراة دونهم وهذا التفضيل مرتبط بأسبابه وهو اتباع التوراة والعمل بها وتنفيذ أوامرها واجتناب نواهيها، فإذا أهملوا أوامر الله، وكتموا بعضها، وحرفوا وبدّلوا بعض ما فى التوراة، فقد فقدوا أسباب التفضيل واستحقوا اللعنة والطرد والغضب.

كما ذكر ذلك القرآن الكريم، مثل قوله تعالى: مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا . (الجمعة : ٥)

ومثل قوله سبحانه: لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ . (المائدة : ٧٨ ، ٧٩).

١٢٣ - وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ .

تقول: جزى عنى هذا الأمر يجزى، كما تقول قضى يقضى زنة ومعنى. أى اتقوا يا معشر بنى إسرائيل المبدّلين كتابى، المحرِّفين له عن وجهه، المكذبين برسولى محمد صلى الله عليه وسلم، عذاب يوم لا تقضى فيه نفس عن نفس شيئا من الحقوق التى لزمتها، فلا تؤخذ نفس بذنب أخرى، ولا تدفع عنها شيئًا كما ورد فى الصحيحين: «يا فاطمة بنت محمد سلينى من مالى ما شئت، لا أغنى عنك من الله شيئًا».

وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ : أى فداء مهما عظم لو وجدته.

وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ : ولا يشفع فيما وجب عليها من حق شافع (٢٩٧).

وَلا هُمْ يُنصَرُونَ : أى لا يأتيهم ناصر ينصرهم فيمنع عذاب الله عنهم إذا نزل بهم.

والتعرض لنفى الفداء والشفاعة والنصرة فى هذا اليوم، لأنها هى الأمور التى اعتادها بنو آدم فى تخليصهم إذا وقعوا فى شدة.

وقد كان اليهود يعتقدون بالمكفرات تؤخذ فدية عما فرطوا فيه، وبشفاعة أنبيائهم لهم، فأخبرهم الله أنه لا يقوم مقام الاهتداء والإيمان الحق شىء آخر.

★ ★ ★

وفاء إبراهيم

﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

المفردات:

ابتلى إبراهيم : اختبره ببعض التكاليف.

بكلمات : هى ما كلفه الله به من التكاليف.

إمامًا : قدوة للناس.

قال ومن ذريتى : أى واجعل من أبنائى أئمة.

لا ينال عهدى الظالمين : العهد هنا الإمامة والنبوة، وينال بمعنى يدرك أو يصيب، وعهدى فاعل، والظالمين مفعول.

التفسير:

١٢٤ - وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ . . الابتلاء: الامتحان، وهو عند الخلق لاستجلاء ما خفى علمه لديهم، والمراد به فى حق الخالق تكليف العبد ببعض التكاليف.

أى اختبر الله إبراهيم ببعض الأوامر فأتى بها على أتم وجه فكافأه الله على هذا الإتمام بأن جعله للناس - عامة - إمامًا يؤتم به وقدوة يقتدى به فى جميع العصور والملل من بعده، وبخلاف كل نبى فإمامته خاصة بأمته، ولهذا جئ به موعظة وزجرا لأهل الكتاب والمشركين: الزاعمين أنهم يسيرون على منهاجه.

ولما بشر الله إبراهيم بهذه المكافأة، طلب إبراهيم مثلها لبعض ذريته فقال: وَمِن ذُرِّيَّتِي .أى واجعل بعض ذريتى إمامًا للناس.

وجملة: قال وَمِن ذُرِّيَّتِي . واقعة موقع الجواب عما من شأنه أن يخطر فى نفس السامع، فكأنه قال: وماذا كان من إبراهيم عندما تلقى من ربه تلك البشارة العظمى؟ فكان الجواب: أن إبراهيم قد التمس الإمامة لبعض ذريته أيضًا.

أى قال إبراهيم: واجعل يا رب من ذريتى أئمة يقتدى بهم، وقد رد الله تعالى على قول إبراهيم بقوله: لاَيَنَالُ عَهْدِي الظَّالمينَ.

إنما قال إبراهيم: وَمِن ذُرِّيَّتِي . ولم يقل وذريتى، لأنه يعلم أن حكمته تعالى فى هذا العالم لم تجر بأن يكون جميع نسل أحد ممن يصلحون لأن يقتدى بهم فلم يسأل ما هو غير مألوف عادة، لأن سؤال ذلك ليس من آداب الدعاء.

أى قال الله لإبراهيم: لقد أجبتك وعاهدتك بأن أحسن إلى ذريتك لكن لا يصيب عهدى الذى عهدته إليك بالإمامة الذين ظلموا منهم، فالعهد هنا بمعنى الإمامة المشار إليها فى قوله: جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا.

فى هذه الجملة إيجاز بديع، إذ المراد منه إجابة طلب إبراهيم من الإنعام على بعض ذريته بالإمامة كما قال تعالى:

وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ (العنكبوت : ٢٧) ، لكنها تدل صراحة على أن الظالمين من ذريته ليسوا أهلا لأن يكونوا أئمة يقتدى بهم، وتشير إلى أن غير الظالمين منهم قد تنالهم النبوة، وقد نالت من ذريته إسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وغيرهم من الأنبياء. قال تعالى: وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ . (الصافات : ١١٣)

وقد تكرر دعاء إبراهيم لذريته فهو أب حان رحيم، ومن دعائه: رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ. (إبراهيم : ٣٧) ومن دعائه أيضًا. رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ . (إبراهيم : ٤٠)

الكلمات التى ابتلى بها إبراهيم

لم يعين القرآن الكريم الكلمات التى ابتلى بها إبراهيم، ومن ثَم اختلفوا فيها، فقيل هى مناسك الحج، وقيل إنها الكواكب والشمس والقمر التى رآها واستدل بأفولها على وحدانية الله تعالى. وقيل الأوامر والتكاليف التى أتمهن وفاء وقضاء، قال تعالى: وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ . (النجم : ٣٧) وهى شهادة من الله بالوفاء بالتزاماته.

قال ابن كثير: وقد اختلف فى تعيين الكلمات التى اختبر الله بها إبراهيم الخليل عليه السلام.

فروى عن ابن عباس فى ذلك روايات:

فروى عنه: ابتلاه الله بالمناسك، وروى عنه : ابتلاه بالطهارة، خمس فى الرأس وخمس فى الجسد.

فى الرأس: قص الشارب، والمضمضة، والاستنشاق، والسواك، وفرق الرأس، وفى الجسد، تقليم الأظافر، وحلق العانة، والختان، ونتف الإبط وغسل أثر الغائط والبول بالماء [٢٩٨].

قلت : وقريب من هذا ما ثبت فى صحيح مسلم: عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عشرة من الفطرة: قص الشارب، وإعفاء اللحية والسواك واستنشاق الماء وقص الأظافر وغسل البراجم ونتف الإبط وحلق العانة، وانتقاص الماء» قال مصعب: ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة، قال وكيع: انتقاص الماء يعنى الاستنجاء [٢٩٩].

وفى الصحيح عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « الفطرة خمس : الختان والاستحداد وقص الشارب وتقليم الأظافر ونتف الإبط » ولفظه لمسلم [٣٠٠].

وعن عكرمة عن ابن عباس أنه قال: ما ابتلى بهذا الدين أحد فقام به كله إلا إبراهيم قال تعالى: وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ .

قلت له: وما الكلمات التى ابتلى إبراهيم بهن فأتمهن؟ قال: الإسلام ثلاثون سهما، منها عشر آيات فى براءة: التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ. (التوبة : ١١٢) إلى آخر الآية، وعشر آيات فى أول سورة. قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ .(المؤمنون: ١- ١٠) و. سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ . (المعارج : ١- ١٠) وعشر آيات فى الأحزاب. إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ . (الأحزاب : ٣٥) إلى آخر الآية فأتمهن كلهن، فكتب له، قال الله: وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ . (النجم : ٣٧)

رواه الحاكم وابن جرير وابن أبى حاتم، وهذا لفظ ابن أبى حاتم.

وروى ابن أبى حاتم عن الحسن البصرى قال: ابتلاه بالكواكب فرضى عنه، وابتلاه بالقمر فرضى عنه، وابتلاه بالشمس فرضى عنه، وابتلاه بالهجرة فرضى عنه، وابتلاه بالختان فرضى عنه، وابتلاه بابنه فرضى عنه (٣٠١).

قال ابن جرير الطبرى: يجوز أن يكون المراد بالكلمات جميع ما ذكر، وجائز أن يكون بعض ذلك. ولا يجوز الجزم بشىء منها أنه المراد على التعيين إلا بحديث أو إجماع، قال: ولم يصح فى ذلك خبر بنقل الواحد لا بنقل الجماعة الذى يجب التسليم له (٣٠٢).

★ ★ ★

البيت الحرام

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ ﴾

المفردات:

البيت الحرام	: المراد به الكعبة.
مثابة	: أى مرجعًا يثوب إليه هؤلاء الزوار أمثالهم.
أمنا	: موضع أمن.
مقام إبراهيم	: هو الحجر الذى كان يقوم عليه حين بناء الكعبة.
المصلى	: موضع الصلاة أى الدعاء والثناء على الله تعالى.
عهدنا	: عهد إليه بكذا إذا وصاه به.
طهرا بيتى	: نظفاه من كل ما لا يليق من الأوثان، وجميع الخبائث.

والعاكفين :أى المعتكفين فى المسجد، الملازمين له زمنا ما.

والركع السجود : الركع جمع راكع، السجود جمع ساجد، المراد بهما المصلون.

تمهيد:

ذكر سبحانه العرب فى هذه الآية بنعم أسبغها عليهم ومنن قلدها جيدهم، وهى جعل البيت الحرام مرجعًا للناس يقصدونه ثم يثوبون إليه، وجعله مأمنا لهم فى هذه البلاد، بلاد المخاوف التى يتخطف الناس فيها من كل جانب.

التفسير:

١٢٥ - **وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا**. أى واذكروا وقت أن أمرنا بأن يصير البيت مرجعًا للحجاج: يرجعون إليه بعد أن يتفرقوا عنه، أو موضع ثواب يثاب الناس بالحج إليه والاعتمار فيه.

وَأَمْنًا : أى موضع أمن، والمقصود من جعل البيت مكان أمن أن الحج إليه يجعل الحاج مطمئنًا إلى رحمة الله، فإنه مكفر لكثير من الذنوب.

كما جعل الله الحرم آمنا لاحترام الناس له وتعظيمهم إياه بعدم سفك دم فيه، حتى كان الرجل يرى قاتل أبيه فى الحرم فلا يتعرض له بسوء.

ونحو الآية قوله تعالى فى سورة العنكبوت. **أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون ؟** . (العنكبوت : ٦٧)

وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى. أى وقلنا لهم اتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، وفائدة ذكر هذا الأمر أن يستحضر السامع أو التالى المأمورين به وكأن الأمر يوجه إليهم.

وشرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ له، فنحن مأمورون بالدعاء فى مقام إبراهيم، كما أمر به من كان فى عصره من المؤمنين.

روى ابن جرير عن جابر قال: استلم رسول الله صلى الله عليه وسلم الركن، فرمل ثلاثًا، ومشى أربعة، ثم نفذ إلى مقام إبراهيم فقرأ : **وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى**. فجعل المقام بينه وبين البيت فصلى ركعتين، وهذا قطعة من الحديث الطويل الذى رواه مسلم فى صحيحه (٣٠٣).

وروى البخارى عن عمرو بن دينار قال: سمعت ابن عمر يقول: (قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فطاف بالبيت سبعًا، وصلى خلف المقام ركعتين).

قال ابن كثير:

« فهذا كله مما يدل على أن المراد بالمقام هو الحجر الذى كان إبراهيم عليه السلام يقوم عليه لبناء الكعبة، كلما ارتفع الجدار أتاه إسماعيل عليه السلام به ليقوم فوقه ويناوله الحجارة فيضعها بيده لرفع الجدار، وكلما كمل ناحية انتقل إلى الناحية الأخرى، يطوف حول الكعبة وهو واقف عليه، وكلما فرغ من جدار نقله إلى الناحية التى تليها، وهكذا حتى أتم جدارات الكعبة» (٣٠٤).

وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ . أى ووصينا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أن طهرا هذا البيت وما حوله من كل رجس معنوى كالشرك بالله وعبادة الأصنام، أو رجس حسى كاللغو والرفث والتنازع فيه، وقد أمر بتطهيره على هذا النحو من أجل الطائفين به للتنسك من أهل الحرم، أو الوافدين عليه من بقاع الأرض، ومثلهم الزائرون. فالتطهير عام من أجل الجميع.

وكما أمر بتطهيره مما ذكر للطائفين، أشرك معهم فى هذا الحكم المتكفين فيه عن الناس لعبادة ربهم والمصلين الذين عناهم سبحانه بقوله: وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ.

قال ابن كثير:

إن الله تعالى أمر إبراهيم وإسماعيل أن يبنيا الكعبة على اسمه وحده لا شريك له، للطائفين والعاكفين والمصلين إليه من الركع السجود كما قال تعالى: وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ. (الحج :٢٦)

والمراد من ذلك الرد على المشركين الذين كانوا يشركون بالله عند بيته المؤسس على عبادته وحده لاشريك له ثم مع ذلك يصدون أهله المؤمنين عنه كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . (الحج :٢٥).

★ ★ ★

دعـــاء

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ﴾

المفردات:

الثمرات : المأكولات مما يخرج من الأرض والشجر.

الاضطرار : الإكراه ، يقال اضطررت فلانا إلى كذا: أى ألجأته إليه وحملته عليه.

التفسير:

١٢٦ - وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا . . . أى: أضرع إليك يا إلهى أن تجعل الموضع الذى فيه بيتك مكانًا إليه يأنس الناس، ويأمنون فيه من الخوف، ويجدون فيه كل ما يرجون من أمان واطمئنان.

والمشار إليه بقوله : هَذَا. مكة المكرمة، والبلد كل قطعة من الأرض عامرة أو غامرة.

والمقصود من الدعاء إنما هو أمن أهله لأن الأمن والخوف لا يلحقان البلد وإنما يلحقان أهل البلد.

وقد فعل الله ذلك شرعًا وقدرًا، كقوله تعالى: وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا . (آل عمران : ٩٧)

وقوله: أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم . (العنكبوت : ٦٧).

وقوله عز شأنه: لإِيلافِ قُرَيْشٍ * إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ . (قريش).

وقال في هذه السورة: رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا . أي اجعل هذه البقعة بلدًا آمنا، وناسب هذا لأنه قبل بناء الكعبة.

وقال تعالى: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا . (إبراهيم : ٣٥) وناسب هذا هناك لأنه - والله أعلم - كأنه وقع دعاء ثانيًا بعد بناء البيت واستقرار أهله به، وبعد مولد إسحاق، الذي هو أصغر سنا من إسماعيل بثلاث عشرة سنة [٣٠٥]. ولهذا قال في آخر الدعاء: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ . (البقرة : ٣٣، ٣٤)

وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ . أي كما أسألك يا إلهي أن تجعل هذا البلد آمنا، أسألك كذلك أن ترزق المؤمنين من أهله من الثمرات ما يسد حاجاتهم، ويغنيهم عن الاحتياج إلى غيرك وقوله وَارْزُقْ . مأخوذ من رزقه إذا أعطاه ما ينتفع به من مأكول وغيره.

وإنما طلب إبراهيم - عليه السلام - من الله أن يجعل مكة بلدًا آمنا، وأن يرزق أهلها من الثمرات بما يغنيهم، لأن البلد إذا امتدت إليه ظلال الأمن، وكانت مطالب الحياة فيه ميسرة، أقبل أهله على طاعة الله بقلوب مطمئنة، وتفرقوا لذلك بنفوس مستقرة. وقال في دعائه: مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ . لأن أهل مكة قد يكون من بينهم كافرون: فأراد تخصيص المؤمنين منهم بدعائه، لذا اتبع قوله: وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ . بقوله : مَنْ آمَنَ مِنْهُم . على وجه البدل فصار المعنى وارزق المؤمنين من أهله، على ما تقتضيه القاعدة العربية من أن البدل وهو هنا: مَنْ آمَنَ . هو المقصود بطلب الرزق.

وخص إبراهيم المؤمنين بطلب الرزق لهم حرصًا على شيوع الإيمان بين سكان مكة لأنهم إذا علموا أن دعوة إبراهيم إنما هي خاصة بالمؤمنين تجنبوا ما يبعدهم عن الإيمان، أو أنه خص المؤمنين بذلك تأدبا مع الله، إذ سأله سؤالا أقرب إلى الإجابة، ولعله استشعر من رد الله عليه عموم دعائه السابق إذ قال: وَمِن ذُرِّيَّتِي . فقال: لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ . (إبراهيم : ٣٩) أي غير المؤمنين ليسوا أهلا لأن يدعو لهم بإجراء رزق الله عليهم.

ثم بيَّن سبحانه مصير الكافرين بقوله:

وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ . أي قال يا إبراهيم قد أجبت دعوتك ورزقت

مؤمنى أهل هذا البلد من الثمرات، ورزقت كفارهم أيضا، وأمتعهم بهذا الرزق أمدًا قليلا وهو مدة وجودهم فى الدنيا ثم أسوقهم إلى عذاب النار سوقًا اضطراريًا لا اختيار لهم فيه ولا يمكنهم الانفكاك، وجملة. ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ. احتراس من أن يغتر الكافر بأن تخويله النعم فى الدنيا يؤذن برضا الله، فلذلك ذكر العذاب هنا.

وهذا كقوله تعالى: وَمَن كَفَرَ فَلا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ* نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ. (لقمان: ٢٣، ٢٤) أى أن الله ينذرهم ويمهلهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

وقد أفادت الآية أن الله يرزق الكافر فى الدنيا كما يرزق المؤمن، وإن كان المؤمن أهلا لكل خير، فرزق الكافر لاستدراجه، ولو حرم الله الكافرين من التوسعة فى الرزق فى الدنيا وخص بها المؤمنين، لانساقوا إلى الإيمان قسرا. وقد قضت حكمته - سبحانه - أن يكون الإيمان اختياريًا حتى يتجه إليه الإنسان عن طريق النظر فى آيات الله التى يبصرها قوم ويعمى عنها آخرون، ووصف التمتع بالقلة، لأن مدة الدنيا قليلة بالنسبة إلى الآخرة، ولتعرض متعها إلى الزوال كل لحظة.

فى الصحيح: « إن الله ليملى للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته. ثم قرأ قوله تعالى: وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (٣٠٦) ».

★ ★ ★

بنـــاء الكعبـــة

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩) ﴾

المفردات:

يرفع إبراهيم القواعد : القواعد: الأسس، جمع قاعدة، ورفعها البناء عليها.

مسلمين لك : أى منقادين لك، يقال أسلم واستسلم إذا خضع وانقاد.

المناسك : واحدها منسك (بفتح السين) من النسك وهو غاية الخضوع والعبادة، وشاع استعماله فى عبادة الحج خاصة، كما شاع استعمال المناسك فى معالم الحج وأعماله.

الكتاب : القرآن.

الحكمة : أسرار الأحكام الدينية ومعرفة مقاصد الشريعة. قال ابن دريد: كل كلمة وعظتك أو دعتك إلى مكرمة، أو نهتك عن قبيح فهى حكمة. والحكمة أيضًا وضع الأمور فى مواضعها.

ويزكيهم : يطهر نفوسهم من دنس الشرك وضروب المعاصى.

العزيز : القوى الغالب.

الحكيم : الذى لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

تمهيد:

تشتمل الآيات على مشهد كريم لنبى كريم يبنى بيت الله تعالى ويرفع بناء الكعبة المشرفة، ويسترسل فى الدعاء والابتهال أن يتقبل الله منه عمله، فهو سبحانه مطلع وشاهد وعليم بالنوايا والسرائر.

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . «فنغمة الدعاء وموسيقى الدعاء وجو الدعاء .. كلها حاضرة كأنها تقع اللحظة حية شاخصة متحركة .. وتلك إحدى خصائص التعبير القرآنى الجميل. رد المشهد الغائب الذاهب، حاضرًا يسمع ويرى، ويتحرك ويشخص، وتفيض الحياة منه .. إنها خصيصة (التصوير الفنى) بمعناه الصادق اللائق بالكتاب الخالد.

وماذا فى ثنايا الدعاء؟ إنه أدب النبوة، وإيمان النبوة، وشعور النبوة بقيمة العقيدة فى هذا الوجود. وهو الأدب والإيمان والشعور الذى يريد القرآن أن يعلمه لورثة الأنبياء، وأن يعمقه فى قلوبهم ومشاعرهم بهذا الإيحاء» (٢٠٧).

التفسير:

١٢٧ - وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ واذكر يا محمد أيضًا حين بنى إبراهيم فوق أسس الكعبة، ورفعها هو وإسماعيل ابنه وهما يقولان داعين: ربنا تقبل منا بناء هذا البيت الذى سيكون قبلة ومطافًا لعبادتك، إنك سميع للدعاء، عليم بما وراءه من النية والشعور.

وعبر بالمضارع فقال: وَإِذْ يَرْفَعُ . مع أن رفع القواعد كان قبل نزول الآية، وذلك ليخرجه فى صورة الحاضر فى الواقع لأهميته.

١٢٨ - رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ .

إنه نداء مصدر بهذا الاسم الكريم: ربنا.

إنه رجاء العون من ربهما أن يكون إسلامهما خالصًا لله، وأن يثبتهما على الإسلام والإيمان.

وأن يمتد إلى ذريتهما فيشملها بالهداية والتوفيق، حتى يكون بعض هذه الذرية جماعة مستسلمة ومنقادة

لله فى إيمـــانها وطاعتها، وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا . وعلمنا شـرائـع ديننا وأعمـــال حجـنا كالطواف والسعـــى والوقوف، أو متعبداتنا التى تقام فيها شرائعنا كمنى وعرفات ونحوهما.

وَتُبْ عَلَيْنَا . وفقنا للتوبة والهداية إنك مانح التوبة والمتفضل بقبولها وأنت كثير الرحمة والإحسان.

وقد كان إبراهيم مسلمًا لله خالص الإسلام، ليس فى دينه شرك ولا وثنية ولا ادعاء بنوة لله.

قال تعالى: مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. (آل عمران:٦٧)

وقد كان دين إبراهيم يسيـرًا فى شرائعه وأحكامه، إذ جاء فى صحـائف ولم يأت فى كتـاب، كالإسلام واليهودية والنصرانية.

وقد امتاز الإسلام بأنه تناول كل فروع الحياة، وأعطاها الأحكام المناسبة لها، فكان لذلك صالحًا لكل زمان ومكان. وقد طلب إبراهيم وإسماعيل من ربهما أن يجعل من ذريتهما جماعة مسلمة له تعالى ولم يعمما الذرية لما وقر فى نفسيهما من أن بعضهم سيكونون كفارًا ، ولما عرفاه من طبائع البشر وسيرهم على هواهم، وتنكرهم لشرائع رسلهم، وخصا ذريتهما بالدعاء، لأنهم أحق بالشفقة والدعاء لهم بالصلاح مطلوب شرعًا.

والتوبة إلى الله معناها الرجوع إليه والالتجاء إلى حماه وطلب التوفيق منه والهدى.

والتوبة تكون من الكبائر والصغائر، وتكون من ترك ما هو أولى أو من تقصير يؤدى إلى الاجتهاد. وعلى أحد هذين الوجهين تحمل التوبة التى يسأل الأنبياء والمرسلون ربهم قبولها أو التوفيق لها، وقد كان النبى محمد صلى الله عليه وسلم يستغفر الله ويتوب إليه فى اليوم مائة مرة.

١٢٩ - رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

ونسألك أن تتم على ذريتنا نعمتك بأن تبعث فيهم رسولا منهم لا من غيرهم يتحدث بلغتهم ويتلو عليهم آياتك البينات، ويعلمهم معانى القرآن وأسراره ويرشدهم إلى ما فيه من حكم ومواعظ وآداب ويبين لهم أحكام الدين وأسرار الوحى وحكمة التشريع وأهداف الإسلام.

ويعلمهم الحكمة، أى وضع الأمور فى نصابها ويربيهم فيحسن تربيتهم ويرشدهم إلى اتباع السنة النبوية التى بها يتم التفقه فى الدين ويطهرهم من دنس الشرك وقبح العادات.

إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ : الغالب الذى لا يقهر.

الْحَكِيمُ : المدبر عن حكمة وإتقان.

وقد جاء ترتيب هذه الجمل فى أسمى درجات البلاغة والحكمة، لأن أول تبليغ الرسالة يكون بتلاوة القرآن ثم بتعليم معانيه، ثم بتعليم العلم النافع الذى تحصل به التزكية والتطهير من كل ما لا يليق التلبس به فى الظاهر أو الباطن.

لقد كان إبراهيم أبا وفيّا أكثر الدعاء لذريته، وطلب من الله أن يرزقها من الثمرات. ثم طلب من الله أن يبعث فيهم رسولا منهم يبين لهم الهداية والعبادة.

وكانت الاستجابة لدعوة إبراهيم وإسماعيل هى بعثة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بعد قرون وقرون. بعثة رسول من ذرية إبراهيم وإسماعيل، يقرأ القرآن ويبلغ الوحى ويعلم المسلمين ويبشر بالجنة ويحذر من النار، ويؤدى رسالة ربه، فكان نورًا وهداية ودعوة مثمرة فيها الحياة والسعادة، جمعت العرب ووحدتهم ولقنتهم التوحيد والإيمان، والعلم والأحكام، وصاروا خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله، ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرًا لهم.

لقد كان اليهود والنصارى يدعون أنهم أولى بإبراهيم، ويربطون ديانتهم به، ويدعون دعاوى عريضة فى الهدى والجنة بسبب وراثتهم لإبراهيم. فأسمعهم القرآن أن إبراهيم حين طلب الإمامة لبنيه وورثته قال له ربه. لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ. وحين طلب الرزق والثمرات والبركة خص بدعوته. مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ.

وحين قام هو وإسماعيل ببناء البيت والتقرب إلى الله كانا يتضرعان إلى الله طلبًا للقبول، والتوفيق على الإسلام، وهداية ذريتهما إلى طريق الإسلام، ومناسكه، وأن يبعث فى هذه الذرية رسولا منهم، فاستجاب الله لهما وأرسل من أهل البيت الحرام محمدا عبد الله وحقق على يديه الأمة المسلمة القائمة بأمر الله والوارثة لدين الله.

وقد أورد الحافظ ابن كثير حديثًا طويلاً رواه البخارى فيه: أن إبراهيم أخذ ولده إسماعيل وأمه هاجر قرب بيت الله الحرام، وأخذت هاجر تسعى بين الصفا والمروة سبع مرات بحثا عن الماء. ثم سمعت صوت ملاك يبشرها بنبع زمزم، ثم جاءت قبيلة جرهم واستأذنت من هاجر فى أن تقيم حول البيت، وشب إسماعيل وتزوج من قبيلة جرهم.

ثم جاء إبراهيم وقد كبر ولده إسماعيل فأخبر إبراهيم ولده أن الله أمره أن يبنى له بيتًا، فأعانه إسماعيل ، فعند ذلك رفعا القواعد من البيت فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة وإبراهيم يبنى، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام عليه وهو يبنى وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان: رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . قال: فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان: رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ[٣٠٨].

البشارة برسول الله صلى الله عليه وسلم:

بشرت برسول الله صلى الله عليه وسلم التوراة والإنجيل، وكان صلى الله عليه وسلم استجابة لدعوة إبراهيم، وقد وافقت هذه الدعوة المستجابة قدر الله السابق فى تعيين محمد صلى الله عليه وسلم رسولا فى الأميين ورسولا إلى سائر العالمين.

روى الإمام أحمد عن العرياض بن سارية قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«إنى عند الله لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل فى طينته، وسأنبئكم بأول ذلك: دعوة أبى إبراهيم، وبشارة عيسى بى، ورؤيا أمى التى رأت، وكذلك أمهات النبيين يرين»[٣٠٩].

★ ★ ★

ملــة إبراهيــم

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾

المفردات:

رغب : فى الشىء أحبه، ورغب عنه كرهه.

الملة : الطريقة، وغلب إطلاقها على الدين.

سفه نفسه : امتهنها واستخف بها، مثل سفه - بفتح الفاء مشددة - وأصل السفه الخفة، فمن رغب عما يرغب فيه وهو ملة إبراهيم، فقد بالغ فى امتهان نفسه وإهانتها، والاستخفاف بها، وقيل: إن سفه مضمن معنى جهل أى فقد جهل نفسه، أى: لم يفكر فيما ينفعها.

اصطفيناه : اخترناه للرسالة من بين سائر الخلق.

قصة الآية:

ذكر سبحانه أنه ابتلى إبراهيم بكلمات فأتمهن، وأنه عهد إليه ببناء البيت.

وأردف ذلك بذكر أن ملة إبراهيم التى كان يدعو إليها هى التوحيد وإسلام القلب لله والإخلاص فى العمل، ولا ينبغى التحول عنها ولا يرضى عاقل أن يتركها إلا إذا ذل نفسه واحتقرها.

وقد روى فى سبب نزول الآية أن عبد الله بن سلام دعا ابنى أخيه سلمة ومهاجرًا، إلى الإسلام، قال لهما: علمتما أن الله تعالى قال فى التوراة: إنى باعث من ولد إسماعيل نبيّا اسمه أحمد، من آمن به فقد اهتدى ومن لم يؤمن به فهو ملعون، فأسلم سلمة وأبى مهاجر.

وقال أبو العالية وقتادة: نزلت فى اليهود، أحدثوا طريقًا ليست من عند الله، وخالفوا ملة إبراهيم فيما أخذوه، ويشهد لصحة هذا القول، قول الله تعالى: مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ. (آل عمران : ٦٧-٦٨)

وتفيد الآية أنه كان هناك صراع بين المسلمين من جهة واليهود والنصارى والمشركين من جهة أخرى، وأن هذه الطوائف الثلاث كانت تدعى الانتساب إلى إبراهيم والوراثة لدينه وملته، فجاءت الآية لترد على هؤلاء دعواهم لأنهم انصرفوا عن التوحيد الخالص إلى الوثنية والشرك ووصف الله بما لا يليق به.

التفسير:

١٣٠ - وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ. لا أحد يزهد فى دين إبراهيم إلا شخص امتهن نفسه واحتقرها لأنه دين التوحيد الخالص.

وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ. ولقد اخترناه فى الدنيا لرسالتنا من بين الخلق، وإنه فى الآخرة لفى عداد الصالحين المشهود لهم بالثبات على الاستقامة والخير والصلاح.

قال ابن كثير ما خلاصته:

يقول تبارك وتعالى ردًّا على الكفار فيما ابتدعوه وأحدثوه من الشرك بالله المخالف لملة إبراهيم الخليل إمام الحنفاء فإنه جرد توحيد ربه تبارك وتعالى، فلم يدع معه غيره ولا أشرك به طرفة عين وتبرأ من كل معبود سواه، وخالف فى ذلك سائر قومه. فقال:

يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (الأنعام:٧٨-٧٩).

وقال تعالى: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، شَاكِرًا لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ، وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ. (النحل : ١٢٠ - ١٢٢)

ولهذا وأمثاله قال تعالى:

وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ . أى عن طريقته ومنهجه فيخالفها ويرغب عنها.

إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ . أى ظلم نفسه بسفهه وسوء تدبيره فترك طريق الحق واتبع طريق الضلالة والغى.

فأى سفه أعظم من هذا؟ أم أى ظلم أكبر من هذا؟ كما قال تعالى: إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ .

★ ★ ★

الإسلام

﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾

المفردات:

أسلم : أخلص لى العبادة.

التوصية : إرشاد غيرك إلى ما فيه خير وصلاح له من قول أو فعل على جهة التفضل والإحسان فى أمر دينى أو دنيوى.

مسلمون : مخلصون بالتوحيد.

التفسير:

يبين القرآن سماحة إبراهيم ونقاء فطرته، وتوافقه مع الخير والهدى فقد دعاه الله إلى الإسلام بما أراه من الآيات ونصب له من الأدلة على وحدانيته فأجاب إلى ذلك شرعًا وقدرًا، لم يتلكأ ولم يرتب ولم ينحرف واستجاب فور تلقى الأمر.

١٣١ - إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ. أخلصت دينى لله الذى فطر الخلق جميعًا. وقد نشأ إبراهيم فى قوم عبدة أصنام وكواكب، فأنار الله بصيرته وألهمه الحق والصواب والتوحيد الخالص، ولم يكتف إبراهيم بنفسه إنما تركها فى عقبه وجعلها وصية فى ذريته.

١٣٢ - وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ . أى وصى بهذه الملة وهى الإسلام أولاده، ووصى بها يعقوب من بعده أولاده أيضًا، قائلين لهم : إن الله اصطفى لكم دين الإسلام الذى لا يتقبل الله سواه. فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ : أى فاثبتوا على الإسلام واستقيموا على أمره حتى يدرككم الموت وأنتم مقيمون عليه.

قال ابن كثير: أى أحسنوا فى حال الحياة والزموا هذا ليرزقكم الله الوفاة عليه فإن المرء يموت غالبًا على ما كان عليه، ويبعث على ما مات عليه، وقد أجرى الله عادته بأن من قصد الخير وفق له ويسر عليه، ومن نوى صالحًا ثبت عليه (٣١٠).

★ ★ ★

الإسلام ملة الأنبياء

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾

المفردات:

شهداء	: جمع شهيد بمعنى شاهد، أى حاضر.
إذ حضر يعقوب الموت	: وقت حضور أماراته وأسبابه وقرب الخروج من الدنيا.
الأمة	: الجماعة، والإشارة إلى الأنبياء الثلاثة.
خلت	: مضت وذهبت.

لها ما كسبت : ما عملت.

ولكم ما كسبتم : أى أنتم مجازون بأعمالكم.

التفسير:

١٣٣ - أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ . أى أكنتم يا معشر اليهود والنصارى المكذبين محمدًا، الجاحدين نبوته، شهداء حين حضر يعقوب الموت فتدعون أنه كان يهوديًا أو نصرانيًا، فقد روى أن اليهود قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم: ألست تعلم أن يعقوب أوصى بنيه باليهودية (٣١١).

وخلاصة ذلك: أنتم لم تحضروا ذلك فلا تدعوا عليه الأباطيل وتنسبوه إلى اليهودية أو النصرانية فإنى ما أرسلت إبراهيم وبنيه إلا بالحنيفية المسلمة وبها وصوا بنيهم وعهدوا إلى أولادهم من بعدهم.

إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي : وجه يعقوب الوصية لبنيه فى صورة سؤال لبيان شدة اهتمامه بأمرهم، وليطلب بسؤاله جوابًا منهم يعبر عن رسوخ إيمانهم وعقدهم النية على أن يخصوا الإله الحق بعبادتهم: قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ . وهذا من باب التغليب لأن إسماعيل عمه، والعم شبيه بالأب، روى الشيخان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « عم الرجل صنو أبيه»(٣١٢).

أى قالوا نعبد الإله الذى قامت الأدلة العقلية والحسية على وجوده ووجوب عبادته لا نشرك به سواه.

وقد كانوا فى عصر فشت فيه عبادة الأصنام والكواكب والحيوان وغيرها، وكان يكفى فى جوابهم أن يقولوا نعبد الله، ولكنهم أطنبوا وأسهبوا اغتباطًا وتمسكًا بالحق، وإيذانًا بأنه عقيدة مشتركة بين الأنبياء الثلاثة كما هو عقيدته.

وذكروا إلها واحدًا للتأكيد، وللتلذذ بالإقرار بالوحدانية وأكدوا أيضا بقولهم: وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ: ونحن له منقادون خاضعون معترفون له بالعبودية متوجهون إليه عند الملمات.

قال ابن كثير:

كما أن الإسلام هو ملة الأنبياء قاطبة وإن تنوعت شرائعهم واختلفت مناهجهم.

قال تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ . (الأنبياء : ٢٥) والآيات فى هذا كثيرة والأحاديث، فمنها قوله صلى الله عليه وسلم: « نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد»(٣١٣).

١٣٤ - تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

تِلْكَ . إشارة إلى إبراهيم وبنيه.

أى أن إبراهيم وذريته أمة قد انقرضت ومضت، لها جزاء ما كسبت من خير أو شر، فإن من سنة الله فى عباده أن يتحمل كل إنسان مسئولية عمله وألا يجزى أحد إلا بكسبه وعمله هو، ولا يسأل عما عمل سواه.

قال تعالى : أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ، وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ، أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ، وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ . (النجم : ٣٦ – ٣٩)

وجاء فى الحديث: « يا بنى هاشم لا يأتينى الناس بأعمالهم وتأتونى بأنسابكم » (٣١٤).

وقال الغزالى: إذا كان الجائع يشبع إذا أكل والده دونه، والظمآن يروى إذا شرب والده وإن لم يشرب، فالعاصى ينجو بصلاح والده.

وقد كانت الدعوة إلى الإيمان بالله والعمل الصالح رسالة الأنبياء جميعًا، فهم هداة إلى التوحيد، ودعاة إلى مكارم الأخلاق، ومرشدون إلى إخلاص العمل لله، وإسلام الوجه له، واتباع تعاليم الإسلام.

وفى القرآن الكريم آيات صرحت بأن الإسلام اسم للدين الذى دعا إليه كل الأنبياء، وانتسب إليه أتباعهم، فنوح قال لقومه : وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. (يونس : ٧٢) وموسى قال لقومه: يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ . (آل عمران : ٥٢)

والحواريون قالوا لعيسى: آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ. (يونس : ٨٤)

بل إن فريقًا من أهل الكتاب حين سمعوا القرآن أشرقت قلوبهم لدعوته وقالوا: آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ . (القصص : ٥٣)

لقد كانت الشرائع السماوية خطوات متصاعدة، ولبنات متراكمة فى بنيان الدين والأخلاق وسياسة المجتمع، وكانت مهمة اللبنة الأخيرة أن أكملت البنيان وملأت ما بقى من فراغ، وأنها فى الوقت نفسه كانت بمثابة حجر الزاوية الذى يمسك أركان البناء.

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز: يجب أن نفهم أن تعديل الشريعة المتأخرة للمتقدمة ليس نقضًا لها وإنما وقوفًا بها عند وقتها المناسب وأجلها المقدر.

مثل ذلك كمثل ثلاثة من الأطباء جاء أحدهم إلى الطفل فى الطور الأول من حياته فقصر غذاءه على اللبن.

وجاء الثانى فى مرحلته التالية فقرر له طعامًا لينا وطعامًا نشويًا خفيفًا.

وجاء الثالث فى المرحلة التى بعدها فأمر له بغذاء كامل.

لاريب أن ها هنا اعترافًا ضمنيًا من كل واحد منهم بأن صاحبه كان موفقًا كل التوفيق فى علاج الحالة التى عرضت عليه. هكذا الشرائع السماوية كلها صدق وعدل فى جملتها وتفصيلها، وكلها يصدق بعضها بعضا من ألفها إلى يائها (٣١٥).

قال صلى الله عليه وسلم: «مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وجمّله إلا موضع لبنة فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة، فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين (٣١٦)».

★ ★ ★

محـــاورة

﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ ﴾

المفردات:

حنيفا : مائلاً عن الباطل إلى الحق من الحنف بمعنى الميل أو مستقيما من الحنف بمعنى الاستقامة ، فهو يستعمل فى المعنى وضده.

التفسير:

وقالت اليهود للنبى صلى الله عليه وسلم وللمسلمين اتركوا دينكم واتبعوا ديننا تهتدوا وتصيبوا طريق الحق . وقالت النصارى لهم : كونوا نصارى تهتدوا .

قل لهم يا محمد: ليس الهدى في اتباع ملتكم ، بل الحق في أن نتبع ملة إبراهيم حنيفًا ، وما كان من المشركين ، فاتبعوا أنتم يا معشر أهل الكتاب ما اتبعناه ، لتكونوا حقًا سالكين ملة إبراهيم الذى لا تنازعون فى هداه .

روى محمد بن إسحاق عن ابن عباس قال :

قال عبد الله بن صوريا الأعور لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ما الهدى إلا ما نحن عليه ، فاتبعنا يامحمد تهتد ، وقالت النصارى مثل ذلك ، فأنزل الله : وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا .

ومقصود الآية : إمعان اليهود والنصارى فى اللجاجة وادعاء كل فريق منهم أن ملته هى الملة المثلى ورغبته فى أن يُدخل المسلمين فيها .

والمسلم لا يتبع هذه الملة ولا تلك ، لأن كلتيهما قد حرفت وخرجت عن أصولها الصحيحة ، ومازجها الشرك ، وبعدت عن ملة إبراهيم . وإنما يتمسك المسلم بالإسلام الذى أحيا ملة إبراهيم نقية طاهرة .

★ ★ ★

الإيمان بالكتب والرسل

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبۡغَةَ ٱللَّهِ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

المفردات:

الأسباط : جمع سبط وهو ولد الولد، من السبط وهو التتابع، وكان ليعقوب اثنا عشر ولدا خرجت من كل منهم ذريات كثيرة، أطلق على ذرية كل واحد منهم سبط بالنسبة لجدهم يعقوب. فالأسباط فى بنى إسرائيل، قبائل يهودية، تنتمى إلى أصل واحد كالقبائل العربية وكانوا اثنتى عشرة قبيلة كما قال تعالى: قَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا . (الأعراف : ١٦٠)

تولوا : أعرضوا.

صبغة الله : فطرة الله التى فطر الناس عليها فإنها حلية الإنسان، كما أن الصبغة حلية المصبوغ.

المعنى الإجمالى:

قولوا أيها المؤمنون آمنا بالله وما أوحى إلينا وما أوحى إلى النبيين والمرسلين كافة لا نفرق بين أحد منهم، فلا نؤمن ببعض ونكفر ببعض كما يفعل غيرنا من أهل الملل، ونحن لله مستسلمون، فإن آمن أهل الكتاب مثل إيمانكم هذا فقد اهتدوا إلى سواء السبيل، وإن أعرضوا وتمادوا فى عنادهم فإنما هم فى نزاع مستمر وخلاف فيحميك الله من شرهم وينصرك عليهم وهو السميع لما يقولون، العليم بما يعملون، والإيمان على هذا الوجه صبغة الله حلاكم بها، ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون.

التفسير:

١٣٦ - قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا . . أى قولوا أيها المؤمنون لأولئك اليهود الذين يزعمون أن الهداية فى اتباع ملتهم، قولوا لهم: ليست الهداية فى اتباع ملتكم فقد دخلها الشرك والتحريف، وإنما الهداية فى أن نصدق بالله وبالقرآن الكريم الذى أنزله الله لنعمل بما فيه.

وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ . والمراد بما أنزل إليهم الصحف التى أنزلها

الله إلى إبراهيم، والمشار إليهما بقوله تعالى: إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ، صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ. (الأعلى:١٨-١٩)

وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ : وآمنا بالتوراة التى أنزلها الله على موسى وبالإنجيل الذى أنزله الله على عيسى، ونحن فى تصديقنا بالأنبياء لا نفرق بين أحد منهم فتؤمن ببعضهم ونكفر بالبعض الآخر كما فعلتم أنتم يا معشر اليهود إذ آمنتم بموسى وكفرتم بعيسى ومحمد. وكما فعل النصارى إذ آمنوا بموسى وعيسى وكفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم.

فالمؤمنون يؤمنون بالأنبياء والرسل جميعًا بدون تفرقة بينهم، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ. ونحن لربنا خاضعون بالطاعة مذعنون له بالعبودية.

ومن جمال هذه الآية أنها ابتدأت بالإيمان الذى هو فعل القلب واختتمت بالإسلام الذى هو فعل الجوارح.

قال الإمام الرازى: «فإن قيل كيف يجوز الإيمان بإبراهيم وموسى وعيسى مع القول بأن شرائعهم منسوخة؟ قلنا : نحن نؤمن بأن كل واحد من تلك الشرائع كان فى زمانه، فلا يلزم منا المناقضة، أما اليهود فإنهم لما اعترفوا بنبوة بعض من ظهر المعجز على يديه، وأنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم مع قيام المعجزة على يديه، فحينئذ يلزمهم المناقضة فظهر الفرق» (٢١٧).

١٣٧ – فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. فإن آمن أهل الكتاب مثل إيمانكم، وصدقوا مثل تصديقكم، فقد اهتدوا إلى سواء السبيل.

وقال ابن جرير الطبرى: «فإن صدقوا مثل تصديقكم بجميع ما أنزل عليكم من كتب الله وأنبيائه فقد اهتدوا».

حاصل معنى الآيتين:

قولوا أيها المؤمنون: آمنا بالله وما أنزل إلينا فى القرآن وما أنزل إلى إبراهيم وذرياته من الأنبياء، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مخلصون، فإن ترتب على هذا البيان الشامل لما عند أهل الكتاب وما عندكم أنهم دخلوا فى الإيمان بسبب اعتراف وشهادة مثل الشهادة التى ثبت لكم الإيمان بموجبها فقد اهتدوا إلى الحق، «وإن تولوا فإنما هم فى شقاق» أى وإن أعرضوا عن الدخول فى الإيمان بهذا الاعتراف، وفرقوا بين الرسل، فآمنوا ببعض، ولم يخلصوا لله، فما هم إلا غارقون فى خلاف وعداوة، وليسوا طلاب حق.

فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ : يكفى من الكفاية بمعنى الوقاية. والمعنى: فسيقيك الله شرهم وينصرك عليهم فهو سميع لما يقولونه فيك، عليم بما يبيتونه لك ولأتباعك من مكر وكيد، وهو الكفيل بكف بأسهم وقطع دابرهم.

وقد أنجز الله وعده بتفريق كلمتهم، وقتل بنى قريظة وجلاء بنى النضير، وغير ذلك مما حاق بباقى اليهود، وكل ذلك بفضل الله.

١٣٨ – صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ .صِبْغَةَ اللَّهِ: قال ابن عباس: دين الله، وانتصاب

صبغة الله إما على الإغراء كقوله (فطرة اللّه) أى الزموا ذلك عليكموه، وقال بعضهم بدلا من قوله ملة إبراهيم.

وقال سيبويه: هو مصدر مؤكد انتصب عن قوله: آمَنَّا بِاللَّهِ كقوله وعد الله (٢١٨).

والاستفهام فى قوله: وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً . للإنكار والنفى.

والمعنى: لا أحد أحسن من الله صبغة لأنه هو الذى يصبغ عباده بالإيمان، ويطهرهم من أدران الكفر والضلال، فهى صبغة ثابتة لا تزول لأن الإيمان متى خالطت بشاشته القلوب لا يرتد عنه أحد سخطة له، بخلاف ما يتلقنه أهل الكتاب عن أحبارهم ورهبانهم من الأديان الباطلة فهو من الصبغة البشرية التى تجعل من الدين الواحد أديانًا مختلفة ومذاهب متنافرة.

وهذا التركيب: وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً . يدل بحسب أصل الوضع اللغوى على نفى أن يكون دينا أفضل من دين الله، ويبقى احتمال أن يوجد دين يساويه فى الحسن، وهذا الاحتمال لم ينفه التركيب بحسب أصل الوضع ولكن مثل هذا التركيب صار أسلوبًا يفهم منه بمعونة مقام المدح نفى مساواة دين لدين الله فى الحسن، كما يفهم منه نفى أن يكون هناك دين أحسن منه، وأفضلية دين الله من جهة هدايته إلى الاعتقاد الحق، والأخلاق الكريمة، والآداب السمحة، والعبادات الصحيحة، والسياسة الرشيدة، والمعاملات القائمة على رعاية المصالح.

وقوله تعالى: وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ . عطف على . آمَنَّا بِاللَّهِ . فى قوله تعالى: قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ . والمعنى: قل لهم يا محمد إننا معشر المسلمين نعبد الله وحده وصبغته هى صبغتنا ولا نعبد غيره، فلا نتخذ الأحبار والرهبان أربابا يزيدون فى ديننا وينقصون، ويحلون ويحرمون، ويمحون من النفوس صبغة التوحيد، ليحلوا محلها بأهوائهم صبغة الشرك والكفر.

★ ★ ★

شبهة تفتضح وحجة تتضح

﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ ﴾

المفردات:

أتحاجوننا : أتجادلوننا، من حاجه يحاجه محاجة وحجاجًا أى جادله.

والأسباط : هم أولاد يعقوب، والمراد بهم هنا أنبياؤهم.

وما الله بغافل : أى وما الله بساه، بل هو عالم.

التفسير:

١٣٩ - **قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ**. قولوا لهم أتجادلوننا فى الله زاعمين أنه لا يصطفى أنبياء إلا منكم؟

وهو ربنا وربكم ورب كل شىء، لا يختص به قوم دون قوم، يصيب برحمته من يشاء ويجزى كل قوم بأعمالهم، غير ناظر إلى أنسابهم ولا أحسابهم، وقد هدانا الطريق المستقيم فى أعمالنا ورزقنا صفة الإخلاص له.

ولم توصف أعمال المسلمين بالحسن، وأعمال سواهم بالسوء، تجنبًا لنفور المخاطبين، واكتفاء بالتعريض اللطيف الذى توحى به جملته: **وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ**.

١٤٠ - **أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**.

قولوا لهم: أتجادلوننا فى إبراهيم وإسحاق وإسماعيل ويعقوب وأبنائه الأسباط، زاعمين أنهم كانوا يهودًا أو نصارى مثلكم، مع أنه ما أنزلت التوراة والإنجيل اللذين قامت عليهما اليهودية والنصرانية إلا من بعد هؤلاء، وقد أخبرنا الله بذلك، أفأنتم أعلم أم الله؟ بل إن الله قد أخبركم أنتم بذلك فى أسفاركم، فلا تكتموا الحق المدون فى أسفاركم هذه. ومن أظلم ممن كتم حقيقة يعلمها وسيجازيكم الله على ما تلجون فيه من باطل فما الله بغافل عما تعملون.

قال ابن جــريــر:

وهذه الآية احتجاج من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم على اليهود والنصارى الذين ذكر الله قصصهم. يقول الله لنبيه صلى الله عليه وسلم: قل يا محمد لهؤلاء اليهود والنصارى: أتحاجوننا فى الله وتزعمون أن دينكم أفضل من ديننا وأنكم على هدى ونحن على ضلالة ببرهان من الله فتدعوننا إلى دينكم فهاتوا برهانكم على ذلك فنتبعكم عليه.

أم تقولون إن إبراهيم ومن بعده كانوا هودًا أو نصارى على دينكم، فهاتوا برهانا على ذلك فنصدقكم، فإن الله قد جعلهم أئمة يقتدى بهم. ثم قال الله تعالى لنبيه: قل لهم يا محمد إن ادعوا أن إبراهيم ومن بعده كانوا هودًا أو نصارى – أأنتم نصارى – أنتم أعلم بهم وبما كانوا عليه من الأديان أم الله؟» (٣١٩).

وقوله تعالى: قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ. معناه قل لهم يا محمد إن زعموا أن الأنبياء المذكورين فى الآية كانوا هودًا أو نصارى، إن ما زعمتموه من أن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب كانوا هودًا أو نصارى هو على خلاف ما يعلمه الله، لأنه سبحانه قد أخبرنا بأنهم كانوا مسلمين مبرئين عن اليهودية والنصرانية، وأن يعقوب عليه السلام عندما حضرته الوفاة أوصى بنيه بأن يموتوا على الإسلام، وأن التوراة والإنجيل ما أتيا إلا من بعد أولئك الأنبياء جميعًا، هكذا أخبرنا الله فهل أنتم أعلم بديانتهم أم الله؟ ولاشك أنهم لن يستطيعوا أن يقولوا نحن أعلم، وإنما سيقولون الله أعلم، فإذا لزمهم هذا القول: قلنا لهم إذا فدعواكم لا أساس لها من الصحة، وبذلك تكون الجملة الكريمة قد قطعت حجتهم بأجمع بيان وأحكمه.

قال ابن كثير: قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ. يعنى بل الله أعلم، وقد أخبر أنهم لم يكونوا هودًا ولا نصارى كما قال تعالى: مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. (آل عمران : ٦٧)

وقوله: ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ؟

قال الحسن البصرى: كانوا يقرأون فى كتاب الله الذى أتاهم، أن الدين الإسلام، وأن محمدًا رسول الله، وأن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا براء من اليهودية والنصرانية، فشهد الله بذلك وأقروا على أنفسهم لله، فكتموا شهادة الله عندهم من ذلك (٣٢٠).

ويجوز أن تكون الشهادة التى عندهم من الله، هى أوصافه صلى الله عليه وسلم المكتوبة عندهم فى التوراة والإنجيل وقد عرفوا ذلك ولم يقروا به.

قال تعالى: الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ . (الأعراف : ١٥٧)

وقد آمن بالنبى صلى الله عليه وسلم فريق من أهل الكتاب وأخبر بما فى كتبهم من ذكره بصفته وعلاماته.

«وكان منهم من لا ينكر أن يكون قد ذكر فى الكتابين ولكنه يكابر ويقول: المقصود نبى لم يأت بعد، وقد تصدى لجميع هذه البشائر من كتابى التوراة والإنجيل طائفة من أهل البحث والعلم فى القديم والحديث، وبينوا وجه انطباقها على حال النبى صلى الله عليه وسلم بحيث لا تأخذ الناظر الطالب للحق ريبة فى أنه الرسول الذى بشرت الأنبياء بمبعثه وعموم رسالته، ومن هذه البشائر ما جاء فى سفر التثنية من التوراة: (أقيم لهم من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به) ».

«والنبى المماثل لموسى عليه السلام فى الرسالة والشريعة المستأنفة هو النبى محمد صلى الله عليه وسلم وإخوة بنى إسرائيل هم العرب، لأنهم يجتمعون فى إبراهيم عليه السلام، وقوله (وأجعل كلامى فى فمه) يوافق حال النبى صلى الله عليه وسلم من الأمية وعدم تعاطى الكتابة» [٣٢١].

وفى ختام الآية يقول سبحانه:

وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ. وفيه تهديد ووعيد شديد، أى علمه محيط بعملكم وسيجزيكم عليه.

١٤١ - تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ. الأمة المشار إليها فى الآية: إبراهيم وأبناؤه الرسل، ومعنى الآية:

أن أمامكم دينا دعيتم إلى اتباعه، واقترنت دعوته بالحجة الواضحة، فانظروا فى دلائل صحته وسمو حكمته ولا تردوه بمجرد دعوى: أن آباءكم السابقين كانوا على ما أنتم عليه الآن. دعواكم هذه لا تفيد «ولو فرضنا تسليمها لكم، فإن الشرائع تختلف باختلاف الأمم، فتلك أمة مضت لها عملها وفق شريعتها وهذه أمة أخرى لها عملها حسب شريعتها ولا تسألون عن أعمال آبائكم وشريعتهم بل عن أعمالكم أنتم، وفق شريعتكم التى شرعها الله لكم وهى الإسلام، فلا تتمسكوا بشريعة كانت لمن قبلكم، بل تمسكوا بشريعة الإسلام التى نسختها، وقام الدليل على صحتها وقد تعبدكم الله بها» [٣٢٢].

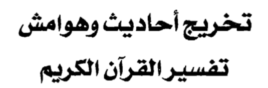
وقد تكررت هذه الآية للمبالغة فى تحذير أهل الكتاب من تركهم لدين الإسلام الذى كلفوا به، وادعائهم أنهم على دين آبائهم الأنبياء.

وإلى هنا تكون الآيات الكريمة قد دحضت ما ادعاه اليهود من أن الهدى فى اتباع ملتهم، وأقامت الحجة على كذبهم وافترائهم، وأرشدتهم إلى الدين الحق. ودعتهم إلى الدخول فيه، ووبختهم على المحاجة فى دين الله بغير علم، وحذرتهم من الانحراف عن الصراط المستقيم اعتمادًا منهم على آباء لهم كانوا أنبياء أو صالحين فإنه لن تجزى نفس عن نفس شيئًا يوم الدين.

★ ★ ★

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

تم الجزء الأول و يليه الجزء الثانى إن شاء الله، اتحدث فى بدايته عن قصة تحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام .



تخريج أحاديث وهوامش تفسير القرآن الكريم

(الجــزء الأوّل)

خرّج أحاديثه

الأستاذ

كمال سعيد فهمي

(١) الا إنها ستكن فتنة ... كتاب الله فيه نبأ ما كان قبلكم ٥.

رواه الترمذى فى فضائل القرآن (٢٩٠٦) ، والدارمى فى فضائل القرآن (٣٣٣١) ، وأحمد (٧٠١) من حديث على بن ابى طالب . قال الترمذى: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده مجهول وفى الحارث مقال . قال السيوطى فى «الدر» : وأخرج ابن ابى شيبة والدارمى والترمذى وضعفه وابن جرير وابن أبى حاتم وابن الأنبارى فى المصاحف وابن مردويه والبيهقى فى شعب الإيمان عن على .. فذكره. قلت : وذكره الفتنى فى تذكرة الموضوعات وقال : موضوع.

(٢) كان خلقه القرآن ٥ .

رواه مسلم فى أثناء حديث طويل من كتاب صلاة المسافرين ح ١٢٣٣ ، وأحمد مختصراً ح ٢٣٤٦٠، ٢٤١٣٩، ٢٤٦٢٩.

(٣) قسمت الصلاة بينى وبين عبدى ١٣.

رواه مسلم فى الصلاة (٣٩٥)، والترمذى فى تفسير القرآن (٢٩٥٣) ، والنسائى فى الافتتاح (٩٠٩) ، وأبو داود فى الصلاة (٩٩٩)، وابن ماجه فى الأدب (٣٧٨٤)، وأحمد (٧٢٤٩، ٧٧٧٧، ٩٦١٦)، ومالك فى النداء (١٨٩) من حديث أبى هريرة . وصححه الترمذى.

(٤) حاشية الجمل على تفسير الجلالين ٦١٧/٤.

(٥) ج ٤ ص ٦١٨.

(٦) ليس الإيمان بالتمنى ، ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل. ١٨

ذكره السيوطى فى الجامع الصغير (٧٥٧٠) وعزاه لابن النجار والديلمى فى مسند الفردوس عن أنس. وقال السيوطى فى « الدر المنثور»: وأخرج ابن أبى شيبة عن الحسن قال : إن الإيمان ليس بالتحلى ولا بالتمني، إن الإيمان ما وقر فى القلب وصدَّقه العمل . فذكره هكذا موقوفاً.

(٧) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ١ / ٢٢ بتصرف.

(٨) يمتد من آية البر رقم ١٧٧ إلى الآية ٢٨٦ فى آخر السورة فنلحظ أن الآيات من ١ - ١١٦ معظمها يتحدث عن اليهود، وأن الآيات من ١١٧ - ٢٨٦ معظمها يتجه إلى بيان التشريعات للمسلمين.

(٩) د. عبد الله شحاتة أهداف كل سورة ومقاصدها فى القرآن الكريم: ١٤.

(١٠) سورة السجدة : ١، ٢ . وانظر عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير اختصار وتحقيق بقلم أحمد محمد شاكر ١ - ٩٥.

(١١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم تأليف لجنة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الحزب الأول : ٢٩.

(١٢) تفسير المنار للسيد محمد رشيد رضا.

(١٣) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ٩٧/١.

(١٤) نعم قوم من بعدكم يؤمنون بى ولم يرونى ٢٨.

رواه أحمد فى مسنده حديث رقم (١٦٥٢٨، ١٦٥٢٩) ، والدارمى فى الرقاق (٢٧٤٤) من حديث أبى جمعة.

(١٥) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ٩٩/١.

(١٦) عمدة التفسير عن ابن كثير ١٠٠/١.

(١٧) عمدة التفسير عن ابن كثير بتصرف ١٢٢/١.

(١٨) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ١٠٢/١ وفيه أيضاً وجملة (لا يؤمنون) خبر إن تقديره إن الذين كفروا لا يؤمنون وقوله : (سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم) جملة معترضة ا هـ. ويجوز أن تكون جملة (لا يؤمنون) مؤكدة للتى قبلها : (سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم) أى هم كفار فى كلا الحالين فلهذا أكد ذلك بقوله : (لا يؤمنون).

(١٩) تفسير القاسمى : ٤١/٢.

(٢٠) تفسير القاسمى ٤١/٢ ويشير السياق إلى الآية الخامسة من سورة فصلت وهى (وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون) وقد رفض ابن كثير فى تفسيره هذه الوجوه كلها وقال: إن الله إنما حال بينهم وبين الإيمان جزاء وفاقا على تماديهم فى الباطل وتركهم الحق.

(٢١) أى عاتب نفسه وندم على ما فعل.

(٢٢) أى عاد نظيفاً كالمرآة التى يمسح ما عليها من غبار .

(٢٣) إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء ٢٠.
رواه الترمذى فى تفسير القرآن (٣٣٣٤) ، وابن ماجه فى الزهد (٤٢٤٤) ، وأحمد فى مسنده رقم (٧٨٩٢) من حديث أبى هريرة.

(٢٤) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير تعليق أحمد شاكر ١٠٣/١ وقد أفاض الغزالى فى هذا المعنى فى شرح عجائب القلب وذكر أن الذنوب والمعاصى تظلم القلب وأن التوبة والندم يطردان الخبث عنه فيعود إليه الصفاء.

(٢٥) التفسير الحديث : السور مرتبة حسب النزول للأستاذ محمد عزة دروزة الجزء السابع ص ١٥٩ دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبى وشركاه.

(٢٦) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ١٠٤/١ ، ١٠٥.

(٢٧) أهداف كل سورة ومقاصدها فى القرآن الكريم د. عبد الله شحاتة ص ١٢.

(٢٨) تفسير المراغى ٥٠/١ وهو اختصار لما ورد فى تفسير المنار ١٤٩/١ من غير تصريح بذلك .

(٢٩) وقد ورد هذا المعنى فى التفسير الحديث ، وفى ظلال القرآن وفى كثير من كتب التفسير.

(٣٠) تفسير المنار ١٤٩/١.

(٣١) تفسير المنار ١٤٩/١ والتفسير الوسيط الحزب الأول ص ٣٥.

(٣٢) تفسير المنار والتفسير والوسيط ٣٥/١.

(٣٣) ذكر القاسمى أن النبى لم يكن يعلم أعيان المنافقين وإنما كان يعرف صفاتهم العامة واستشهد بآيات القرآن الكريم مثل قوله تعالى -: (وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم) سورة التوبة : ١٠١.

(٣٤) تفسير القاسمى ٣٥/٢ وفيه أن قلب المؤمن سليم من العلة قال - تعالى - : (إلا من أتى الله بقلب سليم) سورة الشعراء : ٨٩.

(٣٥) تفسير المنار نقلاً عن الشيخ محمد عبده ١٥٦/١.

(٣٦) التفسير الحديث للأستاذ محمد عزة دروزة ١٦٠/٧.

(٣٧) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ١٠٨/٢.

(٣٨) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ١١٠/١.

(٣٩) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ٤٨/١.

(٤٠) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير : ١١٠/١.

(٤١) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب : ٤٩/١.

(٤٢) من أمثلة القرآن : الأمثال الكامنة والأمثال المرسلة ومثال الكامنة قوله تعالى « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط » سورة الإسراء : ٢٩.
فإنه فى معنى خير الأمور أوسطها ، ومثال المرسلة : (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم) سورة البقرة : ٢١٦ . (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) سورة الرحمن : ٦٠.

(٤٣) الصيب : المطر الشديد الانهمار.

(٤٤) وقد ذكر الله المثلين : المائى والنارى - فى سورة الرعد للحق والباطل - فقال تعالى : (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ، فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله ، كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال) الرعد : ١٧ - شبه الوحى الذى أنزله من السماء لحياة القلوب بالماء الذى أنزله لحياة الأرض بالنبات ، وشبه القلوب بالأودية ، والسيل إذا جرى فى الأودية احتمل زبدا وغثاء فكذلك الهدى والعلم إذا سرى فى القلوب أثار ما فيها من الشهوات ليذهب بها ، وهذا هو المثل المائى فى قوله تعالى (أنزل من السماء ماء ..) وهكذا يضرب الله الحق والباطل.
وذكر النارى فى قوله : (ومما يوقدون عليه فى النار) فالمعادن من ذهب أو فضة أو نحاس أو حديد ، عند سبكها تخرج النار ما فيها من الخبث وتفصله عن الجوهر الذى ينتفع به ، فيذهب جفاء ، فكذلك الشهوات يطرحها قلب المؤمن ويجفوها كما يطرح السيل والنار ذلك الزبد وهذا الخبث .. . ا هـ نقلاً من علوم التفسير دكتور عبد الله شحاتة .. ص ٢٥.

(٤٥) تفسير القاسمى : ٥٨/٢ ، التفسير الوسيط ٤٨/١.

(٤٦) التفسير الحديث : ١٦٨/٧ بتصرف .

(٤٧) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير : ١١٢/١، بتصرف .

(٤٨) فى ظلال القرآن : ٥٠/١ وقد أشار فى الهامش قائلاً : (يراجع فصل : التخييل الحسى والتجسيم فى كتاب التصوير الفنى فى القرآن).

(٤٩) تفسير القاسمى، وقد عقب القاسمى على هذا الكلام بقوله – أفاده الزمخشرى – أى أنه استفاد هذا المعنى من تفسير الزمخشرى.

(٥٠) رواه الإمام أحمد والترمذى : ٣٧/٤ – ٣٨ عن محمد بن إسماعيل وهو البخارى ثم رواه أيضاً عن طريق الطيالسى وقال الترمذى : (حديث حسن صحيح غريب) ا هـ نقلاً عن عمدة التفسير للحافظ ابن كثير تحقيق شاكر : ١١٧/١ .

(٥١) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير : ١١٧/١.

(٥٢) عمدة التفسير عن ابن كثير : ١٢٠/١.

(٥٣) ما من الأنبياء نبى إلا قد أعطى من الآيات ما مثله ٤٠.
رواه البخارى فى فضائل القرآن (٤٩٨١) ، وفى الاعتصام (٧٢٧٤)، ومسلم فى الإيمان (١٥٢) ، وأحمد فى مسنده حديث رقم (٩٥١٨).

(٥٤) تفسير مقاتل بن سليمان البلخى تحقيق دكتور عبد الله شحاتة : ٢٧/١.

(٥٥) تفسير القاسمى .

(٥٦) قال تعالى (ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء * تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون * ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار * يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء) سورة إبراهيم ٢٤ – ٢٧.

(٥٧) علوم التفسير للدكتور عبد الله شحاتة : ٢٤٨ : نقلاً عن الإتقان للسيوطى : ١٣١/٢ ، وانظر تاريخ التفسير للشيخ قاسم القيسى مطبعة العلمى بالعراق : ٩٩ وفيه نص كلام السيوطى.

(٥٨) تفسير القاسمى : ٨٨/٢ وقد استفاد القاسمى هذه المعانى من تفسير الكشاف وعقب عليها بقوله : أفاده الزمخشرى.

(٥٩) تفسير مقاتل بن سليمان تحقيق دكتور عبد الله شحاتة: ٢٨/١ مطبعة المدنى بالقاهرة .

(٦٠) عمدة التفسير عن ابن كثير والنص طويل هناك ومحقق ومصحح من تفسير الطبرانى : ٥٦٧/١.

(٦١) انظر تفسير الآيات فى الطبرى وابن كثير والخازن.

(٦٢) التفسير الحديث للأستاذ محمد عزة دروزة : ١٧٤/٧ ، بتصرف يسير .

(٦٣) تفسير مقاتل بن سليمان ، مطبعة المدنى : ٢٨/١.

(٦٤) مر بك قول مقاتل بن سليمان أيضاً ، ومقاتل بن حيان مفسر ومقاتل بن سليمان مفسر آخر .

(٦٥) العمدة فى التفسير عن الحافظ ابن كثير : ١٢٦/١ تحقيق أحمد شاكر مطابع دار المعارف ١٩٥٦.

(٦٦) فى ظلال القرآن ٣٨/١ باختصار .

(٦٧) تفسير النسفى : ٣٨/١.

(٦٨) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير : ١٢٧/١.

(٦٩) التفسير الحديث للأستاذ محمد عزة دروزة : ١٩٧٢/٧.

(٧٠) التفسير الواضح للأستاذ محمد محمود حجازى : ٢٦/١.

(٧١) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب : ٥٦/١.

(٧٢) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ٦٥/١.

(٧٣) تفسير القاسمى : ٩٥/٢.

(٧٤) المرجع السابق .

(٧٥) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب : ٦٥/١ والمعنى وارد فى عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير : ١٢٩/١ وانظر القاسمى : ٩٥/٢ والتفسير الوسيط : ٢٧١ والتفسير القرآنى : ٥٨/١ وتفسير مقاتل بن سليمان مؤسسة الحلبى : ٢٩/١ وتفسير المنار : ٢٦٠/١.

(٧٦) عبد الكريم الخطيب التفسير القرآني : ٥٢/١ - ٥٣.

(٧٧) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير : ١٣١/١ ، وقد روى حديث البخاري فى التفسير من صحيحه أن الناس تستشفع بآدم يوم القيامة فتقول له لقد علمك الله أسماء كل شيء فاشفع لنا عند الله .

(٧٨) تفسير القاسمى وقد نقله صاحب التفسير الوسيط .

(٧٩) عبد الكريم الخطيب ، التفسير القرآني للقرآن حيث استعرض آيات القرآن ومنها الآية ٣١ الحجر ، والآية ٥ الكهف ، ثم قال: وعلى هذا نستطيع أن نقول إن إبليس كان من الملائكة ٥٧/١ المجلد ١.

(٨٠) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب : ٦٧/١.

(٨١) تفسير المنار ٢٨١/١ الطبعة الرابعة فى سنة ١٣٧٣ هـ أصدرتها دار المنار ، وقد اختصر هذا الكلام الأستاذ أحمد مصطفى المراغى واستعنت به أيضاً . انظر تفسير المراغى : ٩٤/١.

(٨٢) تفسير المنار ٢٧٤/١ وقد تعقبه السيد رشيد بقوله : وأقول الآن : إن توبة آدم بناء علي تفسير القصة بحمل الكلام على الحقيقة قد كانت بالرجوع إلى الله ، واعترافه مع حواء بظلمهما لأنفسهما ، وطلبهما المغفرة والرحمة منه تعالى ، لا بمجرد تدبر العقل .

(٨٣) عرض تفسير المنار مجمل هذه الآيات فى صفحة ٢٧٦ من الجزء الأول ، كما عرضها تفسير المراغى للأستاذ أحمد مصطفى المراغى ٨٩/١ وقد استفدت منهما فى معظم ما كتبته هنا.

(٨٤) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ١٣٥/١ ثم قال: وسيأتى تقرير، ذلك فى سورة الأعراف إن شاء الله تعالى.

(٨٥) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير : ١٣٥/١.

(٨٦) عبد الكريم الخطيب التفسير القرآنى للقرآن ٧١/١.

(٨٧) فى ظلال القرآن .

(٨٨) التفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ٨١/١.

(٨٩) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ١٣٦/١.

(٩٠) خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ٥٦.
رواه مالك فى الموطأ كتاب النداء للصلاة (٢٤٣) ومسلم فى الجمعة (٨٥٤) وأبو داود فى الصلاة (١٠٤٦) والترمذى فى الجمعة (٤٨٨، ٤٩١) والنسائى فى الجمعة (١٣٧٣) (٨٩٥٤، ٢٧٦٠) من حديث أبى هريرة.

(٩١) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ١٣٦/١ . والآية من سورة الأعراف : ٢٣.

(٩٢) علق الشيخ أحمد محمد شاكر بقوله : هذا الحديث ذكره ابن كثير من رواية ضعيفة من روايات السدى بنحو هذا ثم نسبه للحاكم فحررت لفظه من رواية الحاكم فى المستدرك بشيء من الاختصار. وقد وافقه الذهبى على تصحيحه . ا هـ. وفى تفسير مقاتل بن سليمان (فتلقى آدم من ربه كلمات) بعد ما هبط إلى الأرض يوم الجمعة يعنى بالكلمات : أى قال : رب أكان هذا شيء كنت قدرته على قبل أن تخلقنى فسبق لى به الكتاب أنى عامله وسبقت لى منك الرحمة حين خلقتنى ؟ قال : نعم يا آدم . قال : يارب خلقتنى بيدك فسويتنى ونفخت فى من روحك فعطست فحمدت فدعوت لى برحمتك فسبقت رحمتك إلى غضبك . قال : نعم يا آدم . قال : أخرجتنى من الجنة ، وأنزلتنى الأرض يارب إن تبت وأصلحت ترجعنى إلى الجنة ؟ قال الله عز وجل له : نعم يا آدم . فتاب آدم وحواء يوم الجمعة فعند ذلك قالا : (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) اهـ تفسير مقاتل : ٣٢/١ تحقيق الدكتور عبد الله شحاتة مطبعة المدنى بالقاهرة ١٩٦٩.

(٩٣) ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ٧٢/١.

(٩٤) تفسير القاسمى ١١١/٢ وهو فى التفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث مع تغيير يسير .

(٩٥) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير : ١٣٧/١.

(٩٦) المرجع السابق .

(٩٧) فى ظلال القرآن : ٦٩/١.

(٩٨) فى ظلال القرآن : ٧٢/١.

(٩٩) المرجع السابق ٧٣/١.

(١٠٠) التفسير الحديث للأستاذ محمد عزة دروزه بتصرف ١٨٣/٧ .

(١٠١) ابن سعد : ج٣ ص ١٣٤ .

(١٠٢) التفسير الحديث (السورة مرتبة حسب النزول) للأستاذ محمد عزة دروزة ١٨٦/٧ .

(١٠٣) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب : ٨٠/١.

(١٠٤) المرجع السابق.

(١٠٥) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ١٣٨/١ وقد نقلها مختصرة القاسمى فى تفسيره .

(١٠٦) نقلاً عن تفسير القاسمى ١١٤/٢ ، وقد ورد هذا على لسان مجاهد وعلى لسان أبى العالية فى تفسير ابن كثير.

(١٠٧) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ١٣٨/١.

(١٠٨) المرجع السابق .

(١٠٩) ورد هذا المعنى فى الآية ١٢ من سورة المائدة وفيها (ولئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار).

(١١٠) فى ظلال القرآن : ١٨/١ .

(١١١) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ١٣٨/١.

(١١٢) المرجع السابق .

(١١٣) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير : ١٣٨/١.

(١١٤) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ١٣٩/١ . وقال أحمد شاكر : طلق بن حبيب العترى : تابعى ثقة كان من أعبد أهل زمانه مترجم فى التهذيب ، وترجمه أبو نعيم فى الحلية ٣: ٦٣ - ٦٦.

(١١٥) فى ظلال القرآن : ٨٢/١.

(١١٦) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير : ١٤٠/١.

(١١٧) تفسير المراغى للأستاذ أحمد مصطفى المراغى : ١٠٣/١ مع تصرف واختصار.

(١١٨) نقلاً عن تفسير القاسمى : ١١٧/٢ ، وفى تفسير القاسمى : (وإبلاغا إليهم فى المقدرة) وقد صوبتها إلى (المعذرة).

(١١٩) تفسير مقاتل بن سليمان : ٣٤/١ مطبعة المدنى . وانظُر تفسير الآيات فى الطبرى والخازن والبغوى وعمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير.

(١٢٠) التفسير الحديث : ١٨٤/٧ وعمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير : ١٤١/١.

(١٢١) التفسير الحديث : ١٨٤/٧ وعمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير : ١٤١/١.

(١٢٢) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير : ١٤٠/١.

(١٢٣) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير : ١٤١/١.

(١٢٤) المرجع السابق .

(١٢٥) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير .

(١٢٦) إذا حزبه أمر صلى ٦٥.
رواه أبو داود فى الصلاة (١٣٩١)، وأحمد فى مسنده حديث رقم (٢٢٧٨٨) من حديث حذيفة.

(١٢٧) عمدة التفسير وقد علق الشيخ أحمد شاكر عليه بقوله : هو فى الطبرى : ٨٥٢ وإسناده صحيح.

(١٢٨) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير : ١٤٥/١.

(١٢٩) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ١٤٧/١.

(١٣٠) تفسير المراغى ١١٠/١ الطبعة الثالثة . مصطفى البابى الحلبى .

(١٣١) تفسير القاسمى نقلاً عن الانتصاف على تفسير الكشاف .

(١٣٢) قال بمثل هذا شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره ولم يعدوه تأويلاً . انظر حاشية المنار : ٣٠٨/١.

(١٣٣) تفسير المنار نقلاً عن الإمام محمد عبده ٣٠٨/١ ، وقد نقل هذا الكلام الأستاذ أحمد مصطفى المراغى فى تفسير المراغى بعد اختصاره ولم يشر إلى مراجعه.

(١٣٤) الآية الكريمة معطوفة على قوله تعالى (اذكروا نعمتى) فى الآية السابقة من باب عطف المفصل على المجمل ، أى اذكروا نعمتى واذكروا إذ نجيناكم من آل فرعون .

(١٣٥) تفسير المراغى : ١١٣/١.

(١٣٦) تفسير فخر الدين الرازى : ٣٦٠/١.

(١٣٧) تفسير فخر الرازى : ٣٥٨/١.

(١٣٨) الواو هنا للعطف ، وفى الآية التى نفسرها جملة (يذبحون أبناءكم) مفسر لما قبلها ولهذا جاءت بدون حرف عطف .

(١٣٩) أى كنى موسى البحر.

(١٤٠) تفسير القرطبى ١ / ٣٩٠ بتصرف واختصار.

(١٤١) أنتم أحق بموسى منهم ٧٣.

رواه البخارى فى الصوم (٢٠٠٤) وفى تفسير القرآن (٤٧٣٧)، ومسلم فى الصيام (١١٣٠) ، وأبو داود فى الصيام (٢٤٤٤)، وابن ماجه فى الصيام (١٧٣٤) والدارمى فى الصيام (١٧٥٩)، وأحمد فى مسنده حديث رقم (٢٦٣٩و ٢٨٢٧، ٣١٠٢، ٣١٥٤) من حديث ابن عباس.

(١٤٢) صيام يوم عاشوراء أحتسب على الله ٧٤.

رواه مسلم فى الصيام (١١٢٦) فى أثناء حديث طويل عن أبى قتادة ، والترمذى فى الصوم (٧٥٢) مختصراً، وابن ماجه فى الصيام (١٧٣٨) وقال الترمذى: لا نعلم فى شىء من الروايات أنه قال صيام يوم عاشوراء كفارة سنة إلا فى حديث أبى قتادة وبحديث أبى قتادة يقول أحمد وإسحاق.

(١٤٣) تفسير المراغى: ١ / ١٢٠، مطبعة مصطفى الحلبى.

(١٤٤) أى أذلوا أنفسكم وامتنعوا عن التكبر والتجبر وتواضعوا لأمر الله.

(١٤٥) الشفار: السلاح.

(١٤٦) تفسير الكشاف: ١ / ٢٨١، وفيه فإن قلت: ما الفرق بين الفاءات؟

قلت: الأولى للتسبيب لا غير لأن الظلم سبب التوبة، والثانية للتعقيب لأن المعنى فاعزموا على التوبة فاقتلوا أنفسكم.

(١٤٧) انظر تفسير ابن كثير: ١ / ٩٤.

(١٤٨) تفسير المراغى: ١ / ١٢١.

(١٤٩) تفسير ابن جرير الطبرى: ١ / ٢٩٨.

(١٥٠) الميزان فى تفسير القرآن للعلامة السيد محمد حسين الطباطبائى: ١ / ١٩١ منشورات مؤسسة الأعلمى للمطبوعات، بيروت لبنان، الطبعة الثالثة ١٩٧٣م.

(١٥١) انظر تفسير ابن كثير: ١ / ٩٧.

(١٥٢) انظر تفسير الكشاف للزمخشرى.

(١٥٣) تفسير ابن جرير الطبرى ١ / ٢٩٨.

(١٥٤) تفسير ابن جرير الطبرى ١ / ٢٠٢.

(١٥٥) تائبون آيبون ٨١.

رواه البخارى فى الحج (١٧٩٧) ، وفى الجهاد (٢٩٩٥، ٣٠٤٨)، وفى المغازى (٤١١٦) وفى الدعوات (٦٣٨٥)، ومسلم فى الحج (١٣٤٢، ١٣٤٤) والترمذى فى الحج (٩٥٠)، وفى الدعوات (٣٤٤٧) وأبو داود فى الجهاد (٢٥٩٩، ٢٧٧٠) وأحمد ٤٨٨٢، ٤٩٤٠، ٥٢٧٣، ٥٧٩٦، ٦٢٧٥، ٦٣٣٨) مالك فى الحج (٩٦٠) والدارمى فى الاستئذان (٢٦٨٢) من حديث ابن عمر. ورواه البخارى فى الجهاد (٣٠٥٨، ٣٠٦٨) وفى اللباس (٥٩٦٨) وفى الأدب (٦١٨٥) ومسلم فى الحج (١٣٤٥) وأحمد (١٢٥٣٥، ١٢٥٥٧) من حديث أنس . ورواه الترمذى فى الحج (٣٤٤٠) وأحمد (١٨٠٠٨، ١٨٠٧٥، ١٨١٥٨، ١٨١٨٣) من حديث البراء بن عازب. ورواه أحمد فى مسنده حديث رقم (٢٣١١) من حديث ابن عباس.

(١٥٦) قيل لبنى إسرائيل (ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة) فبدلوا ٨١.
رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٤٠٣) وفى التفسير (٤٤٧٩، ٤٦٤١) ومسلم فى التفسير (٣٠١٥) والترمذى فى التفسير (٩٩٩٦) وأحمد (٢٧٤٤٩) من حديث أبى هريرة.

(١٥٧) تفسير ابن كثير: ١ / ٩٩.

(١٥٨) تفسير المراغى: ١ / ١٢٦، وانظر فى وصف الحجر تفسير الكشاف: ١/ ٢٨٤ حيث ذكر أن الحجر كان من رخام وقيل مثل رأس الإنسان وقيل إن طوله عشرة أذرع على طول موسى وله شعبتان تتقدان فى الظلمة وكان يحمل على حمار، ونرى أن هذا الوصف تزيد من الإسرائيليات.

(١٥٩) تفسير ابن كثير: ١ / ١٠١.

(١٦٠) تفسير البيضاوى: ١ / ٢٦.

(١٦١) تفسير الطبرى: ١ / ١٠١ .

(١٦٢) تفسير ابن كثير: ١ / ١٠١.

(١٦٣) تفسير الطبرى: ١ / ٣١٥ .

(١٦٤) تفسير أبى حيان: ١ / ٢٣٣.

(١٦٥) تفسير الطبرى: ١ / ٣١٥ .

(١٦٦) تفسير البيضاوى: ١ / ٢٧ .

(١٦٧) تفسير البيضاوى: ١ / ٢٧.

(١٦٨) تفسير البيضاوى: ١ / ٢٧.

(١٦٩) تفسير البيضاوى: ١ / ٢٧.

(١٧٠) تفسير البيضاوى.

(١٧١) انظر تفسير ابن كثير وتفسير الكشاف للزمخشرى.

(١٧٢) التفسير الوسيط تأليف لجنة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الاسلامية بالأزهر، الحزب الأول ص ١٢٣.

(١٧٣) انظر الآيات ١٦٣ – ١٦٦ من سورة الأعراف وفى أولها يقول تعالى: (وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) الأعراف ١٦٣.

(١٧٤) تفسير المراغى: ١ / ١٣٩.

(١٧٥) انظر عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير تحقيق أحمد محمد شاكر: ١ / ١٦٢ ومختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد على الصابونى: ١/ ٧٤، وقد ذهب الشيخ أحمد مصطفى المراغى فى تفسير المراغى: ١ / ١٤٠. إلى أن ابن كثير قال: والصحيح أن المسخ معنوى كما قال مجاهد لا صورى كما قال غيره. وعبارة المراغى غير دقيقة كما ترى.

(١٧٦) أخرجه الإمام أبو عبد الله بن بطة وفى سنده (أحمد بن محمد بن مسلم) وثقه الحافظ البغدادى وباقى رجاله مشهورون على شرط الصحيح ا هـ مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد على الصابونى: ١ / ٧٥

(١٧٧) رواه ابن أبى حاتم وابن جرير عن عبيدة السلمانى . ا هـ مختصر تفسير ابن كثير اختصار محمد على الصابونى: ١ / ٧٦. وانظر تفسيرأبو حيان وابن جرير الطبرى وفيهما النص أيضاء.

(١٧٨) وموضوع قصة البقرة موجود فى التوراة فى الإصحاح الحادى والعشرين من سفر التثنية، وطريقة التبرئة فيها أن يذبحوا عجلة وأن يأتى كل منهم ويغسل يديه على جسمها ويتبرأ من التهمة، فإن كان بريئا سلم، وإلا أصابه الله بعقوبة الكذب.

(١٧٩) نشرت إحدى المجلات الهابطة صورة لرجل وامرأة تلاقت أرجلهما، وكتبت تحت الصورة (والتفت الساق بالساق). وهذا من الهزء بآيات الله، ولا ينبغى لمؤمن أن يفعله.

(١٨٠) مجلة لواء الاسلام: العدد السابع السنة الثانية ص ٨.

(١٨١) (ما) يسأل بها عن الحقيقة، ويسأل بها أيضا عن الصفة، تقول مازيد؟ فيقال عالم أو طبيب.

(١٨٢) تفسير الطبرى: ١ / ٢٣٥.

(١٨٣) خاصة إذا انضم إليها الصحة والشباب والحيوية وتناسق اللون ووضوحه.

(١٨٤) أخرجه ابن أبى حاتم عن أبى هريرة مرفوعا موصولا وابن جرير عن ابن عباس مرفوعا معضلا وغيرهما.

(١٨٥) تفسير التحرير والتنوير: ١ / ٥٣٢.

(١٨٦) تفسير ابن جرير الطبرى: ١ / ٣٥٨.

(١٨٧) انظر تفسير الكشاف للزمخشرى: ١ / ٢٨٨.

(١٨٨) تفسير الكشاف: ١ /٢٨٩. وفيه أنهم طلبوا البقرة الموصوفة ٤٠ سنة، ومثل هذه الأخبار لم ترد عن المعصوم صلى الله عليه وسلم ومردها إلى الإسرائيليات التى لا يعلم صدقها من كذبها فنحن نتوقف عن قبولها أو رفضها وحسبنا ما ورد فى القرآن الكريم عن البقرة والعظة فى القصة لا تتوقف على ما أورده الزمخشرى منقولا عن الإسرائيليات.

(١٨٩) ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم ٩٥.
رواه البخارى فى الاعتصام (٧٢٢٨) ، ومسلم فى الفضائل (١٣٣٧) ، والترمذى فى العلم (٢٦٧٩) والنسائى فى المناسك (٢٦١٩) وابن ماجه فى المقدمة (٢) وأحمد (٧٣٢٠) من حديث أبى هريرة.

(١٩٠) « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الأغلوطات ٩٥ .
أخرجه أبو داود فى العلم (٣٦٦٥) وأحمد (٢٣١٧٦) من حديث معاوية . ورواه أحمد فى مسنده حديث رقم (٢٣١٧٥) عن رجل من أصحاب النبى . تنبيه ذكروه بلفظ (الغلوطات) . قال المناوى فى الفيض . وفيه : عبد الله بن سعد قال أبو حاتم مجهول قال: ابن القطان صدق أبو حاتم لو لم يقله لقلناه وذكره الساجى فى ضعفاء الشام.

(١٩١) تفسير التحرير والتنوير: ١ / ٥٢٩.

(١٩٢) تفسير الكشاف لأبى القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشرى المولود سنة ٤٦٧ والمتوفى ٥٣٨ هـ: ١ / ٢٩٠.

(١٩٣) يشير إلى ما جاء فى الفصل الحادى والعشرين من سفر تثنية الاشتراع:
(إذا وجد قتيل فى الأرض التى يعطيك الرب إلهك لتمتلكها واقعا فى الحقل لا يعلم من قتله يخرج شيوخك وقضاتك ويقيسون إلى المدن التى حول القتيل فالمدينة القريبة من القتيل، يأخذ شيوخ تلك المدينة عجلة من البقر لم يحرث عليها وينحدر شيوخ تلك المدينة بالعجلة إلى واد دائم السيلان لم يحرث فيه ولم يزرع ويكسرون عنق العجلة فى الوادى.

ويتسل جميع شيوخ تلك المدينة القريبين من القتيل أيديهم على العجلة المكسورة العنق فى الوادى ويصرخون ويقولون أيدينا لم تسفك هذا الدم وأعيننا لم تبصر اغفر لشعبك إسرائيل الذى فديت يا رب ولا تجعل دم برئ فى وسط شعبك إسرائيل فيغفر لهم الدم) ا هـ عن الميزان فى تفسير القرآن للعلامة محمد حسين الطباطبائى: ط ٣ بيروت لبنان: ١ / ٢٠٠.

وذبح العجلة فى هذه القصة يكون وسيلة لإظهار الجانى فمن ارتبك أو امتنع اتجه الشك إليه وحاصرناه بالأسئلة حتى نصل إلى الحقيقة. فالإحياء هنا معنوى على حد قوله تعالى: ولكم فى القصاص حياة. اى حفظ للدماء التى كانت عرضة لأن تسفك بسبب الخلاف فى قتل النفس، وعلى حد قوله سبحانه: ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا. (فالإحياء معناه الاستبقاء كما هو المعنى فى الآيتين) تفسير المنار: ١ / ١٥١.

(١٩٤) انظر تفسير الطبرى: ١ /٣٤٢.

(١٩٥) ناقش الأستاذ الشيخ محمود شلتوت أفكار الأستاذ الإمام فيما ذهب إليه من أن الإحياء حكمى لا حقيقى ونشر ذلك فى مجلة رسالة الإسلام، ثم جمع ذلك فى تفسير الأجزاء العشر الأولى من القرآن الكريم. ولم يكن ذلك المرجع معى وأنا أكتب هذا التفسير فى مدينة العين بدولة الإمارات العربية المتحدة.

(١٩٦) الميزان فى تفسير القرآن للطباطائى: ١ / ٢٠٢، وقد أيد ما ذهبت إليه.

(١٩٧) فى ظلال القرآن بقلم سيد قطب: ١ / ٨٣.

(١٩٨) تفسير سورة الفاتحة وسورة البقرة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة: ١ / ٣١.

(١٩٩) تفسير الكشاف: ١ / ٢٩١.

(٢٠٠) انقضتم العهد يا أخوة القردة والخنازير ١٠١ .
قال السيوطى فى الدر : وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال: قام النبى صلى الله عليه وسلم يوم

قريظة تحت حصونهم فقال : «يا إخوان القردة والخنازير ، ويا عبدة الطاغوت ، فقالوا : من أخبر هذا الأمر محمد ، ما خرج هذا الأمر إلا منكم ﴿أتحدثونهم بما فتح الله عليكم﴾ بما حكم الله ليكون لهم حجة عليكم».

(٢٠١) التفسير الوسيط تأليف لجنة من العلماء. بإشراف مجمع البحوث الاسلامية بالأزهر الشريف الحزب الثانى: ١ / ١١٨ .

(٢٠٢) مختصر ابن كثير تحقيق محمد على الصابونى: ١ / ٨٢.

(٢٠٣) مختصر ابن كثير: ١ / ٨٢.

(٢٠٤) أهديت للنبى شاة فيها سم – اجمعوا لى ما كان من اليهود هنا – ١٠٤ .
رواه البخارى فى الجزية والموادعة (٣١٦٩) ، وفى المغازى (٤٢٤٩) مختصرًا وفى الطب (٥٧٧٧) ، وأحمد (٢٧٢٣١) والدارمى فى المقدمة (٦٩) .

(٢٠٥) تفسير الفخر الرازى: ٣ / ١٤٣.

(٢٠٦) تفسير الفخر الرازى: ١ / ١٥٤.

(٢٠٧) إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء ١٠٥ .
تقدم ص ٣١ .

(٢٠٨) قل آمنت بالله ثم استقم ١٠٥.
رواه مسلم فى الإيمان (٣٨) والترمذى فى الزهد (٢٤١٠) وابن ماجه فى الفتن (٣٩٧٢) وأحمد فى مسنده حديث رقم (١٤٩٩١، ١٤٩٩٢، ١٤٩٩٣ ، ١٨٩٣٨) والدارمى فى الرقاق (٢٧١٠ ، ٢٧١١) من حديث سفيان بن عبد الله الثقفى . وقال الترمذى : حسن صحيح .

(٢٠٩) تفسير المنار : ١/٣٧٠.

(٢١٠) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير تحقيق أحمد شاكر ١ / ١٧٥.

(٢١١) رواه أحمد فى المسند بنحوه: ٤ / ٢٧٠، (حلبى). وكذلك رواه مسلم: ٢ / ٢٨٤. والبخارى بنحوه: ١ / ٣٦٧ (فتح) وذكره الطبرى فى تفسيره: ١٤٦٣. معلقا بغير إسناد . ا هـ نقلا عن تعليق أحمد شاكر.

(٢١٢) تفسير المنار: ١ / ٣٧٢.

(٢١٣) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير تحقيق أحمد شاكر: ١ /١٧٥. هامش.

(٢١٤) مجلة لواء الإسلام: العدد ١١ السنة الثانية.

(٢١٥) قال تعالى: (إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ) سورة المائدة: ٤٤ .

(٢١٦) اللهم أيد حسان بروح القدس كما نافح عن نبيك ١١١ .
رواه البخارى فى المناقب (٣٥٣١) وفى المغازى (٤١٤٥) وفى الأدب (٦١٥٠) ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٤٨٧، ٢٤٩٠) والترمذى فى الأدب (٢٨٤٦) وأبو داود فى الأدب (٥٠١٥) وأحمد فى مسنده حديث رقم (٢٣٩١٦) من حيث عائشة بنحوه .

(٢١٧) أجب عني، اللهم أيده بروح القدس ١١١.
رواه البخارى فى الصلاة (٤٥٣) وفى بدء الخلق (٣٢١٢) وفى الأدب (٦٢٥٢) ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٤٨٧) و النسائى فى المساجد (٧١٦) وأحمد فى مسنده حديث رقم (٧٥٨٨) من حديث سعيد بن المسيب .

(٢١٨) اهجهم وجبريل معك ١١١ .
رواه البخارى فى بدء الخلق (٣٢١٣) وفى المغازى (٤١٢٤) وفى الأدب (٦١٥٣) ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٤٨٥) وأحمد فى مسنده (١٨١٨٦، ١٨٢١٤ ، ١٨٢١٥) من حديث البراء.

(٢١٩) التفسير الوسيط تأليف لجنة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر: ٢ / ١٣٥.

(٢٢٠) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير تحقيق أحمد شاكر: ١ / ١٨٠، والنص فى تفسير الطبرى: ١٥٤٦.

(٢٢١) تفسير سورتى الفاتحة والبقرة د. محمد سيد طنطاوى ص ٢٥٥.

(٢٢٢) تفسير الكشاف: ١ / ٢٢٥.

(٢٢٣) تفسير الفخر الرازى: ١ / ٤٣٢.

(٢٢٤) فى سورة طه يقول سبحانه: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾ . طه: ٨٣ - ٨٩، كما ورد ذلك فى سورة الأعراف الآية ١٤٨ : ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ .

(٢٢٥) حبك الشىء يعمى ويصم ١١٨ .

رواه أبو داود فى الأدب (٥١٣٠) وأحمد (٢١١٨٦) من حديث أبى الدرداء . وذكره السيوطى فى الجامع الصغير ونسبه لأحمد فى مسنده والبخارى فى التاريخ وأبو داود عن أبى الدرداء، الخرائطى فى اعتلال القلوب عن أبى برزة ، وابن عساكر عن عبد الله بن أنيس . وقال المناوى فى الفيض : قال الحافظ العراقى : وإسناده ضعيف وقال الزركشى : روى من طرق فى كل منها مقال وقال المصنف فى الدرر كأصله الوقف أشبه، أشار بتعدد مخرجيه وطرقه إلى دفع زعم الصغانى وضعه وقوله فيه ابن أبى مريم كذوب أبطله الحافظ العراقى بأنه لم يتهمه أحد بكذب ويكفينا سكوت أبى داود فزعم وضعه بهت بل ولا نسلم حذفه بل ولا ضعفه بل هو حسن . قال الفتنى فى تذكرة الموضوعات : ابى داود ضعيف، قلت ذكره أبو الفرج والصغانى فى الموضوعات والقزوينى ذكره فى المصابيح فى المفاخرة وهو موضوع وفى المقاصد فيه بقية وتوابع وفيه ابن أبى مريم ضعيف سيما وقد وقف البعض عليه وقد بالغ الصغانى فحكم بوضعه ولهذا تعقبه العراقى قال وابن أبى مريم لم يتهم بكذب بل ولا شديد الضعف فهو حسن .

(٢٢٦) تفسير ابن جرير الطبرى: ١ / ٤٢٤.

(٢٢٧) عن كتاب النبأ العظيم نظرات جديدة فى القرآن الكريم للأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز من صفحة ١١٤ - ١٢٢ مع التلخيص والانتقاء.

(٢٢٨) تفسير الرازى: ١ / ٤٣٣.

(٢٢٩) لو تمنوا الموت لشرق أحدهم بريقه ١٢١ .

قال: السيوطى فى «الدر» : وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس .

(٢٣٠) لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ، ولرأوا مقاعدهم من النار ١٢١.

رواه أحمد فى مسنده حديث رقم (٢٢٢٦) من حديث ابن عباس . قال السيوطى فى الدر : وأخرج أحمد والبخارى ومسلم الترمذى والنسائى وابن مردويه وأبو نعيم عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ، ولرأوا مقاعدهم من النار» . وقال - السيوطى - : وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وأبو نعيم فى الدلائل عن ابن عباس قال : لو تمنى اليهود الموت لماتوا : قال الهيثمى فى المجمع : قلت هو فى الصحيح بغير سياقه ، رواه البزار ورجاله رجال الصحيح . وقال فى موضوع آخر : رواه أحمد، وأبو يعلى ، ورجال أبى يعلى رجال الصحيح . قلت : لم أره فى الصحيحين بهذا اللفظ.

(٢٣١) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير، اختصار وتعليق أحمد شاكر: ١ / ١٨٤.

(٢٣٢) تفسير سورتى الفاتحة والبقرة، د. محمد سيد طنطاوى: ص ٢٦٦.

(٢٣٣) تفسير الكشاف: ١ / ٢٩٨.

(٢٣٤) قال الزمخشرى:

والضمير فى (ما هو) لأحدهم و (أن يعمر) فاعل بمزحزحه، أى وما أحدهم بمن يزحزحه من النار تعميره، والزحزحة : من النار تعميره والزحزحة: التبعيد والإنجاء، فإن قلت يود أحدهم ما موقعه؟ قلت هو بيان لزيادة حرصهم: على طريق الاستئناف، فإن قلت: كيف اتصل لو يعمر، بيود أحدهم؟ قلت هو حكاية لودادتهم ولو فى معنى التمنى، وكان القياس لو أعمر إلا أنه جرى على لفظ الغيبة لقوله - يود أحدهم- كقولك: حلف بالله ليفعلن. انتهى من تفسير الكشاف: ١ / ٢٩٨ .

(٢٣٥) تفسير ابن جرير الطبرى: ١ / ٤٣١.

(٢٣٦) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير تحقيق أحمد شاكر: ١ / ١٨٨ .

(٢٣٧) إنى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبى ١٢٥ .

رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٤٨٠) من حديث أنس بلفظ : سمع عبد الله بن سلام بقدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى أرض يخترف فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال إنى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبى فما أول أشراط الساعة وما أول طعام أهل الجنة وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه قال أخبرنى بهن جبريل آنفا قال جبريل قال نعم قال ذاك عدو اليهود من الملائكة فقرأ هذه الآية ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس .... الحديث .

(٢٣٨) تفسير ابن كثير ، وتفسير ابن جرير الطبرى، وتفسير البيضاوى.

(١٣٩) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير تحقيق أحمد شاكر: ١ / ١٩٠ .

(٢٤٠) اللهم رب جبريل وميكائيل ١٢٦ .
رواه مسلم فى صلاة المسافرين (٧٧٠) وأبو داود فى الصلاة (٧٦٧) والترمذى فى الدعوات (٣٤٢٠) والنسائى فى قيام الليل (١٦٢٥) وابن ماجه فى إقامة الصلاة (١٣٥٧) وأحمد (٢٤٦٩٩) من حديث عائشة وقال الترمذى : حسن غريب .

(٢٤١) تفسير البيضاوى: ١ / ٣٢. وقد ذكر اللغات الثمانية فى جبريل.

(٢٤٢) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير تحقيق أحمد شاكر: ١ / ١٩١. ومختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد على الصابونى: ١ / ٩٥. بتصرف يسير.

(٢٤٣) إن من البيان لسحرًا ١٢٧ .
رواه البخارى فى النكاح (٥١٤٦) وفى الطب (٥٧٦٧) والترمذى فى البر والصلة (٢٠٢٨) وأبو داود فى الأدب (٥٠٠٧) (٤٦٣٧، ٥٢١٠ ، ٥٢٦٩، ٥٦٥٤) ومالك فى الموطأ الجامع (١٨٥٠) من حديث ابن عمر . ورواه مسلم فى الجمعة (٨٦٩) (١٧٨٥٣) من حديث عمار . ورواه أبو داود فى الأدب (٥٠٠٩) من حديث أبى هريرة . ورواه أبو داود فى الأدب (٥٠١١) وأحمد (٢٧٥٦، ١٠ ٢٨، ٢٨٥٦ ، ٣٠١٧ ، ٣٠٥٩) من حديث ابن عباس . ورواه أبو داود فى الأدب (٥٠١٢) من حديث بريدة بن الحصيب . ورواه أحمد فى مسنده حديث رقم (٣٧٦٩، ٤٢٣٠) من حديث ابن مسعود مرفوعًا وموقوفًا ورواه أحمد فى مسنده حديث رقم (١٥٤٣٤) من حديث معن بن يزيد .

(٢٤٤) تفسير المنار: ١ / ٣٤٦.

(٢٤٥) منهج الإمام محمد عبده فى تفسير القرآن، تأليف عبد الله محمود شحاتة ص ١٢٤.

(٢٤٦) منهج الإمام محمد عبده فى تفسير القرآن، تأليف عبد الله محمود شحاتة ص ١٢٢، ١٢٣.

(٢٤٧) تفسير المنار: ج ٩ ص ٥٩ حاشية.

(٢٤٨) تفسير الكشاف: ١ / ٢٧٧ .

(٢٤٩) تفسير القاضى البيضاوى: ١ / ٣٢.

(٢٥٠) المرجع السابق.

(٢٥١) تفسير البيضاوى: ١ / ٣٣.

(٢٥٢) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: ١ / ١٩٧.

(٢٥٣) صحيح مسلم: ٢/ ٢٤٦، وقوله فى آخره نعم أنت، ضبطه النووى فى شرحه: ١٧/ ١٥٧ (بكسر النون وإسكان العين وهى نعم الموضوعة للمدح).

(٢٥٤) إن الشيطان ليضع عرشه على الماء ١٣٢ .
رواه مسلم فى صفة القيامة (٢٨١٣) ، وأحمد (١٣٩٦٨، ١٤١٤٤ ، ١٤٤٠٠، ١٤٥٢٢ ، ١٤٦٩٩) من حديث جابر . وذكره الهيثمى فى «المجمع» كتاب الفتن باب بعث إبليس سراياه عن جابر بن عبدالله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : عرش إبليس على البحر ثم يبعث سراياه فيفتنون فأعظمهم عنده أعظمهم فتنة . وقال . رواه الطبرانى فى الأوسط ورجاله وثقوا وفيهم ضعف .

(٢٥٥) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير تحقيق أحمد شاكر: ١ / ١٩٩، بتصرف.

(٢٥٦) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ١ / ١٩٩ تحقيق أحمد شاكر.

(٢٥٧) التفسير الوسيط تأليف لجنة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر.

(٢٥٨) هو جزء من حديث طويل فى مسند الإمام أحمد بن حنبل: ١٦٥٧ وأبو داود فى الخراج (٣٠٤٣)، والشافعى فى مسنده (٢٩٠) وفى فتح البارى على البخارى ٦ / ١٨٤ - ١٨٥، وتخريجه مفصل فى شرح المسند.

(٢٥٩) أن حفصة أم المؤمنين سحرتها جارية ١٣٤.
الشافعى فى مسنده (٢٩٠) قال الهيثمى فى المجمع : رواه الطبرانى من رواية إسماعيل بن عياش عن المدنيين وهى ضعيفة ، وبقية رجاله ثقات .

(٢٦٠) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير تحقيق أحمد شاكر: ١ / ٢٠٠ وانظر مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد على الصابونى: ١ / ١٠١ فقد أورد كلمة عن حكم السحر عند الأئمة الأربعة وغيرهم.

(٢٦١) هي شجرة النبق.

(٢٦٢) لم يتعوذ بمثلهما ١٣٤.
رواه النسائي في الاستعاذة (٥٤٣١) وأحمد (١٦٨٤٨) من حديث عقبة بن عامر . قال السيوطي في الدر : وأخرج ابن الضريس وابن الأنباري والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن عقبة بن عامر قال : بينما أنا أسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بين الجحفة والأبواء إذا غشينا ريح وظلمة شديدة فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعوذ بـ ﴿أعوذ برب الفلق﴾ و﴿أعوذ برب الناس﴾ ويقول : «يا عقبة تعوذ بهما فما تعوذ متعوذ بمثلهما» قال : وسمعته يؤمنا بهما في الصلاة .

(٢٦٣) اجتنبوا السبع الموبقات ١٣٤ .
رواه البخاري في الوصايا ح ٢٧٦٧ ، ومسلم في الإيمان ح٨٩ ، والنسائي في الوصايا ح ٣٦٧١، وأبو داود في الوصايا ح٢٨٧٤ من حديث أبي هريرة .

(٢٦٤) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد على الصابوني: ١ / ١٠٣.

(٢٦٥) في ظلال القرآن ١ / ١٠٢.

(٢٦٦) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: ١ / ٢٠٨.

(٢٦٧) إن أعظم المسلمين جرما من سأل عن شيء لم يحرم ١٤١ .
رواه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٩) ومسلم في الفضائل (٢٣٥٨) وأبو داود في السنة (٤٦١٠) وأحمد (١٥٢٣، ١٥٤٨) من حديث سعد بن أبي وقاص .

(٢٦٨) نهى عن قيل وقال وكثرة السؤال ١٤١ .
رواه البخاري في الزكاة (١٤٧٧) وفي الاستقراض (٢٤٠٨) وفي الأدب (٥٩٧٥) وفي الرقاق (٦٤٧٣) وفي الاعتصام (٧٢٩٢) ومسلم في الأقضية (١٧١٥) من حديث المغيرة بن شعبة .

(٢٦٩) ذروني ما تركتكم ١٤١ .
رواه البخاري في الاعتصام (٧٢٢٨) ، ومسلم في الفضائل (١٣٣٧) ، والترمذي في العلم (٢٦٧٩) والنسائي في المناسك (٢٦١٩) وابن ماجه في المقدمة (٢) وأحمد (٧٣٢٠) من حديث أبي هريرة . وقد تقدم ص ٩٥ .

(٢٧٠) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير تحقيق أحمد شاكر: ١ / ٢٦٠ مع تصرف يسير.

(٢٧١) مجلة لواء الإسلام السنة الثالثة: العدد ٥ ص ٦ تفسير الأستاذ محمد الخضر حسين.

(٢٧٢) ثلاث لا ينجو منهن أحد : الظن والطيرة والحسد ١٤٢ .
قال العراقي في تخريج الإحياء : أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الحسد من حديث أبي هريرة وفيه يعقوب بن محمد الزهري وموسى ابن يعقوب الزمعي ضعفهما الجمهور ، والرواية الثانية رواها ابن أبي الدنيا أيضًا من رواية عبد الرحمن بن معاوية وهو مرسل ضعيف وللطبراني من حديث حارثة بن النعمان نحوه .

(٢٧٣) تفسير المنار: ١ / ٤٢١.

(٢٧٤) إذا مات ابن آدم انقطع عمله ١٤٤
رواه مسلم في الوصية ح ٣٠٨٤ ،والترمذي في الأحكام ح ١٢٩٧ ، والنسائي في الوصايا ح ٣٥٩١، وابن ماجه في المقدمة ح ٢٣٨ ،وأحمد ح ٨٤٨٩ ، والدارمي في المقدمة ح ٥٥٨ . وهو بلفظ : إذا مات الإنسان .... الحديث . وقال الترمذي : حديث حسن صحيح .

(٢٧٥) انظر تفسير الكشاف: ١ / ٣٠٤.

(٢٧٦) من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد ١٤٥ .
رواه مسلم في الأقضية (١٧١٨) ، وأحمد (٢٤٦٠٤، ٢٤٩٤٤، ٢٥٦٥٩) من حديث عائشة . وذكره البخاري في باب النجش ومن قال لا يجوز ذلك البيع وقال ابن أبي أوفى الناجش آكل ربا خائن وهو خداع باطل لا يحل قال النبي صلى الله عليه وسلم الخديعة في النار ومن عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد . تعليقاً .

(٢٧٧) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: ١ / ٢١٥.

(٢٧٨) تفسير الكشاف: ١ / ٢٠٦.

(٢٧٩) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: ١ / ٢١٧، بتصرف واختصار.

(٢٨٠) تفسير القرطبي: ١ / ٧٧ .

(٢٨١) تفسير الكشاف: ١ / ٣٠٦ .

(٢٨٢) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب بتصرف يسير: ١ / ١٠٥ .

(٢٨٣) تفسير ابن كثير: ١ / ١٠٨.

(٢٨٤) اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها ١٤٩ .
رواه أحمد في مسنده حديث رقم (١٧١٧٦) عن بُسر بن أرطاة القرشي . وذكره السيوطي في الدر وزاد نسبته للبخاري في تاريخه. وذكره السيوطي أيضًا في الجامع الصغير (١٤٥٦) ونسبه لابن حبان في صحيحه والحاكم في المستدرك . وقال المناوي في الفيض : إنما هو ابن أبي أرطاة كما بينه الحافظ بن حجر فقال في الإصابة : الأصح ابن أبي أرطاة قال ابن حبان ومن قال ابن أرطاة فقد وهم اهـ . وقال : وقال يحيى : كان بُسر رجل سوء وأهل المدينة ينكرون سماعه من النبي صلى الله عليه وسلم ملخصًا وقد رمز المصنف لصحته وقد عرفت حال بسر أما من دونه فموقوفون في بعض طرقه المذكورة لا كلها قال الحافظ الهيثمي رجال أحمد واحد إسناد الطبراني ثقات .

(٢٨٥) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير تحقيق أحمد شاكر، وقال في تعليقه على الحديث، وإسناده صحيح، ورواه الحاكم في المستدرك: ٢ / ٢٦٧ - ٢٦٨ من طريق ابن جريج وقال: (صحيح على شرط الشيخين وذكره السيوطي في الدر المنثور ١ / ١٠٨) وزاد نسبته لابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢٨٦) كان يصلي على راحلته مقبلاً من مكة ١٥٠
رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٠٠) والترمذي في التفسير (٢٩٥٨) والنسائي في الصلاة (٤٩١) وأحمد في مسنده حديث رقم (٤٧٠٠) من حديث ابن عمر .

(٢٨٧) رواه ابن كثير عن ابن جرير الطبري.

(٢٨٨) ما بين المشرق والمغرب قبلة ١٥٠ .
رواه الترمذي في الصلاة (٣٤٣، ٣٤٤) وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠١١) من حديث أبي هريرة قال الترمذي: حديث أبي هريرة قد روي عنه من غير هذا الوجه وقد تكلم بعض أهل العلم في أبي معشر من قبل حفظه واسمه نجيح مولى بني هاشم قال محمد لا أروي عنه شيئا وقد روى عنه الناس قال محمد وحديث عبد الله بن جعفر المخرمي عن عثمان بن محمد الأخنسي عن سعيد المقبري عن أبي هريرة أقوى من حديث أبي معشر وأصح . قلت : وأشار إليه النسائي تعليقًا في الصيام تحت حديث (٢٢٤٣) وقال : أبو معشر المدني اسمه نجيح وهو ضعيف ومع ضعفه أيضًا كان قد اختلط عنده أحاديث مناكير منها محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ما بين المشرق والمغرب قبلة ورواه مالك في الموطأ (٤٦٠) قال : وحدثني عن مالك عن نافع أن عمر بن الخطاب قال ما بين المشرق والمغرب قبلة إذا توجه قبل البيت .

(٢٨٩) جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا ١٥٠ .
رواه البخاري في التيمم (٣٣٥) وفي الصلاة (٤٣٨) ومسلم في المساجد (٥٢١، ٥٢٣) والنسائي في الغسل (٤٣٢) وفي المساجد (٧٣٦) والدارمي في الصلاة (١٣٨٩) وأحمد في مسنده حديث رقم (١٣٨٥٢) من حديث جابر . ورواه مسلم في المساجد (٥٢٣) والترمذي في السير (١٥٥٣) وابن ماجه في الطهارة (٥٦٧) وأحمد (٧٢٢٥، ٧٣٥٥ ، ٩٤١٢) من حديث أبي هريرة . ورواه أبو داود في الصلاة (٤٨٩) والدارمي في السير (٢٤٦٧) وأحمد في مسنده حديث رقم (٢٠٧٩٢) من حديث أبي ذر . ورواه أحمد في مسنده حديث رقم (٢٢٥٦، ٢٧٣٧) من حديث ابن عباس . ورواه أحمد في مسنده حديث رقم (٧٠٢٨) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده . ورواه أحمد في مسنده حديث رقم (١٩٢٣٦) من حديث أبي موسى .

(٢٩٠) لا أحد أصبر على أذى ١٥٢ .
رواه البخاري في الأدب ح ٦٠٩٩ ، وفي التوحيد ح ٧٣٧٨، ومسلم في صفة القيامة، ح ٢٨٠٤ ، وأحمد ح ١٩٠٩٢ ، ١٩١٣٦ . من حديث أبي موسى مرفوعاً : ليس أحد أو ليس شيء أصبر على أذى سمعه من الله .... الحديث .

(٢٩١) نقلا عن عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير تحقيق أحمد شاكر، ١ / ٢٢٣ . وعلق ابن كثير بقوله: وهذا من ابن جرير رحمه الله كلام جيد وعبارة صحيحة.

(٢٩٢) تفسير الكشاف لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي المعتزلي، ٤٦٧ - ٥٣٨ هـ ١٠ / ٣٠٧.

(٢٩٣) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ١ / ٢٢٦ بتحقيق أحمد شاكر. قال وهو في المسند: ٦٦٢٢ وفي البخاري ٤ / ٢٨٧ - ٢٨٨ (فتح) وفي الأدب المفرد ص ٣٨ ، ٣٩ وطبقات ابن سعد ١ / ٢ / ٨٨.

(٢٩٤) انظر عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير تحقيق أحمد شاكر، حاشية ١ / ٢٢٧ والآية من سورة محمد: ٣٨.

(٢٩٥) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ١ / ٢٧٧.

(٢٩٦) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير، تحقيق أحمد شاكر ١ / ٢٨٨.

(٢٩٧) انظر تفسير الآية ٤٨ من سورة البقرة فى موضوع الشفاعة.

(٢٩٨) رواه الطبرى ١٩١٠، والحاكم فى المستدرك ٢ / ٢٦٦ وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبى.

(٢٩٩) عشر من الفطرة ١٦١ .
ومسلم فى الطهارة (٢٦١) والترمذى فى الأدب (٢٧٥٧) والنسائى فى الزينة (٥٠٤٠) وأبو داود فى الطهارة (٥٣) وابن ماجه فى الطهارة (٢٩٣) وأحمد فى مسنده حديث رقم (٢٤٥٣٩) من حديث عائشة .

(٣٠٠) خمس من الفطرة ١٦١.
رواه مالك فى الموطأ كتاب الجامع (١٧٠٩) والبخارى فى اللباس (٥٨٨٩) ومسلم فى الطهارة (٢٥٧) وأبو داود فى الترجل (٤١٩٨) والترمذى فى الأدب (٢٧٥٦) والنسائى فى الطهارة (١٠، ١١) وفى الزينة (٥٠٤٣، ٥٠٤٤) وابن ماجه فى الطهارة (٢٩٢) وأحمد فى مسنده حديث رقم (٧٠٩٩) من حديث أبى هريرة .

(٣٠١) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير بتحقيق أحمد شاكر ١ / ٢٣٢.

(٣٠٢) المرجع السابق.

(٣٠٣) استلم الركن فرمل ثلاثًا ١٦٣ .
رواه مسلم فى كتاب الحج فى أثناء حديث طويل فى صفة حجة صلى الله عليه وسلم (١٢١٨) والترمذى فى الحج (٨٥٦) رواه النسائى فى مناسك الحج (٢٩٣٩) وأبو داود فى المناسك (١٩٠٥) وابن ماجه فى المناسك (٣٠٧٤) وأحمد فى مسنده حديث رقم (١٤٢٥١) والدارمى فى المناسك (١٨٥٠) من حديث جابر بن عبد الله .

(٣٠٤) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير تحقيق أحمد شاكر ١ / ٢٣٥. وقال أيضا: كما سيأتى بيانه فى قصة إبراهيم وإسماعيل فى بناء البيت من رواية ابن عباس عن البخارى، وكانت آثار قدميه ظاهرة فيه.

(٣٠٥) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير، تحقيق أحمد شاكر ١ / ٢٤١.

(٣٠٦) رواه الشيخان والترمذى وابن ماجه من حديث أبى موسى. انظر فتح البارى ٨ / ٢٦٧، نقلاً عن عمدة التفسير للحافظ ابن كثير، تحقيق أحمد شاكر ١ / ٢٤٢. والآية من سورة هود: ١٠٢.

(٣٠٧) فى ظلال القرآن، بقلم سيد قطب، ١ / ١١٤.

(٣٠٨) رواه عبد بن حميد مطولا، ورواه ابن أبى حاتم وابن جرير مختصرا، ورواه ابن مردويه من وجه آخر عن ابن عباس مطولا. ثم ذكر الحافظ ابن كثير حديثا آخر فى معناه عن ابن عباس أيضا، من صحيح البخارى ثم قال: «والعجب أن الحافظ أبا عبدالله الحاكم رواه فى المستدرك وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقد رواه البخارى كما ترى».

(٣٠٩) مسند أحمد بن حنبل ١٧٢١٧، ١٧٢١٨، ١٧٢٣٠، وأسانيده صحاح، ورواه الطبرى ٢٠٧١ - ٢٠٧٣. انظر عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير، تحقيق أحمد شاكر، ١ / ٢٥٣.

(٣١٠) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير، تحقيق أحمد شاكر ١ / ٢٥٥.

(٣١١) أسباب النزول للنيسابورى، طبعة الحلبى، ص ٢٢.

(٣١٢) عم الرجل صنو أبيه ١٧٢ .
رواه مسلم فى الزكاة (٩٨٣) وأبو داود فى الزكاة (١٦٢٣) ، والترمذى فى المناقب (٣٧٦١) وأحمد فى مسنده حديث رقم (٨٠٨٥) من حديث أبى هريرة . ورواه الترمذى فى المناقب (٣٧٦٠) و أحمد فى مسنده حديث رقم (٧٢٧) من حديث على . ورواه الترمذى فى المناقب (٣٧٥٨) وأحمد فى مسنده حديث رقم (١٧٠٢٦) من حديث عبد المطلب بن ربيعة . ورواه البخارى فى الزكاة (١٤٨٦) إلا أنه لم يذكر فيه محل الشاهد .

(٣١٣) أولاد العلات: أولاد الضرائر، والمذكور هنا مختصر من حديث طويل رواه الشيخان وغيرهما والإمام أحمد فى مسنده مرارًا منها: ٨٢٣١، ٩٢٥٩، ٩٦٣٠، ٩٦٣٢. وفى البخارى (والأنبياء أخوات لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد) وانظر عمدة التفسير: ١ / ٢٥٧.

(٣١٤) يابنى هاشم لا يأتينى الناس بأعمالهم ١٧٣

قال السيوطى فى الدر : وأخرج البخارى فى الأدب المفرد عن أبى هريرة رضى الله عنه . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إن أوليائى يوم القيامة المتقون إن كان نسب أقرب من نسب ، فلا يأتينى الناس بالأعمال . وتأتونى بالدنيا تحملونها على رقابكم فأقول هكذا وهكذا إلاوأعرض فى كل عطفيه».

(٣١٥) من بحث بعنوان (موقف الإسلام من الأديان الأخرى وعلاقته بها) نشر بمجلة لواء الإسلام العدد ١١ ص ٦٨١.

(٣١٦) مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل ١٧٤

رواه البخارى فى الرقاق (٤٥٣٤) ، ومسلم فى الفضائل (٢٢٨٧) و الترمذى فى الأمثال (٢٨٦٢) وأحمد (١٤٤٧٢) من حديث جابر بن عبد الله .

ورواه البخارى فى الرقاق (٤٥٣٥) ، ومسلم فيما تقدم (٢٢٨٦) ، وأحمد (٧٤٣٦، ٧٩١٧) من حديث أبى هريرة .

ورواه الترمذى فى الأمثال (٣٦١٣)، وأحمد (٢٠٧٣٧) من حديث أبى بن كعب .

(٣١٧) تفسير الفخر الرازى ١ / ٤١٧ .

(٣١٨) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: ١ / ٢٥٩.

(٣١٩) تفسير ابن جرير الطبرى : ٥٧٣/١.

(٣٢٠) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير : ٢٦٠/١.

(٣٢١) مجلة لواء الإسلام العدد : ١٢ السنة الثالثة ص ٨٢٧ ، ملخص من كلام الأستاذ الشيخ محمد الخضر حسين.

(٣٢٢) التفسير الوسيط تأليف لجنة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر : ٢١٠.

★ ★ ★

تمت الهوامش وتخريج الأحاديث

بحمد الله وبها تم

الجزء الأول

محتـــويات الكتـــاب

العنوان	رقم الآيات	رقم الصفحة
مـقـدمـة الطبـعـة الثـانيـة		٣
مـــقـــدمـــة		٥
ترتيب ســور القــرآن الكريم		٩
ســورة الفـــاتحـــة		١١
ســورة البـــقـــرة		٢١
افـــتـــتـــاح الســـورة	١، ٢	٢٥
حـــروف المعـــجـم		٢٥
مـــعـــانى هذه الفـــواتح		٢٦
المتـــقـــون وجـــزاؤهـم	٣ - ٥	٢٨
الـكـافـــــرون	٦، ٧	٣٠
المـنـافـــقـــون	٨ - ١٠	٣١
الفـــســـاد والســـفـــه	١١ - ١٣	٣٣
اخـــتـــيـــار الضـــلالـة	١٤ - ١٦	٣٤
هيـــئـــات المنافـــقـــين	١٧، ١٨	٣٥
أمـــثـــال القـــرآن		٣٥
حـــيـــرة المنافـــقـــين	١٩، ٢٠	٣٧
عـــبـــادة اللـه	٢١، ٢٢	٣٨
التـــحـــدى والإعـــجـــاز	٢٣، ٢٤	٤٠
بـــشـــرى	٢٥	٤٢
الأمـــثـــال فى القـــرآن	٢٦، ٢٧	٤٣
آراء فى تفـــســيـر عـهـد الله		٤٥
نـــعـــم الـــلـــه	٢٨، ٢٩	٤٦
خليـــفـــة اللـه فى الأرض	٣٠	٤٧
آدم	٣١ - ٣٣	٤٩
ســـجـــود الملائـكـة لآدم	٣٤	٥٠

العنوان	رقم الآيات	رقم الصفحة
إبــليــس		٥١
الأكل من الشجـرة	٣٥ – ٣٧	٥٢
فكرة الخطيئة والتوبة فى الإسلام		٥٦
الهـدى والكفـر	٣٨ ، ٣٩	٥٦
دعـوة اليـهـود إلى الإيمـان	٤٠ – ٤٣	٥٨
مـوافـقـة الأفـعـال للأقـوال	٤٤ – ٤٦	٦٣
تـذكـيـر بالـنـعـم	٤٧ ، ٤٨	٦٥
الشـفـاعـة		٦٦
قـتـل أطـفـال بنى إسـرائيل	٤٩	٦٧
نعم الله على بنى إسـرائيل	٥٠ – ٥٣	٧٠
عـبـادة العـجـل	٥٤ – ٥٧	٧٥
تـبـديل القـول	٥٨ ، ٥٩	٧٨
الاسـتـسـقـاء	٦٠	٨١
غـضـب الله عليـهـم	٦١	٨٢
الإيـمـان	٦٢	٨٥
نـقـض العـهـد	٦٣ ، ٦٤	٨٦
عـقـوبة اليـهـود	٦٥ ، ٦٦	٨٨
البـقـرة	٦٦ – ٧١	٩٠
قـصـة البـقـرة		٩١
الحـيـاة	٧٢ ، ٧٣	٩٤
قـسـوة القلوب	٧٤	٩٧
تحـريفـهم كـلام الله	٧٥ – ٧٧	٩٨
أمـانى باطـلـة	٧٨ ، ٧٩	١٠١
غـرور وادعـاء	٨٠ – ٨٢	١٠٣
الميـثـاق	٨٣	١٠٥
تـنـاقـض	٨٤ – ٨٦	١٠٧
تـكـذيـب وقـتـل	٨٧ ، ٨٨	١١٠
حـسـد وبـغـى	٨٩ – ٩١	١١٣

العنوان	رقم الآيات	رقم الصفحة
عصيان ومخالفة	٩٢ ، ٩٣	١١٦
حرصهم على الحياة	٩٤ – ٩٦	١٢٠
عداوة جبريل	٩٧ – ١٠٠	١٢٤
السحر	١٠١ – ١٠٣	١٢٧
أدب الخطاب	١٠٤ – ١٠٥	١٣٥
النسخ	١٠٦ – ١٠٨	١٣٧
تحذير	١٠٩ ، ١١٠	١٤٢
أماني كاذبة	١١١ – ١١٢	١٤٥
تهم متبادلة	١١٣	١٤٧
تخريب المساجد	١١٤	١٤٨
فضل الله	١١٥	١٥٠
تنزيه الله عن الولد	١١٦ ، ١١٧	١٥٢
تعنت وعناد	١١٨	١٥٤
البشير النذير	١١٩ – ١٢١	١٥٦
أنعم الله	١١٢ ، ١٢٣	١٥٩
وفاء إبراهيم	١٢٤	١٦١
ابتلاء إبراهيم		١٦٢
البيت الحرام	١٢٥	١٦٣
دعاء	١٢٦	١٦٥
بناء الكعبة	١٢٧ – ١٢٩	١٦٧
ملة إبراهيم	١٣٠	١٧١
الإسلام	١٣١ ، ١٣٢	١٧٢
الإسلام ملة الأنبياء	١٣٣ ، ١٣٤	١٧٣
محاورة	١٣٥	١٧٦
الإيمان بالكتاب والرسل	١٣٦ – ١٣٨	١٧٧
شبهة تفتضح	١٣٩ – ١٤١	١٨٠
تخريج الأحاديث		١٨٣
الفهرس		٢٠١

تفسير القرآن الكريم

الجزء الثانى من القرآن الكريم

الدكتور

عبد الله شحاته



بسم الله الرحمن الرحيم

قــول السفهاء

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ ﴾

المفردات :

السفهاء : خفاف العقول أو الجهلاء.

ما ولاّهم : ما صرفهم.

صراط مستقيم : طريق قويم لا عوج فيه، والمراد به هنا طريق الحق .

المعنى الإجمالى :

إن ضعاف القول الذين أضلتهم أهواؤهم عن التفكير والتدبر من اليهود والمشركين والمنافقين، سينكرون على المؤمنين تحولهم من قبلة بيت المقدس التى كانوا يصلون متجهين إليها، ويعتقدون أنها أحق، إلى قبلة أخرى وهى الكعبة، فقل لهم أيها النبى : إن الجهات كلها لله، لا فضل لجهة على أخرى بذاتها، بل الله هو الذى يختار منها ما يشاء ليكون قبلة للصلاة، وهو يهدى بمشيئته كل أمة من الأمم إلى طريق قويم يختاره لها ويخصها به، وقد جاءت الرسالة المحمدية فنسخت ما قبلها من الرسالات وصارت القبلة الحقة هى الكعبة.

التفسير :

١٤٢ - سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا . .

كان النبى - صلى الله عليه وسلم - يصلى فى مكة متجهًا إلى البيت الحرام.

فلما هاجر إلى المدينة اتجه إلى بيت المقدس، وكان ذلك بتوجيه من السماء؛ ليقطع الله صلة المسلمين بمكة، وليصرف نفوسهم عنها بعض الوقت، وليختبر مدى صدقهم وتلبيتهم لأمر الله. قال تعالى : وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ . (البقرة ١٤٣)

وبعد أن توجه المسلمون إلى بيت المقدس سبعة عشر شهرًا، أمرهم الله أن يتحولوا بقبلة الصلاة إلى المسجد الحرام.

وكان النبى – صلى الله عليه وسلم – يتمنى أن تكون قبلته إلى البيت الحرام، ويرفع وجهه إلى السماء ويستحى أن يتلفظ بذلك. قال تعالى :

قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ.

وقد روى البخارى فى صحيحه عن البراء :

« أن النبى – صلى الله عليه وسلم – كان أول ما قدم المدينة صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا، وكان يعجبه أن تكون قبلته قِبَل البيت، وأنه صلى أول صلاة صلاها [١] صلاة العصر وصلى معه قوم، فخرج رجل ممن كان صلى معه، فمر على أهل مسجد وهم راكعون [٢] فقال : أشهد بالله لقد صليت مع النبى – صلى الله عليه وسلم – قِبَل مكة، فداروا كما هم قبل البيت» [٣].

وفى رواية ابن إسحاق وغيره، عنه، زيادة :

فأنزل الله تعالى : سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا . . الآية.

★ ★ ★

وقد أثار تحول القبلة ثائرة اليهود، وادعوا أن محمدا اشتبه عليه دينه وحن إلى دين آبائه وأثاروا كثيرا من المشاكل، فادعوا أن صلاة المسلمين السابقة إلى بيت المقدس تعتبر باطلة لأنها كانت إلى غير القبلة الصحيحة.

وقد دافع القرآن عن تحويل القبلة ورد على هؤلاء السفهاء من المشركين والمنافقين واليهود شكوكهم وشبهاتهم. فبين أن الكون كله ملك لله، وأينما يتوجه الإنسان شرقا أو غربا فالأفق كله لله والصلاة كلها يتجه فيها المؤمن إلى الله.

والمؤمن يمتثل أمر الله بالاتجاه إلى بيت المقدس عندما يأمره الله بذلك، وبالاتجاه إلى الكعبة عندما يأمره الله بذلك.

قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ .

أى قل لهم يا محمد، إذا اعترضوا على التحويل: إن الأمكنة كلها لله، ملكا وتصرفا، وهى بالنسبة إليه متساوية، وله أن يخص بعضها بحكم دون بعض، فإذا أمرنا باستقبال جهة فى الصلاة فلحكمة اقتضت الأمر، وما على الناس إلا أن يمتثلوا أمره، والمؤمنون ما اتخذوا الكعبة قبلة لهم إلا امتثالا لأمر ربهم، لاترجيحا لبعض الجهات من تلقاء أنفسهم، فالله هو الذى يهدى من يشاء هدايته إلى السبيل الحق، فيوجهه إلى بيت المقدس مدة حيث اقتضت حكمته ذلك، ثم إلى الكعبة، حيث يعلم المصلحة فيما أمر به.

★ ★ ★

وقد ذهب الإمام الزمخشرى وغيره من المفسرين، إلى أن الله - سبحانه - أخبر بما سيقوله السفهاء قبل وقوعه، ليكون وقعه خفيفا على قلوب المسلمين عند حدوثه، لأن مفاجأة المكروه أشد، والعلم به قبل وقوعه أبعد من الاضطراب إذا وقع، لما يتقدمه من توطين النفس، وأن الجواب العتيد [٤] قبل الحاجة إليه أقطع للخصم وأرد لشغبه - وفى هذا أيضًا إعجاز قرآنى، للإخبار بالغيب قبل وقوعه.

وذهب القرطبى وغيره إلى أن الفعل (سيقول) بمعنى قال، وأن الآية الكريمة أوردت الماضى بصيغة المستقبل، دلالة على استمرار ذلك القول وتجدده.



أمـــة وسط

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾

المفردات :

(وسطا) : خيارا عدولا، وفى القرآن « قال أوسطهم » أى أعدلهم وخيرهم، والصلاة الوسطى هى : الفضلى.

العقـــب : مؤخر الرجل، ومعنى « ينقلب على عقبيه » يرجع إلى الخلف، والمقصود أنه يرتد عن دينه.

المعنى الإجمالى :

ولهذه المشيئة هديناكم إلى الطَّريق الأقوم وجعلناكم أمة عدولا خيارا بما وفقناكم إليه من الدين الصحيح والعمل الصالح لتكونوا مقررى الحق بالنسبة للشرائع السابقة، وليكون الرسول مهيمنا عليكم، ويسددكم بإرشاده فى حياته، وبنهجه وسنته بعد وفاته.

وأما القبلة (بيت المقدس) التى شرعناها لك حينا من الدهر فإنما جعلناها امتحانا للمسلمين ليتميز من يذعن فيقبلها عن طواعية، ومن يغلب عليه هوى تعصبه العربى لتراث إبراهيم فيعصى أمر الله ويضل عن سواء السبيل.

ولقد كان الأمر بالتوجه إلى بيت المقدس من الأمور الشاقة إلا على من وفقه الله بهدايته، وكان

امتثال هذا الأمر من أركان الإيمان، فمن استقبل بيت المقدس حين الأمر باستقباله فلن يضيع عليه إيمانه وعبادته رأفة من الله به ورحمة.

التفسير:

١٤٣ - وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ......

أى وكما هديناكم أيها المؤمنون إلى صراط مستقيم، بتوليتكم القبلة التى ترضونها، ومثل ما جعلنا قبلتكم أيها المسلمون وسطا لأنها البيت الحرام الذى هو المثابة والأمن للناس؛ وجعلناكم أيضًا (أمة وسطا) أى خيارًا عدولاً بين الأمم ليتحقق التناسب بينكم وبين قبلتكم التى تتوجهون إليها فى صلواتكم، وتشهدون على الأمم السابقة بأن أنبياءهم قد بلغوهم الرسالة ونصحوهم بما ينفعهم، ولكى يشهد الرسول- صلى الله عليه وسلم- عليكم بأنكم صدقتموه وآمنتم به.

ولما جعل الله هذه الأمة وسطا خصها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب، كما قال تعالى : هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ . (الحج: ٨٧).

روى الإمام أحمد عن أبى سعيد قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : «يدعى نوح يوم القيامة، فيقال له : هل بلَّغت ؟ فيقول : نعم. فيدعى قومه، فيقال لهم : هل بلغكم؟ فيقولون : ما أتانا من نذير، وما أتانا من أحد. فيقال لنوح : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته، قال : فذلك قوله : وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا . قال : الوسط العدل، فتدعون فتشهدون له بالبلاغ، ثم أشهد عليكم » رواه البخارى والترمذى والنسائى وابن ماجه [٥].

وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ .

وما جعلنا قبلتك السابقة بيت المقدس، ثم حولناك عنها إلى البيت الحرام إلا لنميز من يتبعك فى كلتيهما ممن ينصرف عن اتباعك، فإن اتباع الرسول ولو فيما تكرهه النفس من آثار الإيمان والتسليم لمن هو أعلم بالحكمة، وهو الله – تعالى – فالحكمة فى تحويل القبلة تمييز الصادق فى الإيمان عن غيره ممن لم يدخل الدين فى قرارة نفسه، وإنما دخل فيه على حرف بحيث يرتد عنه لأقل شبهة وأدنى ملابسة، كما حصل ذلك من ضعاف الإيمان عند تحويل القبلة إلى الكعبة.

والارتداد على العقبين، هو الرجوع إلى الخلف، وهو تمثيل للارتداد عن الإسلام، ومخالفة أمر الرسول – صلى الله عليه وسلم – لما فى كليهما من أسوأ حالات العود والارتداد.

وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ .

وإن كانت هذه الفعلة، وهي تحويلنا لك من بيت المقدس إلى الكعبة لكبيرة وشاقة على النفوس إلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ . قلوبهم وأيقنوا بتصديق الرسول، وأن ما جاء به فهو الحق الذى لا مرية فيه، وأن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فله أن يكلف عباده بما شاء وينسخ ما يشاء ، وله الحكمة التامة والحجة البالغة فى ذلك.

قال تعالى : وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا . (الإسراء: ٨٢)

وقال سبحانه: قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى (فصلت: ٤٤)

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ . أى صلاتكم إلى بيت المقدس قبل ذلك لا يضيع ثوابها عند الله .

« وفى الصحيح عن البراء قال : مات قوم كانوا يصلون نحو بيت المقدس، فقال الناس : ما حالهم فى ذلك؟ فأنزل الله تعالى : وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ » ورواه الترمذى عن ابن عباس وصححه»(٦).

إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ : إن الله يشمل الناس برأفته ورحمته، وبخاصة عباده المؤمنين الطائعين، فلهذا لا يضيع إيمانهم .

روى البخارى : أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – رأى امرأة من السبى، قد فُرِّق بينها وبين ولدها، فجعلت كلما وجدت صبيا من السبى أخذته فألصقته بصدرها وهى تدور على ولدها، فلما وجدته ضمته إليها وألقمته ثديها، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : أترون هذه طارحة ولدها فى النار وهى تقدر على ألا تطرحه؟ قالوا : لا يا رسول الله ، قال : فو الله ، لَلَّهُ أرحم بعباده من هذه بولدها (٧).

★ ★ ★

القبلة

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

المفردات :

تقلب وجهك فى السماء : تردد وجهك، وتطلعك إلى السماء.

شطر : جهة وناحية.

وحيثما كنتم : فى أى مكان وجدتم.

فلنولينك قبلة ترضاها : أى فلنمكننك من استقبالها، ومن قوله وليته كذا إذا صيرته واليا لنا ، أو لنحولنك إليها.

فول وجهك شطر المسجد الحرام : أى فاصرفه نحوه.

المعنى الإجمالى :

ولقد رأينا كيف كنت تتطلع إلى السماء عسى أن ينزل الوحى بتغيير قبلة بيت المقدس إلى الكعبة لأنها قبلة إبراهيم أبى الأنبياء، فها نحن أولاء نؤتيك سؤلك، فاستقبل فى صلاتك المسجد الحرام، واستقبلوه كذلك أيها المؤمنون فى أى مكان تكونون، وإن أهل الكتاب الذين ينكرون عليكم التحول عن قبلة بيت المقدس قد عرفوا فى كتبهم أنكم أهل الكعبة، وعلموا أن أمر الله جارٍ على تخصيص كل شريعة بقبلة، وأن هذا هُوَ الحق من ربهم، ولكنهم يريدون فتنتكم وتشكيككم فى دينكم، والله ليس غافلاً عنهم وهو يجزيهم بما يعملون.

التفسير:

١٤٤ - قَدْ نرىٰ تقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ . . .

قد رأيناك تتجه بوجهك إلى السماء دائمًا، تصرفه فى أرجائها، مرددا بصرك فى ضراعة ورجاء تطلعًا للوحى بتحويل القبلة إلى الكعبة. وها نحن قد أجبناك إلى ما طلبت وأعطيناك ما سألت، ووجهناك إلى قبلة تحبها، وتميل إليها: فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ . أى فاصرف وجهك نحو المسجد الحرام لوجود الكعبة فيه، واجعله قبلتك فى الصلاة.

وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ . . . .

أى وأينما وجدتم فى بر أو بحر فولوا وجوهكم تلقاء المسجد الحرام ونحوه، وقد جاءت هذه الجملة موجهة إلى الأمة قاطبة لدفع توهم أن يكون الخطاب فى الأول خاصا بالنبى - صلى الله عليه وسلم - ولأنه لما كان تحويل القبلة أمرا له خطره، خصهم بخطاب مفرد ليكون ذلك آكد وأبلغ.

فالآية الكريمة فيها أمر لكل مسلم أن يجعل الكعبة قبلة له فيتوجه بصدره إلى ناحيتها وجهتها حال تأدية الصلاة لربه، سواء أكان المصلى بالمدينة أم بمكة أم بغيرهما.

وفى ذكر المسجد الحرام دون الكعبة ما يؤذن بكفاية مراعاة جهتها، ولذلك لم يقع خلاف بين العلماء فى أن الكعبة قبلة كل أفق، وأن من عاينها فرض عليه استقبالها ومن غاب عنها فعليه أن يستقبل جهتها، فإن خفيت عليه تحرَّى جهتها ما استطاع.

وفى الآية إشعار بانتشار الإسلام فى بقاع الأرض، وأن المسلمين ستفتح لهم البلاد، وأن عليهم - حيثما كانوا - أن يتجهوا فى صلاتهم نحو المسجد الحرام.

وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ .

أى وإن اليهود الذين أنكروا استقبالكم، وانصرافكم عن بيت المقدس، وأثاروا الفتنة فى شأن تحويل القبلة ليعلمون أن استقبالكم الكعبة حق، لأن الذى أخبر به قد قامت الآيات البينات عندهم على أنه رسول من عند الله، أو أنه يصلى إلى القبلتين، وما وقفوا من تحويل القبلة هذا الموقف إلا لعنادهم، وكما يعلم اليهود ذلك من كتابهم، يعلمه النصارى من كتابهم أيضًا .

والآية مؤكدة بعدة مؤكدات، هى إن واللام وذكر الحق ونسبته إلى الرب - سبحانه - لتقرير أنه وحى من الله .

وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ .

أى أن الله لا يخفى عليه ما يدبره أهل الكتاب من الكيد للإسلام وسيحاسبهم عليه حسابًا عسيرًا، لأنهم يعلمون الحق، ويكتمون ما يعلمون.

★ ★ ★

عنـــاد

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ۚ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (١٤٥) ﴾

المفردات :

آية : الآية هى المعجزة، أو الدليل القطعى.

المعنى الإجمالى :

وما كان إنكار أهل الكتاب عليكم لشبهة تزيلها الحجة، بل هو إنكار عناد ومكابرة، فلئن جئتهم أيها الرسول بكل حجة قطعية على أن قبلتك هى الحق ما تبعوا قبلتك، وإذا كان اليهود منهم يطمعون فى رجوعك إلى قبلتهم ويعلنون إسلامهم على ذلك فقد خاب رجاؤهم وما أنت بتابع قبلتهم، وأهل الكتاب أنفسهم يتمسك كل فريق منهم بقبلته، فلا النصارى يتبعون قِبْلَةَ اليهود، ولا اليهود يتبعون قبلة النصارى، وكل فريق يعتقد أنه وحده على الحق، فاثبت على قبلتك ولا تتبع أهواءهم، فمن اتبع أهواءهم بعد العلم ببطلانها، والعلم بأن ما عليه هو الحق فهو من الظالمين الراسخين فى الظلم.

التفسير :

١٤٥ - ولئن أتيتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ . .

ولئن جئت يا محمد اليهود ومن على طريقتهم فى الكفر بكل برهان وحجة، بأن الحق هو ما جئتم به، من فرض التحول من قبلة بيت المقدس فى الصلاة إلى قبلة المسجد الحرام، ما صدقوا به لأن تركهم اتباعك ليس عن شبهة يزيلها الدليل، وإنما هو عن مكابرة وعناد مع علمهم بما فى كتبهم من أنك على الحق المبين.

وما أنت - يا محمد - بتابع قبلتهم، لأنك على الهدى وهم على الضلال، وفى هذه الجملة الكريمة حسم لأطماعهم، وتقرير لحقيقة القبلة وتحويلها إلى الكعبة، بعد أن أشاعوا بأن النبى - صلى الله عليه وسلم - لو ثبت على قبلتهم لكانوا يرجون أنه النبى المنتظر، فقطع القرآن الكريم آمالهم فى رجوع النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى قبلتهم، وأخبر بأنه ليس بتابع لها.

ثم ذكر القرآن الكريم اختلاف أهل الكتاب فى القبلة، وأن كل طائفة منهم لا تتبع قبلة الطائفة الأخرى. فقال تعالى : وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ .

أى ما اليهود بمتبعين لقبلة النصارى، ولا النصارى بمتبعين لقبلة اليهود، فهم - مع اتفاقهم على مخالفتك - مختلفون فى باطلهم، وذلك لأن اليهود تستقبل بيت المقدس والنصارى تستقبل مطلع الشمس.

ثم ساق القرآن الكريم بعد ذلك تحذيرا للأمة كلها من اتباع أهل الكتاب، وجاء هذا التحذير فى شخص النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال تعالى :

وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ .

أى : لئن اتبعت يا محمد قبلتهم على سبيل الفرض والتقدير من بعد وضوح البرهان وإعلامى إياك بإقامتهم على الباطل، إنك إذًا لمن الظالمين لأنفسهم، المخالفين لأمرى، فالآية الكريمة: وعيد وتحذير للأمة الإسلامية من اتباع آراء اليهود المنبعثة عن الهوى والشهوة، وقد سبق الوعيد فى صورة الخطاب للرسول - صلى الله عليه وسلم - الذى لا يتوقع منه أن يتبع أهل الكتاب، تأكيدًا للوعيد والتحذير، فكأنه يقول : لو اتبع أهواءهم أفضل الخليقة، وأعلاهم منزلة عندى، لجازيته مجازاة الظالمين، وأحق بهذه المجازاة وأولى من كانوا دونه فى الفضل وعلو المنزلة إن اتبعوا أهواء المبطلين وهم اليهود ومن على شاكلتهم من المشركين.

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى : وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ (ص : ٢٦) فإنه تحذير عام لجميع المسلمين من اتباع الهوى، والخروج به عن طاعة الله.

ومـا أجدر المسلمين أن يتدبروا هذه الآيات، فقد أصبح الهوى عند بعض الناس إلهًا معبودًا حتى قاد بعضهم إلى سوء استخدام العلم فأمسى يهدد الإنسانية ومدنيتها وحضارتها قال تعالى :

أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخذ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ . (الجاثية : ٢٣).

★ ★ ★

معرفتهم للنبى (صلى الله عليه وسلم)

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾

المفردات :

الممترين : الشاكّين .

المعنى الإجمالى :

وإن أهل الكتاب ليعلمون أن تحويل القبلة حق، ومسلَّمون أنك النبى المنعوت فى كتبهم بنعوت من جملتها أنه يصلى إلى الكعبة، ومعرفتهم نبوتك وقبلتك كمعرفتهم أبناءهم فى الوضوح والجلاء، ولكن بعضهم يخفون هذا الحق على علم به اتباعًا لهواهم، وتعصبًا باطلاً لملتهم، وإنما الحق هو ما صدر لك من الله – تعالى – لا ما يضلل به أهل الكتاب، فكونوا على يقين منه، ولا تكونوا من أهل الشك والتردد، ومن ذلك الحق أمر القبلة فامضوا عليه ولا تبالوا المعارضين.

التفسير :

١٤٦ – الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ . . . .

يقول – تعالى – إن علماء أهل الكتاب يعرفون صحة ما جاءهم به الرسول – صلى الله عليه وسلم –كما يعرف أحدهم ولده. والعرب كانت تضرب المثل فى صحة الشىء بهذا [٨]. وذكر الأبناء لأنهم ألصق بآبائهم، فهم وآباؤهم أكثر خبرة ودراية بهم، واستيثاقًا من نسبهم بحكم الفطرة. فالآية تقرر: أَنَّ أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى يعرفون أن محمدًا رسول الله معرفة حقيقية، كمعرفة الآباء للأبناء .

قال عمر لعبد الله بن سلام، وكان من أحبار اليهود قبل إسلامه: أتعرف محمدًا – صلى الله عليه وسلم – كما تعرف ابنك ؟ قال : نعم، وأكثر لقد بعث الله أمينه فى سمائه إلى أمينه فى أرضه بنعته، فعرفته، أما ابنى فلا أدرى ما كان من أمر أمه، فقبل عمر رأسه.

وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ.

وإن طائفة من أهل الكتاب مع ذلك التحقيق والإيقان العلمى من أنك على حق فى كل شئونك ليتمادون فى إخفائه وجحوده، وهم يعلمون ما يترتب على ذلك الكتمان من سوء المصير لهم فى الدنيا والآخرة.

جاء فى تفسير المنار (٩) : « كان أهل الكتاب من اليهود والنصارى يَتَنَاقَلُون خبر بعثته (صلى الله عليه وسلم) فيما بينهم ويذكرون البشارات به من كتبهم، حتى إذا ما بعثه الله - تعالى - بالهدى ودين الحق آمن به كثيرون، وكان علماؤهم يصرحون بذلك كعبد الله بن سلام وأصحابه من علماء اليهود، وتميم الدارى من علماء النصارى وغيرهم من الذين أسلموا فى عصر النبى - صلى الله عليه وسلم، والروايات فى هذا كثيرة، ومن أعجبها قصة سلمان الفارسى - رضى الله عنه (١٠).

وأما الذين أبوا واستكبروا فكانوا يكتمون البشارات به فى كتبهم ويؤولون ما بقى منها لمن اطلع عليه، ويكتمونه عمن لم يطلع عليه، وقد أربى المتأخرون ولا سيما الإفرنج منهم على المتقدمين فى المكابرة والتأويل والتضليل؛ لذلك وضح العلامة المحقق الشيخ رحمة الله الهندى هذه المسألة فى كتابه (إظهار الحق) بأمور جعلها مقدمات لبشارات تلك الكتب به - صلى الله عليه وسلم » (١١).

ومن هذه المقدمات نرى :

إن الأنبياء الإسرائيليين مثل أشعيا وأرميا ودانيال وحزقيال وعيسى - عليهم السلام - أخبروا عن الحوادث الآتية كحادثة بختنصر وقورش والإسكندر وخلفائه وحوادث أرض أدوم ومصر ونينوى وبابل، ويبعد كل البعد ألا يخبر أحد منهم عن خروج محمد - صلى الله عليه وسلم - الذى كسر الجبابرة والأكاسرة وبلغ دينه شرقا وغربا وامتد دهرا بحيث مضى على ظهوره أربعة عشر قرنا ويمتد إن شاء الله إلى آخر بقاء الدنيا (١٢).

وقد بشرت التوراة والإنجيل بالنبى محمد - صلى الله عليه وسلم - وعلماء اليهود والنصارى يعرفون هذه البشارات ولكنهم ينكرونها لمرض فى نفوسهم إلا من عصمه الله منهم فآمن.

جَاءَ فى الإصحاح الثانى والسبعين من إنجيل برنابا، على لسان المسيح - عليه السلام:

« إننى قد أتيت لأهيئ الطريق لرسول الله الذى سيأتى بقوة عظيمة على الفجار، ويبيد عبادة الأصنام من العالم». ثم قال : « وسينتقم من الذين يقولون : إنى أكبر من إنسان وسيجىء بحق أجلى من سائر الأنبياء .. وسيمتد دينه ويعم العالم ».

وجاء فى الإصحاح السابع والستين منه : « تعزيتى فى مجيئ الرسول الذى سيبيد كل رأى كاذب فىَّ، وسيمتد دينه، ويعم العالم بأسره .. ولا نهاية لدينه، لأن الله سيحفظه صحيحًا ».

والأناجيل الأخرى التى يعترف بها المسيحيون، والتوراة التى بين أيدينا الآن فيها إشارات عدة ترمز إلى النبى - صلى الله عليه وسلم [١٣].

١٤٧ - الْحَقُّ من رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ .

اعلم يا محمد أن ما أوحى إليك وأمرت به من التوجه إلى المسجد الحرام هو الحق الذى جاءك من ربك وأن ما يقوله اليهود وغيرهم من المشركين هو الباطل الذى لا شك فيه، فلا تكونن من الشاكين فى كتمانهم الحق مع علمهم به، أو فى الحق الذى جاءك من ربك وهو ما أنت عليه فى جميع أحوالك ومن بينها التوجه إلى المسجد الحرام.

والشك غير متوقع من الرسول - صلى الله عليه وسلم - ولذلك قال المفسرون إن النهى موجه إلى الأمة فى شخص نبيها - صلى الله عليه وسلم - إذ كان فيها حديثو عهد بكفر يخشى أن يفتنوا بزخرف من القول يروجه اليهود.

قال الطبرى : « وذلك من الكلام الذى تخرجه العرب مخرج الأمر أو النهى للمخاطب به، والمراد به غيره، كما قال - جل ثناؤه - : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ. . . ثم قال: واتبع ما يوحىٰ إِلَيْكَ من رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً (٢) (الأحزاب : ١-٢) فخرج الكلام مخرج الأمر للنبى - صلى الله عليه وسلم - والنهى له، والمراد به أصحابه المؤمنون به » [١٤].

★ ★ ★

لكلٍّ وِجهة

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٤٨) ﴾

المفردات :

وجهة : جهة.

موليها : متجه إليها.

فاستبقوا الخيرات : فاطلبوا السبق إليها.

المعنى الإجمالى :

إن هذه القبلة التى حولناك إليها هى قبلتك وقبلة أمتك، وكذلك لكل أمة قبلة تتجه إليها فى صلاتها حسب شريعتها السابقة، وليس فى ذلك شىء من التفاضل، وإنما التفاضل فى فعل الطاعات

وعمل الخيرات، فسارعوا إلى الخيرات وتنافسوا فيها وسيحاسبكم الله على ذلك فإنه سيجمعكم يوم القيامة من أى موضع كنتم، ولن يفلت منه أحد، وبيده كل شىء بما فى ذلك الإماتة والإحياء والبعث والنشور.

١٤٨ - وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ . . . .

أى لكل أهل ملة قبلة يتجهون إليها فى عبادتهم، فسارعوا أنتم جهدكم إلى ما اختاره الله لكم من الأعمال التى تكسبكم سعادة الدارين، والتى من جملتها التوجه إلى البيت الحرام.

قال أبو العالية : « لليهودى وجهة هو موليها، وللنصرانى وجهة هو موليها، وهداكم أنتم - أيتها الأمة - إلى القبلة التى هى القبلة الحقة. وروى عن مجاهد وعطاء نحو هذا » [١٥].

وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى : لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا (المائدة : ٤٨).

أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

هو - سبحانه - قادر على جمعكم من الأرض وإن تفرقت أجسادكم وأبدانكم.

كما أنه - سبحانه - قدير على كل شىء، وما دام الأمر كذلك فبادروا بالأعمال الصالحة شكرًا لربكم، وحافظوا على قبلتكم، حتى لا تضلوا كما ضل اليهود ومن على طريقتهم فى الكفر والعناد.

★ ★ ★

الاتجـــاه إلى الكعبـة

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٩) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٠) ﴾

المفردات :

ومن حيث خرجت : حيث ظرف مكان أى ومن أية جهة خرجت.

فول وجهك شطر المسجد الحرام : أى فوجه وجهك جهة المسجد الحرام.

المعنى الإجمالى :

فاستقبل المسجد الحرام فى صلاتك من كل مكان كنت فيه سواء أكان ذلك فى حال إقامتك أم فى حال سفرك وخروجك من مكان إقامتك، وإن هذا لهو الحق الموافق لحكمة ربك الرفيق بك، والله عالم علمًا لا يخفى عليه شىء من عملكم.

والتزم أمر الله فى القبلة واحرص عليه أنت وأمتك فاجعل وجهك فى ناحية المسجد الحرام من كل مكان خرجت إليه فى أسفارك، واستقبلوه حيثما كنتم من أقطار الأرض مسافرين أو مقيمين، لينقطع كل ما يحاجكم به المخالفون ويجادلونكم به، إذا لم تمتثلوا لأمر هذا التحويل. فسيقول اليهود: كيف يصلى محمد إلى بيت المقدس والنبى المنعوت فى كتبنا من أوصافه التحول إلى الكعبة.

وسيقول المشركون العرب، كيف يدعى ملة إبراهيم ويخالف قبلته؟ على أن الظالمين الزائغين عن الحق من الجانبين لن ينقطع جدالهم وضلالهم، بل سيقولون: ما تحول إلى الكعبة إلا ميلا إلى دين قومه وحبا لبلده فلا تبالوا بهم فإن مطاعنهم لا تضركم، واخشونى فلا تخالفوا أمري، وقد أردنا بهذا الأمر أن نتم النعمة عليكم وأن تكون القبلة التى وجهناكم إليها أدعى إلى ثباتكم على الهداية والتوفيق.

التفسير :

١٤٩ - وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ .

أى ومن أى مكان خرجت - يا محمد - فول وجهك تلقاء المسجد الحرام عند الصلاة، وأينما كنتم أيها المؤمنون من أرض الله فولوا وجوهكم فى صلاتكم تجاهه ونحوه. وتلك هى المرة الثانية التى تكرر فيها الأمر للمؤمنين بالتوجه إلى المسجد الحرام فى صلاتهم، وسيتكرر مرة ثالثة فى الآية التالية.

ويوحى هذا التكرار بأن حملة ضالعة من اليهود وأشياعهم كانت تتقول على المسلمين وتحاول فتنتهم عند تحويل القبلة إلى البيت الحرام. فكرر الله - سبحانه - الأمر بالتوجه إليه لتأكيد أمر القبلة فى نفوس المسلمين حتى يستقر فى مشاعرهم، ويذهب ما يثار حولها من شبهات أدراج الرياح.

ولأن الله - تعالى - أناط بكل واحد من هذه الأوامر بالتحول ما لم ينط بالآخر من أحكام فاختلفت فوائدها.

وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ .

أى وإن الاتجاه إلى المسجد الحرام فى أى مكان، لهو الأمر الثابت الموافق للحكمة المنزل عليك من ربك، الذى والاك بفضله وإحسانه، فلا تعدل عن استقبال القبلة التى شرعها لك، فإنه مطلع على عملك وعلى أعمال عباده جميعا فيجازيهم حسبما عملوا.

★ ★ ★

١٥٠ - وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ.. .

وهو أمر للرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يولى وجهه شطر المسجد الحرام من حيث خرج، وإلى المسلمين أن يولوا وجوههم شطره حيثما كانوا، وبيان لعلة هذا التوجه :

لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ.

والمراد من الناس اليهود ومن لف لفهم من المناوئين للدعوة الإسلامية.

والمعنى : عليك أيها النبى ومن معك من المؤمنين أن تتجهوا فى صلاتكم إلى الكعبة المشرفة، لكى تقطعوا دابر فتنة اليهود وحجتهم ، فقد قالوا لكم وقت اتجاهكم إلى بيت المقدس، إذا كان لكم أيها المسلمون دين يخالف ديننا فلماذا تتجهون إلى قبلتنا، إلى غير ذلك من أقوالهم الفاسدة، فاتجاهكم إلى المسجد الحرام من شأنه أن يزيل هذه الحجة التى قد تبدو مقبولة فى نظر ضعاف العقول.

إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ.

وهذه الجملة استثناء من الناس، والمعنى لئلا يكون لأحد من اليهود حجة عليكم، إلا المعاندين منهم القائلين ما ترك قبلتنا إلى الكعبة إلا حبًّا لدين قومه واشتياقًا لمكة. وهؤلاء الظالمون لا يقفون عند الحجة والمنطق، وإنما ينساقون مع العناد واللجاج، فهؤلاء لا سبيل إلى إسكاتهم فسيظلون إذن فى لجاجهم فلا على المسلمين منهم.

فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي .

فلا تحفلوا بهم فتميلوا عما جاءكم من عندى، فأنا الذى أستحق الخشية بما أملك من أمركم فى الدنيا والآخرة.

وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ.

أى وأمرتكم بذلك لأتم نعمتى عليكم، ولعلكم تهتدون بامتثال ما أمرتكم به إلى سعادة الدارين.

ومن تمام نعمة الله على المسلمين: جمع الكلمة، وتوحيد الصف، وتوحيد القبلة، وتوحيد الهدف، وتغيير معالم الجاهلية وما فيه من شقاق ونزاع وخلاف إلى معالم الإسلام وما فيه من إيمان ، ورحمة، ووحدة وعزة.

وقد كان المسلمون يجدون أثر النعمة فى حياتهم العامة كما وجدوه فى قلوبهم وفى مكانهم من الأمم حولهم.

ونجد فى تكرار الأمر بشأن القبلة الجديدة معنى جديدًا فى كل مرة.. **فى المرة الأولى** كان الأمر

بالتوجه إلى المسجد الحرام استجابة لرغبة الرسول - صلى الله عليه وسلم - بعد تقلب وجهه فى السماء وضراعته الصامتة إلى ربه فى قوله سبحانه :

قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ· (البقرة : ١٤٤)

وفى المرة الثانية كان لإثبات أنه الحق من ربه فى قوله تعالى :

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ · (البقرة : ١٤٩)

وفى المرة الثالثة كان لقطع حجة الناس والتهوين من شأن من لا يقف عند الحق والحجة.. فى قوله تعالى :

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي· (البقرة : ١٥٠)

وقال القرطبى نقلا عن غيره فى تعليل التكرار :

إن موقع التحويل كان معنتًا فى نفوسهم جدًا فأكد الأمر، ليرى الناس الاهتمام به، فيخفف عليهم، وتسكن نفوسهم إليه. ويمكن حمل التكرار على أن الآية الأولى :

فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ. لتشريع تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة.

وقوله بعد ذلك :

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ . لتشريع الاتجاه إليها فى الأسفار.

وقوله : وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ . لتشريع الاتجاه إليها من المقيمين فى بقاع الأرض المختلفة.

★ ★ ★

الرسول الهادى

﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾

المفردات :

يزكيكم : يطهركم.

الكتاب : القرآن الكريم.

المعنى الإجمالى :

وإن توجهكم إلى المسجد الحرام لهو بإرسالنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آيات القرآن، ويطهر نفوسكم عمليًّا من دنس الشرك وسيئ الأخلاق والعادات، ويكلمكم علميًّا بمعارف القرآن والعلوم النافعة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون : فقد كنتم فى جاهلية جهلاء وضلالة عمياء.

التفسير :

١٥١ - كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا . . .

الخطاب للعرب. والآية متصلة بما قبلها والمعنى : ولأتم نعمتى عليكم فى أمر القبلة كما أتممتها بإرسال رسول منكم يتلو عليكم القرآن [١٦].

وفى إرسال الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيهم وهو منهم نعمة تستوجب المزيد من الشكر لأن إرساله منهم يسبقه معرفتهم لنشأته الطيبة، وسيرته العطرة، ومن شأن هذه المعرفة أن تحملهم على المسارعة إلى تصديقه والإيمان به. ولأن فى إرساله فيهم وهو منهم شريفا عظيما لهم. ولأن المشهور من حالهم الأنفة الشديدة من الانقياد لغيرهم، فكون الرسول منهم أدعى إلى إيمانهم به وقبولهم لدعوته. وقوله : يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا .. صفة ثانية للرسول - صلى الله عليه وسلم.

قال الألوسى : « فى هذه الجملة إشارة إلى طريق إثبات نبوته - عليه الصلاة والسلام - لأن تلاوة الأمى للآيات الخارجة عن طوق البشر باعتبار بلاغتها واشتمالها على الإخبار بالمغيبات والمصالح التى ينتظم بها أمر المعاد والمعاش أقوى دليل على نبوته » [١٧].

وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ.

ويطهر نفوسكم ويمحِّصها لله بوعظه وإرشاده حتى يكون عملكم خالصا لوجه الله - تعالى - وتتلاقى القلوب على محبة ورضوان من الله وتكونوا دائمًا فى نصرة دين الله، ويعلمكم كتاب الله وما فيه من أصول التوحيد، وشعائر الدين، ومناهج الخلق الفاضل ليكون ذلك دستورًا لكم.

ويعلمكم الحكمة وهى سنة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وما يصدر عنه من الأقوال والأفعال التى جعل الله الناس فيها أسوة حسنة. ومن معانى الحكمة، إصابة الحق والصواب، ووضع الأمور فى مواضعها.

وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ.

أى ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمونه مما لا طريق إلى معرفته سوى الوحى، ومما لم يكونوا يعلمونه، وعلمهم إياه ... صلى الله عليه وسلم.

ولقد كان العرب قبل الإسلام فى حالة شديدة من ظلام العقول وفساد العقائد.

« فانتقلوا ببركة رسالته إلى حال الأولياء وسجايا العلماء، فصاروا أعمق الناس علما، وأبرهم قلوبا، وأقلهم تكلفا، وأصدقهم لهجة »[١٨].

قال تعالى : لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ . (آل عمران : ١٦٤).

★ ★ ★

الذكر والشكر

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾

التفسير :

١٥٢ - فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ . . .

فاذكرونى بالطاعة والاستجابة لما أمرتكم به والبعد عما نهيتكم عنه، أذكركم بالثواب وبالثناء فى الملإ الأعلى.

وفى الحديث الصحيح : « يقول الله - تعالى - من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، ومن ذكرنى فى ملإٍ ذكرته فى ملإٍ خير منه »[١٩].

وروى الإمام أحمد عن أنس قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « قال الله - عز وجل - : « يا ابن آدم، إن ذكرتنى فى نفسك ذكرتك فى نفسى، وإن ذكرتنى فى ملإٍ ذكرتك فى ملإٍ من الملائكة - أو قال فى ملإٍ خير منهم، وإن دنوت منى شبرا دنوت منك ذراعا، وإن دنوت منى ذراعا دنوت منك باعا، وإن أتيتنى تمشى أتيتك أهرول » صحيح الإسناد، وأخرجه البخارى[٢٠] . قال الإمام النووى : واعلم أن فضيلة الذكر غير منحصرة فى التسبيح والتحميد بل كل عامل لله بطاعة فهو ذاكر لله.

وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ.

اشكروا لى ما أنعمت به عليكم من ضروب النعم، بأن تستعملوا النعم فيما خلقت له، وبأن تطيعونى فى السر والعلن، وحذار من أن تجحدوا إحسانى إليكم ونعمى عليكم فأسلبكم إياها.

قال تعالى : لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ. (إبراهيم : ٧)

وقد أعطى الله قارون المال الوفير، فلما ادعى أنه ناله بجهده وعلمه، وقال : إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ

عندي. (القصص : ٧٨) خسف الله به وبداره الأرض، ولما أعطى الله سليمان ملكه الواسع قال : هَٰذَا من فضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ (النمل : ٤٠) . (فشكر الله فحفظ الله عليه نعمته) .



الصبر والصلاة

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣ ﴾

المفردات :

الصبر : ضبط النفس وقوة الاحتمال.

المعنى الإجمالى :

واستعينوا أيها المؤمنون فى كل ما تأتون وما تذرون بالصبر على الأمور الشاقة، والصلاة التى هى أم العبادات، إن الله بقدرته القاهرة مع الصابرين فهو وليهم وناصرهم.

التفسير :

١٥٣ – يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ . . .

يعد الله المسلمين لما سيواجهونه من الفتن والمحن والحروب، ويدربهم تدريبا نفسيًا على ملاقاة الشدائد، واحتمال الأهوال، فيأمرهم – سبحانه وتعالى – : أن يستعينوا على خوض غمار الأحداث والمحن بسلاحين رئيسيين هما : الصبر والصلاة. كما تقدم فى قوله : وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ (البقرة : ٤٥) .

وقد ذكر الصبر فى القرآن فى نحو سبعين موضعا، وأورد ابن قيم الجوزية فى كتابه (عدة الصابرين) أكثر من عشرين فضيلة للصبر.

وبعض المفسرين يقسم الصبر إلى ثلاثة أنواع : صبر على ترك المحارم ، وصبر على فعل الطاعات؛ وصبر على المكاره والنوازل.

ومن أهم مواطن الصبر : الصبر عند لقاء العدو جهادًا فى سبيل الله .

ولهذا كان ثواب الصابرين غير محدود بقوله – سبحانه – : إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ (الزمر : ١٠) .

وأما الصلاة فهى أم العبادات : ومعراج المؤمنين إلى منازل الصالحين، واستغراق المؤمن فيها علاج لما قد يتعرض له من أخطار الحياة .

وقد كان - صلى الله عليه وسلم - إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة. إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ .

يمنحهم السكينة والعزاء والعوض، وليس الصبر بلادة فى الإحساس واستسلاما للنوازل، وإنما هو ثبات على مكافحة البلاء.

★ ★ ★

حيـــاة الشهداء

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾

المعنى الإجمالى :

(٧) ولن يؤدى الصبر إلا إلى الخير والسعادة فى الدارين، فلا تقعدوا عن الجهاد فى سبيل الله ولا ترهبوا الموت فيه فمن مات فى الجهاد فليس بميت بل هو حى حياة عالية وإن كان الأحياء لا يحسون بها.

التفسير:

١٥٤ - وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ .

أى لا تقولوا - أيها المؤمنون - لمن يقتل من أجل إعلاء كلمة الله ونصرة دينه أنهم أموات، بمعنى أنهم تلفت نفوسهم وعدموا الحياة، وتصرمت عنهم اللذات، وأضحوا كالجمادات كما يتبادر من معنى الموت. بل هم أحياء فى عالم غير عالمكم كما قال تعالى : وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (آل عمران : ١٦٩-١٧١).

وفى صحيح مسلم : « إن أرواح الشهداء فى حواصل طيور خضر، تسرح فى الجنة حيث شاءت، ثم تأوى إلى قناديل معلقة تحت العرش، فاطلع عليهم ربك إطلاعة فقال : ماذا تبغون؟ فقالوا : يا ربنا، وأى شىء نبغى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك ؟ ثم عاد عليهم بمثل هذا، فلما رأوا أنهم لا يتركون من أن يسألوا ، قالوا : نريد أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل فى سبيلك حتى نقتل فيك مرة أخرى، لما يرون من ثواب الشهادة، فيقول الرب - جلا جلاله - : « إنى كتبت أنهم إليها لا يرجعون » [٢١].

وفى الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن الإمام الشافعى عن الإمام مالك عن الزهرى، عن

عبدالرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « نسمة المؤمن طائر تعلق فى شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه» (٢٢) ففيه دلالة لعموم المؤمنين أيضًا، وإن الشهداء قد خصصوا بالذكر تشريفًا لهم وتكريمًا وتعظيمًا (٢٣).

وحياة الشهداء عند ربهم حياة تكريم مصحوبة برزق من الله وفضل منه عليهم، وعلينا أن نفوِّض كيفية هذه الحياة وكُنهها إليه سبحانه؛ لأنها حياة من نوع معين لا يعلمها إلا علام الغيوب.

★ ★ ★

بشرى للصابرين

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧) ﴾

المفردات :

ولنبلوتكم : ولنمتحننكم.

صلوات من ربهم : الأصل فى الصلاة الدعاء، والصلاة من العبد دعاء، ومن الملائكة استغفار، ومن الله رحمة.

المعنى الإجمالى :

وسيصادفكم كثير من الشدائد فسنمتحنكم بكثير من خوف الأعداء والجوع وقلة الزاد والنقص فى الأموال والأنفس والثمرات، ولن يعصمكم فى هذا الامتحان القاسى إلا الصبر، فبشر يا أيها النبى الصابرين بالقلب واللسان، الذين إذا نزل بهم ما يؤلمهم قالوا : إنا ملك لله تعالى، وراجعون إليه، فليس لنا من أمرنا شىء، وله الشكر على العطاء، وعلينا الصبر عند البلاء، وعند المثوبة والجزاء، فهؤلاء الصابرون المؤمنون بالله لهم البشارة الحسنة بغفران الله وإحسانه، وهم المهتدون إلى طريق الخير والرشاد.

التفسير :

١٥٥ - وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ . . .

جعل الله الدنيا دار اختبار وابتلاء قال تعالى :

الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً . (الملك : ٢)

ومن شأن الحكمة الإلهية أن تختبر الإنسان بالخير والشر، قال تعالى : وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ. (الأنبياء : ٣٥)

فالله سبحانه يمتحن الإنسان بالمال والجاه والسلطان والنعمة وسعة الرزق حينا، قال سبحانه -: إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً. (الكهف : ٧) ، كما يختبر الإنسان بالبلاء والشدة والفقر ونقص الأموال ونحو ذلك حينا آخر.

قال تعالى : وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ . (محمد : ٣١)

ومعنى الابتلاء من الله : أن يعاملهم الله معاملة المختبر ليتميز الصابر المجاهد المحتمل، من الضعيف فى دينه ونفسه، فمن صبر أثابه، ومن قنط أحل به عقابه: وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ . . .

والخوف يكون من قلة الموارد، ونحو ذلك .

ونقص الأموال بقلة الكسب والخسارة فى التجارة وغيرها.

ونقص الأنفس بالقتل والموت.

ونقص الثمرات بنحو الآفات فى المزارع والحدائق، وقيل المراد بالثمرات هنا الأولاد.

★ ★ ★

وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ .

١٥٦ - الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ .

والمعنى: وبشر يا محمد بالرحمة العظيمة والإحسان الجزيل أولئك الصابرين الذين من صفتهم أنهم إذا نزلت بهم مصيبة فى أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم أو غير ذلك، قالوا بألسنتهم وقلوبهم على سبيل التسليم المطلق لقضاء الله وقدره. إِنَّا لِلَّهِ . أى إنا لله ملكا وعبودية والمالك يتصرف فى ملكه ويقلبه من حال إلى حال كيف يشاء.

وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . وإنا إليه صائرون يوم القيامة فيجازينا على ما أمرنا به من الصبر والتسليم لقضائه عند نزول الشدائد التى ليس فى استطاعتنا دفعها.

قال القرطبى :

جعل الله هذه الكلمات وهى قوله تعالى : إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. ملجأ لذوى المصائب وعصمة للممتحنين، لما جمعت من المعانى المباركة، فإن قوله: إِنَّا لِلَّهِ . توحيد وإقرار بالعبودية والملك، وقوله: وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . إقرار بالهلاك على أنفسنا والبعث من قبورنا، واليقين أن رجوع الأمر كله إليه كما هو له.

قال سعيد بن جبير : لم تعط هذه الكلمات نبيًّا قبل نبينا ولو عرفها يعقوب لما قال : يا أسفى على يوسف [٢٤].

وربما حزن الإنسان لفقد حبيب أو بكى لفراقه، وهذه رحمة وعاطفة فطرية فى الإنسان. ولكن المحرم هو الجزع المفضى إلى إنكار حكمة الله فيما نزل به من بأساء أو ضراء، أو إلى فعل ما حرَّمه الإسلام من نحو النياحة وشق الجيوب، ولطم الخدود.

وقد ورد فى الصحيحين أن النبى - صلى الله عليه وسلم - بكى عند موت ابنه إبراهيم وقال : «العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون ».

ثم يبين سبحانه ما أعده للصابرين من أجر جزيل فقال :

١٥٧- أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ .

تقع هذه الآية فى جواب سؤال تقديره بماذا بشر الله الصابرين ؟ والجواب هو : أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ . . .

والمعنى : أولئك الصابرون المحتسبون الموصوفون بتلك الصفات الكريمة عليهم مغفرة عظيمة من خالقهم، وإحسان منه سبحانه يشملهم فى دنياهم وآخرتهم.

وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ . إلى مطالبهم الدنيوية والأخروية، فإن من نال رأفة الله لم يفته مطلب.

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : نعم العدلان ونعمت العلاوة: أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ . فهذان العدلان. وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ . فهذه العلاوة [٢٥].

وقد ورد مدح الصبر والصابرين فى القرآن الكريم، قال تعالى: إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا . (الأحزاب : ٣٥).

وقال سبحانه: إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ. (الزمر : ١٠).

وقال عز شأنه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . (آل عمران: ٢٠٠).

كما حفلت كتب السنة الصحاح بالحث على الصبر وبيان أجر الصابرين .

وروى الشيخان عن أبى سعيد وأبى هريرة عن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها إلا كفَّر الله بها من خطاياه »(٢٦).

وفى صحيح مسلم عن أم سلمة قالت : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول : إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيرًا منها، إلا آجره الله فى مصيبته وأخلف له خيرًا منها . قالت : فلما توفى أبو سلمة قلت : من خير من أبى سلمة صاحب رسول الله؟ ثم عزم الله لى فقلتها، قالت: فتزوجنى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (٢٧).

★ ★ ★

الصفا والمروة

﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ ﴾

المفردات :

الصفا والمروة : هضبتان ملتحقتان حاليا بالمسجد الحرام يسعى بينهما الحاج والمعتمر.

من شعائر الله : من علامات دين الله فى الحج والعمرة، والشعائر لغة جمع شعيرة، وهى العلامة. وكون الصفا والمروة من شعائر الله أى من أعلام دينه ومتعبداته تعبدنا الله بالسعى بينهما فى الحج والعمرة. وشعائر الحج: معالمه الظاهرة للحواس، التى جعلها الله أعلامًا لطاعته ومواضع نسكه وعبادته، كالمطاف والمسعى والموقف والمرمى والمنحر.

فمن حج البيت : أى قصد الكعبة لأداء المناسك فى موسم الحج، والحج لغة القصد، وشرعًا قصد الكعبة للنسك المشتمل على الوقوف بعرفة فى زمن مخصوص.

أو اعتمر : أى زار، والعمرة الزيارة مأخوذة من العمارة كأن الزائر يعمر البيت الحرام بزيارته، وشرعا الزيارة لبيت الله المعظم بأعمال مخصوصة، وهى الإحرام والطواف والسعى بين الصفا والمروة.

فلا جناح عليه أن يطوف بهما : فلا إثم عليه فى أن يسعى بينهما.

ومن تطوع خيرا : أى ومن زاد خيرا على ما طلب منه.

المعنى الإجمالى :

وكما أن الله رفع شأن الكعبة بجعلها قبلة الصلاة، رفع أمر الجبلين اللذين يشارفانها، وهما الصفا والمروة فجعلهما من مناسك الحج. فيجب بعد الطواف السعى بينهما سبع مرات، وقد كان منكم من يرى حرجا لأنه من عمل الجاهلية، ولكن الحق أنه من معالم الإسلام؛ فلا حرج على من ينوى الحج أو العمرة أن يسعى بين هذين الجبلين، وليأت المؤمن من الخير ما استطاع فإن الله عليم بعمله ومثيبه عليه.

التفسير :

١٥٨ - إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ .

السعى بين الصفا والمروة من معالم الحج ومناسكه فمن أراد الحج أو العمرة وجب عليه أن يسعى بينهما بالطواف سبعة أشواط لأن هذا السعى مطلوب للشارع ومعدود من الطاعات.

والمتأمل فى الآية يرى أنها نفت الحرج والمؤاخذة عمن سعى بين الصفا والمروة، ولم تأمر بهذا السعى. والوقوف على سبب نزول الآية يوضح الأمر.

روى البخارى عن عاصم بن سليمان قال : سألت أنس بن مالك عن الصفا والمروة فقال : كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية فلما كان الإسلام أمسكنا عنهما، فأنزل الله - عز وجل - : إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا.

وفى رواية الترمذى عن أنس أنهما : « كانا من شعائر الجاهلية ».

وفى رواية للنسائى عن زيد بن حارثة قال : « كان على الصفا والمروة صنمان من نحاس يقال لهما « أساف ونائلة » كان المشركون إذا طافوا تمسحوا بهما ».

ويؤخذ من هذه الروايات أن بعض المسلمين كانوا يتحرجون من السعى بين الصفا والمروة لأسباب من أهمها أن هذا السعى كان من شعائرهم فى الجاهلية. وأنه كان فى الجاهلية مقترنًا بالتمسح بصنمين أحدهما على الصفا والثانى على المروة.

فلما جاء الإسلام أقر السعى بين الصفا والمروة، بعد أن أزال الأصنام وجعل الذكر لله - تعالى - وحده، وهذا وأمثاله من السياسة الشرعية فى الإسلام، فإنه إذا أقر أمرا كان معروفا فى الجاهلية، لحكمة تقتضى إقراره جرده من مظاهر الوثنية، ووجهه إلى الله - تعالى - قصدًا وذكرًا.

وقد اختلفت أقوال الفقهاء فى حكم السعى بين الصفا والمروة. فمنهم من يرى أنه من أركان الحج

كالإحرام والطواف والوقوف بعرفة، وإلى هذا الرأى ذهب الشافعى وأحمد بن حنبل ومالك فى أشهر الروايتين عنه.

ومنهم من يرى أنه واجب يجبر بالدم، وإلى هذا الرأى ذهب الأحناف، ومن حججهم أنه لم يثبت بدليل قطعى فلا يكون ركنا.

وقيل السعى بين الصفا والمروة مستحب.

قال ابن كثير:

والقول الأول أرجح؛ لأنه - عليه الصلاة والسلام - طاف بينهما ، وقال : لتأخذوا عنى مناسككم. فكل ما فعله فى حجته تلك واجب لابد من فعله فى الحج إلا ما خرج بدليل، والله أعلم [٢٨] .

واعلم أن السعى بين الصفا والمروة، شعيرة موروثة عن أم إسماعيل - عليه السلام - فقد جاء فى حديث طويل رواه البخارى عن ابن عباس بعدما ذكر : أن إبراهيم - عليه السلام - جاء بهاجر وابنها إسماعيل، عند مكان البيت وتركهما، فقالت له : « يا إبراهيم : أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه إنس ولا شىء ؟ » ثم قالت : « آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذاً لا يضيعنا ».

ومضى ابن عباس فى الحديث إلى أن قال : « حتى إذا نفد ما فى السقاء، عطشت، وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها فقامت عليه، ثم استقبلت الوادى تنظر، هل ترى أحدا فلم تر أحدا، فهبطت من الصفا، حتى إذا بلغت الوادي، رفعت طرف درعها ثم سعت سعى الإنسان المجهود، ثم جاوزت الوادى حتى أتت المروة فقامت عليه.. إلى أن قال « ففعلت ذلك سبع مرات ».

قال ابن عباس : قال النبى - صلى الله عليه وسلم - : « فذلك سعى الناس بينهما ». ومضى فى الحديث إلى أن قال : « فإذا هى بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه - أو قال بجناحه - حتى ظهر الماء « أى ماء زمزم » [٢٩].

قال ابن كثير:

« فالساعى بين الصفا والمروة ينبغى له أن يستحضر فقره وذله وحاجته إلى الله فى هداية قلبه وصلاح حاله وغفران ذنبه، وأن يلتجئ إلى الله - عز وجل - ليزيح ما هو به من النقائص والعيوب؛ وأن يهديه إلى الصراط المستقيم، وأن يثبته عليه إلى مماته، وأن يحوله من حاله الذى هو عليه من الذنوب والمعاصى إلى حال الكمال والغفران والسداد والاستقامة، كما فعل بهاجر - عليها السلام » [٣٠].

★ ★ ★

كتمان العلم

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ ﴾

المفردات :

البينات	: الحجج الواضحات ، جمع بينة .
الهـدى	: ما يهدى إلى الحق والرشاد .
فى الكتاب	: المراد به ما يشمل جميع الكتب السماوية، ومنها التوراة والإنجيل والقرآن.
يلعنهم الله	: يطردهم من رحمته.
ويلعنهم اللاعنون	: يسخط عليهم الناس.
وبينوا	: أى أظهروا ما كتموه.

المعنى الإجمالى :

وأولئك الذين أنكروا أمر دينكم فريقان : فريق من أهل الكتاب الذين يعرفون الحق ويخفونه على علم وعناد، وفريق المشركين الذين عميت قلوبهم عن الحق فاتخذوا أربابا من دون الله، فأهل الكتاب الذين عرفوا براهين صدقك، تبينوا الحق فى دينك ثم أخفوا هذه الدلائل وكتموها، أولئك يصب الله عليهم غضبه، ويبعدهم عن رحمته. ولا يستثنى منهم إلا من تاب وأحسن فرجع عن الكتمان، وتدارك أمره بإظهار ما كان يخفيه من وصف الرسول والإسلام؛ فإن الله يتقبل توبته ويمحو ذنبه، فهو الذى يقبل التوبة من عباده رأفة منه ورحمة .

التفسير :

١٥٩ - إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ.

إن الذين يخفون عن قصد وتعمد وسوء نية ما أنزل الله على رسله من آيات واضحة دالة على الحق، ومن علم نافع يهدى إلى الرشد من بعد ما شرحناه للناس فى كتاب يتلى، أولئك الذين فعلوا ذلك يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ . بأن يبعدهم عن رحمته وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ . أى ويلعنهم كل من تتأتى منه اللعنة: كالملائكة والمؤمنين، بالدعاء عليهم بالطرد من رحمة الله.

وتفيد هذه الجملة الأخيرة نهاية الغضب عليهم، حتى لكأنهم تحولوا إلى ملعنة ينصب عليها اللعن من كل مصدر، ويتوجه إليها من كل من يستطيع اللعن ويؤديه. إما بلسان المقال أو الحال، أو يوم القيامة.

« قال أبو العالية : نزلت فى أهل الكتاب، كتموا صفة محمد - صلى الله عليه وسلم » (٣١).

والآية الكريمة، وإن كانت نزلت فى أهل الكتاب بسبب كتمانهم للحق، إلا أن وعيدها يتناول كل من كتم علما نافعا، أو غير ذلك من الأمور التى يقضى الدين بإظهارها، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وقد ورد فى الحديث المسند من طرق يشد بعضها بعضا عن أبى هريرة وغيره أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم قال : « **من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار** » (٣٢).

وفى صحيح البخارى عن أبى هريرة قال : إن الناس يقولون أكثر أبو هريرة ولولا آيتان فى كتاب الله ما حدثت حديثا، ثم تلا قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ . . . إلى قوله «الرحيم» (٣٣).

هذا وينبغى أن يعلم أن الإسلام وإن كان ينهى نهيا قاطعا عن كتم العلم الذى فيه منفعة للناس، إلا أنه يوجب على أتباعه وخصوصا العلماء أن يحسنوا اختيار ما ينشرونه على الناس من علم، قال علماؤنا: « ليس كل ما يعلم يقال، ولا كل ما يقال جاء وقته، ولا كل ما جاء وقته حضر أهله ».

وقال ابن مسعود « ما أنت بمحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة.

وفى هذا المعنى يقول - صلى الله عليه وسلم:

« **حدثوا الناس بما يفهمون.. اتحبون ان يكذَّب الله ورسوله؟** » (٣٤).

★ ★ ★

ركبت مرة مع سائق تاكسى فى رمضان وكان مفطراً يدخن السيجارة فى رائعة النهار. فقلت له: لماذا لا تصوم ؟ قال : الصيام يجعلنى سيئ الأخلاق على الناس، أشتمهم أو أسىء معاملتهم، فأفطرت وسأطعم مساكين أو أتصدق عليهم، وحاول أن يستشهد بالمعنى المفهوم له من قوله - سبحانه - وعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ ، والتمس منى الموافقة على ذلك. فقلت له : أنت قوى البنية، سليم الحواس، موفور الصحة، وتلك نعمة كبرى من الله تستحق منك الشكر، والصيام ، ولو بعض أيام رمضان وأن تصلى الصلوات حتى تجد حلاوة الإيمان.

فإذا بليت بالإفطار فاستتر فى مكان خال، ولا تدخن أمام جماهير المسلمين.

لقد كان هذا السائق يريد أن يستغل بعض العلم، فى إطعام المساكين عند تعذر الصيام، والتمس

منى مساعدته فى ذلك فكتمت عنه علم هذه المسألة، لأنى رأيته صحيح الجسم ويريد أن يستغلها فى إفطار رمضان بدون رخصة أو عذر.

★ ★ ★

١٦٠ – إِلاَّ الذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ .

أى إلا الذين رجعوا عما كانوا فيه وأصلحوا أعمالهم وبينوا للناس ما كانوا كتموه، فإن الله - عز وجل - يقبل توبتهم من رحمته ومغفرته، وهو سبحانه غافر الذنب وقابل التوب.

فالآية الكريمة قد فتحت للكاتمين العلم باب التوبة وأمرتهم بولوجه ويسرت لهم طريق الاستقامة والرجوع إلى الصواب .

وقد اشتملت الآية على أركان التوبة وهى :

١ - الإقلاع عن الذنب، ويشير إليه قوله تعالى : (تابوا).

٢ - الندم على ما فات لأنه من تمام التوبة.

٣ - رد المظالم إن وجدت، ويشير إليه قوله : (وأصلحوا).

٤ - العزم على الاستقامة فى المستقبل ويشير إليه قوله : (وبينوا).

★ ★ ★

عذاب الكافرين

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾

المعنى الإجمالى :

أما الذين استمروا على الكفر، وماتوا على ذلك دون توبة ولا ندم، فجزاؤهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، وسيستمرون فى هذه اللعنة وفى النار، لا يخفف عنهم العذاب ولن يمهلوا ويؤخروا ولو طلبوا الإمهال والتأخير لم يجابوا إليه.

التفسير:

١٦١ – إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ .

إن الذين كفروا بالهدى الذى جاء به محمد – صلى الله عليه وسلم – وأصروا على الكفر فلم

يتوبوا غير مكترثين بما يقرع أسماعهم من آيات الهدى، وما تراه أبصارهم من دلائل الحق، وأقاموا على إصرارهم، حتى ماتوا وهم كفار، أولئك تستمر عليهم لعنة الله التى لازمتهم من أول كفرهم، ولعنة الملائكة والناس.

وجميع هؤلاء تستمر لعنتهم عليهم، بسبب إصرارهم على الكفر.

١٦٢ - خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ .

خالدين فى لعنة الله أو فى النار، لا يخفف عنهم العذاب بأنواعه يوم القيامة، فهم فيه معذبون بغضب الله ونار جهنم، والزمهرير.

وَلا هُمْ يُنظَرُونَ : أى لا يمهلون ولا يؤخرون ساعة دون عذاب، مأخوذ من الإنظار بمعنى التأخير والإمهال.

وقوله تعالى : خَالِدِينَ فِيهَا : الضمير فى قوله: فِيهَا . راجع إلى النار، مع أنه لم يسبق ذكرها، للإيذان بأنها معروفة حاضرة فى الذهن وإن لم تذكر، تهويلاً لأمرها.

والخلود هو البقاء إلى غير نهاية، ويستعمل بمعنى البقاء مدة طويلة، وإذا وصف به عذاب الكافر أريد به المعنى الأول، أى البقاء إلى غير نهاية.

★ ★ ★

إله واحد

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾

المفردات :

إله : الإله : المعبود.

الرحمن الرحيم : صيغتان للمبالغة فى الرحمة الأولى سماعية والثانية قياسية، وتختص الأولى بالله تعالى ويجوز إطلاق الثانية على غيره.

التفسير :

١٦٣ - وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيم.

وإلهكم الذى يستحق العبادة والخضوع، إله واحد فرد صمد. فمن عبد شيئًا دونه، أو عبد شيئًا معه فعبادته باطلة فاسدة، ثم هو بليغ الرحمة، فقد عمت رحمته فى الدنيا المؤمن والكافر، والبر والفاجر، وعمت رحمته فى الآخرة أهل الإيمان : من وفَّى منهم، ومن قصَّر وتاب.

قال تعالى :

قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ . (الزمر : ٥٣-٥٤)

سبب النزول :

عن ابن عباس - رضى الله عنه - أن كفار قريش قالوا للنبى - صلى الله عليه وسلم : صف لنا ربك، فنزل قوله تعالى : وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ . ومع أن السبب خاص فالخطاب عام لكل من يصلح للخطاب.

وفى الحديث [٣٥] عن أسماء بنت يزيد بن السكن، عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: اسم الله الأعظم فى هاتين الآيتين: وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ . و .الٓمٓ (١) اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ . (آل عمران : ١-٢)

★ ★ ★

دلائل الإيمان

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤) ﴾

المفردات :

اختلاف الليل والنهار : تعاقبهما، أو اختلافهما بالزيادة والنقصان.

الفلك : اسم يطلق على سفينة أو أكثر.

وبث فيها من كل دابة : ونشر فيها من كل نوع من الدواب، والدابة ما يدب ويمشى على الأرض.

وتصريف الرياح : تقليبها جنوبا وشمالاً وشرقًا وغربًا، حارة وباردة إلى آخر أنواعها.

والسحاب المسخر : المنقاد لله يوجهه كيف يشاء.

المعنى الإجمالى :

أقام الله أدلة ملموسة فى هذا الكون على وجوده وألوهيته، ومن ذلك السموات التى تسير فيها

الكواكب بانتظام دون تزاحم ولا صدام، تبعث الحرارة والنور لهذا العالم، والأرض وما فيها من البر والبحر وتعاقب الليل والنهار، وما فى ذلك من المنافع، وما يجرى فى البحر من السفن تحمل الناس والمتاع، ولا يسيرها إلا الله فهو الذى يرسل الرياح التى يسير بها المطر.

والماء مصدر الخير وهو ينزل من السماء فى دورات متتابعة تبدأ بتبخير ماء البحر ثم تكاثفه ثم هطوله، وهو ما يسبب الحياة على الأرض. وتصريف الرياح وهبوبها فى مهابها المختلفة، والسحاب المعلق بين السماء والأرض، أفقامت هذه الأشياء كلها بهذا الإتقان والإحكام من تلقاء نفسها أم هى صنع العليم القدير.

التفسير :

١٦٤ - إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ.. .

اتجهت هذه الآية إلى لفت أنظار الناس إلى مظاهر القدرة الإلهية فى هذا الكون، ونبهت الأبصار والبصائر إلى عجائب هذا الكون ونظامه البديع.

أخرج ابن أبى الدنيا وابن مردويه عن عائشة - رضى الله عنها - أن النبى - صلى الله عليه وسلم - لما قرأ هذه الآية قال : « ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها ».

قال الألوسى :

ومن تأمل تلك المخلوقات التى وردت فى هذه الآية وجد كلا منها مشتملاً على وجوه كثيرة من الدلالة على وجوده - تعالى - ووحدانيته وسائر صفاته الموجبة لتخصيص العبادة له، ومجمل القول فى ذلك أن كل واحد من هذه الأمور المعدودة قد وجد على وجه خاص من الوجوه الممكنة دون ما عداه، مستتبعًا لآثار معينة وأحكام مخصوصة.. وفى الآية إثبات الاستدلال بالحجج العقلية، وَتَنْبيه علىٰ شرف علم الكلام وفضل أهله، وربما أشارت إلى شرف علم الهيئة [٣٦].

وأول الأدلة فى الآية : إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ . وقد أشار القرآن الكريم إلى خلق السموات والأرض فى كثير من آياته، كما أشار إلى نظام السماء وتناسق خلقها، وتزيينها بالنجوم، وجعل بعض النجوم هادية للسائرين.

قال تعالى: إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ * لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلأِ الأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ . (الصافات : ٦-٨)

وقال سبحانه: وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ. (النحل : ١٦)

وكل ما فى السماء عجيب نافع، فشمسها المشرقة نهارًا، تبث فى أرضنا الدفء، وتنشر فيها

الضوء، وتنبت الزرع، وتستخلص من مياهنا المالحة بخارا حلوا نقيا، يصيره الله بقدرته سحابا، ثم يعيده إلينا مطرا عذبا، فيسلكه فى جوفها ينابيع، فنعيش به، ويعيش حيواننا على ما أوجد الله بسبب الشمس من الماء والنبات: هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ. (فاطر : ٣)، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ. (المؤمنون : ١٤).

وكل ما فى الأرض عجيب، فجبالها أوتاد لها ، تحفظها من أن تميد بنا ، وأنهارها وبحارها مصادر لأرزاقنا ، ومعابر لسفننا ، وسبب لحفظ حياتنا ، ومعادنها نتخذ من بعضها حلينا وعملتنا ، ونتخذ من بعضها أوانينا وأدواتنا ومواد بنائنا وأسلحة دفاعنا وهجومنا على أعدائنا ، والسهل من الأرض نزرع فيه أقواتنا ، والتلال والهضاب نتخذ فيها الحصون والقلاع لترد عادية خصومنا ، والأشجار والزروع والطيور والحيوان لأرزاقنا ومنافعنا ، والهواء حياة لنفوسنا وحيواننا ونباتنا.

قال تعالى : وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ. (ق : ٧-٨)

وقال - عز شأنه - : أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا * وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا * لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا. (نوح : ١٥ - ٢٠)

والدليل الثانى على قدرته ووحدانيته ، قوله تعالى : واختلاف الليل والنهار.

واختلافهما : تعاقبهما ، فبينما الليل يلف الأرض بظلامه والناس فيه رقود ساكنون ، إذ ينبعث النهار من تحت إهابه ، فتسجع الأطيار ، وتطير من الأوكار باحثة عن رزق الكريم الحليم ، ويهب النائمون من مراقدهم يبحثون عن أرزاقهم ، ويسعون فى سبيل عيشهم ، فالاختلاف افتعال من الخلف ، وهو أن يجئ شىء عوضا عن شىء آخر يخلفه على وجه التعاقب.

ويجوز أن يكون المراد باختلافهما اختلافهما أنفسهما بالطول والقصر ، واختلافهما فى جنسهما بالسواد والبياض.

قال تعالى : وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا. (النبأ : ١٠ - ١١) وقال سبحانه :قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ * وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. (القصص : ٧١ - ٧٣)

ومن العظات التى تؤخذ من هذا الاختلاف أن مدد الليل والنهار تختلف فلكل منهما مدة يستوفيها من السنة بمقتضى نظام دقيق مطَّردٍ . قال تعالى : لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ . (يس : ٤٠)

والدليل الثالث فى الآية :

وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ .

وهذه الفلك وإن كـانت من صنع النـاس ، إلا أن اللّهَ تعـالى هو الذى خلق الآلات والأجـزاء التى صارت بها سفنًا ، وهو الذى سخر البحر لتجرى فيه مقبلة ومدبرة ، مع شدة أهواله إذا هاج ، وهو الذى جعلها تشق أمواجه شقًا حتى تصل إلى بر الأمان ، وهو الذى رعاها برعايته وهى أشبه بنقطة صغيرة فى ذلك الماء الواسع ، وهى حاملة للكثيـر مما ينفع الناس من الأطعمـة والأشربة والأمتعـة المختلفة ، فسبحانه من إله قادر حكيم.

الدليل الرابع والخامس :

وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ

وإن فيما أنزله الله من جهة السماء من ماء مبارك ، عمرت به الأرض بعد خرابها ، وانتشرت فيها أنواع الدواب كلها ، لدليل ساطع على قدرة الله ووحدانيته.

فهو سبحانه الذى أنزل المطر من السماء ، وهو وحده الذى نشر على هذه الأرض أنواعا من الدواب مختلفة فى طبيعتها وأحجامها وأشكالها ، وألوانها ، وأصواتها ، ومكانها ، ومآكلها ، وحملها وتناسلها ، ووجوه الانتفاع بها ، وغير ذلك من وجوه الاختلاف الكثيرة ، مما يشهد بأن خالق هذه الكائنات إله واحد حكيم قادر.

قال تعالى : وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ * سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ. (يس : ٣٣ - ٣٦)

الدليل السادس :

وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ :

أى تقليبها وتكوينها.

فأحيانا تكون نسيما عليلا رطيبًا ، ينعش الأرواح ، وأخرى تكون جافة حارة تضيق بها النفوس ،

وتارة تجدها لينة رخاء ، وأخرى عاصفة هوجاء، وأحيانا ريحا عقيما : مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ . (الذاريات : ٤٢) إلى غير ذلك مما تقتضيه حكمة الحكيم ، الذى أحسن كل شىء خلقه ، ورتبه على حسب مشيئته ، وما ينبغى لصلاح أرضه ، ولو أمسك الريح ساعة لهلك كل شىء حى على سطحها، فمن فعل هذا سوى إله واحد ، حكيم عليم ، قهار مقتدر .

الدليل السابع :

والسَّحاب الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ .

فهذا السحاب جعله الله مصدر المطر الذى به حياة الكائنات ومخازن له متنقلة متجددة من آن لآخر.

والسحاب فى تكوينه ، وتسخيره ، وجعله بين السماء والأرض ورعده وبرقه ومطره آية عظيمة ، من آيات الخالق سبحانه . قال تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ ۞ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ . (النور : ٤٣ - ٤٤).

ثم ختم الله هذه الآية بقولة :

لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ.

أى لدلائل ساطعة وعلامات واضحة ترشد من يعقلون ويتدبرون فيها، فإن من تأمل فى كل آية مما سبق ، وجدها مشتملة على وجوه كثيرة من الدلالات على وجوده - تعالى - ووحدانيته ورحمته وسائر صفاته كما قال تعالى : إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ۞ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . (آل عمران : ١٩٠ - ١٩١).

★★★

قال الفخر الرازى :

واعلم أن النعم على قسمين : نعم دنيوية ونعم دينية، وهذه الأمور الثمانية [٣٧] ، التى عدها الله تعالى نعمًا دنيوية فى الظاهر ، فإذا تفكر العاقل فيها واستدل به على معرفة الصانع صارت نعمًا دينية، لكن الانتفاع بها من حيث إنها نعم دنيوية لا تكمل إلا عند سلامة الحواس وصحة المزاج، فكذا الانتفاع بها من حيث إنها نعم دينية لا يكمل إلا عند سلامة العقول ، وانفتاح بصر الباطن ، فلذلك قال : لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [٣٨].

★ ★ ★

من مشاهد القيامة

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴾

المفردات :

أندادًا : الأنداد : جمع ند ، وهو النظير والشبيه والمراد بها هنا الأوثان.

الأسباب : معناها اللغوى : الحبال ، جمع سبب والمراد بها فى الآية ما يصل الرؤساء والأتباع بعضهم ببعض من الصلات ، كالدّين الواحد والأنساب والأتباع.

كرة : رجعة إلى الدنيا .

حسرات : جمع حسرة ، وهى أشد درجات الندامة على شىء فات.

المعنى الإجمالى :

ومع هذه الدلائل الواضحة اتخذ بعض الناس ممن ضلت عقولهم أربابًا غير الله يطيعونهم ويعبدونهم كعبادة الله ويجعلونهم مثل الله ، والمؤمن يُسلِّم القيادة لله وحده، وطاعته له لا تنقطع ، أما هم فإن ولاءهم لآلهتهم يتزلزل عند النوائب فيلجئون إلى الله - سبحانه - وهؤلاء الذين ظلموا أنفسهم لو عاينوا ما سينالهم من العذاب يوم الجزاء ، حين ينكشف ملك الله يوم القيامة، وتكون الطاعة له وحده، لانتهوا عن جرمهم وأقلعوا عن إثمهم.

فى ذلك اليوم يرجو الأتباع أن ينجيهم رؤساؤهم من الضلال فيتنكر الرؤساء لأتباعهم ويتبرءون منهم ويقولون : ما دعوناكم لطاعتنا فى معصية ربكم ، وإنما هو هواكم وسوء تصرفكم ، وتتقطع بينهم الصلات والمودات التى كانت بينهم فى الدنيا ويصير بعضهم لبعض عدوا.

وهنا يتبين الأتباع أنهم كانوا فى ضلال حين اتبعوا رؤساءهم فى الباطل، ويتمنون أن يعودوا إلى الدنيا فيتنكروا لرؤسائهم كما تبرءوا منهم فى هذا اليوم، وتبدو لهم أعمالهم السيئة فتكون حسرات عليهم ويندمون ، وقد ألقى بهم فى النار فلا يبرحونها.

التفسير :

١٦٥ - وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ . . .

إن من الناس من لا يعقل تلك الآيات التى دلت على وحدانية الله وقدرته، وبلغت بهم الجهالة أنهم يخضعون لبعض المخلوقات خضوعهم لله بزعم أنها مشابهة ومماثلة ومناظرة له - سبحانه - فى النفع والضر، ويحبون تعظيم تلك المخلوقات وطاعتها والتقرب إليها والانقياد لها حبا يشابه الحب اللازم عليهم نحو الله - تعالى ، أو يشابه حب المؤمنين لله .

وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ .

والذين صدقوا بوحدانية الله، أشد حبا له من حب أولئك المشركين لأوثانهم ورؤسائهم، ذلك لأن حب المؤمنين لله متولد عن أدلة يقينية وعن علم تام ببديع حكمته، وبالغ حجته، وسعة رحمته، وعدالة أحكامه، وعزة سلطانه، وتفرده بالكمال المطلق، والحب المتولد عن هذا الطريق يكون أشد من حب المشركين لمعبوداتهم، لأن حب المشركين لمعبوداتهم متولد عن طريق الظنون والأوهام والتقاليد الباطلة.

وهذه شهادة من الله للمؤمنين يعتزون بها، ويجب أن يكونوا أهلاً لها .

ولقد ضرب المؤمنون الصادقون أروع الأمثال فى حبهم لله - تعالى - لأنهم ضحوا فى سبيله بأرواحهم وأموالهم وأبنائهم وأغلى شىء لديهم، ولأنهم لم يعرفوا عملاً يرضيه إلا فعلوه، ولم يعرفوا عملا يغضبه إلا اجتنبوه.

وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ .

(**لو**) شرطية، وجوابها محذوف لقصد التهويل ولتذهب النفس فى تصويره كل مذهب (القوة) القدرة والسلطان .

والمعنى - كما قال الزمخشرى - : ولو يعلم هؤلاء الذين ارتكبوا الظلم العظيم بشركهم أن القدرة لله على كل شىء من العقاب والثواب، دون أندادهم، ويعلمون شدة عقابه للظالمين، لكان منهم مالا يدخل تحت الوصف، من الندم والحسرة على ظلمهم وضلالهم.

وقد قرأ نافع وابن عمر « ولو ترى » بالتاء على الخطاب للنبى - صلى الله عليه وسلم - أو لكل من يتأتى له الخطاب.

أى : لو ترى ذلك أيها الرسول الكريم، أو أيها المخاطب لرأيت أمرا عظيما فى الفظاعة والهول.

★ ★ ★

١٦٦ - إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ .

واذكر أيها العاقل لتعتبر وتتعظ يوم القيامة، ذلك اليوم الهائل الشديد الذى يتنصل فيه الرؤساء من مرءوسيهم والأتباع من متبوعيهم حال رؤيتهم جميعًا للعذاب وأسبابه ومقدماته، وما أعدلهم من شقاء وآلام ، وقد ترتب على كل ذلك أن تقطع ما بين الرؤساء والأذناب من روابط كانوا يتواصلون بها فى الدنيا وصار كل فريق منهم يلعن الفريق الآخر ويتبرأ منه.

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور :

وفى قوله تعالى : وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ. استعارة تمثيلية، إذ شبهت هيئتهم عند خيبة أملهم حين لم يجدوا النعيم الذى تعبوا لأجله مدة حياتهم وقد جاء إبانه فى ظنهم فوجدوا عوضه العذاب، بحال المرتقى إلى النخلة ليجنى الثمر الذى كد لأجله طول السنة فتقطع به السبب - أى الحبل - عند ارتقائه فسقط هالكا، فكذلك هؤلاء قد علموا جميعًا حينئذ أن لا نجاة لهم، فحالهم كحال الساقط من علو لا ترجى له سلامة (٣٩) .

١٦٧ - وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا . . .

وقال الذين كانوا تابعين لغيرهم فى الباطل بدون تعقل أو تدبر، لَيْتَ لنا رجعة إلى الحياة الدنيا فنتبرأ من هؤلاء الذين اتبعناهم وأضلونا السبيل كما تبرءوا منا فى هذا اليوم العصيب، ولنشفى غيظنا منهم لأنهم خذلونا وأوردونا موارد التهلكة والعذاب الأليم.

كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ.

كما أرى الله - تعالى - المشركين العذاب وما صاحبه من التبرؤ وتقطع الأسباب بينهم، يريهم سبحانه أعمالهم السيئة يوم القيامة فتكون حسرات تتردد فى صدورهم كأنها شرر الجحيم.

والمقصود أن أعمالهم لا يجدون لها أثرا من الخير، بل يبدلها الله حسرات وزفرات حين يرون العذاب على كل عمل منها .

وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ .

أى وما هم بخارجين من تلك النار التى عوقبوا بها بسبب شركهم، بل هم مستقرون فيها استقرارا أبديا، وقد جاءت الجملة اسمية لتأكيد نفى خروجهم من النار، وبيان أنهم ملقون ومخلدون فيها كما قال تعالى - فى آية أخرى : كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا. (السجدة: ٢٠).

وهكذا يسوق لنا القرآن الكريم ما يدور بين التابعين والمتبوعين يوم القيامة من تنصل وتحسر وتخاصم بتلك الطريقة المؤثرة، حتى لكأنك أمام مشهد مجسم، ترى فيه الصور الشاخصة حاضرة، وذلك لون من ألوان بلاغة القرآن فى عرضه للحقائق، حتى تأخذ سبيلها إلى النفوس وتؤتى ثمارها الطيبة فى القلوب.

* * *

أكل الحـــلال

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾

المفردات :

حلالا طيبا : حلالا لا شبهة فيه، أو لا تعافه النفوس.

خطوات : جمع خطوة بضم الخاء وفتحها كما قال الفراء، والمراد بالنهى عن اتباع خطوات الشيطان: ألا يسيروا تبعا لوساوسه ومغرياته.

عدو مبين : أى عدو بيِّن العداوة واضحها.

إنما يأمركم بالسوء : أى ما يحرضكم إلا على ما يسوءكم ويحزنكم فى عاقبته وهو المعاصى.

والفحشاء : ما اشتد قبحه من الذنب.

المعنى الإجمالى :

يا أيها الناس كلوا مما خلق الله فى الأرض من الحلال الذى لم ينزل تحريمه، المستطاب تستسيغه النفوس، ولا تسيروا وراء الشيطان الذى يزين لكم أكل الحرام أو تحريم الحلال، فقد علمتم عداوة الشيطان، وبيان قبح ما يأمركم به، وإنما يزين لكم الشيطان ما هو سيئ فى ذاته، وما يقبح فعله، وتسيرون بسببه وراء الظنون والأوهام، فتنسبون إلى الله من التحريم والتحليل ما لم يأت دليل عليه من العلم اليقين.

التفسير:

١٦٨ - يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ .

نزلت هذه الآية فيمن حرَّموا على أنفسهم بعض الطيبات ، فالمشركون لم يقتصروا على الإشراك

بالله - تعالى - بل ضموا إلى ذلك تحريم البَحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وهى أنواع من الإبل حرموا ذبحها وأكلها.

واليهود كانوا يحرمون لحم الإبل على أنفسهم.

والآية الكريمة وإن نزلت فى هؤلاء إلا أنها عامة فى الخطاب لهم ولمن على شاكلتهم ممن يحرم حلالا كالسيخ من أهل الهند الذين يحرمون ذبح البقر وأكل لحمها؛ لأنهم يعبدونها، هؤلاء جميعًا يناديهم ربهم :

يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض من حيوانها ونباتها وثمارها حلالا لا حرمة فيه طيبا لا تعافه النفوس ، فلا تمنعوا أنفسكم من هذه المطاعم التى حرمتموها وهى حلال لكم، وتمتعوا بالطيبات فى غير سرف أو غرور، واشكروا الله - تعالى - على ما رزقكم من نعم.

ولقد أمر الله عباده فى كثير من الآيات أن يتمتعوا بما أحله لهم من طيبات ومن ذلك قوله - تعالى - : قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . (الأعراف : ٣٢)

ونجد أنه لا ورع فى ترك المباح الذى أحله الله من حيث فيه متعة للنفس، فذلك هو التنطع فى الدين، وإنما الورع فى ترك الإكثار من تناول تلك المباحات، لأن الإكثار منها قد يؤدى إلى الوقوع فيما نهى الله عنه .

وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ. الخطوات جمع خطوة كغرفة، وهى فى الأصل ما بين القدمين عند المشى، وتستعمل على وجه المجاز فى الآثار.

أى كلوا أيها الناس من الطيبات التى أحلها الله لكم، ولا تتبعوا آثار الشيطان وزلاته ووساوسه وطرقه التى يحرم بها الحلال ويحلل الحرام، والتى يَقْذِفُهَا فى صدور بعض الناس فتجعلهم ينتقلون من الطاعات إلى المعاصى.

إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ. تعليل النهى عن اتباع الشيطان .

أى أنه عدو ظاهر العداوة لكم، فقد أخرج أبويكم آدم وحواء من الجنة حسدا لهما، والحسد كامن فى نفسه لذريتهما.

قال تعالى :

إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ. (فاطر : ٦)

★ ★ ★

١٦٩ - إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ .

إن الشيطان يوسوس لكم ويدعوكم إلى ما يحزنكم فى العاجلة أو الآجلة، وبما يشتد فحشه وقبحه من الذنوب كالإشراك بالله وعقوق الوالدين والزنا وادعاء أن الله حلل ما لم يحلله مثل شرب الخمر وأكل الربا، أو حرم ما لم يحرمه كتحريم الطيبات وبعض الحيوانات .

قال الزمخشرى : فإن قلت كيف كان الشيطان آمرا مع قوله : لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ (الحجر:٤٢).

قلت : شبه تزيينه وبعثه على الشر ، بأمر الآمر كما تقول : أمرتنى نفسى بكذا، وفيه رمز إلى أنكم منه بمنزلة المأمورين لطاعتكم له وقبولكم وساوسه.

★ ★ ★

التقليد الأعمى

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾

التفسير :

١٧٠ - وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ.

وقد اعتاد الضالون عن سبيل الهدى أن يتمسكوا بما توارثوا عن آبائهم فى العقيدة والعمل، وإذا دعوا إلى ما جاء من هدى الله قالوا لا نعدل عما وجدنا عليه آباءنا، ومن أكبر الجهل ترجيح اتباع الآباء على طاعة الله واتباع هداه، فكيف إذا كان آباؤهم لا يعقلون شيئًا من الدين ولا يستنيرون بنور الهداية والإيمان .

وسواء كان هؤلاء الذين تعنيهم الآية هم المشركون الذين تكرر منهم هذا القول كلما دعوا إلى الإسلام، وإلى تلقى شرائعهم وشعائرهم منه، وهجر ما ألفوه فى الجاهلية مما لا يقره الإسلام. أو كانوا هم اليهود الذين كانوا يصرون على ما عندهم من مأثور آبائهم ويرفضون الاستجابة للدين الجديد جملة وتفصيلاً. سواء أكان هؤلاء أم هؤلاء، وسواء أقالوا ذلك بلسان المقال أم قالوه بلسان الحال، فالآية تندد بتلقى شىء فى أمر العقيدة من غير الله، وتندد بالتقليد فى هذا الشأن والنقل بلا تعقل ولا إدراك.

والآية عامة تشمل كل أهل الباطل المقلدين لغيرهم فيه.

والتقليد فى الباطل مَذمُومٌ، أما التقليد لأهل العلم الأمناء فى الحق فهو كما قال القرطبى فرض على العامى الذى لا يشتغل باستنباط الأحكام من أصولها فيما يحتاج إليه، مما لا يعلمه من أمر دينه عملاً بقوله تعالى : فاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ . (النحل: ٤٣).

وتعتبر هذه الآيات مصدرا لتكوين الشخصية المستقلة الجديرة بالمسلم بحيث لا يكون إمَّعة، أو تابعًا لسواه دون روية أو تفكير .

★ ★ ★

ضلال الكفار

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾

المفردات :

ينعق : يصيح ، والنعيق : التصويت على البهائم للزجر.

دعاء ونداء : الدعاء والنداء: استدعاء الآخرين، فهما بمعنى واحد، وقيل الأول، لطلب القريب، والثانى : لطلب البعيد.

صم : لا يسمعون.

بكم : لا يتكلمون.

المعنى الإجمالى:

وإن مثل ما يدعو أولئك الكافرين الجاحدين إلى الحق والهدى فلا يستجيبون له ولا يفقهون ما يدعوهم إليه كمثل راعى الغنم يناجيها فلا تفقه منه شيئًا، ولا يقرع سمعها إلا الصوت ولا تعى غيره، فهم كذلك عن الحق صم الآذان، عمى البصائر، خرس الألسنة لا ينطقون بخير ولا يصدرون عن عقل.

التفسير :

١٧١ - وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ .

ومثل هادى الذين كفروا وداعيهم إلى الحق وهم لا يعقلون كمثل الراعى الذى ينعق بماشيته، ويصيح بها، ليكفها عن الرعى فى مرعى وخيم يضرها، وكما أن البهائم لا تعى من الداعى إلا صوت الدعاء والنداء، دون أن تفهم غرضه وهو كفهم عن المرعى الوخيم العاقبة، لعدم تمييزها، فكذلك هؤلاء المقلِّدون لم يدركوا من هاديهم وداعيهم إلى الحق ومحذرهم من الباطل سوى الدعاء والنداء، لانهماكهم

فى التقليد الذى أغلق عقولهم، فلم تدرك ما يقول، وكما أن البهائم وقعت فى المرعى الوخيم العاقبة بجهلها ، فكذلك هؤلاء وقعوا فى مهاوى الردى بإعراضهم عن الهدى.

قال الفخر الرازى : وللعلماء من أهل التأويل فى هذه الآية طريقان :

أحدهما : تصحيح المعنى بالإضمار فى الآية، والثانى، إجراء الآية على ظاهرها من غير إضمار.

أما الذين أضمروا فذكروا وجوها :

الأول : كأنه قال : ومثل من يدعو الذين كفروا إلى الحق كمثل الذى ينعق، فصار الناعق هو الراعى بمنزلة الداعى إلى الحق وهو الرسول - صلى الله عليه وسلم - وسائر الدعاة إلى الحق، وصار الكفار بمنزلة الغنم المنعوق بها، ووجه التشبيه أن البهيمة تسمع الصوت ولا تفهم المراد ، وهؤلاء الكفار كانوا يسمعون صوت الرسول - صلى الله عليه وسلم - وألفاظه وما كانوا ينتفعون بها وبمعانيها.

الثانى : ومثل الذين كفروا فى دعائهم آلهتهم من الأوثان كمثل الناعق فى دعائه ما لا يسمع كالغنم وما يجرى مجراها من البهائم، فشبه الأصنام فى أنها لا تفهم بهذه البهائم، فإذا كان ولاشك من دعا بهيمة عد جاهلا فمن دعا حجرًا أولى بالذم.

والفرق بين هذا القول والذى قبله ان ها هنا المحذوف هو المدعو، وفى القول الذى قبله المحذوف هو الداعى.

أما إجراء الآية على ظاهرها من غير إضمار فتقديره: ومثل الذين كفروا فى قلة عقولهم فى عبادتهم لهذه الأوثان كمثل الراعى إذا تكلم مع البهائم، فكما أنه يقضى على ذلك الراعى بقلة العقل فكذا ههنا.

ثم قال الفخر الرازى : ومثل هذا المثل يزيد السامع معرفة بأحوال الكفار، ويحقر إلى الكافر نفسه إذا سمع ذلك، فيكون كسرًا لقلبه، وتضييقًا لصدره، حيث يصير كالبهيمة ، فيكون فى ذلك نهاية الزجر والردع لمن يسمعه عن أن يسلك مثل طريقه فى التقليد (٤٠).

وفى ختام الآية وصف لهؤلاء الكفار بأنهم « صم » لا يسمعون الدعوة إلى الحق لانصرافهم عنه «بكم» عن إجابة الداعى إليها « عمى » عن آيات صدقها وصحتها، فهم لإعراضهم عن الهادى لهم إلى ما ينفعهم وينجيهم من العذاب صاروا بمنزلة من فقد حواسه فأصبح لا يسمع ولا ينطق ولا يبصر.

« فهم لا يعقلون » : لا يدركون شيئًا لفقد الحواس الثلاث التى هى أبواب العلم.

★ ★ ★

تحريم الميتة والدم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ ﴾

المفردات :

الطيبات : المستلذات، أو الحلال من الرزق.

وما أُهل به لغير الله : أى ما ذُبح مذكورًا عليه اسم الله، وأصل الإهلال : رفع الصوت عند رؤية الهلال، ثم أطلق على رفع الصوت مطلقًا، ومنه إهلال الصبى عند الولادة.

فمن اضطر غير باغ : فمن أجبرته الضرورة على تناول شىء مما ذكر لإنقاذ نفسه من الهلاك غير ظالم لغيره.

ولا عاد : ولا معتد بتجاوزه ما يمسك الرمق ويدفع الجوع.

المعنى الإجمالى:

لقد أبحنا للناس كل حلال خلقناه لهم فى الأرض ونهيناهم أن يتبعوا خطوات الشيطان فإن فعلوا اهتدوا، وإن أبوا فإنا نخص المؤمنين بهدايتنا ونبين الحلال والحرام، فيا أيها الذين آمنوا أبيح لكم أن تأكلوا من لذيذ الطعام الطيب غىر الخبيث، فاشكروا الله على ما أولاكم من نعمة التمكين من الطيبات وإباحتها ومن نعمة الطاعة والامتثال لأمره لتتم عبادتكم.

وليس المحرم ما زعمه المشركون، وما زعمه اليهود، وإنما المحرم عليكم ايها المومنون الميته التى لم تذبح من الحيوان، ومثله فى التحريم لحم الخنزير، وما ذكر على ذبحه غير اسم الله من الوثن ونحوه، على أن من اضطر إلى تناول شىء من هذه المحظورات لجوع لا يجد ما يدفعه غيرها، أو لإكراه على أكله فلا بأس عليه.

التفسير :

١٧٢ - أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ.

يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله: أبحنا لكم أن تأكلوا من المستلذات، وأن تنتفعوا بما أحللناه لكم من أرزاقنا التى مننا بها عليكم، وأمرناكم أن تشكروا الله على ما أنعم به عليكم، إن كنتم تخصونه

بالعبادة ولا تشركون معه غيره فيها فإن من شأن المؤمن الذى يخص ربه بالعبادة أن يقتصر على ما أحله له، وألا يتوسع فى تناوله، حتى لا تطغى نفسه، وتتجاوز الحلال إلى الحرام.

نقل الأستاذ رشيد رضا عن الإمام محمد عبده قوله :

لا يفهم هذه الآية حق فهمها إلا من كان عارفا بتاريخ الملل عند ظهور الإسلام وقبله، فإن المشركين وأهل الكتاب كانوا فرقا وأصنافا، منهم من حرّم على نفسه أشياء معينة بأجناسها أو أصنافها كالبحيرة والسائبة عند العرب ، وكبعض الحيوانات عند غيرهم.

وكان المذهب الشائع فى النصارى أن أقرب ما يتقرب به إلى الله تعالى، تعذيب النفس، وحرمانها من الطيبات المستلذة، واحتقار الجسد ولوازمه، واعتقاد أنه لا حياة للروح إلا بذلك.

ثم قال : وقد تفضل الله على هذه الأمة بأن جعلها أمة وسطا تعطى الجسد حقه والروح حقها، فأحل لنا الطيبات لتتسع دائرة نعمه الجسدية علينا، وأمرنا بالشكر عليها ليكون لنا منها فوائد روحانية عقلية، فلم نكن جثمانيين محضًا كالأنعام، ولا روحانيين خلصا كالملائكة ، وإنما جعلنا أناسى كملة بهذه الشريعة المعتدلة، فله الحمد والشكر والثناء الحسن [٤١].

★ ★ ★

١٧٣ - إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ . . .

والميتة تأباها النفس السليمة ، وكذلك الدم، فضلاً عما أثبته الطب بعد فترة طويلة من تحريم القرآن والتوراة قبله بإذن الله - من تجمع الميكروبات والمواد الضارة فى الميتة وفى الدم. ولا ندرى إن كان الطب الحديث قد استقصى ما فيهما من الأذى أم أن هناك أسبابا أخرى للتحريم لم يكشف عنها بعد للناس.

ويستثنى من تحريم الميتة السمك والجراد، لما أخرجه ابن ماجه والحاكم من حديث ابن عمر - رضى الله عنهما - مرفوعًا : « أحلت لنا ميتتان ودمان السمك والجراد والكبد والطحال».

والدم المحرم: ما يسيل من الحيوان الحى كثيرا كان أم قليلاً، وكذلك يحرم من دم الحيوان ما جرى منه بعد تذكيته، وهو الذى عبر عنه القرآن بالمسفوح فى قوله تعالى : قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا (الأنعام : ١٤٥).

والدم المسفوح هو الدم الجارى المهراق من البهيمة بعد ذبحها. أما الدم المتبقى فى أجزاء لحم البهيمة بعد تذكيتها فلا شىء فيه.

قال القرطبى : وأما الدم فمحرم ما لم تعم به البلوى، ومعفو عما تعم به البلوى، والذى تعم به البلوى هو الدم فى اللحم وعروقه.

« لحم الخنزير » وحرمة الخنزير شاملة للحمه وشحمه وجلده، وإنما خص لحمه بالذكر لأنه الذى يقصد بالأكل، ولأن سائر أجزاء الخنزير كالتابعة للحمه.

ومن الحكم فى تحريم لحم الخنزير قذارته، واشتماله على دودة تضر ببدن آكله، وربما كان لتحريمه حِكَم أخرى لا تزال مجهولة لنا.

وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ . أى ما ذبح، وقد ذكر عليه اسم غير الله، وإذا كانت المحرمات السابقة قدحرمت لخبث ذاتها، فما ذكر اسم غير الله عليه، حرم لخبثه معنويًّا ، فقد ذكر عليه اسم غير خالقه المنعم به عند ذبحه ولولا ذلك لكان حلالا.

وسمى الذِّكر إهلالا: لما فيه من الإهلال، أى رفع الصوت عند رؤية الهلال، ثم استعمل لرفع الصوت مطلقا، ومنه إهلال الصبى، والإهلال بالحج، وكانوا فى الجاهلية إذا أرادوا ذبح ما قربوه إلى آلهتهم سموا عليها أسماءها- كاللّات والعزى - ورفعوا بها أصواتهم، وسمى ذلك إهلالا. فالمراد بما أُهل به لغير الله هو ما ذبح للأصنام وغيرها.

وذهب عطاء والحسن ومكحول والشعبى وسعيد بن المسيب إلى تخصيص التحريم بما ذكر عليه اسم الصنم، ولهذا أباحوا ذبيحة النصرانى إذا ذكر عليها اسم المسيح، وقد خالفوا بذلك ظاهر النص، وما عليه الجمهور من التحريم، وقد شمل حكم الآية ذبيحة الوثنى والمجوسى، وكذا ذبيحة المعطل الذى لا يعتقد فى الله تعالى فهى حرام كذبيحة أُهل اسم غير الله عليها.

وقد روى البخارى عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : إن قومًا قالوا للنبى - صلى الله عليه وسلم - : إن قوما يأتوننا باللحم لا ندرى أذكر اسم الله عليه أم لا؟ فقال : سموا عليه أنتم وكُلُوهُ. قالت: وكانوا حديثى عهد بكفر (٤٢).

فكأن المحرم ليس ما لم نعلم أن اسم الله ذكر عليه، بل المحرم ما علم أن غير اسم الله من الأوثان والأنداد ونحو ذلك قد ذكر عليه.

فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ.

فمن ألجأته ضرورة إلى أكل شىء من هذه المحرمات حالة كونه غير باغ: أى غير طالب المحرم وهو يجد غيره، أو غير طالب له لإشباع لذاته، أو غير طالب له على جهة الاستئثار به على مضطر آخر، أو غير ساعٍ فى فساد.

ولا عَادٍ . أى وغير متجاوز ما يسد الجوع، ويحفظ الحياة.

فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ . أى فلا إثم عليه فى أكله من هذه المحرمات.

وبهذا ترى لونًا من ألوان سماحة الإسلام ويسره فى تشريعاته التى أقامها الله تعالى على رفع الحرج، ودفع الضرر، قال تعالى : وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ . (الحج : ٧٨).

وقال تعالى : يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ . (البقرة : ١٨٥).

وليس المراد من الآية حصر التحريم فيما ذكر، فإن المحرمات أوسع منها، ولكن المقصود رد اعتقاد المشركين أن الأكل منها حلال.

وختمت الآية بقوله - سبحانه - : إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

للإيذان بأن الحرمة باقية، إلا أنه - تعالى- أسقط الإثم عن المضطر وَغَفَرَ له لاضطراره.

★ ★ ★

جزاء من كتم العلم

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ ﴾

المفردات :

ويشترون به ثمنًا قليلا : ويأخذون بدله عوضًا قليلا.

ما يأكلون فى بطونهم إلا النار : أى ما يكون من الطعام المشترى بهذا العوض إلا ما يؤدى بهم إلى النار.

ولا يزكيهم : ولا يطهرهم من دنس الذنوب.

اشتروا الضلالة بالهدى : باعوا الهدى بالضلالة، وجعلوها مكانه.

المعنى الإجمالى :

هذا وقد كان من العالمين بما أنزل الله فريق يخفى بعض الوحى لقاء عرض من أعراض الدنيا،

فإن اليهود كتموا كثيرًا مما جاء فى التوراة من نعت الرسول خشية أن يسلم أهل ملتهم فيزول أمرهم وتضيع مكاسبهم ولذيذ مطاعمهم، وإن مطاعمهم من هذا السبيل لهى كالنار يأكلونها، لأنها ستقودهم إلى النار، وسيعرض الله عنهم يوم القيامة، ولا يطهرهمَ من دنسهم وأمامهم عذاب شديد موجع.

أولئك هم الآثمون الذين اختاروا الضلالة على الهدى فاستحقوا العذاب فى الآخرة بدل الغفران، فكانوا كمن يشترى الباطل بالحق، وما فيه ضلال بما فيه هداية، وأن حالهم لتدعو إلى العجب؛ إذ يصبرون على موجبات العذاب ويستطيبون ما يؤدى بهم إليه.

ولقد استوجبوا ما قدر لهم من الجزاء، لكفرهم بكتاب الله الذى أنزل بالحق والصدق، ولقد اختلفوا فيه اختلافًا كبيرًا، دفع إليه حب الجدل ومجانبة الحق والانتماء للهوى : فحرفوه وأفسدوه وفسروه بغير معانيه.

التفسير :

١٧٤ - إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ.

قال الإمام الرازى : قال ابن عباس : هذه الآية نزلت فى رؤساء اليهود وأحبارهم كانوا يأخذون من أتباعهم الهدايا فلما بعث الله نبيه محمدًا - صلى الله عليه وسلم - خافوا انقطاع تلك المنافع فكتموا أمره - عليه السلام - وأمر شرائعه فنزلت هذه الآية .

ثم قال الإمام الرازى : والآية وإن نزلت فى أهل الكتاب لكنها عامة فى حق كل من كتم شيئاً من باب الدين يجب إظهاره. إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب [٤٣].

والمعنى : إن الذين يخفون ما أنزل الله فى كتابه من الأحكام فى مقابل عرض قليل من أعراض الدنيا، وكل عرضها قليل وإن كان كثيرًا، هؤلاء ما يأكلون فى بطونهم من هذا العرض الدنيوى إلا ما يؤدى بهم إلى النار ، ولا يكلمهم الله يوم القيامة كلام رحمة وإن كان يكلمهم بلسان ملائكته كلام سخط ومؤاخذة.

وَلا يُزَكِّيهِمْ. أى ولا يطهرهم من دنس الذنوب.

وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . أى ولهم عذاب مؤلم ، بسبب كتمانهم الحق عن عباد الله .

★ ★ ★

١٧٥ - أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ.

فكأنما هى صفقة يدفعون فيها الهدى ويقبضون الضلالة. ويؤدون المغفرة ويأخذون فيها العذاب. فما أخسرها من صفقة وأغباها.. وبالسوء ما ابتاعوا وما اختاروا، وإنها لحقيقة. فقد كان الهدى مبذولاً لهم فتركوه وأخذوا الضلالة، وكانت المغفرة متاحة لهم فتركوها واختاروا العذاب.

فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ.

فيالطول صبرهم على النار التى اختاروها اختيارا وقصدوا إليها قصدا.

فياللتهكم من طول صبرهم على النار.

قال العلماء :

إن فعل التعجب فى كلام الله، المراد منه التعجيب، أى جعل الغير يتعجب من ذلك الفعل، وهو هنا صبرهم على النار، فيكون المقصود تعجب المؤمنين من جرأة أولئك الكاتمين لما أنزل الله على اقترافهم ما يلقى بهم فى النار شأن الواثق من صبره على عذابها المقيم.

وشبيه بهذا الأسلوب فى التعجيب - كما أشار صاحب الكشاف - أن تقول لمن يتعرض لما يوجب غضب السلطان: ما أصبرك على القيد والسجن، فأنت لا تريد التعجب من صبره، وإنما تريد إفهامه أن التعرض لما يغضبه لا يقع إلا عمن شأنه الصبر على القيد والسجن، والمقصود بذلك تحذيره من التمادى فيما يوجب غضب ذلك السلطان المستبد.

★ ★ ★

١٧٦ - ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ.

ذلك الذى تقدم من الجزاء الشديد المترتب على الكتمان، حاصل بسبب أن الله نزل القرآن بالحق، فلا يصح أن يكتم أمره وأمر من جاء به، ولا أن يفترى عليه، وأن الذين اختلفوا فى شأنه لفى خلاف بعيد عن الحق موجب لأشد العذاب، إن منهم من يقول : هو سحر . ومنهم من يقول : هو شعر. ومنهم من يقول : أساطير الأولين، ومنهم من يقول : افتراه على الله كذبا، أم به جنّة، ومنهم من يقول : إنما يعلمه بشر.

ويرى بعض المفسرين : أن المراد بالكتاب: جنس الكتب التى أنزلها الله، وأن المعنى، ذلك العذاب بسبب أن الله نزل كتبه بالحق، فلا جرم أن يعذب من يكتمها، أو يكذبها. وأن الذين اختلفوا فى شأن ما أنزله الله فى كتبه؛ فأظهروا منها ما يناسب أهواءهم وأخفوا ما لا يناسبها أو آمنوا ببعضها، وكفروا بالبعض الآخر، وأساءوا تأويل بعضها.

لفي شقاق بعيد. شقاق مع الحق، وشقاق مع ناموس الفطرة، وشقاق فيما بينهم وبين أنفسهم؛ وبعد شديد عن الحق والصواب.

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد ذكرت ألوانا من العقوبات الأليمة التى توعد الله بها كل من يكتم أمرا نهى الله عن كتمانه ؛ لكى يقلع كل من يتأتى منه الخطاب عن هذه الرذيلة، وفاء للعهد الذى أخذه الله على الناس بصفة عامة، وعلى أولى العلم بصفة خاصة.

★ ★ ★

البـــــر

فى منتصف سورة البقرة نجد آية جامعة لخصال البر والخير هى قوله تعالى :

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾

المفردات :

البـــر : كل ما يتقرب به العبد إلى الله من الإيمان والعمل الصالح وكل طاعة وقربة.

قبل المشرق والمغرب : ناحيتهما

آتى المال : أعطاه.

المسكين : هو الدائم السكون لأن الحاجة أسكنته، والعجز قد أقعده عن طلب ما يكفيه.

ابن السبيل : هو المسافر البعيد عن ماله ولا يمكنه الاتصال بأهل أو بذى قرابة.

السائلين : من ألجأتهم الحاجة إلى السؤال وتكفف الناس، والسؤال محرم شرعا إلا لضرورة ويجب على السائل ألا يتعداها.

وفى الرقاب : أى وفى تحرير الرقاب وعتقها

وأقام الصلاة : أداها على أقوم وجه وأحسنه.

الباساء : من البؤس وهو الفقر والشدة.

الضراء : كل ما يضر الإنسان من مرض أو فقد حبيب من أهل أو مال.

تمهيد :

تتعلق هذه الآية بتحويل القبلة. وذلك أن المسلمين فى مكة كانوا يتوجهون إلى الكعبة فى صلاتهم، فلما هاجر المسلمون إلى المدينة أمرهم الله أن يتجهوا بصلاتهم إلى بيت المقدس، واستمرت صلاتهم إلى بيت المقدس سبعة عشر شهرًا. ثم جاء الأمر الأخير بتوجههم فى صلاتهم إلى الكعبة.

قال تعالى : فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ . (البقرة: ١٤٤) وقد انطلقت أبواق اليهود تلوم المسلمين وتشككهم فى حقيقة دينهم، وقالوا لهم : إن كان التوجه إلى بيت المقدس باطلاً فقد ضاعت صلاتكم طوال هذه الفترة .

وإن كان حقا فالتوجه الجديد إلى المسجد الحرام باطل وصلاتكم إليه ضائعة، وقد رد الله على اليهود شبهتهم ثم قال : وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ . أى صلاتكم إلى بيت المقدس .

وإذا نحن تلمسنا حكمة التوجه إلى بيت المقدس فى بداية الهجرة إلى المدينة نجد أن ذلك تم لحكمة تربوية هى تخليص المسلمين من كل نعرة عصبية. ذلك أن العرب كانوا يعظّمون البيت الحرام فى جاهليتهم ويعدُّونه عنوان مجدهم القديم .

ولما كان الإسلام يريد استخلاص القلوب لله وتجريدها من التعلق بغيره ، وتخليصها من كل نعرة وكل عصبية لغير المنهج الإسلامى المرتبط بالله مباشرة، فقد نزع المسلمين من الاتجاه إلى البيت الحرام واختار لهم الاتجاه فترة إلى المسجد الأقصى، ليخلص نفوسهم من رواسب الجاهلية، وليظهر من يتبع الرسول اتباعًا مخلصًا حتى إذا استسلم المسلمون واتجهوا إلى بيت المقدس صدر الأمر الإلهى الكريم بالاتجاه إلى البيت الحرام.

قال تعالى : وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ . (البقرة:١٤٣)

التفسير :

١٧٧ - لَيْسَ الْبِرَّ أن تولوا وجوهكم قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمغرب وَلَكِنَّ الْبِرَّ . . . .

توجَّه الخطاب فى هذه الآية لأهل الكتاب، لأنهم أكثروا الخوض فى أمر القبلة، حين حولت إلى الكعبة، فقال الله لهم ما معناه ليس البر فى أن تُوَلُّوا وجوهكم، فى أية ناحية من نواحى الأرض حتى يكون ذلك موضع اهتمامكم، ومثار فتنتكم للمؤمنين بغير حق. وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ . يعنى

ولكن البر الذى يحق الاهتمام بشأنه هو فى إيمان من آمن بالله وبالحساب والجزاء فى اليوم الآخر وفى إيمان من آمن بالملائكة وبالكتب المنزلة .. إلخ.

وقد بيَّن الإمام ابن كثير أن الخطاب فى الآية موجَّه إلى المسلمين وإلى اليهود: « فإن الله - تعالى- لما أمر المسلمين بالتوجه إلى بيت المقدس ثم حولهم إلى الكعبة، شق ذلك، على نفوس طائفة من أهل الكتاب وبعض المسلمين. فأنزل الله - تعالى - بيان حكمته فى ذلك وهو أن المراد إنما هو طاعة الله - عز وجل - وامتثال أوامره، والتوجه حيثما وجه واتباع ما شرع ، فهذا هو البر والتقوى والإيمان الكامل، وليس فى لزوم التوجه إلى جهة من المشرق أو المغرب بر ولا طاعة إن لم يكن عن أمر الله وشرعه ».

ولهذا قال: لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ. الآية.

كما قال فى الأضاحى والهدايا: لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ. (الحج : ٣٧)

لقد ضرب الله مثلاً بالتوجه إلى المشرق والمغرب ليوضح عدم جدوى التمسك بظاهر الشعائر والطقوس الدينية حيث لا خير فى مجرد استقبال الشرق أو الغرب فى الصلوات، قاصدًا بذلك أن يفهم الناس أن مجرد أداء الشعائر والعبادات الشكلية أو إظهار التقوى والورع ليس بالخير الحقيقى عند الله ولا وزن لذلك فى عينه - تعالى .

وقد صورت هذه الآية جميع مكارم الأخلاق، وجمعت بين الإيمان والعمل، وبين حقوق الله وحقوق العباد، وبين جهاد النفوس وجهاد الأعداء ، وبين صلاح الأفراد والجماعات .

قال الثورى : « فى هذه الآية أنواع البر كلها ».

وصدق فإن من اتصف بهذه الآية فقد دخل فى عُرى الإسلام كلها وأخذ بمجامع الخير كله.

١ - مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ.

وهو الايمان بالله - سبحانه وتعالى - ربًّا وخالقًا ورازقًا بيده الخير والأمر، وهو على كل شىء قدير.

٢ - وَالْيَوْمِ الآخِرِ.

والإيمان باليوم الآخر وما فيه من بعث وحشر وثواب وعقاب ليلْقى كل إنسان جزاء عمله.

٣ - وَالْمَلائِكَةِ .

والإيمان بالملائكة الذين هم سفرة بين الله ورسله.

٤ - وَالْكِتَابِ.

والإيمان بالكتاب وهو اسم جنس يشمل الكتب المنزّلة من السماء عَلىَ الأنبياء حتى ختمت بأشرفها؛ وهو القرآن المبين على ما قبله من الكتب.

٥ - وَالنَّبِيِّينَ.

والإيمان بالنبيين هو الإيمان بالرسالات جميعًا وبالرسل أجمعين.

٦ - وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ.

أى أخرجه وهو محب له راغب فيه ولكن غلب جانب الإيثار وضحَّى بالعاجلة فى سبيل الآجلة، وتحرر من عبودية المال وأنفقه فى وجوه الخير على: ذَوِي الْقُرْبَىٰ. وهم أقرباؤه، روى الإمام أحمد فى مسنده أن الرسول ﷺ قال « الصدقة على المساكين صدقة، وعلى ذوى الرحم ثنتان: صدقة وصلة » ورواه الترمذى وقال حديث حسن.

٧ - وَالْيَتَامَىٰ.

وأنفق المال أيضًا عن رغبة وطيب نفس على اليتيم الذى فقد والده.

٨ - وَالْمَسَاكِينَ. العاجزين عن الكسب.

٩ - وَابْنَ السَّبِيلِ.

وهو المسافر المنقطع عن ماله، وهو فى حاجة إلى المساعدة والمعاونة حتى يستطيع الوصول إلى بلده، وفى هذا تنبيه إلى أن المسلمين وإن اختلفت أوطانهم ينبغى أن يكونوا فى التعاطف والتعاون على متاعب الحياة كالأسرة الواحدة.

١٠ - وَالسَّائِلِينَ.

الذين اضطروا إلى تكفف الناس لشدة عوزهم.

١١ - وَفِي الرِّقَابِ.

وفى تحرير الرقاب، وعتق الأرقاء وتخليص الأسرى من يد العدو بفدائهم. وهذه الأصناف الستة التى ذكرت فى تلك الجملة الكريمة: وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ .. . ليس المقصود من ذكرها الاستيعاب والحصر، ولكنها ذكرت كأمثلة وخصت بالذكر لأنها أحوج من غيرها إلى العون والمساعدة.

ومن ينظر فى القرآن الكريم يجده قد عنى عناية كبرى بالفقراء والمساكين، وجميع أصناف المحتاجين حتى لا تكاد سورة من سوره تخلو من الحث على الإنفاق عليهم وبذل العون فى مساعدتهم،

وأيضًا هناك العديد من الأحاديث النبوية فى الحض على مد يد العون إلى ذوى القرابة والمعسرين، وذلك لأن المجتمعات تحيا وتنهض بالتراحم، وتذل وتشقى بالتقاطع والتدابر بين أبنائها.

★ ★ ★

ثم ذكرت الآية ألوانا أخرى من البر تدل على قوة الإيمان، وحسن الخلق فقالت :

١٢ - وَأَقَامَ الصَّلاةَ.

أى أداها كاملة الأركان فى أوقاتها مخلصًا فيها مناجيا ربه ساجدًا لخالقه فالصلاة صلة بين المخلوق والخالق، وهى حصن الأمان وراحة النفس ودليل الإيمان بالله رب العالمين.

١٣ - وَآتَى الزَّكَاةَ .

أى أعطى الزكاة المفروضة فى ماله وهى نسبة ١/٤ العشر من رأس المال أو ٢ ١/٢٪، وللزكاة أثرها فى تكافل المجتمع وترابطه وهى ركن عظيم من أعمال البر ومن ثم أجمع الصحابة على محاربة مانعى الزكاة من العرب بعد وفاة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأن مانعها يهدم ركنًا من أركان الإسلام، وينقض أساس الإيمان.

١٤ - وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا .

أى والذين يوفون بعهودهم إذا عاهدوا عليها ، وهذا شامل لما يعاهد عليه الناس بعضهم بعضا ولما يعاهد عليه المؤمنون ربهم من السمع والطاعة لكل ما أمر به.

ومثل العهود العقود فيجب علينا الوفاء بها ما لم تكن مخالفة لقواعد الدين العامة.

وفى الوفاء بالعهود والعقود حفظ كيان المجتمع من أن ينفرط عقده، كما أن الغدر والإخلاف هادم للنظام، مفسد للعمران.

ولو شمل الناس الوفاء لسلموا من التطاحن والبلاء.

١٥ - وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ.

أى الصابرين لدى الفقر والشدة وعند الضر من مرض وفقد أهل وولد ومال، وفى ميادين القتال.

والبأساء من البؤس وهى ما يصيب الناس فى الأموال كالفقر والاحتياج.

والضراء من الضر وهى ما يصيبهم فى أنفسهم كالأمراض والأسقام، وحين البأس أى ووقت القتال فى سبيل الله لإعلاء كلمته.

أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ.

أى هؤلاء الذين تقدم ذكرهم من المحرزين لخصال البر هم الصادقون فى إيمانهم وفى كل أحوالهم ، وأولئك هم المتقون لعذاب الله تعالى بسبب امتثالهم لأوامره.

وقد رسمت هذه الآية الكريمة منهجًا متكاملاً للحياة الإسلامية واشتملت على خمسة عشر نوعًا من أنواع البر الذى يهدى إلى الحياة السعيدة فى الدنيا وإلى رضا الله - تعالى - فى الآخرة. وقد أرشدت إلى أن البر أنواع ثلاثة جامعة لكل خير وبر فى العقيدة، وبر فى العمل، وبر فى الخلق.

- أما بر العقيدة فقد بينته أكمل بيان فى قوله تعالى : لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ . فقد جمعت فى هذه الجملة الكريمة مالا يتم الإيمان إلا بتحقيقه.

- وأما بر العمل فقد وضحته أبلغ توضيح فى قوله تعالى : وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ الْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ . ولا شك أن إنفاق المال فى تلك الوجوه من شأنه أن يسعد الأفراد والجماعات والأمم.

- وأما بر الخلق فقد ذكرته بأحكم عبارة فى قوله تعالى : وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ.

وذلك لأن التمسك بهذه الفضائل - أداء الصلاة، وإيتاء الزكاة والوفاء بالعهود، والتذرع بالصبر، يدل على صفاء الإيمان، وطهارة الوجدان وحسن الخلق.

وهكذا تجمع آية واحدة من كتاب الله بين بر العقيدة وبر العمل وبر الخلق.

إن سعادة المسلمين تكون فى عودتهم إلى دينهم، وإلى كتاب ربهم وهدى نبيهم: وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا. (الإسراء : ٨٢).

★ ★ ★

القصـــاص

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾

المفردات :

القصاص : المساواة والمماثلة، وأصله من قص أثره واقتصه إذا اتبعه ومنه القاص لأنه يتبع الآثار.

القتلى : جمع قتيل، والمعنى فرض عليكم اعتبار المماثلة والمساواة بين القتلى، فالحر يقتل بالحر، والعبد يقتل بالعبد والأنثى بالأنثى.

فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ .

وهذا العفو يكون بقبول الدية من أولياء الدم بدلاً من قتل الجانى، ومتى قبل ولى الدم هذا ورضيه فيجب إذن أن يطلبه بالمعروف والرضا والمودة، ويجب على القاتل أو وليه أن يؤديه بإحسان، وإجمال وإكمال تحقيقا لصفاء القلوب، وشفاء لجراح النفوس وتقوية لأواصر الأخوة بين بقية الأحياء، وقد امتن الله على المؤمنين بهذا التشريع وبين ما فيه من رحمة بالأمة .

قال ابن عباس : ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ . إشارة إلى الحكم بشرع القصاص والدية والعفو.

فإن هذه الأمة خيرت بينها توسعة وتيسيرًا ولم يكن لليهود إلا القصاص، ولم يكن للنصارى إلا العفو، وإثبات الخيرة فضل من الله ورحمة فى حقنا لأن ولى الدم قد تكون الدية آثر عنده من القود إذا كان محتاجًا إلى المال وقد يكون القود آثر عنده إذا كان راغبًا فى التشفى ودفع شر القاتل عن نفسه وقد يؤثر ثواب الآخرة فيعفو عن القصاص وعن بدله جميعًا وهو الدية [٤٤].

فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

أى نوع من العذاب عديد الألم فى الآخرة.

وعن قتادة : (العذاب الأليم أن يقتل لا محالة، ولا يقبل منه الدية) لأن الاعتداء بعد التراضى والقبول نكث للعهود وإهدار للتراضي، وإثارة للشحناء بعد صفاء القلوب، ومتى قبل ولى الدم الدية، فلا يجوز له أن يعود فينتقم ويعتدى.

ومن ثم ندرك سعة آفاق الإسلام، وبصره بحوافز النفس البشرية عند التشريع لها ومعرفته بما فطرت عليه من النوازع: إن الغضب للدم فطرة وطبيعة. فالإسلام يلبيها بتقرير شريعة القصاص. فالعدل الجازم هو الذى يكسر شره النفوس، ويفثأ حنق الصدور، ويردع الجانى كذلك عن التمادى. ولكن الإسلام فى الوقت ذاته يحبب فى العفو ويفتح له الطريق، ويرسم له الحدود، فتكون الدعوة إليه بعد تقرير القصاص دعوة إلى التسامى فى حدود التطوع لا فرضا يكبت فطرة الإنسان ويحملها ما لا تطيق.

وتذكر بعض الروايات أن هذه الآية منسوخة. نسختها آية المائدة التى نزلت بعدها وجعلت النفس بالنفس إطلاقا: وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ .. الآية. (المائدة : ٤٥)

قال ابن كثير فى التفسير : وذكر فى سبب نزولها ما رواه الإمام أبو محمد بن أبى حاتم حدثنا ، أبو زرعة يحيى بن عبد الله بن بكير، حدثنى عبد الله بن لهيعة، حدثنى عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبير فى قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى. يعنى إذا كان عمدًا الحر بالحر.. وذلك أن حيين من العرب اقتتلا فى الجاهلية - قبل الإسلام بقليل. فكان بينهما قتلى وجراحات حتى قتل العبيد النساء، فلم يأخذ بعضهم من بعض حتى أسلموا فكان أحد الحيين يتطاول على الآخر فى العدة والأموال، فحلفوا ألا يرضوا حتى يقتل بالعبد منا الحر منهم، وبالمرأة منا الرجل منهم.. فنزل فيهم . الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى. منسوخة بقوله : النَّفْسَ بِالنَّفْسِ.

وإذا علمنا أن النسخ فى القديم كان يطلق على مجرد التخصيص أو التوضيح ...

ولم يكن يعنى النسخ عند الأصوليين : « وهو رفع حكم شرعى لاحق لحكم شرعى سابق ».

إذا علمنا هذا، وراعينا سبب النزول أدركنا أن موضع هذه الآية غير موضع آية النفس بالنفس، وأن لكل منها مجالاً غير مجال الأخرى، وأن آية النفس بالنفس مجالها مجال الاعتداء الفردى من فرد معين على فرد معين، أو من أفراد معينين على فرد أو أفراد معينين فيؤخذ الجانى ما دام القتل عمدا.. فأما الآية التى نحن بصددها فمجالها مجال الاعتداء الجماعى - كحالة ذينك الحيين من العرب- حيث تعتدى أسرة على أسرة أو قبيلة على قبيلة، أو جماعة على جماعة. فتصيب منها من الأحرار والعبيد والنساء ، فإذا أقيم ميزان القصاص كان الحر من هذه بالحر من تلك، والعبد من هذه بالعبد من تلك، والأنثى من هذه بالأنثى من تلك، وإلا فكيف يكون القصاص فى مثل هذه الحالة التى يشترك فيها جماعة فى الاعتداء على جماعة ؟.

وإذا صح هذا النظر لا يكون هنا نسخ لهذه الآية، ولا تعارض فى آيات القصاص.

١٧٩ - وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ.

قال المفسرون : القصاص إزالة الحياة، وإزالة الشىء لا تكون نفس ذلك الشىء، فالمراد : لكم فى شرع القصاص حياة، وأى حياة، وذلك أنهم كانوا يقتلون بالواحد الجماعة، وكم قتل مهلهل بأخيه كليب حتى كاد يفنى بكر بن وائل، وكان يقتل بالمقتول غير قاتله (٤٥) ويحتمل أن يقال إن نفس القصاص سبب لنوع من الحياة وهى الحاصلة بالارتداع عن القتل لأن القاتل إذا قيد منه ارتدع من كان يهم بالقتل فلم يَقتل ولم يُقتل فكان القصاص سبب حياة نفسين (٤٦).

وقرأ أبو الجوزاء : وَلَكُمْ فِي الْقَصَصِ حَيَاةٌ . أى فيما قص عليكم من حكم القتل والقصاص، وقيل القصص : القرآن أى لكم فى القرآن حياة للقلوب.

والمتأمل فى بلاغة الآية ومكانها مما قبلها يرى أن وقع الآية وجميل بيانها يتحقق بكلمة القصاص دون كلمة القصص، ويرى أن الحياة التى فى القصاص تنبثق من كف الجناة عن الاعتداء ساعة الابتداء.

فالذى يوقن أنه سيدفع حياته ثمنًا لحياة من يقتل .. جدير به أن يتروى ويفكر ويتردد. كما تنبثق من شفاء صدور أولياء الدم عند وقوع القتل بالفعل. شفاؤها من الحقد والرغبة فى الثأر. الذى لم يكن يقف عند حد فى القبائل العربية، حتى لتدوم معاركه المتقطعة أربعين عامًا كما فى حرب البسوس المعروفة عندهم. وكما نرى نحن فى واقع حياتنا اليوم، حيث تسيل الحياة على مذابح الأحقاد العائلية جيلاً بعد جيل، ولا تكف عن المسيل.

وفى القصاص حياة على معناها الأشمل الأعم. فالاعتداء على حياة فرد اعتداء على الحياة كلها، واعتداء على كل إنسان حى، يشترك مع القتيل فى سمة الحياة، فإذا كف القصاص الجانى عن إزهاق حياة وَاحِدَة فقد كفه عن الاعتداء على الحياة كلها. وكان فى هذا الكف حياة، حياة مطلقة لا حياة فرد ولا حياة أسرة ولا حياة جماعة. بل حياة.

لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. أى تحذرون القتل لخوف القصاص .

وقال النيسابورى : لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. يتعلق بمحذوف، أى أريتكم ما فى القصاص من استبقاء الأرواح وحفظ النفوس لتكونوا على بصيرة فى إقامته راجين أن تعملوا عمل أهل التقوى فى الحكم به، وهو خطاب له فضل اختصاص بالحكام وولاة الأمور (٤٧).

وقال الإمام محمد عبده معناه : « ثبتت لكم الحياة فى القصاص لتعدكم وتهيئكم للتوقى والاحتراس من سفك الدماء وسائر ضروب الاعتداء، إذ العاقل حريص على الحياة، ولوع بالأخذ بوسائلها، والاحتراس من غوائلها » (٤٨).

حكمة التشريع الإسلامى فى القصاص (٤٩) :

جعلت الشريعة القصاص عقوبة للقتل العمد والجرح العمد، ومعنى القصاص أن يعاقب المجرم بمثل فعله فيقتل كما قتل ويجرح كما جرح.

ومصدر عقوبة القصاص هو القرآن والسنة، فالله - عز وجل - يقول : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ... إلى آخر الآيتين ١٧٨ ، ١٧٩ من سورة البقرة.

ويقول - جل شأنه - وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ. (المائدة: ٤٥).

وفى السنة « من قتل له قتيل فأهله بين خيرتين إن أحبوا فالقود وإن أحبوا فالقتل » أى الدية.

وفى السنة « من اعتبط مؤمنًا بقتل فهو قود به إلا أن يرضى ولى المقتول ».

وليس فى العالم كله قديمه وحديثه عقوبة تفضل عقوبة القصاص فهو أعدل العقوبات إذ لا يجازى المجرم إلا بمثل فعله، وهى أفضل العقوبات للأمن والنظام، لأن المجرم حينما يعلم أنه سيجازى بمثل فعله لا يرتكب الجريمة غالبًا.

والذى يدفع المجرم بصفة عامة للقتل والجرح هو تنازع البقاء وحب التغلب والاستعلاء، فإذا علم المجرم أنه لن يبقى بعد فريسته أبقى على نفسه بإبقائه على فريسته، وإذا علم أنه إذا تغلب على المجنى عليه اليوم فهو متغلب عليه غدا، لم يتطلع إلى التغلب عليه عن طريق الجريمة، وأمامنا على ذلك الأمثلة العملية نراها كل يوم، فالرجل العصبى المزاج السريع إلى الشر نراه أهدأ ما يكون وأبعد عن الشر وطلب الشجار إذا رأى خصمه أقوى منه أو قدر أنه سيرد على الاعتداء بمثله.

والرجل المسلح قد لا يثنيه شىء عن الاعتداء ولكنه يتراجع ويتردد إذا رأى خصمه مسلحًا مثله ويستطيع أن يرد على الاعتداء، والمصارع والملاكم لا يتحدى شخصًا يعلم أنه أكثر منه قوة أو مرانا أو جلدا ولكنه يتحدى بسهولة من يظنه أقل منه قوة وأضعف جلدًا.

تلك هى طبيعة البشر، وضعت الشريعة على أساسها عقوبة القصاص، فكل دافع نفسى يدعو إلى الجريمة يواجه من عقوبة القصاص دافعًا نفسيًا مضادًا يصرف عن الجريمة، وذلك ما يتفق تمام الاتفاق مع علم النفس الحديث.

وللمجنى عليه ولوليه حق العفو عن عقوبة القصاص فإذا عفا سقطت العقوبة، والعفو قد يكون مجانا ، وقد يكون مقابل الدية ، ولكن سقوط عقوبة القصاص بالعفو لا يمنع ولى الأمر من أن يعاقب المجرم بعقوبة تعزيرية مناسبة.

ولقد كانت الشريعة عملية ومنطقية فى منح حق العفو للمجنى عليه أو وليه لأن العقوبة فرضت أصلاً لمحاربة الجريمة ، ولكنها لا تمنع وقوع الجريمة فى أغلب الأحوال.

أما العفو فيؤدى إلى منع الجريمة فى أغلب الأحوال ؛ لأنه لا يكون إلا بعد الصلح والتراضى وصفاء النفوس وخلوها من كل ما يدعو إلى الجريمة والإجرام.

فالعفو هنا يؤدى وظيفة العقوبة وينتهى إلى نهاية تعجز العقوبة عن الوصول إليها. جاء فى تفسير المنار :

وقد تقع فى كل بلاد العالم صور من جرائم القتل يكـون فيها الحكم بقتل القاتل ضارًا وتركه لا مفسدة فيه، كأن يقتل الإنسان أخاه أو أحد أقاربه لعارض دفعه إلى ذلك، ويكون هذا القاتل هو العائل لذلك البيت وإذا قتل يفقدون بقتله المعين والظهير، بل قد تكون فى قتل القاتل أحيانًا مفاسد ومضار وإن كان أجنبيًا من المقتول ويكون الخير لأولياء المقتول عدم قتله لدفع المفسدة أو لأن الدية أنفع لهم، فأمثال هذه الصور توجب ألا يكون الحكم بقتل القاتل حتمًا لازمًا فى كل حال بل يكون هو الأصل ويكون تركه جائزًا برضاء أولياء المقتول وعفوهم، فإذا ارتقت عاطفة الرحمة فى شعب أو قبيلة أو بلد إلى أن صار أولياء القاتل منهم يستنكرون القتل ويرون العفو أفضل وأنفع فذلك إليهم.

والشريعة لا تمنعهم منه بل ترغبهم فيه، وهذا الإصلاح الكامل فى القصاص هو ما جاء به القرآن.

وما كان ليرتقى إليه بنفسه علم الإنسان [٥٠].

★ ★ ★

الوصيـــة

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠) فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١) فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨٢) ﴾

المفردات :

كتب : فُرِض.

خيرا : مالاً كثيرًا.

الوصية : الإيصاء والتوصية وتطلق على الموصَى به من عين أو عمل.

المعروف : ما لا يستنكره الناس لقلته بالنسبة إلى ذلك الخير أو لكثرته التى تضرُّ بالورثة، وتقدر الكثرة باعتبار العرف وتقاس بحسب حال الشخص لدى الناس.

خاف : عَلِم.

الجنف : الخطأ.

الإثم : تعمد الإجحاف والظلم.

التفسير :

١٨٠ - كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ.

كتب الله عليكم أيها المؤمنون أنه إذا ظهرت على أحدكم أمارات الموت من مرض ثقيل، أو شيخوخة مضعفة وكان عنده مال كثير قد جمعه من طريق حلال أن يوصى بجانب منه لوالديه وأقاربه رعاية لحقهم وحاجتهم، وأن تكون وصيته لهم بالعدل الذى لا مضارة فيه بين الأقارب والوصية على هذا الوجه تعتبر حقا واجبا على المتقين الذين اتخذوا التقوى والخشية من الله طريقًا لهم.

والمراد بالمعروف هنا العدل الذى جاءت به الشريعة بألاَّ يتجاوز بالوصية الثلث، وألا يوصى للأغنياء ويترك الفقراء، أو يوصى للقريب ويترك الأقرب مع أنه أشد فقرا ومسكنة.

قال القرطبى : اختلف العلماء فى هذه الآية هل هى منسوخة أو محكمة فقيل هى محكمة؛ ظاهرها العموم ومعناها الخصوص فى الوالدين اللذين لا يرثان كالكافرين والعبدين وفى القرابة غير الورثة، قاله الضحاك وطاوس والحسن واختاره الطبرى [٥١]

« وجمهور المفسرين القدماء - وفى مقدمتهم ابن عباس وابن عمرو على أن هذه الآية منسوخة بآيات الميراث فى سورة النساء وسندهم فى ذلك أن النبى - صلى اللّه عليه وسلم - خطبهم على راحلته فقال : « إن اللّه قد قسم لكل إنسان نصيبه من الميراث فلا تجوز لوارث وصية»[٥٢] أخرجه أحمد والترمذى وصححه، والنسائى وابن ماجه، وكذلك ما أخرجه الإمام أحمد والبيهقى فى سننه عن أبى أمامة الباهلى قال : سمعت رسول اللّه - صلى اللّه عليه وسلم - فى حجة الوداع فى خطبته يقول : «إن اللّه قد أعطى كل ذى حق حقه فلا وصية لوارث »[٥٣].

فهذا الحديث وذاك، أفهما أن الرسول - صلى اللّه عليه وسلم - أخبرهم أن آية المواريث نسخت وجوب الوصية للوالدين والأقربين المأخوذ من هذه الآية [٥٤].

وحكمة الوصية لغير الوارث تتضح فى الحالات التى يحجب فيها بعض الأقارب من الميراث، لأن وجود الأصل الوارث والفرع الوارث كالأب والابن يحجب الحواشى كالأعمام والأخوال.

فالوصية لون من ألوان التكافل العائلى العام فى خارج حدود الوراثة.

وفى الصحيحين عن ابن عمر قال : قال رسول اللّه - صلى اللّه عليه وسلم - : « ما حق امرئ مسلم له شىء يوصى فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده » قال ابن عمر : ما مرت علىَّ ليلة منذ سمعت رسول اللّه - صلى اللّه عليه وسلم - يقول ذلك إلا عندى وصيتى [٥٥].

١٨١ - فمن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

أى فمن غير الإيصاء من شاهد ووصى فإنما إثم التبديل على من بدَّل وقد برئت منه ذمة الموصى وثبت له الأجر عند ربه.

والتغيير إما بإنكار الوصية، أو بالنقص فيها بعد علمها حق العلم.

إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. يسمع أقوال المبدّلين والموصين، ويعلم نياتهم ويجازيهم عليها.

١٨٢ - فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

أى إن خرج الموصى فى وصيته عن حدود العدل ورأى أمارات ذلك منه من يريد الإصلاح من

الناس، وتوقع أن شـرا سيترتب على هذه الوصيـة التى فيها جور، أو شاهد نزاعًا بين الموص والموصَى لهم، أن يرشد الموصى إلى سلوك طريق العدل والحق.

وعلى هذا المعنى يكون الضمير فى قوله: بَيْنَهُمْ . يعود على الموصى والموصَى لهم.

ويرى جمهور العلماء أن هذه الآية الكريمة الواردة فى الوصَى أن الموصى إذا حاد فى وصيته عن حدود العدل، فللوصى حينئذ أن يصلح فيها بحيث يجعلها متفقة مع ما شرعه الله ، وهو فى هذه الحالة لا إثم عليه لأنه قد غيَّر الباطل بالحق، وعلى هذا الرأى يكون المعنى : أن الموصَّى إذا رأى الوصية ميلا عن الحق خطأ أو عمدا وأصلح بين الموصى لهم بردهم إلى الوجه المشروع فلا إثم عليه فى هذا التغيير فى الوصية والضمير فى قوله « بينهم » عائد على الموصى لهم.

ويتعلق بالآية ما يأتى :-

١ - الوصية للأقربين أولى من الأجانب فالصدقة على القريب صدقة وصلة رحم.

٢ - روى الفخر الرازى رأى أبى مسلم الأصفهانى فى الوصية، ومن رأيه أن الوصية للوارث باقية لم تنسخ، ولا منافاة بينها وبين الميراث فالميراث عطية من الله، والوصية عطية من المالك للوارث، فمن شاء أن يوصى لابن بار أو وارث أشد حاجة فله ذلك عنده (٥٦).

٣ - قال العلماء : المبادرة بكتابة الوصية ليست مأخوذة من هذه الآية، وإنما هى من حديث ابن عمر. وفائدتها : المبالغة فى زيادة الاستيثاق، وكونها مكتوبة مشهودا بها وهى الوصية المتفق على العمل بها فلو أشهد العدول وقاموا بتلك الشهادة لفظا لعُمِل بها وإن لم تكتب خطًا (٥٧).

٤ - روى الدار قطنى عن أنس بن مالك قال : كانوا يكتبون فى صدور وصاياهم : هذا ما أوصى به فلان بن فلان أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وإن الله يبعث من فى القبور، وأوصى من يترك بعده من أهله بتقوى الله حق تقاته وأن يصلحوا ذات بينهم : ويطيعوا الله ورسوله إن كانوا مؤمنين (٥٨) وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ. (البقرة : ١٣٢).

★ ★ ★

الصيـــام

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤) ﴾

فرض الله الصيام تهذيبًا للنفس، وتعويدا على الطاعة، وتمرينا على تقوى الله ومراقبته.

وقد أثبت الطب الحديث أن للصيام فوائد طبية عدة فهو يفيد فى علاج كثير من الأمراض كضغط الدم المرتفع وتصلب الشرايين والبول السكرى، ويصلح الجهاز الهضمى وهبوط القلب والتهاب المفاصل ويعطى الجسم والأنسجة فرصة للراحة والتخلص من كثير من الفضلات الضارة بالجسم كما أنه وقاية من كثير من الأمراض المختلفة (٥٩).

وقد كان الصوم معروفًا عند الأمم السابقة، فقد عرف الصوم عند قدماء المصريين، ومنهم انتقل إلى اليونان والرومان ولا يزال الهنود الوثنيون يصومون إلى الآن، وفى التوراة مدح للصوم والصائمين وليس فيها ما يدل على أنه فرض، وثبت أن موسى صام أربعين يوما، كما أنه ليس فى الإنجيل نص على فرضية الصوم، بل فيه مدحه وعده عبادة. وأشهر صيام النصارى وأقدمه الصوم الكبير الذى قبل عيد الفصح، وهو الذى صامه موسى وكان يصومه عيسى والحواريون، وقد وضع رؤساء الكنيسة ضروبا أخرى من الصيام تختلف فيها المذاهب والطوائف.

★ ★ ★

١٨٣ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ.

لقد فرض الله الصيام لتهذيب الإنسان وتربية المسلم وتصفية نفسه وإخلاص ضميره.

وقد أخبر الله أن الصوم عبادة معروفة عرفتها الأديان السابقة ولكن بكيفية لا يعلمها إلا الله إذ لم يرد نص صحيح عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يبين لنا فيه كيف كان صيام الأمم السابقة على الأمة الإسلامية.

وقد بين الله أن الصيام فرض علينا كما فرض على الأمم السابقة. لإثارة الهمم والعزائم للنهوض بهذه العبادة وتسهيلا للصيام على المسلمين لأن الشىء الشاق تخف مشقته على الإنسان عندما يعلم أن غيره قد أداه من قبله .

★ ★ ★

١٨٤ - أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ. .

أى أياما معينات بالعدد وهى أيام رمضان فالله لم يكن يفرض علينا صوم الدهر كله ولا أكثره تخفيفًا ورحمة بالمكلفين : « ولو علم المؤمن فضل رمضان لتمنى أن يكون السنة كلها».

فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ .

لقد شرع الله الإفطار للمريض والمسافر على سبيل الرخصة، وهما بالخيار إن شاءا أفطرا وإن شاءا صاما، إلا أن أكثر الفقهاء قالوا : الصوم أفضل لمن قوى عليه.

والذى نراه أن الله - تعالى - قد أباح الفطر فى رمضان بسبب المرض أو السفر، لأن كلا منهما مظنة المشقة والحرج، والحكم الشرعى يوجد حيث توجد مظنته وينتفى حيث تنتفى، وعلى المسلم أن يقدر حال نفسه، فإذا أيقن أو غلب على ظنه أن مرضه أو سفره ليس فى الصوم معه مشقة أو عسر صام عملاً بقوله - تعالى: وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ . وإذا أيقن أو غلب على ظنه أن مرضه أو سفره يجعل الصوم شاقا عليه أفطر عملاً بقوله تعالى : يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ. فالمسألة ترجع إلى ضمير الفرد ودينه، واستفتاء قلبه.

والثابت عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه صام فى السفر وأفطر، وَخيَّر بعض أصحابه بين الصوم والفطر.

روى الشيخان ومالك وأبو داود عن أنس بن مالك قال : « كنا مع النبى - صلى الله عليه وسلم - فمنا الصائم ومنا المفطر فلا الصائم يعيب على المفطر ولا المفطر يعيب على الصائم » [٦٠].

ومن صام وهو مريض أو مسافر فقد أدى الفريضة، ومن أفطر وجب عليه القضاء.

وروى عن عائشة أن حمزة الأسلمى قال للنبى - صلى الله عليه وسلم - : أأصوم فى السفر- وكان كثير الصيام؟ فقال له النبى - صلى الله عليه وسلم - « **إن شئت فصم وإن شئت فأفطر**، وفى رواية مسلم أنه أجابه بقوله :« هى رخصة من الله فمن أخذ بها فحسن ومن أحب أن يصوم فلا جناح عليه » [٦١].

وأكثر الأئمة كمالك وأبى حنيفة والشافعى على أن الصوم أفضل لمن قوى عليه ولم يشق، ويرى أحمد والأوزاعى أَنَّ الفِطْرَ أفضل عملاً بالرخصة.

وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ .

والذين يطيقون الصوم هم الشيوخ و الضعفاء والزمنى الذين لا يُرجى برء أمراضهم والعمال الذين جعل الله معاشهم الدائم بالأشغال الشاقة كاستخراج الفحم من المناجم، « والمجرمون الذين يحكم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة والحبلى والمرضع إذا خافتا على ولديهما. فكل هؤلاء يفطرون وعليهم الفدية، وهى إطعام مسكين من أوسط ما يطعمون منه أهليهم بقدر كفايته أكلة واحدة بقدر شبع المعتدل الأكل، عن كل يوم يفطرونه »(٦٢).

ومعنى « يُطِيقُونَهُ » يقدرون عليه ويتحملونه بمشقة وتعب، لأن الطاقة اسم للقدرة على الشىء مع الشدة والمشقة، والوسع اسم للقدرة على جهة السهولة.

قال الراغب : (والطاقة اسم لمقدار ما يمكن للإنسان أن يفعله بمشقة، وذلك تشبيه بالطوق المحيط بالشىء ومنه . رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ . (البقرة : ٢٨٦) أى ما يصعب علينا مزاولته، وليس معناه: لاتحملنا مالا قدرة لنا به) (٣).

والعرب لا تقول فلان أطاق الشىء إلا إذا كانت قدرته عليه فى نهاية الضعف بحيث يتحمله بمشقة وعسر، فلا يقال - مثلاً - فلان يطيق حمل نواة أو ريشة أو عشرة دراهم من حديد. وإنما يقال هو يطيق حمل قنطار من الحديد أو حمل الأمتعة الثقيلة.

★ ★ ★

وللعلماء أقوال كثيرة فى المراد بقوله تعالى : وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ . أشهرها ثلاثة آراء.

الرأى الأول : أن هذا راجع إلى المقيم الصحيح خيَّره الله - تعالى - بين الصوم وبين الفداء وكان ذلك فى بدء الإسلام، فرض عليهم الصوم ولم يتعودوه فاشتد عليهم، فرخص لهم فى الإفطار، الفدية ثم نسخ ذلك وأوجب الله عليهم الصوم.

ويشهد لهذا القول ما جاء فى الصحيحين عن سلمة بن الأكوع قال :

لما نزلت هذه الآية: وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ . كان من أراد أن يفطر ويفتدى، حتى نزلت الآية بعدها فنسختها (٦٤).

الرأى الثانى : أن قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ ... ﴾

ليس بمنسوخ بل هو محكم، وأنه نزل فى شأن الشيخ الكبير الهرم والمرأة العجوز، إذا كانا لا يستطيعان الصيام فعليهما أن يفطرا وأن يطعما عن كل يوم مسكينا، وأصحاب هذا الرأى يستدلون بما رواه البخارى عن ابن عباس أنه قال فى هذه الآية : ليست بمنسوخة، هو الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما فعليهما أن يطعما مكان كل يوم مسكينًا [٦٥].

الرأى الثالث : أن قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾ .

ليس بمنسوخ - أيضا - بل هو محكم وأن معنى الآية عندهم : وعلى الذين يطيقونه ، أى يقدرون على الصيام بمشقة شديدة إذا أرادوا أن يفطروا فعليهم أن يطعموا عن كل يوم يفطرونه مسكينا . (بأن يقدموا له نصف صاع من بر أو صاعًا من تمر أو شعير أو قيمة ذلك)، ولم يقصروا ذلك على الرجل الكبير والمرأة العجوز - كما فعل أصحاب الرأى الثانى - وإنما أدخلوا فى حكم الذين يقدرون على الصوم بمشقة وتعب المرضع والحامل إذا خافتا على أنفسهما أو ولديهما ومن فى حكمهما ممن يشق عليهم الصوم مشقة كبيرة، وأصحاب هذا الرأى يستدلون على ما ذهبوا إليه بمنطوق الآية، إذ إن الوسع اسم للمقدرة على الشىء على جهة السهولة ، والطاقة اسم للمقدرة عليه مع الشدة والمشقة. كما يستدلون أيضا على ما ذهبوا إليه بقراءة (يطيِّقونه) [٦٦] بضم الياء الأولى وتشديد الثانية - أى يتجشمونه ويتكلفونه بمشقة وتعب، وقد انتصر بعض العلماء لهذا الرأى بناء على أن منطوق الآية يؤيده.

كما انتصر بعضهم للرأى الأول بناء على أن الأحاديث الصحيحة تسانده، وعلى أنه هو الأقرب إلى روح الشريعة الإسلامية فى التدرج فى تشريع التكاليف التى فيها مشقة على الناس ، كما انتصر بعضهم للرأى الثانى الذى روى عنه ابن عباس.

﴿ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ﴾ .

أى فمن زاد فى الفدية فذلك خير له لأن ثوابه عائد إليه ومنفعته له ، وهذا التطوع شامل لأصناف ثلاثة :

١ - أن يزيد فى الإطعام على مسكين واحد فيطعم بدل كل يوم مسكينين أو أكثر.

٢ - أن يطعم المسكين الواحد أكثر من القدر الواجب.

٣ - أن يصوم مع الفدية.

﴿ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ .

أى وصومكم – أيها المرضى والمسافرون والذين يطيقونه – خير لكم من الفدية لما فيه من رياضة الجسد والنفس ومراقبة الله.

إن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ .

وجه الخيرية فيه وكونه لمصلحة المكلفين ، لأن الله غنى عن العالمين ، وما روى من قوله – عليه الصلاة والسلام – : « ليس من البر الصوم فى السفر » فقد خصص بمن يجهده الصوم ويشق عليه حتى يخاف الهلاك.

شهر رمضان

ورد فى هدى النبوة أنه « إذا جاء شهر رمضان ، فتحت أبواب الجنان ، وغلّقت أبواب النيران ، ونادى مناد من قِبل اللّهُ – تعالى – يا طالب الخير أقبل ، ويا باغى الشر أدبر » (٦٧).

وقد اختص الله شهر رمضان بعدد من الفضائل والمزايا يمكن أن نذكر عشرا منها :

١ – فهو شهر أنزل اللّهُ فيه القرآن ، هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان.

٢ – وهو شهر الصوم وفى الصيام صفاء النفس ، وخشوع القلب ومراقبة اللّهُ – سبحانه وتعالى.

٣ – وهو شهر الصبر والاحتمال وتربية الإرادة ، وخلق عادات إسلامية سليمة.

٤ – وهو شهر الصدقة ، وصلة الرحم ، ففيه صدقة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث وطعمة للمساكين . وفى الحديث: « كان – صلى الله عليه وسلم – أجود بالخير من الريح المرسلة وكان أجود ما يكون فى رمضان حين يلقاه جبريل».

٥ – وفى السابع عشر من رمضان فى العام الثانى للهجرة كانت غزوة بدر الكبرى ، وهى أول معركة هامة فى تاريخ الدعوة الإسلامية ، وكان انتصار المسلمين فيها نقطة تحول أساسية بدأت قوة المسلمين بعدها فى النمو والازدياد.

٦ – وفى ٢٠ من رمضان سنة ٨ هـ، تم فتح مكة وخضعت أم القرى ، ودخل الناس فى دين اللّهُ أفواجا ، ويعتبر فتح مكة من أهم الأمور التى اعتز بها الإسلام وتمكن بسببها من الصمود والانتشار.

٧ – وفى رمضان ليلة القدر ، وهى ليلة مباركة يضاعف الله فيها الثواب ، ويجعل ثواب العبادة فيها خيرا من ثواب العبادة فى ألف شهر، فهى منحة إلهية ومكافأة ربانية وعطاء سماوى يكافأ به الصائمون المخلصون، وقد أخفى الله ليلة القدر فى العشر الأواخر من رمضان حتى يجتهد المسلمون فى أواخره فيحصلوا على قدر كبير من الثواب والأجر .

٨ - وفى شهر رمضان صلاة التراويح وهى عبارة عن صلاة عشرين ركعة بعد صلاة العشاء ويجوز أن تصلى ثمانى ركعات مع إطالة القراءة.

٩ - وفى ختام رمضان يأتى عيد الفطر مكافأة للصائم الذى أرضى ربه وصام نهار رمضان وقام ليله ، فيكون الفرح والسرور فى عيد الفطر جزاء عاجلا ، وله فى الآخرة ثواب آجل.

١٠- وفى أعقاب رمضان يأتى صيام الأيام البيض. وهى ستة أيام من شهر شوال ، بمثابة مسك الختام لصيام رمضان.

وفى الحديث : « من صام رمضان وأتبعه ستا من شوال فكأنما صام السنة كلها » (٦٨) . وقد ورد ذكر شهر رمضان فى القرآن الكريم مرة واحدة فى الآية ١٨٥ من سورة البقرة.

★ ★ ★

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾

شهر رمضان مبتدأ ، خبره الذى أنزل فيه القرآن ، أو بدل من الصيام فى قوله تعالى : « كتب عليكم الصيام ».

ومعنى نزول القرآن فى رمضان أن ابتداء نزوله كان فى شهر رمضان، تسمية للشىء باسم أوله.

وفى سورة القدر تحديد لليلة التى ابتدأ فيها نزول القرآن ، قال تعالى: إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وما أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ سَلامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ. (سورة القدر).

والملاحظ أن القرآن نزل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى ثلاث وعشرين سنة هى مدة الرسالة . قال تعالى: وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً. (الإسراء : ١٠٦).

وقال عز شأنه - : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً . (الفرقان : ٣٢-٣٣).

روى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن الحسن أنه قال فى قول الله - عز وجل - : وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً. قال : كان ينزل آية وآيتين وآيات، جوابًا لهم عما يسألون وردًّا على النبى - صلى الله عليه وسلم.

قال ابن قتيبة : « ولو أتاهم القرآن نجما واحدًا لسبق حدوث الأسباب التى أنزل الله بها، ولثقلت جملة الفرائض على المسلمين، وعلى من أراد الدخول فى الدين».

وللعلماء فى كيفية نزول القرآن آراء ثلاثة :

الرأى الأول : وهو رأى الشعبى، أنه ابتدأ إنزاله فى ليلة القدر ثم نزل بعد ذلك منَجَّمًا فى أوقات مختلفة من سائر الأزمان على النبى - صلى الله عليه وسلم .

فقول القرآن : إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ. من باب تسمية الشىء باسم أوله تيمنًا به وتعظيمًا لشأنه، (ومبادئ الملل هى التى يؤرخ بها لشرفها وانضباطها).

الرأى الثانى : وهو رأى مقاتل بن سليمان، أنه نزل إلى سماء الدنيا فى ثلاث وعشرين ليلة قدر من ثلاث وعشرين سنة، ينزل فى كل ليلة قدر ما قدر إنزاله فى تلك السنة، ثم ينزل به جبريل منجما على رسول الله - صلى الله عليه وسلم.

الرأى الثالث : وهو رأى الجمهور، أن القرآن نزل إلى سماء الدنيا ليلة القدر جملة واحدة، ثم نزل بعد ذلك منجمًا فى ثلاث وعشرين سنة، وأصحاب هذا الرأى يذهبون إلى أن للقرآن تنزلات ثلاثة:

(أ) التنزل الأول إلى اللوح المحفوظ قال تعالى : بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ. (البروج:٢١-٢٢).

(ب) التنزل الثانى من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة فى سماء الدنيا، ودليله قوله - سبحانه - : إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ.

(ج) التنزل الثالث من سماء الدنيا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى ثلاث وعشرين سنة، ودليله قوله - تعالى - : وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً .

١٨٥ - شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ . . .

بين الله أن الحكمة فى تخصيص هذا الشهر بالعبادة والصيام هى أنه الشهر الذى أنزل فيه

القرآن وأفيضت على البشر فيه هداية الرحمن، فحق أن يعبد الله - تعالى - فيه ما لا يعبده فى غيره. تذكرًا لإنعامه بهذه الهداية. وهى إنزال القرآن الذى هدانا الله - تعالى - به وجعله آيات بينات من الهدى أى من الكتب المنزلة، والفرقان الذى يفرق بين الحق والباطل، فوصفه بأنه هدى فى نفسه لجميع الناس، وأنه من جنس الكتب الإلهية، ولكنه الجنس العالى على جميع الأجناس فإنه آيات بينات من ذلك الهدى السماوى وكتب الله كلها هدى ولكنها ليست فى بيانها كالقرآن .

فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ . . .

أى من حضر منكم الشهر غير مسافر. أو من رأى منكم هلال الشهر، والمستيقن من مشاهدة الهلال بأية وسيلة أخرى يجب عليه الصيام كمن شاهده، ثم بين الله الرخصة للمريض والمسافر فقال سبحانه :

وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ .

أى إذا كان الصوم يجهد المريض أو المسافر فله أن يفطر وعليه عدة ما أفطر من أيام أخر يصومها بدلاً من الأيام التى أفطرها فى رمضان.

وقد اختلف العلماء فى المرض المبيح للفطر على ثلاثة أقوال:

الأول : وهو قول أهل الظاهر : أى مرض كان وهو ما يطلق عليه اسم المرض.

الثانى : أن هذه الرخصة مختصة بالمريض الذى لو صام لوقع فى مشقة عظيمة تنزيلاً للفظ المطلق على أكمل أحواله.

الثالث : وهو قول أكثر الفقهاء أن المرض المبيح للفطر هو الذى يؤدى إلى ضرر فى النفس أو زيادة علة غير محتملة كالمحموم إذا خاف أنه لو صام اشتدت حمّاه. فالمراد بالمرض ما يؤثر فى تقويته، قال الشافعى : إذا أجهده الصوم أفطر وإلا فهو كالصحيح.

واختلف العلماء أيضًا فى مقدار السفر المبيح للفطر فى رمضان فقال داود الظاهرى : أى سفر ولو كان فرسخًا. وقال الأوزاعى : السفر المبيح للفطر مسيرة يوم واحد. وقال الشافعى وأحمد ومالك : أقله مسيرة يومين أو ستة عشر فرسخًا. وقال أبو حنيفة وأصحابه: أقله مسيرة ثلاثة أيام [٦٩].

يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ.

اليسر فى اللغة السهولة ، ومنه التيسير ، قال- صلى الله عليه وسلم - بعثت بالحنيفية السهلة السمحة.

ومن كمال رأفته - تعالى - أنه نفى الحرج أولا ضمنًا بقوله : يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ . ثم نفاه صريحًا بقوله: وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ . ويقول - سبحانه - فى آيات أخرى . يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً * يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا . (النساء : ٢٦-٢٨).

أى أن اللّه سبحانه يريد التيسير والرأفة وتسهيل طرق الهداية والعبادة حتى يأخذ بيد الإنسان إلى طريق الفلاح والرشاد.

وفى الحديث الشريف يقول النبى - صلى اللّه عليه وسلم - : « يسِّروا ولا تعسِّروا وبشِّروا ولا تنفِّروا .. ».

وهذه قاعدة أساسية فى تكاليف الإسلام كلها، فهى يسر لا عسر، وهى توحى للقلب الذى يتذوقها بالسهولة واليسر فى أخذ الحياة كلها، وتطبع نفس المسلم بطابع خاص من السماحة التى لا تكلُّف فيها ولا تعقيد. سماحة تؤدى معها كل التكاليف وكل الفرائض وكل نشاط الحياة، كأنما هى مسيل الماء الجارى، ونمو الشجرة الصاعدة فى طمأنينة وثقة ورضاء. مع الشعور الدائم برحمة اللّه وفضله وبره، وعظيم نعمائه على عباده.

وقد جعل اللّه الصوم للمسافر والمريض فى أيام أخرى لكى يتمكن المضطر من إكمال عدة أيام الشهر فلا يضيع عليه أجرها .

وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ .

أى عدة صوم رمضان فيتدارك المسلم، ما فاته من صيام بالقضاء.

أو المراد يجب إتمام صيام الشهر لمن كان مقيمًا صحيحًا، وإتمام عدة أيام القضاء لمن أفطر.

وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ .

أى تذكروه وتكبّروه شاكرين له هدايتكم وتوفيقكم لصيام رمضان.

قال الشافعى : سمعت من أرضى من أهل العلم بالقرآن : يقول: وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ . أى عدة صوم رمضان: وَلِتُكَبِّرُوا اللَّه . عند إكمالها، وإكمالها بغروب شمس آخر يوم رمضان.

وصيغة التكبير هى : اللّه أكبر اللّه أكبر اللّه أكبر، لا إله إلا اللّه، اللّه أكبر، اللّه أكبر وللّه الحمد.

قال الشافعى وما زاد من ذكر الله فحسن، خصوصًا الذكر المأثور مثل : الله أكبر كبيرًا والحمد لله كثيرا، وسبحان الله بكرة وأصيلا، لا إله إلا الله؛ ولا نعبد إلا إياه، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون، لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده، ولا شىء قبله ولا شىء بعده.

وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون.

أى أن يستشعر الصائم فضل الله عليه ونعمه وتوفيقه فيفئ قلبه إلى الله راغبًا حامدًا معترفا له بالربوبية شاكرا له نعمة التوفيق والهداية، وبذلك تظهر منة الله فى هذا التكليف الذى يبدو شاقا على الأبدان والنفوس وتتجلى الغاية التربوية منه وهى إعداد المؤمن ليكون عبدًا ربانيًا مطيعًا لله مراقبًا له معترفًا بفضله وجميل نعمائه.

★ ★ ★

الدعـــاء

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦) ﴾

تأتى هذه الآية فى ثنايا الحديث عن الصيام ليستلهم المؤمن منها قرب الصائم من ربه، واستجابة الله - سبحانه - لدعائه، فإن الصوم لا يطلع عن حقيقته إلا الله. روى البخارى أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم - قال : يقول الله عز وجل - « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به »[٧٠].

١٨٦ - وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُم يَرْشُدُونَ.

ما أجمل هذه الآية وما أبدع التعبير فيها عن قرب الإله الكريم من العبد إذا دعاه.

وروى ابن ماجه فى سننه - بإسناده - عن عبد الله بن عمر كذلك ، قال النبى - صلى الله عليه وسلم - : « إن للصائم عند فطره دعوة ما ترد »[٧١].

وفى مسند الإمام أحمد وسنن الترمذى والنسائى وابن ماجه عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ثلاثة لا ترد دعوتهم : الإمام العادل ، والصائم حتى

يفطر، ودعوة المظلوم يرفعها الله دون الغمام يوم القيامة، وتفتح لها أبواب السماء، ويقول : بعزتى لأنصرنك ولو بعد حين ».

والدعاء فى حقيقته مظهر من مظاهر العبادة الحقة فهو اعتراف لله بالربوبية وإنه على كل شىء قدير، وفى الدعاء عرفان من العبد بالذل والانكسار وإقرار بسمة العجز والافتقار وتصحيح نسبة العبودية، ويسن الدعاء فى جوف الليل ودبر الصلوات المكتوبات وبين الأذان والإقامة وعند السجود، وعند السحر فى الهزيع الأخير من الليل، وهو الوقت الذى تغار فيه النجوم وتنام العيون ويبقى الله الواحد القيوم .

روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول : « من يدعُنى فاستجب له، من يسألنى فأعطيه، من يستغفرنى فأغفر له » (٧٢).

★ ★ ★

ليلة الصيام

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾

المفردات :

ليلة الصيام : هى الليلة التى يصبح فيها المرء صائمًا.

الرفث إلى النساء : الإفضاء إليهن، قال الأزهرى : الرفث، كلمة جامعة لكل ما يريده الرجل من المرأة.

اللباس : الملابسة والمخالطة.

تختانون أنفسكم : أى تخونون أنفسكم بعمل شىء تعدونه حرامًا.

الخيط الأبيض : أول ما يبدو من بياض النهار كالخيط الممدود رقيقًا ثم ينتشر.

الخيط الأسـود : هو ما يمتد من سواد الليل مع بياض النهار، فالصبح إذا بدا فى الأفق بدا كأنه خيط ممدود ويبقى بقية من ظلمة الليل، يكون طرفها الملاصق لما يبدو من الفجر كأنه خيط أسود فى جنب خيط أبيض.

الإتمام : الأداء على وجه التمام.

ولا تباشروهن : حقيقة المباشرة مس كل بشرة الآخر، أى ظاهر جلده والمراد بها ما أريد بالرفث.

الاعتكاف : هو المكث فى المسجد طاعة للّه وتقربًا إليه.

الحدود : واحدها حد، وهو فى اللغة الحاجز بين شيئين، ثم سمى بها ما شرعه اللّه لعباده من الأحكام لأنها تحدد الأعمال وتبين أطرافها وغاياتها، فإذا تجاوزها المرء خرج عن حد النصيحة، وكان عمله باطلا. والمراد من الآيات هنا دلائل الدين ونصوص الأحكام.

التفسير :

فى أول فرض الصيام كانت المباشرة والطعام والشراب تمتنع لو نام الصائم بعد إفطاره، فإذا صحا بعد نومه من الليل. ولو كان قبل الفجر- لم تحل له المباشرة ولم يحل له الطعام والشراب، وقد وقع أن بعضهم لم يجد طعامًا عند أهله وقت الإفطار، فغلبه النوم ثم صحا فلم يحل له الطعام والشراب فواصل ثم جهد فى النهار التالى وبلغ أمره إلى النبى - صلى اللّه عليه وسلم، كما وقع أن بعضهم نام بعد الإفطار، أو نامت امرأته ثم وجد فى نفسه ما دفعه للمباشرة ففعل وبلغ أمره إلى النبى - صلى اللّه عليه وسلم.

وبدت المشقة فى أخذ المسلمين بهذا التكليف فردهم اللّه إلى اليسر ونزلت هذه الآية تحل لهم المباشرة ما بين المغرب والفجر [٧٣].

قال الإمام الرازى : وجمهور المفسرين على أن هذه الآية من قبيل النسخ لأنها قد نسخت ما كان حاصلاً فى أول فرضية الصيام من أن الصائم إذا نام بعد فطره لا يحل له الأكل أو الشرب أو الجماع إلى أن يفطر من الغد.

★ ★ ★

ويرى بعض العلماء أن الآية ليست من قبيل النسخ، وإنما هى إرشاد إلى ما شرعه الله - تعالى - لعباده خلال شهر الصوم، من إباحة غشيان أزواجهم ليلاً ومن جواز الأكل والشرب . ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ . (وكأن الصحابة كانوا يتحرجون عن ذلك ظنًا منهم أنه من تتمة الصوم، ورأوا أن لا صبر لأنفسهم عن الأكل والشرب والجماع ليلاً فبين اللّه لهم أن ذلك حلال لا حرج

فيه، وأصحاب هذا الرأى يستشهدون لذلك بما رواه البخارى عن البراء قال : لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله، وكان رجال يخونون أنفسهم فأنزل الله - تعالى - : عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ .

فالمقصود من الآية الكريمة عند هؤلاء رفع ما توهمه بعض الصحابة من أن الأكل أو الشرب أو الجماع لا يجوز ما داموا قد ناموا بعد فطرهم لأن الله تعالى رءوف رحيم بهم، ولم يشرع لهم ما فيه حرج أو مشقة عليهم [٧٤].

★ ★ ★

١٨٧ - أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ . . . .

أى أحل الله لكم ليلة الصيام قربان نسائكم، وقد علّمنا الله النزاهة فى التعبير عن هذا الأمر حين الحاجة إلى الكلام فيه بعبارات مبهمة كقوله : أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ . ، أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ . ، دَخَلْتُم بِهِنَّ ., فلمَّا تَغَشَّاهَا حمَلَتْ .

والرفث فى الأصل الفحش من القول، وكلام النساء حين الجماع كنى به عن المباشرة للزوجة لها غالباً، يقال رفث فى كلامه، وأرفث فيه إذا أَفْحَش فيه، والمراد فى الآية الجماع والمباشرة.

هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ .

أى رخص فى مباشرتهن ليلة الصيام، لأن كلا من الزوجين يسكن إلى صاحبه ويكون من شدة القرب منه كالثوب الملابس له، وكانت العرب تسمى المرأة لباسا، وهذه حال تقوى معها الدواعى إلى المباشرة فمن رفقه - تعالى - بعباده أن أحلها لهم.

قال الزمخشرى : فإن قلت : ما موقع قوله: هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ . قلت : هو استئناف كالبيان بسبب الإحلال، وهو أنه إذا كانت بينكم وبينهن مثل هذه المخالطة والملابسة قل صبركم عنهن وصعب عليكم اجتنابهن فلذلك رخص فى مباشرتهن [٧٥] . وفى هذا التعبير القرآنى ما فيه من اللطافة والأدب وسمو التصوير لما بين الرجل وزوجه من شدة الاتصال والمودة واستئثار كل واحد منهما بصاحبه.

عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ .

قال الراغب : الاختيان مراودة الخيانة، ولم يقل تخونون أنفسكم لأنه لم تكن منهم الخيانة بل كان منهم الاختيان، فإن الاختيان تحرك شهوة الإنسان لتحرى الخيانة وذلك هو المشار إليه بقوله تعالى: إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ [٧٦].

والمعنى : علم الله أنكم كنتم تراودون أنفسكم على مباشرة نسائكم ليلاً، وعلى الأكل بعد النوم، قبل أن يظهر الفجر الصادق، بل إن بعضكم قد فعل ذلك، فكان من رحمة الله بكم أن أباح الأكل والشرب والجماع فى ليالى الصيام، وأن قبل توبتكم وعفا عنكم، أى محا أثر ما فعلتموه من الأكل والجماع قبل أن يأذن لكم بذلك.

فَتَابَ عَلَيْكُمْ وعفا عَنكُمْ . . . .

أى قبل توبتكم وعفا عن خيـــانتكم أنفسكم، إذا خالفتم ما كنتم تعتقدون حين فهمتم من قوله كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ . تحريم ملامسة النساء ليلاً، أو تحريمها بعد النوم كتحريم الأكل والشرب.

فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ . . . .

بهذا أزال الله عن المؤمنين الحرج، فأباح لهم أن يباشروا نساءهم ليلة الصيام، مع مراعاة أن الهدف ليس إرضاء الشهوات فحسب، بل إعفاف الزوجين، وحفظ النوع الإنسانى والتمتع بالحلال والتأمل فى فضائل الله ونعمه على المؤمنين.

قال تعالى : وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً . (الروم:٢١) (بهذا ترتبط العلاقة المباشرة بين الزوجين بغاية أكبر منهما، وأفق أرفع من الأرض ومن لحظة اللذة بينهما، وبهذا تنظف هذه العلاقة وترق وترقى) (٧٧).

لقد سما الإسلام بين الزوج والزوجة فجعلها آية من آيات الله وجعل المتاع الجنسى حقًا مشروعًا، وإعطاء النفس حقها طاعة وعبادة إذا قصد بها طاعة الله.

وفى الحديث الشريف الصحيح « إن لربك عليك حقًا، وإن لزوجك عليك حقًا ، وإن لبدنك عليك حقًا ، فأعط كل ذى حق حقه».

وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ . . . .

أحلت هذه الآية للصائمين : أن يباشروا زوجاتهم، وأن يأكلوا ويشربوا من غروب الشمس إلى طلوع الفجر.

والخيط الأبيض كناية عن الشعاع الضوئى الممتد بعرض الأفق، فإذا بدأ ظهوره. تميز من فوقه الليل أسود اللون.

وهو الذى كنَّتْ عنه الآية بالخيط الأسود فإذا اجتمعا على هذا النحو كان الفجر.

فالفجر عبارة عن مجموع الخيطين الأبيض والأسود.

ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ . . . .

أى ثم استمروا فى صيامكم إلى ابتداء الليل بغروب قرص الشمس، وما يلزمه من ذهاب شعاعها من جدران البيوت والمآذن، ويتلو ذلك إقبال الليل قال – صلى الله عليه وسلم – : « إذا أدبر النهار وأقبل الليل وغابت الشمس فقد أفطر الصائم ».

وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ .

الاعتكاف هو الخلوة فى المسجد تقربا إلى الله، ويستحب الاعتكاف فى رمضان وخصوصا فى العشر الأواخر، وكان – صلى الله عليه وسلم – يعتكف فى المسجد فى العشر الأواخر من رمضان، والاعتكاف لون من السمو النفسى والزهد فى حطام الدنيا والتفرغ للطاعة والعبادة، ولا يكون الاعتكاف إلا فى المسجد، ولذلك نهى المعتكف عن مباشرة الزوجة فى فترة اعتكافه مراعاة لحرمة المسجد، وتجردًا من شهوات الجسد وسموًّا بالروح فى فترة من الفترات.

تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا .

تلك إشارة إلى ما تقدم من أحكام. وسمّاها حدودا لأنها حجزت بين الحق والباطل.

والنهى فى: فَلا تَقْرَبُوهَا . آكد من لا تعتدوها لأنه يشير إلى البعد عنها، وعدم الاقتراب منها، لتكون هناك منطقة أمان، فمن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه.

كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ .

وعلى هذا النحو الدقيق وَضّح الله الأحكام للناس حتى لا يلتبس عليهم الحق بالباطل، وبهذا تصح عبادتهم وتسمو نفوسهم وتسكن التقوى فى قلوبهم (وكذلك تلوح التقوى غاية يبين الله آياته للناس ليبلغوها، وهى غاية كبيرة يدرك قيمتها الذين آمنوا المخاطبون بهذا القرآن فى كل حين) (٧٨).

★ ★ ★

الرشـــوة

﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾

المفردات :

المراد بالأكل : المراد به مطلق الأخذ والاستيلاء ، وعبر عنه بالأكل؛ لأن الأكل أهم وسائل الحياة وفيه تصرف الأموال غالبًا.

الباطل : فى اللغة الزائل الذاهب، ويقال : بطل الأجير يبطل بطالة إذا تعطل واتبع اللهو، والمراد به هنا، كل ما لم يبح الشرع أخذه من المال وإن طابت به النفس كالربا والميسر وثمن الخمر والرشوة وشهادة الزور و السرقة الغصب ونحو ذلك مما حرَّمه الله تعالى.

والإدلاء : إلقاء الدلو لإخراج الماء، ويراد به إلقاء المال إلى الحكام لإخراج الحكم للملقى، وقوله بها أى الأموال .

الفريق : الفريق من الشىء، الجملة والطائفة منه.

الإثـم : هو شهادة الزور أو اليمين الفاجرة أو كل فعل يستحق صاحبه الذم والعقاب، وجمعه آثام.

التفسير :

١٨٨ - وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ .

لا يأكل بعضكم مال بعض، وسمَّاه ماله إشعارًا بوحدة الأمة وتكافلها، وتنبيها إلى أن احترام مال غيرك وحفظه هو عين الاحترام والحفظ لمالك أنت.

واستحلال الإنسان لمال غيره يُجَرِّئ على استحلال أكل ماله إذا كان فى طاقته، وإذا فشا هذا الخلق فى أمة من الأمم أدى بها إلى الضعف والتعادى والتباغض.

والباطل كلمة معروفة المعنى عند الناس بوجوهها الكثيرة، وَيَدْخُل فيها الربا والرشوة والغضب والاحتيال والغش والتدليس والتلبيس وكل كذب وسوء.

الخلاصة :

والخلاصة : أنه ينبغى للإنسان أن يطلب الكسب من الطرق المشروعة التى لا تضر أحدا.

وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ. أى ولا تلقوا بأموالكم إلى الحكام رشوة لهم.

لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ .

أى لتأخذوا بعضا من أموال غيركم بواسطة يمين فاجرة أو شهادة زور. أو نحو ذلك مما تثبتون به أنكم على حق فيما تدعون، وأنتم تعلمون أنكم على الباطل .

★ ★ ★

وهذه الآية الكريمة أصل من الأصول التى يقوم عليها إصلاح المعاملات، وقد أخذ العلماء منها حرمة أكل أموال الناس بالباطل وحرمة إرشاء الحكام ليقضوا للراشى بمال غيره.

روى الترمذى عن أبى هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « لعن الله الراشى والمرتشى والرائش » (٧٩) وهو الواسطة الذى يمشى بينهما.

قال القرطبى : « من أخذ مال غيره لا على وجه إذن الشرع فقد أكله بالباطل ومن الأكل بالباطل أن يقضى القاضى لك وأنت تعلم أنك مبطل، فالحرام لا يصير حلالاً بقضاء القاضى لأنه إنما يقضى بالظاهر » (٨٠).

وقد ورد فى الصحيحين عن أم سلمة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « ألا إنما أنا بشر، وإنما يأتينى الخصم، فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من نار فليحملها أو ليذرها » (٨١).

« فدلت هذه الآية الكريمة ، وهذا الحديث على أن حكم الحاكم لا يغير الشىء فى نفس الأمر فلا يحل فى نفس الأمر حراما وهو حرام. ولا يحرم حلالاً هو حلال، وإنما هو ملزم فى الظاهر فإن طابق ما فى نفس الأمر فذاك، وإلا فللحاكم أجره، وعلى المحتال وزره؛ ولهذا قال تعالى : وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ . أى تعلمون بطلان ما تدعون وترجون فى كلامكم، قال قتادة : اعلم يابن آدم، أن قضاء القاضى لا يحل لك حراما، ولا يحق لك باطلا، وإنما يقضى القاضى بنحو ما يرى ويشهد به الشهود، والقاضى بشر يخطئ ويصيب، واعلموا أن من قضى له بباطل أن خصومته لم تنقض حتى يجمع الله بينهما يوم القيامة، فيقضى على المبطل للمحق بأجود مما قضى به للمبطل على المحق فى الدنيا » (٨٢).

★ ★ ★

الأهلــة

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ ﴾

المفردات :

الأهلة : واحدها هلال وهو القمر فى ليلتين أو ثلاث من أول الشهر لأن الناس يرفعون أصواتهم بالذكر حين رؤيته من قولهم، استهل الصبى إذا صرخ حين يولد، وأهل القوم بالحج إذا رفعوا أصواتهم بالتلبية.

المواقيت : واحدها ميقات وهو ما يعرف به الوقت، وهو الزمن المقدَّر المعين.

سبب النزول :

هذا مما سأل عنه اليهود واعترضوا به على النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال معاذ : يا رسول الله - إن اليهود تغشانا ويكثرون مساءلتنا عن الأهلة، فما بال الهلال يبدو دقيقا ثم يزيد حتى يستوى ويستدير، ثم ينقص حتى يعود كما كان؟ فأنزل الله هذه الآية.

وقيل : إن سبب نزولها سؤال قوم من المسلمين النبى - صلى الله عليه وسلم - عن الهلال، وما سبب محاقه (٨٣) . وكماله، ومخالفته لحال الشمس، قاله ابن عباس وقتادة والربيع وغيرهم (٨٤).

التفسير :

١٨٩ - يسألونك عن الأهلة قُلْ هِيَ مَواقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ . . .

يسألك بعض الناس عن الحكمة من خلق الأهلة، قل لهم يا محمد : إن الله - تعالى - قد خلقها لتكون معالم يوقّت ويحدد بها الناس صومهم وزكاتهم وحجهم وغير ذلك من أمور دينهم كما يؤقّتون بها أمورهم الدنيوية مثل مواعيد الزراعة والتجارة وسداد الدَّين، والسفر والقدوم ونحو ذلك، ولو كان القمر على حالة واحدة لم يتيسر هذا التوقيت، وسواء أكان السؤال من اليهود، أو من بعض المسلمين عن الهلال فإن إجابة القرآن كانت من قبيل أسلوب الحكم. وهو إجابة السائل بغير ما يتطلبه سؤاله بتنزيل سؤاله منزلة غيره، تنبيها له على أن ذلك المخالف هو الأولى بالسؤال لأنه هو المهم بالنسبة له.

فأنت ترى هنا أن السائلين قد سألوا عن اختلاف الأهلة بالزيادة، والنقصان، فأجيبوا ببيان الحكمة من خلقها فكأنه - سبحانه - يقول لهم : عليكم أن تسألوا عن الحكمة والفائدة من خلق الأهلة لأن هذا هو الأليق بحالكم وهو ما أجبتكم عليه، لا أن تسألوا عن سبب تزايدها فى أول الشهر وتناقصها فى آخره لأن هذا من اختصاص علماء الهيئة وأنتم لستم فى حاجة إلى معرفة ذلك فى هذا الوقت.

وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا .

سبب النزول :

روى البخارى وابن جرير عن البراء قال : كانوا إذا أحرموا فى الجاهلية أتوا البيت من ظهره فأنزل اللّه الآية (٨٥).

وكأنهم كانوا يتحرجون من الدخول من الأبواب، من أجل سقف الباب أن يحول بينهم وبين السماء؟.

وقال ابن عباس فى رواية أبى صالح : كان الناس فى الجاهلية وفى أول الإسلام إذا أحرم رجل منهم بالحج فإن كان من أهل المدر يعنى من أهل البيوت نقب فى ظهر بيته فمنه يدخل ومنه يخرج، أو يضع سلما فيصعد منه وينحدر عليه: وإن كان من أهل الوبر - يعنى أهل الخيام - يدخل من خلف الخيمة، إلا من كان من الحمس.

وروى الزهرى أن النبى - صلى اللّه عليه وسلم - أهل زمن الحديبية بالعمرة فدخل حجرته ودخل خلفه رجل أنصارى من بنى سلمة، فدخل وخرق عادة قومه، فقال له النبى - صلى اللّه عليه وسلم - : «لم دخلت وأنت قد أحرمت» فقال : « دخلت أنت فدخلت بدخولك». فقال له النبى - صلى اللّه عليه وسلم - « إنى أحمس » أى من قوم لا يدينون بذلك. فقال له الرجل : وأنا دينى دينك، فنزلت الآية . وقيل إن هذا الرجل هو قطبة بن عامر الأنصارى.

« والحمس : قريش وكنانة وخزاعة وجشم وبنو عامر بن صعصعة وبنو نصر بن معاوية، وسموا حمسا لتشديدهم فى دينهم، والحماسة الشدة » (٨٦).

ووجه الاتصال بين دخولهم البيوت من ظهورها، وبين سؤالهم عن الأهلة: التعريض بأن السؤال عن الأهلة، يعتبر كإتيان البيوت من ظهورها، وأن اللائق بحالهم ألا يسألوا عن هذا الأمر، الذى لم يستعدوا لإدراكه من الناحية العلمية.

والآية تعتبر مثلاً فيمن يباشر الأمور بطريقة غير مألوفة.

وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ.

أى راقبوا الله فى أفعالكم والزموا قلوبكم التقوى التى تتضمن القيام بجميع الواجبات واجتناب البدع والمنكرات.

ومن اتقى الله تفجَّرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه، ورزقه الله الهدى والفلاح، وفاز بالحياة المطمئنة فى الدنيا، والنعيم الخالد فى الآخرة.

★ ★ ★

القتـــــال

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ (١٩١) فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٢) وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ (١٩٣) ﴾

المفردات :

سبيل الله : دينه لأنه طريق إلى مرضاته.

يقاتلونكم : أى يتوقع منهم قتالكم.

إن الله لا يحب المعتـــدين : إن الله لا يرضى عن الذين جاوزوا ما حده الله لهم من الشرائع والأحكام.

والثـقف : الحذق فى إدراك الشىء علما كان أو عملاً، وقد يستعمل فى مطلق الإدراك.

من حيث أخرجـوكم : من مكة.

الفـتنة : الابتلاء، من قولهم فتن الصائغ الذهب إذا أذابه فى النار ليستخرج منه الزغل، ثم استعملت فى كل اختبار شاق كالإخراج من الوطن المحبَّب والفتنة فى الدين.

يكون الدين لله : أى ويكون دين كل شخص خالصا لله لا أثر لخشية غيره فيه . فلا يفتن بصده عنه ولا يؤذى فيه، ولا يحتاج إلى مداهنة ومحاباة، أو استخفاء ومداراة.

★ ★ ★

سبب النزول :

أخرج صالح عن ابن عباس – رضى الله عنهما – : أن المشركين صدوا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عام الحديبية، وصالحوه على أن يرجع عامه القابل ويخلوا له مكة ثلاثة أيام، فيطوف بالبيت ويفعل ما شاء .

« وصالحوه على ألا يكون بينهم قتال عشر سنين، ورجع إلى المدينة، فلما كان من قابل تجهز لعمرة القضاء ، وخاف المسلمون غدر الكفار وكرهوا القتال فى الحرم وفى الشهر الحرام فنزلت هذه الآية، أى يحل لكم القتال إن قاتلكم الكفار » [٨٧].

التفسير :

١٩٠ – وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ .

القتال فى الإسلام قتال فى سبيل الله، لإعلاء كلمة الله ونصر دين الله. والعبرة فى الآية بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فقد نزلت الآية فى شأن أهل الحديبية تأمرهم بقتال من قاتلهم وهى مع ذلك خطاب لجميع المسلمين تأمر كل واحد أن يقاتل من قاتله [٨٨].

والمعنى : وقاتلوا من أجل إعلاء كلمة الله. الذين يبدءونكم بالقتال دفاعاً عن أنفسكم وحريتكم فى أداء العبادة، ولا تعتدوا بقتل النساء والصبيان والشيوخ المسنين ولا بغير ذلك من أنواع الاعتداء كالتخريب وقطع الأشجار، فإن الاعتداء من السيئات التى يكرهها الله – تعالى – ولاسيما حين الإحرام وفى أرض الحرم وفى الأشهر الحرم.

١٩١ – وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ . . .

المعنى : واقتلوهم حيث وجدتموهم فى حل أو حرم، وأخرجوهم من ديارهم كما سبق أن فعلوا ذلك بكم، حيث أخرجوكم من دياركم، ولم يكتفوا بهذا بل تناولوا من بقى منكم من المسلمين فى مكة بالتعذيب والتنكيل ليرتدوا عن الإسلام.

وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ .

أى و المحنة التى يفتن بها الإنسان بالإخراج من الوطن والحرمان من المال، والتعرض لألوان القسوة والعذاب – للتأثير فى العقيدة – أشد من القتل لاتصال تعذيبها وألم النفس بها، ومن هنا قيل.

القـتل بحـد السـيف أهون مـوقـعـا
على النفس من قــتل بحـــدِّ فــراق

وقيل لبعض العلماء : ما أشد من الموت؟ قال : الذى يتمنى فيه الموت.

وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ .

أى لا تقـاتلوا - أيها المؤمنون - أعداءكم عند المسجد الحرام احترامًا له حتى يبدأ المشركون قتالكم عنده، فإن بدءوكم بالقتال فيه فلا حرج عليكم فى قتلهم عنده، لأن المنتهك لحرمة المسجد الحرام إنما هو البادئ بالقتال فيه وهم المشركون، ولستم أنتم - أيها المؤمنون - لأن موقفكم إنما هو موقف المدافع عن نفسه.

فأنت ترى أن الآية قد حفظت للمسجد الحرام حرمته وهيبته ومكانته السامية لأن حرمته لذاته، وحرمة سائر الحرم من أجله، إلا أنها أذنت للمسلمين أن يدافعوا عن أنفسهم إذا ما هاجمهم المشركون عنده أو فيه . « دفعًا للصائل المعتدى، كما بايع النبى - صلى الله عليه وسلم - أصحابه يوم الحديبية تحت شجرة الرضوان على القتال، لما تألبت عليه بطون قريش ومن والاهم من ثقيف والأحابيش عامئذ ثم كف الله القتال بينهم » (٨٩) فقال : وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ .

فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ .

فإن ابتدأ المشركون بقتال المسلمين فعلى المسلمين أن يقتلوهم، وعبَّر بقوله: فاقْتُلوهُم . بدل فقاتلوهم، للإيذان بأن على المسلمين ألا يمكنوهم من المغالبة وأن يسارعوا بقتلهم.

كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ .

أى مثل هذا الجزاء العادل من القتل والردع يجازى الله الكافرين الذين قاتلوا المؤمنين وأخرجوهم من ديارهم.

★ ★ ★

١٩٢ - فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . « أى فإن تركوا القتال في الحرم وأنابوا إلى الإسلام والتوبة فإن الله يغفر ذنوبهم ولو كانوا قد قتلوا المسلمين في حرم الله . فإنه - تعالى - لا يتعاظمه ذنب أن يغفره لمن تاب إليه » (٩٠).

★ ★ ★

١٩٣ - وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ . . . أى قاتلوا المشركين حتى لا تكون لهم قوة يفتنونكم بها فى دينكم، وعليكم - أيها المسلمون- أن تقاتلوا المشركين وأن تكسروا شوكتهم وأن تقضوا على جبروتهم حتى تزيلوا هذا الطاغوت من وجه الدعوة الإسلامية، وحتى يصير الناس أحرارًا فى عقائدهم، ويكون دين كل شخص خالصًا لله لا أثر فيه لخشية غيره فلا يفتن بصدِّه عنه ولا يؤذى فيه ولا يحتاج فيه إلى مداهنة ومحاباة أو استخفاء ومداراة.

وقد كان المسلمون فى مكة مغلوبين على أمرهم، والمشركون هم أصحاب الحول والقوة، ثم هاجر المسلمون إلى المدينة وبدأ الجهاد فى سبيل الله، فحطم المؤمنون طواغيت الكفر والضلال ثم فتحوا مكة ودخل الناس فى دين الله أفواجا.

فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ .

أى فإن انتهوا عما كانوا عليه وأذعنوا لتعاليم الإسلام فكفوا عن قتالهم فلا تعتدوا عليهم، لأن العقوبة والعدوان إنما تكون على الظالمين تأديبًا لهم ليرجعوا عن غيهم وظلمهم.

حكمة مشروعية القتال

من هذه الآيات نلمح حكمة مشروعية القتال فى الإسلام .

فقد قاتل المسلمون دفاعًا عن أنفسهم، وحماية لعقيدتهم، ودفعًا لعدوان المعتدين، وتمكينًا لدين الله فى الأرض.

وقد مكث المسلمون فى مكة ثلاثة عشر عامًا لم يرفعوا سيفًا، ولم يقاتلوا معتديًا، وكان القرآن فى مكة ينزل على النبى - صلى الله عليه وسلم - فيأمره بالصبر الجميل ويدعوه إلى الهجر الجميل فيقول سبحانه : - وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ . (المدثر :٧).وكقوله تعالى : فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ . (الأحقاف :٣٥).

فلما هاجر المسلمون إلى المدينة آخى الرسول - صلى الله عليه وسلم - بين المهاجرين والأنصار، وربَّى الصحابة تربية إسلامية، وتقدم المسلمون للدفاع عن أنفسهم فقاتلوا المشركين فى غزوات متعددة منها غزوة بدر وأُحد والخندق والحديبية ثم فتحت مكة ودخل الناس فى دين الله أفواجا، ولم يكن القتال غاية ولكنه كان وسيلة من وسائل الدفاع، وسبيلا إلى نشر الدعوة وضرورة للقضاء على أعداء الإسلام، وإزاحة طواغيت الكفر، وتمكين كل ذى دين من عبادة ربه حرا طليقا.

قال تعالى : أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ

كثيراً ولَيَنصُرَنَّ اللَّهُ من ينصُرُهُ إنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۞ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عن المُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ . (الحج :٣٩-٤١).

قال القرطبى :

قوله تعالى : وَقَاتِلُوا . . . هذه الآية أول آية نزلت فى الأمر بالقتال ولا خلاف فى أن القتال كان محظورًا قبل الهجرة بقوله : ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ. (المؤمنون : ٩٦).

وقوله : لست عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ . (الغاشية : ٣٢).

وقوله : فاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ. (المائدة : ١٣).

وقوله : وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً. (المزمل : ١٠).

وما كان مثله مما نزل بمكة .

فلما هاجر المسلمون إلى المدينة أمروا بالقتال فنزل : وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ . قاله الربيع بن أنس وغيره.

وروى عن أبى بكر الصديق أن أول آية نزلت فى القتال : أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا . (الحج : ٣٩).

والأول أكثر، وإن آية الإذن إنما نزلت فى القتال عامة لمن قاتل ولمن لم يقاتل من المشركين » [91].

★ ★ ★

الشهر الحرام

﴿ ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ (١٩٤) وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ (١٩٥) ﴾

المفردات :

الحرمات : واحدها حرمة وهى ما يجب احترامه والمحافظة عليه.

القصاص : المقاصة والمقاتلة بالمثل.

إلقاء الشىء : طرحه حيث تراه، ثم استعمل فى كل ما يطرح ويلقى مطلقًا.

سبيل اللّه : هى طريق الخير والبر المؤدّى إلى إعزاز دينه كجهاد الأعداء وصلة الأرحام.

التهلكة : الهلاك، والمراد به هنا الإمساك عن النفقة فى الاستعداد للقتال وترك الجهاد.

التفسير :

١٩٤ - الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ... .

إذا استباح المشركون الشهر الحرام الذى لا يحل فيه القتال وقاتلوكم فيه فقابلوا عدوانهم بمثله، واستبيحوا الحرب فيه كما استباحوا. فإن الحرمات فيها القصاص .

قال ابن عباس وقتادة وغيرهما : لما سار رسول الله - صلى اللّه عليه وسلم - معتمرًا فى سنة ست من الهجرة، وحبسه المشركون عن الدخول والوصول إلى البيت، وصدوه بمن معه من المسلمين فى ذى القعدة وهو شهر حرام حتى قاضاهم على الدخول من قابل فدخلها فى السنة الآتية هو ومن معه من المسلمين، وأقصه اللّه منهم فنزلت فى ذلك هذه الآية: الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ. وروى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله قال : لم يكن رسول اللّه - صلى اللّه عليه وسلم - يغزو فى الشهر الحرام إلا أن يُغْزَى أو يُغزَوا، فإذا حضره أقام حتى ينسلخ (٩٢).

وسمى الشهر الحرام لأنه يحرم فيه ما يحل فى غيره من القتال ونحوه، والتعريف فيه - على الراجح - للجنس فهو يشمل الأشهر الحرم جميعًا وهى أربعة : ذو القعدة وذو الحجة ، والمحرم ورجب.

قال تعالى : إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ . (التوبة : ٣٦).

وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ .

والذى ينتهك الحرمات لا تصان حرماته وإذا أقدم المشركون على قتال المسلمين فى الحرم أو فى الشهر الحرام وجب على المسلمين أن يقاتلوهم على سبيل القصاص والمجازاة بالمثل حتى لا يتخذوا الأشهر الحرم ذريعة للغدر والإضرار بالمسلمين.

فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ .

هذه الجملة هى النتيجة المتفرعة على ما سبق. وسمّى جزاء الاعتداء اعتداء من باب المشاكلة.

وقد ورد هذا المعنى فى كثير من آيات القرآن حيث أمر - سبحانه - بالعدل حتى مع المشركين وأمر بالانتصاف من الظالمين.

قال تعالى : وإنْ عاقَبْتُم فعَاقبُوا بمِثْلِ مَا عُوقبْتُم به . (النحل : ١٢٦).

وقال سبحانه : وجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مثْلُها . (الشورى : ٤٠).

وقال عز شأنه : ولمنِ انتصرَ بَعْدَ ظُلْمه فأُولَئكَ مَا عَلَيْهِم مِن سَبِيلٍ . (الشورى : ٤١).

قال الألوسى : (واستَدلَّ الشافعى بالآية على أن القاتل يقتل بمثل ما قتل به من محدد أو خنق أو حرق أو تجويع أو تغريق حتى لو ألقاه فى ماء عذب ولم يلق فى ماء ملح ، واستدل به أيضا على ان من غصب شيئا أو أتلفه لزمه رد مثله، ثم إن المثل قد يكون عن طريق الصورة- كما فى ذوات الأمثال- وقد يكون عن طريق المعنى كالقيم فيما لا مثل له) (٩٣).

قال القرطبى : (واختلف العلماء فيمن استهلك أو أفسد شيئًا من الحيوان أو العروض التى لا تكال ولا توزن، فقال الشافعى وأبو حنيفة وأصحابهما وجماعة من العلماء: عليه فى ذلك المثل ولا يعدل إلى القيمة إلا عند عدم المثل، لقوله تعالى : فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْه بمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُم. وقوله تعالى : وإنْ عاقَبْتُمْ فَعَاقبُوا بمِثْلِ مَا عُوقبْتُم به . قالوا: وهذا عموم فى جميع الأشياء كلها، وعضدوا هذا بأن النبى - صلى الله عليه وسلم - حبس القصعة المكسورة فى بيت التى كسرتها ودفع الصحيحة وقال: « إناء بإناء وطعام بطعام » (٩٤).

أخـــرج أبو داود عن عائشة - رضى الله عنها - قالت « ما رأيت صانعًا طعامًا مثل صفية، صنعت لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - طعاماً فبعثت به فأخذنى أفكل (٩٥) فكسرت الإناء فقلت : يا رسول الله، ما كفارة ما صنعت؟ قال : « إناء مثل إناء وطعام مثل طعام » (٩٦) ، وقال مالك وأصحابه: عليه فى العروض لا تكال وتوزن القيمة لا المثل (٩٧).

واتَّقُوا اللَّه واعلمُوا أنَّ اللَّه مَعَ الْمُتَّقِينَ . أى راقبوا الله فى أعمالكم وفي الانتصار لأنفسكم وترك الاعتداء فيما لم يرخص لكم فيه واعلموا أن الله مع الذين يمتثلون أمره ويجتنبون نهيه بالنصر والرعاية والتأييد.

١٩٥ - وَأَنفقُوا في سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ .

وابذلوا المال فى سبيل عزة الدين وإعلاء كلمة الإسلام وشراء الأسلحة وعدد الحرب المتطورة التى تماثل ما عند أعدائكم إن لم تزد عنها ولا تبخلوا على النفقة والجهاد لأن ذلك يمكن عدوكم منكم

فيسيطر على ممتلكاتكم ومقدساتكم وإذا بخلتم عرضتم أنفسكم للذل والهلاك فى الدنيا ولعقاب الله فى الآخرة.

وأحسنوا أعمالكم وأتقنوها وأدوها على أحسن وجه إن الله يحب المحسنين، وفى الحديث الشريف « إن الله يحب من أحدكم إذا عمل عملاً أن يتقنه، قيل وما إتقانه يا رسول الله ؟ قال : إخلاصه من الرياء والبدعة ».

★ ★ ★

إن الآيات تحث على الجهاد وتنهى عن العدوان والاعتداء، وتأمر بالإنفاق فى سبيل الله. وتعتبر البخل والشح نوعا من الهلاك المعنوى، كما أن ترك الجهاد فى سبيل الله إهدار لمنهج الإسلام وخروج عن طريقته الحكيمة.

قال القرطبى : فى هذه الآية ثلاث مسائل :

الأولى : روى البخارى عن حذيفة: **وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ** . قال نزلت فى النفقة.

« قلت : وروى الترمذى عن يزيد بن أبى حبيب عن أسلم بن أبى عمران قال : كنا بمدينة الروم فأخرجوا إلينا صفًّا عظيمًا من الروم، فخرج إليهم من المسلمين مثلهم أو أكثر، وعلى أهل مصر عقبة ابن عامر، وعلى الجماعة فضالة بن عبيد، فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم فصاح الناس وقالوا : سبحان الله أيلقى بيديه إلى التهلكة. فقام أبو أيوب الأنصارى فقال : أيها الناس إنكم تتأولون هذه الآية هذا التأويل، وإنما أنزلت هذه الآية فينا - معشر الأنصار - لما أعز الله الإسلام وكثر ناصروه، فقال بعضنا لبعض سرًّا دون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : إن أموالنا قد ضاعت وإن الله قد أعز الإسلام، وكثر ناصروه فلو أقمنا فى أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها فأنزل الله على نبيه - صلى الله عليه وسلم - يرد علينا ما قلنا : **وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ** . فكانت التهلكة الإقامة على الأموال وإصلاحها وتركنا الغزو، فما زال أبو أيوب شاخصًا فى سبيل الله حتى دفن بأرض الروم. قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب صحيح؟ وقال حذيفة بن اليمان وابن عباس وعكرمة وعطاء ومجاهد وجمهور الناس: المعنى، لا تلقوا بأيديكم بأن تتركوا النفقة فى سبيل الله وتخافوا العيلة، فيقول الرجل : ليس عندى ما أنفقه، وإلى هذا المعنى ذهب البخارى إذ لم يذكر غيره، والله أعلم » (٩٨).

وقال زيد بن أسلم : المعنى لا تسافروا فى الجهاد بغير زاد وقد كان فعل ذلك قوم فأداهم ذلك إلى الانقطاع فى الطريق، أو يكون عالة على الناس.

وسبيل الله هنا الجهاد ، واللفظ يتناول جميع سبله.

والباء فى بأيديكم زائدة، التقدير تلقوا أيديكم.

ونظيره : ألم يعلم بأنَّ اللهَ يرَىٰ. (العلق : ١٤).

وقال المبرد : بأيديكم بأنفسكم فعبر بالبعض عن الكل [٩٩] كقوله : فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ . (الشورى:٣٠). بما قدمت يداك . (الحج : ١٠).

الثانية : اختلف العلماء فى اقتحام الرجل فى الحرب وحمله على العدوِّ وحده.

وخلاصة الرأى : أنه إن علم وغلب على ظنه أن سيقتل من حمل وينجو فحسن، وكذلك لو علم وغلب على ظنه أن يقتل ولكن سينكى نكاية أو سيبلى بلاء حسنا أو يؤثر أثرا ينتفع به المسلمون فجائز أيضًا [١٠٠].

الثالثة : قوله تعالى: وأَحْسِنُوا . أى فى الإنفاق فى الطاعة وأحسنوا الظن بالله فى إخلافه عليكم، وقيل : وأَحْسِنُوا. فى أعمالكم بامتثال الطاعات، روى ذلك عن بعض الصحابة [١٠١].

«ومضمون الآية : الأمر بالإنفاق فى سبيل الله فى سائر وجوه القربات ووجوه الطاعات، وخاصة صرف الأموال فى قتال الأعداء، وبذلها فيما يقوى به المسلمون على عدوِّهم، والإخبار عن ترك فعل ذلك بأنه هلاك ودمار لمن لزمه واعتاده، والإحسان أعلى مقامات الطاعة» [١٠٢].

وفى صحيح البخارى أن النبى – صلى الله عليه وسلم – سئل عن معنى الإحسان فقال : «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » [١٠٣].

أى أن تخلص فى عبادتك مراقبًا ربَّك متيقنا أنك تشاهده وتراه، فإن كنت لا تراه فإنه - سبحانه – مطلع عليك، وهذا الإحساس يعمق فى قلبك تقوى الله وطاعته.

★ ★ ★

الحج والعمــرة

﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِۖ وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (١٩٦) ﴾

المفردات :

الحصر والإحصار : الحبس والتضييق ، يُقَالُ حصره عن السفر وأحصره إذا حبسه ومنعه.

الهدى : يُطلقُ على الواحد والجمع وهو ما يهديه الحاج والمعتمر إلى البيت الحرام من النعم ليذبح ويفرق على الفقراء.

المحل : (بكسر الحاء) مكان الحلول والنزول.

حاضرو المسجد الحرام : هم أهل مكة وما دونها إلى المواقيت .

المعنى الإجمالى :

أتموا الحج والعمرة خالصين لله بعيدين عن الرياء.

فإن منعتم من إتمامهما وأنتم محرمون فعليكم إذا أردتم التحلل أن تذبحوا ما تيسر لكم من الهدى ولا تتحللوا من إحرامكم بالحلق حتى تعلموا أن الهدى المبعوث قد بلغ مكانه الذى يجب أن يراق فيه دمه وهو الحرم.

ومن كان مريضًا أو به جروح ولا يستطيع التمسك بالإحرام ومقضياته فإنه يحلق رأسه وعليه فدية هى صيام ثلاثة أيام أو ذبح شاة أو التصدق بفرق على ستة مساكين (الفرق مكيال بالمدينة يزن ستة عشر رطلاً).

فإذا زال الخوف من العدو فمن أتم العمرة وتحلل وبقى متمتعًا إلى زمن الحج ليحج من مكة فعليه دم (يذبح شاة أو يشترك مع سبعة فى ذبح جمل أو بقرة).

فإذا لم يجد ثمن الهدى فعليه أن يصوم ثلاثة أيام قبل يَوم عرفة، وسبعة أيام إذا رجع إلى بلده .

إلا إذا كان من أهل مكة، لأنهم يستطيعون أداء العمرة فى جميع أيام السنة، ولذلك يفردون الحجَّ ولا يضمون إليه العمرة.

التفسير :

تعتبر هذه الآية وما بعدها من أجمع الآيات التى وردت فى القرآن الكريم مبينة ما يتعلق بأحكام الحج وآدابه. ويفترق الحج عن العمرة فى عدة أشياء هى :

١ - الحج فريضة مرة فى العمر لمن استطاع إليه سبيلا.

أما العمرة فهى سنة مؤكدة عند الحنفية والمالكية وفرض عند الشافعية والحنابلة.

٢ - الحج له وقت معين يؤدى فيه من السنة. أما العمرة فتؤدى فى أىّ وقت من أوقات السنة.

٣ - ليس فى العمرة وقوف بعرفة، ولا نزول بمزدلفة، ولا رمى جمار، ولا جمع بين صلاتين ، ولا طواف قدوم.

٤ - ميقات العمرة الحلّ لجميع الناس ، وميقات الحج للمكىّ الحرم.

٥ - افعال العمرة أربعة هى :

١ - الإحرام من الميقات .

٢ - الطواف بالبيت.

٣ - السعى بين الصفا والمروة.

٤ - التحلل من الإحرام بالحلق أو التقصير.

وافعال الحج عشرة هى :

١ - الإحرام من الميقات .

٢ - الطواف بالبيت عند القدوم.

٣ - السعى بين الصفا والمروة.

٤ - الوقوف بعرفة.

٥ - المبيت بمزدلفة.

٦ - المبيت فى منى الليلة التالية .

٧ - رمى الجمار ٤٩ حصاة أو ٧٠ حصاة.

٨ - ذبح الهدى لمن عليه هدى.

٩ - التحلل من الإحرام.

١٠ - طواف الإفاضة.

١٩٦ - وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ . . . .

أى أتموا هذين النسكين خالصين لوجه الله. وقد كانت العرب تقصد الحج للاجتماع والتظاهر والتفاخر وقضاء الحوائج وحضور الأسواق دون أن يكون للّه - تعالى - فيه حظ يقصد، ولا قرابة تعتقد، فأمر اللّه المسلمين أن ينزهوا عبادتهم عن الأفعال القبيحة والأقوال السيئة، وأن يخلصوا أداءها للّه.

والتجارة لا تنافى الإخلاص إذا لم تقصد لذاتها.

بدليل قوله تعالى : لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ . (البقرة : ١٩٨).

وأوّل حجة حجَّها المسلمون كانت سنة تسع بإمرة أبى بكر - رضى اللّه عنه - وكانت تمهيدا لحجة النبى - صلى اللّه عليه وسلم - سنة عشر، وفيها أخبر أبو بكر المشركين الذين حجوا ألا يطوف بعد هذا العام مشرك، ونزلت الآية: إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا. (التوبة : ٢٨).

فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ . . . .

أى إن منعتم وأنتم محرمون من إتمام النسك بسبب عدو أو مرض أو نحوهما وأردتم أن تتحللوا فعليكم تقديم ما تيسر لكم من الهدى إبلاً أو بقرا أو غنما أو معزا.

يذبحه المحصر عند الأكثرين حيث أحصر لأنه - صلى اللّه عليه وسلم - ذبح بالحديبية، لما أحصر فيها وهى من الحلّ.

وعند أبى حنيفة - رحمه اللّه - يبعث به إلى الحرم، ويتفق مع من بعثه على يوم يذبح فيه فإذا جاء اليوم وظن أنه ذبح، تحلل، لقوله تعالى : وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ.

وبعض العلماء - كالشافعية والمالكية - يرون أن المراد بالإحصار فى الآية ما كان بسبب عدو، كما حدث للمسلمين فى صلح الحديبية، أمّا إذا كان الإحصار بسبب مرض، فإن الحاج أو المعتمر على إحرامه حتى يبرأ من مرضه ثم يذهب إلى البيت فيطوف به سبعا ويسعى بين الصفا و المروة، وبهذا يتحلل من عمرته أو حجّه، ولا يتحلل بالذبح، إذ التحلل بالذبح عندهم لا يكون إلا فى حالة الإحصار بسبب العدوّ.

أمَّا الأحناف فيرون أن الإحصار سواء أكان بسبب عدو أم مرض أو ما يشابههما فإنه يسيغ التحلل بالذبح إذ الآية عندهم تعمّ كل منع، وعلى من أحصر أن يقضى الحج أو العمرة فيما بعد.

ومن لا هدى معه وقت الإحصار ولا قدرة له عليه، أحل، ثم أهدى عندما يقدر عليه، نقله

القرطبى عن الشافعى، ويرى بعض الفقهاء أن المحصر بِعَدُوٍّ لا يجب عليه القضاء وله ثواب الفريضة، بأن لم يسبق له حج ولا عمرة، وإلا وجب عليه أداؤهما عندما يستطيع .

وَلا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ . . .

أى لا تتحللوا من إحرامكم بالحلق حتى تعلموا أن الهدى المبعوث قد بلغ مكانه الذى يجب أن يراق فيه دمه وهو الحرم.

وهذا رأى الأحناف، فقد قرروا أن المراد بالمحل البيت العتيق فهو اسم مكان لأن الله - عز وجل - قال فى آية أخرى: ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ. (الحج : ٣٣)

وعليه فلا يجوز للمحصر أن يحلق ويتحلل إلا بعد أن يصل الهدى الذى يرسله إلى البيت الحرام ويذبح.

أما جمهور الفقهاء فيرون أن محل الهدى للمحصر هو المكان الذى حدث فيه الإحصار، دليلهم أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد نحر هو وأصحابه هديهم بالحديبية وهى ليست من الحرم، وذلك عندما منعه المشركون من دخول مكة.

قال الإمام الرازى : ومنشأ الخلاف البحث فى تفسير هذه الآية، فقد قال الشافعى وغيره: المحِلُّ فى هذه الآية اسم للزمان الذى يحصل فيه التحلل : وقال أبو حنيفة : إنه اسم للمكان (١٠٤).

فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ .

يجب على المحرم - إذا كان صحيحًا - ألا يخلع ملابس الإحرام ولا يحلق شعره أو يقصه طول مدة الإحرام، فإن كان مريضًا بمرض يحوجه إلى الحلق، فله أن يلبس ملابسه العادية، ويؤدى الفدية عن ذلك، ومن كان برأسه أذى من : حشرات ، أو جروح يستدعى علاجه أن يحلق ، حلق وفدى. والفدية هنا صوم ثلاثة أيام، أو إطعام ستة مساكين، لكل مسكين نصف صاع من الطعام أو ذبح شاة وتوزيعها على الفقراء.

وعن ابن عباس فى قوله : مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ . قال : إذا كان أو فأية أخذت أجزأ عنك، قال ابن أبى حاتم ، وروى عن مجاهد وعكرمة وعطاء وغيرهم نحو ذلك، قلت وهو مذهب الأئمة الأربعة وعامة العلماء أنه يخير فى هذا المقام:

إن شاء صام، وإن شاء تصدّق بفرَق (١٠٥)، وهو ثلاثة أصع لكل مسكين نصف صاع، وهو مدّان وإن شاء ذبح شاة وتصدق بها على الفقراء أى ذلك فعل أجزأه (١٠٦).

فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ .

أى فإذا تمكنتم من أداء المناسك، فمن أدى العمرة فى موسم الحج ثم تحلل من إحرامه وتمتع بحظ الروح فى العمرة وبحظ الجسد فى التحلل من الإحرام. ثم أحرم بالحج يوم التروية وهو الثامن من ذى الحجة وأدى مناسك الحج فعليه ما استيسر من الهدى أى ما تيسر له الحصول عليه من الأنعام سواء الإبل أو البقر أو الغنم أو المعز يذبحه جبرا للتمتع عند قوم أو شكراً لله عليه عند آخرين، حيث تقرب إلى الله بالعمرة، قبل أن يتقرب إليه بالحج.

ويذبح الهدى يوم النحر ويأكل منه كالأضحية لأنه دم شكران على نعمة التمتع فأجاز أبو حنيفة الأكل منه.

وذهب الشافعى إلى أن التمتع فيه تقصير والهدى لجبر هذا التقصير ؛ ولهذا لا يأكل منه صاحبه عند الشافعى.

فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ .

أى فمن لم يجد الهدى لعدم وجوده، أو عدم المال الذى يشترى به. فعليه صيام ثلاثة أيام فى أيام الإحرام بالحج.

وقد جعل - سبحانه - الصيام بدلاً من الهدى زيادة فى الرخصة والرحمة وزيادة فى الرفق والتيسير، فقد جعله على مرحلتين إحداهما تكون فى وقت الحج، ويفضل كثير من الفقهاء أن يصوم سادس ذى الحجة وسابعه وثامنه، وثانيتهما تكون بعد الرجوع إلى أهله حيث يطمئن ويستقر فيصوم سبعة أيام.

تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ . . . .

أى هذه الأيام الثلاثة. والأيام السبعة عشرة كاملة، ووصفها بالكمال للتأكيد كما تقول العرب رأيت بعينىّ، وسمعت بأذنى، وكتبت بيدى [١٠٧].

وقال الحسن، كاملة فى الثواب كمن أهدى، وقيل كاملة فى البدل عن الهدى يعنى العشرة كلها بدل عن الهدى، وقيل لفظها لفظ الإخبار ومعناها الأمر أى أكملوها فذلك فرضها [١٠٨].

ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ .

أى أن أهل الآفاق هم الذين يحتاجون إلى هذا التمتع لما يلحقهم من المشقة بالسفر إلى الحج

وحده ثم العمرة وحدها، أما أهل الحرم فليسوا فى حاجة إلى ذلك، فلا متعة ولا قِران لحاضرى المسجد الحرام. لأن فى إمكانهم أداء العمرة طول العام.

واتَّقُوا اللَّهَ واعلَمُوا أنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

ختم الآية بعد ذكر أحكامها بطلب التقوى جريا على النسق المطرد فى آيات الأحكام السابقة.

أى راقبوا اللّه وحافظوا على امتثال أوامره والانتهاء عن نواهيه.

واعْلَمُوا أنَّ الله شَدِيدُ الْعِقَابِ . أى لمن خالف أمره وانتهك حرماته وركب معاصيه.

★ ★ ★

أشهر الحـــج

﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ ﴾

المفردات :

فرض فيهن الحج : أوجبه على نفسه.

الرفـــث : لغة، قول الفحش. وشرعًا، قربان النساء.

الفسوق : لغة التنابز بالألقاب كما جاء فى قوله تعالى : وَلَا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ. (الحجرات : ١١).

وشـــرعا : الخروج عما حدده الشارع للمحرم إلى ما كان مباحاً فى الحلّ كالصيد والطيب والزينة باللباس المخيط.

الجـدال : المراء والخصام، ويكثر عادة بين الرفقة فى السفر؛ لأنه مشقة تضيق بها الصدور.

الـــزاد : هو الأعمال الصالحة وما يدخر من الخير والبر.

التـقوى : هى ما يتقى به سخط اللّه وغضبه من أعمال الخير والتنزه عن المنكرات والمعاصى.

التفسير :

١٩٧ - الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ . . . .

أى لأداء فريضة الحج أشهر معلومة لدى الناس، وهى شوال وذو القعدة وعشر ذى الحجة، وهذا هو المروى عن ابن عباس.

ولا يصح عند الشافعية الإحرام به قبل أشهره ليتمه فى أشهره، ويصح مع الكراهة عند الحنفية.

فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ . . . .

فمن ألزم نفسه فى تلك الأشهر بالحج فعليه أن يبتعد عن الرفث، وهو جماع النساء أو ذكره لهن أو الكلام الفاحش مطلقا، وعليه أيضاً أن يبتعد عن كل إثم يشوب عبادته، وأن يتجنب المجادلة لأنها توغر صدور الرفقاء والخدم وغيرهم، فإن الوقت وقت مودة وصفاء وتسامح، والجميع يشتركون فى المناسك ويرغبون فى طلب الثواب، ثم حثهم على ضبط أنفسهم والابتعاد عما نهوا عنه فقال - سبحانه :- وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ.

هو تحريض وحث على حسن الكلام مكان الفحش، وعلى البر والتقوى فى الأخلاق مكان الفسوق والجدال.

وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ.

روى البخارى عن ابن عباس قال : كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون : نحن المتوكلون، فإذا قدموا مكة سألوا الناس (١٠٩) فأنزل الله تعالى : وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ .

وعليه أكثر المفسرين، قال الشعبى : الزاد التمر والسويق، قال ابن العربى : أمر الله - تعالى - بالتزود لمن كان له مال، ومن لم يكن له مال فإن كان ذا حرفة يحتاج إليها الناس فلا خطاب عليه. والمعنى تزودوا - أيها المسافرون - بالطعام واتقوا طلبه من غيركم والإثقال عليهم فإن خير الزاد اتقاء الأثقال على الناس » أو تزودوا المعاش بأخذ الزاد وخير الزاد اتقاء المنهيات فأمرهم أن يضموا إلى التزود التقوى، وجاء قوله : فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ. محمولاً على المعنى ؛ لأن معنى: وَتَزَوَّدُوا . اتقوا الله فى اتباع ما أمركم به من الخروج بالزاد، قال أهل الإشارات: ذكَّرهم الله تعالى سفر الآخرة وحثهم على تزود التقوى فإن التقوى زاد الآخرة.

وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ . أى خافوا عقابى يا أصحاب العقول والأفهام.

★ ★ ★

عرفــــات

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ﴾

المفردات :

الجناح : الحرج والإثم من الجنوح، وهو الميل عن القصد.

أن تبتغوا : أى أن تقصدوا وتطلبوا.

فضلاً من ربكم : المراد به الرزق من تجارة أو غيرها فى أيام الحج.

أفضتم : اندفعتم، يقال أفاض فى الكلام إذا انطلق فيه كما يفيض الماء ويتدفق.

عرفات : موقف الحاج على جبل عرفات فى أداء المناسك، وعرفَة اسم لليوم الذى يقف فيه الحاج، وهو التاسع من ذى الحجة.

الذكر : الدعاء والتلبية والتكبير والتحميد.

المشعر الحرام : هو جبل المزدلفة يقف عليه الإمام، وسمى بهذا الاسم لأنه معلم للعبادة والشعائر، وفى هذا المكان بنى مسجد حديث وقد روى الحاكم وصححه عن ابن عمر: «المشعر الحرام المزدلفة كلها». والمشاعر : هى المعالم الظاهرة، وإنما سميت المزدلفة « المشعر الحرام » لأنها داخل الحرم.

المعنى الإجمالى :

أباح اللَّهُ للحاج مزاولة التجارة وابتغاء الرزق فى موسم الحج على أن يجعل همته الأساسية متوجهة إلى أعمال الحج.

وإذا صدر الحجاج من عرفات بعد الوقوف بها ووصلوا المزدلفة ليلة عيد النحر فليذكروا الله عند المشعر الحرام ، وهو جبل المزدلفة بالتهليل والتكبير ، وليحمدوه على هدايته إياهم إلى الدين الحق والعبادة القويمة فى الحج وغيره ، وقد كانوا قبل هداية الإسلام فى ضلال عن صراط الهدى والرشاد.

التفسير :

١٩٨ – لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ . . . .

أى لا حرج ولا إثم فى الكسب أيام الحج إذا لم يكن الكسب هو المقصود بالذات.

روى البخارى عن ابن عباس قال : كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقًا فى الجاهلية، فتأثموا أن يتجروا فى الموسم فنزلت : لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ. أى فى مواسم الحج (١١٠).

وهكذا رواه عبد الرزاق وسعيد بن منصور، وروى أبو داود وغيره عن ابن عباس قال : كانوا يتقون البيوع والتجارة فى الموسم والحج يقولون : أيام ذكر، فأنـزل الله : لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ .

وذهب أبو مسلم إلى أن المراد – التجارة بعد انقضاء أعمال الحج، والتقدير عنده، فاتقون فى أعمال الحج، ثم بعد ذلك لا جناح عليكم، وهو نظير قوله تعالى : فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّه. (الجمعة : ١٠).

فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ . . . .

أى يطلب من الحاج إذا دفع من عرفات إلى المزدلفة أن يذكر الله عند المشعر الحرام بالدعاء والتحميد والثناء والتلبية.

والوقوف بعرفة ركن لا يدرك إلا من أدركه، ولا نعلم خلافًا بين العلماء فى ذلك، إلا ما روى عن الحسن أنه قال : إنه واجب ، من أدركه فقد أداه، ومن لا فيكفيه الوقوف بجمع (١١١).

وظاهر عموم القرآن والسنة الثابتة يدل على أن عرفة كلها موقف، قال – صلى الله عليه وسلم–: « وقفت ها هنا وعرفة كلها موقف » رواه مسلم (١١٢).

وقد اختلف فى الذكر المطلوب عند المشعر الحرام: فقال بعضهم المراد منه الجمع بين صلاة المغرب وصلاة العشاء بمزدلفة.

واستدلوا بقوله – صلى الله عليه وسلم – لمن وجده يصلى فى الطريق « الصلاة أمامك » وقال بعضهم : بل المراد – الذكر باللسان – من التسبيح والتحميد والتهليل والتلبية ، وقد ورد عن ابن عباس أنّه نظر إلى الناس وقال : كان الناس فى هذه الليلة لا ينامون .

وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ.

أى اذكروا الله – تعالى – ذكرا مشابها لهدايته لكم، أو اذكروه كما علّمكم كيف تذكرونه، ولا تعدلوا عنه إلى ما كنتم تفعلونه فى الجاهلية ، أو اذكروه لهدايته إياكم.

وإن كُنتُم مِّن قبله لمِن الضَّالِّينَ .

وإنكم لولا هذه الهداية لبقيتم على ضلالكم وجهلكم بالدين الحق، ولكن الله منّ عليكم بهذه الهداية فأكثروا من ذكره وشكره عليها.

وقت الوقوف بعرفة :

ووقت الوقوف بعرفة من الزوال يوم عرفة إلى طلوع الفجر الثانى من يوم النحر لأن النبى – صلى الله عليه وسلم – وقف فى حجة الوداع بعد أن صلّى الظهر إلى أن غربت الشمس، وقال : «لتأخذوا عنى مناسككم».

وقال فى هذا الحديث : « فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك ».

وهذا هو مذهب مالك وأبى حنيفة والشافعى – رحمهم الله – وذهب الإمام أحمد إلى أن وقت الوقوف من أول يوم عرفة. واحتج بحديث عروة بن مضرّس [١١٣] بن حارثة بن لام الطائى قال : « أتيت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بالمزدلفة حين خرج إلى الصلاة فقلت : يا رسول الله، إنى جئت من جبلى طيئ، أكللت راحلتى وأتعبت نفسى، والله ما تركت من جبل [١١٤] إلا وقفت عليه فهل لى من حج؟ فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من شهد صلاتنا هذه فوقف معنا حتى ندفع، وقد وقف بعرفة قبل ذلك ليلاً أو نهارًا – فقد تم حجُّه، وقضى تفثه» [١١٥] رواه الإمام أحمد وأهل السنن وصححه الترمذى. ويقال للجبل فى وسط عرفات جبل الرحمة [١١٦].

فضل يوم عرفة :

قال القرطبى : يوم عرفة فضله عظيم وَثَوَابُهُ جسيم يكفّر الله فيه الذنوب ويضاعف فيه الصالح من الأعمال – قال – صلى الله عليه وسلم – « صوم يوم عرفة يكفّر السنة الماضية والباقية » [١١٧] أخرجه الصحيح.

وقال – صلى الله عليه وسلم – « أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله وحده لا شريك له ».

وقد استحب أهل العلم صوم عرفة لغير الحاج.

أما الحاج فيستحب له الفطر ليتقوى على الدعاء [١١٨].

★ ★ ★

الإفاضـــة

﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ ﴾

جمهور المفسرين على أن المراد من هذه الإفاضة - الإفاضة من عرفات .

روى البخارى ومسلم : أن قريشًا ومن دان دينهم من كنانة وجديلة وقيس، وهم الحمس (واحدهم أحمس وهو الشديد الصلب فى الدين والقتال) كانوا يقفون فى الجاهلية بمزدلفة ترفعًا عن الوقوف مع العرب فى عرفات.

فأمر نبيه أن يأتى عَرَفات ثم يقف بها ثم يفيض منها ليبطل ما كانت عليه قريش [١١٩].

١٩٩ - ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ . . . .

فالمعنى : عليكم أن تفيضوا مع الناس من مكان واحد تحقيقًا للمساواة وتركًا للتفاخر وعدم الامتياز لأحد عن أحد وذلك من أهم مقاصد الدين.

وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ.

أى اطلبوا منه المغفرة فإن رحمته واسعة وهو سَتَّارٌ على عباده رحيم بهم، وتلمح حكمة القرآن فى لمسه للقلوب ودعوته إلى التوبة وتخيّر المناسبة لتأكيد هذه الدعوة.

قال ابن كثير فى تفسيره : « كثيرًا ما يأمر اللّه بذكره بعد قضاء العبادات، ولهذا ثبت فى صحيح مسلم : « أن رسول اللّه - صلى اللّه عليه وسلم - كان إذا فرغ من الصلاة يستغفر ثلاثا » وفى الصحيحين : أنه ندب إلى التسبيح والتحميد والتكبير ثلاثا وثلاثين.

وروى البخارى أن رسول اللّه - صلى الله عليه وسلم - قال : « سيد الاستغفار أن يقول العبد «اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علىَّ، وأبوء بذنبى فاغفر لى، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت « من قالها فى ليلته فمات فى ليلته دخل الجنة ، ومن قالها فى يومه فمات دخل الجنة » [١٢٠].

وفى الصحيحين أن أبا بكر قال : يا رسول اللّه ، علّمنى دعاء أدعو به فى صلاتى فقال قل : (اللهم إنى ظلمت نفسى ظلمًا كثيرًا ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لى مغفرة من عندك، وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم) [١٢١] والأحاديث فى الاستغفار كثيرة [١٢٢].

★ ★ ★

حسنة الدنيا والآخرة

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ۚ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٢) ﴾

المفردات :

الخلاق : الحظ والنصيب.

حسنة الدنيا : هى العافية أو المرأة الصالحة أو الأولاد البررة، أو العلم والمعرفة.

حسنة الآخرة : هى الجنة أو رؤية الله - تعالى - والأولى التعميم فى كل هذا.

تمهيد :

قال ابن عباس : كان أهل الجاهلية يقفون فى الموسم فيقول الرجل منهم : « كان أبى يطعم ويحمل الحمالات ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم، فأنزل الله على محمد - صلى الله عليه وسلم -: **اذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا** .(١٢٣).

ويروى أنهم كانوا يقفون بمنى بين المسجد والجبل يتفاخرون ويتناشدون فأمرهم الله أن يذكروه بعد قضاء مناسك الحج. كما كانوا يذكرون آباءهم فى الجاهلية أو أشد من ذكرهم إياهم.

وخطب النبى - صلى الله عليه وسلم - فى حجة الوداع فى اليوم الثانى من أيام التشريق، فأرشدهم إلى تلك المفاخرات فقال : أيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربىٍّ على عجمى ولا لعجمى على عربىّ، ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى ألا هل بلغت اللهم فاشهد.

التفسير :

٢٠٠ - **فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا**.

فإذا فرغتم من عبادتكم، وَأَدَّيْتُم أعمال حجكم، فتوفروا على ذكر الله وطاعته كما كنتم تتوفرون على ذكر مفاخر آبائكم: بل عليكم أن تجعلوا ذكركم لله - تعالى - أكثر من ذكركم لمآثر آبائكم، لأن ذكر مفاخر الآباء إن كان كذبا أدى إلى الخزى فى الدنيا والعقوبة فى الآخرة، وإن كان صدقًا فإنه فى الغالب يؤدى إلى العجب وكثرة

الغرور، أما إذا ذكر الله بإخلاص وخشوع فثوابه عظيم وأجره كبير؛ وفضلاً عن ذلك فإن المرء إذا كان لا ينسى أباه لأنه سبب وجوده فأولى به ثم أولى ألا ينسى الذى خلق أباه وهو الله رب العالمين.

فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ .

أى من الناس نوع يقول فى دعائه يا ربنا آتنا ما نرغبه فى الدنيا فنحن لا نطلب غيرها، وهذا النوع ليس له فى الآخرة من : خلاقٍ . أى نصيب وحظ من الخير.

قال أبو وائل والسدّى وابن زيد: كانت العرب فى الجاهلية تدعو فى مصالح الدنيا فقط، فكانوا يسألون الإبل والغنم والظفر بالعدوّ، ولا يطلبون الآخرة إذ كانوا لا يعرفونها ولا يؤمنون بها فنهوا عن ذلك الدعاء المخصوص بأمر الدنيا، وجاء النهى فى صيغة الخبر عنهم. ويجوز أن يتناول هذا الوعيد المؤمن أيضاً (١٢٤).

إذا كان جلُّ اهتمامه فى ذكره ودعائه حظ الدنيا خاصة من الجاه والغنى والنصرة على الأعداء إلى نحو ذلك من الحظوظ العاجلة، والعبرة فى الآية بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فهى تشمل كل من اسْتَوْلَىَ عليه حب الدنيا وشهواتها ومتعها فأصبح لا يفكر إلا فيها، ولا يهتم إلا بها، صارفاً نظره عن الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب.

★ ★ ★

٢٠١ - وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ.

إنهم يتوجهون إلى الله بالدعاء ثم يطلبون الحسنة فى الدارين ولا يحددون نوع الحسنة، بل يدعون اختيارها لله والله يختار لهم ما يراه حسنة لهم.

حسنة فى الدنيا والآخرة :

قال القرطبى : واختلف فى تأويل الحسنتين على أقوال عديدة ، فروى عن على بن أبى طالب - رضى الله عنه - أن الحسنة فى الدنيا المرأة الحسناء وفى الآخرة الحور العين.

وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ : المرأة السوء.

قلت وهذا فيه بعد ولا يصح عن علىٍّ لأن النار حقيقة فى النار المحرقة وإطلاق المرأة على النار تجوُّز.

وقال قتادة : حسنة الدنيا العافية فى الصحة وكفاف المال. وقال الحسن : حسنة الدنيا العلم والعبادة. وقيل غير هذا.

والذى عليه أكثر أهل العلم أن المراد بالحسنتين نعم الدنيا والآخرة، وهذا هو الصحيح فإن اللفظ يقتضى هذا كله.

فإن حَسَنَةً . نكرة فى سياق الدعاء، فهو محتمل لكل حسنة من الحسنات على البدل، وحسنة الآخرة الجنة بإجماع.

وقيل : لم يرد حسنة واحدة، بل أراد أعطنا فى الدنيا عطية حسنة فحذف الاسم (١٢٥).

فضل الدعاء بهذه الآية :

هذه الآية من جوامع الدعاء لأنها جمعت بين خيرى الدنيا والآخرة.

وفى الصحيحين عن أنس قال : « كان أكثر دعوة يدعو بها النبى - صلى الله عليه وسلم - يقول : « اللهم آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » قال : فكان أنس إذا أراد أن يدعو بدعوة دعا بها فإذا أراد أن يدعو بدعاء دعا بها فيه (١٢٦).

★ ★ ★

وقد ذكرت الآيتان من يطلب الدنيا وحدها، ومن يطلبها مع الآخرة، ولم تذكر من يطلب الآخرة وحدها لأن الدنيا مزرعة الآخرة، وهى نعم المطية إلى الجنة، والضرب فى مناكبها طلباً للرزق عبادة والمؤمن القوى أحب إلى الله من المؤمن الضعيف.

وفى الآية إيماء إلى أن الغلو فى الدين والتشدد فيه مذموم خارج سنن الفطرة وقد نهى الله أهل الكتاب عنه وذمهم عليه. ونهى الله عنه النبى - صلى الله عليه وسلم.

وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ : أى احفظنا من عذابها بالتوفيق للطاعة، والتنفير من المعصية.

٢٠٢ - أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ .

إن المؤمن خليفة الله فى الأرض وقد طلب من الخليفة الا يحصر نفسه فى دائرة الأرض وعليه أن يتطلع إلى ما عند الله وأن يطلب فى دعائه حسنة الدنيا وحسنة الآخرة.

أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا. واسم الإشارة يعود إلى الفريق الثانى فريق الإسلام أى لهم ثواب الحج أو ثواب الدعاء فإن دعاء المؤمن عبادة وقيل إن الإشارة تعود إلى الفريقين أى لكل من الفريقين نصيب من عمله على قدر ما نواه.

وهو مثل قوله تعالى : وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا. (الأنعام : ١٣٢).

وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ .فيوفى كل كاسب أجره عقب عمله، فالله - عز وجل - عالم بما للعباد وما عليهم فلا يحتاج إلى ذكر وتأمل إذ قد علم ما للمحاسب وما عليه.

وقيل المعنى لا يشغله شأن عن شأن فيحاسبهم فى حالة واحدة كما قال سبحانه: مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ . (لقمان : ٢٨).

قال الحسن : حسابه أسرع من لمح البصر.

وقيل لعلى بن أبى طالب - رضى الله عنه - كيف يحاسب الله العباد فى يوم؟ قال : كما يرزقهم فى يوم، ومعنى الحساب : تعريف الله عباده مقادير الجزاء على أعمالهم وتذكيره إياهم بما قد نسوه.

قلت والكل محتمل فيأخذ العبد لنفسه فى تخفيف الحساب عنه بالأعمال الصالحة، وإنما يخفف الحساب فى الآخرة على من حاسب نفسه فى الدنيا [١٢٧].

وفى هذه الجملة الأخيرة من الآية وعد من الله لعباده أنهم متى تضرعوا إليه بقلب سليم أجاب لهم دعاءهم وأعطاهم سؤالهم.

★ ★ ★

ذكر الله

﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٠٣) ﴾

المفردات :

أيام معدودات : أيام التشريق الثلاثة التى بعد يوم النحر، والتشريق تقديد اللحم.

تعجل : استعجل.

تحشرون : تجمعون.

المعنى الإجمالى :

واذكروا الله بالتكبير وغيره فى أيام معدودات ، هى أيام رمى الجمار بمنى، وهى الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر، وليس بلازم أن يبقى الحاج الأيام الثلاثة بمنى ويرمى فيها، بل له أن يقتصر على يومين، لأن قوام الخير تقوى الله، لا مقدار العدد، واتقوا الله دائمًا واعلموا أنكم إليه تحشرون ، وتسألون عن أعمالكم.

التفسير :

٢٠٣ - **وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ . .**

أى كبروا الله فى أدبار الصلوات وعند ذبح القرابين ورمى الجمار.

والمراد بالأيام المعدودات أيام التشريق التى بعد يوم النحر، والتشريق تقديد اللحم.

قال القرطبى : ولا خلاف بين العلماء أن الأيام المعدودات فى هذه الآية هى أيام التشريق، وأن هذه الثلاثة الأسماء واقعة عليها، وهى أيام رمى الجمار [١٢٨].

فالآية الكريمة تأمر الحجاج وغيرهم من المسلمين أن يكثروا من ذكر الله فى هذه الأيام المباركة، لأن أهل الجاهلية كانوا يشغلونها بالتفاخر ومغازلة النساء، ويزعمون أن الحج قد انتهى بانتهاء يوم النحر وهو اليوم العاشر من ذى الحجة.

ولقد بيّن لنا النبى - صلى الله عليه وسلم - أن هذه الأيام ينبغى أن تعمر بذكر الله وبشكره على نعمه.

جاء فى تفسير المنار :

« وإنما أمر - سبحانه - بالذكر فى هذه الأيام ، ولم يأمر بالرمى لأنه من الأعمال التى كانوا يعرفونها ويعملون بها، وقد أقرهم عليها وذكر المهم الذى هو روح الدين وهو ذكر الله عند كل عمل من تلك الأعمال وتلك سنة القرآن يذكر إقامة الصلاة والخشوع فيها، وذكر الله - تعالى - ودعاءه وتأثير ذلك فى إصلاح النفوس، ولايذكر كيفية القيام والركوع والسجود ككون الأول يفعل مرة فى كل ركعة، والثانى يفعل مرتين، وإنما يترك ذلك لبيان النبى - صلى الله عليه وآله وسلم- له بالعمل، وبينت السنة أيضًا أن ذكر الله - تعالى - فى هذه الأيام هو التلبية والتكبير أدبار الصلوات، وعند ذبح القرابين ورمى الجمار وغير ذلك من الأعمال، فقد روى الجماعة عن الفضل بن العباس قال : كنت رديف رسول الله - صلى الله عليه وسلم- من جمع (مزدلفة) إلى منى فلم يزل يلبى حتى رمى جمرة العقبة. وروى أحمد والبخارى عن ابن عمر : أنه - صلى الله عليه وسلم - كان يرمى الجمرة يكبر مع كل حصاة [١٢٩].

وورد فى التكبير فى أيام التشريق أحاديث كثيرة منها حديث ابن عمر فى الصحيح أنه - صلى الله عليه وسلم - كان يكبر بمنى تلك الأيام وعلى فراشه وفى فسطاطه وفى مجلسه وفى ممشاه فى تلك الأيام جميعًا.

وأما الذكر فى يوم عرفة ويوم النحر فهو التكبير لغير الحج، وله أعم، ففى حديث أحمد والشيخين أن محمد بن أبى بكر بن عوف قال : سألت أنسا ونحن غاديان من منى إلى عرفات عن التلبية كيف كنتم تصنعون مع النبى - صلى الله عليه وسلم؟ قال : كان يلبى الملبى فلا ينكر عليه، ويكبر المكبر فلا ينكر عليه [١٣٠].

وفى حديث أسامة عند النسائى أنه (ﷺ) رفع يديه يوم عرفة يدعو.

وقد قالوا : إن التلبية أفضل الذكر للحاج، ويليها التكبير فى يوم عرفة والأضحى وأيام التشريق، وكيفية التلبية :

« لبيك اللهم لبيك، لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لك لا شريك لك » هذا هو المرفوع، وله أن يزيد من الذكر والثناء والدعاء ما شاء ، والتكبير المرفوع صحيحًا : « الله أكبر الله أكبر الله أكبر كبيرًا، ويزيدون » [١٣١].

وذكر الأستاذ سيد قطب أن « أيام الذكر هى فى الأرجح يوم عرفة ويوم النحر والتشريق بعده » [١٣٢].

وهذا يخالف ما أجمع عليه العلماء من « أن الأيام المعدودات فى هذه الآية هى أيام التشريق» [١٣٣]، وهى الأيام الثلاثة التى بعد يوم النحر.

وروى الإمام مسلم عن نبيشة الهذلى قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر لله » [١٣٤].

ويرى جمهور الفقهاء أن هذه الأيام يحرم فيها الصيام، لأنها أيام أكل وشرب وذكر لله.

فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ. . .

يجب على الحاج المبيت بمنى الليلة الأولى والثانية من ليالى أيام التشريق ليرمى كل يوم بعد الزوال إحدى وعشرين حصاة، يرمى عند كل جمرة سبع حصيات، ثم من رمى فى اليوم الثانى وأراد أن ينفر ويترك المبيت بمنى فى الليلة الثالثة ورمى يومها بعد الزوال، كما يرى الشافعية - وبعده أو قبله - كما ترى الحنفية - فلا إثم عليه فى عدم مبيته بمنى فى الليلة الثالثة.

أى فمن تعجل فسافر فى اليومين الأولين فلا إثم عليه فى التعجيل ومن بقى إلى تمام اليوم الثالث فلا إثم عليه كذلك إذا اتقى كل منهما الله ووقف عند حدوده. فإن التقوى هى الغرض من الحج ومن كل عبادة، والوسيلة الكبرى إليها كثرة ذكر الله - تعالى .

وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ .

اتقوا الله فى كل ما تأتون وتذرون ، واعلموا أنكم ستجمعون بعد تفرقكم وتساقون إلى خالقكم ليجازيكم على أعمالكم.

« وكل ذلك يدلنا على أن المهم فى العبادة ذكر الله - تعالى - الذى يصلح النفوس وينير الأرواح حتى تتوجه إلى الخير وتتقى الشرور والمعاصى فيكون صاحبها من المتقين »(١٣٥).

★ ★ ★

نموذج من الناس

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾

المفردات :

يعجبك	: من الإعجاب بمعنى الاستحسان.
ألدُّ	: شديد الخصومة، يقال لده يلده، شدد خصومته.
الخصام	: الجدال.

تولى : صار واليًا وقيل هى هنا بمعنى أدبر وانصرف.

سعى : أسرع بالفتنة والتخريب.

الحرث والنسل : الزرع والولد.

أخذته العزة بالإثم : أى حملته الحمية على الإثم. كقولك أخذته بكذا إذا حملته عليه وألزمته إياه.

فحسبه جهنم : كفته جزاء.

المهاد : الفراش.

يشرى نفسه : يبيعها.

ابتغاء : أى طلب.

مرضاة : أى رضاء.

المعنى الإجمالى :

وإذا كانت تقوى الله هى الأساس، فالخسران لفريق من الناس يختلف الذى تضمره قلوبهم عن الذى تنطق به ألسنتهم، أوتوا حلاوة فى صوغ الكلام، يعجبك قولهم فيما يحتالون به على جلب المنفعة فى الحياة الدنيا، ويؤيدون لك زعمهم بأن الله يعلم صدق قلوبهم فيما تقوله ألسنتهم، وأنهم لأشد الناس خصومة وأقساهم عليك.

وإذا تولى ولاية يكون له فيها سلطان لا يكون سعيه للإصلاح بل للإفساد وإهلاك الزرع والنسل، والله لا يحبه، لأن الله - تعالى - لا يحب الفساد.

وإذا نصحت له حينئذ بالخوف من الله ثارت فى نفسه الحمية وظن ذلك هدمًا لعزته، وحمله على ارتكاب الإثم فيما نهيته عنه لجاجة وعنادًا. فحسبه على ذلك عذاب جهنم ولبئس المستقر.

فما أبعد الفرق بين هؤلاء المنافقين، وبين المؤمنين الصادقين الذين يبيع أحدهم نفسه فى سبيل مرضاة الله وإعلاء كلمة الحق، ويكون هذا القسم مقابلاً للقسم الأول، ويكون توليه أمرا من أمور الناس من رأفة الله بعباده.

التفسير :

٢٠٤ - ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾.

بينت لنا هذه المجموعة من الآيات الكريمة نوعين من الناس أحدهما خاسر والآخر رابح لكى نتبع طريق الرابحين، ونهجر طريق الخاسرين.

تصف الآيات نموذجا من المنافقين يعتمد على ثلاثة أوصاف :

١ - حسن القول بحيث يعجب السامع.

٢ - وإشهاد الله - تعالى على صدقه وحسن قصده.

٣ - وقلب الحقائق وإيقاع الفتنة والتخريب والفساد.

والمعنى : ومن الناس فريق يروقك منطقهم، ويعجبك بيانهم، ويحسن عندك مقالهم، فأنت معجب بكلامهم الحلو الظاهر، المر الباطن، وأنت فى هذه الدنيا، لأنك تأخذ الناس بظواهرهم، أما فى الآخرة فلن يعجبك أمرهم لأنهم ستتكشف حقائقهم أمام الله الذى لا تخفى عليه خافية، وسيعاقبهم عقاباً أليما لإظهارهم القول الجميل وإخفائهم الفعل القبيح.

هذا النوع من الناس يثير الإعجاب بحسن بيانه؛ ويضللهم بحلاوة لسانه، ويحلف بالأيمان المغلظة أنه لا يقول إلا الصدق، ويجادل عما يقوله بالباطل بقوة وعنف ومغالبة، فهو بعيد عن طباع المؤمنين الذين إذا قالوا صدقوا، وإذا جادلوا اتبعوا أحسن الطرق وأهداها .

وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ . أى يحلف بالله على أن ما فى قلبه موافق لما يقول ويدعى، وفى معنى الحلف أن يقول الإنسان : الله يعلم أو يشهد بأننى أحب كذا أو أريد كذا، أو الله يشهد أنى صادق فيما أقول.

« **وقال العلماء** : إن هذا آكد من اليمين، وعن بعض الفقهاء أن من قاله كاذبًا يكون مرتدا لأنه نسب الجهل إلى الله – تعالى ، وأقول إن أقل ما يدل عليه هو عدم المبالاة بالدين » [١٣٦].

وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ . **قال القرطبى** : « الألد : الشديد الخصومة والعداوة.. ولددته – بفتح الدال – ألده – بضمها – إذا جادلته فغلبته ، والألد مشتق من اللديدين وهما صفحتا العنق، أى : فى أى جانب أخذ من الخصومة غلب، والخصام فى الآية مصدر خاصم، وقيل خصم كصعب وصعاب.

والمعنى أشد المخاصمين خصومة، وفى صحيح مسلم عن عائشة قالت : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم : « إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم » [١٣٧].

★ ★ ★

٢٠٥ – وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ .

وإذا أعرض عنك هذا النوع من الناس وولاك دبره أسرع فى الإفساد بين الناس، وتفريق كلمتهم، وإتلاف كل ما يقع تحت يده من الزروع والثمار والحيوان وما به قوام الحياة، فإهلاك الحرث والنسل كناية عن إتلافه لما به قوام أحوال الناس ومعيشتهم وعن إيذائه الشديد لهم.

وبعض العلماء يرى أن تولى مشتق من الولاية، يقال ولى البلد وتولاه، أى صار واليا له أميرًا عليه، والمعنى على هذا الرأى .

وإذا صار واليًا على قوم سعى بينهم بالفساد وعمل على تقاطعهم وتباغضهم.

قال الإمام الرازى : والقول الأول أقرب إلى نظم الآية.

وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ . أى لا يرضى عن الذى يقع منه الإفساد فى الأرض، ويظهر للناس الكلام الحسن

وهو يبطن لهم الفعل السيئ ، لأنه- سبحانه - أوجد الناس ليصلحوا فى الأرض لا ليفسدوا، فالجملة الكريمة ذم للمفسدين ووعيد لهم على خروجهم عن طاعة الله.

★ ★ ★

٢٠٦ - وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ.

رسمت الآيات صورة لهذا المنافق تمثلت فيما يأتى :

١ - حلاوة اللسان وفساد الباطن.

٢ - الحلف بالله كذبا ليروج سلوكه.

٣ - الفجور فى الخصومة، وافتراء التهم بالباطل.

٤ - نشر الخراب والدمار والفساد بين الناس.

وفى هذه الآية بيان لصفة خامسة لهذا النوع من الناس، فهو إذا فعل كل ما سبق ثم قيل له : «اتق الله» .. تذكيرًا له بخشية الله والحياء منه والتحرج من غضبه.. أنكر أن يقال له هذا القول، واستكبر أن يوجه إلى صواب. وأخذته العزة. لا بالحق، ولا بالعدل، ولا بالخير ولكن « بالإثم » فاستعز بالإجرام والذنب والخطيئة ورفع رأسه فى وجه الحق الذى يذكر به، وأمام الله بلا حياء منه، وهو الذى كان يشهده على ما فى قلبه، ويتظاهر بالخير والبر والإخلاص والتجرد والاستحياء.

« إنها لمسة تكمل ملامح الصورة، وتزيد فى قسماتها وتمييزها بذاتها.. وتدع هذا النموذج حيا يترك. تقول فى غير تردد : هذا هو . هذا هو الذى عناه القرآن، وأنت تراه أمامك ماثلاً فى الأرض الآن وفى كل آن»(١٢٨).

فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ.

أى هى مصيره وكفاه عذابها جزاء على كبريائه وحميته الجاهلية.

وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ . المهاد الفراش يأوى المرء إليه للراحة، واللام واقعة فى جواب قسم محذوف، فالله - تعالى - يقسم تأكيدًا للوعيد بأن الذى يرى عزته مانعة له عن الإذعان للأمر بتقوى الله سيكون مهاده ومأواه النار وهى بئس المهاد وشره، لا راحة فيها ولا اطمئنان لأهلها.

فقد وصفها القرآن بأنها تكاد تميز من الغيظ.

وهى لا تبقى ولا تذر، لواحة للبشر.

وهى التى يكبكب فيها الغاوون وجنود إبليس أجمعون.

وهى التى وقودها الناس والحجارة.

وهى الحطمة التى تطلع على الأفئدة.

وهى التى تقول : هل من مزيد.

وهى التى يطعم أهلها الزقوم كالمهل يغلى فى البطون كغلى الحميم.

والتى يتمنى أهلها الموت فيقال لهم: إنكم ماكثون. لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون.

وقال بعض المفسرين: إنه عبر بالمهاد الذى هو مظنة الراحة للتهكم.

وقد اختلفوا فى سبب نزول هذه الآيات، فروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس أنها نزلت فى رجلين من المنافقين قالا: لما هلكت سرية للمسلمين: ويح هؤلاء المفتونين الذين هلكوا هكذا، لا هم قعدوا فى أهليهم، ولا هم أدوا رسالة صاحبهم .

وروى ابن جرير عن السدى أَنَّهَا نزلت فى الأخنس بن شريق أقبل إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - وأظهر له الإسلام فأعجبه ذلك منه ثم خرج فمر بزرع لقوم من المسلمين وحمر، فأحرق الزرع وعقر الحمر. فإن صحت الروايتان فالظاهر أن من جعلهما سببًا حمل الآيات عليهما فى الجملة، وإلا فأنت ترى أن الآيات ليست مطابقة للحادثتين اللتين كانتا فى وقتين مختلفين [١٣٩].

قال الإمام الرازى :

« واختيار أكثر المحققين من المفسرين أن هذه الآيات عامة فى حق كل من كان موصوفًا بهذه الصفات المذكورة.. ولا يمتنع أن تنزل الآية فى الرجل ثم تكون عامة فى كل من مكان موصوفًا بتلك الصفات، ونزولها على السبب الذى حكيناه لا يمنع العموم.. والعمل على العموم أكثر فائدة، وذلك لأنه يكون زجرا لكل المكلفين عن تلك الطريقة المذمومة .. » [١٤٠].

★ ★ ★

٢٠٧ - وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ.

ويشرى هنا معناها يبيع ، فهو يبيع نفسه كلها لله، ويسلمها كلها لا يستبقى منها بقية، ولا يرجو من وراء أدائها وبيعها غاية إلا مرضاة الله، ليس له فيها شيء، وليس له من ورائها شيء، بيعة كاملة لا تردد فيها، ولا تحصيل ثمن، ولا استبقاء بقية لغير الله .

وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ.

أى رفيق بهم ورحيم بهم، ومن مظاهر ذلك أنه لم يكلفهم بما هو فوق طاقتهم، وإنما كلفه بما تطيقه نفوسهم، وأنه أسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة فى الدنيا مع تقصيرهم فيما أمرهم به أو نهاهم عنه، وأنه كافأهم بالنعيم المقيم على العمل القليل، وأنه جعل العاقبة للمتقين، لا للمفسدين، وأنه فتح بابه للتائبين، وتجاوز عن المخطئين وحثهم على الإنابة والاستقامة فقال سبحانه :

قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ . (الزمر : ٥٣ - ٥٤).

وقد أورد المفسرون روايات متعددة فى سبب نزول هذه الآية، منها ما رواه ابن كثير أنها نزلت فى صُهيب الرومى .

وذلك أنه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة منعه الناس أن يهاجر بماله، وإن أحب أن يتجرد منه ويهاجر فعل، فتخلص منه وأعطاهم ماله، فأنزل الله فيه هذه الآية ..

وفى رواية أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قال : عندما بلغه أن صهيبًا دفع ماله للمشركين وهاجر بنفسه - ربح صهيب، ربح صهيب.

وهناك روايات أنها نزلت فيه، وفى عمار بن ياسر وفى خباب بن الأرت وفى غيرهم من المؤمنين المجاهدين.

والآية وإن كانت نزلت فى حادثة معينة، أو انطبقت عليها، فإنها تتناول كل من أطاع الله - تعالى - وبذل نفسه فى سبيل إعلاء كلمة الله، ويدخل فى ذلك دخولاً أوليًا من نزلت فيهم الآية، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

قال الأستاذ سيد قطب :

والآية أبعد مدى من مجرد حادث ومن مجرد فرد وهى ترسم صورة نفس وتحدد ملامح نموذج من الناس، نرى نظائره فى البشرية هنا وهناك .

والصورة الأولى : تنطبق على كل منافق مراء ذلق اللسان. فظ القلب شرير الطبع شديد الخصومة، مفسود الفطرة.

والصورة الثانية : تنطبق على كل مؤمن خالص الإيمان، متجرد لله، مرخص لأعراض الحياة.. وهذا وذاك نموذجان معهودان فى الناس، ترسمهما الريشة المبدعة بهذا الإعجاز، وتقيمهما أمام الأنظار، يتأمل الناس فيهما معجزة القرآن، ومعجزة خلق الإنسان بهذا التفاوت بين النفاق والإيمان؛ ويتعلم منهما الناس ألا ينخدعوا بمعسول القول، وطلاوة الدهان، وأن يبحثوا عن الحقيقة وراء الكلمة المزوقة، والنبرة المتصنعة، والنفاق والرياء والزواق كما يتعلمون منهما كيف تكون القيم فى ميزان الإيمان » [١٤١].

★ ★ ★

السلام فى الإسلام

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ ﴾

المفردات :

السلم : بكسر السين وتفتح، الاستسلام والطاعة.

كافـة : جميعًا.

خطوات : جمع خطوة بفتح الخاء وضمها.

فإن زللتم : أى فإن انحرفتم عن الصواب.

البينات : الآيات الواضحات.

المعنى الإجمالى :

يا أيها الذين آمنوا كونوا جميعًا مسالمين فيما بينكم ولا تثيروا العصبيات الجاهلية وغيرها من أسباب النزاع والخلاف، ولا تسيروا فى طريق الشيطان الذى يدفعكم إلى الشقاق فإنه لكم عدو مبين.

فإن انحرفتم عن هذا الطريق الذى دعيتم إليه جميعًا من بعد ظهور الحجج القاطعة على أنه طريق الحق، فاعلموا أنكم مؤاخذون بهذا الانحراف لأن الله عزيز يعاقب من يعرض عن سبيله، حكيم يقدر العقوبة بقدرها.

التفسير :

٢٠٨ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ .

ذهب بعض المفسرين إلى أن هذه الآية موجهة إلى مؤمنى أهل الكتاب.

جاء فى تفسير مقاتل بن سليمان [١٤٢] : أن عبد الله بن سلام، وسلام بن قيس، وأسيد وأسد ابنا كعب، ويامين وهم مؤمنو أهل التوراة استأذنوا النبى - صلى الله عليه وسلم - فى قراءة التوراة فى الصلاة، وفى أمر السبت، وأن يعملوا ببعض ما فى التوراة، فقال الله - عز وجل - خذوا سنة محمد - صلى الله عليه وسلم - وشرائعه ، فإن قرآن محمد نسخ كل كتاب كان قبله. فقال : ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً . يعنى فى شرائع الإسلام كلها: ولا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ . يعنى تزيين الشيطان فإن السنة الأولى بعد ما بعث محمد - صلى الله عليه وسلم - ضلالة من خطوات الشيطان .

والوجه الثانى فى تفسير السلم هو المسالمة والمصالحة.

والمعنى : ياأيها الذين آمنوا إن إيمانكم يوجب عليكم فيما بينكم أن تكونوا متصالحين غير متعادين، متحابين غير متباغضين، متجمعين غير متفرقين، كما أنه يوجب عليكم بالنسبة لغيركم ممن هو ليس على دينكم أن تسالموه متى سالمكم، وأن تحاربوه متى اعتدى عليكم، فإن دينكم ما جاء للحرب والخصام، وإنما جاء للهداية وللسلام العزيز القوى الذى يرد الاعتداء بمثله.

وقد ذكر السيد رشيد رضا فى تفسير المنار، أن الوجة الأول ضعيف وأن الآية لم تنزل فى شأن مؤمنى أهل الكتاب وإنما نزلت تدعو المسلمين إلى التمسك بأهداب الإسلام وترك الشقاق والتنازع، والاعتصام بحبل الوحدة والأخوة، وهى بمعنى قوله- عز وجل - : وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا. (آل عمران : ١٠٣) وقوله تعالى: ولا تنازعوا فَتَفْشَلُوا. (الأنفال : ٤٦) وقوله - عليه الصلاة والسلام : « لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم أعناق بعض » [١٤٣].

وبعض المفسرين ذكر أن المراد بالآية المنافقون ، والتقدير يا أيها الذين آمنوا بألسنتهم ادخلوا بكليتكم فى الإسلام ولا تتبعوا خطوات الشيطان. وهو قول ضعيف ولا يؤيده سياق الآية الكريمة.

لأن الآية صريحة فى دعوة المؤمنين إلى التمسك بجميع تعاليم الإسلام، وإلى الإخاء الجامع ونبذ التفرق والاختلاف والاعتداء.

وإن صحت الروايات فى أنها نزلت فى شأن مؤمنى أهل الكتاب فلا مانع أن تكون الآية موجهة لهم وتشمل المسلمين أيضا، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ .

الخطوة هى ما بين قدمى من يخطو.

أى ادخلوا فى السلم واحذروا أن تتبعوا مدارج الشيطان وطرقه، إنه لكم عدو ظاهر العداوة بحيث لا تخفى عداوته على عاقل.

وفى قوله - تعالى -: وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ. إشعار بأن الشيطان كثيرا ما يجر الإنسان إلى الشر خطوة فخطوة، ودرجة فدرجة، حتى يجعله يألفه ويقتحمه بدون تردد، وبذلك يكون ممن استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله، والعاقل من الناس هو الذى يبتعد عن كل ما هو من نزغات الشيطان ووساوسه، فإن صغير الذنوب قد يوصل إلى كبيرها، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه.

٢٠٩ - فَإِن زَلَلْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.

فإن تنحيتم عن طريق الحق وعدلتم عنه إلى الباطل، من بعد أن ظهرت لكم الأدلة المفرقة بين الصواب

والخطأ، والتى تدعوكم إلى اتباع طريق الحق فاعلموا أن الله: عَزِيزٌ . لا يقهره ولا يعجزه الانتقام ممن زل حكِيمٌ . لا يترك ما تقتضيه الحكمة وإنما يضع الأمور فى مواضعها.

وقال الفخر الرازى ، وقوله: فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. نهاية فى الوعيد، لأنه يجمع من ضروب الخوف ما لا يجمع الوعيد بذكر العقاب وربما قال الوالد لولده: إن عصيتنى فأنت عارف بى وأنت تعلم قدرتى عليك وسطوتى، فيكون هذا الكلام فى الزجر أبلغ من ذكر الضرب وغيره (١٤٤).

★ ★ ★

من مشاهد القيامة

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ ﴾

المفردات :

هل ينظرون	: استفهام فى معنى النفى.
يأتيهم الله	: يأتيهم أمره.
فى ظلل مِّن الغمام	: الظلل جمع ظلة وهى ما أظلك من شعاع الشمس وغيره، والغمام: السحاب الأبيض الرقيق.

التفسير :

٢١٠ ـ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ.

ما ينتظر أولئك الذين أبوا الدخول فى الإسلام من بعد ما جاءتهم البينات إلا أن يأتيهم الله يوم القيامة فى ظلل كائنة من الغمام الكثيف العظيم ليحاسبهم على أعمالهم وتأتيهم ملائكته الذين لا يعلم كثرتهم إلا الله.

وبتعبير آخر: هل ينتظرون ويتلكأون حتى يأتيهم اليوم الرعيب الموعود الذى قال الله – سبحانه – إنه سيأتى فيه فى ظلل من الغمام، ويأتى الملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابًا؟.

وفجأة، وبينما نحن أمام السؤال الاستنكارى الذى يجمع طابع التهديد الرعيب، نجد أن اليوم قد جاء، وأن كل شىء قد انتهى وأن القوم أمام المفاجأة التى كان يلوح لهم بها ويخوفهم إياها . وَقُضِيَ الأَمْرُ . وطوى الزمان، وأفلتت الفرصة، وعزت النجاة، ووقفوا وجهًا لوجه أمام الله، الذى ترجع إليه وحده الأمور: وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ .

إنها طريقة القرآن العجيبة ، التى تفرده وتميّزه من سائر القول. الطريقة التى تحيى المشهد وتستحضره فى التو واللحظة ، وتقف القلوب إزاءه وقفه من يرى ويسمع ويعانى ما فيه.

فإلى متى يتخلف المتخلفون عن الدخول فى السلم، وهذا الفزع الأكبر ينتظرهم؟ بل هذا الفزع الأكبر يدهمهم، والسلم منهم قريبة، فى الدنيا ، والسلم فى الآخرة، يوم تشقق السماء بالغمام ونُزِّلَ الملائكة تنزيلا، يوم يقوم الروح والملائكة صفًا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا، يوم يقضى الأمر.. وقد قضى الأمر. وإلى الله تُرْجَعُ الأُمورُ .

★ ★ ★

تبديل النعم

﴿ سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ ﴾

والعودة هنا إلى بنى إسرائيل عودة طبيعية، فيها تحذير من موقف بنى إسرائيل فى التلكؤ والنشوز، والتعنت وسؤال الخوارق، ثم الاستمرار فى العناد والجحود.. وهذه هى مزالق الطريق التى يحذر الله الجماعة المسلمة منها كى تنجو من عاقبة بنى إسرائيل المنكودة.

المعنى الإجمالى :

سل بنى إسرائيل كم سقنا إليهم الأدلة القاطعة على صدق الرسول، وفى ذلك نعمة هدايتهم إلى الله فكفروا بهذه الأدلة وعمدوا بتكذيبهم لها إلى تبديل الغرض منها، فبعد أن وضعت للهداية، أصبحت بالنسبة لكفر هؤلاء بها سببًا فى زيادة ضلالهم وإثمهم، ومن يبّدل نعم الله بهذه الصورة يحق عليه العذاب لأن الله شديد العقاب.

التفسير :

٢١١ - سَلْ بَني إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ . . .

سل فعل أمر من سأل وأصله اسأل فنقلت فتحة الهمزة إلى السين قبلها وصارت ساكنة فحذفت، ولما فتحت السين لم يكن هناك حاجة إلى همزة الوصل فحذفت أيضًا، والمراد بهذا السؤال تقريعهم على جحودهم الحق بعد وضوح الآيات، لا معرفة إجابتهم كما إذا أراد واحد منا توبيخ أحد، فيقول لمن حضره : سله كم أنعمت عليه؟.

قال الفخر الرازى :

اعلم أنه ليس المقصود : سل بنى إسرائيل ليخبروك عن تلك الآيات فتعلمها، وذلك لأن الرسول – صلى الله عليه وسلم – كان عالماً بتلك الأحوال، بإعلام الله – تعالى – إيَّاهُ، بل المقصود منه المبالغة فى الزجر عن الإعراض عن دلائل الله – تعالى .

أى سل هؤلاء الحاضرين أنا لما آتينا أسلافهم آيات بينات فأنكروها، لا جرم استوجبوا العقاب من الله -تعالى – وذلك تنبيه لهؤلاء الحاضرين، على أنهم لو زلوا عن آيات الله، لوقعوا كما وقع أولئك المتقدمون فيه، والمقصود من ذكر هذه الحكاية أن يعتبروا بغيرهم .. » (١٤٥).

ومن الآيات البينات والمعجزات الواضحات التى أظهرها الله لبنى إسرائيل: عصا موسى التى ألقاها فإذا هى حية تسعى، والتى ألقاها فإذا هى تلقف ما صنعه السحرة، والتى ضرب بها البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم، وإرسال الجراد والقمل والضفادع والدم عليهم، وإنقاذهم من فرعون، وفرق البحر بهم، وإرسال المن والسلوى عليهم، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على وحدانية الله، وصدق موسى فى رسالته ومع ذلك فمنهم من قال : أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً (النساء : ١٥٣).

ومنهم من عبد العجل ، قال تعالى : وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ . (الأعراف : ١٤٨).

ثم بين سبحانه سوء عاقبة الجاحدين لآياته فقال :

وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

أى ومن يبدل نعم الله من بعدما وصلت إليه واتضحت له، بأن كفر بها مع أنها تدعو إلى الإيمان، وجحد فضلها مع أنها تستلزم منه الشكر لمسديها، من يبدل ذلك التبديل، فإن الله سيعاقبه عقابًا شديدًا .

وما بدلت البشرية هذه النعمة إلا أصابها العقاب الشديد فى حياتها على الأرض قبل عقاب الآخرة، وها هى ذى البشرية المنكودة الطالع فى أنحاء الأرض كلها تعانى العقاب الشديد، وتجد الشقوة النكدة ، وتعانى القلق والحيرة ويأكل بعضها بعضاً .

ونظرة إلى التنقل السريع المحموم بين الأهواء والأزواج والصداقات والأزياء، بين فصل وفصل، لا بين الصباح و المساء، كل هذا يكشف عن الحيرة القاتلة، التى لا طمأنينة فيها ولا سلام. وإن هو إلا عقاب الله لمن يحيد عن منهجه، ولا يستمع لدعوته : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً .. وأن الإيمان الواثق لنعمة الله على عباده، لا يبدلها مبدل حتى يحيق به ذلك العقاب .. والعياذ بالله (١٤٦).

★ ★ ★

سخـــرية

﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ ﴾

المفردات :

التزيين : جعل الشىء زينا أى شديد الحسن.

المعنى الإجمالى :

وإن السبب فى الانحراف والكفر هو طلب الدنيا، فقد زين للذين كفروا شهوات الحياة الدنيا، فمضوا يسخرون من الذين آمنوا، لانشغالهم بالحياة الآخرة، والله جاعل الذين آمنوا أعلى مكانًا منهم فى الآخرة، فأما زيادة هؤلاء الكفار بالمال والزينة فى الدنيا فلا يدل على أفضليتهم ، لأن رزق الله لا يقدر على حساب الإيمان والكفر، بل يجرى تبعًا لمشيئته، فمن الناس من يزاد له الرزق استدراجًا، ومنهم من يقتر عليه اختيارًا.

التفسير :

٢١٢ - زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا . . .

إن الحياة الدنيا قد زينت للكافرين فأحبوها، وتهافتوا عليها تهافت الفراش على النار، وصارت متعها وشهواتها كل تفكيرهم، أما الآخرة فلم يفكروا فيها ولم يهيئوا أنفسهم للقائها.

قال القرطبى :

والمزين هو خالقها ومخترعها وخالق الكفر، ويزينها أيضًا الشيطان بوسوسته وإغوائه، وخص الذين كفروا بالذكر لقبولهم التزيين جملة وإقبالهم على الدنيا وإعراضهم عن الآخرة بسببها، وقد جعل الله ما على الأرض زينة لها ليبلو الخلق أيهم أحسن عملا.

فالمؤمنون الذين هم على سنن الشرع لم تفتنهم الزينة، والكفار تملكتهم لأنهم لا يعتقدون غيرها [(١٤٧)].

وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا .

إن هدف المؤمن أن يرضى ربه، وأن يضحّى بنفسه وماله من أجل نصرة دين الله، وتحقيق منهجه فى الحياة ، وهدف الكفار الاستمتاع بالحياة الدنيا، فالدنيا كل همهم، وهم لذلك يسخرون من المؤمنين، الذين باعوا الدنيا واشتروا ما عند الله، وصار هم المؤمنين مرضاة ربهم وتحقيق رسالة دينهم.

قال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ

أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاءِ لَضَالُّونَ * وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ، فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ . (المطففين : ٢٩ – ٣٤).

وقد ذكر بعض المفسرين فى سبب نزول هذه الآية روايات منها : أنها نزلت فى المنافقين: عبد الله بن أبى وحزبه، كانوا يتنعمون فى الدنيا، أو يسخرون من ضعفاء المؤمنين، وفقراء المهاجرين، ويقولون : انظروا إلى هؤلاء الذين يزعم محمد أنه يغلب بهم.

ومنها أنها نزلت فى أبى جهل ورؤساء قريش كانوا يسخرون من فقراء المسلمين كعمار بن ياسر، وصهيب ابن سنان الرومى، وبلال بن رباح، وخباب بن الأرت، وسالم مولى أبى حذيفة، وعامر بن فهيرة مولى أبى بكر، وعبدالله بن مسعود وأبى هريرة الدوسى (١٤٨) ، وفى نحوهم من الفقراء يقول الله – عز وجل – :

وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

يعنى أن هؤلاء النفر من المؤمنين فوق المنافقين والكافرين يوم القيامة، لأن تقواهم قد رفعتهم إلى أعلى علّيين، أما الذين كفروا فإن كفرهم قد هبط بهم إلى النار وبئس القرار.

فإذا استعلى بعضهم على بعض المؤمنين طائفة من الزمن فى هذه الحياة القصيرة الفانية، بما يكون لهم من الأتباع والأنصار والمال والسلطان، فإن المؤمنين يكونون أعلى منهم مقاماً يوم القيامة فى تلك الحياة العلية الأبدية (١٤٩).

وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ .

وهو المانح الوهاب يمنح من يشاء ويفيض على من يشاء لا خازن لعطائه ولا بواب، وهو قد يعطى الكافرين زينة الحياة الدنيا لحكمة منه، وليس لهم فيما أعطوا فضل، وهو قد يعطى المختارين من عباده ما يشاء فى الدنيا أو فى الآخرة، فالعطاء كله عنده، واختياره للأخيار هو الأبقى والأعلى.

قال الأستاذ الإمام محمد عبده :

« إن الرزق بغير حساب ولا سعى فى الدنيا إنما يصح بالنسبة للأفراد، فإنك ترى كثيرًا من الأبرار وكثيرًا من الفجار، أغنياء موسرين متمتعين بسعة الرزق، وكثيرًا من الفريقين فقراء معسرين، والمتقى يكون دائمًا أحسن حالاً وأكبر احتمالاً، ومحلاً لعناية الله – تعالى – به، فلا يؤلمه الفقر كما يؤلم الفاجر، فهو يجد بالتقوى مخرجًا من كل ضيق، ويجد من عناية الله رزقًا غير محتسب ، وأما الأمم فأمرها على غير هذا، فإن الله يعطى الأمة بعملها ويسلبها بزللها » (١٥٠).

★ ★ ★

أمة واحدة

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾

المفردات :

أمة	: جماعة من الناس أمرهم ومقصدهم واحد.
مبشرين ومنذرين	: واعدين المتقين بالجنة، ومتوعدين الكفار بالنار.
البينات	: الأدلة المقنعة الظاهرة.
بغيا	: ظلمًا وعدوانًا.

المعنى الإجمالى :

وإن الناس طبيعة واحدة فيها الاستعداد للضلالة، ومنهم من قد تستولى عليه أسباب الهداية، ومنهم من تغلب عليه الضلالة، ولذلك اختلفوا فبعث الله إليهم الأنبياء هداة مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتب مشتملة على الحق، لتكون هى الحكم بين الناس فينقطع التنازع ولكن الذين انتفعوا بهدى النبيين هم الذين آمنوا فقط، الذين هداهم الله فى موضع الاختلاف إلى الحق، والله هو الذى يوفق أهل الحق إذا أخلصوا.

التفسير :

٢١٣ - كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ.

نقل الإمام محمد عبده عدة أقوال عن المفسرين السابقين فى معنى هذه الآية، وناقشها ولم يقبلها.

ومن الآراء التى ناقشها أن الناس كانوا على ملة الهدى والدين القويم.

وقد رفض هذا الرأى لأن هداية الناس واجتماعهم لا تستوجب بعث النبيين مبشرين ومنذرين.

واختار أن يكون معنى هذه الآية :

خلق الله الإنسان أمة واحدة أى مرتبطًا بعضه ببعض فى المعاش، لا يسهل على أفراده أن يعيشوا فى هذه الحياة الدنيا، إلى الأجل الذى قدره الله لهم إلا مجتمعين. يعاون بعضهم بعضًا، ولا يمكن أن يستغنى بعضهم عن بعض، فكل واحد منهم يعيش ويحيا بشىء من عمله، لكن قواه النفسية والبدنية قاصرة عن توفيته جميع ما

يحتاج إليه، فلابد من انضمام قوى الآخرين إلى قوته، فيستعين بهم فى شانه كما يستعينون به فى بعض شانهم؛ وهذا الذى يعبرون عنه بقولهم « الإنسان مدنى بالطبع »، يريدون بذلك أنه لم يوهب من القوى ما يكفى للوصول إلى جميع حاجاته، بل قدر له أن تكون منزلة أفراده من الجماعة، منزلة العضو من البدن، لا يقوم البدن إلا بعمل الأعضاء كما لا تؤدى الأعضاء وظائفها إلا بسلامة البدن ...

... « إن الله قضى أن يكون الناس أمة واحدة يرتبط بعضها ببعض، ولا سبيل لعقولهم وحدها إلى الوصول إلى ما يلزم لهم فى توفير مصالحهم، ودفع المضار عنهم، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وأيدهم بالدلائل القاطعة على صدقهم: وعلى أن ما يأتون به إنما هو من عند الله - تعالى ، القادر على إثابتهم وعقوبتهم، العالم بما يخطر فى ضمائرهم، الذى لا تخفى عليه خافية من سرائرهم.

وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ . . . .

أى وأنزل معهم الكتب السماوية التى توضح للناس العبادات وشرائع المعاملات، طبقاً للحق والعدل، فإذا حادوا عن سواء السبيل، عادوا إلى هذه الكتب السماوية يحتكمون إليها فتردهم إلى الصواب.

وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ . . . .

وما اختلف فى الحق أو فى الكتاب المنزل، إلا الذين أوتوه من أرباب العلم والدراسة، بعد ما جاءتهم الحجج الواضحات على وجوب الأخذ به، وعدم الاختلاف.

فالبغى، بغى الحسد : وبغى الطمع، وبغى الحرص، وبغى الهوى ، هو الذى قاد الناس إلى المضى فى الاختلاف على أصل التصور والمنهج، والمضى فى التفرق واللجاج والعناد.

قال الأستاذ محمد عبده :

لكن قد يشوب طلب الحق شىء من الرغبة فى عزة الرئاسة أو ميل مع أربابها أو خوف منهم أو شهوة خفية فى منفعة أخرى فيلج ذلك بصاحب الرأى حتى يكون شقاق، ويحدث افتراق: ولا ريب أن هذا الشوب وإن كان قد يكون غير ملحوظ لصاحبه بل دخل على نفسه من حيث لا يشعر فهو من البغى على حق الله فى عباده أولاً، والبغى على حقوق العباد الذين جاء الكتاب لتعزيز الوفاق بينهم ثانيا، أما العامة من الناس فلا جريمة لهم فى هذا ؛ ولذلك جاء بالحصر فى قوله : وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ .... ، فإذا كان الرؤساء قد جنوا هذه الجناية على أنفسهم وعلى الناس بسبب البغى الخاص بهم، فهل يقدح هذا فى هداية الكتاب إلى ما يتفق الناس عليه من الحق ويرتفع به النزاع فيما بينهم؟ كلا فقد رأينا كل دين فى بدء نشأته يقرب البعيد ويجمع المشتت ويلم الشعث ويمحق أسباب الخلاف من النفوس ويقرر بين الآخذين به أخوة لا تدانيها أخوة النسب فى شىء. وهل يؤثر الأخ فى النسب أخاه بماله على نفسه وهو فى أشد الحاجة إليه كما كان يفعل أولئك الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة؟ وهل يبذل الأخ النسبى روحه دون أخيه ويؤثره بالحياة على نفسه كما آثره بالمال، كما كان يقع من أولئك الأبطال؟ هذا شأن الدين وهو باق

على أصله، معروف بحقيقته لأهله، تبينه للناس رؤساؤه، ويمشى بنوره فيهم علماؤه، لا خلاف ولا اعتساف، ولا طرق ولا مشارب، ولا منازعات فى الدين ولا مشاغب [١٥١].

فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ.

هداهم بما فى نفوسهم من صفاء وبما فى قلوبهم من رغبة فى الوصول إلى الحق وبما فى أرواحهم من تجرد.

و الَّذِينَ آمَنُوا . هم أهل الإيمان الصادق فى كل دين.

وقيل المراد من : الَّذِينَ آمَنُوا . أمة محمد - صلى الله عليه وسلم، هداهم الله لما اختلف فيه أهل الكتاب من الحق بإذنه - تعالى - وتيسيره ، فعرفوه.

ومن ذلك هدايتهم إلى تنزيهه - تعالى - عن الصاحبة والولد، وأن إبراهيم - عليه السلام - كان حنيفًا مسلمًا . وما كان يهوديًّا ولا نصرانيًّا ولا مشركا ، وأن مريم سيدة شريفة، وليست كما وصفها اليهود، وأن عيسى رسول الله، خلافًا لما زعم اليهود من نفى رسالته، ولما زعم النصارى من أنه ابن الله، إلى غير ذلك.

وفى هذا يقول الله - تعالى - : إِنَّ هَذَا الْقُرآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ . (النمل:٧٦).

وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ.

والله وحده هو الهادى من يشاء من عباده إلى طريق الحق الذى لا يضل سالكه، فليس لأحد سلطان بجوار سلطانه، ولو أراد أن يكون الناس جميعًا مهديين لكانوا، ولكن حكمته اقتضت أن يختبرهم ليتميز الخبيث من الطيب، فيجازى كل فريق بما يستحقه.

قال ابن كثير : وفى صحيح مسلم والبخارى عن عائشة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان إذا قام من الليل يصلى يقول : « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم » [١٥٢].

وفى الدعاء المأثور : « اللهم أرنا الحق حقًّا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، ولا تجعله ملتبسًا علينا فنضل واجعلنا للمتقين إماما » [١٥٣].

★ ★ ★

ابتلاء المؤمنين

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤) ﴾

المفردات :

أم : تأتى بمعنى بل وهمزة الاستفهام، ويرى أبو عبيدة أنها للاستفهام وحده.

حسبتم : ظننتم.

خلوا : مضوا.

البأساء : الفقر، أو الحرب، أو الشدة.

الضراء : المرض ، أو الضيق ، أو الضرر مطلقًا.

زلزلوا : الزلزلة: الحركة الشديدة، والمراد هنا : إصابتهم بالاضطراب النفسى ، الذى يهز النفس هزًّا عنيفًا ويزعجها.

المعنى الإجمالى :

فهل حسبتم أن تدخلوا الجنة بمجرد إقراركم بكلمة الإسلام، بدون أن تصابوا بمثل ما أصاب الذين من قبلكم ، فقد أصابتهم الشدائد والنوازل وزلزلوا حتى بلغ بهم الأمر أن قال رسولهم نفسه، وقالوا معه : متى نصر الله ؟ فيبر ربهم بوعده، فيجابون عندئذ : بأن نصر الله قريب .

التفسير :

٢١٤ - أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم . . .

سبب النزول : قال قتادة والسدى وأكثر المفسرين : نزلت هذه الآية فى غزوة الخندق إذ اجتمع المشركون مع أهل الكتاب، وتحالفوا على الإيقاع بالمسلمين وقطع دابرهم، وأصاب المؤمنين يومئذ ما أصابهم من الجهد والشدة والجوع والحاجة وضروب الإيذاء.

وقيل إن الآية نزلت فى غزوة أُحد، حين غلب المشركون المؤمنين، وشجوا رأس النبى - صلى الله عليه وسلم - وكسروا رباعيته (١٥٤).

وما ذكرهْ المفسرون فى سبب نزول هذه الآية الكريمة لا يمنع عمومها. وإنها تدعو المؤمنين فى كل زمان ومكان، إلى التذرع بالصبر والثبات تأسيًا بمن سبقهم من المتقين، حتى يفوزوا برضوان الله - تعالى - ونصره.

الصبر فى القرآن :

حث القرآن الكريم على الصبر فى أكثر من سبعين موضعًا، وبين أن الله خلق الإنسان للاختبار والابتلاء والامتحان، فمن صبر وثبت نجح فى الاختبار ، ومن هلع وسخط رسب فى الاختبار.

ومن الآيات التى تؤيد هذا المعنى فى القرآن الكريم قوله سبحانه : **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ** . (آل عمران : ١٤٢) ، وهذه نزلت فى غزو أُحد لا محالة.

وقال تعالى : **الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ** . (العنكبوت : ١:٣)

وروى البخارى أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : « ما يصيب المسلم من هم ولا حزن ولا تعب ولا وصب حتى الشوكة يشاكها إلا كفّر الله بها من خطاياه ، ولا يزال البلاء يصيب المؤمن حتى يمشى على الأرض وما عليه خطيئة » (١٥٥).

معنى الجملة : **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم** : بل أظننتم أنكم بمجرد إيمانكم تدخلون الجنة دون أن تتعرضوا للمشقة والابتلاء، كما تعرض المؤمنون الأتقياء من الأمم السابقة.

مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ . . .

أى أصابتهم الشدائد والأهوال، وتعرضوا لفظائع الحروب الظاهرة والخفية، واهتز كيانهم اهتزازًا عنيفًا، حتى كاد اليأس يسيطر على نفوسهم، وحتى تطلع الرسول والمؤمنون معه من هول ما قاسوه إلى الله، استعجالاً لنصره، فهم لا يشكون فى تحقيق وعده، ولكنهم يتعجلون حدوثه.

قال الزمخشرى : وقوله: **وَزُلْزِلُوا**. أى أزعجوا إزعاجًا شديدا شبيها بالزلزلة، بما أصابهم من الأهوال والأفزاع. **حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ** : أى الغاية التى قال الرسول ومن معه فيها. **مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ** . ؟ أى بلغ بهم الضجر، ولم يبق لهم صبر حتى قالوا ذلك، ومعناه طلب النصر وتمنيه، واستطالة زمان الشدة، وفى هذه الغاية دليل على تناهى الأمر فى الشدة وتماديه فى العظم، لأن الرسل لا يقادر قدر ثباتهم، واصطبارهم وضبطهم لأنفسهم، فإذا لم يبق لهم صبر حتى ضجوا كان ذلك الغاية فى الشدة التى لا مطمع وراءها (١٥٦).

والرسول هنا : للجنس لأن كل رسول جاهد فى سبيل الله هو والمؤمنون به وتعرضوا للشدائد والأهوال، فلجأوا إلى الله – تعالى – يطلبون نصره.

« وقيل الرسول هنا : شعياء . وقيل أشعياء . وقيل : اليسع وعلى التعيين يكون المراد من الذين خلوا قوماً بأعيانهم وهم أتباع هؤلاء الرسل » (١٥٧).

أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ .

إنه مدخر لمن يستحقونه، ولن يستحقه إلا الذين يثبتون حتى النهاية، الذين يثبتون على البأساء والضراء، الذين يصمدون للزلزلة.

وفى هذه الجملة ألوان من المؤكدات والمبشرات بالنصر القريب، منها إيثار الجملة الاسمية على الجملة الفعلية، فلم يقل مثلاً ستنصرون وتصدير الجملة بأداة الاستفتاح، ووقوع إن المؤكدة بعد أداة الاستفتاح وإضافة النصر إلى الله القادر على كل شىء.

وبذلك نرى أن الآيات من قوله تعالى: **ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا** .. إلى هنا، قد بينت لنا أقسام الناس فى هذه الحياة ودعت المؤمنين إلى أن يتمسكوا بجميع تعاليم الإسلام، وأن يزهدوا فى زينة الحياة التى شغلت المشركين عن كل شىء سواها، وأن يشكروا الله على هدايته لهم إلى الحق الذى اختلف فيه غيرهم، وأن يوطنوا النفس على تحمل الآلام لكى يحقق الله لهم الآمال.

ثم أرشد الله - تعالى - المؤمنين بعد ذلك إلى أن مما يعينهم على دفع الأذى وعلى دحر أعدائهم أن يبذلوا أموالهم فى طاعة الله، وأن يعدوا أنفسهم للقتال فى سبيله.

★ ★ ★

تنظيم الصدقات

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ (٢١٥) ﴾

المفردات :

المساكين : هم من لا يجدون كفايتهم ولو مع العمل قال تعالى : أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ. (الكهف : ٧٩) .

ابن السبيل : الغريب المنقطع عن وطنه ولا مال معه، ويمكن إطلاقه على اللاجئ أو المهاجر، ولا مال يكفيه.

المعنى الإجمالى :

يسألك المؤمنون فى شأن الإنفاق، فقل لهم : إن الإنفاق يكون من المال الطيب، ويعطى للوالدين والأقربين واليتامى والمساكين، ومن انقطع عن ماله وأهله، وما تفعلوه من عمل خير فإن الله يعلمه وهو يثيبكم عليه.

التفسير :

٢١٥ - يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ.

سبب النزول : قال الألوسى : عن ابن جريج قال : سأل المؤمنون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أين يضعون أموالهم؟ فأنزل الله تعالى : **يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ**. الآية.

وفى تفسير مقاتل : لما أمر الله بالصدقة قال عمرو بن الجموح الأنصارى : يا رسول الله، كم ننفق؟ وعلى من ننفق؟ فأنزل الله هذه الآية.

المعنى : يسألك أصحابك يا محمد أى شىء ينفقونه من أصناف الأموال؟ قل لهم : ما أنفقتم من أموالكم فاجعلوه للوالدين قبل غيرهما، ليكون أداء لحق تربيتهما، ووفاء لبعض حقوقهما، وللأقربين وفاء لحق القرابة والرحم، ولليتامى لأنهم فقدوا الأب الحانى الذى يسد عوزهم والمساكين لفقرهم واحتياجهم، وابن السبيل لأنه كالفقير لغيبة ماله وانقطاعه عن بلده.

ولقد سارت هذه الآية مع نوازع الفطرة، فالإنسان يحب أول ما يحب أفراد أسرته الأقربين، عياله ووالديه، فحثته على الإنفاق عليهم ليمسح آلامهم وليوثق روابط الأسرة ، التى شاء الله أن تكون اللبنة الأولى فى بناء الإنسانية .

ثم سار الإسلام بالمنفق خطوة أخرى وراء أهله الأقربين ، وحثه على الإنفاق على اليتامى الصغار الضعاف، ثم المساكين الذين لا يجدون ما ينفقون، ثم أبناء السبيل الذين قد يكون لهم مال ولكنهم انقطعوا عنه وحالت بينهم وبينه الحوائل.

والإسلام بهذا يقود النفوس إلى الخير والتطهر والزكاة، ويهدف إلى إعطاء هؤلاء المحتاجين وكفالتهم، ويقود نفوس المجتمع كله إلى التماسك والتعاطف.

والأكثرون على أن الآية فى صدقة التطوع، وقيل فى الزكاة. واستدل بها من أباح صرفها للوالدين.

والأول أرجح لعموم كلمة « خير » وخصوص الزكاة، وكونها مقدرة.

وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ.

وهذا تذييل قصد به الحض على فعل الخير فى جميع مجالاته ولجميع الأفراد المحتاجين له. لأن المؤمن عندما يشعر بأن الله يرى عمله، ويجازيه عليه بما يستحق ، يشجعه ذلك على الاستمرار فى عمل الخير.

★ ★ ★

القتـــال

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ ﴾

المفردات :

كتب عليكم القتال : فرض عليكم قتال الكفار.

كره : بمعنى مكروه كخبز بمعنى مخبوز، أى مكروه طبعًا لمشقته .

الشهر الحرام : أحد الأشهر التى حرّم فيها القتال وهى : رجب ، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم.

الفتنة : المراد منها تعذيب المسلمين وإخراجهم من ديارهم وصدهم عن المسجد الحرام، وعن دين الله تعالى.

حبطت أعمالهم : بطلت وفسدت.

المعنى الإجمالى :

فإذا كان الإنفاق على اليتامى والمساكين وغيرهم حماية للمجتمع فى داخله، فإن القتال حماية له من أعدائه فى الخارج؛ ولذلك فرض عليكم - أيها المسلمون - القتال لحماية دينكم، والدفاع عن أنفسكم، وإن نفوسكم بحكم جبلتها تكره القتال كرهًا شديدًا، ولكن ربما كرهتم ما فيه خيركم وأحببتم ما فيه شركم، والله يعلم ما غاب من مصالحكم عنكم، وأنتم لا تعلمون، فاستجيبوا لما فرض عليكم.

وقد كره المسلمون القتال فى الشهر الحرام فسألوك عنه، فقل لهم : نعم إن القتال فى الشهر الحرام إثم كبير، ولكن أكبر منه ما حدث من أعدائكم من صد عن سبيل الله، وعن المسجد الحرام، وإخراج المسلمين من مكة، وقد كان إيذاؤهم للمسلمين لإخراجهم من دينهم أكبر من كل قتل، ولذلك أبيح القتال فى الشهر الحرام، فمع هذه الشرور فهو عمل كبير يتقى به ما هو أكبر منه، واعلموا - أيها المسلمون - أن سبيل هؤلاء معكم سبيل

التجنى والظلم، وأنهم لا يقبلون منكم العدل والمنطق، ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا، ومن يضعف أمام هجماتهم، ويرتد عن دينه حتى يموت على الكفر، فأولئك بطلت أعمالهم الصالحة فى الدنيا والآخرة، وأولئك، أهل النار هم فيها خالدون.

التفسير :

٢١٦ - كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ . . .

فرض على المسلمين الجهاد وهو مكروه لهم، وتلك الكراهة أمر جبلى لما فيه من القتل والأسر وإتعاب البدن، وتلف المال ومفارقة الأهل والوطن، والحيلولة بين المقاتل وَبَيْنَ طمأنينته ونومه وطعامه، فهو مهما يكن أمره فيه ويلات وشدائد ومشقات تتلوها مشقات.

والإسلام يحسب حساب الفطرة، فلا ينكر مشقة هذه الفريضة ولا يهون من أمرها، ولكنه يعالج الأمر من جانب آخر بأن يقرر أن من الفرائض ما هو شاق ولكن وراءه حكمة تهون مشقته، وتسهل صعوبته، وتحقق به خيرًا مخبوءًا قد لا يراه النظر الإنسانى القصير.

إن الإنسان لا يدرى أين يكون الخير؟ وأين يكون الشر؟ لقد خرج المسلمون يوم بدر يطلبون عير قريش وتجارتها، وأراد الله أن تقع معركة حاسمة تدوى فى الجزيرة العربية، وترفع راية الإسلام.

وكل إنسان فى تجاربه الخاصة يستطيع حين يتأمل، أن يجد فى حياته مكروهات كثيرة كان من ورائها الخير العميم، ولذَّات كثيرة كان من ورائها الشر العظيم.

وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ .

وعسى أن تكرهوا ما فى الجهاد من المشقة، وهو خير لكم فى أنكم تغلبون وتظفرون وتغنمون وتؤجرون، ومن مات منكم مات شهيدًا، وعسى أن تحبوا الدعة وترك القتال وهو شر لكم فى أنكم تُغْلَبون ويذهب أمركم.

قال الفخر الرازى : « معنى الآية : أنه ربما كان الشىء شاقًا عليكم فى الحال، وهو سبب للمنافع الجليلة فى المستقبل، ولأجله حسن شرب الدواء المرّ فى الحال لتوقع حصول الصحة فى المستقبل. وترك الجهاد، وإن كان يفيد - أى بحسب ظنكم - فى الحال صون النفس عن خطر القتل، وصون المال عن الإنفاق، ولكن فيه أنواع من المضار منها : أن العدو إذا علم ميلكم إلى الدعة والسكون قصد بلادكم وحاول قتلكم.. والحاصل أن القتال فى سبيل الله سبب لحصول الأمن من الأعداء فى الدنيا، وسبب لحصول الثواب العظيم للمجاهد فى الآخرة..»[158].

وأنشد أبو سعيد الضرير :

رب أمــــر تتــــقـــيــــه	جـــر أمـــرا ترتضـــيــــه
خـــفى المحـــبـــوب منـه	وبـدا المكـروه فـــــيـــــه

وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ.

أى والله يعلم ما هو خير لكم وما هو شر لكم فى الواقع وأنتم لا تعلمون ذلك. فبادروا إلى ما يأمركم ففيه الخير دائمًا.

والمقصود من هذه الجملة الحث على الجهاد، وامتثال أوامر الله سواء عرفت حكمتها أم لم تعرف، لأن العليم بالحكم والمصالح هو رب العالمين.

★ ★ ★

٢١٧ - يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ .

سبب النزول :

أخرج الطبرانى فى الكبير، والبيهقى فى سننه، وابن جرير وابن أبى حاتم، ومقاتل بن سليمان وغيرهم من المفسرين ومن أصحاب السير فى سبب نزول هذه الآية قصة ملخصها ما يأتى :

بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عبد الله بن جحش ومعه اثنا عشر رجلاً كلهم من المهاجرين وأعطاه كتابًا مختومًا، وأمره أن يتوجه قبل مكة، ولا يقرأ الكتاب حتى يسير ليلتين، ثم ينظر فيه فيمضى لما أمره به، ولا يستكره أحدًا من أصحابه، فسار عبد الله يومين ثم فتح الكتاب فإذا فيه : «إذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتى تنزل بنخلة - مكان بين مكة والطائف - فترصد بها عيرًا لقريش وتعلم لنا من أخبارهم».

فقال عبد الله : سمعًا وطاعة، وأخبر أصحابه بذلك، وأنه لا يستكرههم فمن أحب الشهادة فلينهض، ومن كره الموت فليرجع، فأما أنا فناهض، فنهضوا جميعًا وساروا نحو نخلة فمرت بهم عير لقريش فى طريقها نحو مكة فترددوا وهابوا الإقدام عليهم فى الشهر الحرام، ثم شجعوا أنفسهم عليهم، وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم فرمى واقد بن عبد الله ، عمرو بن الحضرمى بسهم فقتله، وأسروا اثنين من المشركين، وأخذوا عيرهم، وعادوا إلى المدينة، فلما قدموا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم قال لهم : والله ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام، فأوقف الرسول الأسيرين والعير، فلم يأخذ منها شيئاً، فلما قال لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما قال ، سقط ما فى أيديهم، وظنوا أن قد هلكوا، وعنفهم إخوانهم من المسلمين.

وقالت قريش حين بلغهم أمر هؤلاء - قد سفك محمد الدم الحرام، وأخذ المال وأسر الرجال، واستحل الشهر الحرام. فنزلت هذه الآية.

واختلف فى وقت حدوث ذلك، فبعض الروايات تقول : إن ذلك كان فى آخر يوم من جمادى الآخرة، وهو حلال ولم يكن المسلمون قد شاهدوا هلال رجب.

وبعضها تقول : إنه كان فى آخر يوم من رجب. ولعل ذلك أرجح فإن الآية تؤيده، إذ فيها أنهم سألوا عن حكم القتال فى الشهر الحرام.

كذلك قرر الجواب ذلك ولكنه عذرهم، إذ بين أنه وإن كان القتال فيه عظيم الوزر، ولكن وزر المشركين أكبر من المسلمين ؛ لأنهم صدوا المسلمين عن المسجد الحرام وفتنوهم، وأخرجوهم من ديارهم بغير حق.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ .

يسألونك يا محمد عن حكم القتال فى الشهر الحرام، قل لهم : القتال فيه أمر كبير مستنكر، وذنب عظيم مستقبح، لأن فيه اعتداء على الشهر الحرام المقدس، وانتهاكًا لمحارم الله.

والسائلون، قيل هم المؤمنون، وقد سألوا عن حكم ذلك على سبيل التعلم والتماس المخرج لما حصل منهم.

وقيل هم المشركون، وسؤالهم على سبيل التعيير للنبى - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه.

فالجواب تشريع إذا كان السؤال من المسلمين، وتبكيت وتوبيخ إن كان من المشركين.

والمراد بالشهر الحرام الأشهر الحرم جميعها وهى : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، وسميت بذلك لحرمة القتال فيها، فأل فى الشهر للجنس، وقيل للعهد؛ والمراد بالشهر الحرام شهر رجب الذى حدثت فيه قصة عبد الله بن جحش وأصحابه.

قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ : أى القتال فيه عظيم الوزر كبير الإثم.

وقد أثبت هذاالجواب حرمة القتال فى الشهر الحرام، وأن ما اعتقده أهل الشرك من استحلال الرسول فيه باطل.

أما ما وقع من عبد الله بن جحش وأصحابه، فقد كان اجتهادًا منهم، فقد رأوا أن قتال المشركين فيه حلال، لأنهم أخرجوهم من ديارهم، وصدوهم عن سبيل الله، وعن المسجد الحرام وعذبوهم وهم بمكة. ومن اجتهد وأخطأ فله أجر، فكيف بمن اجتهد وأصاب، حيث أقر الله اجتهاده وعذره؟.

وإعادة لفظ القتال، للاهتمام بأمر الحكم فيه. وتنكيره، للإيذان بأن أى قتال فيه مذموم وإن قل، وكان ذلك قبل نزول قوله تعالى : وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ . (البقرة : ١٩١) وقوله : وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ. (النساء : ٨٩) فالقتال فى الشهر الحرام نسخت حرمته بما ذكر.

وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ . . .

المعنى : وإذا كان القتال فى الشهر الحرام إثمًا كبيرًا، فإن الصد عن دين الله، والكفر به، والصد عن زيارة المسجد الحرام بمكة للعمرة وإخراج أهله المسلمين منه - مجردين من أموالهم - كل هذا - أكبر جريمة وأبشع إثمًا عند الله - سبحانه - من القتال فى الشهر الحرام.

وقد فعل المشركون هذا كله.

فقد قاوموا الدعوة الإسلامية، وعبدوا الأوثان، ومنعوا المسلمين من أداء شعائر العبادة بالمسجد الحرام، وعذّبوهم، وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم بمكة.

فأى إثم أكبر من هذا ؟

ثم عطف على الحكم الجزئى السابق، حكمًا كليًا : يتناول ما تقدم، كما يتناول ما يماثله مستقبلاً، فقال - تعالى :

وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ.

أى ما يفتن به المسلمون ويعذبون به، أكبر إثمًا عند الله من القتل. وقد بالغ المشركون فى إيقاع الأذى بالمسلمين، لصرفهم عن دينهم، فقد عذبوا ياسرًا والد عمار: كانوا يكوونه بالنار ليرتد عن الإسلام حتى مات فى العذاب، وعذب أبو جهل، سُمية أم عمار زوجة ياسر تعذيبًا شديدًا، ثم طعنها بين فخذيها بحربة طعنة قضت عليها.

وأوذى عمار بن ياسر فى الله ، حتى حملوه على كلمة الكفر فقالها تقية، وغفرها الله له.

وكان أُمية بن خلف يعذب بلالاً، فيجيعه ويعطشه ويطرحه فى الرمضاء ويضع على صدره الصخر، ويكويه بالنار، ليرتد عن الإسلام.

وغيرهم كثير، ولم يسلم النبى - صلى الله عليه وسلم - من إيذاء قومه، وأخيرًا تآمروا على قتله للقضاء على رسالته السماوية، فنجاه الله بالهجرة إلى المدينة.

ومن هنا، كانت الفتنة أكبر من القتل، لأنها قتل بطئ: مصحوب بالتعذيب والتنكيل.

وقيل المراد بالفتنة الشرك والكفر.

وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا.

أى هم لم يكتفوا بالصد عن سبيل الله والكفر به ولم يقتنعوا بتعذيبكم، وإخراجكم من دياركم، بل لايزالون يفتنونكم، بشن الحروب عليكم لإبادتكم، أو صرفكم عن دينكم القويم إن استطاعوا، وسيظل شأنهم مع المسلمين مستقبلاً كذلك.

ولاشك أن مقابلة العدوان بمثله أمر مشروع.

والتعبير بحرف الشرط (إن) لاستبعاد استطاعتهم صرفهم عن دينهم.

ثم حذرهم فقال :

وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ .

أى من يستجب منكم لأولئك المشركين، فيرجع عن دينه إلى دينهم، فيمت وهو كافر: بطل كل عمل صالح قدّمه، وخسر الدنيا والآخرة.

وفى هذا، إنذار شديد، لمن تحدثه نفسه - من ضعفاء الإيمان - بالارتداد.

وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ.

أى وأولئك المرتدون عن دينهم أهل النار، هم فيها خالدون إذا ماتوا وهم كافرون، ولا يغنى عنهم إيمانهم السابق على الردة.

أما من ارتد عن دينه، ولم يمت وهو كافر، بل تاب عن ردته وكفره، فالله يقبل توبته بفضله.

واستدل الإمام الشافعى بالآية: على أن الردة لا تحبط الأعمال، حتى يموت صاحبها عليها.

★ ★ ★

ثواب الجهـــاد

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢١٨﴾

المفردات :

الهجرة : الانتقال من موضع إلى موضع، وقصد ترك الأول إيثارًا للثانى والهجر ضد الوصل، والاسم الهجرة.

جاهدوا : جاهد مفاعلة من جهد إذا استخرج الجهد، والاجتهاد والتجاهد: بذل الوسع والمجهود. والجهاد بالفتح : الأرض الصلبة.

المعنى الإجمالى :

إن الذين آمنوا إيمانًا صادقًا دفعهم إلى الهجرة لنصرة الدين والجهاد لإعلان كلمته فأولئك ينتظرون عظيم ثواب الله لهم، وإن قصروا فى شىء، لأن الله غفور يغفر الذنوب، رحيم يرحم عباده بالهداية والثواب.

التفسير :

٢١٨ - إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ.

إن الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، واستقاموا على طريق الحق، وأذعنوا لحكمه واستجابوا لأوامر الله ونواهيه.

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا :أى تركوا أموالهم وأوطانهم من أجل نصرة دينهم : وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ . لإعلاء كلمته أُولَٰئِكَ. الموصوفون بتلك الصفات الثلاث : يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ . أى يؤملون تعلق رحمته - تعالى - بهم أو ثوابه على أعمالهم : وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . أى واسع المغفرة للتائبين المستغفرين عظيم الرحمة بالمؤمنين المحسنين.

قال القرطبى :

إنما قال يرجون رحمة الله، وقد مدحهم، لأنه لا يعلم أحد فى هذه الدنيا أنه صائر إلى الجنة ولو بلغ فى طاعة الله كل مبلغ لأمرين :

احدهما : أنه لا يدرى بم يختم له ؟.

والثانى : لئلا يتكل على عمله.

سبب النزول :

جاء فى تفسير مقاتل بن سليمان وغيره من المفسرين أن الآية السابقة لما نزلت : اطمأن عبد الله بن جحش ومن معه إلى أنهم لم يرتكبوا إثماً فى قتال المشركين فى الشهر الحرام. ثم قال عبد الله بن جحش ومن معه : يا رسول الله، أنطمع أن يكون لنا غزوة نعطى فيها أجر المجاهدين. فأنزل الله هذه الآية: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . : الذين آمنوا، وهاجروا إلى المدينة، وجاهدوا المشركين فى سبيل الله ، أولئك يرجون رحمة الله يعنى جنة الله.

فكانت هذه أول سرية، وأول غنيمة، وأول خمس، وأول قتيل وأول أسر كان فى الإسلام (١٥٩).

★ ★ ★

الخمر والميسر

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩) فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠) ﴾

المفردات :

الخمر : ما أسكر من عصير العنب، ثم أصبح اسما لكل ما أسكر، وسميت خمرا لأنها تستر العقل وتغطيه، من خمر الشىء إذا ستره غطاه.

الميسر : القمار من اليسر وهو السهولة، لأنه كسب بلا مشقة ولا كد.

الإثم : الذنب أو الشر أو الضرر.

العفو : الفضل والزيادة على الحاجة.

العنت : المشقة وما يصعب احتماله. يقال عنت العظم عنتاً إذا أصابه وهن أو كسر بعد جبر.

تمهيد :

جاء الإسلام رحمة مهداة، ورسالة عامة للناس أجمعين.

وحين قرر الإسلام ما يتصل بجانب العقيدة فإنه كان حازمًا من أول لحظة فأعلن الوحدانية الخالصة لله، وقال سبحانه : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (سورة الإخلاص).

وإذا عالج الإسلام أوضاعًا اجتماعية تدخل فى عادات الناس وما تعودوا عليه فإنه يلجأ إلى الحكمة، والتدرج فى التشريع، ومن ذلك تحريم الخمر، فقد جاء الإسلام والخمر منتشرة بين العرب، يشربونها عند الحرب لتمنحهم الشجاعة، ويشربونها فى السلم لأنها تولد خيالات سارة، وتوهم الفقير بأنه غنى، وتوهم الصعلوك بأنه أحد الملوك، على حد قول القائل:

فإذا سكرت فإننى رب الخورنق والسدير

وإذا صحوت فإننى رب الشويهة والبعير

وللخمر مع ذلك آثار ضارة، منها آثار صحية وآثار اجتماعية، فهى تضر بالصحة وتذهب المال وتغتال العقل، وتجعل المخمور آلة للسخرية بين الناس.

وقد أحس كثير من العقلاء بضررها وامتنعوا عن تناولها زهدا في آثارها السيئة .

ولتمكن الخمر نفوس العرب، لم يحرمها الله مرة واحدة، بل حرمها بالتدريج.

فذكر أن لها منافع ومضارًا، ولكن ضررها أكثر من نفعها، وكان هذا لتحريك العقول نحو تركها، فما كثر ضرره وجب تركه. ثم حرم الله الخمر عند الصلاة، وبذلك ضيق أوقات السكر وحددها، ثم حرم الله الخمر تحريمًا قاطعًا، وأمر باجتنابها، وأكد النبى - صلى الله عليه وسلم - تحريمها، فأعلن ذلك بين المسلمين، فأراقوا الخمر فى شوارع المدينة، امتثالاً لأمر الله، وهذا العمل يعبر عن صدق المؤمنين وامتثالهم لأمر الله واتباعهم لمرضاته.

روى الإمام أحمد عن عمر، أنه قال : « لما نزل تحريم الخمر قال عمر : اللهم بيِّن لنا فى الخمر بيانًا شافيًا، فنزلت هذه الآية التى فى البقرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ . فدعى عمر فقرئت عليه فقال : اللهم بين لنا فى الخمر بيانًا شافيًا (١٦٠) ، فنزلت الآية التى فى النساء : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ﴾ . (النساء : ٤٣)

فكان منادى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا أقام الصلاة نادى : أن لا يقربن الصلاة سكران. فدعى عمر فقرئت عليه، فقال : اللهم بين لنا فى الخمر بيانًا شافيًا، فنزلت الآية التى فى المائدة : ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ

وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۞ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ (المائدة : ٩٠ - ٩١).

فقال عمر : انتهينا انتهينا، إنها تذهب المال وتذهب العقل (١٦١).

التفسير :

٢١٩ - يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ...

أى يسألونك عن حكم تناول الخمر ، أحلال أم حرام، ومثل هذا بيعها وشراؤها ونحو ذلك مما يدخل فى التصرفات التى تخالف الشرع وعن حكم استعمال الميسر وفعله.

قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ...

أى قل لهم : إن فى تعاطى الخمر والميسر إثمًا لأن فيهما أضرارًا كثيرة ومفاسد عظيمة، وفيهما منافع للناس، وضررهما أكبر من نفعهما.

أما ضرر الخمر - من أى نوع اتخذت - فقد أثبته الطب بما لا يدع مجالاً للشك فيه، فإن شرب الخمر يؤدى إلى التهاب الكبد وضعف المعدة، وضعف مقاومة الجسم للأمراض، وقد ثبت من بحوث عديدة بالمستشفيات العامة أن نسبة الوفيات - بين المدمنين ترتفع إلى خمسين فى المائة، على حين لا تتجاوز نسبتها فى غير المدمنين أربعًا وعشرين فى المائة (١٦٢).

وتأثيرها فى العقول ملموس ، فقد تمت تجارب عديدة ثبت منها أن الغول (الكحول) المتولد فى الخمر سبب مباشر لخمس الإصابات فى مستشفى الأمراض العقلية (١٦٣).

معانى الخمر :

١ - الخمر مأخوذة من خمر إذا ستر، ومنه خمار المرأة ، وكل شىء غطى شيئًا فقد خمره، ومنه « خمروا آنيتكم»، فالخمر تخمر العقل أى تغطيه وتستره.

٢ - سميت الخمر خمرًا لأنها تركت حتى أدركت كما يقال : قد اختمر العجين أى بلغ إدراكه، وخمر الرأى أى ترك حتى يتبين فيه الوجه.

٣ - سميت الخمر خمرًا لأنها تخالط العقل من المخامرة وهى المخالطة، ومنه قولهم دخلت فى خمار الناس أى اختلطت بهم.

والمعانى الثلاثة متقاربة، فالخمر تركت وخمرت حتى أدركت، ثم خالطت العقل، ثم خمرته، والأصل الستر (١٦٤).

الخمر والنبيذ :

أجمع جمهور العلماء على أن كلمة خمر تشمل كل شرب مسكر، سواء كان من عصير العنب أم من الشعير أم من التمر أم من غير ذلك، وكلها سواء فى التحريم. قل المشروب منها أم كثر، سكر شاربه أو لم يسكر، ومن أدلتهم ما رواه الإمام مسلم عن ابن عمر أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « كل مسكر خمر، وكل مسكر حرام، ومن شرب الخمر فى الدنيا ومات وهو يدمنها لم يتب منها، لم يشربها فى الآخرة » (١٦٥).

ومن أدلتهم أيضًا أصل الاشتقاق اللغوى لكلمة خمر، فقد عرفنا أنها سميت بهذا الاسم لمخامرتها العقل وستره، فكل ما خامر العقل من الأشربة وجب أن يطلق عليه لفظ خمر سواء أكان من العنب أم من غيره.

وقال أبو حنيفة والثورى وابن أبى ليلى وابن شبرمة وجماعة من فقهاء الكوفة: « إن كلمة خمر لا تطلق إلا على الشراب المسكر من عصير العنب فقط، أما المسكر من غيره كالشراب المتخذ من التمر أو الشعير فلا يسمى خمرًا بل يسمى نبيذًا ، وقد بنوا على هذا أن المحرم قليله وكثيره إنما هو الخمر من العنب.

أما الأنبذة فكثيرها حرام وقليلها حلال، وإذا سكر منها أحد دون أن يتعمد الوصول إلى حد السكر فلا حد عليه.

ورأى الحنفية ومن وافقهم رأى ضعيف يرده النظر والخبر » (١٦٦).

قال ابن العربى : وتعلق أبو حنيفة بأحاديث ليس لها خطم ولا أزمة فلا يلتفت إليها، والصحيح ما روى الأئمة أن أنسًا قال : حرمت الخمر يوم حرمت وما بالمدينة خمر الأعناب إلا قليل، وعامة خمرها البسر والتمر. أخرجه البخارى؛ واتفق الأئمة على رواية « أن الصحابة إذ حرمت الخمر لم يكن عندهم يومئذ خمر عنب، وإنما كانوا يشربون خمر النبيذ فكسروا دنانهم - أى أوانى الخمر - وبادروا إلى الامتثال لاعتقادهم أن ذلك كله خمر» أى وأقرهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على ذلك (١٦٧).

وقال الألوسى : « وعندى أن الحق الذى لا ينبغى العدول عنه أن الشراب المتخذ مما عدا العنب، كيف كان وبأى اسم سمى، متى كان بحيث يسكر من لم يتعوده حرام، وقليله ككثيره: ويحد شاربه ويقع طلاقه ونجاسته غليظة. وفى الصحيحين أنه - صلى الله عليه وسلم - سئل عن النقيع - وهو نبيذ العسل - فقال : «كل شراب أسكر فهو حرام » (١٦٨). وروى أبو داود « نهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن كل مسكر ومفتر » وصح « ما أسكر كثيره فقليله حرام ». والأحاديث متضافرة على ذلك : ولعمرى إن اجتماع الفسق فى زماننا على شرب المسكرات مما عدا « الخمر » ورغبتهم فيها، فوق اجتماعهم على شرب « الخمر » ورغبتهم فيه بكثير، وقد وضعوا لها أسماء - كالعنبرية والإكسير- ونحوهما ظنا منهم أن هذه الأسماء تخرجها من الحرمة، وتبيح شربها للأمة - وهيهات هيهات - فالأمر وراء ما يظنون ، وإنا لله وإنا إليه راجعون » (١٦٩).

دعوى باطلة :

ادعى بعض المعاصرين أن القرآن لم ينص صراحة على تحريم الخمر، بل قال « فاجتنبوه ». وهو فى نظرهم حث على الاجتناب وليس أمرًا قاطعًا يدل على تحريم الخمر.

ونقول لهؤلاء : إن الله – عز وجل – حرم الخمر تحريمًا قاطعًا .

فذكر القرآن أنها رجس من عمل الشيطان ، وأمر باجتنابها ، ونهانا عن الاقتراب منها باستفهام تقريعى يدل على غاية التهديد فقال سبحانه : فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ؟.

وعندما سمع الصحابة الآيتين ٩٠ ، ٩١ من سورة المائدة قالوا : انتهينا ، وأريقت الخمر فى شوارع المدينة.

وقد جاءت الأحاديث الصحيحة عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بروايات متعددة وأسانيد مختلفة تثبت حرمة الخمر وضررها .

قال – صلى الله عليه وسلم – : « لعن الله الخمر وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه » (١٧٠).

« والأحاديث فى تحريم الخمر أكثر من أن تحصى حتى قال العلماء : ثبت عن النبى – صلى الله عليه وسلم – تحريم الخمر بأخبار تبلغ بمجموعها رتبة التواتر، وأجمعت الأمة من لدن الرسول – صلى الله عليه وسلم – إلى يومنا هذا على تحريمها ؛ وبذلك استقرت الحرمة حكمًا للخمر فى الإسلام وصارت حرمتها من المعلوم من الدين بالضرورة ، ومن لوازم ذلك أن من استحلها وأنكر حرمتها، يكون خارجًا عن الإسلام، وأن من يتناولها طائعًا مختارًا يكون فاسقًا عن أمر الله خارجًا على حدوده عاصيا لأحكامه (١٧١).

حكم الخمر :

من أحكام الإسلام فى الخمر ما يأتى :

حرمة تناولها، حرمة الانتفاع بذاتها، حرمة إهدائها، حرمة بيعها والانتفاع بمثلها، إهدار قيمتها، وجوب العقوبة عليها، إثبات مضارها الصحية والعقلية والمالية والنفسية.

الخمر أم الخبائث :

الخمر مفتاح كل شر، فالإنسان إذا سكر هذى، إذا هذى افترى وتجرأ على المنكر القبيح « ثم إن الشارب يصير ضحكة للعقلاء فيلعب ببوله وعذرته، وربما يمسح بهما وجهه، حتى رؤى بعضهم يمسح وجهه ببوله ويقول اللهم اجعلنى من التوابين واجعلنى من المتطهرين » (١٧٢).

بل إن الخمر دليل إلى الزنا، ومن القولة المشهورة لأحد الفضلاء أيشرب هذا نساؤكم؟ قالوا : نعم . قال : زنين وَرب الكعبة.

« و الخمر والميسر يجران إلى الإثم والمخاصمة والمشاتمة وقول الفحش والزور وتعطيل الصلوات والتعوّق عن ذكر الله ».

« روى النسائى عن عثمان – رضى الله عنه – قال : اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث؛ إنه كان رجل ممن كان قبلكم تعبد فعلقته امرأة غوية، فأرسلت إليه جاريتها ، فقالت له: إنا ندعوك للشهادة. فانطلق مع جاريتها،

فطفقت كلما دخل بابا أغلقته دونه؛ حتى أفضى إلى امرأة وضيئة عندها غلام وباطية خمر، فقالت . إنى والله ما دعوتك للشهادة، ولكن دعوتك لتقع علىَّ، أو تشرب من هذه الخمر كأسًا، أو تقتل هذا الغلام، قال : فاسقينى من هذه الخمر كأسًا، فسقته، قال : زيدونى ، فلم يبرح حتى وقع عليها، وقتل النفس. فاجتنبوا الخمر، فإنه والله لا يجتمع الإيمان وإدمان الخمر إلا ليوشك أن يخرج أحدهما صاحبه (١٧٣).

« وروى أن الأعشى لما توجه إلى المدينة ليسلم لقيه بعض المشركين فى الطريق فقالوا له : أين تذهب ؟ فأخبرهم بأنه يريد محمدا - صلى الله عليه وسلم - فقالوا : لا تصل إليه فإنه يأمرك بالصلاة، فقال : إن خدمة الرب واجبة؛ فقالوا : إنه يأمرك بإعطاء المال إلى الفقراء، فقال : اصطناع المعروف واجب، فقيل له: إنه ينهى عن الزنى، فقال : هو فحش وقبح فى العقل، وقد صرت شيخا فلا أحتاج إليه، فقيل له : إنه ينهى عن شرب الخمر. فقال : أما هذا فإنى لا أصبر عليه. فرجع، وقال : أشرب الخمر سنة ثم أرجع إليه، فلم يصل إلى منزله حتى سقط عن البعير فانكسرت عنقه فمات (١٧٤).

« وكان قيس بن عاصم المنقرى شرابًا لها فى الجاهلية ثم حرمها على نفسه وكان سبب ذلك أنه غمز عكنة (١٧٥) ابنته وهو سكران، وسب أبويه، ورأى القمر فتكلم بشىء، وأعطى الخمار كثيرًا من ماله فلما أفاق أخبر بذلك فحرمها على نفسه، وفيها يقول :

رأيت الخمر صالحة وفيها ... خصال تفسد الرجل الحليما
فلا والله أشربها صحيحا ... ولا أشفى بها أبدا سقيما
ولا أعطى بها ثمنًا حياتى ... ولا أدعو لها أبدا نديما
فإن الخمر تفضح شاربيها ... وتجنبهم بها الأمر العظيما

★ ★ ★

ويقول أبوالطيب المتنبى :

وغير فؤادى للغوانى رمية ... وغير بنانى للزجاج ركاب
وللسر منى موضع لا يناله ... صديق و لا يطغى إليه شراب
وللخود منى ساعة ثم بيننا ... فلاة إلى غير اللقاء تجاب
وما العشق إلا عزة وطماعة ... يعرض قلب نفسه فيصاب
تركنا لأطراف القنا كل شهوة ... فليس لنا إلا بهن لعاب

الميسر :

الميسر هو القمار بكسر القاف وهو فى الأصل مصدر ميمى من يَسَر كالموعد من عد، وهو مشتق من اليسر بمعنى السهولة، لأن المال يجئ للكاسب من غير جهد، أو هو مشتق من يسر بمعنى جزأ ثم أصبح علماً على ما يتقامر عليه كالجزور ونحوه.

وقال القرطبى : « الميسر قمار العرب بالأزلام. قال ابن عباس : كان الرجل فى الجاهلية يخاطر الرجل على أهله وماله فأيهما قمر صاحبه ذهب بماله وأهله فنزلت الآية » (١٧٦).

وصفة الميسر الذى كانت تستعمله العرب، أنه كانت لهم عشرة أقداح تسمى الأزلام والأقلام أيضًا (واحدها قِدْح وزلم وقلم وهى قطع من الخشب) وأسماؤها الفذ والتؤم والرقيب والجلس والنافس والمسبل والمعلّى والمنيح والسفح والرغد، لكل واحد من السبعة الأولى نصيب معلوم من جزور ينحرونها ويجزئونها إما عشرة أجزاء أو ثمانية وعشرين جزءا ولا شىء للثلاثة الأخيرة.

فكانوا يعطون للفذ سهما، وللتؤم سهمين، وللرقيب ثلاثة، وللجلس أربعة، وللنافس خمسة، وللمسبل ستة، وللمعلى سبعة، ومن ثم يضرب به المثل فيقال لذى الحظ الكبير من كل شىء (هو صاحب القدح المعلّى).

ومجموع هذه الأنصباء ٢٨ سهمًا كالآتى :

١+٢+٣+٤+٥+٦+٧ = ٢٨.

وكانوا يجعلون هذه الأزلام فى الرعاية وهى الخريطة توضع على يد عدل يجلجلها، ويدخل يده فيها ويخرج منها واحدا باسم رجل ثم واحدًا باسم رجل آخر وهكذا، فمن خرج له قدح من ذوات الأنصباء أخذ النصيب الموسوم به ذلك القدح، ومن خرج له قدح لا نصيب له لم يأخذ شيئاً وغرم ثمن الجزور كله، وكانوا يدفعون تلك الأنصباء إلى الفقراء ولا يأكلون منها شيئاً، ويذمون من لم يدخل فيه ويسمونه البَرم (الوغد: اللئيم عديم المروءة).

واتفق العلماء على أن كل ذلك حرام كالقمار على النرد والشطرنج وغيرهما إلا ما أباح الشرع من الرهان فى السباق والرماية ترغيبًا فيهما للاستعداد للجهاد.

مضار الميسر :

« ومن مضرات الميسر إفساد التربية بتعويد النفس على الكسل وانتظار الرزق من الطرق الوهمية، وإضعاف القوى العقلية بترك الأعمال المفيدة فى طرق الكسب الطبيعية، وإهمال المقامرين للزراعة والصناعة والتجارة التى هى أركان العمران، ومن أشهر مضرات القمار تخريب البيوت فجأة بالانتقال من الغنى إلى الفقر فى ساعة واحدة، فكم من عشيرة كبيرة نشأت فى الغنى والعز وانحصرت ثروتها فى رجل أضاعها عليها فى ليلة واحدة، فأصبحت غنية وأمست فقيرة لا قدرة لها على أن تعيش على ما تعودت عليه من السعة. ويشترك الميسر مع الخمر فى أن متعاطيهما قلما يقدر على تركهما والسلامة من أثرهما، فللخمر تأثير فى الأعصاب يدعو صاحبه إلى العودة إليها، وأما الميسر فإن صاحبه كلما ربح طمع فى المزيد، وكلما خسر طمع فى تعويض الخسارة، ويضعف الإدراك حتى تعز مقاومة هذا الطمع الوهمى وهذا شر فى هاتين الجريمتين » [(١٧٧)].

إن من رحمة الله بهذه الأمة وإكرامه لها، أنه لم يترك شيئا من أسباب الاضمحلال والفساد إلا حذرها منه، وبين لها مضرته وسوء عاقبته، كما أنه - سبحانه - تدرج فى التشريع الإلهى وسلك سبيل اليسر والهداية إلى النفوس، رحمة منه بعباده، وتخفيفا عنهم ، قال تعالى :

يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا * يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا . (النساء: ٢٦-٢٨).

ويسألونك ماذا ينفقون قُل العفوَ .

المعنى ويسألونك ما الذى يتصدقون به من أموالهم فى وجوه البر، فقل لهم تصدقوا بما زاد عن حاجتكم، وسهل عليكم إخراجه، ولا يشق عليكم بذله.

المراد العفو، ما يفضل عن الأهل ويزيد عن الحاجة، إذ هذا القدر هو الذى يتيسر إخراجه، ويسهل بذله ولا يتضرر صاحبه بالتبرع به.

وهذا الجزء من الآية مرتبط بما قبله ارتباطًا وثيقًا، فهو فى الإنفاق فيما يحل، وما قبله فى الإنفاق فيما يحرم، وهو معطوف على : يَسألونكَ عَن الْخَمْرِ . عطف القصة على القصة.

وفى نصوص الدين ما يحث على التعاون والتراحم ، وما يوجه إلى المنهاج الوسط فى الإسلام، فليس من الخير أن ينفق الإنسان ماله كله ثم يبقى عالة يسأل الناس، وليس من الحكمة أن يمسك الإنسان ماله ويبخل به على كل خير أو بر. ومن سماحة الإسلام أنه حث على الصدقة ورغب فى أن تكون من فائض مال الإنسان وفيما زاد عن حاجته وحاجة عياله وفيما استغنى عنه حتى تخرج الصدقة من يده سهلة سمحة، لا تتطلع نفسه إليها ولا تطمع فيها.

أخرج الشيخان وغيرهما، عن أبى هريرة عن النبى – صلى الله عليه وسلم – قال : « خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى : وابدأ بمن تعول » (١٧٨).

وفى صحيح مسلم عن جابر « أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال لرجل : ابدأ بنفسك فتصدق عليها، فإن فضل شىء فلأهلك، فإن فضل شىء عن أهلك فلذى قرابتك، فإن فضل عن ذى قرابتك شىء فهكذا وهكذا » (١٧٩).

★ ★ ★

ويقول الإمام محمد عبده « إن الأمة المؤلفة من مليون فرد إذا كانت تبذل من فضل مالها فى مصالحها الهامة كإعداد القوة وتربية الناشئة.. تكون أعز وأقوى من أمة مؤلفة من مائة مليون فرد لا يبذلون شيئًا فى مثل ذلك، لأن الواحد من الأمة الأولى يعد بأمة إذ هو يعتبر نفسه جزءًا منها وهى كل له، بينما الأمة الثانية لا تعد بواحد لأن كل فرد من أفرادها يخذل الآخر.. وفى الحقيقة، إن مثل هذا الجمع لا يسمى أمة، لأن كل واحد من أفراده يعيش وحده وإن كان فى جانبه أهل الأرض، فهو لا يتصل بمن معه ليمدهم ويستمد منهم .. » (١٨٠).

ثم ختم سبحانه الآية بقوله .

كذَلك يُبَيّنُ اللهُ لكُمُ الآيَات لعَلّكُمْ تَتَفكّرُونَ .

٢٢٠ – في الدّنيا والآخرة . . .

أى مثل هذا البيان الواضح فى الخمر والميسر والإنفاق: يبين الله لكم آيات الأحكام وغيرها، لكى تتفكروا وتتدبروا فى شئون الدنيا والآخرة، فتأخذوا بما هو أصلح لكم من شئونهما وتجتمع لكم مصالح الروح والجسد

وتكونوا أمة وسطا، لا كمن ظنوا أن الآخرة لا تنال إلا بترك الدنيا وإهمال منافعها فخسروها وخسروا الآخرة، إذ الدنيا مزرعة الآخرة، ولا كالذين انصرفوا إلى اللذات، ففسدت أخلاقهم ، وأظلمت أرواحهم، وصاروا كالبهائم وخسروا الآخرة والدنيا.

وهذه الآية وما ماثلها ترشد إلى أن الإسلام هادٍ إلى سعة دائرة الفكر واستعمال العقل فى مصالح الدارين معًا.

وقد حفل القرآن الكريم باستثارة العقل واللب، ودعوة الفكر إلى التدبر والتأمل والنظر والاعتبار، لأن الإسلام دين العقل والفطرة، ودين التأمل والنظر.

قال تعالى : إن في خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَاب. (آل عمران : ١٩٠).

★ ★ ★

وَيَسْأَلُونكَ عن اليَتَامَىٰ قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ . . .

اليتيم اسم يطلق على من فقد والده صغيرًا ويظل الاسم يطلق عليه بعد بلوغه، وكان - صلى الله عليه وسلم - يسمى يتيم أبى طالب. واليتامى جمع يتيم ذكرًا كان أم أنثى، أما الأيتام فجمع للذكران فقط.

وقد عنى الإسلام بأمر اليتامى وأمر برعايتهم والعطف عليهم ومسح رءوسهم تعطفًا وتحننًا، وحذر من أكل أموال اليتامى ظلما، وتوعد من يفعل ذلك بالنار والسعير، وقد ادعى بعض الأجانب أن القرآن لم يهتم بالصغير وهى دعوى باطلة. فقد عنى القرآن بالصغير وحسن تربيته وحثه على مكارم الأخلاق ، وتعويده على الصلاة وحسن الخلق. وكان - صلى الله عليه وسلم - المثل الأعلى والقدوة الحسنة للتربية المثالية.

كما عنى القرآن المكى والمدنى بأمر اليتيم، فيقول - سبحانه - : فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ . (الضحى : ٩).

وتحدثت الآيات ٢، ٩، ١٠ من سورة النساء عن اليتامى ، وأمرت بالإحسان إليهم والمحافظة على أموالهم، وتدريبهم على بعض الأعمال حتى ينشأ اليتيم عارفاً بشئون الحياة، وعندما توعد القرآن آكل مال اليتيم بالنار والسعير تحرج المسلمون من مخالطتهم، فكان الأوصياء لا يخالطون اليتامى، وعزلوا طعامهم وأموالهم، فأصابهم من ذلك حرج شديد ثم أذن الله للأوصياء بمخالطة اليتامى إذا كان القصد حسناً والرغبة فى الإحسان إلى اليتيم متوافرة.

★ ★ ★

ونقل ابن كثير عند تفسير الآية ما يأتى : « روى ابن جرير عن ابن عباس قال : لما نزلت: وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ (الإسراء : ٣٤) و. إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا . (النساء : ١٠).

انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه، وشرابه من شرابه فجعل يفضل له الشىء من طعامه، فيحبس له حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأنزل الله : ويسألونك عن اليتامىٰ قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ . فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم. وهكذا رواه أبو داود والنسائى وابن أبى حاتم وابن مردويه والحاكم (١٨١). وهكذا ذكر غير واحد فى سبب نزول هذه الآية، كمجاهد وعطاء والشعبى وقتادة.

فقوله : قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ . أى على حدة : وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ. أى وإن خلطتم طعامكم بطعامهم وشرابكم بشرابهم فلا بأس عليكم، لأنهم إخوانكم فى الدين، ولهذا قال : وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ. أى يعلم من قصده ونيته الإفساد أو الإصلاح ، وقوله :وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ . أى ولو شاء الله لضيّق عليكم وأحرجكم، ولكنه وسّع عليكم وخفّف عنكم وأباح لكم مخالطتهم بالتى أحسن. قال تعالى : وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ. (النساء : ٣٤) بل جوز الأكل منه للفقير بالمعروف إما بشرط ضمان البدل لمن أيسر أو مجانًا(١٨٢).

وقد راعى الإسلام المصلحة العامة، فأباح مخالطة الوصى لليتيم، إذا كان الوصى صادق النية فى مواساته وتعويضه عن أبيه ورعاية ماله وتثميره.

كما أباح - سبحانه - للوصى أن يأكل من مال اليتيم بالمعروف، أى بمقدار ما يبذل له من خدمات، أو بمقدار ما يؤجر به نفسه إذا كان محاسبًا أو راعيًا فيأخذ بمقدار تعبه من مال اليتيم، فإن كان الوصى غنياً أمسك يده وابتعد عن مال اليتيم .

قال تعالى : وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا . (النساء : ٦).

« ومدلول هذه الآية أنه يجب على وصى اليتيم أن يختبره بالتدريب العملى بعد النظرى، فيطلب منه أن يمسك حساب البيت أو يشترى لوازم الأسرة، فإذا بلغ الحلم وآنست فيه الرشد وحسن التصرف سلمت إليه ماله، وقد نهى القرآن عن تبديد مال اليتيم والإنفاق منه بالإسراف والتبذير قبل أن يكبر اليتيم ويسترد ماله».

والوصى على اليتيم له أن يأخذ من مال اليتيم بمقدار ما يبذل له من رعاية وتثمير فإن كان الوصى غنيًّا فلا يأخذ شيئًا من مال اليتيم، وإن كان فقيرًا أخذ ما يكفيه بالمعروف إذا كان الوصى يقوم برعاية المال كأن يكون محاسبًا أو وكيلاً أو راعيًا أو ناظرًا للزراعة فبمقدار ما يؤجر به نفسه يأخذ من مال اليتيم (١٨٣).

وفى ختام آية اليتامى يقول سبحانه :

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَعْنَتَكُمْ.

أى لضيق عليكم بأن لم يجوز لكم مخالطتهم لترعوا مصالحهم دون مخالطة.

إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.

إن الله غالب على كل شىء لا يعجزه أمر أراده، حكيم فى تشريع ما تقتضيه الحكمة وتتسع له الطاقة البشرية التى هى أساس التكليف.

قال تعالى : لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا . (البقرة : ٢٨٦).

★ ★ ★

نظـــام الأســرة

تمهيد :

تتحدث الآيات : ٢٢١ - ٢٤٢ من سورة البقرة عن بعض أحكام آداب الزواج، والإيلاء والطلاق والعدة والنفقة والرضاعة والخطبة والمتعة، وغير ذلك مما يتعلق بصيانة الأسرة وتقويتها وبنائها على أفضل الدعائم وأحكم الروابط.

لقد حث الإسلام على الزواج باعتباره الوسيلة السليمة لإشباع الحاجة البيولوجية والرغبة الإنسانية فى الاجتماع والتكامل.

واعتبر الزواج آية من آيات الله، فيه المودة والرحمة والسكن والألفة، وأمر الرجل بحسن اختيار الزوجة، وبأن يكون الدين أساس هذا الاختيار، كما أمر ولى أمر الزوجة أن يختار لها التقى صاحب الخلق والأمانة.

وحث الزوجين على حسن العشرة والوفاء والاحتمال والصبر، وعدم التسرع فى الطلاق فلعل البغيض يصير حبيبًا.

قـــال تعالى : وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا. (النساء : ١٩).

وحذر الإسلام من الطلاق واعتبره أبغض الحلال، لما يترتب عليه من تصدع الأسرة وضياع النشء، ورغم ذلك لم يوصد باب الطلاق تمامًا، بل فتحه للحالات العسيرة التى لا أمل فى استمرار الزواج بينها، فالضرورات تبيح المحظورات ولكنها تقدَّر بقدرها.

وعند طلاق المرأة أوجب لها المتعة والنفقة والمكارمة والعفو والصفح استدامة للمودة بين الناس، وإبقاء على آصرة الخير والمعروف فى حالتى الزواج والطلاق. وذلك أسمى ما تتصف به البشرية، وأسمى ما يهتدى إليه الشعور الإنسانى، يهدينا إليه السميع البصير ؛ فإنه عليم بخلقه حكيم فى كل ما يصدر عنه من أوامر وأحكام.

★ ★ ★

تحريم الزواج من المشركات

﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۖ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١)﴾

المفردات :

تنكحوا المشركات : تتزوجوهن.

تنكحوا المشركين : تزوجوهم.

المشركين : المراد بهم هنا الكافرون مطلقا.

المشركات : المراد بهن الوثنيات ومن لا دين لهن.

ولأمة : الأمة، المرأة المملوكة.

سبب النزول :

ما روى الواحدى [١٨٤] والسيوطى ، والقرطبى نقلاً عن مقاتل بن سليمان أن هذه الآية نزلت فى أبى مرثد الغنوى واسمه أيمن وفى عناق القرشية، وذلك أن أبا مرثد كان رجلاً صالحًا وكان المشركون قد أسروا أناسًا بمكة، وكان أبو مرثد ينطلق إلى مكة مستخفيًا فإذا كان الليل أخذ الطريق، وإذا كان النهار تعسف الجبال لئلا يراه أحد حتى يقدم مكة فيرصد المسلمين ليلاً فإذا أخرجهم المشركون للبراز تركوهم عند البراز والغائط، فينطلق أبو مرثد فيحمل الرجل منهم على عنقه حتى إذا أخرجه من مكة كسر قيده بفهر ويلحقه بالمدينة، كان ذلك دأبه فانطلق يومًا حتى انتهى إلى مكة فلقيته عناق، وكان يصيب منها فى الجاهلية، فقالت: أبا مرثد مالك فى حاجة ؟ فقال لها : إن الإسلام قد حرم الزنا، فلما أيست منه أنذرت به كفار مكة فضربوه ضربًا موجعًا ثم خلوا سبيله، فلما قضى حاجته بمكة انصرف إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – راجعًا وأعلمه الذى كان من أمره وأمر عناق وما لقى بسببها، ثم قال : يا رسول الله ، أفتأذن لى فى تزوجها فإنها لتعجبنى فنزلت الآية.

التفسيــر :

٢٢١ – وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ. . . .

أى لا تتزوجوا المشركات حتى يؤمن فنكاحهن وهن مشركات حرام لا ينعقد، ويعتبر وطؤهن زنا.

وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ .

ولأمة مؤمنة يتزوجها المسلم خير من مشركة حرة كانت أم أمة ولو أعجبتكم بجمال أو مال أو حسب أو نسب.

وَلا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ . . .

« أى لا تزوجوا المسلمة من المشرك، وأجمعت الأمة على أن المشرك لا يطأ المؤمنة بوجه لما فى ذلك من الغضاضة على الإسلام، والقراء على ضم التاء من تنكحوا » (١٨٥).

« والآية تحرم تزويج المؤمنات - سواء كن حرائر أم إماء - بكفار، على أى دين كانوا فلا ينعقد زواج المؤمنة من كتابى أو مشرك أو ملحد » (١٨٦) .

قال تعالى : فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ. (الممتحنة : ١٠).

لأن ولاية الأمر للرجل على المرأة ، فيخشى أن يفتنها فى دينها، أو يزيغها عن عقيدتها أو يفسد منها دون أن تصلح منه. ثم بين علة النهى عن مناكحة المشركين والمشركات فقال :

أُوْلَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ .

أى أولئك المذكورين - من المشركين والمشركات - يدعون إلى الكفر المؤدى إلى النار فلا تصاهروهم حتى لا يفتنوكم ويفتنوا ذريتهم، والله يدعو بواسطة أوليائه من المؤمنين والمؤمنات إلى دواعى الجنة من الإيمان الخالص والعمل المشروع فكيف يلتقيان بالزواج؟.

وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ .

أى ويوضح الأدلة على أحكام شريعته للناس فلا يذكر لهم حكما إلا إذا بين لهم حكمته وأرشدهم إلى فائدته، والسر فى تشريعه، لعلهم بهذا يعتبرون ، فإن الأحكام إذا ذكرت بعللها وأدلتها طبعت فى النفوس وتقبلتها على الوجه المرضي، فصارت الأحكام طريقًا إلى الهداية والإقبال إلى الله وتهذيب الأرواح وتنقيتها من أدران الذنوب وأكدار المعاصى.

تعقيبات :

١ - المشرك فى لسان الشرع من يدين بتعدد الآلهة مع الله - تعالى- وأصله من الإشراك بمعنى أن تجعل الشىء بينك وبين غيرك شركة، فمن يعبد مع الله - إلهاً آخر يعد مشركاً وهو فى الآخرة من الخاسرين.

ويرى كثير من العلماء أن إطلاق كلمة مشرك، ومشركين ومشركات فى القرآن الكريم تعنى عبدة الأوثان، وأنها صارت فى استعمال القرآن حقيقة عرفية فيهم ، ولم يطلقها القرآن على اليهود والنصارى، وإنما عبر عنهم بهذا الاسم أو بأهل الكتاب، أو بوصف الكفر دون الشرك. وعليه فالمراد بالمشركات والمشركين فى الآية عبدة الأوثان. وذهب بعضهم إلى أن لفظ المشركات يشمل بمقتضى عمومه المرأة الوثنية واليهودية، والنصرانية.

٢ – تفيد الآية أنه لا يحل للمسلم أن يتزوج مشركة، ويباح له أن يتزوج كتابية، كما يحرم زواج المسلمة من غير المسلمين. والحكمة أن الرجل ولى الأمر فجاز أن يتزوج الكتابية لأنها تؤمن بالله واليوم الآخر، أما المرأة فيخشى على إيمانها وإسلامها أن تكون تحت رجل من أهل الكتاب.

٣ – ذهب الإمامية، وبعض الزيدية – إلى تحريم زواج المسلم من الوثنية واليهودية والنصرانية لأن لفظ المشركات يشملهن جميعًا، وأصحاب هذا الرأى يجعلون آية المائدة: وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ... (المائدة : ٥). منسوخة بالآية التى معنا نسخ الخاص بالعام.

٤ – الجمهور على أنه يباح للمسلم أن يتزوج مسيحية أو يهودية بمقتضى قوله تعالى : وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ . (المائدة : ٥).

وتلحظ أن الآية قيدت الإباحة بكون الكتابيات من المحصنات ، والمراد بهن فى أظهر التفاسير العفيفات. فأولئك الذين يعمدون إلى المنحرفات منهن فى أخلاقهن وعقولهن ولا يتخيرون ، خارجون عن موضع الإباحة فيما أحسب، لأن الله أحل المحصنات وهم استحلوا المنحرفات .

٥ – « إذا رأى ولى الأمر أن هناك خطرًا على الدولة الإسلامية أو على المجتمع الإسلامى من إباحة الزواج بالأجنبيات، فله أن يمنع الناس من ذلك الزواج بوضع عقوبات لمن يقدم عليه سدا للذريعة ومنعًا للشر وذلك من باب السياسة الشرعية لا من باب تحريم ما أحل الله؛ لأن الحل قائم على أصله والمنع وارد على الضرر الذى يلحق بالمسلمين.

« ولذلك سارت بعض الدول العربية على منع بعض رجالها من الزواج بالأجنبيات » (١٨٧).

٦ – الأصل فى زواج الكتابيات أنه مباح، ويرى بعض العلماء أنه مكروه لأن الكتابيات قد دخل على عقيدتهن التحريف والتغيير ولأن الكتابية لا تدين بالولاء للإسلام، ولما يخشى على الذرية منها.

٧ – ورد فى تفسير الطبرى والقرطبى وابن كثير وغيرهم ما يفيد أن بعض الصحابة قد تزوج بكتابيات، فعثمان بن عفان تزوج نصرانية ثم أسلمت، وطلحة بن عبيد الله وحذيفة بن اليمان تزوجا يهوديتين. وقد كره عمر بن الخطاب زواج المسلمين من الأجنبيات ، لئلا يزهد الناس فى المسلمات، ولغير ذلك من المعانى.

« قال شقيق : تزوج حذيفة يهودية فكتب إليه عمر : خل سبيلها، فكتب إليه، أتزعم أنها حرام فأخلى سبيلها؟ فقال : لا أزعم أنها حرام ولكنى أخاف أن تعاطوا المومسات منهن » وإسناده صحيح (١٨٨).

« وروى ابن جرير عن عمر بن الخطاب ، قال : المسلم يتزوج النصرانية ولا يتزوج النصرانى المسلمة»(١٨٩).

وروى الحسن عن جابر بن عبد الله ، قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « نتزوج نساء أهل الكتاب ، ولا يتزوجون نساءنا » (١٩٠).

٨ - كان ابن عمر يحرّم زواج المسلم من النصرانية أو اليهودية لأنها مشركة تقول إن ربها عيسى. ولكن الجمهور على خلاف ذلك الرأى. قال القرطبى : وكان ابن عمر إذا سئل عن نكاح الرجل النصرانية أو اليهودية قال : حرم الله المشركات على المؤمنين ولا أعرف شيئًا من الإشراك أعظم من أن تقول المرأة ربها عيسى. قال النحاس : وهذا قول خارج عن قول الجماعة الذين تقوم بهم الحجة، لأنه قال بتحليل نكاح نساء أهل الكتاب من الصحابة جماعة، منهم عثمان وطلحة وابن عباس ، ومن التابعين سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد وفقهاء الأمصار عليه.

وأيضًا فيمتنع أن تكون هذه الآية من سورة البقرة ناسخة للآية التى فى سورة المائدة لأن البقرة من أول ما نزل بالمدينة والمائدة من آخر ما نزل ، وإنما الآخر ينسخ الأول أو يخصصه، وأما قول ابن عمر فلا حجة فيه لأن ابن عمر - رضى الله عنه - كان متوقفاً فلما سمع الآيتين فى واحدة التحليل، وفى أخرى التحريم، ولم يبلغه النسخ توقف ، ولم يؤخذ عنه ذكر النسخ وإنما تأول عليه وليس يؤخذ الناسخ والمنسوخ بالتأويل [١٩١] .

٩ - تابع القرطبى مسيرته مؤيدًا تحليل الزواج بالكتابيات فقال : « وذكر ابن المنذر جواز نكاح الكتابيات عن عمر بن الخطاب ومن ذكر من الصحابة والتابعين فى قول النحاس، وقال فى آخر كلامه : ولا يصح عن أحد من الأوائل أنه حرم ذلك » [١٩٢].

١٠ - **وقال بعض العلماء** : أما الآيتان فلا تعارض بينهما، فإن ظاهر لفظ الشرك لا يتناول أهل الكتاب، لقوله تعالى : ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾. (البقرة : ١٠٥).

وقال : ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾. (البينة : ١) ففرق بينهم فى اللفظ وظاهر العطف يقتضى المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه، وأيضًا اسم الشرك عموم وليس بنص، وقوله تعالى ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ . . (المائدة : ٥) ... بعد قوله والمحصنات من المؤمنات نص فلا تعارض بين المحتمل وبين ما لا يحتمل [١٩٣].

١١ - **قال الأستاذ سيد قطب** « الجمهور على تحليل الزواج من الكتابيات، ولكنى أميل إلى اعتبار الرأى القائل بالتحريم » [١٩٤].

ونحن لا نمنع التحريم لاعتبارات مختلفة تدخل فى نطاق السياسة الشرعية. قال أستاذى المرحوم الدكتور محمد يوسف موسى : عندما كنت فى الجزائر أثناء الاحتلال الفرنسى لها سئلت عن حكم الزواج بالأجنبيات فأفتيت بأنه حرام. لأنى وجدت أن هناك شرطاً غير مكتوب خلاصته أن الترقية إلى أى منصب رفيع قاصرة على من تزوج من فرنسية. فأفتيت بتحريم الزواج من الفرنسيات حفاظاً على قوة المسلمين.

* * *

والخلاصة أن الزواج بالكتابيات جائز، والجمهور على أنه مباح. وبعض الناس يحرمه، والمختار أنه مكروه لاعتبارات طارئة. فإذا ترتبت عليه مفاسد صار حراماً من باب سد الذرائع. ومراعاة القواعد الأصولية التى تقول : درء المفاسد مقدم على جلب المصالح.

* * *

أحكام الحيـض

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ ﴾

المفردات :

الحيض	: لغةً السيلان يقال حاض السيل وفاض. وشرعًا : دم ذو أوصاف خاصة يخرج من الرحم فى مدة مخصوصة استعداداً للحمل حين المعاشرة الزوجية إبقاء للنوع البشرى.
أذى	: ضـــرر.
اعتزلوا النساء فى المحيض	: اتركوا غشيانهن فى هذه المدة.
الطهر	: انقطاع دم الحيض.
التطهير	: الاغتسال بالماء إن وجد أو التيمم.
الحرث	: موضع النبت أى الأرض التى تستنبت شبهت بها النساء لأنها منبت للولد كالأرض للنبات.
أنى شئتم	: كيف شئتم من قيام وقعود واضطجاع وإقبال وإدبار متى كان المأتى واحدا وهو موضع الحرث.

تمهيد :

شرع الله الشرائع ونظم حياة الناس، وهو خالقهم وهو أعلم بما يصلحهم، وقد حرم الله - سبحانه وتعالى جماع الرجل زوجته فى أيام الطمث (الحيض) وهى فترة من الصيام الجنسى والابتعاد عن غشيان المرأة امتثالاً لأمر الله وحفاظًا على الصحة الجسدية والنفسية.

التفسيــر :

٢٢٢ - وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ .

سبب النزول :

أخرج مسلم وأحمد وأبو داود وغيرهم عن أنس - رضى الله عنه - « أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم أخرجوها من البيت ولم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجامعوها فى البيت، أى لم يكونوا معهن فى البيوت

فسئل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن ذلك فأنزل الله هذه الآية . فقال - صلى الله عليه وسلم - « جامعوهن فى البيوت ، واصنعوا كل شىء إلا النكاح» (١٩٥) أى إلا الوطء فإنه لا يحل أثناء المحيض.

وكان اليهود يعتقدون أن الحائض نجسة وكل من مسها يكون نجسًا إلى المساء، وكذلك يتنجس كل ما تلمسه أو تجلس عليه أو تلبسه، فمن مس فراشها لا يطهر إلا بغسل ثيابه واستحمامه، ومع هذا يظل نجسا إلى المساء وإن اضطجع معها رجل فكان طمثها عليه يكون نجسًا سبعة أيام، وكل فراش يضطجع عليه يكون نجسا إلى نحو ذلك من الأحكام، وللرجل الذى يسيل منه دم نحو هذه الأحكام.

وكان العرب فى الجاهلية لا يساكنون الحيض، ولا يؤاكلونهن كما كانت تفعل اليهود والمجوس.

وكانت النصارى تتهاون فى أمور الحيض، وكانوا مخالطين للعرب فى كثير من المواطن، فكان هذا الاختلاف مدعاة للسؤال عن حكم المحيض فى هذه الشريعة (١٩٦).

والمعنى : يسألك المؤمنون عن دم النساء الذى يأتيهن شهريًا وعن الأحكام المترتبة على وجوده قال لهم : هو أذى ، إذ هو ضار بصحة الأجسام، فرائحته يتأذى منها من يشمها، وهو فى ذاته شىء متقذر تعافه النفوس وتنفر منه الطباع فعليكم - أيها المؤمنون - أن تمتنعوا عن مباشرة النساء فى زمن حيضهن ولا تجامعوهن حتى يطهرن من ذلك .

فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ . . . .

فإذا تطهرن من المحيض فجامعوهن فى المكان الذى أمركم الله بتجنبه فى الحيض وهو القبل ولا تتعدوه إلى غيره.

« وفيه ندب وإرشاد إلى غشيانهن بعد الاغتسال، وذهب ابن حزم إلى وجوب الجماع بعد كل حيضة لقوله: **فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ** ، وليس له فى ذلك مستند؛ لأن هذا أمر بعد الحظر، وفيه أقوال لعلماء الأصول ، منهم من يقول : إنه للوجوب كالمطلق، وهؤلاء يحتاجون إلى جواب ابن حزم. ومنهم من يقول : إنه للإباحة ويجعلون تقدم النهى قرينة صارفة له عن الوجوب ، وفيه نظر.

والذى ينهض عليه الدليل أنه يرد الحكم إلى ما كان عليه الأمر قبل النهى، فإن كان واجباً فواجب كقوله : **فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ**. (التوبة : ٥) ، أو مباحاً فمباح كقوله : **وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا** ، (المائدة:٢) وكقوله : **فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ** . (الجمعة : ١٠).

وعلى هذا القول تجتمع الأدلة وهو الصحيح (١٩٧) .

وقد اتفق العلماء على أن المرأة إذا انقطع حيضها لا تحل حتى تغتسل بالماء أو تتيمم إن تعذر ذلك عليها بشرطه.

إلا أن أبا حنيفة يقول فيما إذا انقطع دمها لأكثر الحيض - وهو عشرة أيام عنده - أنها تحل بمجرد الانقطاع ولا تفتقر إلى غسل (١٩٨) .

وإذا انقطع دمها لأقل الحيض لم تحل حتى تغتسل أو يمضى عليها وقت صلاة كامل فتصبح الصلاة ديناً فى ذمتها.

وسبب الخلاف أن الله – عز وجل – قال : وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ . الأولى بالتخفيف والثانية بالتشديد. وطهر يستعمل فيما لا كسب فيه للإنسان وهو انقطاع الدم، وأما تطهَّر فيستعمل فيما يكتسبه الإنسان وهو الاغتسال بالماء، فحمل أبو حنيفة : وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ . على انقطاع دم الحيض، وقوله : فَإِذَا تَطَهَّرْنَ . على معنى فإذا انقطع دم الحيض، فاستعمل المشدد بمعنى المخفف.

وقال الجمهور بالعكس، إنه استعمل المخفف بمعنى المشدد والمراد ولا تقربوهن حتى يغتسلن بالماء، فإذا اغتسلن فأتوهن، بدليل قراءة بعضهم : حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ . بالتشديد، وبدليل قوله : إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ .

أو يستعمل كل واحدة فى معناها، ويؤخذ من مجموع الكلامين أن الله علق الحل على شيئين، انقطاع الدم، والتطهر بالماء، كقوله : وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ. (النساء : ٦) فعلق الحكم – وهو جواز دفع المال – على شرطين : أحدهما بلوغ النكاح، وثانيهما إيناس الرشد.

ودافع الحنفية عن رأيهم بكلام أقرب إلى الفلسفة والتمحل [١٩٩].

والآية فى بساطتها وفيما يظهر منها لأول وهلة متفقة مع رأى الجمهور وهو وجوب التطهر من الحيض قبل المخالطة بين الرجل والمرأة، وذلك أقرب إلى سنن الفطرة وإلى النظافة العامة، وأدعى إلى وجود الألفة والمودة بين الرجل والمرأة.

قال ابن عباس : حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ . أى من الدم: فَإِذَا تَطَهَّرْنَ . أى بالماء. وكذلك قال مجاهد وعكرمة والحسن وغيرهم [٢٠٠].

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ .

إن الله يحب عباده الذين يكثرون التوبة والإنابة والرجوع إلى الله والذين يصونون أنفسهم وينزهونها عن المعاصى والآثام، ويرضى عنهم فى الدنيا والآخرة.

قال القرطبى : « التوابون » من الذنوب والشرك. « والمتطهرون » أى بالماء من الجنابة والأحداث.

وقال مجاهد : « التوابون » من إتيان النساء فى أدبارهن «والمتطهرون » الذين لم يذنبوا.

فإن قيل كيف قدم بالذكر الذى أذنب على من لم يذنب ، قيل قدمه لئلا يقنط التائب من الرحمة ولا يعجب المتطهر بنفسه.

وقد أخرج أحمد والترمذى والنسائى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « من أتى حائضًا فقد كفر بما أنزل على محمد - صلى الله عليه وسلم » (٢٠١). والحديث للترهيب، والمقصود أنه فعل ما يفعله الكافرون.

بدليل ما أخرجه الطبرانى عن ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله ، أصبت امرأتى وهى حائض، فأمره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يعتق نسمة (٢٠٢).

قال القرطبى : « واختلفوا فى الذى يأتى امرأته وهى حائض ماذا عليه ؟ فقال مالك والشافعى وأبو حنيفة : يستغفر الله ، ولا شىء عليه. وقيل : يتصدق بدينار إذا كان دم الحيض أحمر أى فى أول أيام الحيض، ويتصدق بنصف دينار إذا كان دم الحيض أصفر أى فى آخر أيام الحيض، كما دلت على ذلك الآثار (٢٠٣).

★ ★ ★

٢٢٣ - نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ.

أى لا حرج عليكم فى إتيان نسائكم بأى كيفية شئتم ما دام فى موضع الحرث، فالشارع لا يقصد إلى إعناتكم وحظر اللذة عليكم.

سبب النزول :

أخرج البخارى وجماعة عن جابر قال : « كانت اليهود تقول إذا أتى الرجل امرأته من خلفها فى قبلها - أى فى فرجها - ثم حملت جاء الولد أحول .. فنزلت » (٢٠٤).

وقد أباحت الآية ما حرمه اليهود من إتيان المرأة - فى موضع الحمل - من جهة الخلف، إذ جوزت إتيان المرأة من أية جهة شاءها الأزواج ما دام ذلك فى موضع الحرث.

والحرث : الزرع أى موضع الزرع لكم، والكلام على التشبيه والتمثيل. والمعنى : نساؤكم موضع إنجاب الذرية لكم فأتوهن فى مكان الإنجاب كيف شئتم من الأمام أو من الخلف، أو نائمات على جنوبهن. وفسر ابن عباس: أَنَّىٰ شِئْتُمْ. بأى وقت شئتم من الليل والنهار.

وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ.

ثلاثة أوامر متتالية تدعو إلى العمل الصالح، واجتناب المعاصى أى قدموا لأنفسكم كل عمل صالح يقربكم إلى الله من تخير للزوجة، وعناية بالذرية وحسن تربية للأولاد وعمل على غرس مفاهيم الإسلام.

والأمر بالتقوى يتكرر عقب آيات الأحكام. ومعنى التقوى خشية الله وامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

والتذكير بلقاء الله واليوم الآخر حتى يلقى كل إنسان جزاء عمله. وتختم الآية بهذه البشرى :

وبَشِّرِ الْمُؤْمِنِين.

أى بشر المؤمنين بالفرج الجميل والجزاء الجزيل والثواب العظيم فى الدنيا والآخرة، فمن وجد الله وجد كل شىء، ومن فقد الله فقد كل شىء، ومن أطاع الله أطاع له كل شىء.

★ ★ ★

تعقيبات

١ – سن الحائض : متوسط السن التى تحيض فيها الفتيات ١٤ سنة ونصف ، وقد تكون السن التى تبدأ فيها رؤية الحيض عشر سنوات، وقد تكون ١٨ سنة. وتتغير السنّ بتغير الأجناس والبيئات، ففى اليهوديات تكون السن ١٢ سنة غالبًا، وفى بلادنا الحارة ١٣-١٤ سنة. وفى البلاد الباردة ١٦ – ١٨ سنة أحياناً [٢٠٥].

٢ – مدة الحيض : ومدة نزول الحيض من ٣ أيام إلى ٦ أيام ، ومدة الطهر بين الحيضتين ٢٨ يومًا ، وقد تكون فى بعض السيدات ٢١ يومًا أو ٢٥ يومًا، وقد اختلف الفقهاء فى مدة الحيض.

فقال الحنفية : أقل مدة الحيض ٣ أيام، وأوسطه خمسة، وأكثره عشرة. وقال الحنابلة و الشافعية: أقله يوم وليلة، وأكثره خمسة عشر يومًا، وقال المالكية : أكثره خمسة عشر يومًا ولا حد لأقله.

٣ – علامات الحيض : فى مبدئه يكون الدم والمخاط الكثير ، وكرات : ليمونية وبعض بقايا أنسجة وبعد ذلك يكون دمًا خالصًا ، وعند الانتهاء يبدأ المخاط فى الظهور ثانيًا، ولا حيض أثناء الحمل.

والدم الذى يرى أثناء الثلاثة الأشهر من الحمل أحيانًا يعتبر نزيفًا فى الأصح ولا يمكن حدوث حيض بعد الشهر الثالث من الحمل بحال.

٤ – النفاس : هو الدم الخارج عقب الولادة وأكثره أربعون يومًا ولا حد لأقله.

٥ – أحكام الحيض والنفاس : يحرم على الحائض والنفساء كل ما يحرم على الجنب من مس المصحف والمكث فى المسجد، ولا يقبل منهما الصوم والصلاة أيام الحيض والنفاس.

وتقضى الحائض والنفساء الصوم ولا تقضيان الصلاة، ويحرم جماع الحائض والنفساء.

٦ – صفة غسل الحائض : صفة غسلها من الجنابة، وليس عليها نقض شعرها، ويكفيها أن تحثو على رأسها ثلاث حثيات ثم تفيض الماء على بقية جسمها فتطهر كما ورد فى صحيح مسلم .

٧ – يباح للرجل أن يستمتع من زوجته الحائض بما شاء ما عدا الجماع، روى الجماعة إلا البخارى أن الرسول (ﷺ) قال : « اصنعوا كل شىء إلا الجماع » . وقال قوم : يباح للرجل من زوجته ما فوق السرة والركبة وما تحته [٢٠٦].

« قال العلماء : مباشرة الحائض وهى متزرة على الاحتياط والقطع للذريعة ولأنه لو أباح فخذيها كان ذلك منه ذريعة إلى موضع الدم المحرم فأمر بذلك احتياطيًّا، والمحرم نفسه موضع الدم، فتتفق بذلك معانى الآثار، ولا تضاد، وبالله التوفيق » (٢٠٧).

٨ - الأضرار الناجمة عن الوطء حين الحيض :

★ فى المرأة :

(أ) يحدث التهاب فى مهبل المرأة.

(ب) يلتهب الجهاز التناسلى .

(جـ) الالتهاب المهبلى يسبب التهاب الغشاء المخاطى للمثانة وتشعر المريضة بالميل إلى التبول مع قلة ما ينزل منه.

★ فى الرجـــــل :

التهابات مختلفة فى أعضائه التناسلية، وتمتد الجراثيم أيضًا داخل القناة البولية، وقد يصيب المثانة والحالبين ويمتد الالتهاب حتى يصيب البروستاتا والخصية (٢٠٨).

٩ - ورد فى سبب نزول: نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ .. . أن اليهود كانوا لا يأتون النساء إلا على حالة واحدة، وذلك أستر ما تكون المرأة. وكان الأنصار قد أخذوا بذلك من فعلهم، وكان هذا الحى من قريش يشرحون النساء شرحًا منكرًا (٢٠٩)، ويتلذذون منهن مقبلات ومدبرات ومستلقيات، فلما قدم المهاجرون المدينة تزوج رجل منهم امرأة من الأنصار فذهب يصنع بها ذلك فأنكرت عليه وقالت إنما كنا نؤتى على حرف، فاصنع ذلك وإلا فاجتنبنى، حتى شرى (٢١٠) أمرهما فبلغ ذلك النبى- صلى الله عليه وسلم - فأنزل الله – عز وجل: فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ . أى مقبلات ومدبرات ومستلقيـــات يعنى بذلك موضع الولد (٢١١).

١٠ - قال القرطبى : قوله تعالى : أَنَّىٰ شِئْتُمْ . معناه عند الجمهور من الصحابة والتابعين وأئمة الفتوى من أى جهة شئتم مقبلة ومدبرة . وأنّى تجئ سؤالاً وإخبارًا عن أمر له جهات، فهو أعم فى اللغة من (كيف) ومن (أين) ومن (متى) هذا هو الاستعمال العربى فى (أنَّى) . وقد فسر الناس (أنى) فى هذه الآية بهذه الألفاظ.

وفسرها سيبويه بـ (كيف) ومن (أين) باجتماعهما، وذهبت فرقة ممن فسرها بأين إلى أن الوطء فى الدبر مباح وممن نسب إليه هذا القول سعيد بن المسيب ونافع وابن عمر ومحمد بن كعب القرظى. وعبد الملك ابن الماجشون. وحكى ذلك عن مالك فى كتاب له يسمى كتاب السر، وحذاق أصحاب مالك ومشايخهم ينكرون ذلك الكتاب. ومالك أجل من أن يكون له كتاب سر.

ثم علّق القرطبى بقوله : والصحيح فى هذه المسألة ما بيناه ، وما نسب إلى مالك وأصحابه من هذا باطل وهم مبرءون من ذلك لأن إباحة الإتيان بموضع الحرث لقوله – تعالى : فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ .

(وبأحاديث صحيحة حسان وشهيرة رواها عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – اثنا عشر صحابيًّا بمتون مختلفة كلها متواردة على تحريم إتيان النساء فى الأدبار، ذكرها أحمد بن حنبل فى مسنده وأبو داود والنسائى والترمذى وغيرهم، وقد جمعها أبو الفرج بن الجوزى بطرقها فى جزء سماه تحريم العمل المكروه) (٢١٢).

١١ – وقد ذهب ابن كثير فى تفسيره إلى تحريم إتيان النساء فى أدبارهن وساق عددًا من الأحاديث الصحيحة. علّق عليها الأستاذ المحقق أحمد محمد شاكر بما يفيد صحتها وصحة إسنادها.

قال ابن كثير ..« وقد وردت الأحاديث المروية من طرق متعددة بالزجر عن فعله وتعاطيه. روى أحمد عن خزيمة بن ثابت الخطمى أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : « لا يستحيى الله من الحق، لا يستحيى الله من الحق ثلاثا، لا تأتوا النساء فى أعجازهن » (٢١٣).

وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة عن النبى – صلى الله عليه وسلم – قال : « إن الذى يأتى امرأته فى دبرها لا ينظر الله إليه » وفى لفظ له « ملعون من أتى امرأته فى دبرها » ورواه أبو داود والنسائى وابن ماجه بنحوه » (٢١٤).

(وروى معن بن عيسى عن مالك أن ذلك حرام).

« وروى أبو بكر النيسابورى عن مالك بن أنس أنه سئل : ما تقول فى إتيان النساء فى أدبارهن؟ قال ما أنتم قوم عرب .. هل يكون الحرث إلا موضع الزرع ؟ لا تعد الفرج، قلت : يا أبا عبد الله ، إنهم يقولون إنك تقول ذلك؟ قال : يكذبون علىّ، يكذبون علىّ، فهذا هو الثابت عنه. وهو قول أبى حنيفة والشافعى وأحمد بن حنبل وأصحابهم قاطبة، وهو قول سعيد بن المسيب وأبى سلمة وعكرمة وطاوس وعطاء، وسعيد بن جبير وعروة بن الزبير، ومجاهد بن جبير، والحسن وغيرهم من السلف أنهم أنكروا ذلك أشد الإنكار، ومنهم من يطلق على فعله الكفر، وهو مذهب جمهور العلماء » (٢١٥).

★ ★ ★

اليمين والإيلاء

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ ﴾

المفردات :

عرضة : عرض يتصرف على معان مرجعها إلى المنع لأن كل شىء اعترض فقد منع، ويقال للسحاب: عارض لأنه منع من رؤية السماء والشمس والقمر والكواكب. والعرضة كالغرفة المانع المعترض دون الشىء.

الأيمان : الأمور المحلوف عليها.

اللغو فى اليمين : ما يجرى على اللسان دون قصد مثل قول الإنسان أى والله، ولا والله، فهذا ونحوه يسبق إلى اللسان عادة ولا يقصد به عقد اليمين فلا يؤاخذ الله به.

الإيلاء : لغة الحلف وشرعًا حلف الرجل ألا يقرب امرأته.

التربص : الانتظار والترقب. قال الشاعر:

تربص بها ريب المنون لعلها
تُطلَّق يوما أو يموت حليلها

فاءوا : رجعوا من الفئ بمعنى الرجوع من حال إلى حال، ومنه قوله تعالى : حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ. (الحجرات : ٩) وقول الشاعر :

ففاءت ولم تقض الذى أقبلت له
ومن حاجة الإنسان ما ليس قاضيا
ويقال للظل بعد الزوال فىء
لأنه رجع بعد أن تقلص

عزموا الطلاق : صمموا عليه، من العزم وهو عقد القلب على الشىء، والتصميم عليه، ويقال عزم على الشىء، إذا عقد نيته عليه.

الطلاق : هو حل عقد النكاح الذى بين الرجل والمرأة. وأصله من الانطلاق وهو الذهاب يقال طلقت المرأة تطلق - من باب نصر - طلاقًا، إذا أصبحت مخلاة بدون رجل بعد أن كانت فى عصمة رجل معين.

المعنى الإجمالى :

١ - لا تجعلوا الحلف بالله حاجزًا بينكم وبين فعل الخير والبر والتقوى والإصلاح بين الناس.

٢ - سامح الله المؤمن فى يمين اللغو وهو سبق اللسان بما لا يقصده، وشدد العقوبة على الأيمان الفاجرة التى يتعمد صاحبها الكذب.

٣ - من آلى من امرأته بقصد تأديبها وتهذيبها وعلاج اعوجاجها ، فإن أقصى مدة لهجر الزوجة هى أربعة أشهر يراجع فيها نفسه، فإما أن يعود إليها ويكفر عن يمينه وترجع الحياة بينهما كالسابق، وإما أن يعزم على الطلاق فيطلقها.

التفسير : -

٢٢٤ - وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

لا تجعلوا الحلف بالله حاجزًا ومانعًا عن البر والتقوى والإصلاح بين الناس. والله سميع لما تلفظون به عالم بأيمانكم فلا ينبغى أن يكون الحلف بالله مانعًا عن عمل الخير، فالله لا يرضى أن يكون اسمه حجابًا دون الخير.

فكثيرًا ما يسرع الإنسان إلى الحلف بألا يفعل كذا ويكون خيرًا، أو أن يفعل كذا ويكون شرا فنهانا الله عن ذلك وأمرنا بتحرى وجوه الخير.

فإذا حلف الإنسان على ترك خير، فليفعل الخير وليكفّر عن يمينه ولا يجعل اليمين مانعة له من المعروف.

قال ابن عباس : لا تجعل الله عرضة ليمينك ألا تصنع الخير، ولكن كفّر عن يمينك واصنع الخير.

روى مسلم ، عن النبى - صلى الله عليه وسلم - « من حلف على يمين فرأى غيرها خيرًا منها، فليكفّر عن يمينه ، وليفعل الذى هو خير » (٢١٦).

والآية توحى بالإقلال من الحلف حتى لا يتعود عليه اللسان. وقد ذم الله المكثـرين من الحلف فقال : وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ . (القلم : ١٠).

قال الإمام الرازى : والحكمة فى الأمر بتقليل الأيمان، أن من حلف فى كل قليل وكثير بالله انطلق لسانه بذلك ولا يبقى لليمين فى قلبه وقع. فلا يؤمن إقدامه على اليمين الكاذبة، فيختل ما هو الغرض فى اليمين.

وأيضًا كلما كان الإنسان أكثر تعظيمًا لله، كان أكمل فى العبودية، ومن كمال العبودية التعظيم، وأن يكون ذكر الله - تعالى - أجل وأعلى عنده من أن يستشهد به فى كل غرض دنيوى، وأما قوله بعد ذلك « أن تبروا » فهو علة لهذا الشىء أى إرادة أن تبروا، والمعنى إنما نهيتم عن هذا - أى عن الإكثار من الحلف - لما أن توقى ذلك من البر والتقوى والإصلاح، فتكونوا - يا معشر المؤمنين - بسبب عدم إكثاركم من الأيمان - بررة أتقياء مصلحين (٢١٧).

سبب النزول :

قال القرطبى وابن جرير الطبرى وغيرهم :

نزلت فى أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - إذ حلف ألا ينفق على مسطح ابن خالته وكان من الفقراء المهاجرين، وكان أبو بكر يعطف عليه ويرعاه ثم شارك مسطح فى حديث الإفك وروج الكلام فى اتهام السيدة عائشة - رضى الله عنها، فأقسم أبو بكر ألا يبر مسطحا قريبه فأنزل الله هذه الآية، وأنزل أيضاً فى شأن حديث الإفك ثلاث عشرة آية فى سورة النور منها قوله تعالى :

وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ. (النور : ٢٢).

فقال أبو بكر لما سمع هذه الآية : بلى والله إنى لأحب أن يغفر الله لى. ورجع عن يمينه وكفر عنها. وأجرى على مسطح ما كان ينفقه عليه.

★ ★ ★

٢٢٥ - **لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ . . .**

لا يعاقبكم الله - تعالى - ولا يلزمكم بكفارة ما صدر عنكم من الأيمان اللاغية فضلاً منه - سبحانه - وكرماً.

وقد اختلف أهل التأويل فى المراد من اليمين اللغو على عدة أقوال هى :

١ - اليمين اللغو هى التى لا يقصدها الحالف بل تجرى على لسانه عادة من غير قصد الحلف كقول القائل : لا والله ، وبلى والله ؛« أى تجرى على لسانه ألفاظ اليمين بدون قصد اليمين ».

٢ - إن لغو اليمين هو أن يحلف على شىء أنه كان فيظهر أنه لم يكن أو شىء يعتقد أنه لم يكن فيظهر أنه كان.

٣ - هو يمين الغضبان الذى يخرجه الغضب عن اتزانه.

٤ - هو يمين المكره.

٥ - هو يمين الناسى الذى يقسم وينسى قسمه فيخالف ما أقسم عليه.

٦ - هو دعاء الإنسان على نفسه كقوله : إن لم أفعل كذا فأصاب بكذا، قال زيد بن أسلم : لغو اليمين هو دعاء الرجل على نفسه : أعمى الله بصره، أذهب الله ماله، هو يهودى، هو مشرك. وهذا كله لا كفارة فيه على أرجح الأقوال.

وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ .

أى أن الله - سبحانه - رحيم بعباده لا يعاقبهم على أيمان اللغو غير المقصودة ولكنه يعاقب من أقسم به كاذبًا متعمدًا، لأنه مخادع منافق يقحم اسم الله فيخدع به الناس جلبًا لمنفعة أو دفعًا لمضرة.

وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ.

لا يعجل بعقوبة المسئ لعله يتوب وينيب.

تعقيبات

١ - **الأيمان ثلاثة :**

(أ) يمين لغو : وهى التى لا يقصد بها الحلف أو يحلف ناسيا.

(ب) يمين منعقدة : وهو أن يعقد العزم ويحلف على فعل أمر أو تركه.

فإذا رأى الأولى أن يخالف ما أقسم عليه فعل الأولى وكفّر عن يمينه بإطعام عشرة مساكين أو كسوتهم.. فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام.

وإذا أقسم الحالف على فعل معصية أو ترك طاعة فواجب عليه أن يخالف ما أقسم عليه ويكفّر عن يمينه.

(جـ) يمين غموس أو فاجرة : وهو الحلف بالله متعمدًا الكذب. وهى غموس لا كفارة لها إلا الغمس فى نار جهنم.

روى مسلم وغيره أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار » (٢١٨).

٢ - **قال مالك فى الموطأ :** « أحسن ما سمعت فى هذا أن اللغو حلف الإنسان على الشىء يستيقن أنه كذلك ثم يوجد بخلافه، فلا كفارة فيه، والذى يحلف على الشىء وهو يعلم أنه آثم كاذب ليرضى به أحداً، أو يعتذر لمخلوق، أو يقتطع به مالا، فهذا أعظم من أن يكون فيه كفارة، وإنما الكفارة على من حلف ألا يفعل الشىء المباح له فعله ثم يفعله، أو أن يفعله ثم لا يفعله، مثل إن حلف ألا يبيع ثوبه بعشرة دراهم، ثم يبيعه بمثل ذلك، أو حلف ليضربن غلامه ثم لا يضربه » (٢١٩).

٣ - **قال ابن كثير فى تفسيره :** « روى ابن أبى حاتم عن عائشة أنها كانت تتأول هذه الآية وتقول : هو الشىء يحلف عليه أحدكم لا يريد منه إلا الصدق فيكون على غير ما حلف عليه، ثم حكى نحو ذلك عن أبى هريرة، وسليمان بن يسار، وسعيد بن جبير، والحسن، ومكحول ، وطاوس ، وقتادة ، وغيرهم » (٢٢٠).

٤ - **روى أبو داود عن سعيد بن المسيب :** (أن أخوين من الأنصار كان بينهما ميراث فسأل أحدهما القسمة فقال: إن عدت تسألنى القسمة فكل مالى فى تاج الكعبة. فقال له عمر : إن الكعبة غنية عن مالك، كفر عن يمينك وكلم أخاك، سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « لا يمين عليك ولا نذر فى معصية الرب - عز وجل - ولا فى قطيعة الرحم ولا فيما لا تملك ») (٢٢١).

٢٢٦ - لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

٢٢٧ - وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

وردت الآية (٢٢٦) متممة لأحكام القسم، ومكملة لتنظيم الأسرة على أساس من صلات المودة والرحمة والتعاون المثمر، وكذلك الآية ٢٢٧، وقد كان الإيلاء فى الجاهلية يستمر بدون توقيت.

« قال عبد الله بن عباس : كان إيلاء الجاهلية السنة والسنتين وأكثر من ذلك، يقصدون بذلك إيذاء المرأة عند المساءة، فوقت لهم أربعة أشهر فمن آلى بأقل من ذلك فليس بإيلاء حكمى (٢٢٢).

والحياة بين الزوجين تتعرض لبعض الأعاصير والعواصف، فسمح الإسلام أن يهجر الرجل زوجته بعض الوقت كبحًا لجماح الغرور وتهديدًا للكبرياء والخيلاء.

وكان الناس فى صدر الإسلام يبالغون فى هذا الهجر ويزيدون فى مدته عن أربعة أشهر، والمرأة مخلوق محتاج للعطف والحنان محتاج لما يملأ عاطفته النفسية ويلبى رغباته البيولوجية فوقّت الإسلام مدة الإيلاء بأربعة أشهر، فهى كافية للتهذيب والتأديب، وما زاد عنها يعتبر عدوانًا تحكمًا وتركًا للمرأة كالمعلقة لا هى متزوجة فتأوى إلى زوجها ولا هى مطلقة فتلتمس الأزواج.

ومعنى الآيتين : أن الله - تعالى - جعل للذين يحلفون على ترك مباشرة زوجاتهم مدة يراجعون فيها أنفسهم ، وينتظرون ما يستقر عليه أمرهم ، وهذه المدة هى أربعة أشهر، فإن رجعوا عما حلفوا عليه من ترك مباشرة الزوجة، ورأوا أن المصلحة فى الرجوع فإن الله - تعالى - يغفر لهم ما فرط منهم.

وإن استمروا على ترك مباشرة نسائهم وأصروا على ذلك بعد انقضائها فإن شرع الله - تعالى - يحكم بالتفريق بينهما؛ لأن الحياة الزوجية لا تقوم على البغض والكراهية والهجران وإنما تقوم على المحبة والمودة والرحمة.

قال الفخر الرازى : « كان الرجل فى الجاهلية لا يريد المرأة ولا يحب أن يتزوجها غيره فيحلف ألاّ يقربها، فكان يتركها بذلك لا أيما ولا ذات بعل، والغرض منه مضارة المرأة، ثم إن أهل الإسلام كانوا يفعلون ذلك - أيضًا - فأنزل الله - تعالى - ذلك ، وأمهل الزوج مدة حتى يتروى ويتأمل ، فإن رأى المصلحة فى ترك هذه المضارة فعلها، وإن رأى المصلحة فى المفارقة عن المرأة فارقها».

تعقيبات

١ - الإيلاء شرعًا أن يقول الرجل لزوجته والله لا أقربك أربعة أشهر، أو أربعة أشهر فصاعدا. أو لا أقربك على الإطلاق.

٢ - جمهور العلماء على أن الطلاق لا يقع بانتهاء هذه المدة وإنما بانتهائها يأمره القاضى بالفيئة، فإن تقبل أمر القاضى بالرضا أمهله مدة يمكنه الفيئة فيها وإن لم يتقبله بالرضا أمره بالطلاق فإن طلقها فبها وإلا فإن القاضى يطلقها عليه.

وقال الأحناف إن الطلاق يقع بمجرد انتهاء هذه المدة وهى الأربعة الأشهر، والرجوع إنما يكون خلالها فلا زيادة فوقها ويكفى مراجعته لنفسه فى تلك المدة، وما دام لم يرجع إلى معاشرة امرأته خلالها فقد آثر فراقها ولا يصح أن نعطيه أية مهلة من الوقت بعدها.

٣ - ظاهر أقوال الفقهاء أن الإيلاء لابد فيه من اليمين، وقالت المالكية إذا امتنع الرجل من الوطء قصد الإضرار من غير عذر ولم يحلف كان حكمه حكم المولى لأن الإيلاء لم يرد لعينه وإنما أريد لمعنى سوء العشرة والضرر، وهذا حاصل إذا ضارها بدون يمين [٢٢٣] .

٤ - يرى سيدنا عبد الله بن عباس والحسن البصرى - رضى الله عنهما - أن هذا القانون ينطبق على الانفصال الناجم عن توتر العلاقات دون غيره. ولا ينطبق على الانفصال الذى يتم باتفاق الطرفين ورضاهما من أجل خير مشترك مع الاحتفاظ بعلاقات طيبة فما بينهما.

وهناك فقهاء آخرون يرون أن قانون الإيلاء ينطبق على أية حالة من حالات الانفصال تتم بناء على حلف أو قسم بغض النظر عما إذا كانت العلاقات بين الزوجين تظل حسنة أم سيئة ، ومن ثم يجب ألا يزيد الانفصال عن الأربعة أشهر المحددة [٢٢٤].

٥ - حكمة التوقيت بأربعة أشهر : والحكمة فى التوقيت بأربعة أشهر أنها أقصى مدة تستطيع أن تحتملها المرأة.

روى أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - كان يطوف ليلة بالمدينة فسمع امرأة تنشد :

تطاول هذا الليل واسود جانبه ... وأرقنى أن لا حبيب الاعبه
الاعبه طورًا كأن جبينه ... به قمر قد بدد الليل جانبه
فوالله لولا الله تخشى عواقبه ... لحرك من هذا السرير جوانبه
ولكننى أخشى رقيباً موكّلا ... بأنفاسنا لا ينفعُ الدهرَ شاهِدُه
مخافة ربى والحياء يكّفنى ... وإكرام بعلى أن تنال مراكبه

فلما كان من الغد استدعى عمر تلك المرأة ، وقال لها : أين زوجك؟ قالت : بعثت به إلى العراق، فاستدعى عمر نساء فسألهن عن المرأة كم مقدار ما تصبر عن زوجها؟ فقلن : شهرين، ويقل صبرها فى ثلاثة أشهر وينفد صبرها فى أربعة أشهر، فجعل عمر مدة غزو الرجل أربعة أشهر، فإذا مضت أربعة أشهر استرد الغازين ووجه بقوم آخرين ، وهذا والله أعلم يقوى اختصاص مدة الإيلاء بأربعة أشهر [٢٢٥].

٦- قال القرطبى : واختلفوا أن من حلف ألا يطأ امرأته أكثر من أربعة أشهر ولم تطالبه امرأته ولا رفعته إلى السلطان ليوقفه [٢٢٦] ، لم يلزمه شىء عند مالك وأصحابه وأكثر أهل المدينة، ومن علمائنا من يقول : يلزمه بانقضاء الأربعة الأشهر طلقة رجعية، ومنهم ومن غيرهم من يقول : يلزمه طلقة بائنة بانقضاء الأربعة أشهر. والصحيح ما ذهب إليه مالك وأصحابه، وذلك أن المولى لا يلزمه طلاق حتى يوقفه السلطان بمطالبة زوجته له ليفئ فيراجع امرأته بالوطء ويكفّر بيمينه أو يطلق، ولا يتركه حتى يفئ أو يطلق ، والفئ: الجماع فيمن يمكن مجامعتها.

قال سليمان بن يسار : كان تسعة رجال من أصحاب النبى - صلى الله عليه وسلم - يوقفون فى الإيلاء، قال مالك : وذلك الأمر عندنا، وبه قال الليث والشافعى وأحمد وإسحاق وأبو ثور، واختاره ابن المنذر [٢٢٧].

★ ★ ★

عدة المطلقة

﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ﴾

المفردات :

المطلقات : المراد بهن فى الآية المدخول بهن من الحرائر ذوات الحيض أما غير المدخول بهن فلا عدة عليهن.

التربص : التأنى والتريث والانتظار.

القروء : واحدها قرء (بضم القاف وفتحها) يطلق تارة على حيض المرأة وأخرى على طهرها،،ومن ثم قال الحنفية والحنابلة المراد به الحيض، وقال المالكية والشافعية المراد به الطهر.

ما خلق الله فى أرحامهن : يشمل الحمل، والحيض، والطهر.

البعولة : جمع البعل وهو الزوج، والبعولة أيضًا مصدر البعل، والمباعلة والبعال: الجماع.

المعنى العام للآية :

على المطلقات أن تمكث إحداهن بعد طلاق زوجها ثلاث حيضات بدون نكاح، ثم لها أن تتزوج بعد إن شاءت، ولا يحل للمطلقة أن تكتم ما فى رحمها من الحمل أو دم الحيض، فالإيمان بالله وباليوم الآخر يدفعها إلى قول الصدق.

وأزواجهن لهم الحق فى مراجعة الزوجات المطلقات فى مدة العدة إذا كان الطلاق رجعيًّا فلا يصح أن تمتنع الزوجات عن الرجوع إليهم، وعلى الأزواج عند استعمال هذا الحق أن يقصدوا الإصلاح لا المضرة.

وللزوجات من الحقوق مثل ما عليهن من الواجبات بما لا ينكره الشرع الشريف، وللرجال على النساء درجة الرعاية والنفقة والعدالة.

والله - سبحانه - فوق عباده يشرع لهم ما يتفق مع الحكمة.

التفسير :

٢٢٨ - وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ . . .

وضع الإسلام أسس السعادة الزوجية فأمر بحسن اختيار الزوجة ثم وضع حقوق الرجل والمرأة فى نطاق الأسرة فصَّل نظام الطلاق عند الحاجة إليه، وأبدع فى بيان هذه النظم. ومن ذلك بيان نظام العدة، والرجعة، والنفقة.

ومن أروع البيان ما ورد فى هذه الآية قوله سبحانه : وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ .

وذلك لأن المراة المطلقة كثيرًا ما تشعر بعد طلاقها بأنها فى حاجة إلى أن تثبت أن إخفاقها فى حياتها الزوجية السابقة ليس لنقص فيها أو لعجز عن إنشاء حياة زوجية أخرى، وهذا الشعور قد يدفعها إلى التسرع والاندفاع من أجل إنشاء هذه الحياة، وهنا تبرز طريقة القرآن الحكيمة فى معالجة النفوس، إنه يقول للمطلقة: إن التطلع إلى إنشاء حياة زوجية أخرى ليس عيبًا، ولكن الكرامة توجب عليها الانتظار والتريث، إذ لا يليق بالحرة الكريمة أن تنتقل بين الأزواج تنقلاً سريعًا. وأيضًا فإن نداء الفطرة وتعاليم الشريعة توجبان عليها الانتظار مدة ثلاثة قروء لكى تستبرئ رحمها حتى إذا كان هناك حمل نسب إلى الأب الشرعى له.

وفى قوله : يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ . إشعار بأن هذا التربص يجب أن يكون من ذات أنفسهن وليس من عامل خارجى، فشأن الحرة الكريمة المؤمنة أن تحجز نفسها بنفسها عن كل ما يتنافى مع الكرامة والشرف، فقد تجوع الحرة ولكنها لا تأكل بثديها – كما يقال فى المثل .

وقد أشار الزمخشرى إلى هذا المعنى بقوله :

« فإن قلت وما معنى ذكر الأنفس هنا ؟. قلت فى ذكر الأنفس تهييج لهن على التربص وزيادة بعث، لأن فيه ما يستنكفن منه فيحملهن على أن يتربصن. وذلك أن أنفس النساء طوامح إلى الرجال. فأمرن أن يقمعن أنفسهن ويغلبنها على الطموح، ويجبرنها على التربص » (٢٢٨).

وقد أوجبت الآية أن تنتظر المطلقة مدة ثلاثة قروء قبل الزواج من رجل آخر.

والقروء جمع قرء بضم القاف وفتحها ويطلق على الطهر وعلى الحيض. ولذلك اختلف الفقهاء فى المراد من القروء المعتبرة. العدة فالأحناف والحنابلة ومن قبلهم عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب وعبد الله بن مسعود وغيرهم يرون أن المراد بالقروء هنا الحيضات. والمعنى عندهم : أن المطلقات عليهن أن يمكثن بعد طلاقهن من أزواجهن مدة ثلاث حيضات بدون زواج ثم بعد ذلك لهن أن يتزوجن إن شئن.

ومن أدلتهم : أن النبى – صلى الله عليه وسلم – قد فسر القرء بمعنى الحيض، فقد جاء الحديث الذى رواه أبو داود عن فاطمة بنت أبى جحش أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال لها : « دعى الصلاة أيام أقرائك » (٢٢٩).

ولاشك أن المراد بالقرء فى هذا الحديث الحيض، لأنه هو الذى لا تصح معه الصلاة.

أما المالكية والشافعية ، ومن قبلهم عائشة وعبد الله بن عمر، وزيد بن ثابت، والزهرى وغيرهم فيرون أن المراد بالقروء هنا الأطهار أى الأوقات التى تكون بين الحيضتين للنساء.

ومعنى الآية عندهم : أن على المطلقات أن يمكثن بعد طلاقهن من أزواجهن ثلاثة أطهار (٢٣٠) بدون زواج ثم بعد ذلك يزوجن إذا شئن. ومن أدلتهم: أن الله – تعالى – يقول: فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ. (الطلاق : ١) وقد بينت

السنة النبوية أن الطلاق لا يكون فى الحيض. فلا يتصور أن يكون الطلاق فى العدة إلا إذا فسرنا القرء بالطهر لا بالحيض. وروى عن عائشة أنها قالت : هل تدرون الأقراء ؟ الأقراء الأطهار (٢٣١).

والمسألة كما ترى محتملة للمعنيين.

قال السيد رشيد رضا فى تفسير المنار. قال الأستاذ الإمام محمد عبده « والخطب فى الخلاف سهل لأن المقصود من هذا التربص العلم ببراءة الرحم من الزواج السابق، وهو يحصل بثلاث حيض كما يحصل بثلاثة أطهار، ومن النادر أن يستمر الحيض إلى آخر الحمل فكل من القولين موافق لحكمة الشرع فى المسألة (٢٣٢).

وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ .

قيل : المراد بما خلق الله فى أرحامهن الحيض، وقيل الحمل، وقيل هما معًا. وهذا دليل على أن المرأة مؤتمنة على ما فى رحمها ، يقبل قولها فيه لأنه لا يعلم إلا من قبلها، وإنما حرم الله أن يكتمن ما فى أرحامهن لأنه يتعلق بذلك حق الرجعة للرجل وعدم اختلاط الأنساب. وإذا لم تحافظ المرأة على ذلك فربما حرمت الرجل من حقه فى المراجعة - إذا ادعت انقضاء العدة.

وربما ادعت انقضاء العدة وهى مشغولة الرحم بالحمل من المطلق ثم تزوجت فأدى ذلك إلى اختلاط الأنساب.

ولذلك لمست الآية قلوب المطلقات بذكر الله الذى يخلق ما فى أرحامهن. واستجاشت كذلك شعور الإيمان بالله واليوم الآخر، فشرط هذا الإيمان ألا يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن ، وذكر اليوم الآخر بصفة خاصة له وزنه هنا، فهناك الجزاء « هناك العوض عما قد يفوت بالتربص، وهناك العقاب لو كتمن ما خلق الله فى أرحامهن ، وهو يعلمه لأنه هو الذى خلقه ولا يخفى عليه شىء منه. فلا يجوز كتمانه عليه - سبحانه - تحت تأثير أى رغبة أو هوى أو غرض من شتى الأغراض التى تعرض لنفوسهن » (٢٣٣).

« والآية تدل على أن من ائتمن على شىء فلا يحل له أن يخون ، وهذا هو مقتضى الإيمان بالله واليوم الآخر » (٢٣٤) .

وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحًا .

والمعنى : وأزواج المطلقات طلاقًا رجعيًّا أحق بردهن ومراجعتهن « فى ذلك » أى فى وقت التربص قبل انقضاء العدة : إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحًا . أى إن أرادوا بهذه المراجعة الإصلاح لا الإضرار.

قال القرطبى :

« وأجمع العلماء على أن الحر إذا طلق زوجته الحرة وكانت مدخولاً بها تطليقة أو تطليقتين، أنه أحق برجعتها ما لم تنقض عدتها وإن كرهت المرأة، فإن لم يراجعها المطلق حتى انقضت عدتها فهى أحق بنفسها وتصير أجنبية منه ولا تحل له إلا بخطبة ونكاح مستأنف بولى وإشهاد ليس على سنة المراجعة وهذا إجماع من العلماء.

قال المهلب : وكل من راجع فى العدة فإنه لا يلزمه شىء من أحكام النكاح غير الإشهاد على المراجعة فقط وهذا إجماع من العلماء (٢٣٥) لقوله تعالى : ﴿ فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوى عدل منكم ﴾.

ومن هذا التشريع الإلهى العادل نتبين حكمة الإسلام من وراء مشروعية العدة. فهى فترة معقولة يراجع فيها الزوج نفسه، ويتبين حقيقة عواطفه ولعله خلال هذه الفترة يتبين أن فى قلبه رمقا من مودة أو بقية من عاطفة، ولعل الحنين أن يعاود الزوجين إلى استئناف الحياة الزوجية فرارًا من الطلاق وهو أبغض الحلال إلى الله (٢٣٦).

وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ.

أى وللنساء من الحقوق مثل الذى عليهن من الواجبات نحو الرجال، فليؤد كل واحد منهما إلى الآخر ما يجب عليه وذلك بالمعروف.

قال الألوسى :

« والمراد بالمماثلة فى الوجوب لا فى جنس الفعل، فلا يجب عليه إذا غسلت ثيابه أو خبزت له أن يفعل لها مثل ذلك ولكن يقابله بما يليق بالرجال».

أى أن الحقوق والواجبات بينهما متبادلة، وأنهما متماثلان فى أن كل واحد منهما عليه أن يؤدى نحو صاحبه ما يجب عليه بالمعروف أى بما عرفته الطباع السليمة ولا تنكره، ووافق ما أوجبه الله على كل منهما فى شريعته . » كما ثبت فى صحيح مسلم عن جابر : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال فى خطبته فى حجة الوداع: «فاتقوا الله فى النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربًا غير مبرح، ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف» (٢٣٧).

وفى حديث معاوية بن حيدة القشيرى إنه قال : يا رسول الله ما حق زوجة أحدنا؟ . قال : « تطعمها إذا طعمت وتكسوها إذا اكتسيت ولا تضرب الوجه، ولا تقبّح ولا تهجر إلا فى البيت » (٢٣٨).

وعن ابن عباس قال : إنى لأحب أن أتزين للمرأة، كما أحب أن تتزين لى المرأة لأن الله يقول : **وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ** . رواه ابن جرير والطبرى وابن أبى حاتم وإسناده صحيح (٢٣٩).

وعن ابن عباس أيضًا : أى لهن من حسن الصحبة والعشرة بالمعروف على أزواجهن مثل الذى عليهن من الطاعة فيما أوجبه عليهن لأزواجهن (٢٤٠).

وقال الطبرى : لهن على أزواجهن ترك مضارتهن كما كان ذلك عليهن لأزواجهن.

وقال ابن زيد : تتقون الله فيهن كما عليهن أن يتقين الله - عز وجل - فيكم . والمعنى متقارب والآية تعم جميع ذلك من حقوق الزوجية (٢٤١) .

وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ : والدرجة فى الأصل ما يرتقى عليه من سلم ونحوه، والمراد به هنا المزية والزيادة أى : لهن عليهم مثل الذى لهم عليهن. وللرجال على النساء مزية وزيادة فى الحق بسبب حمايتهم لهن، وقيامهم بشئونهن ونفقتهن وغير ذلك من واجبات.

قال الأستاذ محمد أبو زهرة : وإذا كانت الأسرة لا تتكون إلا من ازدواج هذين العنصرين - الرجل والمرأة - فلابد أن يشرف على تهذيب الأسرة ويقوم على تربية ناشئها وتوزيع الحقوق والواجبات فيها أحد العنصرين. وقد نظر الإسلام إلى هذا الأمر نظرة عادلة، فوجد أن الرجل أملك لزمام نفسه وأقدر على ضبط حسه، ووجده هو الذى أقام البيت بماله وأن انهياره خراب عليه، فجعل له الرياسة ولذا قال - سبحانه - الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ . (النساء : ١٣٤).

هذه هى الدرجة التى جعلها الإسلام للرجل، وهى درجة تجعل له حقوقًا، وتجعل عليه واجبات أكثر، فهى موائمة كل المواءمة لصدر الآية، فإذا كان للرجل فضل درجة ، فعليه فضل واجب (٢٤٢).

وَاللَّهُ عَزِيزٌ : أى منيع السلطان لا مُعترض عليه.

حَكِيمٌ . فى أمره وشرعه وسائر ما يكلف به عباده، فعلى الرجل والمرأة أن يطلبا عزهما فيما شرعه الله فهو الملجأ والمعاذ لكل ذى حق مهضوم، وعليهما كذلك أن يتمسكا بما كلفهما به لأنه ما كلفهما إلا بما تقتضيه الحكمة، ويؤيده العقل السليم.

★ ★ ★

من كتب التفسير :

١ - قال القرطبى :

فى تفسير: وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ .

« قول ابن عباس : « إنى لأتزين لامرأتى » قال العلماء : أما زينة الرجال فعلى تفاوت أحوالهم فإنهم يعملون ذلك على اللباقة والوفاق، فربما كانت زينة تليق فى وقت ولا تليق فى وقت، وزينة تليق بالشباب، وزينة تليق بالشيوخ ولا تليق بالشباب ، ألا ترى أن الشيخ والكهل إذا حف شاربه ليق به ذلك وزانه، والشباب إذا فعل ذلك سمج ومقت. لأن اللحية لم توفر بعد، فإذا حف شاربه فى أول ما خرج وجهه سمج، وإذا وفرت لحيته وحف شاربه زانه ذلك. روى عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « أمرنى ربى أن أعفى لحيتى وأحفى شاربى » (٢٤٣). وكذلك فى شأن الكسوة ففى هذا كله ابتغاء الحقوق، فإنما يعمل على اللائق والموافق ليكون عند امرأته فى زينة تسرها ويعفها عن غيره من الرجال، وكذلك الكحل ، من الرجال من يليق به ومنهم من لا يليق به. فأما الطيب والسواك والخلال (٢٤٤) والرمى بالدرن (٢٤٥) وفضول الشعر والتطهير وقص الأظفار فهو بيّن موافق للجميع، والخضاب للشيوخ والخاتم للجميع من الشباب والشيوخ زينة، وهو حلى الرجال.

ثم عليه أن يتوخى أوقات حاجتها إلى الرجل فيعفها ويغنيها عن التطلع إلى غيره، وإن رأى الرجل من نفسه عجزًا عن إقامة حقها من مضجعها أخذ من الأدوية التى تزيد فى بهائه وتقوّى شهوته حتى يعفها (٢٤٦).

٢ – من تفسير المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة :

«شرعت العدة استبراء للرحم أولاً ، وذلك أن الاستبراء للرحم من الحمل لا يكون مؤكدًا إلا بعد ثلاث حيضات ، والحامل لا تحيض عادة، وإن حاضت فإن ذلك يكون مرة أو اثنتين على الأكثر إذ أن الجنين يكون قد نما بعد هذه المدة إلى درجة يملأ تجويف الرحم فيمنع نزول دم الحيض، ذلك تقدير لله فى خلقه، وما كان معلوما عند العرب، وما كان للنبى الأمى أن يعلمه ولكن الله أنزل عليه القرآن فعلمه وعلم أمته، وشرعت العدة ثانيًا ليكون عند المطلق فرصة المراجعة لزوجته إذ قد يكون طلق امرأته التى دخل بها تحت تأثير نوبة غضب جامحة فإذا ثاب إليه رشده ندم على ما فعل فحينئذ يجد رحمة الله واسعة، وشرعه حكيمًا ، قد أعطاه الحق فى أن يقول « راجعتك » فتعود إليه زوجته ولكن تحتسب عليه الطلقة من ثلاث طلقات [٢٤٧] ».

★ ★ ★

الطلاق والخلع

﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٢٩ ﴾

المفردات :

الطلاق : اسم بمعنى التطليق كالسلام بمعنى التسليم، والمراد به حل العقدة القائمة بين الزوجين بألفاظ مخصوصة.

مرتان : أى دفعتان.

فإمساك بمعروف : المراد به رجعة الزوجة بعد طلاقها مع أداء حقوقها وحسن عشرتها.

أو تسريح بإحسان : إخلاء سبيل الزوجة مع أداء حقوقها المالية وحفظ أسرارها ، وعدم الإساءة إليها.

الجناح : الإثم.

الاعتداء : تجاوز الحد فى قول أو فعل.

الظلم : وضع الشىء فى غير موضعه.

تمهيد فى سبب النزول :

« ثبت أن أهل الجاهلية لم يكن عندهم للطلاق عدد، وكانت عندهم العدة معلومة مقدرة، وكان هذا فى أول الإسلام برهة، يطلق الرجل امرأته ما شاء من الطلاق، فإذا كادت تحل من طلاقها راجعها ما شاء. فقال

رجل لامرأته على عهد النبى - صلى الله عليه وسلم - : لا آويك ولا أدعك تحلين، قالت ، وكيف ؟ قال : أطلقك فإذا دنا مضى عدتك راجعتك، فشكت المرأة ذلك إلى عائشة، فذكرت ذلك للنبى - صلى الله عليه وسلم - فأنزل الله - تعالى - هذه الآية بيانًا لعدة الطلاق الذى للمرء فيه أن يرتجع دون تحديد مهر وولي، ونسخ ما كانوا عليه (٢٤٨)».

المعنى العام للآية :

الطلاق مرتان يكون للزوج بعد كل واحدة منهما الحق فى أن يمسك زوجته برجعتها فى العدة أو إعادتها إلى عصمته بعقد جديد، وفى هذه الحال يجب أن يكون قصده الإمساك بالعدل والمعاملة الحسنة، أو أن ينهى الحياة الزوجية مع المعاملة الحسنة وإكرامها من غير مجافاة، ولا يحل لكم أيها الأزواج أن تأخذوا مما أعطيتموهن شيئًا إلا عند خشية عدم إقامة حقوق الزوجية التى بينها الله - سبحانه وتعالى - وألزم بها، فإن خفتم يا معشر المسلمين ألا تؤدى الزوجات حقوق الزوجية سليمة كما بينها الله - تعالى - فقد شرع الله للزوجة أن تقدم مالا فى مقابل افتراقها من زوجها ، وهذه هى أحكام الله المقررة فلا تخالفوها.

التفسير :

٢٢٩ - الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ . . . .

أى الطلاق المشروع مرتان أى مرة ثم مرة، فللرجل أن يطلق زوجته ، ثم يراجعها أثناء العدة - إذا شاء - دون توقف على رضاها، ثم له أن يطلقها مرة ثانية، ثم يراجعها أثناء العدة إذا شاء دون توقف على رضاها كذلك، وكل طلقة من هاتين الطلقتين تسمى طلقة رجعية.

أما إذا أمضت العدة بعد الطلقة الأولى أو الثانية - دون مراجعة لها - فإن الطلاق يصبح بائنًا ، فلا يعود إليه؛ إلا بعقد ومهر جديدين، وبرضا الزوجة أو وليها، فإذا طلقها الثالثة بعد أن راجعها مرتين فإنها تصبح حرامًا عليه، لا تحل له حتى تنكح زوجًا غيره كما تشير الآية التالية .

ومعنى إمساكها بالمعروف - بعد الطلقة الثانية - أن يراجعها مع حسن العشرة والمودة والرحمة ، فذلك هو المعروف عند أرباب المروءات وفى لسان الشرع ونظر العقل.

« ومعنى تسريحها بإحسان - بعد الطلقة الثانية - أن يتركها دون مراجعة أو أن يطلقها الثالثة وأن يؤدى لها حقوقها من نفقة العدة وأجرة الرضاع و الحضانة لولده وجبر الخاطر وحسن المقالة » (٢٤٩).

الحكمة فى جعل الطلاق الرجعى مرتين :

الحياة الزوجية شركة تقوم على التعاون . منَّ الله بها على عباده، وحث الإسلام على حسن العشرة والمكارمة بين الزوجين.

وقد تسوء الحياة ولا يتفق الزوجان ولا يتقابلان فأباح الإسلام أن يطلق الرجل زوجته طلقة رجعية.

وفى خلال العدة ، ربما ظهرت محبة الرجل للمرأة بعد فراقها، أو استبانت له الحاجة إليها وعظمت المشقة عليه فى تركها والبعد عنها. وقد تكون المرأة سادرة فى كبريائها وخيلائها، ولا تؤدى ما ينبغى للرجل من

الحقوق والواجبات فإذا هى طلقت تذكرت مضار خطئها وأحست بما كان فيها من عيوب فى المعاملات الزوجية والشئون المنزلية وتمنت أن لو كانت لها عودة تمكنها من إصلاح ما سلف منها. فإذا أبيح لها العودة إلى الحياة الزوجية كان فى هذا فرصة فى استدراك ما فات والعمل على الطريق السوى فيما هو آت .

وقد يحدث أن يعود الرجل سيرته الأولى أو يحدث من الزوجة ما يدعو إلى الفراق ثانية فيطلقها حين حدة الغضب مرة أخرى ثم يندم، فأبيح له العودة مرة أخرى.

فإذا عاد إلى الطلاق مرة ثالثة استبان أن رباط الزوجية قد وهن، وأن النفور بينهما قد استحكم فيجدر أن يكون الفراق لا رجعة فيه مع أداء الزوج لحقوق الزوجة والإحسان إليها عند الفراق وعدم الإساءة إليها.

وفى هذا التشريع بذلك الترتيب غاية الرأفة والرحمة من الله بعباده حفاظًا على رباط الأسرة وسعادة المجتمع.

وقد اختلف الأئمة فيمن يوقع الطلاق ثلاثًا مرة واحدة.

فذهب بعضهم إلى أنه يقع طلقة واحدة.

ومذهب الأئمة الأربعة : أنه يقع ثلاث طلقات .

وقد أخذ قانون الأحوال الشخصية فى بعض البلاد العربية بالرأى الأول اتباعًا لرأى بعض كبار الصحابة وكبار التابعين.

وقد ساق القرطبى فى تفسيره أدلة الفريقين بإسهاب . ورجح مذهب الأئمة الأربعة.

كما وردت أدلة الفريقين فى أحكام القرآن للجصاص ، وأعلام الموقعين لابن قيم الجوزيه، ونيل الأوطار للشوكانى ، وأحكام القرآن لابن عربى وغيرها .

وقد روى الإمام أحمد ومسلم عن ابن عباس قال : كان الطلاق على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم- وأبى بكر وسنتين من خلافة عمر - طلاق الثلاثة واحدة - فقال عمر : إن الناس قد استعجلوا فى أمر كان فيه أناة فلو أمضيناه عليهم، فأمضاه عليهم [٢٥٠].

* * *

وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ .

لا يحل للزوج أن يأخذ شيئًا من صداق الزوجة، الذى أوجبه الله ، لكى يبقيها فى عصمته، أو لكى يطلقها، لأن ذلك مناف للمعروف والإحسان الذى أمر الله به والذى هو لائق بصلات المؤمنين بعضهم مع بعض فضلاً عن الزوجين.

ومثل الصداق فى الحكم سائر أموالهن، وتخصيص الصداق بالذكر لرعاية العادة أو للتنبيه على أن تحريم الأخذ من غيره أولى.

قال ابن كثير : وقوله : وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا . أى لا يحل لكم أن تضاجروهن وتضيقوا عليهن ليفتدين منكم بما أعطيتموهن إلا من صدقة أو ببعضه.

كما قال تعالى : وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ . (النساء : ١٩).

فأما إن وهبته المرأة شيئًا عن طيب نفس منها، فقال تعالى : وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا . (النساء : ٤).

وأما إذا تشاقق الزوجان ولم تقم المرأة بحقوق الرجل وأبغضته ولم تقدر على معاشرته ، فلها أن تفتدى منه بما أعطاها، ولا حرج عليها فى بذلها له، ولا علية فى قبولها ذلك منها، ولهذا قال تعالى : وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ... الآية.

فأما إذا لم يكن لها عذر وسألت الافتداء منه، فقد روى الإمام أحمد عن ثوبان قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « أيما امرأة سألت زوجها الطلاق فى غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة » وهكذا رواه أبو داود وابن ماجه وابن جرير (٢٥١).

وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة عن النبى – صلى الله عليه وسلم – قال : « المختلعات والمنتزعات هن المنافقات » (٢٥٢).

الخلع :

الخلع هو أن تفتدى المرأة نفسها من زوجها بمال.

« وقد اختلف الأئمة – رحمهم الله – فى أنه : هل يجوز للرجل أن يفاديها بأكثر مما أعطاها؟ فذهب الجمهور إلى جواز ذلك لعموم قوله تعالى : فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ . وبه يقول ابن عمر وابن عباس ومجاهد وغيرهم (٢٥٣) وهذا مذهب مالك والليث والشافعى وأبى ثور واختاره ابن جرير.

« وقال أصحاب أبى حنيفة إن كان الإضرار من قبلها جاز أن يأخذ منها ما أعطاها ولا تجوز الزيادة عليه، فإن ازداد جاز فى القضاء. وإن كان الإضرار من جهته لم يجز أن يأخذ منها شيئًا فإن أخذ جاز فى القضاء » (٢٥٤).

وقال الإمام أحمد وأبو عبيد وإسحاق : لا يجوز أن يأخذ أكثر مما أعطاها. وهذا قول سعيد بن المسيب وعطاء والزهرى وغيرهم (٢٥٥) .

حديث البخارى :

روى البخارى من حديث أيوب عن عكرمة عن ابن عباس أن امرأة ثابت بن قيس أتت النبى – صلى الله عليه وسلم – فقالت : يا رسول الله ، ثابت بن قيس ما أعتب عليه فى خلق، ولا دين ، ولكن لا أطيقه. فقال

رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « أتردين عليه حديقته »؟ قالت : نعم ، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : اقبل الحديقة وطلقها تطليقة (٢٥٦) .

واستدلت طائفة من الفقهاء بحديث امرأة ثابت المذكور على أنه يجوز الخلع من غير اشتكاء ضرر فإنها تقول : إنها لا تعتب عليه فى خلق ولا دين ولكنها لا تطيقه. وقالوا إن الآية لم تذكر الخوف من عدم إقامة حدود الله على جهة الشرط ، بل لأنه الغالب (٢٥٧).

وذكر ابن جرير أن ابن عباس قال : إن أول خلع كان فى الإسلام أخت (٢٥٨) عبد الله بن أُبَى : أتت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالت : يا رسول الله، لا يجمع رأسى ورأسه شىء أبدًا ، إنى رفعت جانب الخباء فرأيته قد أقبل فى عدة فإذا هو أشدهم سوادًا وأقصرهم قامة وأقبحهم وجهًا. قال زوجها : يا رسول الله؛ إنى أعطيتها أفضل مالى - حديقة - فلترد علىَّ حديقتى ، قال - صلى الله عليه وسلم - : (ما تقولين)؟ قالت: نعم وإن شاء زدته. قال : ففرق بينهما » (٢٥٩). وقيل : إن هذه الآية نزلت فى شأنهما.

قال القرطبى : « وهذا الحديث أصل فى الخلع وعليه جمهور الفقهاء. قال مالك : لم أزل أسمع ذلك من أهل العلم وهو الأمر المجتمع عليه عندنا وهو أن الرجل إذا لم يضر بالمرأة ولم يسئ إليها ولم تؤت من قبله وأحبت فراقه فإنه يحل له أن يأخذ منها كل ما افتدت به، كما فعل النبى - صلى الله عليه وسلم - فى امرأة ثابت بن قيس، وإن كان النشوز من قبله بأن يضيق عليها ويضرها رد عليها ما أخذ منها (٢٦٠).

فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ . . . .

لقد طلب الله أن يكون تسريح المرأة بإحسان ونهى أن يأخذوا شيئًا مما آتوهن من المهر أو غيره ثم بين أنه لا يحل الأخذ إلا فى حالة الخوف ألا يقيما حدود الله فإذا حصل الخوف جاز للمرأة أن تفتدى نفسها من زوجها بالخلع ، وجاز للرجل أن يأخذ هذا الفداء أى لا إثم على الزوج فى أخذه ولا على الزوجة فى إعطائه إياه.

★ ★ ★

« واختلف العلماء فى الخلع : هل هو طلاق : فيعد طلقة ؟ أم هو فسخ فلا يعد طلقة.

فقال مالك والشافعى فى أحد قوليه، وأبو حنيفة والثورى وغيرهم هو طلاق بائن فيعد طلقة.

وقالت طائفة : هو فسخ لا ينقص عدد الطلاق إلا أن ينويه، وبه قال ابن عباس وأحمد والشافعى فى أحد قوليه وإسحاق وغيرهم ولهم فى ذلك أدلتهم.

ويترتب على هذا الخلاف : أن من طلق زوجته تطليقتين ثم خالعها ثم أراد أن يتزوجها فله ذلك عند ابن عباس ومن يرى رأيه لأنه لم يقع منه سوى تطليقتين والخلع لغو ومن جعله طلاقًا لم يجز له أن يرتجعها حتى تنكح زوجًا غيره. على القول بأنه طلقة بائنة ، يجوز للزوج أن يعود بعده لزوجته إذا لم يسبقه طلقتان: بأن لم يسبقه طلاق أصلاً، أو سبقه طلقة واحدة. ولكنه لا يعود إلا بعقد ومهر جديدين.

قال القرطبى : والصحيح أن الخلع طلاق لا فسخ .

قال القاضى إسماعيل بن إسحاق : كيف يجوز القول فى رجل قالت له امرأته : طلقنى على مال فطلقها أنه لا يكون طلاقًا وهو لو جعل أمرها بيدها من غير شىء فطلقت نفسها كان طلاقًا (٢٦١).

تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا . . . .

ما تقدم ذكره من أحكام الطلاق والرجعة والخلع حدود الله فلا تتجاوزوا ما أحله لكم إلى ما حرمه عليكم، وما أمرتكم به إلى ما نهيتكم عنه.

وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ .

ومن يترك أحكام الله التى شرعها وبينها لعباده، فإنه ظالم لنفسه وغيره متبع لهواه.

والظلم وضع الشىء فى غير موضعه، وفعل ما لا ينبغى فعله. والظلم مخرب للعمران، مبيد للأمم، ولاسيما ظلم الأزواج للأزواج إذ الرابطة بينهما أمتن الروابط وأحكمها، فأى رجاء فى الأمة إذا انحلت فيها عرى تلك الرابطة؟ وهى أشد وأمتن الروابط ؟.

★ ★ ★

من أحكام الطلاق

﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ ﴾

تمهيد :

بين الله – سبحانه – فى الآيات السابقة طريقة إيقاع الطلاق وأنه يكون على دفعات لا دفعة واحدة.

ثم أتبع ذلك ببيان حكم الفراق إذا كان بافتداء المرأة نفسها من الرجل.

التفسير :

وفى هذه الآية الكريمة يبين الله – سبحانه – حكم الطلاق المكمل الثلاث فقال تعالى :

٢٣٠ – فَإِن طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ . . . .

أى فإن طلق الرجل زوجته طلقة ثالثة بعد الطلقتين اللتين أباح الله له مراجعتها بعد كل منهما، فإنه فى هذه الحالة تكون زوجته محرمة عليه، ولا تحل له حتى تنكح زوجًا غيره نكاحًا شرعيًّا صحيحًا بأن يدخل بها ويباشرها مباشرة شرعية كما يباشر الأزواج زوجاتهم.

فَإِن طَلَّقَهَا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ .

فإن طلقها الزوج الثانى، وانقضت عدتها منه فلا إثم على المرأة وزوجها الأول أن يتراجعا بعقد جديد إن ظنا أن يقيما حدود الله ويتعاشرا بالمعروف ويحرص كل منهما على القيام بواجب الزوجية.

قال سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير : النكاح فى الآية : العقد الصحيح فهو كاف فى التحليل للأول وإن لم يجامعها ، ما لم يرد بالعقد مجرد إحلالها للأول. وإطلاق النكاح على العقد معروف لغة وشرعًا. ولكن هذا الرأى ضعيف لمخالفته لما جاءت به السنة الصحيحة ، وللحكمة المقصودة من هذا الزواج، وهى تخويف الناس من البت فى الطلاق حتى لا تصير نساؤهم إلى هذا المصير، ولتأديب من بت طلاق امرأته.

« روى الإمام أحمد عن عائشة قالت : دخلت امرأة رفاعة القرظى، وأنا وأبو بكر عند النبى – صلى الله عليه وسلم – فقالت : إن رفاعة طلقنى ألبتة، وأن عبد الرحمن بن الزبير تزوجنى، وإنما عنده مثل الهدبة، واخذت هدبة من جلبابها، وخالد بن سعيد بن العاص بالباب لم يؤذن له، فقال : يا أبا بكر ، ألا تنهى هذه عما تجهر به بين يدى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فما زاد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على التبسم، وقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « كأنك تريدين أن ترجعى إلى رفاعة ؟ لا حتى تذوقى عسيلته ويذوق عسيلتك » رواه البخارى، وفى حديث عبد الرزاق عند مسلم : « إن رفاعة طلقها آخر ثلاث تطليقات » وقد رواه الجماعة إلا أبا داود (٢٦٢).

وإذا تزوجها الزوج الثانى بقصد إحلالها للزوج الأول فقد قال أبو حنيفة وأصحابه : النكاح جائز للأول إن دخل بها الثانى وطلقها وله أن يمسكها إن شاء .

وفى رواية أخرى عنهم لا تحل للأول إن تزوجها ليحلها له. ولم يختلفوا فى أن نكاح الزوج الثانى صحيح.

وحكى الماوردى عن الشافعى : أنه إن شرطا التحليل قبل العقد، صح النكاح وأحلها للأول ، وإن شرطاه فى العقد بطل النكاح ولم يحلها للأول.

وقد جاء فى تفسير القرطبى ما يأتى : « قال ابن العربى : ما مرت بى فى الفقة مسألة أعسر منها، وذلك أن من أصول الفقه أن الحكم هل يتعلق بأوائل الأسماء أو بأواخرها؟ فإن قلنا : إن الحكم يتعلق بأوائل الأسماء لزمنا مذهب سعيد. وإن قلنا الحكم يتعلق بأواخر الأسماء لزمنا أن نشترط الإنزال مع مغيب الحشفة فى الإحلال ، لأنه آخر ذوق العسيلة على مقالة الحسن . قال ابن المنذر : ومعنى ذوق العسيلة هو الوطء وعلى هذا جماعة العلماء إلا سعيد بن المسيب قال : أما الناس فيقولون : لا تحل للأول حتى يجامعها الثانى، وأنا أقول: إذا تزوجها تزوجا صحيحا لا يريد بذلك إحلالها، فلا بأس أن يتزوجها الأول. وهذا قول لا نعلم أحدًا وافقه عليه إلا طائفة من الخوارج، والسنة مستغنى بها عما سواها (٢٦٣).

اللعنة على المحلل :

من الناس من يتخذ آيات الله هزوا فإذا حرمت المرأة على زوجها بعد طلاق الثلاث تحايل على إحلالها للزوج الأول بزواج صورى. وقد وردت الأحاديث الصحيحة تنهى عن هذا العمل . قال ابن كثير فى تفسيره:

(فصل) والمقصود من الزوج الثانى أن يكون راغبًا فى المرأة قاصدا لدوام عشرتها، كما هو المشروع من

التزويج، واشترط الإمـام مالك مع ذلك أن يطأها الثانى وطئًا مباحًا، فلو وطئها وهى محرمة أو صائمة أو معتكفة أو حائضًا أو نفساء ، أو والزوج صائم أو محرم أو معتكف - لم تحل للأول بهذا الوطء.

واشترط الحسن البصرى - فيما حكاه عنه الشيخ أبو عمر بن عبد البر أن ينزل الزوج الثانى ، وكأنه تمسك بما فهمه من قوله - عليه الصلاة والسلام - « حتى تذوقى عسيلته ويذوق عسيلتك».

فأما إذا كان الثانى إنما قصده أن يحلها للأول، فهذا هو المحلل الذى وردت الأحاديث بذمه ولعنه، ومتى صرح بمقصوده فى العقد بطل النكاح عند جمهور الأئمة، فروى الإمام أحمد عن عبد الله ، قال : « لعن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الواشمة والمستوشمة ، والواصلة والمستوصلة ، والمحلِّل والمحلَّل له ، وآكل الربا وموكله ». رواه الترمذى والنسائى (٢٦٤).

ثم قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح ، قال : والعمل على هذا عند أهل العلم من الصحابة منهم: عمر وعثمان وابن عمر، وهو قول الفقهاء من التابعين ، ويروى ذلك عن على وابن مسعود وابن عباس ، وروى ابن ماجه عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ألا أخبركم بالتيس المستعار؟ قالوا: بلى يا رسول الله ، قال : هو المحلل، لعن الله المحلِل والمحلَّل له » (٢٦٥).

وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال : « لعن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المحلل - والمحلل له» (٢٦٦).

وروى الحاكم عن نافع ، قال : « جاء رجل إلى ابن عمر ، فسأله عن رجل طلّق امرأته ثلاثًا فتزوجها أخ له.. من غير مؤامرة منه - ليحلها لأخيه هل تحل للأول ؟ فقال : لا ، إلا نكاح رغبة. كنا نعد هذا سفاحًا على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم . ثم قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه (٢٦٧) ، وهذه الصيغة مشعرة بالرفع.

وروى عن عمر أنه قال : لا أوتى بمحلل ولا محلل له إلا رجمتهما.

وروى البيهقى عن سليمان بن يسار: أن عثمان بن عفان رفع إليه رجل تزوج امرأة ليحلها لزوجها، ففرق بينهما. وكذا روى عن على وابن عباس وغير واحد من الصحابة » (٢٦٨).

وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ.

أى وتلك الأحكام المذكورة التى تتصل بالنكاح والطلاق والرجعة والخلع، وغير ذلك ، هى حدود الله وأحكامه، بينها بيانًا واضحًا مفصلاً، لقوم يعلمون حقها وأهميتها، فيحافظون عليها، ويتعهدون بتنفيذها، وذلك لا يدركه إلا عالم متدبر، أما الجاهل ، فلا ينظر إلى العواقب ، ولا يحافظ على حدود الله.

وتكررت جملة: تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ . فى أحكام الطلاق لإبراز أهميتها ، وإظهار الذنب الكبير فى مخالفتها.

★ ★ ★

الإمساك بالمعروف

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١) ﴾

المفردات :

فبلغن أجلهن : أى قارين نهاية عدتهن . يقال بلغ البلد إذا وصل إليه ، ويقال أيضًا بلغه إذا شارفه ودنا منه. يقول الرجل لصاحبه: إذا بلغت مكة فاغتسل بذى طوى، يريد دنوت منها، لأن ذا طوى قبلها . والأجل يطلق على المدة كلهـا، ويطلق على آخـرها مـجـازا. «قـال الراغب : الأجل : المدة المضروبة للشىء. قال تعالى : وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى، (غافر : ٦٧) أي مدة معينة – والبلوغ الانتهاء إلى أقصى المقصد والمنتهى مكانًا كان أو زمانًا أو أمرا من الأمور المقدرة، وربما يعبر به عن المشارفة عليه وإن لم ينته إليه ، فمن الانتهاء قوله تعالى : حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وبلغ أَربعينَ سَنة.(الأحقاف :١٥) .. وأما قوله : فَإِذا بَلَغْن أجلهنَ فأمْسكوهُن بمعْرُوف .(الطلاق :٢) فللمشارفة فإنها إذا انتهت إلى أقصى الأجل لا يصح للزوج مراجعتها وإمساكها [٢٦٩].

الإمساك : المراجعـــة.

المعروف : ما ألفته العقول واستحسنته النفوس شرعًا وعرفا وعـــادة.

التسريح : ترك المراجعة حتى تنتهى عدتها.

الضرار : الضرر.

الاعتداء : الظلم.

آيات الله : أحكام الطلاق والرجعة والخلع ونحو ذلك.

هـزوا : أى مستهزءًا بها بالإعراض عنها والتهاون فى المحافظة عليها. والهزء – بضمتين – مصدر هزأ به إذا سخر ولعب، وهو هنا مصدر بمعنى اسم المفعول ، وموقعه فى الإعراب مفعول ثان لتتخذوا.

نعمة الله : هى الرحمة التى جعلها بين الزوجين.

من الكتاب : أى من آيات أحكام الزوجية.

الحكمة : سر تشريع الأحكام وبيان ما فيها من منافع ومصالح.

التفسير :

٢٣١ - وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ . . .

المعنى : وإذا طلقتم - أيها المؤمنون - نساءكم طلاقا رجعيًا، فبلغن أجلهن ، أى فشارفت عدتهن على الانتهاء ، وقاربت الانقضاء ، فعليكم أن تتدبروا مليا فى أمركم ، فإن رأيتم الأصلح فى بقائهن معكم فنفذوا ذلك وامسكوهن بمعروف، أى بما هو المعروف من شرع اللّه الحكيم ، وبما تقره الأخلاق الحسنة والعقول السليمة، وإن رأيتم أنه لا رغبة لكم فى البقاء معهن فسرحوهن بمعروف، أى فأمضوا الطلاق، وتفارقوا بالطريقة التى يرضاها الحق - سبحانه - بأن تؤدوا لهن حقوقهن، ولا تذكروهن بسوء بعد انفصالكم عنهن ، فهذا شأن الأتقياء الصالحين، فقد سئل بعضهم : لمَ طلقت امرأتك ؟ فقال : إن العاقل لا يذكر ما بينه وبين أهله.

وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا .

أى لا تراجعوهن إرادة الإضرار بهن والإيذاء لهن (لتعتدوا) عليهن، والجملة الكريمة تأكيد للأمر بالإمساك بمعروف وتوضيح لمعناه، وزجر صريح عما كان يفعله بعضهم من مراجعته لامرأته قبيل انتهاء عدتها لا لقصد الإبقاء على الزوجية وإنما لقصد إطالة عدة الزوجة، أو لقصد أن تفتدى نفسها منه بالمال.

وضرارا، منصوب على الحال فى تمسكوهن أو على أنه مفعول لأجله واللام فى لتعتدوا هى لام العاقبة أى لتكون عاقبة أمركم الاعتداء ، وحذف مفعول لتعتدوا ليتناول الاعتداء عليهن وعلى أحكام اللّه - تعالى .

★ ★ ★

« قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغير واحد : كان الرجل يطلق المرأة فإذا قاربت انقضاء العدة راجعها ضرارًا لئلا تذهب إلى غيره، ثم يطلقها فتعتد فإذا شارفت على انقضاء العدة طلق لتطول العدة. فنهاهم اللّه عن ذلك وتوعدهم عليه » (٢٧٠).

وأخرج ابن جرير وغيره عن السدى : أن رجلاً من الأنصار يدعى ثابت بن يسار طلق زوجته حتى إذا انقضت عدتها إلا يومين أو ثلاثة راجعها ثم طلقها ، ففعل ذلك بها حتى مضت تسعة أشهر: يضارها، فأنزل اللّه- تعالى - هذه الآية .

فلا يحل للرجل أن يراجع زوجته إلا إذا كان قد اعتزم العدل وأراده، فإن تعذر قيام الحياة الزوجية فلا يسوغ له أن يستأنفها معاندة للزوجة وعداوة لها فإن ذلك اعتداء وظلم ، ولهذا قال سبحانه :

وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ . . . .

أى ومن يفعل ذلك الإمساك المؤدى للضرر فقد ظلم نفسه بمخالفته أمر اللّه وبتعريض نفسه لعذاب اللّه.

وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا .

أى ولا تتخذوا - أيها الناس - آيات الله التى شرعها لكم فى شأن الطلاق وغيره مهزوءًا بها بأن تعرضوا عنها وتتهاونوا فى المحافظة عليها والتمسك بتعاليمها. ومن مظاهر ذلك أن بعض الناس كان يكثر من التلفظ بالطلاق متوهمًا أن ذلك لا يضر، أو كان يتخذ المراجعة وسيلة لإيذاء المرأة .

جاء فى تفسير ابن كثير : « روى ابن جرير عن أبى موسى : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - غضب على الأشعريين ، فأتاه أبو موسى فقال : يا رسول الله ، أغضبت على الأشعريين ؟ فقال : يقول أحدكم قد طلقت .. قد راجعت .. ليس هذا طلاق المسلمين، طلقوا المرأة فى قبل عدتها (٢٧١).

وقال مسروق : هو الذى يطلق فى غير كنهه، ويضار امرأته بطلاقها وارتجاعها لتطول عليها العدة.

وقال الحسن وقتادة وغيرهما : هو الرجل يطلق ويقول كنت لاعبا. أو يعتق أو ينكح ويقول كنت لاعبا .. فأنزل الله: ولا تَتَّخذوا آيات اللَّه هُزُوًا. فالزم الله بذلك.

وروى الحاكم وصححه والبيهقى وأبو داود والترمذى وابن ماجه، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ثلاث جدهن جد وهزلهن جد : النكاح والطلاق والعتق » (٢٧٢).

وعن أبى عمرة وابن مردويه عن أبى الدرداء ، قال : « كان الرجل يطلق ثم يقول لعبت ويعتق ثم يقول لعبت، فنزلت . والآية على هذا عامة فى جميع الأحكام .

وَاذْكُرُوا نِعْمتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ . . . .

أى واذكروا نعمة الله عليكم فى إرسال الرسول بالهدى والبينات، أو بالإسلام والتزويج وجميع النعم، واذكروا كذلك ما أنزل عليكم من آيات الكتاب الحكيم، المنزل على رسولكم المبين لما يسعدكم من الشرائع والأحكام واذكروا أيضًا ما أنزل عليكم من حكمة الرسول ، وسنته التى بيَّن بها آيات الله وتشريعاته .

يَعِظُكُم بِهِ . . . أى يأمركم وينهاكم ويتوعدكم على ارتكاب المحارم.

وَاتَّقُوا اللَّهَ . . . أى فيما تأتون وفيما تذرون.

وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

فلا يخفى عليه شىء مما تأتون وما تذرون فيؤاخذكم بما تعملون من خير أو شر، ولاشك أن معرفة المسلم ذلك، توجب عليه الالتزام بأوامر الله ، واجتناب ما نهى الله عنه، ليكون بذلك فى وقاية من عذاب ربه العليم بكل شىء.

★ ★ ★

حق اختيار الزوج

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢٣٢) ﴾

المفردات :

فبلغن أجلهن : أى وصلن إلى نهاية عدتهن، تمامًا من غير نقصان ، ونلاحظ أن الآية السابقة بدأت بقوله تعالى : وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ . الآية. ومعنى فبلغن أجلهن فى الآية السابقة أى فقارين بلوغ أجلهن ونهاية عدتهن .

ومعنى : فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ . فى الآية التى معنا : وصلن إلى نهاية عدتهن .

فلا تعضلوهن : فلا تمنعوهن من الزواج، والعضل الحبس والتضييق.

العظة : النصح والتذكير بالخير على وجه يرق له القلب ويبعث على العمل.

الزكاء : النماء والبركة.

المعنى الإجمالى :

وإذا طلقتم النساء ، وتمت عدتهن وأرادت إحداهن أن تستأنف زواجًا جديدًا من المطلق أو من آخر غيره فلا يحل للأولياء ولا للزوج المطلق أن يمنعوهن من ذلك. إذا تراضى الطرفان على عقد جديد وإرادة حياة كريمة تؤدى إلى حسن العشرة بينهما. ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله وباليوم الآخر، ذلك أدعى إلى تنمية العلاقات الشريفة فى مجتمعكم وأطهر فى نفوسكم من الأدناس والعلاقات المريبة والله يعلم من مصالح البشر وأسرار نفوسهم ما يجهلون الوصول إليه.

سبب النزول :

روى البخارى والترمذى : وقال حديث حسن صحيح: عن معقل بن يسار قال : « كانت لى أخت : فأتانى ابن عم لها، فأنكحتها إياه فكانت عنده ما كانت ، ثم طلقها تطليقة ولم يراجعها حتى انقضت عدتها فهويها وهويته، ثم خطبها مع الخطاب ، فقلت له : يا لكع، أكرمتك بها وزوجتكها، ثم طلقتها ، ثم جئت تخطبها، والله لا ترجع إليك أبدًا وكان رجلاً لا بأس به ، وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه. فعلم الله حاجته إليها، وحاجتها إلى بعلها، فأنزل الله هذه الآية قال : ففىَّ نزلت هذه الآية ، فكفرت عن يمينى ، وأنكحتها إياه » وفى رواية : « فلما سمعها معقل قال : سمعا لربى وطاعة ثم دعاه فقال : أزوجك؛ وأكرمك » [٢٧٣].

التفسيــر :

٢٣٢ - وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْاْ بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ . . .

وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن : أى انقضت عدتهن وخلت الموانع من زواجهن فلا تمنعوهن من الزواج بمن يردن الزواج به : متى حصل التراضى بين الأزواج والزوجات على ما يحسن فى الدين وتقره العقول السليمة ويجرى به العرف الحسن، فإن للزوجة حقًّا ثابتًا فى اختيار زوجها لأنها هى التى ستعيش معه.

وكما يحرم العضل بالنسبة إلى زوجها الأول : يحرم بالنسبة إلى زوج جديد تم بينهما تراض شرعى.

ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ .

ذَلِكَ . النهى عن العضل والإضرار وما اتصل به من الأحكام.

يُوعَظُ بِهِ . أى يذكر به.

مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ : يغلب جانب المصلحة على هوى نفسه لأن شأنها شأن الإيمان: العمل بالأحكام ، لهذا خص بالذكر.

ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ . . .

أى ذلكم النهى عن ترك العضل على الشرط الذى تقدم ، فيه بركة وصلاح لحال متبعيه، وفيه طهر لأعراضهم وأنسابهم ، وحفظ لشرفهم وأحسابهم، فكم كان عضل النساء مدعاة للفسوق مفسدة للخلق وسببًا فى اختلال نظام البيوت ، وشقاء للذرية.

انظر إلى ولى يمنع من له الولاية عليها من الزواج بمن تحب ، ويزوجها بمن تكره : اتباعًا لهواه أو لعادات قومه كما كانت تفعل العرب من قبل ، أيرجى لمثل هذه صلاح أو أن تقيم حدود الله ، أم يخشى أن يغويها الشيطان بمن تحب، ويمد لها حبل الغواية حتى لا تقف عند حد؟

ولجهل الناس بوجوه المصالح الاجتماعية، كانوا لا يرون للنساء شأنًا فى إصلاح حال البيوت ولا فسادها، حتى جاء الإسلام وعلمهم من ذلك ما هم فى أشد الحاجة إليه من حسن معاملة النساء ؛ والرفق بهن ومعاملتهن بالحسنى : وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ . (البقرة : ٢٢٨).

ثم قال تعالى : وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ.

أى والله يعلم ما فيه صلاح أموركم من الأحكام والشرائع ، وأنتم لا تعلمون ذلك علمًا صحيحًا خاليًا من الأهواء والأوهام.

فالبشر جميعًا لم يهتدوا إلى هذه الأحكام مع تجاربهم الطويلة، بل عزبت حكمتها عن نفوس الكثيرين منهم بعد أن نزل بها الوحى وجاء بها الدين فلم يعملوا بها، وكان يجب عليهم أن يقيموها على وجهها ملاحظين ما لها من فوائد ومنافع أرشد إليها العليم الخبير الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء.

الأحكام التى تؤخذ من الآية :

أورد القرطبى حديث معقب بن يسار الذى منع أخته من العودة إلى زوجها وأنزل الله هذه الآية فانقاد لأمر الله . ثم قال القرطبى :

إذا ثبت هذا ففى هذه الآية دليل على أنه لا يجوز النكاح بغير ولى لأن أخت معقل كانت ثيبًا، ولو كان الأمر إليها دون وليها لزوجت نفسها ولم تحتج إلى وليها معقل .

فالخطاب إذًا فى قوله تعالى : ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ للأولياء ، وإن الأمر إليهم فى التزويج مع رضاهن، وقد قيل : إن الخطاب فى ذلك للأزواج ، وذلك بأن يكون الارتجاع عضلاً ومنعًا من نكاح الغير بتطويل العدة عليها، واحتج بها أصحاب أبى حنيفة على أن تزوج المرأة نفسها قالوا : لأن الله – تعالى – أضاف ذلك إليها كما قال : ﴿فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره﴾. ولم يذكر الولى .

والأول أصح لما ذكرناه من سبب النزول والله أعلم (٢٧٤).

راى المحقق أحمد شاكر :

الأستاذ المحقق أحمد شاكر من جهابذة العلماء المعاصرين، متضلع فى علوم الحديث والتفسير وفروع الشريعة. وقد علّق على حديث معقل بن يسار المزنى – الذى منع أخته من العودة إلى زوجها فنزلت فيه الآية السابقة – بما يوجب اشتراط الولى فى الزواج منعًا للمفسدة وعملاً بنصوص الشريعة ودفعًا للفتنة عن النساء.

قال الأستاذ أحمد شاكر :

قال الترمذى – بعد روايته للحديث : وفى هذا الحديث دلالة على أنه لا يجوز النكاح بغير ولى لأن أخت معقل بن يسار كانت ثيبًا ، فلو كان الأمر إليها دون وليها لزوجت نفسها ولم تحتج إلى وليها معقل بن يسار، وإنما خاطب الله فى هذه الآية الأولياء فقال : ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ . ففى هذه الآية دليل على أن الأمر إلى الأولياء فى التزويج مع رضاهن.

وقال الطبرى ٢٦/٥-٢٧ (من طبعتنا) : وفى هذه الآية الدلالة الواضحة على صحة قول من قال : لا نكاح إلا بولى من العصبة وذلك أن الله – تعالى ذكره – منع الولى من عضل المرأة إن أرادت النكاح ونهاه عن ذلك ، فلو كان للمرأة إنكاح نفسها بغير نكاح وليها إياها، أو كان لها تولية من أرادت توليته فى إنكاحها– لم يكن لنهى وليها عن عضلها معنى مفهوم ، إذ كان لا سبيل له إلى عضلها ، وذلك أنها إن كانت متى أرادت النكاح جاز لها إنكاح نفسها أو إنكاح من توكله بإنكاحها– فلا عضل هنالك لها من أحد فينهى عاضلها عن عضلها ».

وهذا الذى قاله الترمذى وابن جرير بديهى واضح من معنى الآية وفقهها، لا يخالف فى ذلك إلا جاهل، أو ذو هوى وعصبية جامحة .

ثم الذى لا يشك فيه أحد من أهل العلم بالحديث، أن حديث «لا نكاح إلا بولى» حديث صحيح ثابت بأسانيد تكاد تبلغ مبلغ التواتر المعنوى الموجب للقطع بمعناه ، وهو قول الكافة من أهل العلم، الذى يؤيده الفقه فى القرآن

ولم يخالف فى ذلك – فيما نعلم – إلا فقهاء الحنفية ومن تابعهم وقلدهم ، وقد كان لمتقدميهم بعض العذر، لعله لم يصل إليهم إذ ذاك بإسناد صحيح. أما متأخروهم ، فقد ركبوا رءوسهم وجرفتهم العصبية ، فراحوا يذهبون كل مذهب فى تضعيف الروايات أو تأويلها، دون حجة أو دون إنصاف.

وها نحن أولاء – فى كثير من بلاد الإسلام التى أخذت بمذهب الحنفية فى هذه المسألة – نرى آثار تدمير ما أخذوا به للأخلاق والآداب والإعراض مما جعل أكثر أنكحة النساء اللاتى ينكحن دون أوليائهن، أو على الرغم منهم – أنكحة باطلة تضيع معها الأنساب الصحيحة .

وأنا أهيب بعلماء الإسلام وزعمائه، فى كل بلد وكل قطر، أن يعيدوا النظر فى هذه المسألة الخطيرة ، وأن يرجعوا إلى ما أمر الله به ورسوله من شرط الولى المرشد فى النكاح حتى نتفادى كثيرًا من الأخطار الخلقية والأدبية .. »(٢٧٥).

★ ★ ★

الرضـــاعة

﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾

المفردات :

المـولود له : أبو الولد، فإن الولد يولد له وينسب إليه.

رزقهن : نفقتهن.

وسعها : الوسع، الطاقة والاحتمال.

فصالا : فطاما للولد عن الرضاع.

جناح : الجناح الإثم.

أن تسترضعوا : أن تطلبوا مرضعات لأولادكم غير أمهاتهم..

المعنى الإجمالى :

وعلى الأمهات أن يقمن بإرضاع أولادهن مدة عامين تامَّين مراعاة لمصلحة الطفل، إذا طلب أحد الوالدين او كلاهما استيفاء مدة الرضاعة تامة لاحتياج الولد إليها، ويلزم الوالد- باعتبار الولد منسوبًا إليه- بالإنفاق على الأمهات حينئذ ، بإطعامهن وكسوتهن على قدر طاقته ، بلا إسراف ولا تقتير، فإنه لا يلزم إنسان إلا بما يقدر عليه ويستطيعه ، ولا ينبغى أن يكون سببًا فى إلحاق الضرر بأمه، بأن يهضم حقها فى نفقتها ، أو حضانة ولدها، كما لا ينبغى أن يكون الولد سببًا فى إلحاق الضرر بأبيه. بأن يكلف طاقته، أو يحرم حقه فى ولده، وإذا مات الأب أو كان فقيرًا عاجزًا عن الكسب ، كانت النفقة على وارث الولد لو كان له مال، فإن رغب الوالدان أو كلاهما فى فطام الطفل قبل تمام العامين، وقد تراضيا على ذلك ، ونظرا إلى مصلحة الرضيع فلا تبعة عليهما، وإذا شئتم – أيها الآباء – أن تتخذوا مراضع للأطفال غير أمهاتهم ، فلا تبعة عليكم فى ذلك، ولتدفعوا إليهن النفقة والأجر بالرضا والمحاسنة، وراقبوا الله فى أعمالكم ، واعلموا أنه مطلع عليها مجازيكم بها.

التفسير :

٢٣٣ – وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ.

المراد بالوالدات الأمهات، سواء أكن فى عصمة أزواجهن أم كن مطلقات ، لأن اللفظ عام فى الكل ولا يوجد ما يقتضى تخصيصه بنوع من الأمهات.

ويرى بعض المفسرين أن المراد بالوالدات هنا خصوص المطلقات، لأن سياق الآيات قبل ذلك فى أحكام الطلاق.

وقد سماهن الله والدات، ولم يقل والأمهات يرضعن أولادهن، للإشارة إلى أنهن اللائى ولدن أولادهن، ومنهن يكون الغذاء الطبيعى المناسب لهذا المولود ، الذى جاء عن طريقهن.

قال الجمل : « وهذا الأمر للندب والوجوب. فهو يكون للندب عند استجماع شروط ثلاثة : قدرة الأب على استئجار المرضع، ووجود غير الأم، وقبول الولد للبن الغير، ويكون للوجوب عند فقد أحد هذه الشروط[٢٧٦].

والآية تحث الأم على إرضاع ولدها، لأن الإرضاع هو المطعم الطبيعى للمولود ، إذ إن لبن الأم يلائم حياة الطفل كل الملاءمة، فيزداد حجمًا بزيادة حجم المولود ، وتنوع محتوياته حسب حاجته، والرضاعة تفيد الأم ولا تضرها إلا فى أحوال شاذة، إذ إن الرضاعة تعمل على تحسين الحالة الصحية العامة للمرضع، بتنشيط الجهاز الهضمى وحمله على العمل للحصول على المواد الغذائية اللازمة للمولود ، وذلك فوق ما تفيده الرضاعة فى الجهاز التناسلى ، إذ تعيده إلى أوضاعه الطبيعية بعد عملية الولادة.

وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ. وقد حددت الآية مدة الرضاعة بحولين كاملين لمن أراد إتمام الرضاع.

وينبغى أن يكون الفطام تدريجيًّا، ويجوز أن يفطم الصغير لأقل من عامين من ولادته ، إذا كانت صحته تعاونه على ذلك، أما إذا كانت صحته لا تعاونه ، ولا يستسيغ الطعام الخارجى ، فإنه يستمر حتى يتم حولين كاملين، وبعدها يمكن أن يستغنى الطفل استغناء كاملاً عن لبن الأم.

وقد أثبت الأطباء الثقاة أهمية لبن الأم وحنانها ورعايتها، فى تحسين أحوال الطفل النفسية والصحية.

لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ . أى أن هذا الحكم لمن أراد إتمام الرضاعة، فإذا أراد الأبوان أن ينقصا مدة الرضاع عن الحولين كان لهما ذلك.

قال النسفى : والحاصل أن الأب يجب عليه إرضاع ولده دون الأم، وعليه أن يتخذ له ظئرا إلا إذا تطوعت الأم بإرضاعه، وهى مندوبة إلى ذلك ولا تجبر عليه، ولا يجوز استئجار الأم ما دامت زوجته أو معتدة[٢٧٧].

ونرى أن الأب والأم كلاهما شريك فى التبعة وكلاهما مسئول تجاه هذا الصغير الرضيع، وهى تمده باللبن والحضانة ، وأبوه يمدها بالغذاء والكساء لترعاه. وهناك تكامل وتعاون إنسانى وعاطفى فى رعاية الصغير، فالفطرة توجب على الأم كفالة الطفل وإرضاعه والعناية به : كما أوجب الله على الآباء أن يقدموا إلى الوالدات ما يلزمهن، من نفقة وكسوة بالمعروف ، أى بالطريقة التى تعارف عليها العقلاء دون إسراف أو تقتير.

وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ . والمراد برزقهن نفقتهن.

وقد أوجبت الآية على الوالد أن ينفق على أم رضيعه ويكسوها، سواء أكانت زوجة له أم مطلقة منه، وذلك أجرة لها على إرضاع ولدهما، بهذا قال الشافعى.

وعند الأحناف : لا تأخذ الزوجة أجرة على الرضاع، ما دامت فى عصمة الزوج أو العدة، اكتفاء بنفقتها المشروعة لها، وكل من النفقة والكسوة واجبان حسب المعروف بين الناس، بلا إسراف ولا تقتير بحيث تكون فى وسع طاقته .

لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا . . .

فكل منهما يؤدى واجبه فى حدود طاقته، فلا يلزم الوالد بما يشق عليه، بل يكون الأجر فى حدود طاقته.

ولا تلزم الأم بالإرضاع ، دون نفقة كافية لها وللرضيع ، بل ينبغى أن يتعاون الطرفان، وأن يقوم كل طرف بواجبه نحو ولده .

لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ . . .

فلا يستغل الأب عواطف الأم وحنانها ولهفتها على طفلها ليهددها فيه، أو تقبل رضاعه بلا مقابل. ولا ينبغى أن يكلفها بما ليس فى مقدورها، أو ما يخالف وظيفتها ، ولا ينبغى أن يمنعها شيئًا من نفقتها.

ولا تضار والدة زوجها بسبب ولدها، بأن تطلب منه ما ليس بعدل من الرزق والكسوة، وأن تشغل قلبه بالتفريط فى شأن الولد، وأن تقول له اطلب مرضعًا، بعد أن ألفها الرضيع.

وقدمت الأم فى الجملة الكريمة، لأن الشأن فيها أن يكون حنانها أشد، وعاطفتها أرق، ولأن مظنة إنزال العنف والأذى بها أقرب لضعفها عن الأب.

فالجملة الكريمة توجيه سديد، وإرشاد حكيم للآباء والأمهات ، إلى أن يقوم كل منهما بواجبه نحو الأولاد الذين هم ثمار لهما.

وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ.

والوارث هو من يصير إليه مال الميت بعد الموت بحق الإرث، والإشارة بقوله: ذَلِكَ. تعود إلى الحكم المتقدم وهو الرزق والكسوة ، وترك الإضرار.

أى أن والد الرضيع إذا مات، قام وارثه بالرزق والكسوة ، بالمعروف لوالدة الطفل التى ترضعه.

وقال الألوسى ما ملخصه: « والمراد بالوارث وارث الولد، فإنه يجب عليه مثل ما وجب على الأب، من الرزق والكسوة بالمعروف ، إن لم يكن للولد مال، وهو التفسير المأثور عن عمر وابن عباس وقتادة.. وخلق كثير. وخص الإمام أبو حنيفة هذا الوارث بمن كان ذا رحم محرم من الصبى. وقال الشافعى : المراد وارث الأب - يجب عليه عند موت الأب كل ما كان واجبًا على الأب.

وقيل : المراد بالوارث الباقى من الأبوين، وقد جاء الوارث بمعنى الباقى كما فى قوله - صلى الله عليه وسلم : اللهم متعنى بسمعى وبصرى واجعلهما الوارث منى » (٢٧٨).

وعلى أية حال فالجملة الكريمة تغرس معانى الإخاء والتراحم والتكافل بين أبناء الأسرة الواحدة، فالقادر ينفق على العاجز، والغنى يمد الفقير بحاجته، وبذلك تسعد الأسرة وتسودها روح المحبة والمودة، وهكذا لايضيع الطفل إن مات والده ، فحقه مكفول وحق أمه فى جميع الحالات.

فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ...

قال القرطبى : الفصال والفصل : الفطام ، وأصله التفريق ، فهو تفريق بين الصبى والثدى ومنه سمى الفصيل.

فإذا شاء الوالد والوالدة فطام الرضيع قبل استيفاء العامين لأنهما يريان مصلحة للطفل فى ذلك الفطام، لسبب صحى أو سواه، فلا جناح عليهما، إذا تم هذا بالرضا بينهما، وبالتشاور فى مصلحة الرضيع الموكول إليهما رعايته، المفروض عليهما حمايته.

وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ ...

أى : وإن أردتم - أيها الآباء - أن تسترضعوا مراضع لأولادكم ، ورضيت الأمهات بذلك، فلا إثم عليكم فيما تفعلون ، ما دمتم تقصدون مصلحة أولادكم، وعليكم أن تسلموا هؤلاء المراضع أجرهن، بالطريقة التى يقرها الشرع وتستحسنها العقول السليمة، والأخلاق القويمة.

يقول الزمخشرى: « أمروا أن يكونوا - عند تسليم الأجر - مستبشرى الوجوه ناطقين بالقول الجميل مطيبين لأنفس المراضع بما أمكن، حتى يؤمن تفريطهن بقطع معاذيرهن.

وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

تختم الآية بذلك الرباط الإلهى اللطيف ، فقد اشتملت الآية على مجموعة من الأوامر والتوجيهات بشأن معاملة الرضيع ونفقته، وهى أمور فى حاجة إلى المكارمة والإخلاص ، ومراقبة الله العليم بكل شىء، المطلع على جميع الأمور.

★ ★ ★

عدة المتوفَّى عنها زوجها

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ ﴾

المفردات :

«ويذرون أزواجا» : جمع زوج ، ويستوى فيه المذكر والمؤنث، والمقصود هنا الزوجات، أى : يتركون زوجات لهم فى عصمتهم وقت الوفاة.

يتربصن : ينتظرن فى بيت الزوجية.

المعنى الإجمالى :

والذين يتوفون منكم - أيها الرجال - ويتركون زوجات لهم غير حوامل، فعليهن أن يمكثن بعدهم دون تعرض للزواج، مدة أربعة أشهر هلالية وعشر ليال بأيامها، استبراء للرحم وحدادًا على الأزواج، فإذا انتهت هذه المدة فلا تبعة عليكم - أيها الأولياء - لو تركتموهن يأتين من شريف الأعمال التى يرضاها الشرع، ليصلن بها إلى الزواج، فلا ينبغى أن تمنعوهن من ذلك، ولا يجوز لهن أن يأتين من الأعمال ما ينكره الشرع ويأباه، فإن الله مطلع على سرائركم ، ويعلم أعمالكم فيحاسبكم على ما تعملون.

التفسيـــــر :

٢٣٤ - وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ...

والذين يتوفاهم الله - تعالى - منكم - أيها المسلمون - ويتركون من خلفهم أزواجًا ، فعلى هؤلاء الأزواج اللاتى ارتبطن برجالهن، ارتباطًا قويًا متينًا ، ثم فرق الموت بينهم وبينهن، عليهن أن : يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ

وعشرًا . . . ، أى عليهن أن ينتظرن انقضاء عدتهن، فيحبسن أنفسهن عن الزواج وعن التزين ، وعن التعرض للخطاب، مدة أربعة أشهر وعشر ليال ، وفاء لحق الزوج المتوفى، واستبراء للرحم.

قال الأستاذ سيد قطب : « والمتوفى عنها زوجها كانت تلقى الكثير من العنت من الأهل وقرابة الزوج والمجتمع كله ..

وعند العرب كانت المرأة إذا مات زوجها دخلت مكانًا رديئًا، ولبست شر ثيابها، ولم تمس طيبًا ولا شيئًا مدة سنة، ثم تخرج فتقوم بعدة شعائر جاهلية، من أخذ بعرة وقذفها، ومن ركوب دابة كالحمار.. إلخ. فلما جاء الإسلام خفف عنها هذا العنت ، بل رفعه كله عن كاهلها، ولم يجمع عليها بين فقدان الزوج واضطهاد الأهل بعده.. وإغلاق السبيل فى وجهها دون حياة شريفة، وحياة عائلية مطمئنة .. جعل عدتها أربعة أشهر وعشر ليال، ما لم تكن حاملاً فعدتها عدة الحامل، وهى أطول قليلاً من عدة المطلقة . تستبرئ فيها رحمها ، ولا تجرح أهل الزوج فى عواطفهم بخروجها لتوها، وفى أثناء هذه العدة تلبس ثيابًا محتشمة ، ولا تتزين للخطاب. فأما بعد هذه العدة فلا سبيل لأحد عليها، سواء من أهلها أو من أهل الزوج، ولها مطلق الحرية فيما تتخذه لنفسها من سلوك شريف، فى حدود المعروف من سنة الله وشريعته، فلها أن تأخذ زينتها المباحة للمسلمات، ولها أن تتلقى خطبة الخطاب، ولها أن تزوج نفسها ممن ترضى، لا تقف فى سبيلها عادة بالية، ولا كبرياء زائفة، وليس عليها من رقيب إلا الله (٢٧٩).

والتعبير بقوله : يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ. تعبير دقيق حكيم : أى عليهن أن يمنعن أنفسهن عن النكاح ، وعن التزين وعن الخروج من منزل الزوجية – إلا إذا كانت هناك ضرورة لهذا الخروج – مدة أربعة أشهر وعشرة أيام. وذلك لأن المرأة المؤمنة الوفية ، يأبى عليها دينها ووفاؤها لزوجها المتوفى عنها، أن تعرض نفسها على غيره بعد فترة قصيرة من وفاته، فإن هذا أمر مستهجن فى شرع الله ، وفى عرف العقلاء من الناس، إذ هذه المدة التى جاءت فى الآية التى حددها الله – تعالى ، لمعرفة براءة الرحم من الحمل، وهى التى تخف فيها مرارة الفراق بين زوجين، ربط الله بينهما برابطة المودة والرحمة.

والحكمة فى جعل عدة الوفاة أربعة أشهر وعشرًا أمران :

أولهما : أن الأشهر الأربعة هى التى يظهر فيها الحمل ويستبين ، وقد جعلت العشر بعدها للاحتياط.

ثانيهما : أن مدة أربعة الأشهر هى المدة التى قدرها الشارع أقصى مدة للحرمان من الرجال، ولذلك جعل الإيلاء مدته أربعة أشهر. فكان من التنسيق بين الأحكام الشرعية أن تجعل مدة الإحداد على الأزواج فى حدود هذه المدة ومقاربة لها فى الجملة (٢٨٠).

فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ .

أى فإذا بلغن أجلهن ، واستوفين عدة الوفاة الواجبة عليهن – كاملة دون نقص – واستبان حال الرحم، فلم يكن فيه حمل، فلا جناح عليكم – أيها المسلمون – فيما فعلن فى أنفسهن من زينة وغيرها مما امتنعن عنه إبان فترة العدة.

وحداد الزوجة على زوجها - أى ترك الزينة والطيب ونحوه - واجب عليها مدة عدتها التى حددها الله - تعالى - كما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال:

« لا يحل لامراة تؤمن بالله واليوم الآخر : أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا »[٢٨١].

وهذا هو رأى جمهور العلماء .

وقال الحسن بن أبى الحسن : ليس الإحداد بشىء، إنما تتربص عن الزوج ولها أن تتزين وتتطيب.

وهذا الرأى ضعيف لمخالفته للسنة .

وفى ختام الآية ، نجد القرآن يلمس القلوب ويحرك دواعى الامتثال لله . فيقول :

وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ.

أى إنه محيط بدقائق أعمالكم لا يخفى عليه منها شىء، فإذا وقفتم أنتم ونساؤكم عند حدوده، أسعدكم فى الدنيا وأجزل مثوبتكم فى الآخرة، وبذلك حملت الآية الكريمة المسلمين جميعًا ، مسئولية حماية الآداب العامة حفاظًا على المجتمع الإسلامى الفاضل.

★ ★ ★

التعريض بالخطبة

﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ ﴾

المفردات :

عرضتم : التعريض والتلويح : إيهام المقصود بما لم يوضع له حقيقة أو مجازًا . كقولك جئت لأسلم عليك، تلويحًا بأنك جئت لطلب دين أو عطاء ممن تخاطبه.

خطبة النساء : طلبهن للتزوج بهن.

أكننتم : أخفيتم ، يقال كن الشىء فى نفسه يكنه، وأكنه يكنه ، أى أخفاه وغطاه.

لا تواعدوهن سرًا : لا تواعدوهن – فى العدة – زواجا.

ولا تعزموا عقدة النكاح : ولا تقصدوا قصدا جازمًا تنفيذ عقده.

حتى يبلغ الكتاب أجله : أى حتى ينال القرآن ما قرره من الوقت لانقضاء العدة.

المعنى الإجمالى :

ولا إثم عليكم – أيها الرجال – فى مدة العدة إذا لمحتم للمعتدة من وفاة بالزواج ، أو أضمرتم ذلك فى قلوبكم ، فإن الله يعلم أنكم لا تصبرون عن التحدث فى شأنهن لميل الرجال إلى النساء بالفطرة، ولهذا أباح لكم التلويح دون التصريح ، فلا تعطوهن وعدا بالزواج إلا أن يكون ذلك إشارة لا نكر فيها ولا فحش، ولا تبرموا عقد الزواج حتى تنقضى العدة، وأيقنوا أن الله مطلع على ما تخفونه فى قلوبكم ، فخافوا عقابه، ولا تقدموا على ما نهاكم عنه، ولا تيأسوا من رحمته فإنه غفور حليم ، لا يعجل العقوبة لمن خالف أمره .

التفسير :

٢٣٥ – وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ . .

تتحدث هذه الآية عن خطبة المرأة فى فترة العدة . فأباحت شيئين ونهت عن شيئين :

أباحت التعريض بالخطبة للمرأة أثناء عدتها، كما أباحت إخفاء هذه الرغبة فى الأنفس وحديثها بها.

ونهت عن المواعدة سرًا على الزواج، لأن العدة فاصل بين عهدين من الحياة إلا من خلال كلام حسن، أو عدة طيبة لا نكر فيها ولا مخالفة لحدود الله ، كما نهت عن العزم والتصميم على الزواج وتنفيذه قبل انقضاء العدة.

وهذه الآية أدب إلهى كريم ، فالمرأة المعتدة لا تزال معلّقة بذكرى لم تمت، وبمشاعر أسرة الميت، وربما كان فى رحمها حمل لم يتبين، لذلك نهى الإسلام عن خطبة المعتدة ، كما نهى عن الزواج بها فى فترة العدة.

والإسلام دين الفطرة، يعلم حاجة الرجل إلى المرأة، وعدم صبره عنها، فأباح له التعريض والتلميح بالقول الحسن. كأن يقول لها : « إنى أريد الزواج ، وإنى لأحب امرأة من أمرها وأمرها – يعرض لها بالقول المعروف – وإن النساء لمن حاجتى ، ولوددت أن الله كتب لى امرأة صالحة » [٢٨٢].

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ . .

والمعنى : ولا حرج ولا إثم عليكم – أيها الرجال – المبتغون للزواج، فى التعريض بخطبة المرأة أثناء عدتها، للزواج منها بعد انقضاء العدة، كما أنه لا إثم عليكم كذلك فى الرغبة فى الزواج من المعتدة ، مع إخفاء ذلك وستره من غير كشف وإعلان، لأن التصريح بالخطبة أثناء العدة، عمل يتنافى مع آداب الإسلام ومع تعاليم شريعته، ومع الأخلاق الكريمة، والعقول السليمة، والنفوس الشريفة.

« وقال القرطبى : قال ابن عطية : أجمعت الأمة على أن الكلام مع المعتدة بما هو نص فى تزوجها وتنبيه

عليه لا يجوز، وكذلك أجمعت على أن الكلام معها بما هو رفث وذكر جماع أو تحريض عليه لا يجوز، وكذلك ما أشبهه ، وجوز ما عدا ذلك، ولا يجوز التعريض لخطبة المطلقة طلاقًا رجعيًّا إجماعًا لأنها كالزوجة، وأما من كانت فى عدة البينونة فالصحيح جواز التعريض لخطبتها » (٢٨٣).

عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلاَّ أَن تَقُولُوا قَوْلاً مَّعْرُوفًا . . .

وهذه الجملة كالتعليل لما قبلها، وقد أباح الله للرجل أن يفكر فى الزواج من المرأة وأن تهفو نفسه إليها، وأن يذكرها مع نفسه، فذلك يتعلق بأمر فطرى ، والإسلام يلحظ ألا يحطم الميول الفطرية إنما يهذبها، ولايكبت النوازع البشرية، إنما يضبطها، ومن ثم ينهى فقط عما يخالف نظافة الشعور، وطهارة الضمير، ولذلك حرم الوعد السرى بين الرجل والمرأة المعتدة، وأباح الكلمة الطيبة، والإشارة والتلميح بالمعروف.

وَلاَ تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ . . .

ولا تقصدوا قصدًا جازمًا تنفيذ هذا النكاح ، حتى ينتهى ما كتب وفرض من العدة، إذ العاقل لا يستعجل أمرًا قبل حلول وقته، وإنما الذى يسوغ لكم هو أن تتموا عقد الزواج بعد انتهاء العدة، وبعد أن يكون جو الأحزان قد فتر وخفت حدته.

وإذا كان قد نهى عن العزم على العقد قبل فراغ العدة، فالنهى عن العقد من باب أولى، ومن المعلوم أن عقد النكاح فى زمن العدة باطل، والمباشرة حينئذ زنا، والتفريق بينهما واجب، لأن من استحل شيئًا قبل أوانه عوقب بحرمانه، كالقاتل يعاقب بحرمانه من ميراث المقتول، وهذا رأى جمهور العلماء.

وقيل: يفسخ النكاح ويفرق بينهما ، فإذا انتهت العدة حلت له . ولم يتأبد التحريم، ولكل فريق أدلته فى كتب الفقه.

وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ . . .

اعلموا أن الله مطلع عليكم رقيب على ضمائركم ، وشهيد على أفعالكم ، فاتقوا غضبه واحذروا بطشه، وثقوا بعفوه وحلمه وغفرانه.

وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ .

غَفُورٌ . يغفر خطيئة القلب الشاعر بالله. حَلِيمٌ . لا يعجل بالعقوبة، فلعل عبده الخاطئ أن يتوب.

وبذلك تكون الآية الكريمة قد أرشدت الناس إلى ما يقره الشرع ويرتضيه الخلق الكريم، ونهتهم عما يتنافى مع تعاليم الإسلام، بأسلوب حكيم، جمع بين الشدة واللين، والخوف والرجاء.

★ ★ ★

الطلاق قبل الدخول

﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (٢٣٦) ﴾

المفردات :

تمسوهن : المس هنا ، الجماع.

أو تفرضوا : أو هنا بمعنى الواو.

فريضة : المهـــر.

ومتعوهن : المتعة ، مقدار مالى تعطاه المطلقة قبل الدخول ، قصد به أن يكون تعويضًا لها عما فاتها من زوجها، وجبرًا لما نالها من انكسار النفس.

الموسع : الغنى.

المقتر : الفقـــير.

قدره : طاقته .

المعنى الإجمالى :

ولا إثم عليكم – أيها الأزواج – ولا يجب عليكم المهر إذا طلقتم زوجاتكم قبل الدخول بهن ، وقبل أن تقدروا لهن مهرًا، ولكن أعطوهن عطية من المال يتمتعن بها لتخفيف آلام نفوسهن، ولتكن عن رضا وطيب خاطر، وليدفعها الغنى بقدر وسعه، والفقير بقدر حاله ، وهذه العطية من أعمال البر التى يلتزمها ذوو المروءات وأهل الخير والإحسان.

التفسير :

٢٣٦ – لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً . . . .

قال القرطبى : « قوله – تعالى – : لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ ... إلخ هذا أيضًا من أحكام المطلقات ، وهو ابتداء إخبار برفع الحرج عن المطلق قبل البناء والجماع، فرض مهرًا أو لم يفرض، ولما نهى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن التزوج لمعنى الذوق، وقضاء الشهوة، وأمر بالتزوج لطلب العصمة والتماس ثواب الله ، وقصد دوام الصحبة؛ وقع فى نفوس المؤمنين أن من طلق قبل البناء قد واقع جزءًا من هذا المكروه ، فنزلت الآية رافعة للجناح فى ذلك ، إذا كان أصل النكاح على المقصد الحسن » (٢٨٤).

لقد أثر القرآن الكريم والهدى النبوى أحسن الأثر فى نفوس المسلمين وتحرج بعضهم من طلاق المرأة قبل الدخول بها، فنزل هدى السماء يبيح للرجل طلاق المرأة قبل الدخول بها، إذا تبين له ضرورة ذلك، فإنهاء الحياة الزوجية قبل الدخول أخف وأيسر من إنهائها بعد الدخول.

ثم حثت الآية على المكارمة ، وأوجبت على الرجل أن يمنح مطلقته عطية حسبما يستطيع ، كنوع من أنواع التعويض، فقد علقت آمالها عليه، وحبست نفسها عن الأزواج من أجله، وفى هذه المتعة لون من ألوان الرد والمعذرة.

وَمَتِّعُوهُنَّ على الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ ...

ومتعوا المطلقات عندما يجتمع لهن أمران، عدم الدخول بهن وانتقاء تقدير مهر لهن، على الغنى ما يقدر عليه وعلى الفقير ما يقدر عليه.

وهذه المتعة واجبة عند كثير من فقهاء السلف، ومنهم على بن أبى طالب وابن عمر، وسعيد بن جبير، والزهرى ، وغيرهم.

وقال بعض الفقهاء إنها مندوبة .

والآية ظاهرة فى الرأى الأول لقوله تعالى :

مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ

فقد جعلته حقًّا واجبًا على المحسنين ، لا ينبغى أن يهملوه.

هذا بالنسبة للمطلقات قبل الدخول بهن، وقبل أن يقدر لهن المهر، أما غيرهن من المطلقات فالمتعة مندوبة فى حقهن عند الجمهور . وقال مالك وأصحابه: المتعة مندوبة فى كل مطلقة وإن دخل بها ، إلا فى التى لم يدخل بها، وقد فرض لها، فحسبها ما فرض لها، وهو نصف المهر المسمى، ولا متعة لها.

وليس للمتعة حد معروف فى الكتاب أو السنة ، ولكنها على ما قال الله تعالى : عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ ... .

وقال ابن عمر ، أدنى ما يجزى فى المتعة ثلاثون درهمًا .

ولعل الأنسب أن يترك تقدير المتعة إلى حال الشخص، والأمر المتعارف عليه بين الناس، حيث إنه لاينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان.

والمعروف كلمة واسعة ، تشمل ما عرف حسنه، وما كان مناسبًا للشخص ، وما يليق بأمثاله. وهو أمر يختلف باختلاف الزمان والمكان.

★ ★ ★

نصف المهـــر

﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ ﴾

المفردات :

فرضتم لهن فريضة : عينتم لهن مهرًا.

يعفون : يسامحنكم.

أو يعفو الذى بيده عقد النكاح : الذى بيده عقدة النكاح هو الزوج ،ومعنى يعفو هو أن يسامح المرأة المطلقة فى النصف الذى يستحقه هو من المهر، بأن يعطيها إياه كاملاً، لأن الأصل أنه لو طلقها قبل الدخول بها، يأخذ نصف المهر ويسترده منها إن كان أعطاها إياه، فيكون عفوا منه أن يتجاوز لها عن هذا النصف.

المعنى الإجمالى :

وإذا طلقتم النساء قبل الدخول بهن، بعد تقدير مهورهن ، فقد وجب لهن نصف المهر المقدر، ويدفع إليهن، إلا إذا تنازلت عنه الزوجة، كما أنهن لا يعطين أكثر من النصف إلا إذا سمحت نفس الزوج، فأعطاها المهر كله، وسماحة كل من الزوجين أكرم وأرضى عند الله، وأليق بأهل التقوى فلا يتركوها، واذكروا أن الخير فى التفضل وحسن المعاملة، لأن ذلك أجلب للمودة والتحاب بين الناس، والله مطلع على ضمائركم ، وسيجازيكم على ما تفعلون.

التفسير :

٢٣٧ – **وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلاَّ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ . . .**

أى وإن طلقتم – يا معشر الرجال – النساء من قبل أن تدخلوا بهن وتباشروهن ، ومن بعد أن قدّرتم لهن صداقًا معلومًا، فالواجب عليكم فى هذه الحالة أن تدفعوا لهن نصف ما قدرتم لهن من صداق ، إلا أن تتنازل المرأة عن حقها فتتركه لمطلقها بسماحة نفس، بأن تكون هى الراغبة فى الطلاق، أو يتنازل الذى بيده عقدة النكاح، وهو الزوج، عن حقه بأن يدفع لها المهر كاملاً، أو ما هو أكثر من النصف لأنه هو الراغب فى الطلاق.

وقيل المراد بمن بيده عقدة النكاح : هو ولى المرأة المطلقة، الذى لا تتزوج إلا بإذنه، فإن له العفو عن نصف مهر البكر إذا طلقت ، والتفسير الأول هو المأثور، وبه قال جمع من الصحابة.

وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ

الخطاب هنا للرجال والنساء ، أى : وأن تعفو المطلقات عن حقهن فى النصف ، لأن الأزواج لم يدخلوا بهن.

وأن يعفو الأزواج بالزيادة على النصف ، جبرًا لخاطر المطلقات قبل الدخول، أقرب للتقوى، وأدنى إلى تحصيل مرضاة الله، الذى أمر بالتسامح والعفو واليسر .

ولا تنسوا الفضل بينكم. قال مجاهد : إتمام الرجل الصداق كله ، أو ترك المرأة النصف الذى لها.

إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

إن الله مطّلع على أعمالكم . وفيه حث على أن يسود شعور السماحة، والتفضل والتجمل بين الناس، عند انفصام عرى الزوجية ، لتبقى القلوب نقية خالصة موصولة بالله فى كل حال.

روى أن أحد الصحابة تزوج امرأة وطلقها قبل الدخول بها، فأعطاها الصداق كاملاً، فقيل له فى ذلك ، فقال: أنا أحق بالعفو منها (٢٨٥) .

وهكذا نرى مبلغ استجابة السلف الصالح لتوجيهات القرآن ووصاياه، فأين المسلمون اليوم من هذه الوصايا والأحكام ؟

★ ★ ★

المحافظة على الصلاة

﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ ﴾

المفردات :

الوسطى : تأنيث الأوسط، وهى الفضلى، ووسط الشىء: خيره وأعدله.

قانتين : القنوت ، الطاعة والعبادة، وأصله الدوام على الشىء : ومن هنا سمى المداوم على الطاعة قانتا.

فإن خفتم : الخوف ، الفزع من أى مصدر يبعث عليه.

فرجالاً : جمع راجل، أى فصلوا راجلين.

أو ركبانًا : جمع راكب، أى راكبين على الإبل وغيرها مما يركب كالمصفحات والدبابات وغيرها.

المعنى الإجمالى :

احرصوا على إقامة الصلوات كلها، وداوموا عليها، واحرصوا على أن تكون صلاتكم هى الصلاة الفضلى بإقامة أركانها، والإخلاص الكامل لله فيها، وأتموا طاعة الله – تعالى – وذكره مخلصين له خاشعين لجلاله.

فإذا أدركتم الصلاة وأنتم خائفون فلا تتركوها، بل صلوا كما استطعتم ، مشاة أو راكبين، فإذا زال الخوف عنكم فصلوا الصلاة مستوفية الأركان كما علمتموها ، ذاكرين الله فيها، شاكرين له ما علمكم إياه وما منّ به عليكم من نعمة الأمن.

التفسير :

٢٣٨ – حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ .

من شأن القرآن الكريم أن يحث على التقوى وطاعة الله بين آيات الأحكام، حملاً للنفوس على امتثال أمر الله ، وتنفيذ أحكامه بروح طيبة وقلب سليم.

وقد تكررت الدعوة إلى المحافظة على الصلاة فى القرآن الكريم، فهى أول الأركان ، وهى الصلة بين المخلوق والخالق ، وهى الدواء العملى، والعلاج الروحى لمشاغل الدنيا، وأمورها المتعددة وفتنتها وملاهيها، فى وسط زحام هذه الحياة يجد المؤمن أن الصلاة واحة وارفة الظلال ، يتطهر لها بالماء الطهور، ويقف بين يدى ربه خاشعًا خاضعًا، مكبرًا لله راكعًا ساجدًا، متأملاً عظمة الله ،مرتلاً لآيات القرآن الكريم، فيخرج من الصلاة وقد تطهرت نفسه، وغسلت ذنوبه، فيزيده ذلك إيمانًا وتصميمًا على طاعة الله ومرضاته، قال– تعالى– اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (العنكبوت: ٤٥).

حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ. والمحافظة على الصلاة تقتضى أداءها فى أوقاتها، وإتمام ركوعها وسجودها، وحضور القلب، والخشوع والتدبر والتأمل ، فى معنى ما يقول من القرآن ، ومن التسبيح والتكبير، وبذلك تكون الصلاة وسيلة إلى مرضاة الله ورعايته وعنايته، كما ورد فى الحديث الشريف . « احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء، ما نفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشىء، ما ضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك، جفت الأقلام وطويت الصحف ».

قال الإمام الرازى : « وقوله « حافظوا » بصيغة المفاعلة التى تكون بين اثنين ، للدلالة على أن هذه المحافظة تكون بين العبد والرب، فكأنه قيل : احفظ الصلاة ليحفظك الإله الذى أمرك بها، وهذا كقوله فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ . (البقرة : ١٥٢) وفى الحديث : « احفظ الله يحفظك » أو أن تكون المحافظة بين المصلى والصلاة، فكأنه قيل : احفظ الصلاة حتى تحفظك الصلاة، بمعنى أنها تحفظك من ارتكاب المعاصى، وتشفع لمصليها يوم القيامة[٢٨٦].

والصَّلاة الوسطى: والصلاة الوسطى هى إحدى الخمس ، وقد اختلفوا فى تحديدها ، وللعلماء فى ذلك ثمانية عشر قولاً ، أوردها الشوكانى فى « نيل الأوطار » أصحها رواية ما ذهب إليه الجمهور من كونها صلاة العصر ، لحديث عند أحمد ومسلم وأبى داود مرفوعًا « شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر »(٢٨٧).

وقال بعضهم المراد بالصلاة الوسطى صلاة الصبح ، وقيل صلاة الظهر وقيل صلاة المغرب، وقيل العشاء وقيل الجمعة ، وقال بعضهم إنها غير معروفة ، وأن الله – تعالى – أبهم الصلاة الفضلى التى ثوابها أكثر ليحافظ المؤمنون على كل صلاة (٢٨٨).

قال ابن كثير : وكل هذه الأقوال فيها ضعف ، بالنسبة إلى التى قبلها، ومعترك النزاع فى الصبح والعصر، وقد أثبتت السنة أنها العصر فتعين المصير إليها – أى إلى أن المراد بالصلاة الوسطى صلاة العصر.

وخصت صلاة العصر بالذكر، لأنها تقع وقت اشتغال بعض الناس بالعمل، أو لأنها وقت الراحة والكسل بالنسبة إلى طائفة أخرى من الناس، أو لأنها فى ختام صلاة النهار، وزحمة أعمال اليوم، فهى فرصة أخيرة فى النهار يناجى فيها المؤمن ربه، ويذكره بلسانه وقلبه. ويتفرغ لمناداته ومناجاته وعبادته.

وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ. اتجهوا إلى الله عابدين خاشعين متبتلين، ففى هذا القنوت سعادة الأرواح، وشفاء النفوس، وسلامة الظاهر والباطن، فمن وجد الله وجد كل شىء، ومن فقد الله فقد كل شىء .

★ ★ ★

٢٣٩ – فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا.

أمر الله بالصلاة وأوجب أداءها، فى قنوت وخشوع، فى حالة الصحة والأمن.

والصلاة فرض أساسى وركن رئيسى من أركان الإسلام ، لا يسقط عن الإنسان بالخوف أو المرض أو العجز ، فلابد من أدائها على أى صورة تيسر للإنسان أداؤها.

فالمريض أحوج إلى دعاء الله ، والخائف أحوج إلى ذكر الله ، واستمداد الأمن والطمأنينة منه. ومن ثم تجب الصلاة فى ميدان القتال وأثناء المعركة ، كما ذكر القرآن ذلك فى سورة النساء (٢٨٩).

أما إذا زاد الخوف، وحدث القتال بالفعل ، فإن المحارب يؤدى الصلاة على أية حالة تيسر له أداؤها.

فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا. أى إذا اشتد الخوف من عدو أو سبع أو سيل جارف، ففى مثل هذه الأحوال يصلى الخائف فردًا بلا جماعة، سواء أكان رجلاً أى ماشيًا على قدميه، أم راكبًا أى وسيلة من وسائل الركوب، كالدواب والسيارة والطيارة، وتكون قبلته حيثما توجهت دابته، أو عربته أو طائرته، ولا يلزمه ركوع ولا سجود، إذا كان هذا يضره . ويكفيه عنها الإيماء بالرأس، بطريقة لا تعرضه للتهلكة، ولا ينقص عدد ركعات صلاة الخوف عن صلاة المسافر، وهى ركعتان فى الرباعية واثنتان فى الصبح وثلاث فى المغرب.

هكذا قال مالك والشافعى وجماعة من العلماء.

وقال الحسن بن أبى الحسن وقتادة وغيرهما يصلى ركعة إيماء .

روى مسلم، عن بكير بن الأخنس عن مجاهد، عن ابن عباس قال : «فرض الله الصلاة على لسان رسوله- صلى الله عليه وسلم - فى الحضر أربعًا، وفى السفر ركعتين ، وفى الخوف ركعة » (٢٩٠).

وضعف هذا الرأى بأن الأخنس انفرد بهذا الحديث، وليس بحجة عند الانفراد ، والصلاة أولى ما يحتاط فيه. فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ .

فإذا زال خوفكم ، فصلوا لله صلاة الأمن، كما علمكم من شأنها ما لم تكونوا تعلمون على لسان نبيه، حيث عرفتم كيفيتها منه، ولم يكن لكم بها علم من قبل.

والكلام جار مجرى الامتنان من الله عليهم بذلك، فقد كانوا من قبل يعبدون الأوثان ولا يعرفون عبادة الله.

★ ★ ★

المتعة والنفقة

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾

المفردات :

ويذرون : ويتركون وراءهم

وصية : فليوصوا وصية.

متاعًا إلى الحول غير إخراج : أى أن المتوفى يوصى قبل موته أن تتمتع امرأته حولاً كاملاً بالسكنى والنفقة غير مخرجة من بيت زوجها مدة الحول.

فلا جناح : فلا إثم.

وللمطلقات متاع : أى يمتعن بنفقة العدة، والمتاع ما يمنحه الأزواج للمطلقات تطييبًا لنفوسهن.

المعنى الإجمالى :

والذين يتوفون منكم ويتركون زوجات لهم، فقد أوصى الله بهن أن يقمن فى بيت الزوجية عامًا كاملاً مواساة لهن وإزالة لوحشتهن ، ولا يحق لأحد أن يخرجهن ، فإن خرجن بأنفسهن فى أثناء العام فلا إثم عليكم،

أيها الأولياء - أن تتركوهن يتصرفن فى أنفسهن بما لا ينكره الشرع الشريف عليهن، وأطيعوا الله فى أحكامه واعملوا بما شرع لكم فإنه قادر على أن ينتقم ممن يخالف أمره، وهو ذو حكمة بالغة لا يشرع لكم إلا ما فيه المصلحة ، وإن غابت حكمتها عن علمكم.

وللنساء اللاتى يطلقن بعد الدخول حق فى أن يعطين ما يتمتعن به من المال جبرًا لخاطرهن ، يدفع إليهن بالحسنى، على قدر غنى الزوج وفقره، لأن ذلك مما توجبه تقوى الله ، ويلزم به أهل الإيمان.

بمثل هذه البيانات والتشريعات الواضحة المحققة للمصلحة، يبين الله لكم أحكامه ونعمه وآياته لتتدبروها، وتعملوا بما فيها من الخير.

التفسير :

٢٤٠ - وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ .

هذه الأحكام تتمة ما فى السورة من أحكام الأزواج، وقد جاء ذكر الصلاة أثناء الحديث عن أحكام المطلقات، حثًّا للمؤمنين على مراقبة الله وطاعته عند انفصام الحياة الزوجية وانتهائها.

ومعنى الآية : والذين يتوقعون قرب الوفاة منكم - أيها المسلمون - ويتركون بعدهم زوجات ، كتب الله عليكم - أيها الأزواج - قبل الاحتضار ، وصية لهن: بأن يمتعن بعدكم بالنفقة والسكنى إلى نهاية عام كامل بعد الوفاة، غير مخرجات من مساكنهم طيلة الحول: أى لا يخرجهن منه أولياء الميت.

وجمهور المفسرين يرون أن هذه الآية منسوخة، فقد راعى القرآن التدرج فى التشريع، فشرع عدة المتوفى عنها زوجها سنة كاملة ؛ ولم يكن لها حق فى الميراث؛ وإنما لها الحق فى السكنى والنفقة فى منزل الزوج.

وقد علم أنه كان من عادة العرب إلزام المرأة بيت زوجها المتوفى سنة كاملة.

فبينت هذه الآية أن عدة المرأة المتوفى عنها زوجها سنة ، ثم نسخت هذه الآية بقوله تعالى :

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا (البقرة : ٢٣٤).

والآية التى معنا وإن تأخرت تلاوة ، إلا أنها متقدمة فى النزول.

قال المفسرون : إن المتوفى عنها زوجها : كانت تجلس فى بيته حولاً، وينفق عليها من ماله ما لم تخرج من المنزل، فإن خرجت لم يكن على الورثة جناح فى قطع النفقة عنها، ثم نسخ الحول بالأربعة الأشهر والعشر؛ ونسخت النفقة بالربع والثمن فى سورة النساء (٢٩١).

قال ذلك ابن عباس وقتادة وغيرهما.

قالوا : ومما يشهد لذلك ما أخرجه أبو داود والنسائى عن ابن عباس أنه قال فى هذه الآية : « نسخت بآية الميراث بما فرض الله لهن من الربع والثمن ، ونسخ أجل الحول بأن جعل أجلها أربعة أشهر وعشرا » (٢٩٢).

وبعض المفسرين الآخرين ، ذهب إلى أن هذه الآية محكمة وليست منسوخة ، وممن ذهب إلى هذا الرأى مجاهد ، فقد قال ما ملخصه : دلت الآية الأولى وهى : يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وعشْرا . على أن هذه عدتها المفروضة تعتدها عند أهل زوجها ، ودلت هذه الآية بزيادة سبعة أشهر وعشرين ليلة على العدة السابقة تمام الحول . وأن ذلك من باب الوصية بالزوجات، أن يمكّن من السكنى فى بيوت أزواجهن بعد وفاتهم حولاً كاملاً ، ولا يمنعن من ذلك لقوله «غير إخراج» فإذا انقضت عدتهن بالأربعة أشهر والعشر ، أو بوضع الحمل ، واخترن الخروج والانتقال من ذلك المنزل فإنهن لا يمنعن من ذلك لقوله تعالى : فَإِنْ خرجْن ... الآية .

ومن المفسرين الذين أيدوا هذا الرأى الإمام ابن كثير فى تفسيره فقال : ورأى مجاهد له اتجاه ، وفى اللفظ مساعدة له، وقد اختاره جماعة منهم الإمام أبو العباس ابن تيمية [٢٩٣].

كما روى هذا الرأى الطبرى عن مجاهد . وقال القرطبى : ما ذكره الطبرى عن مجاهد صحيح ثابت.

كما أيده أيضًا الإمام الفخر الرازى فى تفسيره ، فقد قال بعد أن ساق بعض الأدلة التى تثبت ضعف قول من قال بالنسخ : « فكان المصير إلى قول مجاهد أولى من التزام النسخ من غير دليل » [٢٩٤].

ويتضح لك أن أصحاب الرأى الثانى لا يرون معارضة بين هذه الآية ، وبين آية : وَالَّذِينَ يُتَوفَّوْنَ منكم وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْن بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ، لأن الآية التى معنا لا تتحدث عن عدة المتوفى عنها زوجها، وإنما تتحدث عن حقها فى البقاء فى منزل الزوجية بعد وفاة زوجها، وأن هذا الحق ثابت لها فإن شاءت بقيت فيه، وإن شاءت خرجت منه على حسب ما تراه مصلحة لها، ولأنها لا يوجد فى ألفاظها أو معانيها ما يلزم المرأة بالتربص والامتناع عن الأزواج مدة معينة.

أما الآية الثانية فتراها واضحة فى الأمر بالتربص أربعة أشهر وعشرا وهى العدة التى يجب أن تمتنع فيها المرأة التى مات عنها زوجها: عن التزين والتعرض للزواج، إذن فلا تعارض بين الآيتين، ومتى انتفى التعارض انتفى النسخ.

ثم ختم اللّه الآية بقوله :

واللَّهُ عَزِيزٌ حكيمٌ.

فهو – سبحانه – قوى قادر غالب على أمره ، حكيم فيما شرع لعباده من آداب وأحكام.

★ ★ ★

٢٤١ – وللْمُطَلقات متاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ.

تستجيش هذه الآية شعور التقوى فى نفس المؤمن، وتحثه على تقديم المتعة إلى المطلقة.

وللعلماء رأيان فى هذه المتعة :

الرأى الأول : أنها أمر زائد على النفقة ، أوجبه اللّه للمرأة على مطلقها جبرًا لوحشة الفراق، وإزالة لما قد يكون بين الزوجين من شقاق ،وتخفيفًا لما قد يحيط بجو الطلاق من تنافر وتخاصم وعدم وفاق. قال

ابن كثير : وقد استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى وجوب المتعة لكل مطلقة، سواء كانت مفوضة، أو مفروضًا لها، أو مطلقة قبل المسيس ، أو مدخولاً بها، وإليه ذهب سعيد بن جبير، وغيره من السلف ، واختاره ابن جرير، وهو قول عن الشافعى (٢٩٥).

وعلى هذا التفسير يكون المراد بالمتاع ما يعطيه الرجل لامرأته التى طلقها، زيادة على الحقوق المقررة لها شرعًا، ليكون التسريح بإحسان.

الرأى الثانى : أن المراد بالمتاع نفقة المعتدات .

ومعنى كون هذا المتاع: بِالْمَعْرُوفِ . أن يكون حسب العرف بين الناس ، وبحيث يكون على نحو ما قال الله: وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ . (البقرة : ٢٣٦).

★ ★ ★

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات المتعلقة بأحكام الأسرة بقوله :

٢٤٢ - كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ.

أى : بمثل هذا البيان الحكيم الواضح ، لأحكام النكاح والطلاق والعدة بأنواعها، والمتعة وغير ذلك ، يبين الله لكم آياته كلها فى شريعته، لكى تدركوا أسرارها ، وتعقلوا أغراضها ، فتنفذوها عن يقين واقتناع.

★ ★ ★

وإلى هنا تكون سورة البقرة قد بينت لنا فى أكثر من عشرين آية ، بعض الأحكام التى تتعلق بالأسرة وصيانتها وسعادتها ، بأسلوب مؤثر حكيم، وبطريقة تهدى إلى أفضل الأخلاق، وأقوم العلاقات بين الأفراد والجماعات ، وإن المتأمل فى هذه الآيات وما اشتملت عليه من توجيهات سامية، ليوقن بأن هذا القرآن إنما هو من عند الله ، الذى شرع لعباده ما فيه صلاحهم وسعادتهم.

★ ★ ★

الموت والحياة بيد الله

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ ﴾

المفردات :

الم تر : تعجب وتقرير لمن سمع بقصتهم ، وقد يخاطب به من لم ير ولم يسمع فإنه صار مثلاً فى التعجب.

حــذر الموت : أى من حذر الموت .

المعنى الإجمالى :

تنبه - أيها النبى - إلى القصة العجيبة واعلمها ، وهى حالة القوم الذين خرجوا من ديارهم فرارًا من الجهاد ، خشية الموت فيه، وهم ألوف كثيرة، فقضى الله عليهم بالموت والهوان من أعدائهم ، حتى إذا استبسلت بقيتهم ، وقامت بالجهاد ، أحيا الله جماعتهم به، وإن هذه الحياة العزيزة بعد الذلة المميتة من فضل الله، الذى يستوجب الشكران، ولكن أكثر الناس لا يشكرون.

التفسير :

٢٤٣ - أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ . .

المعنى : ألم ينته علمك إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف - وكانوا فوق عشرة آلاف - لأن العشرة فما دونها جمع قلة، فيقال فيها : آلاف، ولا يقال ألوف إلا لجمع الكثرة الذى يزيد على العشرة..

ولذا روى عن ابن عباس : أنهم كانوا أربعين ألفا، كما فى بعض الروايات عنه ، وكان خروجهم بهذه الكثرة، خوفًا من الموت، وحذرا منه، مع أن الحذر لا يمنع من القدر، فإذا جاء أجلهم معًا - أو متفرقين - لايستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون.

ويرى بعض المفسرين : أن هذه الآية الكريمة : تنبئنا عن قوم من بنى إسرائيل، دعوا إلى الجهاد فى سبيل الله ، فخرجوا من ديارهم فرارًا منه، حتى لا يموتوا - مع أنهم كانوا ألوفا، فلا ينبغى لهم أن يفروا- لأن من عاداتهم أن يجبنوا عن القتال ، كما حدث عندما أمرهم موسى - عليه السلام- بقتال الجبارين، فقالوا له : فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ . (المائدة : ٢٤). فأماتهم الله جميعًا، عقابا لهم على فرارهم ، ثم أحياهم ليبين لهم قدرة الله عليهم، وأنه لا ينفعهم الفرار من القتال ، إن كان الموت فيه مكتوبًا عليهم ، فقد يموت المرء بدون قتال ، كما حدث لهم.

ويقول صاحب هذا الرأى : إنه- تعالى- بعد أن أحياهم أمرهم بالقتال فقال لهم: وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّه. (البقرة : ٢٤٤) لعلهم يعتبرون بذلك فيخلصوا فى الجهاد.

وقال ابن عطية منكرًا لهذا وأمثاله من القصص : وهذا القصص كله لين الأسانيد . وإنما اللازم من الآية أن الله – تعالى – أخبر نبيه محمدًا – صلى الله عليه وسلم – إخبارًا فى عبارة التنبيه والتوقيف ، عن قوم من البشر، خرجوا من ديارهم فرارًا من الموت، فأماتهم الله ثم أحياهم ليروا – هم وكل من خلف من بعدهم – أن الإماتة إنما هى بيد الله – تعالى – لا بيد غيره، فلا معنى لخوف خائف ولا لاغترار مغتر. وقد جعل الله هذه الآية مقدمة بين يدى أمره للمؤمنين من أمة محمد – صلى الله عليه وسلم – بالجهاد . هذا قول الطبرى . وهو ظاهر معنى الآية .

ويرى الشيخ محمد عبده: أن هذا مثل لا قصة واقعية ، وأن الموت هنا مجازى.

وخلاصة رأيه : أن هؤلاء القوم فروا أمام أعدائهم دون قتال، وتركوا أوطانهم غنيمة للأعداء، فعاشوا أذلاء مشردين، فى حياة أشبه بالموت. فلما عرفوا جنايتهم على أنفسهم – عادوا إلى جهاد أعدائهم، وتحرير أوطانهم . فاستردوا كرامتهم، وعاشوا حياة كريمة جديرة بالمجاهدين الأبطال .

ويرى آخرون : أنها تتحدث عن قوم نزل ببلادهم وباء الطاعون ، فعمها بأسباب الموت . فظنوا أن فرارهم من هذا الوباء سيكفل لهم النجاة من الموت، فأماتهم الله عقابًا لهم ، فلكل أجل عند الله كتاب وقدر. وقد فاتهم أنهم سينقلون معهم وباء الطاعون ، إلى بلاد خالية منه. وتلك جريمة أخرى. وفى هذا يقول الرسول – صلى الله عليه وسلم – : « إن هذا السقم، عذب به الأمم قبلكم ، فإذا سمعتم به فى أرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض – وأنتم فيها – فلا تخرجوا فرارًا منه .. » إلخ ، أخرجه الإمام أحمد عن عمر. وللشيخين نحوه.

وهذا الإرشاد منه – صلى الله عليه وسلم – مطابق لأحدث النظم الصحية، وهو ما يعرف اليوم ، بالحجر الصحى.

والتعبير بقوله تعالى : فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ . إما على ظاهره، وإما مجاز عن تعلق إرادة الله تعالى بموتهم دفعة واحدة.

وقيل : هو تمثيل لإماتتهم ميتة نفس واحدة ، فى أسرع زمان، بأمر مطاع لمأمور مطيع .

والله يعلم مقدار المدة التى ظلوا فيها أمواتًا. ولكنها لابد متراخية فترة عن إماتتهم، كما يوحى به العطف بثم فى قوله تعالى : ثُمَّ أَحْيَاهُمْ . أى ثم أعادهم الله إلى الحياة مرة أخرى، بعد فترة موت، ليستوفوا آجالهم، وليؤمنوا بقضاء الله وقدره، وليكونوا عبرة يعتبرون بها هم وغيرهم، وليظهر فضل الله الذى عبر عنه قوله تعالى . إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ . بما أنعم به عليهم من نعمة الخلق، ونعمة البقاء والرزق . وبما يريهم من الآيات الباهرة. والحجج القاطعة، التى تنفعهم فى دينهم.

وبيَّن الأستاذ سيد قطب الحكمة المقصودة من الآية بقوله : « إن الحذر من الموت لا يجدى ، وإن الفزع والهلع لا يزيدان حياة، ولا يمدان أجلاً، ولا يردان قضاء، وإن الله هو واهب الحياة، وهو آخذ الحياة، وأنه

متفضل فى الحالتين حين يهب، وحين يسترد ، والحكمة الإلهية الكبرى كامنة خلف الهبة وخلف الاسترداد، وأن مصلحة الناس متحققة فى هذا وذاك، وأن فضل الله متحقق فى الأخذ والمنح سواء »[٢٩٦].

إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ .

أى أن الله – تعالى – لصاحب تفضل دائم على الناس حيث أوجدهم بهذه الصورة الحسنة، وخلق لهم عقولاً ليهتدوا بها إلى طريق الخير ، وسخر لهم الكثير مما فى هذا الكون، فمن الواجب عليهم أن يشكروه وأن يطيعوه، ولكن الذى حدث منهم أن أكثرهم لا يشكرون الله – تعالى – على ما منحهم من نعم.

وفى قوله : وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ. إنصاف للقلة الشاكرة منهم ومديح لهم على استقامتهم وقوة إيمانهم.

* * *

فضل القتال والصدقة

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٤٤) مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥) ﴾

المفردات :

سبيل الله : السبيل : الطريق ، يذكر ويؤنث . وإذا أطلق انصرف إلى الجهاد.

يقرض : الإقراض ، إعطاء شخص مالاً لغيره ، ليرده إليه بعد حين.

ويبسط : يوسع على من يشاء.

المعنى الإجمالى :

وإذا علمتم أن الفرار من الموت لا ينجى منه، فجاهدوا وابذلوا أنفسكم لإعلاء كلمة الله ، وأيقنوا أن الله يسمع ما يقول المتخلفون وما يقول المجاهدون ، ويعلم ما يضمر كل فى نفسه فيجازى بالخير خيرًا وبالشر شرا .

والجهاد فى سبيل الله يحتاج إلى المال فقدموا أموالكم ، فأى امرئ لا يبذل أمواله لله طيبة بها نفسه، وقد وعد الله أن يردها عليه مضاعفة أضعافًا كثيرة، والرزق بيد الله فيضيق على من يشاء ويوسع لمن يشاء لما فيه مصلحتكم. وإليه مصيركم فيجازيكم على ما بذلتم، ومع أن الرزق من فضل الله وعنايته وأنه هو الذى يعطى ويمنع ، سمى المنفق مقرضًا للحث على الإنفاق والتحبيب فيه، وتأكيد الجزاء المضاعف فى الدنيا والآخرة.

التفسير :

٢٤٤ - وقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

هذه الجملة معطوفة على جملة « ألم تر » من جهة المعنى ، فإن « ألم تر » بمعنى : انظروا وتفكروا.

وإنك لترى الأمر بالجهاد منثورًا فى هذه السورة ، ضمن آيات الأحكام مذكرًا به من آن لآخر، لأنه من أشق التكاليف ، وعليه يدور بقاء هذا الدين، الذى يتربص به أعداؤه . فلو لم يجاهدوا لهلكوا، وضاع دينهم.

وقد بدأ الحديث عن الجهاد - فى هذه السورة - بقوله تعالى : وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ . (البقرة : ١٥٤) حتى وصل إلى هذا التكليف الكريم، ثم ينتهى فى آخر السورة : بالحث على الإنفاق فى سبيله.

والخطاب هنا، لأمة محمد - صلى الله عليه وسلم .

والجهاد فى سبيل الله : هو ما كان لإعلاء كلمة الله، فلا يكون الجهاد فى سبيل الله، إلا إذا كان هم المقاتل ومقصده ، إحياء دينه ونشره والدفاع عنه. فإن لم تكن تلك نيته ، فإنما يقاتل لأمر دنيوى . ومن كان ذلك، لا يحصل على الثواب ، الذى أعده الله لمن يجاهدون فى سبيله.

وفى مضمون الآية الكريمة : تحذير لكل مسلم من أن يجبن عن القتال حذر الموت ، بقوله : وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . فإن الموت قدر لابد منه . قال- تعالى-: قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ. (الجمعة : ٨) إذ الموت أجل يبلغه المرء فيموت ، سواء أكان على فراشه، أم كان فى حرب ضروس.

كما أن فيها رمزًا إلى وعدهم بحسن الجزاء، وكأنه يقول : واعلموا أنه سميع عليم، فلا يخفى عليه مجاهد أو قاعد . فمن قعد عنه، عوقب أشد العقاب. ومن جاهد ، جوزى أعظم الجزاء.

★ ★ ★

ثم حرضهم على الإنفاق فى سبيل الله بأموالهم، بعد أن أمرهم ببذل أنفسهم فقال :

٢٤٥ - مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً .

بهذا الأسلوب الاستفهامى البليغ ، يدفعنا الله - تعالى - دفعًا إلى المشاركة بالمال، فى الإعداد للقتال؛ إعدادًا نرهب به عدو الله وعدو دينه، لتكون كلمة الله هى العليا.

وقد صورت الآية إعطاء الباذل ماله فى سبيل الله يبتغى ثوابه بصورة تقديم قرض إلى مقترض ، للإيذان بأن ثوابه محقق، ولازم لزوم أداء الدّين.

وفى الآية لطف من الله بعباده، وتوثيق لثوابه، وأنه لازم الأداء : تفضلاً منه وتحقيقًا لوعده الذى لا يتخلف ، حيث جعل نعمته التى أنعم بها على عباده - إذا أنفقوها فى سبيل الله - كأنها قرض يقدمونه له - سبحانه - مباشرة ، مع أنه غنى عن عباده ، فهو الذى يقول : وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ. (محمد : ٣٨).

والمراد بكون القرض حسنًا : أن يكون حلالاً طيبًا. ومع أن القرض مع الناس يؤدى بمثله، فإنه - تعالى - بين لعباده أن القرض معه يؤدى مضاعفًا ، إذ قال : فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً . عوضًا عن هذا القرض الذى قدموه خالصًا لله. وتلك المضاعفة ، تكون فى وقت تشتد فيه حاجتهم إلى هذا الربح الوفير ، وهو يوم القيامة .

وقد بين الله هذه المضاعفة فى أواخر السورة إذ يقول : مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . (البقرة : ٢٦١) .

وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

أى يضيق الرزق على بعض، ويوسِّعه على بعض ، أو يضيقه تارة ، ويوسعه أخرى، حسبما تقتضيه الحكمة.

وإذا علمتم أنه - تعالى - واهب الأرزاق ، يوسعها ويضيقها كما يشاء وأن ما عندكم هو من بسطه وعطائه ، فأنفقوا مما وسع عليكم، ولا تبخلوا بما هو من فضله ، فإنه مجازيكم على إنفاقكم جزاء مضاعفاً، حسبما وعدكم.

★ ★ ★

رغبة فى القتال

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) ﴾

المفردات :

ألم تر إلى الملأ : الملأ من القوم، وجوههم وأشرافهم، وهو اسم للجماعة لا واحد له من لفظه. سموا بذلك ، لأنهم يملأون القلوب مهابة، والعيون حسنا وبهاء، والمقصود به هنا - وفى كل القرآن - الرجال : كالقوم، والرهط ، والنفر. والرؤية - هنا - علمية : ضمنت معنى الانتهاء . فعديت بحرف الجر (إلى) . والاستفهام : للتعجب والتشويق لهذه القصة.

هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا : فقد قاربتم عدم القتال إن كتب عليكم كما يتوقع منكم، فعسى للتوقع. والمراد : تقرير أن المتوقع منهم كائن ، ولابد من وقوعه.

المعنى الإجمالى :

تنبه الآية إلى النبأ العجيب عن جماعة من بنى إسرائيل بعد عهد موسى طلبوا من نبيهم فى ذلك الوقت أن يجعل عليهم حاكمًا يجمع شملهم بعد تفرق، ويقودهم تحت لوائه إعلاءً لكلمة الله واستردادًا لعزتهم، سألهم ليستوثق من جدِّهم فى الأمر: ألا ينتظر منكم أن تجبنوا عن القتال إذا فرض عليكم ؟ فأنكروا أن يقع ذلك منهم قائلين: وكيف لا نقاتل لاسترداد حقوقنا وقد طردنا العدو من أوطاننا، فلما أجاب الله رغبتهم وفرض عليهم القتال ، أحجموا إلا جماعة قليلة منهم، وكان إحجامهم ظلمًا لأنفسهم ونبيهم ودينهم ، والله عليم بالظالمين.

التفسير :

٢٤٦ - أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

كان العبرانيون جيرانًا لبنى إسرائيل . وكان يحكمهم ملك يقال له جالوت - ولما فسق بنو إسرائيل ، وقتلوا أنبياءهم - سلطهم الله عليهم، فهزموهم، وظهروا عليهم ، وأخذوا كثيرًا من بلادهم ، وأسروا من أشرافهم عددًا كبيرًا، وضربوا عليهم الجزية، وأخذوا توراتهم ، واستباحوا نساءهم. فلما رأوا ما حل بهم عادوا إلى رشدهم ، وقالوا لنبيهم يوشع - عليه السلام - : أقم علينا ملكا يضم شتاتنا، وتتصاع لهذا الملك جماعتنا ، ونقاتل تحت لوائه فى سبيل الله وشريعته وقد كفانا كل ما لقيناه من ذل الهزيمة والاستعباد.

وكان الملك فيهم هو الذى يسير بالجموع. أما النبى ، فهو الذى يقيم أمره ويرشده ويشير عليه ، فيطيع الملك أمره كسائر بنى إسرائيل.

والخطاب فى قوله : أَلَمْ تَرَ . لكل من تتأتى منه الرؤية والعلم.

قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا .

هل : هنا - للتحقيق فهى بمعنى « قد » و « عسى » تفيد التوقع : وأدخلت « هل » عليها لتحقيق ما يتوقعه النبى ، « ألا تقاتلوا » خبر « عسى ».

والمعنى : قال لهم نبيهم مجيبًا لهم : أتوقع عدم قتالكم، إن كتب عليكم القتال ، وذلك التوقع محقق عندى وثابت ، وقد بنى توقعه هذا على تاريخهم فى الجهاد ، وجبنهم طول حياتهم أمام عدوهم ، وقولهم لموسى- عليه السلام - حينما دعاهم للجهاد: فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ . (المائدة : ٢٤) فأجابوا نبيهم :

قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا .

والمعنى : وأى شىء يمنعنا من أن نقاتل فى سبيل الله ، ويصرفنا عنه مع وجود مقتضيه ، فقد أخرجنا الأعداء من ديارنا: وطغى علينا قوم جالوت ، فاستباحوا أبناءنا ونساءنا، وهذه حال تقتضى الجهاد، الذى تركناه طلبًا للسلامة والعافية ففقدناهما، فاسأل ربك ما طلبناه منك: من تنصيب ملك علينا: نقاتل معه، لنسترد أرضنا وكرامتنا ومقدساتنا.

فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ .

أى : فلما فرض عليهم قتال أعدائهم - بعد ما اختار لهم نبيهم ملكا كطلبهم وبرزوا لقتاله، وشاهدوا جده فى قتالهم - ولَّوا فرارًا وجبنا، إلا نفرًا قليلاً منهم : آثروا أخراهم على دنياهم، طمعًا فيما عند الله وإيمانًا بأنه قد قدرت عليهم آجالهم ، فلا ينجيهم من الموت فرار، إن كان مكتوبًا عليهم، فصبروا مع ملكهم طالوت على قتال عدوهم جالوت .

وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ .

أى جميعًا ، ومنهم الذين تركوا القتال من بنى إسرائيل ، وناقضت أعمالهم أقوالهم، فهو مجازيهم على ظلمهم ، بتوليهم وسائر معاصيهم.

★ ★ ★

مؤهـــــلات المُلك

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ ﴾

المفردات :

طالوت	: اسم أعجمى قيل هو المسمى فى التوراة باسم شاول، وقيل إن هذا الاسم لقب له من الطول كملكوت من الملك، لأن طالوت كان طويلاً جسيمًا.
أنى يكون	: كيف يكون، أو من أين يكون.
سعة من المال	: كثرة وفيرة من المال.
التابوت	: صندوق التوراة ، وبعض المقدسات.
فيه سكينة من ربكم	:فى التابوت طمأنينة لقلوبكم، لما فيه من علوم وشرائع وبركة وهداية.
وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون	:تلك البقية هى قطع الألواح، وعصا موسى وثيابه. وعمامة هارون إلى غير ذلك.
تحمله الملائكة	: نزلت به الملائكة تحمله وهم ينظرون إليه، حتى وضعته بين يدى طالوت.

المعنى الإجمالى :

وقال لهم نبيهم إن الله استجاب لكم، فاختار طالوت حاكمًا عليكم، فاعترض كبراؤهم على اختيار الله قائلين: كيف يكون ملكًا علينا ونحن أولى منه، لأنه ليس بذى نسب ولا مال ، فرد عليهم نبيهم قائلاً : إن الله اختاره حاكمًا عليكم لتوافر صفات القيادة فيه، وهى سعة الخبرة بشئون الحرب، وسياسة الحكم مع قوة الجسم،

والسلطان بيد الله يعطيه من يشاء من عباده، ولا يعتمد على وراثة أو مال، وفضل الله وعلمه شامل، يختار ما فيه مصالحكم.

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُم ، إن دليل صدقى على أن الله اختار طالوت حاكمًا، هو أن يعود إليكم صندوق التوراة الذى سلب منكم تحمله الملائكة، وفيه بعض آثار آل موسى وآل هارون ، الذين جاءوا من بعدهما، وعند إحضاره تطمئن قلوبكم، وإن فى ذلك لدليلاً يدفعكم إلى اتباعه والرضا به إن كنتم تذعنون للحق وتؤمنون به .

التفسير :

٢٤٧ - وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا . . .

أى قال لهم نبيهم بعد أن أوحى الله إليه بما أوحى، إن الله تعالى ، وهو العليم الخبير بأحوال عباده قد اختار لكم، ومن أجل مصلحتكم طالوت ليكون ملكًا عليكم، وقائدًا لكم فى قتالكم لأعدائكم ، فأطيعوه واتبعوا ما يأمركم به.

قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ . . .

تشير هذه الجملة إلى طبيعة بنى إسرائيل ، من اللَّجاجة والعناد، لقد كانوا يطلبون ملكًا يقاتلون تحت لوائه، فلما اختار الله لهم طالوت ، أنكروا اختياره وتعجبوا منه، وقالوا : كيف يكون له الملك علينا، والحال أننا أحق بالملك منه، لأننا أشرف منه نسبًا ، إذ منا من هو من نسل الملوك، أما طالوت فليس من نسلهم ، وفضلاً عن ذلك فهو لا يملك من المال ما يملكه بعضنا، فكيف يكون هذا الشخص ملكًا علينا ؟.

فأنت تراهم لانعدام المقاييس الصحيحة عندهم، ظنوا أن المؤهلات الحقيقية لاستحقاق الملك والقيادة، إنما تكون بالنسب وكثرة المال، أما الكفاءة العقلية، والقوة البدنية ، والقدرة الشخصية، فلا تؤهل للملك فى نظرهم ، وكل هذا غش فى التصور ، كما أنه من سمات بنى إسرائيل المعروفة.

قال بعض المفسرين : « وسبب هذا الاستبعاد أن النبوة كانت مخصوصة بسبط معين من أسباط بنى إسرائيل ، وهو سبط لاوى بن يعقوب ، وسبط المملكة بسبط يهوذا، ولم يكن طالوت من أحد هذين السبطين بل من ولد بنيامين »[٢٩٧] .

واستبعد الأستاذ محمد عبده هذا القول من المفسرين وقال : « ولا يصح كلامهم فى بيت الملك لأنه لم يكن فيهم ملوك قبله، ونفيهم سعة المال التى تؤهله للملك فى رأى القائلين لا تدل على أنه كان فقيرًا، وإنما العبرة فى العبارة هى ما دلت عليه من طباع الناس، وهى أنهم يرون أن المَلك لابد أن يكون وارثًا للمُلك، أو ذا نسب عظيم يدبر به الملك، والسبب فى هذا أنهم قد اعتادوا الخضوع للشرفاء والأغنياء، وإن لم يمتازوا عليهم بمعارفهم وصفاتهم الذاتية ، فبين الله أنهم مخطئون فى زعمهم أن استحقاق الملك يكون بالنسب وسعة المال»[٢٩٨]

قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ .

إن اللّه فضله واختاره للملك ومنحه عدة مؤهلات هى :

١ - الاستعداد الفطرى للملك.

٢ - السعة فى العلم الذى يكون فيه التدبير ، ويشمل ذلك معرفته بأحوال أمته، واستثمار قوى الخير فيها.

٣ - بسطة الجسم الملتزم لصحة الفكر على قاعدة « العقل السليم فى الجسم السليم » ، والشجاعة والقدرة على المدافعة والهيبة والوقار.

٤ - توفيق اللّه وتسخيره لأسباب الملك.

قال الأستاذ محمد عبده:

والاستعداد هو الركن الأول فى المرتبة ، فلذلك قدمه ، والعلم بحال الأمة ومواضع قوتها وضعفها وجودة الفكر فى تدبير شئونها هو الركن الثانى فى المرتبة ، فكم من عالم بحال زمانه غير مستعد للسلطة. اتخذه من هو مستعد لها سراجًا يستضيئ برأيه فى تأسيس مملكته أو سياستها، ولم ينهض به رأيه إلى أن يكون هو السيد الزعيم فيها.

« وكمال الجسم فى قواه ورواثه هو الركن الثالث فى المرتبة ، وهو فى الناس أكثر من سابقيه ، وأما المال فليس بركن من أركان تأسيس الملك، لأن المزايا الثلاث إذا وجدت سهل على صاحبها الإتيان بالمال، وإنا لنعرف فى الناس من أسس دولة وهو فقير أمى ، ولكن استعداده ومعرفته بحال الأمة التى سادها وشجاعته كانت كافية للاستيلاء عليها، والاستعانة بأهل العلم بالإدارة ، والشجعان على تمكن سلطته فيها » (٢٩٩).

وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ : فاللّه - سبحانه - إذا أراد أمرًا هيأ له الأسباب ، ثم قال له : كن فيكون .

« فإيتاؤه الملك لمن يشاء بمقتضى سنته ، إنما يكون بجعله مستعدًا للملك فى نفسه، وبتوفيق الأسباب لسعيه فى ذلك » (٣٠٠).

وَاللَّهُ وَاسِعٌ . الفضل والعطاء ، عَلِيمٌ . بشئون عباده خبير بأحوالهم وأعمالهم.

قال تعالى : قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . (آل عمران : ٢٦).

★ ★ ★

٢٤٨ - وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ . . . .

وقال لهم نبيهم ليقنعهم بأن طالوت جدير بالملك.

إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ . أى علامة ملكه، أن يأتيكم صندوق فيه ألواح التوراة، وبعض المقدسات على يدى طالوت.

وكان أعداؤهم الذين شردوهم من الأرض المقدسة التى غلبوا عليها، على يد نبيهم يوشع بن نون، بعد فترة التيه ووفاة موسى - عليه السلام - قد سلبوا منهم مقدساتهم ممثلة فى التابوت الذى يحفظون فيه مخلفات أنبيائهم، من آل موسى وآل هارون، وقيل : كانت فيه نسخة من الألواح التى أعطاها الله لموسى على الطور.. فجعل لهم نبيهم علامة من الله أن تقع خارقة يشهدونها، فيأتيهم التابوت بما فيه: تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ . فتفيض على قلوبهم السكينة .. قال لهم : إن هذه الآية تكفى دلالة على صدق اختيار الله طالوت ، إن كنتم مؤمنين حقا. ويبدو من السياق أن هذه الخارقة قد وقعت فانتهى القوم منها إلى اليقين .

قال الزمخشرى : قوله : وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ . هى رضراض الألواح وعصا موسى وثيابه وشىء من التوراة، وكان الله قد رفعه بعد موسى - عليه السلام - فنزلت به الملائكة تحمله وهم ينظرون إليه، فكان ذلك آية لاصطفاء الله لطالوت ، فإن قلت : من هم « آل موسى وآل هارون » ؟ قلت : الأنبياء من بنى يعقوب بعدهما، ويجوز أن يراد مما تركه موسى وهارون والآل مقحم لتفخيم شأنهما » (٣٠١).

وقال ابن كثير : « قال ابن عباس : جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض حتى وضعته بين يدى طالوت والناس ينظرون » (٣٠٢) .

وقيل : إن حمل الملائكة للتابوت مجاز عن الإبصار له ، كما تقول : حمل فلان متاعه إلى مكة ، أى أوصله إليها.

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ.

أى أن فى ذلك الذى أتاكم به طالوت لآية عظيمة وعلامة ظاهرة لكم تدل على أحقية طالوت بالملك والقيادة إن كنتم مؤمنين بآيات الله ، وبالحق الذى جاء به أنبياؤه.

★ ★ ★

اختبـــــار الجنـــود

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١) ﴾

المفردات :

فصل : خرج.

مبتليكم بنهر : أى مختبركم به، ليظهر الصادق منكم والكاذب فى طاعة الملك، والجهاد فى سبيل الله، لإخراج العدو من البلاد التى أخذها منكم.

يطعمه : يذق طعمه.

اغترف، غرفة : الغرفة ، ما يغرف.

لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده : لا قوة لنا على حربه، فضلاً عن الانتصار عليه.

يظنون : هى هنا بمعنى يوقنون بالبعث ، على حد قوله تعالى : إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ . (الحاقة : ٢٠).

ملاقو الله : أى مبعوثون إليه.

برزوا : ظهروا واصطفوا للقتال ، على بارز من الأرض.

المعنى الإجمالى :

فلما خرج بهم طالوت قال لهم إن الله مختبركم بنهر تمرون عليه فى طريقكم فلا تشربوا منه إلا غرفة، فمن شرب منه أكثر من ذلك فليس من جيشنا، ولا من جمعنا، لخروجه على طاعة الله ، ولن يصحبنى إلا من لم يشرب منه أكثر من غرفة، فلم يصبروا على هذا الاختبار وشربوا منه كثيرًا إلا جماعة قليلة ، فاصطحب هذه القلة الصابرة واجتاز بها النهر ، فلما ظهرت لهم كثرة عدد عدوهم قالوا : لن نستطيع اليوم قتال جالوت وجنوده لكثرتهم وقلتنا ، فقال نفر منهم - ثبت الله قلوبهم لرجائهم فى ثواب الله عند لقائه - لا تخافوا فكثيرًا ما انتصرت القلة المؤمنة على الكثرة الكافرة، فاصبروا فإن الله مع الصابرين.

ولما تقدم المؤمنون لقتال جالوت وجيشه اتجهوا إلى الله ضارعين داعين له أن يملأهم بالصبر، ويقوى عزائمهم ويثبتهم فى ميدان القتال ، وأن ينصرهم على أعدائهم الكافرين.

فهزموا عدوهم بإذن الله - تعالى - وقتل داود - وهو أحد جنود طالوت - جالوت قائد الكفار، وأعطاه الله الحكم بعد طالوت والنبوة والعلم النافع وعلمه مما يشاء ، وسنة الله أن ينصر الذين يصلحون فى الأرض ولا يفسدون ، ولولا أن الله يسلط جنوده على المفسدين لمحو فسادهم ، ويسلّط الأشرار بعضهم على بعض ، لما عمرت الأرض ، ولكن الله دائم الإحسان والفضل على عباده .

التفسير :

٢٤٩ - فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ . . .

فلما خرج طالوت بالجنود من بيت المقدس لقتال أعدائهم ساروا فى أرض قفرة أصابهم عطش شديد، ثم مروا بنهر فى الطريق ، فطلب منهم القائد ألا يشربوا منه ورخص لهم فى غرفة واحدة باليد.

فانقسم أتباع طالوت إلى ثلاثة أقسام :

١ - قسم شرب كثيرًا مخالفًا أمر طالوت.

٢ - قسم شرب غرفة واحدة بيده كما رخص له قائده.

٣ - قسم لم يشرب أصلاً لا قليلاً ولا كثيرًا مؤثرًا العزيمة على الرخصة، وهذا القسم هو الذى اعتمد عليه طالوت اعتمادًا كبيرًا فى قتاله لأعدائه.

نقل القرطبى عن ابن عباس أنه قال : « شربوا على قدر يقينهم، فشرب الكفار شرب الهيم [٣٠٣] ، وبقى بعض المؤمنين لم يشرب شيئًا ، وأخذ بعضهم الغرفة، فأما من شرب فلم يرو بل برح به العطش، وأما من ترك الماء فحسنت حاله وكان أجلد ممن أخذ الغرفة [٣٠٤] .

قال الأستاذ سيد قطب : « هنا يتجلى مصداق حكمة الله فى اصطفاء هذا الرجل ، إنه مقدم على معركة، ومعه جيش من أمة مغلوبة، عرفت الهزيمة والذل فى تاريخها مرة بعد مرة، وهو يواجه جيش أمة غالبة،

فلابد إذن من قوة كامنة فى ضمير الجيش تقف به أمام القوة الظاهرة الغالبة ، هذه القوة الكامنة لا تكون إلا فى الإرادة ، والإرادة التى تضبط الشهوات والنزوات، وتصمد للحرمان والمشاق، وتستعلى على الضرورات والحاجات، وتؤثر الطاعة وتحتمل تكاليفها. فتجتاز الابتلاء بعد الابتلاء . فلابد للقائد المختار إذن أن يبلو إرادة جيشه، وصموده وصبره. صموده أولاً للرغبة والشهوة، وصبره ثانيًا على الحرمان والمتاعب.. واختار هذه التجربة وهم كما تقول الروايات عطاش. ليعلم من يصبر معه ممن ينقلب على عقبيه ويؤثر العافية.

فشربوا منه إلا قليلا منهم.

شربوا وارتووا . فقد كان أباح لهم أن يغترف منهم من يريد غرفة بيده، تبل الظمأ ولكنها لا تشى بالرغبة فى التخلف ، وانفصلوا عنه بمجرد استسلامهم ونكوصهم ، انفصلوا عنه لأنهم لا يصلحون للمهمة الملقاة على عاتقه وعاتقهم، وكان من الخير ومن الحزم أن ينفصلوا عن الجيش الزاحف لأنهم بذرة ضعف وخذلان وهزيمة، والجيوش ليست بالعدد الضخم ولكن بالقلب الصامد، والإرادة الحازمة، والإيمان الثابت المستقيم على الطريق (٣٠٥).

فلمَّا جَاوزَهُ هُوَ والذين آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ.

المعنى : فلما جاوز طالوت النهر، وتركه هو والذين آمنوا معه، وهم القليل الذى نفذ أمره، وصدق إيمانه بربه . ونظروا إلى كثرة عدوهم وهم قليل، فأوجس بعضهم خيفة، وقالوا : لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ. بقتال « جالوت وجنوده » أى لا قدر لنا على محاربتهم ، فضلا عن غلبتهم . وهؤلاء - وإن كانوا من المؤمنين معه، المنفذين لأمره فى اغتراف الغرفة - إلا أنهم قالوا إظهارًا لواقع الحال، ورجاء المعونة من اللّه، وليس نكوصًا وامتناعًا عن القتال.

قالَ الَّذين يظنون أنهم مُلاقوا اللهِ

أى قال أفضلهم وخلصاؤهم ، الذين يتيقنون أنهم ملاقو جزاء اللّه يوم القيامة.

كم مِن فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بِإذنِ اللهِ واللَّهُ معَ الصَّابرينَ.

أى كم من جماعة - قليلة العدد والعدة - استعصمت بإيمانها باللّه - وتوكلت عليه- غلبت فئة كثيرة العدد والعدة، بإرادة اللّه ونصره ؟ فإن النصر من عند اللّه، لا بكثرة الجنود . فلا ينبغى لنا أن نستقل أنفسنا فنجبن عن لقاء عدونا.

ثم ختمت الآية بهذه البشرى :

واللَّهُ معَ الصابرين .

أى معهم بالنصر والتأييد .

وهذه الجملة إما : من جهته - تعالى - تقريرًا لكلامهم ، ودعاء للسامعين إلى مثل حالهم، وإما : من كلام هؤلاء الذين يظنون أنهم ملاقو اللّه ، قالوا ذلك تشجيعًا وترغيبًا فى الصبر.

٢٥٠ - وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ.

ولما واجه حزب الإيمان أعداء الله، وصاروا إلى براز الأرض، المتكشف منها، متأهبين لحرب جالوت وجنوده ، قالوا ذاكرين عبوديتهم : رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا . عظيمًا غامرًا من عندك، يشملنا ويعمنا، ويقوى نفوسنا .

وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا : بطمأنينة نفوسنا عند اللقاء ، فإن طمأنينة النفس تهب القوة، وتثبت الأقدام . وَانصُرْنَا . بفضلك ، وأعنا بقوتك : عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ. الجاحدين لألوهيتك ونعمك المتوالية عليهم.

٢٥١ - فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ . . .

أى : فاستجاب الله دعاءهم، فهزموهم بإرادة الله - تعالى - ونصره لهم، بسبب إيمانهم واعتمادهم عليه، وصبرهم فى ملاقاة العدو واستمساكهم بأسباب النصر، وعدة الحرب. وَقَتَلَ دَاوُدُ : أحد جنود طالوت: جَالُوتَ . زعيم العبرانيين ، وانتصرت القلة المؤمنة، على الكثرة الكافرة.

وفى ذلك ترغيب للمؤمنين فى الجهاد، وتحذير من الضعف والفرار حذر الموت. ثم مات طالوت ملك بنى إسرائيل ، فتولى الملك داود. وَآتَاهُ اللَّهُ . - بسبب شجاعته وعقله ودينه - الملك ، ووهبه الحكمة، وعلمه مما يشاء الله تعليمه إياه، من العلم الذى اختصه به - عليه السلام .

وبذلك دفع الله بداود عن بنى إسرائيل معرة الجبن والهزيمة.

وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ.

وهكذا يدفع الله بالصالحين - من الناس - المفسدين فى الأرض المعطلين مصالح العباد، ولولا ذلك لفسدت الأرض، ووقع الناس فى الفوضى.

وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ.

فيدفع الله بعضهم بقوة بعض ، رحمة بهم.

★ ★ ★

آيات الله

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ﴾

المعنى الإجمالى :

تلك القصة من العبر التى نقصها عليك بالصدق لتكون أسوة لك ودليلاً على صدق رسالتك، ولتعلم أننا سننصرك كما نصرنا من قبلك من الرسل.

التفسير :

٢٥٢ - تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ.

أى : تلك الآيات التى حدثناك فيها عن قصة أولئك القوم وما جرى لهم، هى آيات الله التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، نتلوها عليك يا محمد عن طريق جبريل تلاوة ملتبسة بالحق الثابت الذى لا يحوم حوله الباطل. وإنك يا محمد - لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . أرسلك الله - كما أرسلهم - ومن ثم نتلو عليك هذه الآيات ونزودك بتجارب البشرية كلها فى جميع عصورها، وتجارب الموكب الإيمانى كله فى جميع مراحله، ونورثك ميراث المرسلين .

★ ★ ★

وبعد، فهذه قصة الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى ، وإن فيها لعبرا متعددة، وعظات متنوعة لقوم يعقلون . ومن العبر التى تؤخذ منها :

١ - أن الشعور بالظلم والهوان، والابتلاء بالمحن والهزائم ، والوقوع تحت أيدى المعتدين ، كل ذلك من شأنه أن يصهر النفوس الحرة الكريمة وأن يدفعها بقوة إلى الذود عن كرامتها المسلوبة ، وعزتها المغصوبة، حتى تنال حقها ممن سلبه منها أو تموت دونه ، لأن النفوس الأبية تشعر دائمًا بأن الموت مع العزة خير من الحياة مع الذلة. يدل على ذلك قوله تعالى : وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا. (البقرة : ٢٤٦).

٢ - أن الناس فى كل زمان ومكان ، يلجأون - خصوصًا عندما تنزل بهم الشدائد - إلى من يتوسمون فيهم الخير والصلاح ، لكى يرشدوهم إلى ما يأخذ بيدهم إلى طريق السعادة، ولكى يهدوهم إلى أفضل السبل التى تنقذهم مما هم فيه من بلاء، ولكى يختاروا لهم من يقودهم إلى النصر والفلاح، ألا ترى إلى الملأ من بنى إسرائيل كيف لجأوا إلى نبى لهم ليقولوا له بعد أن أصابهم من الذل ما أصابهم : ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. إنهم لم يلجأوا إلى نبيهم يبثون إليه شكواهم، ويطلبون منه أن يختار لهم من يقودهم للقتال فى سبيل الله إلا لأنهم يرون فيه الأمل المرتجى ، والعقل السليم والخلق القويم ، والأسوة الحسنة.

٣ - أن القائد يجب أن تتوافر فيه صفتان : قوة العقل ، وقوة الجسم ؛ لأنه متى توافرت فيه هاتان الصفتان استطاع أن يقوم بقيادة أتباعه بنجاح، وأنه قبل أن يلتقى بأعدائه يجب عليه أن يختبر جنده ليعرف

مبلغ إيمانهم وقوتهم وطاعتهم وثباتهم، وألا يكلفهم ما لا يستطيعونه حتى يحارب أعداءه وهو على بينة من أمره. انظر إلى طالوت كيف اختبر جنده قبل أن يخوض المعركة بأن قال لهم : إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ . وهكذا القواد العقلاء يقدمون على حرب أعدائهم وهم على بصيرة من أمرهم.

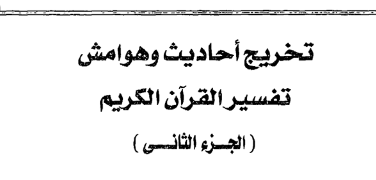
٤ – أن الفئة القليلة المؤمنة كثيرًا ما تنتصر على الفئة الكبيرة الكافرة، لأن المؤمنين الصادقين يحملهم إيمانهم على اليقين بلقاء الله وعلى التضحية من أجل إعلاء كلمته، وعلى الإقدام الذى يرعب الكافرين، ويخيف الفاسقين ، وصدق الله إذ يقول : كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ .

٥ – أنّ هزائم الأمم يمكن إزالتها متى توافر لتلك الأمم القادة العقلاء الأقوياء، والجند الأشداء على أعدائهم الرحماء فيما بينهم، وأن من شأن المؤمنين حقًّا أنهم مع مباشرتهم للأسباب، وإحكامهم لكل ما يحتاج إليه القتال ، وإحسانهم لكل وسيلة تعينهم على النصر، مع كل ذلك لا يغترون ولا يتطاولون، بل يعتمدون على الله– تعالى – اعتمادًا تامًّا، ويتجهون إليه بالضراعة والدعاء، ويلتمسون منه النصر على أعدائه وأعدائهم، انظر إلى الصفوة المؤمنة من جند طالوت ماذا قالت عندما برزت لجالوت وجنوده، لقد قالت كما حكى القرآن عنها : رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ . . .

٦ – أن من سنن الله فى خلقه أنه – سبحانه – جعل الحياة صراعًا دائمًا بين الحق والباطل، ونزاعًا موصولاً بين الأخيار والأشرار ، ولولا أن الله – تعالى – يدفع بعض الناس الفاسقين ببعض الناس الصالحين لفسدت الأرض، لأن الفاسقين لو تركوا من غير أن يدافعوا ويقاوموا لنشروا فسوقهم وفجورهم وطغيانهم فى الأرض، ولكنه – سبحانه – أعطى لعباده الصالحين من القوة والثبات ما جعلهم يقاومون الظالمين، ويعملون على نشر الخير والصلاح بين الناس.

٧ – أن القصة الكريمة تصوّر لنا ما جبل عليه بنو إسرائيل من نقض العهد وكذب فى القول : فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ. ومن تطاول على أنبيائهم ، وعصيان لأوامرهم ، واعتراض على توجيهاتهم ، وتفضيل للجاه والمال على العقل والعلم : قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ. ومن خور عند الابتلاء والاختبار ، وحماس فى ساعة السلم ونكوص فى ساعة الجد، تأمل قوله تعالى : فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ .

★ ★ ★



تخريج أحاديث وهوامش

تفسير القرآن الكريم

(الجــزء الثانـــى)

خرَّج أحاديثه

الأستاذ

كمال سعيد فهمي

(١) أى: جهة البيت .

(٢) أى: فى صلاة العصر.

(٣) صلى نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهرا ٦.
(٤١، ٣٩٩، ٤٤٩٢، ٧٢٥٢)، ومسلم (٥٢٥)، والنسائى (٤٨٨، ٤٨٩، ٧٤٢)، والترمذى (٢٩٦٢)، وأحمد (١٨٠٦٨) من حديث البراء.

(٤) العتيد: المهيأ والمعد.

(٥) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير تحقيق أحمد شاكر . وفى هامشه: أن هذا الحديث فى البخارى ٢٦٤/٦، ١٣٠/٨-١٣١، ٢٦٦/١٣ . ورواه الطبرى: ٢١٧ - ٢١٨١ ورواه أحمد فى المسند: ١١٣٠٢ وبرواية أخرى فى المسند أيضا رقم: ١١٥٧٩ . والترمذى (٢٩٦١).

(٦) انظر فى حديث البراء: البخارى ٨٩/١ -٩٠، ١٣٠/٨ (فتح البارى وفى حديث الترمذى عن ابن عباس، الترمذى ٧٠/٤.

(٧) أترون هذه طارحة ولدها فى النار قلنا: لا، وهى تقدر على ٩.
رواه البخارى (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤)، من حديث عمر بن الخطاب.

(٨) انظر تفسير ابن كثير. ١٩٤/١.

(٩) فصل تفسير المنار القول تفصيلا كافيًا فى بيان بشارات كتب أنبياء بنى إسرائيل بنبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - ٢٣٠/٩ - ٣٠٠.

(١٠) انتقل سلمان من المجوسية إلى النصرانية ومنها إلى الإسلام تبعًا لما أخبره به قسيس من النصارى بأن نبيًا سيظهر فى بلاد العرب.

(١١) تفسير المنار: ٢٣١/٩.

(١٢) تفسير المنار ٢٣١/٩، بتصرف.

(١٣) من أمثلة هذه الإشارات: سفر التثنية: ١٨/١٨، ٢/٢٣، والمزامير إصحاح: ٤٥ حيث أورد فى صفحة ١٧ مطابقة للرسول - صلى الله عليه وسلم - ، وإنجيل متى: ١٧/٤، ١٠/٦، ٢٤/١٣، وإنجيل يوحنا (راجع تفسير المنار ٢٤٠/٩ - ٢٨٣).

(١٤) تفسير ابن جرير الطبرى: ٢٧/٢.

(١٥) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: ٢٧٠/١.

(١٦) الكاف فى أول الآية للتشبيه وهى فى موضع نصب ؛ على أنها نعت لمصدر محذوف. وما مصدرية والتقدير: لقد حولت القبلة إلى شطر المسجد الحرام ؛ لأتم نعمتى عليكم إتماما مثل: إتمام نعمتى عليكم بإرسال رسول منكم.

(١٧) تفسير الألوسى: ١٨/٢، طبعة منير الدمشقى.

(١٨) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ٢٧٢/١.

(١٩) أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه إذا ذكرنى فإن ذكرنى فى ٢٢ .
رواه البخارى (٧٤٠٥، ٧٥٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥)، والترمذى (٢٣٨٨، ٣٦٠٣)، وابن ماجه (٣٨٢٢)، وأحمد (١٠٣٠٦، ١٠٣٢٦، ١٠٤٠٣، ١٠٥٢٦، ٢٧٢٨٣، ٢٧٣٩٥، ٨٨٣٣، ٩٠٨٧، ٩٤٥٧).

(٢٠) المسند: ١٢٤٣٢ نقلا عن عمدة التفسير: ٢٧٢/١.

(٢١) أرواح الشهداء تجعل فى حواصل طير خضر ٢٤.
رواه مسلم فى الإمارة (٣٥٠٠) والترمذى فى تفسير القرآن (٢٩٣٧) والدارمى فى الجهاد (٢٣٠٣) وابن ماجه فى الجهاد (٢٧١٩) من حديث عبد الله بن مسعود. ورواه أحمد (٢٥٩١٣) والترمذى فى فضائل الجهاد (١٥٦٥) من حديث كعب بن مالك. وقال: هذا حديث حسن صحيح. ورواه أبو داود فى الجهاد (٢١٥٨) وأحمد (٢٢٦٧) من حديث ابن عباس. ورواه ابن ماجه (١٤٩٣) من حديث أم بشر بنت البراء بن معرور.

(٢٢) المسند: ١٥٨٤٣، وقد رواه الطبرى فى التفسير ؛ وقوله تعلق هو بفتح أوله وضم ثالثه من باب: قتل، قال ابن الأثير: أى: تأكل.

(٢٣) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: ٢٧٤/١.

(٢٤) تفسير القرطبى: ١٧٦/٢ .

(٢٥) حديث عمر هذا رواه الحاكم فى المستدرك: ٢٧٠/٢ وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبى. والعدل بكسر العين: نصف الحمل يكون على أحد جنبى البعير، والعلاوة: ما يوضع بين العدلين وهى زيادة فى الحمل. وكذلك الصابرون أعطوا ثوابهم وزيدوا أيضًا. وانظر عمدة التفسير للحافظ ابن كثير: ٢٧٥/١.

(٢٦) أخرجه البخارى فى كتاب الطب ١٤٨/٧ . وأخرجه فى كتاب البر والصلة: ١٣/٨.

(٢٧) صحيح مسلم: كتاب الجنائز: ٣٨/٢.

(٢٨) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: ٢٧٨/١.

(٢٩) فى الحديث « زمزم طعام طعم وشفاء سقم » رواه ابن أبى شيبة والبزار من حديث أبى ذر كما فى الجامع الصغير ، وانظر عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: ٢٧٨/١.

(٣٠) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: ٢٧٨/١.

(٣١) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: ٢٧٩/١.

(٣٢) رواه أحمد فى المسند: ٧٥٦١ من حديث أبى هريرة ورواه ابن حبان فى صحيحه: ٩٥ بتحقيق أحمد شاكر ، والحاكم فى المستدرك: ١٠١/١، انظر عمدة التفسير: ٢٧٩/١ هامش .

(٣٣) أخرجه البخارى فى كتاب العلم ، باب حفظ العلم: ٤٠/١.

(٣٤) أورده الفردوسى وذكره القرطبى. وهو عن على بن أبى طالب من قوله ، رواه البخارى فى العلم (١٢٧).

(٣٥) رواه أحمد فى المسند ٤٦١/٦ طبعة الحلبى ، ورواه أبو داود: ١٤٩٦ ، قال المنذرى: وأخرجه الترمذى وابن ماجه وقال الترمذى: حديث حسن، وهو فى ابن ماجه: ٣٨٥٥ ا هـ . نقلا من عمدة التفسير للحافظ ابن كثير.

(٣٦) تفسير الألوسى: ٣٣/٢.

(٣٧) يشير إلى ما ذكره الله فى الآية من نعم هى: ١- خلق السماء . ٢ - خلق الأرض . ٣ - اختلاف الليل والنهار . ٤ - الفلك التى تجرى فى البحر . ٥ - ما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها. ٦ - وبث فيها من كل دابة . ٧- وتصريف الرياح . ٨- والسحاب المسخر بين السماء والأرض.

(٣٨) تفسير الفخر الرازى: ٢٢٩/٤.

(٣٩) تفسير التحرير والتنوير: ٩٣/٢ للشيخ: محمد الطاهر بن عاشور.

(٤٠) تفسير الفخر الرازى: ٨٥ ، بتصرف وتلخيص.

(٤١) تفسير المنار: ٩٦/٢.

(٤٢) سموا الله عليه: وكلوه ٥٠.
رواه البخارى (٢٠٥٧)، وأبو داود (٢٨٢٩)، وابن ماجه (٣١٧٤)، والدرامى (١٩٧٦) من حديث عائشة.

(٤٣) تفسير الفخر الرازى: ٢٨/٥ بتصرف.

(٤٤) تفسير النيسابورى: ١٤٩/٢.

(٤٥) تفسير النيسابورى: ١٤٩/٢ - ١٥٠.

(٤٦) المرجع السابق.

(٤٧) تفسير النيسابورى: ١٥٢/٢ بتصرف.

(٤٨) تفسير المنار: ١٤٧/٢.

(٤٩) مقتبس من كتب التشريع الإسلامى والتفسير ، وخاصة تفسير المنار: ١٣٥/٢ - ١٤٧ والتشريع الجنائى الإسلامى مقارنا بالقانون الوضعى: ٦٦٣/١، ط٢.

(٥٠) تفسير القرطبى: ٢٦٢/٣ . ط٢ مصور عن طبعة دار الكتب المصرية.

(٥١) تفسير القرطبى: ١٦٢/٢ . ط٣ مصور عن طبعة دار الكتب المصرية.

(٥٢) إن الله قد قسم لكل إنسان نصيب ٦٥.
رواه النسائى فى الوصايا (٣٥٤٢)، وابن ماجه فى الوصايا (٢٧١٢) وأحمد (١٧٢١١، ١٧٢١٦، ١٧٢١٧).

(٥٣) إن الله قد أعطى كل ذى حق حقه ؛ فلا وصية لوارث٦٥.
رواه أبو داود فى البيوع (٣٥٦٥)، والنسائى فى الوصايا (٣٦٤١، ٣٦٤٣)، وابن ماجه فى الوصايا (٢٧١٣، ٢٧١٤).

(٥٤) التفسير الوسيط لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر حزب ٢٧٩/٢ وقد ذهب إلى ذلك ابن كثير فى تفسيره، وانظر تعليق الأستاذ: أحمد شاكر على تفسير الآية: ١٨/٢ حيث صحح أسانيد الحديث (لا وصية لوارث).

(٥٥) ما حق امرئ مسلم له شيء يوصى فيه يبيب ليلتين إلا ووصيته ٦٥.

رواه البخارى (٢٧٣٨) ومسلم (١٦٢٧)، وأبو داود (٢٨٦٢)، والترمذى (٩٧٤، ٢١١٨)، والدارمى (٣١٧٥)، النسائى (٣٦١٥، ٣٦١٦، ٣٦١٨، ٣٦١٩)، ومالك (١٤٩٢)، وابن ماجه (٢٦٩٩، ٢٧٠٢)، وأحمد (٤٨٨٤، ٥٠٩٧، ٥١٧٥، ٥٤٨٧، ٥٤٨٩، ٥٨٩٤، ٦٠٦٥) من حديث عبد الله.

(٥٦) انظر عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: ١٨/٢ فقد حمل على هذا الرأى وفنده.

(٥٧) تفسير القرطبى: ٢٦٧/٢ المسألة الموفية عشرين.

(٥٨) المرجع السابق : ٢٦٨/٢ المسألة ٢١.

(٥٩) تفسير فاتحة الكتاب والبقرة . هدية مجلة منبر الإسلام عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ص٣٥.

(٦٠) كنا مع النبى فمنا الصائم ومنا المفطر ٦٨.

رواه النسائى فى الصيام (٢٣٠٩، ٢٣١٠)، وأحمد (١١٠٧٩).

(٦١) إن شئت فصم وإن شئت فافطر ٦٨.

رواه البخارى (١٩٤٣)، ومسلم (١١٢١)، والترمذى (٧١١)، والنسائى (٢٣٠٦، ٢٣٠٧، ٢٣٠٨)، وابن ماجه (١٦٦٢)، وأحمد (٢٥٠٧٩)، والدارمى (١٧٠٧) من حديث عائشة، ورواه مسلم (١١٢١)، وأحمد (١٥٦٠٧) والنسائى (٢٣٠٣، ٢٢٩٤، ٢٢٩٦، ٢٢٩٧، ٢٢٩٨، ٢٢٩٩، ٢٣٠٠، ٢٣٠١، ٢٣٠٢، ٢٣٠٤، ٢٣٠٥) من حديث حمزة بن عمرو.

(٦٢) تفسير المراغى: ٧٢/٢.

(٦٣) مفردات القرآن: ٣١٢ . للراغب الأصفهانى.

(٦٤) انظر تفسير القرطبى: ٢٨٨/٢ والحديث أخرجه البخارى فى كتاب التفسير سورة البقرة: ٣٠/٦ وأخرجه مسلم: فى كتاب الصوم.

(٦٥) أخرجه البخارى فى كتاب التفسير – سورة البقرة باب قوله تعالى: ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ... ﴿١٨٤﴾ ﴾: ٣٠/٦.

(٦٦) انظر تفسير القرطبى: فقد أورد عن ابن عباس – إن كان الإسناد عنه صحيحا – أن يطيقونه ورد فيها (يطوقونه) على معنى يكلفونه مع المشقة اللاحقة لهم: ٢٨٨/٢.

(٦٧) إذا جاء رمضان ؛ فتحت أبواب الجنة ٧١.

رواه البخارى (١٨٩٨)، ومسلم (١٠٧٩)، وأحمد (٨٤٦٩)، والنسائى (٢١٠٠)، والدارمى (١٧٧٥) من حديث أبى هريرة.

(٦٨) من صام رمضان ، واتبعه ستًّا من شوال ٧١.

رواه مسلم فى الصيام (١١٦٤)، والترمذى فى الصوم (٧٥٩)، وأحمد (١٤٠٦).

(٦٩) انظر تفسير الخازن: ١٢٥/١.

(٧٠) كل عمل ابن آدم له إلا الصيام ؛ فإنه لى وأنا أجزى به ٧٦.

رواه البخارى (١٩٠٤، ٥٩٢٧)، ومسلم (١١٥١)، وأحمد (٧٦٣٦، ٧٧٣٠، ١٠٣١٤، ٢٧٧٦٥) والنسائى (٢٢١٦، ٢٢١٨، ٢٢١٧) من حديث أبى هريرة.

(٧١) للصائم عند فطره دعوة ما ترد ٧٦.

رواه ابن ماجه فى الصيام (١٧٥٣) من حديث عبد الله بن عمرو.

ورواه الترمذى فى صفة الجنة (٢٥٢٥)، وفى الدعوات (٣٥٩٨)، وابن ماجه (١٧٥٢)، وأحمد (٧٩٨٣) وقال الترمذي: ليس إسناده بذلك القوى. قلت: وهو بلفظ: ثلاثة لا ترد دعوتهم.. والصائم حتى يفطر... الحديث.

(٧٢) ينزل الله إلى سماء الدنيا ٧٦.

رواه البخارى فى الجمعة (١١٤٥)، وفى الدعوات (٦٣٢١)، وفى التوحيد (٧٤٩٤)، ومسلم فى صلاة المسافرين (٧٥٨)، ومالك فى الموطأ كتاب النداء إلى الصلاة (٤٩٦)، وأبو داود فى الصلاة (١٣١٥)، وفى السنة (٤٧٣٣)، والترمذى فى الصلاة (٤٤٦)، وفى الدعوات (٣٤٩٨)، والدارمى فى الصلاة (١٤٧٨، ١٤٧٩، ١٤٨٤)، وابن ماجه فى إقامة الصلاة (١٣٦٦)، وأحمد (٧٤٥٧، ٧٥٣٨، ٧٥٦٧، ٣٧٣٣، ٨٧٥١، ٩٩٤٠، ١٠١٦٦، ١٠٣٧٧، ١٠٩٠٢، ١١٤٨٢، ٢٧٦٢٠) من حديث أبى هريرة. ورواه الدرامى فى الصلاة (١٤٨٠)، وأحمد (١٦٣٠٣، ١٦٣٠٥) من حديث جبير بن مطعم، ورواه أحمد (١٥٧٨٢، ١٥٧٨٥) من حديث رفاعة الجهني، ورواه أحمد (٣٦٦٤، ٣٨١١، ٤٢٥٦) من حديث ابن مسعود، ورواه الدرامى فى الصلاة (١٤٨٣) من حديث علي.

(٧٣) انظر تفسير القرطبى للآية: ٢/٣١٥

(٧٤) تفسير القرطبى: ٢/٣١٤

(٧٥) تفسير الكشاف للزمخشرى: ١/٢٣٠.

(٧٦) مفردات القرآن للراغب الأصفهانى ص ٦٣ والآية من سورة يوسف: ٥٣.

(٧٧) فى ظلال القرآن: ٢/١٣٥.

(٧٨) فى ظلال القرآن: ٢/١٧٦.

(٧٩) لعن الله الراشي والمرتشي.
رواه أبو داود فى الأقضية (٣٥٨٠)، والترمذى فى الأحكام (١٣٣٧)، وابن ماجه فى الأحكام (٢٣١٣)، وأحمد (٢١٨٩٢) من حديث أبى هريرة.

(٨٠) تفسير القرطبى: ٢/٢٣٨.

(٨١) إنكم تختصمون إلىَّ ٨٢.
رواه البخارى فى المظالم والغصب (٢٤٥٨) وفى الشهادات (٢٦٨٠) وفى الأحكام (٧١٨١، ٧١٨٥)، ومسلم فى الأقضية (١٧١٣)، وأبو داود فى الأقضية (٣٥٨٣). والترمذى فى الأحكام (١٣٣٩) وقال: «حديث حسن صحيح»، وابن ماجه فى الأحكام (٣١٧)، ومالك فى الموطأ ٢ / ٧.

(٨٢) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: ٢/٤٤.

(٨٣) المحاق (بتثليث الميم) أن يستتر القمر ليلتين فلا يرى غدوة ولا عشية.

(٨٤) تفسير القرطبى: ٢/٣٤١.

(٨٥) كانوا إذا أحرموا فى الجاهلية ٨٤.
رواه البخارى فى التفسير (٤٥١٢) من حديث البراء.

(٨٦) تفسير القرطبى: ٢/٣٤٥، وتفسير مقاتل بن سليمان تحقيق د. عبد الله شحاتة: ١/٩٢، نشر دار الشروق بالقاهرة.

(٨٧) تفسير القرطبى: ٢/٣٤٧.

(٨٨) تفسير القرطبى: ٢/٣٥٠.

(٨٩) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: ٢/٤٨.

(٩٠) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: ٢/٤٨.

(٩١) تفسير القرطبى ٢/٣٤٧.

(٩٢) المسند: ١٤٧٦٧ (٣:٣٤٥ حلبى) ، نقلاً عن عمدة التفسير للحافظ ابن كثير ٢/١٩٤.

(٩٣) انظر تفسير القرطبى: ٢/٣٥٧ والألوسى ١/٧٧.

(٩٤) تفسير القرطبى: ٢/٣٥٧.

(٩٥) الأفكل (على وزن أفعل) الرعدة . أى: ارتعدت من شدة الغيرة.

(٩٦) تفسير القرطبى: ٢/٣٥٧.

(٩٧) تفسير القرطبى: ٢/٣٥٨.

(٩٨) كنا بمدينة الروم فأخرجوا لنا ٩٢.
رواه الترمذى فى التفسير (٢٩٧٢).

(٩٩) تفسير القرطبى: ٢/٣٦٣.

(١٠٠) تفسير القرطبى: ٢/٣٠٣ . باختصار ، ونرى أن أعمال القناصة والفدائيين من هذا البلاء الحسن.

(١٠١) تفسير القرطبى: ٢/٣٦٥.

(١٠٢) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: ٢/٥٢.

(١٠٣) الإحسان: أن تعبد الله ٩٣. رواه البخارى (٥٠، ٤٧٧٧)، وأحمد (٩٢١٧) من حديث أبى هريرة.

(١٠٤) تفسير الفخر الرازى: ١٦٣/٥ نقلاً عن التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، وتفسير سورة الفاتحة والبقرة للدكتور: محمد سيد طنطاوى ط١:طبع فى مركز الطباعة الحديثة - بيروت .

(١٠٥) الفرق: بفتح الفاء والراء مكيال بالمدينة يزن ١٦ رطلاً.

(١٠٦) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: ٥٦/٢.

(١٠٧) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير.

(١٠٨) تفسير القرطبى: ١٠٢/٢ ، (وصيام ثلاثة أيام فى الحج) الأفضل أن يصومهن ما بين أن يهل بالحج إلى يوم عرفة ؛ليكون يوم عرفة مفطرًا فذلك أتبع للسنة وهو رأى الشافعى وأحمد بن حنبل، وعن أحمد أيضًا جائزًا أن يصوم الثلاثة قبل أن يحرم، وقال الثورى والأوزاعى: يصومهن من أول أيام العشر . انظر تفسير القرطبى: ٣٩٩/٢.

(١٠٩) كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ١٠٠.
رواه البخارى فى الحج (١٥٢٣)، وأبو داود فى المناسك (١٧٣٠).

(١١٠) كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز ١٠١.
رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٥١٩).

(١١١) تفسير آيات الأحكام: ١٠٨/١ للشيخ: محمد على السايس مطبعة صبيح.

(١١٢) وقفت ها هنا وعرفة كلها موقف ٨٤.
رواه مسلم فى الحج (١٢١٨) وأبو داود فى المناسك (١٩٠٧) والنسائى فى مناسك الحج (٣٠١٥) وأحمد (١٤٠٨٩) من حديث جابر، ورواه أبو داود فى المناسك (١٩٣٥) والترمذى فى الحج (٨٨٥) وابن ماجه (٣٠١٠)، وأحمد (٥٦٣) من حديث على.

(١١٣) مضرس: بضم الميم وفتح الضاد المعجمة وتشديد الراء المكسورة وقد ورد الحديث بطوله فى مسند الإمام أحمد ١٦٢٧٧، ١٦٢٧٨ (١٥/٣ حلبى) وأبى داود ١٩٥٠ ، ورواه أيضًا البخارى فى التاريخ الكبير ، وانظر عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: ٦٧/٢.

(١١٤) (الجبل المستطيل من الرمل ، وقيل: الضخم منه وجمعه جبال ، وقيل: الجبال فى الرمل كالجبال فى غير الرمل) ، قال الخطابى: الجبال ما دون الجبال فى الارتفاع ا هـ. نقلاً عن هامش تفسير القرطبى: ٤١٦/٢ .

(١١٥) من شهد صلاتنا هذه فوقف معنا ١٠٣.
رواه الترمذى فى الحج (٨٩١) وابن ماجه (٣٠١٦) والدرامى فى المناسك (١٨٨٨) من حديث عروة بن مضرس الطائى.

(١١٦) عمدة التفسير لابن كثير ٦٧/٢، وتفسير القرطبى: ٤١٦/٢ وفى حاشيته معنى وقضى تفثه: أتى بما عليه من المناسك.

(١١٧) صوم عرفة يكفر السنة الماضية ١٠٣.
رواه مسلم (١١٦٢)، وأبو داود فى الصيام (٢٤٢٥)، والترمذى فى الصيام (٧٤٩، ٧٥٢) وابن ماجه فى الصيام (١٧٣٠، ١٧٣٨)، وأحمد (٢٢٠٢٤) من حديث أبى قتادة.

(١١٨) تفسير القرطبى ٢٠/٢.

(١١٩) البخارى: ١٣٩/٨ (فتح) ومسلم: ٣٤٨/١ والطبرى: ٣٧٣١ نقلاً عن عمدة التفسير للحافظ ابن كثير: ٦٧/٣.

(١٢٠) سيد الاستغفار ١٠٤.
رواه البخارى (٦٣٠٦،٦٣٢٣)، والترمذى (٣٣٩٣) من حديث شداد بن أوس.

(١٢١) اللهم ، إنى ظلمت نفسى ظلمًا كثيرًا ١٠٤.
رواه البخارى فى الأذان (٨٣٤) ومسلم فى الذكر (٢٧٠٥ / ٤٨)، كلاهما عن أبى بكر.

(١٢٢) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: ٧١/٢.

(١٢٣) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: ٧١/٢.

(١٢٤) تفسير القرطبى: ٤٣٢/٢ .

(١٢٥) تفسير القرطبى: ٤٣٢/٢ .

(١٢٦) اللهم آتنا فى الدنيا حسنة ١٠٦.

رواه البخارى (٤٥٢٢، ٦٣٨٩)، وأبو داود (١٥١٩) وأحمد (١١٥٧٠، ١١٦٣٨، ١٢٧٥١، ١٢٧٧٤، ١٣١٦٨، ١٣٥٢٤، ١٣٦٥٣) من حديث أنس بن مالك.

(١٢٧) تفسير القرطبى: ٤٣٥/٢.

(١٢٨) تفسير القرطبى: ١/٣.

(١٢٩) كان يرمى الجمرة يكبر مع كل حصاة ١٠٨.
رواه البخارى (١٧٥١، ١٧٥٣).

(١٣٠) كان يلبى الملبى فلا ينكر عليه.
رواه البخارى (٩٧٠)، والدارمى (١٨٧٧) من حديث أنس بن مالك.

(١٣١) تفسير المنار: ٢٣٨/٢ – ٢٣٩ ، بتصرف واختصار.

(١٣٢) فى ظلال القرآن: ١٢٧/٢.

(١٣٣) نقل القرطبى إجماع العلماء على ذلك فى تفسير القرطبى: ١/٣.

(١٣٤) أخرجه مسلم فى كتاب الصوم.

(١٣٥) تفسير المنار: ٢٣٩/٢.

(١٣٦) تفسير المنار: ٢٤١/٢.

(١٣٧) فى ظلال القرآن: ١٣٤/٢.

(١٣٨) فى ظلال القرآن للأستاذ: سيد قطب: ١٣٢/٢.

(١٣٩) تفسير المنار: ٢٤٩/٢.

(١٤٠) تفسير الفخر الرازى: ٢١٦/٥.

(١٤١) فى ظلال القرآن: ١٣٤/٢.

(١٤٢) تفسير مقاتل بن سليمان: ١٠٤/١ ، تحقيق د. عبد الله شحاته . وقد ورد ذلك فى تفسير الألوسى: ٩٧/٢. وفى تفسير المنار: ٢٥٦/٢.

(١٤٣) لا ترجعوا بعدى كفارًا ١١٦.
رواه البخارى (١٢١، ٤٤٠٥، ٦٨٦٩، ٧٠٨٠)، ومسلم (٦٥)، والدرامى (١٩٢١)، وابن ماجه (٣٩٤٢)، وأحمد (١٨٦٨٦، ١٨٧٣٢، ١٨٧٧٤)، والنسائى (٤١٣١) من حديث جرير، وواه البخارى (٦١٦٦، ٦٨٦٨، ٧٠٧٧، ٧٠٧٩)، ومسلم (٦٦)، وأبو داود (٤٦٨٦)، والترمذى (٢١٩٣)، وأحمد (٥٥٧٢، ٥٧٧٥)، والنسائى (٤١٢٥، ٤١٢٦)، من حديث عبد الله، ورواه أحمد (١٩٩٣٦، ١٩٩٤٨) من حديث نفيع بن الحارث.

(١٤٤) تفسير الفخر الرازى: ٢٣١/٥.

(١٤٥) تفسير الفخر الرازى: ٣/٦.

(١٤٦) فى ظلال القرآن: ١٤٥/٢ ، بتصرف واختصار.

(١٤٧) تفسير القرطبى: ٢٩/٣.

(١٤٨) تفسير مقاتل بن سليمان ، تحقيق د. عبد الله شحاتة: ١٠٥/١ – ١٠٦.

(١٤٩) تفسير المنار: ٢٧٣/٢.

(١٥٠) تفسير المنار: ٢٨٥/١.

(١٥١) تفسير المنار: ١٩٢/٢.

(١٥٢) اللهم رب جبرائيل وميكائيل ١٢٣.
رواه مسلم فى صلاة المسافرين (٧٧٠)، وأبو داود فى الصلاة (٧٦٧) والترمذى فى الدعوات (٢٤٢٠) والنسائى فى قيام الليل (١٦٢٥) وابن ماجه فى إقامة الصلاة (١٣٥٧) وأحمد (٢٤٦٩٩) من حديث عائشة. وقال الترمذي: حسن غريب.

(١٥٣) تفسير ابن كثير: ١/٢٥٠.

(١٥٤) تفسير المنار: ٢/٢٠٤ ؛ وتفسير القرطبى: ٣/٣٤.

(١٥٥) ما يصيب المسلم من هم ولا حزن ١٢٥.
رواه البخارى (٥٦٤٢)، ومسلم (٢٥٧٣)، وأحمد (١١٣٦١) من حديث سعد بن مالك.

(١٥٦) تفسير الكشاف: ١/٢٥٦.

(١٥٧) تفسير الألوسى: ٢/١٠٤.

(١٥٨) تفسير الفخر الرازى: ٦/٢٩.

(١٥٩) أورد السيوطى فى أسباب النزول هذا السبب مختصرًا ؛ واورده الواحدى فى أسباب النزول مسهبًا من عدة طرق.

(١٦٠) اللهم ، بين لنا فى الخمر بيانا شافيا ١٢٥.
رواه أبو داود فى الأشربة (٣٦٧٠)، والنسائى (٥٥٤٠)، وأحمد (٣٨٠) من حديث عمر بن الخطاب.

(١٦١) المسند للإمام أحمد: ٣٧٨، نقلاً عن عمدة التفسير للحافظ ابن كثير: ٢/٨٨-٨٩.

(١٦٢) التفسير الوسيط، بإشراف مجمع البحوث الإسلامية الحزب الرابع: ٣٥٣، وانظر تفسير الجواهر للشيخ: طنطاوى جوهرى، وتفسير المنار: ٢/٣٢١.

(١٦٣) التفسير الوسيط: ٣٥٤.

(١٦٤) تفسير القرطبى: ٣/٥١ بتصرف.

(١٦٥) كل مسكر خمر ١٣٦.
رواه مسلم (٢٠٠٣)، وأحمد (٤٨١٥)، والترمذى (١٨٦١)، وأبو داود (٣٦٧٩).

(١٦٦) تفسير القرطبى: ٣/٥٢.

(١٦٧) أحكام القرآن لابن العربى: ١/١٤٩.

(١٦٨) كل شراب أسكر فهو حرام ١٣٧.
رواه البخارى (٢٤٢، ٥٥٨٥، ٥٥٨٦)، ومالك (١٥٩٥)، ومسلم (٢٠٠١) وأبو داود (٣٦٨٢)، وأحمد (٢٣٥٦٢)، وابن ماجه (٣٣٨٦)، والترمذى (١٨٦٣)، والدارمى (٢٠٩٧)، والنسائى (٥٥٩١) من حديث عائشة.

(١٦٩) تفسير الألوسى: ٢/١١٣.

(١٧٠) لعن الله الخمر وشاربها ١٠٤.
رواه الترمذى فى كتاب البيوع (١٢٩٥) وابن ماجه فى كتاب الأشربة (٣٣٨١) وقال الترمذي: هذا حديث غريب من حديث أنس وقد روى نحو هذا عن ابن عباس وابن مسعود وابن عمر عن النبى ﷺ. ورواه أبو داود فى كتاب الأشربة (٣٦٧٤)، وأحمد فى مسنده حديث رقم: (٤٧٧٢، ٥٣٦٧، ٥٦٨٣)، وابن ماجه فى كتاب الأشربة (٣٣٨٠) من حديث عبد الله بن عمر. وذكره السيوطى فى زيادات الجامع الصغير من حديث ابن عباس مرفوعا بلفظ: أتانى جبريل فقال: يا محمد ، إن الله عز وجل لعن الخمر، وعاصرها، ومعتصرها ،وشاربها، وحاملها، والمحمولة إليه، وبائعها، ومبتاعها، وساقيها، ومسقيها. ونسبه الطبرانى فى الكبير والحاكم فى المستدرك والبيهقى فى الشعب والضياء، قال الهيثمى فى المجمع كتاب البيوع باب فى الخمر وثمنها: وعن عبد الله بن مسعود قال: لعن رسول الله ﷺ الخمر وشاربها وساقيها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه وبايعها ومبتاعها وآكل ثمنها. وقال: رواه البزار والطبرانى فى الكبير وفيه عن ابن أبى عيسى الحناط وهو ضعيف. ما أسكر كثيرة فقليله حرام ١٣٧ رواه أبو داود فى الأشربة (٣٦٨١) والترمذى فى الأشربة (١٨٦٥) والنسائى فى الأشربة (٥٦٠٧) وابن ماجه فى الأشربة (٣٣٩٣) وأحمد (١٤٢٩٣) من حديث جابر . نهى عن كل مسكر ومفتر ١٣٧ رواه أبو داود فى الأشربة (٣٦٨٦) وأحمد (٢٦٠٩٤) من حديث أم سلمة . قلت: فى إسناده شهر بن حوشب، وفيه مقال.

(١٧١) الدعوة الإسلامية والإعلام الدينى ، د. عبد الله شحاتة: ٢٩٣.

(١٧٢) تفسير القرطبى: ٣/٧.

(١٧٣) تفسير القرطبى: ٣/٥٥.

(١٧٤) تفسير القرطبى: ٣/٥٦.

(١٧٥) العكنة: ما انطوى وتثنى من لحم البطن سمنًا ، انظر تفسير القرطبى: ٥٦/٣.

(١٧٦) تفسير القرطبى: ٥٢/٣.

(١٧٧) الدعوة الإسلامية والإعلام الدينى ، د. عبد الله شحاتة: ٢٩٤.

(١٧٨) خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى ١٤٠.
رواه البخارى (١٤٢٦، ٥٣٥٦)، وأبو داود (١٦٧٦)، وأحمد (٢٧٢٧٨)، والدارمى (١٦٥١)، والنسائى (٢٥٤٤) من حديث أبى هريرة.

(١٧٩) صحيح مسلم: ٢٨٤/١ بقصة فى أوله . وكذلك رواه أحمد فى المسند ١٤٣٢٣ ورواه الطبرى ٤١٧١ بنحوه دون ذكر القصة ا هـ . نقلاً عن هامش عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: ٩٠/٢.

(١٨٠) تفسير المنار: ٢٣٩/٢.

(١٨١) الطبرى: ٤١٨٣ . وأبو داود: ٢٨٧١ . والحاكم: ١٠٣/٢ . وقال صحيح ولم يخرجاه ووافقه الذهبى ورواه أحمد مختصرًا: ٣٠٠٢ وكذلك رواه الحاكم: ٢٧٨/٢ ، ٢٧٩ مرة أخرى وصححه ووافقه الذهبى ا هـ . نقلاً عن عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير.

(١٨٢) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: ٩١/٢.

(١٨٣) تفسير سورة الإسراء، ووعيد الله لبنى إسرائيل د. عبد الله شحاتة: ١٣٤-١٣٥.

(١٨٤) انظر لباب النقول فى أسباب النزول للواحدى: ٣٩، وأسباب النزول للسيوطى: ٣٤، وتفسير مقاتل بن سليمان تحقيق د. عبد الله شحاته مطبعة المدنى: ١١٢/١ ، وقارن بتفسير القرطبى: ٦٧/٣.

(١٨٥) تفسير القرطبى: ٧٢/٣.

(١٨٦) التفسير الوسيط مجمع البحوث الإسلامية الحزب الرابع ٣٦١.

(١٨٧) تفسير القرآن الكريم ، الأستاذ: الشيخ محمد أبو زهرة ، مجلة لواء الإسلام، للسنة الخامسة ، العدد ١٢، سنة ١٩٥٢م ، بتصرف يسير.

(١٨٨) ورد ذلك فى الطبرى: ٤٢٢٣ وشقيق هو ابن سلمة وائل التابعى الكبير، وكلمة المومسات - حرفت فى الطبرى طبعة بولاق ومطبوعة فى ابن كثير، والدر المنثور « المؤمنات » وهو تحريف قبيح. وقد ورد الصواب فى البيهقى: ١٧٢/٧، والجصاص: ٣٣٣/١، والقرطبى: ٦٨/٣ اهـ نقلاً عن عمدة التفسير لابن كثير تحقيق أحمد شاكر . وفى رواية « أن حذيفة قال لعمر: أحلال هى أم حرام يا أمير المؤمنين؟ فقال عمر هى حلال ولكن فى نساء الأعاجم خلابة فإذا أقبلتم عليهن غلبنكم على نسائكم ».

(١٨٩) الطبرى: ٤٢٢٢، وإسناده صحيح متصل وكذلك رواه البيهقى فى السنن الكبرى: ١٧٢/٧. وانظر عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير.

(١٩٠) تتزوج نساء أهل الكتاب ولا يتزوجون نسائنا ١٤٧.
ذكره السيوطى فى الدر، من حديث جابر، ونسبه لابن جرير.

(١٩١) تفسير القرطبى: ٦٨/٣.

(١٩٢) تفسير القرطبى: ٦٨/٣.

(١٩٣) تفسير القرطبى: ٦٩/٣.

(١٩٤) فى ظلال القرآن: ٢٤١/٢.

(١٩٥) جامعوهن فى البيوت، واصنعوا كل شىء إلا النكاح ١٤٩.
رواه مسلم فى الحيض (٣٠٢) وأحمد (١١٩٤٥، ١٣١٦٤) من حديث أنس.

(١٩٦) تفسير القرطبى: ٨١/٣، وتفسير مقاتل بن سليمان: ١١٥/١، وأسباب النزول للسيوطى: ٣٥، وأسباب النزول للواحدى: ٤٠، وتفسير المراغى: ١٥٦/٢ والتفسير الوسيط: ٣٦٣/٤.

(١٩٧) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: ٩٧/٢.

(١٩٨) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: ٩٧/٢.

(١٩٩) انظر تفسير آيات الأحكام بإشراف الشيخ محمد على السايس: ١٣٠/١.

(٢٠٠) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: ٩٧/٢.

(٢٠١) من أتى حائضا ؛ فقد كفر بما أنزل على محمد ١٥١.
رواه الترمذى فى الطهارة ح ١٣٥، وأبو داود فى الطب (٣٩٠٤)، وابن ماجه فى الطهارة (٦٣٩)، وأحمد (٩٠٢٥)، والدارمى فى الطهارة ح (١١٣٦).

(٢٠٢) يا رسول الله أصبت امرأتى وهى حائض ١٥١.
رواه البخارى (٦١٦٤، ٦٠٨٧)، وأحمد (٦٩٠٥).

(٢٠٣) تفسير القرطبى: ٨٧/٢ ، وتفسير الألوسى: ١٢٤/٢.

(٢٠٤) كانت اليهود تقول: إذا أتى الرجل امرأته من خلفها.
رواه البخارى فى التفسير (٤٥٢٨) ومسلم فى النكاح (١٤٣٥) وأبو داود فى النكاح (٢١٦٣) والترمذى فى التفسير (٢٩٧٧) وابن ماجه فى النكاح (١٩٢٥) والدارمى فى الطهارة (١١٣٢، ٢٢١٤) من حديث جابر، ورواه الترمذى فى التفسير (٢٩٧٩) وأحمد (٢٦١٠٣) من حديث ام سلمة.

(٢٠٥) فقه العبادات ، د. عبد الله شحاتة: ٦٩ ، نقلاً عن مذكرة الدكتور حامد الفوابى .

(٢٠٦) اصنعوا كل شيء إلا الجماع ١٥٢.
تقدم ص ١٤٩.

(٢٠٧) تفسير القرطبى: ٨٧/٣.

(٢٠٨) فقة العبادات د. عبد الله شحاتة ص: ٧٤.

(٢٠٩) شرح الرجل جاريته إذا وطئها نائمة على قفاها.

(٢١٠) شرى أمرهما (من باب رضى) عظم وتفاقم ولجوا فيه.

(٢١١) رواه أبو داود عن ابن عباس ، نقلاً عن تفسير للقرطبى: ٩٢/٣. وانظر أيضًا تفسير ابن كثير وغيره .

(٢١٢) تفسير القرطبى: ٩٥/٣، وقد ساق عددًا من الأحاديث النبوية لتأييد قوله .

(٢١٣) لا تأتوا النساء فى أعجازهن ١٥٤.
راوه الترمذى فى الرضاع (١١٦٤، ١١٦٥)، وأحمد (٦٥٧)، من حديث على بن طلق. رواه الدارمى فى الطهارة (١١٤٤) وفى النكاح (٢٢١٣)، وأحمد (٢١٣٤٧) من حديث خزيمة بن ثابت.

(٢١٤) المسند : ٧٦٧، ٨٥١٢، ٩٧٣١، ١٠٢٠٩ . وقد فصلنا تخريجه فى أولها وأسانيده صحاح ا.هـ نقلاً عن تعليق أحمد شاكر على عمدة التفسير لابن كثير : ١ - ١٠١

(٢١٥) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير تحقيق أحمد شاكر: ١٠٢/٢.

(٢١٦) من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها ١٥٦.
مسلم فى الأيمان (١٦٥٠/ ١٣)، والترمذى فى النذور والأيمان (١٥٣٠) وقال: «حديث أبى هريرة حديث حسن صحيح»، والنسائى فى الكبرى فى الأيمان والكفارات (٤٧٢٢/٢)، وكلهم عن أبى هريرة، وأبو داود فى الأيمان والنذور (٣٢٧٧)، والنسائى فى الكبرى فى الأيمان والنذور (٤٧٢٤/٤)، وكلاهما عن عبد الرحمن بن سمرة. وحديثه: لا نذر فى معصية ١٥٨ رواه أبو داود (٣٢٩٠، ٣٢٩٢)، والترمذى (١٥٢٥، ١٥٢٤) ، وابن ماجه (٢١٢٥) من حديث عائشة.

(٢١٧) تفسير الفخر الرازى: ٨٠/٦.

(٢١٨) من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه ١٥٨. رواه البخارى (٧٤٤٥) ، وأحمد (٢١٣٤١، ٢٩٣٦).

(٢١٩) تفسير القرطبى: ١٠٠/٣.

(٢٢٠) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير تحقيق أحمد شاكر: ١٠٥/٢.

(٢٢١) أبو داود: ٣٢٧٢. وهو حديث صحيح رواه ابن حبان فى صحيحه ٤٧٨/٦ (من مخطوطة الإحسان) ورواه الحاكم: ٣٠٠/٤ وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه . ووافقه الذهبى ا.هـ نقلاً عن عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير.

(٢٢٢) تفسير القرطبى: ١٠٣/٣.

(٢٢٣) تفسير آيات الأحكام بإشراف الشيخ محمد على السايس: ١٣٦/١.

(٢٢٤) أبو الأعلى المودودى ، تفهيم القرآن: ١/١٥٠ ، تعريب أحمد إدريس.

(٢٢٥) تفسير القرطبى: ٣/١٠٨.

(٢٢٦) أى: ليخيره بين مراجعة زوجته أو تطليقها .

(٢٢٧) تفسير القرطبى: ٣/١٠٥ ، وقد كان القرطبى مالكى المذهب يؤيد مذهب غيره أحياناً ويناصر مذهب المالكية فى أغلب الأحيان كما ترى هنا.

(٢٢٨) تفسير الكشاف: ١/٢٧١.

(٢٢٩) دعى الصلاة أيام أقرائك ١٦٢. رواه البخارى (٢٢٨، ٣٠٦، ٣٣١) ، ومالك (١٣٧) والنسائى (٢٠٢) ، وأبو داود (٢٨٢) من حديث عائشة.

(٢٣٠) إن طلقت المرأة فى الحيض ؛ لم تعتد بالحيض التى وقع فيها الطلاق بإجماع الفقهاء ولا تنتهى عدتها عند من يقول: إن القروء هى الحيضات إلا إذا حاضت بعد الحيضة التى طلقت فيها ثلاث حيضات كوامل، ومن طلقت فى طهر حسب هذا الطهر قرءا عند من يقول: إن الأقراء هى الأطهار ، فتعتد بعده بطهرين كاملين.

(٢٣١) تفسير الفخر الرازى: ٦/٩٤.

(٢٣٢) تفسير المنار: ١/٢٧١.

(٢٣٣) فى ظلال القرآن: ٢/٢٤٦.

(٢٣٤) تفسير آيات الأحكام للشيخ محمد على السايس: ١/١٣٩.

(٢٣٥) تفسير القرطبى: ٣/١٢٠.

(٢٣٦) أرشد الإسلام إلى بعث حكمين من أهل الزوجين، كما أرشد إلى أن الطلاق لا يصح أن يقع إلا فى طهر لم تجامع المرأة فيه وهى أمور مع غيرها تؤخر الطلاق وتجعله لا يتم إلا فى أضيق الحدود .

(٢٣٧) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير تحقيق أحمد شاكر: ٢/١١١.

(٢٣٨) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير تحقيق أحمد شاكر: ٢/١١١.

(٢٣٩) عمدة التفسير تحقيق أحمد شاكر: ٢/١١١.

(٢٤٠) تفسير القرطبى: ٣/١٢٤.

(٢٤١) تفسير القرطبى: ٣/١٢٤.

(٢٤٢) مجلة لواء الإسلام السنة السادسة العدد ٣، تفسير القرآن الكريم لفضيلة الأستاذ الشيخ: محمد أبو زهرة .

(٢٤٣) أمرنى ربى أن أعفى لحيتى وأحفى شاربى ١٦٥. ذكره الهندى فى الكنز (١٧٢٤٨) عن ابن سعد عن عبد الله بن عبد الله مرسلا ، بلفظ: لكن ربى أمرنى أن أحفى شاربى وأعفى لحيتى.

(٢٤٤) يريد به: استعمال الخلال وهو من السنة .

(٢٤٥) أى: إزالة الأوساخ والاستحمام .

(٢٤٦) تفسير القرطبى: ٣/ ١٢٤.

(٢٤٧) هامش صفحة ٩١ تفسير سورتى فاتحة الكتاب والبقرة . هدية مجلة منبر الإسلام عدد ربيع الآخر سنة ١٢٩٠هـ (تفسير المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة).

(٢٤٨) تفسير القرطبى: ٣/١٢٦.

(٢٤٩) التفسير الوسيط ، مجمع البحوث الإسلامية ٤/٣٧٨.

(٢٥٠) تفسير القرطبى: ٣/١٣٠ ، وتفسير آيات الأحكام للشيخ محمد على السايس وعلق على هذا الحديث بقوله: وإمضاء الثلاث إبطال للرخصة الشرعية والرفق المشار إليه بقوله - تعالى: ﴿ ... لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾ (الطلاق: ١)

(٢٥١) المسند: ٥/٢٨٣ (حلبى) ، وأبو داود: ٢٢٢٦. وابن ماجه: ٢٠٥٥ . والطبرى: ٤٨٤٤. والحاكم: ٢/٢٠٠ والبيهقى: ٧/٣١٦. وصححه الحاكم والذهبى ، وفى الفتح: ٩/٣٥٤ ، أنه: « صححه ابن خزيمة وابن حبان » اهـ نقلاً عن هامش عمدة التفسير الحافظ ابن كثير: ٢/١١٣.

(٢٥٢) المختلعات والمنتزعات: هن المنافقات ١٦٩. ذكره الهيثمى فى المجمع (٧٥٣٦) وقال: وعن عقبة بن عامر مرفوعًا: إن المختلعات والمنتزعات هن المنافقات . رواه الطبرانى وفيه قيس بن الربيع وثقه الثورى وشعبة وفيه ضعف ، وبقية رجاله رجال الصحيح . رواه الترمذى (١١٩٨) من حديث ثوبان وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه ، وليس إسناده بالقوى.

(٢٥٣) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير باختصار وتصرف: ٢/١١٥-١١٦.

(٢٥٤) القضاء أى : حكم القاضى ، أى: ولا يجوز ديانة فيما بينه وبين الله ؛ لأنه أكل أموال الناس بالباطل.

(٢٥٥) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: ٢/١١٦.

(٢٥٦) فتح البارى: ٩/٣٤٩ - ٣٥٤ . وفى بعض طرق الحديث أنها قالت: (لا أطيقه يعنى: بغضًا) وهذا الحديث من إفراد البخارى من هذا الوجه دون مسلم ، نص على ذلك الحافظ فى الفتح: ٩/٤٣٦ نقلاً عن هامش عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: ٢/١١٥. وقد ورد أيضًا فى تفسير القرطبى: ٣/١٣٩ والتفسير الوسيط لمجمع البحوث ، حزب: ٤/٣٨٠

(٢٥٧) التفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، الحزب الرابع ، ص ٣٨٠ .

(٢٥٨) اسمها : جميلة بنت عبد الله بن أبى ابن سلول والروايات فيها (حبيبة بنت سهل الأنصارى)، (وجميلة بنت عبد الله بن أبى ابن سلول) وانظر هامش عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير : ٢/١١٤.

(٢٥٩) تفسير القرطبى: ٣/١٣٩ ، وتفسير آيات الأحكام للشيخ محمد على السايس: ١/١٤٤.

(٢٦٠) تفسير القرطبى: ٣/١٣٩.

(٢٦١) تفسير القرطبى ، المسألة الحادية عشرة: ٢/١٤٣ - ١٤٤.

(٢٦٢) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير تحقيق أحمد شاكر ، وقد ذكر فى الهامش أن هذا الحديث ورد فى السند: ٦/٣٤ (حلبى) وصحيح مسلم ١/٤٠٧ - ٤٠٨ ورواه الطبرى ٤٨٩٣ من طريق عبد الرزاق. وذكره الحافظ ابن كثير فى تفسيره بروايات متعددة من الصحيحين وغير و(عبدالرحمن بن الزبير) بفتح الزاى وكسر الباء صحابى معروف من بنى قريظة مترجم فى الإصابة وغيرها. وحديث: لا حتى تذوقى عسيلته ١٧٢ . البخارى (٥٢٦٠، ٥٢٦١، ٥٣١٧، ٥٧٩٢، ٦٠٨٤) ، مسلم (١٤٣٣) ، وأبو داود (٢٣٠٩) ، وأحمد (٢٥٠٧٦)، والنسائى (٣٤٠٧) من حديث عائشة .

(٢٦٣) تفسير القرطبى: ٣/١٤٨.

(٢٦٤) لعن رسول الله الواشمة ١٧٣ .

رواه البخارى فى كتاب البيوع (٢٠٨٦، ٢٢٣٨) ، وفى الطلاق (٥٣٤٧) وفى اللباس (٥٩٤٥، ٥٩٦٢) عن عون بن أبى جحيفة عن أبيه قال: لعن النبى صلى الله عليه وسلم الواشمة والمستوشمة، وآكل الربا وموكله ، ونهى عن ثمن الكلب ، وكسب البغى ، ولعن المصورين.

(٢٦٥) ابن ماجه: ١٩٣٦ ، وإسناده صحيح اهـ نقلاً عن هامش عمدة التفسير.

(٢٦٦) المسند: ٨٢٧٠ . وفى الزوائد: ٤/٢٦٧: هامش عمدة التفسير.

(٢٦٧) المستدرك ٢/١٩٩ . ولكن الذى فيه « صحيح على شرط الشيخين ».

(٢٦٨) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: ٢/١٢٠.

(٢٦٩) مفردات القرآن صفحة ٦٠٢١١ للراغب الأصفهانى .

(٢٧٠) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: ٢/١٢١.

(٢٧١) يقول أحدكم: قد طلقت قد راجعت ١٧٥.

قال الديلمى فى فردوس الأخبار: وعن أبى موسى رفعه: ما بال أحدكم يلعب بحدود الله ويقول: قد طلقت قد راجعت. ولعل ذلك حيث لم يوجد ما يقتضيه ، وعليه يحمل قولهم « الطلاق يمين الفساق» ، أو لعله محمول على الزجر ، وإلا فليس الطلاق مفسقًا على إطلاقه؛ فتأمل.

(٢٧٢) ثلاث جدهن جد ١٧٦.

رواه أبو داود (٢١٩٤) والترمذى (١١٩٥) وابن ماجه (٢٠٣٩) من حديث أبى هريرة . وقال الترمذى: هذا حديث حسن غريب ، والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وغيرهم.

(٢٧٣) الترمذى: ٤/٧٨ ، والحديث رواه البخارى مطولاً ومختصرًا: ٨/١٣٤ ، ٩/١٦٠-١٦١ ورواه أبو داود ، وابن ماجه وابن أبى حاتم ، وابن جرير. انظر هامش عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: ٢/١٢٣.

(٢٧٤) تفسير القرطبى: ١٥٨/٣ - ١٥٩ .

(٢٧٥) هامش عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير للمحقق أحمد شاكر: ١٢٤/٢.

(٢٧٦) حاشية الجمل على الجلالين: ١٨٨/١.

(٢٧٧) تفسير النسفى: ٩٢/١.

(٢٧٨) تفسير الألوسى: ١٤٧/١.

(٢٧٩) فى ظلال القرآن: ٢٠٩/٢.

(٢٨٠) انظر تفسير الآية الكريمة لفضيلة الأستاذ الشيخ: محمد أبو زهرة فى مجلة لواء الإسلام ، العدد الثامن ، السنة السادسة ، سنة ١٩٥٢م.

(٢٨١) لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث ١٨٥ .
رواه البخارى (١٢٨٠، ٥٣٣٤) ، ومسلم (١٤٨٦) وأبو داود (٢٢٩٩) ، والترمذى (١١٩٥) ، الدارمى (٢٢٨٤) ، وأحمد (٢٦٢٢٥) من حديث رملة بنت أبى سفيان . ورواه البخارى (٥٣٣٥) وأبو داود (٢٢٩٩) ، وأحمد (٢٦٢١٤)، والترمذى (١١٩٦) من حديث زينب بنت جحش . ورواه البخارى (٥٣٤٣) من حديث نسيبة بنت كعب.

(٢٨٢) رواه البخارى وغيره عن ابن عباس .

(٢٨٣) تفسير القرطبى: ١٨٨/٣ .

(٢٨٤) تفسير القرطبى: ١٩٦/٣ .

(٢٨٥) تفسير الكشاف للزمخشرى: ٢٨٦/١ ، بتصرف يسير.

(٢٨٦) تفسير الفخر الرازى: ١٥٧/٦.

(٢٨٧) شغلونا عن الصلاة الوسطى ١٩٢ . رواه مسلم (٦٢٧) وأحمد (٩٩٧) والنسائى (٤٧٣).

(٢٨٨) انظر تفسير المنار: ٣٣٣/٢.

(٢٨٩) سورة النساء: ١٠٢ وهى: ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ .

(٢٩٠) فرض الله الصلاة على لسان رسوله فى الحضر أربعًا ١٩٣ . رواه البخارى (٣٥٠) ومسلم (٦٨٥) والنسائى (٤٥٤) من حديث عائشة.

(٢٩١) انظر تفسير الكشاف للزمخشرى ٢٨٩/١، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث الإسلامية: ٤٠٨/٤.

(٢٩٢) أخرجه أبو داود فى كتاب الطلاق ، باب نسخ متاع المتوفى عنها زوجها بما فرض لها من الميراث .

(٢٩٣) تفسير ابن كثير: ٢٩٧/١.

(٢٩٤) تفسير الفخر الرازى: ١٨٦/٦، وانظر تفسير المنار: ٤٤٢/٢ فقد عرض رأى الجمهور ثم عرض رأى من خالفه وهما مجاهد وأبو مسلم وناقش الآراء ورجح قول أبى مسلم على قول مجاهد.

(٢٩٥) تفسير ابن كثير: ٢٩٧/١.

(٢٩٦) فى ظلال القرآن: ٢٢٢/٢.

(٢٩٧) حاشية الجمل: ٢٠١/١.

(٢٩٨) تفسير المنار: ٤٧٠/٢.

(٢٩٩) تفسير المنار: ٤٧٠/٢.

(٣٠٠) تفسير المنار: ٤٧١/٢.

(٣٠١) تفسير الكشاف: ٢٩٣/١.

(٣٠٢) تفسير ابن كثير: ٣٠١/١.

(٣٠٣) الهيم: الإبل التى يصيبها داء فلا تروى من الماء ، واحدها: أهيم والأنثى: هيماء.

(٣٠٤) تفسير القرطبى: ٣/٣٥٤.

(٣٠٥) فى ظلال القرآن بقلم سيد قطب: ٢/٢٢٩.

★ ★ ★

تمت الهوامش وتخريج الأحاديث

بحمد الله وبها تم

الجزء الثانى

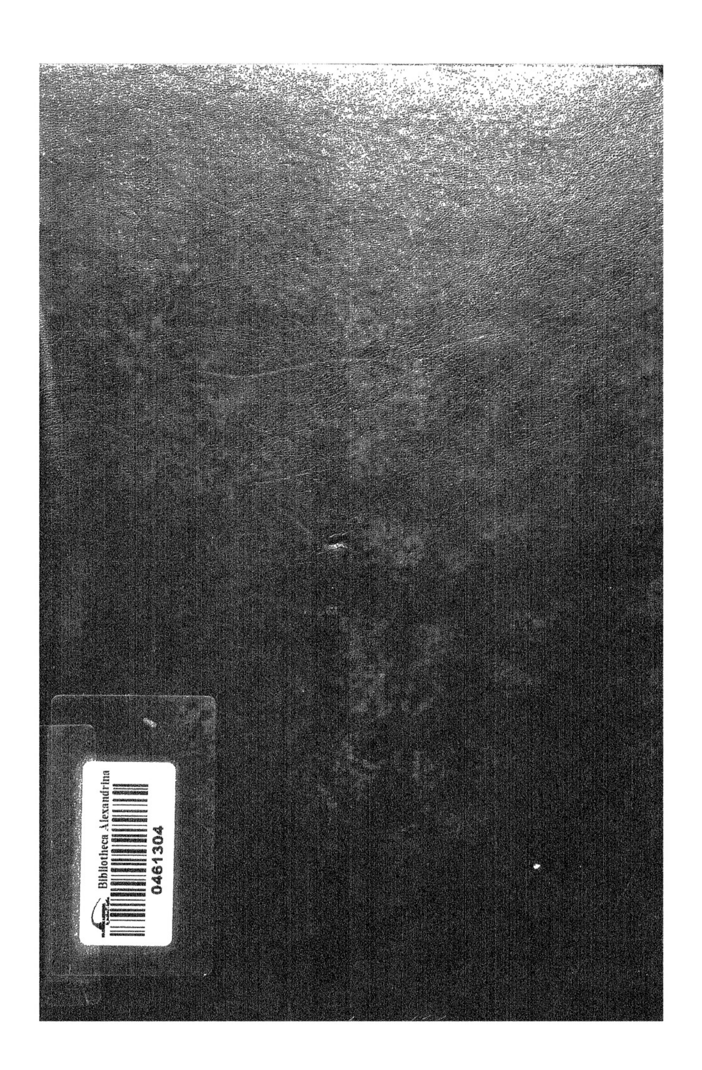
محتويات الكتاب

الموضـــوع	الآيـــة	رقمهـــا	رقم الصفحة
قـول السـفـهـاء	سيقول السفهاء من الناس	١٤٢	٢٠٥
أمـة وسـط	وكـذلك جعلناكم أمـة وسطا	١٤٣	٢٠٧
القـبـلـة	قد نرى تقلب وجهك فى السماء	١٤٤	٢٠٩
عـنـاد	ولـئـن أتـيـت ...	١٤٥	٢١١
مـعـرفـتهم للنبى (ﷺ)	الذين آتيناهم الكتـاب	١٤٦، ١٤٧	٢١٣
لكلٍّ وجـهـة	ولكلٍّ وجـهـة هو مـولّيـهـا	١٤٨	٢١٥
الاتجـاه إلى الكعـبـة	ومـن حـيـث خـرجت	١٤٩، ١٥٠	٢١٦
الرسـول الهـادى	كـمـا أرسلنا فيكم رسولا منكم	١٥١	٢١٩
الذكـر والشكـر	فـاذكـرونى أذكـركم	١٥٢	٢٢١
الصـبـر والصـلاة	يـا أيهـا الذين آمنوا	١٥٣	٢٢٢
حـيـاة الشـهـداء	ولا تقـولوا لمن يقـتـل	١٥٤	٢٢٣
بشـرى للصـابرين	ولـنـبـلونـكـم بـشـىء ..	١٥٥-١٥٧	٢٢٤
الصـفـا والمروة	إن الصـفـا والمروة	١٥٨	٢٢٧
كـتـمـان العلم	إن الذين يكتـمـون	١٥٩، ١٦٠	٢٣٠
عـذاب الكافـرين	إن الذين كـفـروا	١٦١، ١٦٢	٢٣٢
إلـه واحـد	وإلـهـكـم إلـه واحـد	١٦٣	٢٣٣
دلائـل الإيمـان	إن فـى خلق السـمـوات	١٦٤	٢٣٤
من مـشـاهد القـيـامـة	ومـن الناس من يتـخـذ	١٦٥-١٦٧	٢٣٩
أكـل الحـلال	يـا أيـهـا النـاس كـلـوا	١٦٨، ١٦٩	٢٤٢
التـقـليـد الأعـمـى	وإذا قـيل لهم اتبـعـوا	١٧٠	٢٤٤
ضـلال الكفـار	ومـثـل الذين كـفـروا	١٧١	٢٤٥
تحـريم الميـتـة والدم	يـا أيهـا الذين آمنوا كلوا	١٧٢، ١٧٣	٢٤٧
جـزاء من كـتم العلم	إن الذين يكتـمـون	١٧٤-١٧٦	٢٥٠
البـر	ليس البـرَّ	١٧٧	٢٥٣

الموضوع	الآية	رقمها	رقم الصفحة
القصاص	يا أيها الذين آمنوا كتب	١٧٨، ١٧٩	٢٥٩
الوصية	كتب عليكم إذا حضر	١٨٠-١٨٢	٢٦٤
الصيام	يا أيها الذين آمنوا كتب	١٨٣، ١٨٤	٢٦٧
شهر رمضان	شهر رمضان الذى	١٨٥	٢٧٢
الدعاء	وإذا سألك عبادى	١٨٦	٢٧٦
ليلة الصيام	أحل لكم ليلة الصيام	١٨٧	٢٧٧
الرشوة	ولا تأكلوا أموالكم بينكم	١٨٨	٢٨٢
الأهلة	يسألونك عن الأهلة	١٨٩	٢٨٤
القتال	وقاتلوا فى سبيل الله	١٩٠-١٩٣	٢٨٦
الشهر الحرام	الشهر الحرام بالشهر الحرام	١٩٤، ١٩٥	٢٩٠
الحج والعمرة	وأتمو الحج والعمرة للّه	١٩٦	٢٩٥
أشهر الحج	الحج أشهر معلومات	١٩٧	٣٠٠
عرفات	ليس عليكم جناح	١٩٨	٣٠٢
الإفاضة	ثم أفيضوا	١٩٩	٣٠٥
حسنة الدنيا والآخرة	فإذا قضيتم مناسككم	٢٠٠-٢٠٢	٣٠٦
ذكر اللّه	واذكروا اللّه	٢٠٣	٣٠٩
نموذج من الناس	ومن الناس من يعجبك	٢٠٤-٢٠٧	٣١١
السلام فى الإسلام	يا أيها الذين آمنوا	٢٠٨، ٢٠٩	٣١٧
من مشاهد القيامة	هل ينظرون	٢١٠	٣١٩
تبديل النعم	سل بني إسرائيل	٢١١	٣٢٠
سخرية	زين للذين كفروا	٢١٢	٣٢٢
أمة واحدة	كان الناس أمة واحدة	٢١٣	٣٢٤
ابتلاء المؤمنين	أم حسبتم	٢١٤	٣٢٧
تنظيم الصدقات	يسألونك ماذا ينفقون	٢١٥	٣٢٩

الموضوع	الآية	رقمها	رقم الصفحة
القتال	كتب عليكم القتال	٢١٦، ٢١٧	٣٣١
ثواب الجهاد	إن الذين آمنوا	٢١٨	٣٣٦
الخمر والميسر	يسألونك عن الخمر والميسر	٢١٩، ٢٢٠	٣٣٧
نظام الأسرة			٣٤٧
تحريم الزواج من المشركات	ولا تنكحوا المشركات	٢٢١	٣٤٨
أحكام الحيض	ويسألونك عن المحيض	٢٢٢، ٢٢٣	٣٥٢
اليمين والإيلاء	ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم	٢٢٤-٢٢٧	٣٥٩
عدة المطلقة	والمطلقات يتربصن	٢٢٨	٣٦٥
الطلاق والخلع	الطلاق مرتان	٢٢٩	٣٧٠
من أحكام الطلاق	فإن طلقها فلا تحل	٢٣٠	٣٧٥
الإمساك بالمعروف	وإذا طلقتم النساء فبلغن	٢٣١	٣٧٨
حق اختيار الزوج	وإذا طلقتم النساء فبلغن	٢٣٢	٣٨١
الرضاعة	والوالدات يرضعن أولادهن	٢٣٣	٣٨٤
عدة المتوفى عنها	والذين يتوفون منكم	٢٣٤	٣٨٨
التعريض بالخطبة	ولا جناح عليكم فيما عرَّضتم به	٢٣٥	٣٩٠
الطلاق قبل الدخول	لا جناح عليكم إن طلقتم	٢٣٦	٣٩٣
نصف المهر	وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن	٢٣٧	٣٩٥
المحافظة على الصلاة	حافظوا على الصلوات	٢٣٨، ٢٣٩	٣٩٦
المتعة والنفقة	والذين يتوفون	٢٤٠-٢٤٢	٣٩٩
الموت والحياة بيد الله	ألم تر إلى الذين خرجوا	٢٤٣	٤٠٣
فضل القتال والصدقة	وقاتلوا فى سبيل الله	٢٤٤، ٢٤٥	٤٠٥
رغبة فى القتال	ألم تر إلى الملإ	٢٤٦	٤٠٨
مؤهلات الملك	وقال لهم نبيهم	٢٤٧، ٢٤٨	٤١٠
اختبار الجنود	فلما فصل طالوت بالجنود	٢٤٩-٢٥١	٤١٤
آيات الله	تلك آيات الله نتلوها	٢٥٢	٤١٨

تم بحمد الله الجزء الثانى . ويليه الجزء الثالث بإذن الله


Bibliotheca Alexandrina
0461304